

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

المحتويات

٧	كلمة الافتتاح
٩	كلمة التحرير
	د. محمد عثمان عبد الجليل
١٥	الدور السياسي للأطباء في العصر البيزنطي الباكر
	أ.د. محمد بن صامل السلمي
٢٩	فتح مكة والسرايا التي تلتها " دراسة تاريخية وصفية "
	د. إبراهيم فرغل محمد
٦٧	الخلفية وحركتهم الانفصالية في طرابلس الغرب وجبل نفوسة (١٩٦-٢٩٤هـ/ ٨١١-٩٠٧م)
	د. مملوح محمد حسن
١٣٣	القضاء في الصعيد الأعلى خلال المهددين الفاطمي والأيوبي
	د. محمد علي دبور
١٧٣	القدس في رحلة القاضي أبي بكر ابن العربي الأندلسي
	د. عبير زكريا سليمان
٢٠٥	الإسلام وتنوع الهوية دراسة في الأبعاد الاجتماعية والثقافية والسياسية الأندلس نمونجا
	د. صلاح علي عاشور
٢٤٥	مدارس خورسان في العصر السلجوقي
	د. محمد طه بن صلاح بكري
٢٨٧	الصليبيون وإنشكالية العلاقة مع العباسيون (٢٥٤-٢٩٦هـ/ ٨٦٨-٩٠٨م)
	د. وفاء مختار غزالي علي
٣٢٣	تاريخ المسلمين في فراكنيتوم (٢٧٧ - ٣٦٥هـ/ ٨٩٠ - ٩٧٥م)
	د. آمال حسن عبد الحافظ
٣٥٧	معركة ميركيفا ليون ٥٧١هـ/ ١١٧٦م بين سلاجقة الروم والامبراطورية البيزنطية

٤٠٣	د. مصطفى حبشي محمد زهران البصرة والخليج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.
٤٢٧	د. ناهد عبد الكريم آل عبد الكريم القدس والقضية الفلسطينية في الصحافة العربية الصائبة في زنجبار عامي ١٩٣٨- ١٩٣٩ صحيفة الفلق نمونجا.
٤٥٩	د. هيا عبد المحسن محمد البابطين القدس في حرب ١٩٤٨م.

الدور السياسي للأطباء في العصر البيزنطي الباكر د. محمد عثمان عبد الجليل (*)

مقدمة:

لقد أسهمت الإمبراطورية البيزنطية، خلال عمرها الذي جاوز الأحد عشر قرناً، بدور عظيم في تاريخ البشرية، قدم خلاله شعبها الكثير من الجوانب الحضارية، والتي تخطت في كثير من الأحيان الحدود الجغرافية للإمبراطورية.

وبطبيعة الحال فليس غريباً على إمبراطورية يمثل هذا الحجم وهذه المكانة، أن تتجيب رجالاً عظاماً أسهموا بفكرهم وجهدهم في مجالات عديدة، ومنها مجال الطب، والشئ الجدير بالذكر أن هناك فئة غير قليلة من الأطباء البيزنطيين تعدي نشاطهم مجال الطب ومارسوا إلى جانب ذلك أنشطة أخرى تميزوا فيها مثلما تميزوا في مجال تخصصهم، فهناك من عمل في مجال الهندسة والعمارة، وهناك من انخرط في السلك الكنسي، وهناك أيضاً من انخرط في مجال العمل السياسي.^(١) وقد وقع اختيار الباحث على موضوع " الدور السياسي للأطباء في العصر البيزنطي الباكر " وتتناول هذه الدراسة الأدوار السياسية التي أسهم فيها الأطباء سلباً وإيجاباً، وقياس مدى الاستفادة التي تحققت للإمبراطورية من هذه الأدوار.

وتكمن صعوبة هذا الموضوع في ندرة الكتابات التي تناولته، سواء في المصادر أو المراجع الحديثة. وأقرب الدراسات التي تناولت هذا الموضوع؛ تلك الدراسة التي قام بها المؤرخ بولكلي Blockly بعنوان " الأطباء كدبلوماسيين في القرن السادس الميلادي ". ويؤخذ على تلك الدراسة أنها اقتصرت على دور واحد للأطباء كمسؤولين، خلال قرن واحد فقط وهو القرن السادس الميلادي. بينما تهدف هذه الدراسة إلى إبراز وتوضيح مختلف الأدوار السياسية وليس دوراً واحداً للأطباء.^(٢)

(*) أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة بورسعيد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأطباء كانوا يتمتعون بمكانة هامة في المجتمع البيزنطي، برغم ما تعرضوا له من حملات للتنشيط والتشكيك في قدراتهم الطبية، التي قادها ضدهم كتاب الهيوغرافي Halography^(٣). وذلك بقصد الدعاية والترويج للقديسين المعالجين، بوصفهم الأطباء الحقيقيين، في مواجهة من أطلقوا عليهم أدياء العلاج (المقصود بهم الأطباء). وكان هدفهم من وراء رسم تلك الصورة السلبية للأطباء التقليديين؛ أفراد سيطرة القديسين دون غيرهم على علاج المرضى. وبرغم أن الترويج لمثل هذه الحملة في مجتمع كان الدين والمعتقدات الدينية يمثلان ركنا أساسيا في حياته في مختلف طبقاته، فإن ذلك لم يكن ذا تأثير بالغ على نظرة الإدارة البيزنطية أو الكنيسة أو المجتمع البيزنطي للأطباء. ولذلك فقد احتضن البلاط البيزنطي أمهر الأطباء، وكذلك امتلأت الكنائس والأديرة بالأطباء الذين أسهموا بجهودهم في علاج المرضى ورعايتهم.

وجدير بالذكر أن انتشار المسيحية، والحماية التي كفلها الإمبراطور قسطنطين Constantine I (٣٢٣-٣٣٧ م) وأبناءه لها، لم تمنع تواجد الوثنية في بعض أرجاء الإمبراطورية. وفي بيرجاموس Pergamus إحدى هذه المعاقل الموجودة، في آسيا الصغرى، والتي ارتحل إليها جوليان Julian عام ٣٥١ م، لتلقي تعاليم الفلسفة الأفلاطونية على يد ايدسيوس Aidesios أحد أساتذتها المشهورين في ذلك الوقت، كان لقاءه بالطبيب الفيلسوف أوريباسيوس البرجاسي Oribasius of pergamum (٤). ومنذ تلك اللحظة ارتبط أوريباسيوس ارتباطا وثيقا بجوليان، وكان من القلائد العالمين بوثنية جوليان. وكان اعتناق جوليان للوثنية سرا دفينا لم يكن على علم به إلا المخلصون له، وكان هؤلاء، طبقا لرواية إدوارد جيبون Gibbon، ينتظرون اللحظة التي ينال فيها جوليان الفرصة التي تحقق آمال الوثنيين في استعادة الوثنية لمكانتها من جديد^(٥).

ووفقا لما أشارت إليه المصادر؛ فإن أوريباسيوس الذي صاحب جوليان في حملته على غالبية كطبيب، أسهم بدور سياسي فعال تمكن خلاله من تصعيد رفيقه إلى عرش الإمبراطورية البيزنطية، على حساب منافسه الإمبراطور قسطنطيوس الثاني Constantus II (٣٧٧ - ٣٦١ م). وعن السبل والوسائل التي استخدمها أوريباسيوس من أجل ذلك يجملها المؤرخ اينابيوس Enapius في قوله "كان يتمتع بفضائل أخرى مكنته من أن يساعد جوليان لأن يكون إمبراطورا"^(٦). وبرغم غموض تلك العبارة التي حالت دون تفسير ذلك الدور، فيرجح الباحث إن تلك الفضائل تمثلت في تقديم المشورة، ورسم السياسة التي مكنت جوليان من الوصول إلى العرش. وكان أهمها بطبيعة الحال الاستحواذ على ثقة القوات المرافقة له، والتي استطاع من خلالها

أن يعلن نفسه (من طرف واحد) في البداية إمبراطورا مشاركاً عام ٣٦٠م. وإمام تصاعد تلك الأزمة لم يكن هناك خيار سوي اشتعال الحرب الأهلية بين الطرفين، والتي لم يخمدها سوي موت قسطنطينوس، واعتلاء جوليان العرش في الثالث من نوفمبر ٣٦١م^(٧).

وبانفراد جوليان بعرش الإمبراطورية (٣٦١-٣٦٣م) اتسع نفوذ أوريباسيوس السياسي، فألحى جانب كونه مستشاراً للإمبراطور، تولى أيضاً منصب الكويستور Quæstor^(٨) وهي وظيفة تتعلق بأمور التشريع وصياغة القوانين والقرارات الإمبراطورية، كما اختص أيضاً بتلقي المظالم المقدمة للإمبراطور. واستمر أوريباسيوس في ممارسة عمله السياسي حتى كانت الطغنة التي أودت بحياة الإمبراطور، أثناء حروبه مع الفرس في يونيو ٣٦٣م، وكانت سبباً أيضاً في إنهاء الحياة السياسية لأوريباسيوس. حيث قام الإمبراطور جوفيان Jovian (٣٦٣-٣٦٤م) بتجريدته من منصبه ونفيه خارج القسطنطينية، على خلفية وشاية وصلته بأن أوريباسيوس لم يكن راضياً عن اختيار جوفيان خليفة لجوليان. وظل في منفاه حتى أعاده الإمبراطور فالنتينيان الأول Valentinian (٣٦٤-٣٧٥م) ليزاول عمله كطبيب، دون التطرق إلى مجال العمل السياسي، واستمر على ذلك حتى عام ٣٦٥م^(٩).

ويمكن القول بأنه رغم نجاح أوريباسيوس، على المستوي الشخصي، في أداء دوره السياسي وتجاخه في تغير الأوضاع السياسية والدينية داخل الإمبراطورية، فإن هذا الدور كان ذا تأثير سلبي على الإمبراطورية إلى حد ما. لأن معنى استمراره على الوضع السابق لسنوات أكثر من ذلك، كان من الممكن أن يعود بعقارب الساعة إلى الوراء بترسيخ الوثنية من جديد. إلى جانب العرود السياسي السيئ على الإمبراطورية، فالهزيمة التي حاققت بالإمبراطورية، على يد جوليان، كانت سبباً في فرض صلح مهين عليها.

على أية حال، لم تترك الصورة السلبية التي خلفها أوريباسيوس، برغم خطورتها، مردوداً سيئاً لذي الأباطرة البيزنطيين تجاه الأطباء، فلم يخل ذلك دون تواجدهم والاستعانة بهم في البلاط الإمبراطوري. ونفس الشيء بالنسبة للاستعانة بهم في مجال العمل السياسي.

رغب الإمبراطور فالنتينيان الثاني Valentinian II (٣٧٥-٣٩٢م) في تحسين الأوضاع في إفريقية، وبعد بحث وتمحيص، وقع اختياره على الطبيب فندكيانوس vindicianus. وكان اختيار الإمبراطور له يعود لعدة أسباب، فألحى جانب ما لمسه فيه من ثقافة وحسن التصرف في الأمور، وكذلك إتقانه لأكثر من لغة، فإن أصوله

الإفريقية رجحت اختياره لتولي منصب البروقنصل^(١٠) لإفريقيه (٣٧٩-٣٨٢م) نظرا لكونه أكثر دراية بهذه المنطقة عن غيره، وفي نفس الوقت لن يكون دخيلا على سكان المنطقة، مما يسهل من أداء مهمته. وبالفعل فقد استطاع خلال هذه الفترة من أداء مهمته الإدارية على خير وجه^(١١) كما أنه استطاع أيضا، وبمشاركة القديس أوغسطين St. Augustin^(١٢) من أحياء الحركة الفكرية والثقافية في قرطاج من جديد، حيث شكلا ثنائيا ثقافيا غير عادي، وقد وصفه القديس أوغسطين بأنه رجل صاحب فكر عميق. ولم تشر المصادر لأحداث أخرى في حياة فندكياتوس^(١٣).

وقد تكرر ذلك الموقف بعد عدة سنوات، فالشهرة التي نالها الطبيب مارسيللوس Marcellus of Bardeaux في مجال عمله، كانت سببا في أن يكون الطبيب الخاص للإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosios I (٣٧٩-٣٩٥م). وخلال ممارسته لعمله، وقربه من الإمبراطور، لمس فيه الكفاءة التي جعلته يصدر مرسوما بتعيين مارسيللوس في منصب رئيس دواوين الحكومة المركزية Magister officiorum^(١٤). وكان من مهام صاحب هذا المنصب. التفاوض في بعض المسائل السياسية التي تخص الإمبراطورية. ونتيجة لنجاحه في مهام عمله؛ استمر في نفس منصبه في عهد الإمبراطور أركاديوس Arcadius (٣٩٥-٤٠٨م).^(١٥)

وهكذا فقد شهد القرن الرابع الميلادي ثلاثة أدوار سياسية مختلفة للأطباء. والملاحظ خلال ذلك أن العامل المشترك في اختيار هؤلاء الأطباء، لأداء مهامهم السياسية، يعود إلى كونهم من الصفوة المقربة إلى الأباطرة، حيث ساعد ذلك على التعرف على إمكانياتهم عن قرب.

على أية حال، كان لتصاعد الأحداث في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، ورغبة الإمبراطور ليو الأول Leo I (٤٥٧-٤٧٤م) في التخلص من نفوذ اسبار Aspar والقوط الشرقيين، أن قام بالاستعانة بعنصر الإيسوريين Isaurians ليحل محل القوطيين^(١٦). وإكمالا لعملية الإحلال والتجديد؛ قام بإصدار تعيينات من أجل استعادة السيطرة على الأمور تماما. وكان ضمن من نال شرف التعيين في المناصب الجديدة: الطبيب يعقوب القليلقي Jocabus the Cilician، والذي كان يعمل كبيراً للأطباء Archiatros في القصر الإمبراطوري، حيث تم تعيينه قوماً comes^(١٧). وبرغم أن المصادر لم تتناول تقييمهما وأقبا للأداء السياسي ليعقوب، فإننا من الممكن أن نستشف حسن أدائه وتقدير الجميع له، من خلال تكريم مجلس السناتو له بإقامة تمثال له تقديرا لجهوده^(١٨).

وجدير بالذكر فإن الإمبراطور زينون Zeno (٤٧٤-٤٩١م) قد تعرض لحركة تمرد قادها ضده صهره باسيليكوس Basiliscus (٤٧٥-٤٧٦م)، ويتدعيم من فيرينا Verina زوجة، تمكن الإمبراطور زينون، وبعض أعضاء السناطو، تمكن من اغتصاب العرش لفترة مؤقتة في خريف عام ٤٧٤م. وكان صعبا على باسيليكوس الاحتفاظ بغالبية القادة والموظفين التابعين للإمبراطور خشية التمرد عليه. فأحدث بعض التغيرات، وكان من بين المعينين الجدد الطبيب ثيوكتسيوس Theoctisus الذي عين رئيسا لداووين الحكومة المركزية. (19)

وعلى ما يبدو أن هذا الاختيار لم يكن موفقا، فقد استغل ثيوكتسيوس الثقة التي أولاها له باسيليكوس في تحقيق مكاسب شخصية على حساب الإمبراطور. فقد أوعز للإمبراطور المغتصب بأهمية كسب تأييد سكان الولايات الشرقية من أصحاب المذهب المونوفيزي Monophysitism (20) حتى يضمن استقرار الأمور الداخلية بالإمبراطورية. واستجاب باسيليكوس بالفعل لهذا المطلب، وانتصر لأصحاب هذا المذهب بأن أصدر منشورا ضد مجمع خلقدونية ورسالة البابا ليو الأول Leo I (٤٤٠-٤٦١م) وجعل مذهب الطبيعة الواحدة المذهب الأول بالإمبراطورية وأجبر البطريرك اكاكيوس Acacius (٤٧٢-٤٨٩م) على تقبل ذلك الوضع (٢١). كما أعاد كلا من تيموثاوس الثاني Timothy II (٤٥٥-٤٧٧م) لكرسي الاسكندرية، وبطرس القصار peter the fuller لكرسي انطاكية (٢٢).

ورغم ما كان يديه ثيوكتسيوس، ظاهريا، من حرص على مصلحة الإمبراطور والإمبراطورية معا، فإن تصرفه ونواياه كانتا عكس ذلك. حيث يشير المؤرخ السرياني زكريا المتليني؛ إلى أن ثيوكتسيوس كان يهدف من وراء ذلك إلى وضع تيموثاوس على رأس الجهاز الكنسي في القسطنطينية. وقد بذلا كلاهما جهدا كبيرا بما في ذلك الرشوة، حسب رواية يوحنا النقيوسي John of Nikius، حتى يمكن من جلوس تيموثاوس على كرسي القسطنطينية، على حساب اكاكيوس. وكادت تلك المحاولة أن تنجح، لولا الضغوط الشعبية التي مارسها سكان القسطنطينية، بعدما تفهموا تلك الحيلة. وترتب على ذلك أيضا عودة باسيليكوس إلى الخلقدونية لإرضاء سكان القسطنطينية، وفي النهاية تبذرت أحلام ثيوكتسيوس، حيث استعاد زينون العرش، وادي ذلك بطبيعة الحال إلى اختفاء ثيوكتسيوس من مسرح الأحداث. ولم تشر المصادر إلى ما آل مصيره بعد ذلك (٢٣).

ومما تجدر الإشارة إليه فإن النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي شهد أيضا نشاطا ملحوظا للقوط الشرقيين Strogoths بعد أن تحرروا من تبعية الهون Huns، بعد انهيار مملكتهم وتفرقها بوفاة زعيمهم اتिला Attila عام ٤٥٣م

(24)، واستقر بهم المقام خلال العقد السابع من نفس القرن في منطقتين: الأولى منطقة الليريا Illyricum تحت قيادة ثيودريك ابن ثيودمير Theodoric son Theodemir، والذي يعرف أيضا بثيودريك العظيم (٤٩٣-٥٢٦م)، والثانية في منطقة تراقيا Thrace تحت قيادة سميث ثيودريك سترابو Theodoric Strabo أي الأعور، والذي كان يعمل قائداً لكتيبة من بني قومه المحالفين للإمبراطورية (٢٥).

وكان علي الإمبراطور زينون أن يواجه تلك الأزمة، لأن كلا من الطرفين كانت تتملكه الرغبة في التحالف مع الإمبراطورية، والحصول على الألقاب والأموال التي تسير ذلك التحالف. وبطبيعة الحال فإن التعامل مع الطرفين في وقت واحد كان في غاية الصعوبة، خاصة وأن الغزاة الإمبراطورية غير قادرة على وفاء بمتطلباتهم. لذلك رأى الإمبراطور أنه من الأفضل التخلص من أحدهما على حساب الآخر، فأقدم على استخدام الحيلة لتأليب الطرفين علي بعضهما. ووقع اختيار الإمبراطور علي طبيببه الخاص أنثيموس Anthemus لتنفيذ تلك المهمة، لما يتمتع به من قدرات سياسة ومهارة الإقناع وإتقان العديد من اللغات، بالإضافة إلي إلمامه ودرايته بشئون القوط (٢٦).

وبالفعل فقد استطاع أنثيموس التفرير بالطرفين حتي أصبحا علي وشك الصدام، ولكن تنبه ثيودريك العظيم في آخر لحظة قبل أن يقع في فخ الإمبراطورية. الأمر الذي جعله يتراجع ويتسامح مع سعيه القوطي ويتفقا ضد الإمبراطورية، والعمل علي فرض شروطهما علي الإمبراطورية وإهزائها قدر الإمكان. وهو أمر يمثل عبئا ثقيلا علي الإمبراطورية لقلة الموارد المالية (٢٧). ودعا ذلك الإمبراطور لعقد اجتماع لمناقشة تلك القضية، بحضور أعضاء السناتو وكبار القادة للوصول إلي حل أمثل للخروج من تلك المشكلة، ولتحديد أي من القائدين يتم الاتفاق معه كحليف للإمبراطورية.

ومما لاشك فيه أن الموقف كان شديد الصعوبة بالنسبة للإمبراطور زينون، خاصة وأن وفداً، من قبل ثيودريك سترابو، كان حاضرا بالقسطنطينية ينتظر ما سوف تسفر عنه الأحداث، وكانت المفاجأة هي رفض السناتو وكبار القادة تعامل مستقبلا مع ثيودريك سترابو، لما سبق وأرتكبه من جرم في حق الإمبراطورية. وبناء علي ذلك خضع زينون لرأي الأغلبية، وأخذ في البحث عن صيغة ينقل من خلالها القرار لسفراء سترابو (٢٨).

وفي خضم ذلك سرب الطبيب أنثيموس تلك الأحداث إلي ثيودريك العظيم، وأرسل له خطابا بمساعدة آخرين، مديلا بتوقيع بعض القادة الكبار، يخبره فيه بأنه يلقي كل الدعم والتأييد داخل القسطنطينية. وبطبيعة الحال، فإن مثل هذا التصرف يعد

غير منطقي من رجل من المفترض أنه تابع للإمبراطور، ومطلع بحكم قربه وعمله على العديد من الأسرار. وسوء حظ انتيموس تم القبض على حامل الرسالة قبل أن تصل إلى ثيودريك، ومن ثم وجهت له ولرفاقه تهمة الخيانة. وبمقتضى ذلك حكم عليهم بالإعدام، غير أن الإمبراطور تدخل وقام بتخفيف الحكم إلى الجلد والنفي، متذرعاً بعدم رغبته في إراقة الدماء (٢٩).

على أية حال كان الخيار الوحيد أمام انتيموس اللجوء إلى ثيودريك العظيم، والذي لم يخيب رجاءه فيه، حيث أحسن ضيافته وقربه منه، واتخذة كمستشار سياسي له. والشئ الجدير بالملاحظة هو : استمرار العلاقة بين الإمبراطور زينون و انتيموس، برغم ما كان من أحداث كادت تصل به إلى الإعدام. حيث تشير المصادر إلى أن انتيموس دأب على كتابة تقرير شبه دوري للإمبراطور واصفاً له فيه الفترات العسكرية للقوط وتنقلاتهم من موضع إلى آخر (٣٠).

وجدير بالذكر أن مهام انتيموس لم تتوقف عند ذلك الحد بل امتدت لما هو أكثر من ذلك، فكان له دور هام ومؤثر في العلاقات البيزنطية - القوطية فيما بعد. فبعد وفاة ثيودريك سترابو عام ٤٨١م، وخلو الساحة لثيودريك العظيم، زادت تهديداته للإمبراطورية، حتى وصلت في بعض الأحيان إلى تهديد القسطنطينية نفسها عام ٤٨٧م. فكان لابد من التفكير جدياً من أجل القضاء على مثل هذه التهديدات. فكانت فكرة عرض إدارة إيطاليا على ثيودريك، وهو ما يعني البعد عن تهديد القسطنطينية من ناحية، ومن ناحية أخرى استنزاف القوه القوطية من خلال صدامه مع ادولكر Odoacer. وكان لانتيموس دور بارز في التأثير على ثيودريك من أجل قبول هذا العرض (٣١).

ولا عجب في أن تكون الأحداث السابقة محل تساؤل ونقاش، خاصة فيما يتعلق باستمرار العلاقة بين الإمبراطور زينون و انتيموس، برغم العقوبات الموقعة عليه والنفي خارج الدولة. خاصة وأن المصادر البيزنطية لم تتناول تلك العلاقة من قريب أو بعيد، وأن ما تم عرضه من أحداث كان من خلال كتابات انتيموس نفسه. وهذا أمر وارد في مجال السياسية - بوجود اتفاق مسبق بين الإمبراطور و انتيموس على سير هذه الأحداث - مثلاً ما يحدث في عالم الجاسوسية، حتى يطمئن ثيودريك لانتيموس تماماً. والغريب أيضاً أن ثيودريك لم يظن يوماً لما يحاك ضده من مكيده، برغم استمرار انتيموس في أداء دوره لعدة سنوات. والدليل على ذلك هو احتفاظ انتيموس بمكانته في البلاط القوطي دون غيره من الأطباء، وترؤسه للسفارة التي أرسلها ثيودريك إلى الملك الفرنجي ثيودريك لبحث سبل السلام بينهما (٣٢).

كيفما كان الأمر فقد خرجت الإمبراطورية سالمة من أزمت القرن الخامس الميلادي، وهو ما منحها قوة دافعة لأن تنتهج سياسية إيجابية خلال القرن السادس الميلادي، بقصد توحيد شطري الإمبراطورية، خاصة وأن فكرة عالمية العالم الروماني *Orbis Romanus* والعالم اليوناني (المسيحي) *Oikoumene*. وغالبا ما كان يتأثر هذا المشروع بطبيعة الأوضاع والعلاقة مع الدولة العباسية على الجبهة الشرقية (٣٣).

وكانت طبيعة الموقف تحتم على الدولة البيزنطية عدم المواجهة القتالية على جبهتين في وقت واحد، ولذلك غالبا ما كانت تقدم على إبرام اتفاقيات السلام، التي غالبا ما لا يتم الالتزام بها من الطرفين. وكان ذلك يتطلب التفاوض من خلال السفراء للوصول لأفضل الشروط لمصالح الإمبراطورية. ونظرا للأهمية والاحترام والتقدير الذي كان يلقاه الأطباء في البلاط الفارسي، فقد أسهموا بدور هام في إقرار السلام في بعض الأحيان بين بيزنطة وفارس.

وكانت البداية عشية تفجر الصراع على الجبهة الشرقية مع الفرس عام ٥٣١م، والذي نالت خلاله الجيوش البيزنطية، بقيادة بليزاريوس *Belisarius*، هزيمة غير متوقعة، أدت إلى إرباك الحسابات البيزنطية. فالإمبراطور جستنيان *Justinian I* (٥٢٧ - ٥٦٥م) كانت تتملكه الرغبة في تحقيق انتصار ساحق، على يد قائده بليزاريوس، يمكنه من فرض صلح بشروط خاصة تخدم مصالح الإمبراطورية على المدى الطويل، ليتمكن بعد ذلك من إرسال حملته التأديبية على الوندال *vandals* في شمال أفريقيا. ولأن الهزيمة غيرت من الأوضاع، اضطر جستنيان إلى اللجوء إلى الصلح. فأرسل سفارة للتفاوض كان ضمن أفرادها طبيبها الخاص توماس *Thomas*. وقد استمرت أعمال تلك السفارة ما يقرب من عام، كللت في النهاية بتوقيع اتفاق للسلام في سبتمبر عام ٥٣٢م. وكان أهم بنوده : أن تقوم بيزنطة بدفع أحد عشر جنيها ذهبيا، وأن تخضع لازيكا للسيطرة البيزنطية، وأبييريا (جورجيا) لسيطرة الفرس. وبذلك أصبح جستنيان في موقف يسمح له بالتفرغ للجبهة الغربية (٣٤).

وتشير المصادر إلى استمرار توماس في أداء دوره السياسي، حيث كان يتولى إدارة الأمور بالقصر الإمبراطوري أثناء ثورة نيقا *Nika*، في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور جستنيان مختفيا في مكان آمن بعيدا عن الأعين، وذلك تمهيدا للفرار خارج العاصمة إذا دعت الأمور إلى ذلك (٣٥).

على أية حال لم تستمر حالة الهدوء هذه كثيرا، حيث عاود الفرس الهجوم من جديد، مستغلين الشغال بيزنطة في الغرب، على أمل تحقيق بعض المكاسب على حسابها. ففي عام ٥٤٤م قام الفرس بفرض الحصار على مدينة الرها Edessa بهدف السيطرة التامة عليها ونقل سكانها إلى بلاد فارس بعد تدميرها. ونظرا لطول فترة الحصار وخشية سكان المدينة من تعرضهم للمجاعة أقدموا على الدخول في مفاوضات مع الملك الفارسي كسري kh لرفع الحصار. وقاموا باختيار الطبيب المشهور ستيفن الرهاوي Stephen of Edessa لمفاوضة عنهم، نظرا لما يتمتع به من مكانة طيبة لدى الملك الفارسي لسابق عمله في البلاط الفارسي، حيث عالج الملك الفارسي من أمراض عدة، إلى جانب إشرافه على تعليم أبنائه. وكان لذلك أثر في نجاح مهمة الطبيب ستيفن الرهاوي في رفع الحصار عن المدينة مقابل دفع مبلغ من المال (٣٦).

وبرغم رفع الملك الفارسي الحصار عن الرها فقد استمر في ممارسة أعماله العدوانية على المناطق الحدودية مع بيزنطة، الأمر الذي دفع الإمبراطور جستنيان لعقد اتفاق سلام مع الفرس، تم تفعيله بداية من عام ٥٤٥م لمدة خمس سنوات، على أن تسدد بيزنطة ألف جنيه ذهبا سنويا. واشترط الملك الفارسي ضرورة حضور الطبيب تريبنوس الفلسطيني Tribunos of Palestine للبلاط الفارسي كشرط لتفعيل هذا الاتفاق، فاستجاب له الإمبراطور جستنيان. وكان لتريبنوس دورا سياسيا هاما. حيث استطاع في نهاية مدته بحسن علاقته أن يطلق سراح عدد من الأسرى البيزنطيين من كبار الضباط. وتقديرا لهذا الطبيب فقد زاد الملك العدد أكثر مما طلبه تريبنوس ليصل إلى ثلاثة آلاف أسير (٣٧).

ونظرا لأن معظم الاتفاقيات لم توضع موضع الاحترام، فكان غالبا ما يخرق كل من الطرفين الاتفاقيات المبرمة بينهما. وبناء على ذلك استغل الفرس سوء الحالة الصحية للإمبراطور جستين الثاني Justine II (٥٦٥-٥٧٨م) وقاموا بهجوم مباغت على الأراضي البيزنطية، ولم تجد الإمبراطورة صوفيا، التي كانت تدبر أمور الدولة بمساعدة بعض القادة، سوى اللجوء إلى التسوية مع فارس حتى تستتب الأمور بالدولة. فقامت بإرسال سفارة لفارس حوالي عام ٥٧٤م لمناقشة الأمور المتنازع عليها بين الطرفين، من أجل تسوية شامله، وكان أهمها طبيعة الحال المسألة الأرمنية. وكان على رأس تلك السفارة طبيب القصر ويدعى زكريا zacharia. وبعد سلسلة من المفاوضات توصل زكريا إلى عقد هدنة لمدة عام مقابل دفع مبلغ مالي حوالي ٤٥ ألف جنيه ذهبا (٣٨).

ونظراً لعدم تحسن الأوضاع اضطرت الإمبراطورة صوفيا إلى تجديد الاتفاق مع الفرس، خشية معاودة الهجوم على الأراضي البيزنطية مرة أخرى. فأرسلت سفارة بقيادة البطريرك ترجان Trejan وضمت السفارة أيضا الطبيب زكريا، نظراً لما أبداه من براعة في المفاوضات السابقة. وكانت مفاوضات شاقة أراد خلالها زكريا مروعة الفرس حول تحديد المدة الزمنية للمعاهدة، فزكريا، وبموجب اتفاق مسبق مع القيصر تيريوست Tiberius، أراد تحديد مدة الهدنة بثلاث سنوات، وهي الفترة التي تستطيع بيزنطة خلالها تعبئة جيوشها لمواجهة فعليه مع فارس. وشعر المفاوض الفارسي ميبود Mebod بأن في الأمر شيئا، فطلب من الوفد تحديد المدة بخمس سنوات إذا كانت هناك رغبة فعلية للصلح. فأرسل زكريا في استشارة تيريوست الذي لم يجد مفرًا من الموافقة، وفوض زكريا في اتخاذ ما يراه مناسباً. وبعد سلسلة من المفاوضات انقضى الجانبان على عقد هدنة لمدة خمس سنوات، تتعهد خلالها بيزنطة بدفع مبلغ سنوي حوالي ثلاثين ألف جنيه ذهب (٣٩).

ويتولى تيريوست عرش الإمبراطورية البيزنطية (٥٧٨-٥٨٢م) أراد أن يطمئن الجانب الفارسي بالتزامه بالسلام، فأرسل سفارة ترأسها الطبيب زكريا، والذي منحه المرتبة الشرفية Ex-Prefect، وأرسل معه حارسه الخاص ثيونورس Theodorus حاملين رسالة إلى الملك الفارسي يرحب فيها بالإمبراطور بالسلام، باعتبار أنه هدية من السماء. وكان على السفارة مواجهة المتغيرات التي طرأت بمجرد وصولهم إلى الأرض الفارسية. حيث توفي الملك الفارسي كسري في حوالي فبراير أو مارس عام ٥٧٩م، وخلفه هرمز الرابع Hormsd IV. وقد حاول زكريا استغلال ظروف عدم خبرة هرمز في تجديد اتفاق السلام، دون أي شروط بما فيها الإتاوات، إلا أن الجانب الفارسي رفض ذلك، وتمسك بما كانت تدفعه بيزنطة من قبل. ولكي يبرهن زكريا على قوة الموقف البيزنطي؛ أرسل للقائد موريس يطلب منه القيام بمناورة عسكرية على الحدود، ليظهر الفرس أن خيار الحرب قائم مثل خيار السلام. ولم يثن ذلك الأمر الفرس عن موقفهم المتشدد باستمرار دفع الإتاوات، وزلوا على ذلك عدم احترامهم للوفد البيزنطي، حيث أمر الملك الفارسي بإبداع أعضاء السفارة السجن، بدلا من السماح لهم بالعودة إلى أوطانهم. ورغم ذلك فقد تمكن زكريا ورفاقه من الهرب والعودة إلى القسطنطينية، ولم تشر المصادر إلى كيفية الطريقة التي مكنتهم من الهرب (٤١).

وقد أشارت المصادر إلى دور سياسي آخر في عهد الإمبراطور موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢م)، ولكن هذه المرة على الجبهة الغربية. فالتقاء قياد أحد القادة البيزنطيين ويدعى بريسكوس Priscus، ببعض التحركات عبر نهر الراين بناء

علي طلب جنوده لقضاء فصل الشتاء في منطقته أكثر دفئا وأمانا، فاعتبر الخان الوندالي ويدعي Hezekian أنه المقصود بتلك التحركات، وأنه علي استعداد للمواجهة. ونظرا لعدم استعداد بريسكوس لأي مواجهة في هذه الظروف، قام بإرسال الطبيب ثيودور Theodor للتفاوض مع الخان وتوضيح صحيح الأمر. وبالفعل استطاع ثيودور احتواء الموقف، والسيطرة علي قلب وعقل الخان البلغاري. ووافق الخان علي الصلح مقابل أن يمنحه بريسكوس جزءا من الغنائم التي بحوزته، لأن قومه سبق وأن تعرضوا لأعمال السلب من تلك القوات. واتفق الطرفان في النهاية علي الصلح، ونظرا لإعجاب الخان البلغاري بالطبيب ثيودور طلب منه أن يكون صديقا دائما له (٤٢).

وهكذا استعرض الباحث، خلال السطور السابقة، العديد من الأدوار السياسية المختلفة للأطباء في العصر البيزنطي الباكر، والتي تراوحت ما بين الإيجاب والسلب، ويمكن القول أن وجود هؤلاء الأطباء وقربهم من الأباطرة، سهل لهم مهمة لعب ذلك الدور، وبالإضافة إلى ذلك فإننا لا نستطيع أن ننقل ما تمتع به هؤلاء الأطباء من قدرات خاصة مكنتهم من خوض ذلك المجال، سواء الثقافة العامة وإتقانهم لعدة لغات، إلى جانب استعدادهم وحضورهم السياسي الذي لاحظناه في العديد من المواقف. فليس من المنطقي أن يعامل إمبراطور طبيبا مقربا له علي حساب المصلحة العامة للإمبراطورية. ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن تلك الانقلاب لم تكن شرفية مثلما كان يحصل عليها البعض، ولكن مناصب عملية.

ويمكن القول أيضا، أنه برغم وجود بعض السلبيات التي شابها هذا الدور السياسي للأطباء، كما ذكرنا سابقا، فإن الدور الإيجابي، والذي صب في كثير من الأحيان في صالح الإمبراطورية، كان واضحا تماما.

المواضع

(١) يعد أنتيموس التراسي Anthemus of Tralles أشهر الأطباء الذين عملوا في مجال الهندسة والعمارة، وفي المجال الديني كان هناك علي سبيل المثال البيديوس Elpidius الذي عمل شماسا في القسطنطينية وميلان، وكذلك ديونيسيوس Dionysius الذي عمل شماسا في روما، وكذلك أيضا جيرونتوس Gerontius الذي عين أسقفا لنيقوميدا، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Jones, A., *The Prosopography of the Later Roman Empire*, Cambridge, 1980, p 363; Wallis, F., *Medieval Medicine: A Reader*, Toronto 2010, p23; Nutton, V., *Ancient Medicine*, New York, 2004, p 301.

(2) Bloccley, R., 'Doctors as Diplomats in the Sixth Century

A.D', in *Florilegium*, 2, (1980), pp 89-100.

(٣) الهيوجرافى مصطلح حديث نوع من الأدب البيزنطى، يهدف إلى تبجيل القديسين. وقد جذب هذا الأدب اهتمام عدد كبير من الباحثين المحدثين، فوضعوا دراسات عن هذا النوع من الأدب وأشكاله وعناصره وأماطه التقنيّة. وإلى جانب المعلومات التي تستمد من هذا الأدب في التعريف بالقديسين وأعمالهم البطولية، فهو يفيد الباحثين بالكثير من المعلومات حول التاريخ البيزنطى، ولمزيد من المعلومات انظر:-

عبد العزيز رمضان، البيزنطيون بين علاج الأطباء ومعجزات القديسين، دراسة في ضوء هجيوجرافيا العصر البيزنطى الباكر، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الخامس، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م (ص ٢٢-٩٨) ص ٣٣، ١٥، راجع أيضا:-

Magoulas, H., "The Lives of the Saints as Sources of Data for the History of Byzantine Medicine in the Sixth and Seventh Centuries", in *Byzantinische Zeitschrift*, 57, (1964), pp127-150; Brown, P., "The Rise and Function of the Holy Man in Late Antiquity", in *Journal of Roman Studies*, 61, (1971), pp 80-101; Kazhdan, A. "Byzantine Hagiology and Sex in sixth to Twelfth Centuries", in *Dumbarton Oaks Papers*, 45(1991), pp1-22.

(٤) ولد أوريباسيوس حوالي عام ٣٢٥م في برجاموس، وهي نفس منسقط رأس العالم الجليل جالين Galen. وقد بلغ مبلغاً طيباً في مجال الطب، حتى كان يطلق عليه لقب *Ape of Galen* أي شبيه جالين وله مؤلف في الطب يتكون من سبعين مجلداً بعنوان *Collecta Medicinalia*، ولمزيد من المعلومات حول حياته ونفاذه الأول بجولييان انظر:

Dieting for an Emperor: a translation of books 1and 4 of Oribasius' Medicae, Leiden, 1997, p 2; Baldwin, B., 'The career of Oribasius', *Acta Classica*, 18. (1975) pp 85-97; Gregory, T., *A History of Byzantium*, UK, 2010, p 76.

(٥) إدوارد جيبون، *اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها*، القاهرة، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٣٠، راجع أيضاً:

Gregory, T., *A History of Byzantium*, UK, 2010, p 76; Kaegi, W., *Byzantium and the decline of Rome*, Princeton, 1968, 79.

(٦) Eunapius, in: *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire: Eunapius, Olympiodorus, Priscus and Malchus*, trans. Blockley, R. C., Liverpool, 1983, (pp6-126), p 33; Collins, R., *Early Medieval Europe, 300- 1000*, London, 1991, p36; Baldwin, B., 'Beyond the House Call: Doctors in Early Byzantine History and Politics', *Dumbarton Oaks Papers*, 38, (1984), (pp15-19), p 17.

(٧) Theophanes, *The Chronicle of Theophanes A.D 284- 813*, trans. Mango, c., and Scott, R., Oxford, 1992, pp 76; Socrates, *The Ecclesiastical History* Socrates, trans. Some Account of Authors, London, 1914, p 166; Sozomen, *The Ecclesiastical History of Sozomen*, trans. Walford, E., London, 1855, p 200.

(٨) كانت وظيفة الكويستور ذات تأثير هام في البلاط الإمبراطوري، لكونه مسئولاً عن التشريع في البلاط الإمبراطوري، كما كانت ذات صلة بالسفارات والسفراء الأجانب. والمرجح إن أول ظهور لهذه الوظيفة كان في عهد الإمبراطور سسطنطين في القرن الرابع الميلادي، ولمزيد من المعلومات حول تلك الوظيفة، انظر: وسام عبد العزيز فرج، الأقاب والمناصب الحكومية في بيزنطة بين الاستمرار و الانقطاع، للجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، الكتاب السنوي الثالث، القاهرة، ١٩٩٨،

(ص ٢٩٥-٣٣٩)، ص ١٠٠: راسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٠٠، راجع أيضا:

<http://en.wikipedia.org/wiki/Quaestor>

Accessed in 12-9-2010

(٩) Theophanes, op cit, p 84; Baldwin, Doctors, p 17.

(١٠) البروقتلصل: ترجمة لاتينية للكلمة اليونانية Anthypatos، وصاحبها حاكم لبعض الأقاليم ذات الأهمية الخاصة، ومن المحتمل أنه أطلق أيضا على المسئول عن إدارة القسطنطينية حتى عام ٣٥٩م حين تم استبداله بـ Urban Prefect، وكان البروقتلصل في إفريقية يخضع للإمبراطور مباشرة، ولمزيد من المعلومات انظر: راسيمان المرجع السابق، ص ٩٣، راجع أيضا:

<http://en.wikipedia.org/wiki/Proconsul>

Accessed in 12-9-2019

(١١) St. Augustine: Confessions, trans, Chadwick, H., Oxford, 1991, p 54; Lepelley, C., Aspects de L'Afrique Romaine, Edipuglia, 2001, p 156; Chastagnol, A., L'Italie et L'Afrique au Bas-Empire, Université de Lille, 1986, p 3.

(١٢) ولد القديس أوغسطين في تاغست Tagast، والتي تعرف حاليا بمسوق أهراس بالجزائر في الثالث عشر من عام ٣٥٤م. وبعد أن تلقى تعليمه الأوكر في موطنه انتقل إلى قرطاج، وهناك تأثر بالفلسفة الأفلاطونية، ثم انتقل بعد ذلك عام ٣٨٣م إلى روما ومنها إلى ميلانو، وهناك اعتنق المسيحية، وعاد بعد ذلك إلى موطنه وأنشأ ديرا للتعبد في عنابه، ثم عين أسقفا لها عام ٣٩٥م. وسار بها للكنيسة اللاتينية. وله مؤلفات كثيرة أهم اعترافاتي Mes Confessions، ومدينة الله La Cit de Dieu. وتوفي في لوانر أغسطس عام ٤٣٠، لمزيد من المعلومات انظر:

Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford, 1991, vol I pp 232-233; New Catholic Encyclopedia, Washington, D.C, 2003, vol. I, pp 852-858.

<http://www.newadvent.org/cathen/02084a.htm>

Accessed in 25-11-2010

- (١٢) St. Augustine, op cit, p54; Hegedus, T., Early Christianity and Ancient Astrology, New York, 2007, p 48; Langslow, D., Medical Latine in the Roman Empire, Oxford, 2000, pp 55-56; Baldwin, Doctors, 18; Bermon, E., Le Cogito dans la Pensée de Saint Augustin, Paris, 2001, p 128.

(١٤) تعددت مهام صاحب هذه الوظيفة، فهو رئيس سلك الوظائف المدنية كلها ومدير بريد الدولة، والمهيم على المخابرات، وكبير إدارة المراسيم الإمبراطورية. إلى جانب أنه مسئول العلاقات الخارجية بوصفه الوزير المسئول عن استقبال السفراء. ونظرا لتعدد مهام صاحب هذه الوظيفة، كان الإمبراطور يحيط شخصه بعدد من المساعدين، ولمزيد من المعلومات انظر:-

رانسيمان، المرجع السابق، ص ١٩٤ وسام عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٢٠٦.

- (15) Eunapius, op cit, p 93; Langslow, op cit, p 66; Baldwin, op cit, p28.

(١٦) يعود الموطن الأصلي للإسوريين إلى **إسوريا** Isuria، وهي منطقة جبلية تقع جنوب آسيا الصغرى، حيث كانت موطنًا للعديد من القبائل الأخرى. وقد هدف الإمبراطور ليو من وراء استقدامهم أن يحلوا محل عنصر القوط الذين استغلل نفوذهم داخل الإمبراطورية. وقد أثل نجمهم مع تولي الإمبراطور أنستاسيوس Anastasius (٤٩١-٥١٨ م) عرش الإمبراطورية، وشن ضدهم العديد من الهجمات داخل موطنهم الأصلي، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Oxford Dictionary, vol II, p. 1٥14;

(١٧) أطلق هذا المصطلح سابقا على الخادم، أو الذي يقدم النصيح للإمبراطور أو الملوك ابترابرة، ثم أخذ معنى آخر في عهد الإمبراطور قسطنطين ليمنح لأعوان ورفاق الإمبراطور، ثم أطلق بعد ذلك على العديد من أصحاب المناصب الرفيعة، ولمزيد من المعلومات انظر: وسام عبد العزيز، المرجع السابق، ص ١٣٠٥ راجع أيضا:

Oxford Dictionary, vol I, pp 484-485.

(١٨) عبد العزيز رمضان، المرجع السابق، ص ٨٠، راجع أيضا:

Chronicon Paschale 284-628 AD, trans. Whitby, M., Liverpool, 1986, p 88; Nutton, op cit, pp 304-305.

- (١٩) Theonphanes op cit, p 187; The Chronicle of Joshua the Stylite, ed. Wright, W. Cambridge, 1882, p 9. Zacharia of

Mitylene, The Syriac Chronicle known as that of Zacharia of Mitylene, trans. hamilton, F., London, 1899, p 104; Grillmeier, A., Christ In Christian Tradition, trans. Pauline, A., vol. 2, part.1, Atlanta, 1987, p 243.

(٢٠) يعرف أصحاب هذا المذهب بأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، وهي مشتقة من Mono وتعني واحدة، و Physites وتعني طبيعة. ويرون أن للمسيح طبيعة واحدة لها صفات وخصائص الطبيعيتين 'اللاهوت والناسوت متحدان فيه اتحاداً تاماً في الجوهر والأفانوم وفي الطبيعة، وليس هناك انفصال أو افتراق بين اللاهوت والناسوت في المسيح. ولمزيد من المعلومات انظر:-

اسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، دار المعارف، ١٩٧٢، ص٨٨-٨٩؛ حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣، ص٥٢.

(٢١) عقد هذا المجمع عام ٤٥١م بناء على طلب الإمبراطور مرقيان (Marclan ٤٥٠-٤٥٧م) وبعد هذا المجمع هو المجمع المسكوني الرابع. وقد أدان هذا المجمع قرارات مجمع أليسوس عام ٤٤٥م والذي عرف باسم مجمع اللصوص. وقد أقر هذا المجمع مبدأ طبيعيتي المسيح الذي صاغه من قبل ألباناي ليو، ولمزيد من المعلومات انظر: حسنين ربيع، المرجع السابق، ص٥٢.

(22) Theophanes, op cit, p 187; Grillmeier, op cit, p 243

(٢٣) يوحنا النقيوسي، تاريخ مصر، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٣٧؛ ميخائيل السرياني، تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة جريجوريوس صليبا، حلب، ١٩٩٦، ج ١، ص ٣٢- ٢٤؛ عزيز سوريال عطية، تاريخ المسيحية، ترجمة اسحق عبيد، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٨٩، راجع أيضاً:-

Zacharia of Mitylene, op cit, pp 104 - 105 ; Theophanes, op cit, p 188.

(٢٤) Jordones, The Original and Deeds of the Goths, Trans, by , Mierow, C., Priceton, 1908, p 79; Burns, T., A History of the Ostrogoths, Indiana, 1991, p52, Walfarm, H., History of the Goths, trans. Danlap, T., California, 1979, p 258.

(٢٥) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State ,trans.hussay, J., Oxford, 1968, pp58- 59; Burns, op cit, p 57.

(٢٦) Anthimus , De Observation Ciborum : On the Observance of Food, London, 2007,p 15.

(٢٧) Anthimus, op cit, p 15, Hinds, K., Goths, New York,2009, p 63, Walfram, op cit, p 271.

(٢٨) Malchus, in : The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire: Eunapius, Olympiodrus , Priscus and Malchus, trans. Blockley, Liverpool, 1983, (pp 402-455), p423.

(٢٩) Anthimus, op cit, p 15; Malchus , op cit, p 423;Dalby,A., Food in Ancient world from A to Z, New York, 2003, p 12.

(٣٠) Anthimus, op cit,op , p 16.

(٣١) Anthimus, op cit, pp 17- 18; Theophanes,op cit, p 201.

(٣٢) استغل القوط الشرقيون وفاة الملك الفرنجي كلوفيس Clovis ، عام ٥١١م، وهاجموا الأراضي الفرنجية من أجل توسيع أملاكهم على حساب الفرنجة، ولكنهم صدموا من رد فعل الملك الفرنجي الجديد ثيودريك، مما اضطر القوط لتفقد الصلح معهم، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Anthimus, op cit, p 20;Gregory of Tours, The History of The Franks, trans.Thrope,L., Penguin Books, 1997,p183; Burns, op cit, p 95-96.

(٣٣) وسام عبد العزيز فرج، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ٦٨.

Menander, The History of Menander The Guardsman, trans. Blockley,R.,Liverpool,1985

(٣٤) Procopius, History of Wars,trans. Dewing, B.,London, 1927, p ; Theophanes, op cit, p286- 287.

ويذكر أن بيوري قد حدد تاريخ تلك المعاهدة بربيع ٥٣٢م، وأن المبلغ المفروض على بيزنطة كان مقابل الدفاع وحماية البوابات القوقازية، انظر:-

Πατρ.,I., History of Later Roman Empire, from the Death of Theodosius to the Death of Justinian, vol.II, p 88;Sykes,P., A History of Persia, London,1921. vol.I, pp 544-545.

(٣٥) اشتعلت ثورة نيقا عام ٥٣٢م والتي تعني النصر في اللغة اليونانية، ويعود سبب اشتعال تلك الثورة إلى السياسة التصفية لاثنيين من كبار رجال الحكم في عهد جستنيان، رجل القاتون والمشرع تريبونيان Tribonian ووزير المالية حنا القبطوقي John of Cappadocia. وكادت هذه الثورة إن تطيح بجستنيان تماما لولا الدور البطولي الذي لعبته زوجته ثيودورا، بتشجيعه لمواجهة تلك الثورة حتى تمكن من إخمادها، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Chronicon Paschale, pp 122-123; Theophanes, op cit , pp 276-277; Bury, op cit , p 45- 46

(٣٦) Bury, op cit , pp 110 111; Guscini, M., The Image of Edessa, Leiden, 2009, p 170; Segal, J., Edessa 'the blessed city' , U.S.A, 2005 , p113.

(٣٧) يطلق على زكريا المتبني اسم "Tribonian"، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Zacharia of Mitylene, op cit, p 331; Bury, op cit, p112.

(٣٨) حدث نوع من الخلط لدى المؤرخ إلجاريوس Evagarius حول تلك السفارة التي حدثت عام ٥٧٤م، والسفارة التي شارك فيها زكريا مع تراجان فيما بعد، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Menander, op cit, p 59; Evagrius, p261; Theophanes, op cit, p367; Sykes, op cit, p457.

(٣٩) Menander, op cit, p197; Evagrius, op cit, p 271;

Theophanes, op cit, p 367. Sykes, op cit, p457.

(٤٠) Menander, op cit, p205; Theophanes, op cit , p 369.

(٤١) Menander, op cit, pp 207- 213.

(٤٢) The History of Theophylact Simocatta , trans. Whitby, M., Oxford, 1986, pp 176-178;

فتح مكة والسرايا التي تلتها

"دراسة تاريخية وصفية"

د. محمد بن صامل السلمي (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق فهدى وأعطى فأغنى ، وبعلمه وحكمته بعث الرسل، وكان خاتمهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وبعد :

فإن أم القرى والبلد الأمين هي موئل أفئدة المؤمنين، و بها ثبتت العقيق للكعبة المشرفة، وقد ولد ونشأ فيها خير خلق الله النبي الأمي، ومنها بُعث وأوحى إليه، ومكث بها ثلاث عشرة سنة بعد النبوة، يدعو إلى توحيد الله ونبذ الشرك وترك عبادة الأوثان، فاستجاب له من أراد الله هدايته، ولكنهم أودوا وغضبوا من المشركين، مما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة، ثم يجتهد صلى الله عليه وسلم في دعوة وفود الحجاج والقبائل إلى نصرته، فهبأ الله له الأوس والخزرج الذين استجابوا لله ونصروا رسوله وباعوه على الإسلام في بيعة العقبة الأولى، ثم على النصر والحماية في بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة من البعثة، فلأن صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، ثم تبعهم بعد إذن الله له ومعه صاحبه أبا بكر الصديق، فقد خرج صلى الله عليه وسلم من مكة وهي أحسب البلاد إليه ولكن أهلها أخرجوه، وقد وعده ربه أن يعيده إلى مكة^(١) في قوله تعالى : ﴿إِن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾، ولهذا عمل صلى الله عليه وسلم على التخطيط لفتح مكة، بنشر الإسلام، والجهاد في سبيل الله في أنحاء الجزيرة، ومما فطه صلى الله عليه وسلم من الأسباب لفتح مكة أنه أعلن في السنة السادسة من الهجرة أنه يريد العمرة وزيارة البيت الحرام، فأحرم صلى الله عليه وسلم ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه، لكن قريشا صدته ومنعته، ففاوضهم، وتم الصلح بينه وبينهم بوضع الحرب عشر سنين، ومن أراد أن يدخل في حلف محمد من قبائل العرب دخل،

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة القصص آية (٨٥)، حديث رقم ٤٧٧٣

ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل، فكان هذا الصلح فتحاً عظيماً كما سماه الله سبحانه وتعالى، وأنزل عليه منصرفه من الحديبية سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾^(٢)

لكن قريشاً نقضت العهد بعد أقل من سنتين، مما هبّ الأسباب ويسر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة. وقد عرضت في هذا البحث لسبب نقض الصلح، واستعداد النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة بدعوة القبائل التي أسلمت لمشاركته في الفتح.

ثم وصفت طريق تحركه إلى مكة حتى نزل مر الظهران، ثم إرسال النبي صلى الله عليه وسلم بالأمان إلى أهل مكة مع أبي سفيان، وقد اتخذ صلى الله عليه وسلم من الأسباب والوسائل ما يحقق الفتح من غير وقوع قتال في البلد الحرام، ثم ذكرت دخوله مكة وتعظيمه البلد الحرام وطوافه بالبيت وتطهيره من الأصنام والشرك، ودخوله الكعبة المشرفة وصلاته فيها، ثم وقوفه على باب الكعبة والمشترون في صحن المطاف مستسلمون، وإعلانه صلى الله عليه وسلم العفو عنهم، وبيان حرمة مكة، وأن الله قد أباح له القتال فيها **ساعة من نهار** ثم عادت حرمتها كما كانت، وأوضحت الأعمال التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم لترتيب أوضاع مكة، وبعض الفتاوى والقضايا التي أوضحها وحكم فيها، ومبايعة أهل مكة له صلى الله عليه وسلم. وكذا بيان السرايا التي تلت الفتح الأعظم والتي كانت حول مكة للدعوة إلى الله وتحطيم الأصنام والطواغيت الكبار التي كانت تعظم عند قريش وغيرها من القبائل.

وقد سلكت في الدراسة الجانب الوصفي للأحوال والأماكن، حتى يتصور القارئ المشهد كما هو، وقد ختمت البحث بجملة من الدروس والعبر المستفادة من الفتح الأعظم وما تلاه من السرايا.

وأسال الله أن يكون نافعاً للباحث وللقارئ الكريم، وأن يجعله من العسل الخالص المتقبل والحمد لله رب العالمين.

نقض قريش للعهد وخروج أبي سفيان لتجديد الصلح وإخفاقه :

كان من شروط صلح الحديبية أن من شاء من القبائل أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل. فدخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وكاتوا حلفاء لجده عبد المطلب وكان فيهم إسلام. ودخل بنو بكر إحدى

القبائل الكنانية في عقد قريش^(٣). وديار بني بكر و خزاعة متداخلة ومتجاورة حول مكة شمالاً وجنوباً، وقد كان بينهم ثار من قبل البعثة النبوية، حيث عدت خزاعة على مالك بن عباد أحد بني الحضرمي وهم حلفاء الأسود بن رزّن من بني النذل من بكر فقتلته، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فردّت خزاعة بقتل ثلاثة من أشرف بني بكر من بني الأسود بن رزّن، هم : سلمى، وكلثوم، ونؤيب، وذلك بعرفة عند أنصاب الحرم، وكان بنو الأسود لشرفهم في كنانة يؤدون ديتين ديتين^(٤)، وقد حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به وهم على هذه الحال. ولما وقعت الهدنة ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ، استعدت بنو بكر قريشاً على خزاعة ليأخذوا بثأرهم فوافقهم بعض القرشيين وأعطاهم بالسلاح والرجال، واستغلوا فرصة الهدنة فعدوا على خزاعة ليلاً على شرة عند ماء لهم أسفل مكة يسمى الوتير، ويذكر الواقدي أن آخر ما كان بين خزاعة وكنانة من الأحداث، أن أنس بن زعيم الدبلي هجا رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فوقع به وشجه فثار الشر بينهم مع ما كان من العداوة^(٥) السابقة.

وقد لجأت خزاعة عند عدوان بني بكر عليهم إلى الحرم، لكن رئيس بني بكر نوفل بن معاوية الدبلي أمر بني بكر بقتلهم حتى ولو دخلوا إلى حدود الحرم، وقال : - كلمة كبيرة لما ذكره قومه بحرمه مكة وإلهه - لا إله له اليوم، يا بني بكر خذوا بثأركم^(٦).

ولجأ الخزاعيون بعد دخولهم مكة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وحليف لهم يسمى رفاعاً، وقتل في هذه العدة ثلاثة وعشرون رجلاً من خزاعة^(٧).

وقد قدم الخزاعيون على رسول الله ﷺ في المدينة ليعطوه بما وقع عليهم، وطلبوا منه النصر، منهم بديل بن ورقاء، وعمر بن سالم، وأشد عمرو بن سالم بين يدي رسول الله ﷺ قصيدته.

اللهم إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأكدا

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٠/٤ بإسناد صحيح، تاريخ الطبري، ٤٣/٣ والبيهقي، دلائل النبوة ٦/٥.

(٤) ابن هشام، المصدر نفسه ٢٩/٤، تاريخ الطبري ٤٣/٣، الواقدي المغازي ٧٨١/٢. ومعنى يؤدون: يدفعون دية القتيل.

(٥) المغازي ٧٨٢/٢.

(٦) ابن هشام، المصدر نفسه ٣٠/٤، وابن كثير، السيرة النبوية ٥٢٨/٣.

(٧) الواقدي، المغازي ٧٨٤/٢ و ٧٨٧.

إن قريشاً أخلفوك الموعداً ونقضوا ميثاقك المؤكداً

فاتصر هداك الله نصرأ أعدداً وادع عباد الله بأتوا مدداً

فقال رسول الله ﷺ (نصرت يا عمرو بن سالم^(٨)) ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء فنظر إليها وقال : (إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب)^(٩)

ويذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ قال للوفد الخزاعي ارجعوا إلى دياركم وتفرقوا في الأودية والبلدان^(١٠).

وكانت المدة بين عقد صلح الحديبية وهذه الأحداث سبعة عشر شهراً، أو ثمانية عشر شهراً^(١١).

وقد ندمت قريش على ما وقع منها في معاونة بني بكر، وخشيت أن يبلغ ذلك النبي ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه (كنتم بأبي سفيان قد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة)^(١٢) فأرسلت قريش أبا سفيان للنبي ﷺ، وفي الطريق لقي بديل بن ورقاء مع رجال من خزاعة عند عسفان وتوقع أنه راجع من المدينة، فسأله لكن بديلاً أخفى عليه أمره، ثم ذهب إلى مبرك إيلهم وأخذ بكرة ففتها ووجد فيها النوى، فأترك أن القوم جاءوا من المدينة.

ولما وصل المدينة لقي رسول الله ﷺ في المسجد، وطلب منه أن يشد العهد ويزيد في المدة لكن رسول الله ﷺ لم يرد عليه شيئاً^(١٣). وعند الواقدي أن رسول الله ﷺ قال له : هل كان قبلكم حدث ؟ قال معاذ الله. فقال رسول الله : فنحن على مسئلتنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغير ولا نبدل^(١٤).

(٨) ابن هشام، السيرة النبوية ٤ / ٣٥ والشعر عند الواقدي ٢ / ٧٨٩ والطبري ٤٥ / ٣،

ومعنى الأئمة: القديم ونظر لتفريغ الحديث مجمع الزوائد ٦ / ١٦٣

(٩) التيهامي، مجمع الزوائد ٦ / ١٦٤ وبنو كعب هم خزاعة.

(١٠) المقاري ٢ / ٧٩١، ونظر ابن كثير ٣ / ٥٣٢.

(١١) ابن كثير، السيرة النبوية ٣ / ٥٢٦ ويذكر الواقدي (المغازي ٢ / ٧٨٣) أن نقض

العهد كان في شهر شعبان (أي سنة ثمان) وذلك على رأس ٢٢ شهراً من عقد الصلح.

(١٢) ابن هشام، المصدر نفسه ٤ / ٣٥ ونظر الواقدي ٢ / ٧٩١ وتاريخ الطبري ٤٥ / ٣.

(١٣) ابن هشام، المصدر نفسه ٤ / ٣٦.

(١٤) المقاري ٢ / ٧٩٢ ونسبه ابن كثير في السيرة ٢ / ٥٣٢ لموسى بن عقبة.

ودخل أبو سفيان على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها، فطوت فراش رسول الله ﷺ عنه، ثم خرج إلى الصديق، ثم إلى عمر، وإلى علي يستشفع بهم عند رسول الله ﷺ فلم يجيبوه، وقال لفاطمة رضي الله عنها : أجيري بين الناس، أو مري ابنك يجير بين الناس فقالت : إنه لا يجير أحد على رسول الله ﷺ، ثم قال له علي بعد أن كُتلت حيلته : قم أنت فأجر بين الناس، فقام أبو سفيان وقال : أشهدوا أنني أجزت بين الناس. فقال رسول الله : أنت تقول ذلك يا أبا سفيان، فلم يقبل إجارته فعاد من غير نتيجة^(١٥).

خروج الرسول ﷺ لفتح مكة

- الاستعداد لفتح مكة :

أخذ الرسول ﷺ في الاستعداد لفتح مكة، وقال لعائشة : جهزي وأخفي أسرك، وأمر ﷺ بحراسة الأنقاب والطرق فلا يخرج أحد أو يدخل إلا وهو معلوم، وكان عمر بن الخطاب هو القيم على الأنقاب^(١٦)، وكل من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه^(١٧).

ودخل أبو بكر على عائشة وهي تجهز رسول الله ﷺ تعمل قمحاً سويقاً ودقيقاً وتمراً، فقال : أ هم رسول الله يخرؤ ؟ فقالت : ما أبري.

فجاء رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يا رسول الله أردت سقراً ؟ قال رسول الله : نعم.

قال : أفأ تجهز ؟ قال : نعم. فقال أبو بكر : وأين تريد يا رسول الله ؟ قال : قريشاً وأخف ذلك يا أبا بكر^(١٨).

وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة الأنصاري في ثمانية نفر إلى بطن إضم، ليحفظون مكان أن رسول الله ﷺ يريد تلك الثأبية وتذهب بذلك الأخبار^(١٩) ودعا رسول الله ﷺ

(١٥) انظر تفصيل ذلك عند ابن هشام ٣٧ / ٤ - ٣٧ و مقاتي الوائدي ٢ / ٧٩٣ - ٧٩٥.

ومعنى كُتلت حيلته : عجزت

(١٦) الأنقاب : الطرق في الحرة.

(١٧) مقاتي الوائدي ٢ / ٧٩٦.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) المصدر نفسه ٢ / ٧٩٧.

ربه أن يعصى على قريش الأخبار^(٢٠)، فلا يعلمون عنه حتى يفجأهم بمكة وهم على غير استعداد، مما يجعلهم يستسلمون من غير قتال، إعظاماً منه ﷺ لمكة وحرمتها.

• كتاب حاطب إلى قريش :

وقد علم بعض خواص الصحابة بقصد النبي ﷺ ووجهته، ومنهم حاطب بن أبي بلتعة^(٢١) وهو من المهاجرين، وممن شهد بدرًا، وله بمكة مال وأهل، فأراد أن يتخذ عند أهل مكة بداً ليحفظ ماله وأهله، فكتب لهم كتاباً، وسمى الواقدي ثلاثة نفر كتب لهم حاطب هم : صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وأرسله مع امرأة من مزينة تسمى كتود، وجعل لها ديناراً على أن تبليغ الكتاب^(٢٢)، وقال : أخفيه ما استطعت ولا تمرى على الطريق فإن عليها حراساً، فسلكت المرأة على غير نقب فأخذت على يسار المحجة المعروفة من فلول الحرة حتى لقيت الطريق بالعقيق^(٢٣).

وأطلع الله رسوله ﷺ على ما فعله حاطب، فبعث علياً والزبير والمقداد وقال : (اتظفوا حتى تأتوا روضة خاخ)^(٢٤) فإن بها ضعيئة^(٢٥)، ومعها كتاب فخذوه منها (قال علي : فاتظفنا تعادى بنا خيلنا، حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالضعيئة، فقلنا : أخرجي الكتاب. فقالت : ما معي من كتاب، فقلنا : لنخرجن الكتاب أو لننقن الثياب، فأخرجته من عفاصها. فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول ﷺ : يا حاطب، ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل علي. إني كنت أسرع ملصقاً^(٢٦) في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون

(٢٠) ابن هشام ٤ / ٣٨ ومغازي الواقدي ٢ / ٧٩٦. ومعنى يعصى : يخفي ويحجب.

(٢١) حاطب بن أبي بلتعة عمرو بن راشد بن معاذ اللخمي، حليف قريش، أسلم ومهاجر وشهد بدرًا والحديبية، وبعث النبي ﷺ بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فأشاه من عنده بهدية منها مارية القبطية أم إبراهيم، ومات رضي الله عنه بالمدينة سنة ثلاثين عن خمس وستين سنة. وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه الطبعات الكبرى (١١٤/٣) والإصابة ١/ ٢٠٠.

(٢٢) ذكر الواقدي رواية أخرى (٢ / ٧٩٩) وسمى المرأة سارة وأنه جعل لها عشرة دنانير.

(٢٣) المصدر السابق ٢/ ٧٩٨ و ٧٩٩. والمحجة : الطريق العام والرئيس.

(٢٤) في رواية ابن إسحاق في السيرة ٤ / ٣٩ فأدرناها بالخليفة، خليفة بني أحمد، وكذلك في مغازي الواقدي ٢/ ٧٩٨.

(٢٥) الضعيئة : المرأة

(٢٦) ملصقاً : حليفاً

بها أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم بدأ يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفراً ولا ارتداداً، ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : قد صدقكم^(٢٧)

وقد تجاوز عنه النبي ﷺ لما ظهر له من صدقه وعدم موالاته للكفار، ولما له من السابقة في الإسلام وشهود بدر والحديبية، وقد أوجب الله لمن شهدهما الجنة، مع أن فعله يعتبر خيانة، لكن كفى الله المؤمنين شرها يكشف أمره قبل أن يصل الخبر إلى العدو.

- مسير الرسول ﷺ إلى مكة :

لما عزم رسول الله ﷺ على الخروج إلى مكة أبان عن نيته في الغزو ولم يحدد وجهته، وأرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسول الله ﷺ رسله في كل ناحية، حيث أرسل أسماء، وهدأ ابني حارثة الأسلمياني إلى قبيلة أسلم.

وأرسل جندباً، ورافعاً ابني مكيث إلى جهينة. وأرسل إيماء بن رخصة، وأبا رهم كلثوم ابن الحصين الغفاري إلى بني غفار وضرة. وبعث معقل بن سنان، ونعيم بن مسعود إلى أشجع. وبعث بلال بن الحارث، وعبد الله بن عمرو المزني إلى مزينة. وبعث الحجاج بن علاط السلمي، وعرباض بن سارية إلى سليم. وبعث بسر بن سفيان، وبديل بن ورقاء إلى بني كعب من خزاعة^(٢٨). ويظهر من بعض الروايات التي أوردها الواقدي^(٢٩) أن رسول الله ﷺ لم يظهر مقصده من هذا الغزو لكل الناس، وقد أوهم قبل ذلك بإرسال سرية إلى بطن إضم. وخرج ﷺ في العشر الأول من رمضان، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين بن عتبة بن خلف الغفاري^(٣٠) وعسكر ﷺ ببئر أبي عتبة حتى اجتمع له الناس، وفي رواية عند الصلصل^(٣١)، ثم تقدم ﷺ إلى العرج.

(٢٧) انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الجاسوس حديث رقم ٣٠٠٧ وأخرجه في مواضع أخرى حديث ٣٠٨١ و ٦٢٥٦ و ٦٩٣٩ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أهل بدر ج ١٦١.

(٢٨) الواقدي، المغازي ٢ / ٧٩٩ - ٨٠٠.

(٢٩) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٢.

(٣٠) ابن هشام ٤ / ٤٠١ وسيرة ابن كثير، عن ابن إسحاق ٣ / ٥٤٠، وذكر ابن سعد في الطبقات ٢ / ١٢٥ أنه استخلف عبد الله ابن أم مكتوم.

(٣١) الواقدي ٢ / ٨٠٠ و ٨٠١. وأجمعتا السيوف : أرحاضها. وج : وإر بالطائف

وكان الجيش منهم الصائم ومنهم المفطر، وقد أراد كعب بن مالك أن يعرف وجهة النبي ﷺ فالتقى بين يديه هذه الأبيات

فصينا من تهامة كل ريب
نمائلها ولو نطقت لقلت
فلست لحاضر إن لم تروها
فنتزع الخيام ببطن وج

وخير ثم أجمنا السيوف
قواطعهن دوساً أو نقيفاً
بساحة داركم منها ألوفاً
وتترك دونهم منها خلوفاً

فتبسم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك^(٣٢).

وقد سمع عيينة بن حصن الفزاري بمخرج النبي ﷺ وهو في أهله بنجد، فجاء في نفر من قومه إلى المدينة فوجد النبي ﷺ قد خرج قبله بيومين، فأسرع وسلك على ركوبة، وسبق إلى العرج، فلما جاء إلى النبي ﷺ سأله: أين وجهك يا رسول الله؟ قال: حيث يشاء الله. ثم جاءه الأقرع بن حابس بالمسقى في عشرة من قومه فمساروا معه^(٣٣).

وقد جعل رسول الله ﷺ بين يديه طليعة، فوجدت الطليعة بين العرج والطلوب رجلاً ادعى أنه من غفار، فلما حققوا معه اتضح أنه من هوازن، أرسله قومه عيناً يأتي بخبر النبي ﷺ، فاستخبره رسول الله ﷺ عن هوازن فأخبره أنهم جمعوا له جمعاً هم وثقيف، وألهم أرسلوا إلى جرش في عمل الدبابات والمتجنيق، فأمر النبي ﷺ بأن يتحفظ عليه، وبقي معهم إلى أن تم فتح مكة، ثم إنه أسلم وشارك في غزوة حنين^(٣٤). كما ذكر الواقدي رواية عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن رسول الله ﷺ لما كان بين العرج والطلوب، نظر إلى كلبة تهر على أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له: جعل بن سراقه أن يحرسها لئلا يعرض لها أحد من الجيش^(٣٥).

- عقد الألوية والرايات :

وتختلف الروايات في المكان الذي عقد فيه النبي ﷺ الألوية والرايات، فيذكر الواقدي أنه عقد الرايات عندما عسكر ببئر أبي عتبة، ويذكر رواية أخرى أنه ﷺ لم

(٣٢) المصدر نفسه ٨٠٢ / ٢

(٣٣) المصدر نفسه ٨٠٣ / ٢

(٣٤) المصدر نفسه ٨٠٤ / ٢

(٣٥) المصدر نفسه ٨٠٤ / ٢ وانظر ترجمة جعل بن سراقه الضمري في الاستيعاب لأبْن عبد البر. وفي القصة رحمة النبي ﷺ وشقيقته بالحيوان.

يعقد الرايات إلا في قديد، ثم يعطي الواقدي تفصيلات عن عدد الرايات وأصحابها وعدد المشاركين من كل قبيلة كما يلي^(٣٦):-

١- المهاجرون، على ثلاث رايات : راية مع الزبير، وراية مع علي، وراية مع سعد بن أبي وقاص، عددهم (٧٠٠) وخيلهم (٣٠٠) فرس.

٢- الأوس، على سبع رايات : راية مع أبي نائلة من بني عبد الأشهل، وراية مع قتادة بن النعمان من بني ظفر، وراية مع أبي بردة بن نيار من بني حارثة، وراية مع جبر بن عتيك من بني معاوية، وراية مع أبي لهابة بن عبد العتذر من بني خطمة، وراية مع مبيض من بني أمية، وراية مع أبي أسيد من بني ساعدة.

٣- الخزرج على خمس رايات : راية مع عبد الله بن زيد من بني الحنظلة، وراية مع قطبة بن عامر بن حذيفة من بني سلمة، وراية مع عمارة بن حزم من بني مالك بن النجار، وراية مع سليط بن قيس من بني مازن، وراية في بني دينار. وعدد الأنصار جميعاً (٤٠٠) رجل، ومعهم من الخيل (٥٠٠) فرس.

٤- مزينة، وهم على ثلاثة ألوية : لواء مع النعمان بن مقرن، ولواء مع بلال بن الحارث، ولواء مع عبد الله بن عمرو عددهم (١٠٠) رجل ومعهم (١٠٠) فرس.

٥- أسلم، ولهم لواءان : أحدهما مع بريدة بن الحصيب، و الآخر مع ناجية بن الأعجم عددهم (٤٠٠) رجل ومعهم (٣٠) فرسا.

٦- جهينة، وهم على أربعة ألوية : لواء مع سويد بن صخر، ولواء مع ابن مكيث، ولواء مع أبي زرة، ولواء مع عبد الله بن بدر، عددهم (٨٠٠) رجل ومعهم (٥٠) فرسا.

٧- بنو كعب بن عمرو الخزاعيون، على ثلاثة ألوية : لواء مع بسر بن سفيان، ولواء مع ابن شريح، ولواء مع عمرو بن سالم وعددهم (٥٠٠) رجل.

٨- بنو سليم وعددهم (٩٠٠) وقيل ألف، وكلهم خيالة، نفروا مع الرسولين اللذين بعثهما لهم رسول الله ﷺ، الحجاج بن علاط، والعرباض بن سارية، ولقوه في قديد ومعهم لواءان وخمس رايات، فجعلهم رسول الله في مقدمته حتى تزلوا مَرَّ الظهران^(٣٧).

(٣٦) المغازي ٨٠٠/٢ وعند ابن سعد في الطبقات ١٢٥/٢ أن عقد الرايات للقبائل كانت في قديد ولعل هذا هو الصواب.

(٣٧) المصدر نفسه ٨١٢/٢ و ٨١٣.

ولما رأى عبيدة بن حصن، والأقرع بن حابس، عقد الألوية والرايات تأسفاً أن لم يكن معهما قومهما ليشاركاً في الغزوة ويعقد لهما النبي ﷺ الرايات كما عقد للقبائل المشاركة. وتوضح الروايات في كتب المغازي أن عدد المشاركين في غزوة الفتح عشرة آلاف^(٣٨)، وبعضهم قال ثمانية آلاف^(٣٩) وبعضهم قال اثنا عشر ألفاً^(٤٠) والمشهور عشرة آلاف.

إسلام سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية :

لما وصل النبي ﷺ في طريقه إلى مكان يسمى نيق العقاب لقوه ابن عمه سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخو أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها، وشفعت فيهما أم سلمة، فأذن لهما بالدخول عليه، وأسلما وعلى عنهما رسول الله ﷺ ما كانا يؤذيان به في مكة، وأنشد أبو سفيان بين يديه ﷺ قصيدة يعتذر فيها عما حصل منه في سابق أيامه^(٤١) منها قوله:

لعمرك أي يوم أحمل رايةً لتقلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدلج الحبران أظلم ليله فهذا أولاني حين أهدى وأهدى
هدائي هاد غير نفسي ونالني مع الله من طردت كل مُطَرَّد.

هجرة العباس بن عبد المطلب :

كان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ من المدافعين عنه وقد حضر بيعة العقبة الكبرى مع رسول الله ﷺ، ثم خرج مع قومه فريش إلى بدر وأسر بها، ثم أطلقه النبي ﷺ كما أطلق غيره بعد أن دفع الفداء، وما زال بمكة لم يعلن إسلاماً مع أن زوجه أم الفضل وابنه عبدالله بن عباس قد أسلما، ثم إنه قبيل فتح مكة خرج بأهله مهاجراً إلى الله ورسوله ولقي النبي ﷺ ببعض الطريق كما ذكر ابن إسحاق^(٤٢)،

(٣٨) ابن هشام ٤٠/٤ والوافدي ٨١٥/٢ وابن سعد، الطبقات ١٢٩/٢، والبيهقي، دلائل النبوة ٢١/٥ وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢١٧/٢ وابن كثير، السيرة النبوية ٥٢٩/٣

(٣٩) الطبقات الكبرى ١٢٩/٢ عن سعيد بن المسيب.

(٤٠) ابن كثير، السيرة النبوية ٥٢٩/٢، ونسبة إلى عروة، والزهري، وموسى بن عقبة.

(٤١) ابن هشام، السيرة ٤١/٤ والبيهقي، دلائل النبوة ٢٧/٥

(٤٢) ابن هشام ٤١/٤ والراجح أن إسلام العباس كان قبل فتح خيبر، انظر. محسن أحمد الدوم، مرويات فتح مكة، رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية غير منشورة ص ٩٨.

ويحدد الواقدي^(٤٣) المكان بالسقيا، بينما يحدده ابن هشام بالجحفة^(٤٤)، فعاد مع رسول الله ﷺ وأرسل عياله إلى المدينة.

وفي الجحفة رأى الصديق رضي الله عنه رؤيا في المنام فقصها على رسول الله ﷺ فأنهى النبي ﷺ بأنه قد ذهب كذب فريش وأقبل ذرهم^(٤٥).

المكان الذي أمر فيه رسول الله ﷺ الصحابة بالفطر :

ورد في صحيح البخاري عدة روايات عن المكان الذي أمر النبي ﷺ فيه الجيش بالفطر في رمضان بسبب السفر وشفقة منه عليهم، ففي حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ سار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى إذا بلغ الكديد - وهو ماء بين عسفان وقديس^(٤٦) - أفطروا^(٤٧).

وفي رواية مجاهد عن طلوس عن ابن عباس قال : سافر رسول الله ﷺ فصام حتى بلغ عسفان ثم دعا ببناء من ماء فشرب نهراً ليراه الناس، فأفطر حتى قدم مكة^(٤٨).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله ﷺ عام الفتح صائماً حتى أتى كراع الغميم... فقيل يا رسول الله إن الناس قد اشتد عليهم الصوم، وإنما ينظرون إليك كيف فعلت، فدعا رسول الله ﷺ بفدح فيه ماء فرفعه وشرب والناس ينظرون، فصام بعض الناس وأخبر النبي ﷺ، فقال : أولئك العصاة أولئك العصاة^(٤٩) وأخرج البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا صواماً حتى بلغنا الكديد، فأمرنا رسول الله ﷺ بالفطر، فأصبح الناس منهم الصائم ومنهم المفطر، حتى إذا بلغنا المنزل الذي تلقى العدو فيه أمرنا بالفطر فأفطرتنا أجمعون^(٥٠).

(٤٣) المغازي ٨١٢/٢

(٤٤) السيرة ٤١/٤

(٤٥) الواقدي، المغازي ٨١٢/٢. والمراد ذهب ذرهم وأقبل خيرهم.

(٤٦) في رواية ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٤٠/٤ تحديد الكديد بأنه بين عسفان وأمع، وهذا أدق، فإن أمع هي خليص والمسافة بينها وبين عسفان، قصيرة، والكديد يقع بينهما.

(٤٧) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٢٧٦)

(٤٨) المصدر نفسه، حديث رقم (٤٢٧٩)

(٤٩) صحيح مسلم، كتاب الصوم حديث رقم (٩٠)

(٥٠) دلائل النبوة ٢٤/٥

وتوضح رواية الترمذي عن أبي سعيد الخدري المنزل الذي أفطروا فيه جميعاً، يقول : لما بلغ النبي ﷺ عام الفتح مَرَّ الظهران، فأَذَّنَا بلفاء العدو، فأمرنا بالطعام، فأفطروا أجمعون^(٥١)

فحصل من هذه الروايات أربعة أمكنة أفطروا فيها، ثلاثة متقاربة، الكديد، و عسفان، وكراع الغميم وأبعدها هو مَرَّ الظهران - الجموم اليوم - وهو أقربها إلى العدو في مكة.

قال القاضي عياض بعد أن ذكر الأمكنة الثلاثة الأولى : اختلفت الروايات في الموضوع والكل في قصة واحدة وكلها متقاربة، والجميع من عمل عسفان^(٥٢). وقال ابن حجر : فيه مجاز القرب^(٥٣)؛ أي لأقربها من بعض جاز الإطلاق على أي واحد منها، وهو جمع حسن.

معسكر الرسول ﷺ في مَرَّ الظهران

١- نزول جيش المسلمين في مَرَّ الظهران :

سار رسول الله ﷺ نحو مكة حتى نزل بمَرَّ الظهران - الجموم اليوم - وهي تبعد عن مكة نحو عشرين كيلو متراً، وامتد عمران مكة في الوقت الحاضر حتى كاد يتصل بها.

وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش أن يوقد النيران فأوقدت عشرة آلاف نار حتى كان منظراً مبهرًا وللعدهو مرعباً^(٥٤). وقد عميت الأخبار على قریش فلا يأتيتهم عنه خبر ولا يدرون ما رسول الله فاعل، وكانت خزاعة قد أخذت الطرق فلا تدع أحداً يمضي وراءها^(٥٥)، وخرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، ورغب في صحبتها بديل بن ورقاء الخزاعي، - وكان مقيماً في مكة - يتحسمون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً عن رسول الله ﷺ، وكان رسول الله قد جعل خيلاً أمامه يفتصون العيون، فوجدوا أبا سفيان وصاحبيه، فجاجوا بهم إلى رسول الله ﷺ^(٥٦). وعند ابن إسحاق أن العباس لما نزل رسول الله مَرَّ الظهران، أخذ بغلة رسول الله

(٥١) سنن الترمذي، كتاب الجهاد باب (١٣) حديث رقم ١٦٨٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥٢) ابن حجر، فتح الباري ١٨١/٤

(٥٣) ابن حجر، فتح الباري ١٨١/٤

(٥٤) مغازي الواقدي ٨١٤/٢

(٥٥) ابن كثير، السيرة ٥٤٦/٣

(٥٦) مغازي عروة ص ٢١٠، ومغازي موسى بن عتبة ص ٢٧٢.

فخرج عليها ليلاً حتى دخل في غابة الأراك، لعله يجد بعض الحطّاية أو صاحب حاجة، ليرسله إلى مكة يخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة^(٥٧).

قال العباس : فو الله إني لأسير عليها وألتصم ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن رقاء وهما تراجعان، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالميلة نيراناً قط ولا عسكرياً. قال بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، قال أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس : فعرفت صوت أبي سفيان فقلت : يا أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ؟ قال قلت : نعم. قال : مالك فذاك أبي وأمي ؟!

قال ابن عباس : ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله في الناس، واصباح قریش والله ! قال : فما الحيلة فذاك أبي وأمي ؟ قال قلت : والله لنن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجر البغلة حتى تأتي رسول الله فاستأمنه لك، قال : فركب خلفي ورجع صاحبه^(٥٨).

قال عروة، والزهري. وموسى بن عافية، بل ذهبا مع ابن عباس ودخلا على رسول الله ﷺ وأسلما، وأخذ يستخبرهما عن أهل مكة^(٥٩).

ولما نزل رسول الله ﷺ في من الظهران تفرق الصحابة في الأشجار يجتنبون الكباش (التضييق من ثمر الأراك) فقال رسول الله ﷺ : عليكم بالأسود منه، فإنه أطيب، فقالوا : يا رسول الله، أكلت ترعى الغنم ؟ قال : نعم وهل من لبس إلا وقد رعاها^(٦٠).

وكان عبد الله بن مسعود أحد من اجتنى الكباش، وكان الصحابة ينظرون إلى دقة ساقه ابن مسعود وهو يرفق في الشجرة ويعجبون. فقال رسول الله ﷺ : (تعجبون من دقة ساقه فو الذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد^(٦١)) وكان ابن مسعود إذا اجتنى شيئاً جاء به إلى رسول الله ﷺ ليختار منه ما يشاء، ثم قال ابن مسعود :

(٥٧) ابن هشام، السيرة ٤٣/٤ وابن كثير، السيرة ٥١٦/٣. والأراك : شجر الحمض وأحدثه أرافة. (الجوهرى، الصحاح، باب الكافي، فصل الألف.)

(٥٨) (ابن هشام ٤٣/٤) وله شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم (١١٠٨/٣)

(٥٩) (ابن كثير، السيرة ٥٤٧/٣)

(٦٠) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الكباش، حديث رقم : ٥٤٥٣،

باب ٣١، حديث ٣٤٠٦، وصحيح مسلم، كتاب الأضحية، حديث : ١٠٥٠.

(٦١) البيهقي، دلائل النبوة ٢٩/٥

هذا جنائ وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : أثرتنا أرنباً ونحن بمر الظهران فسمعنا القوم قتلوا، وأدركتها فأخذتها، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها، وبعث إلى الرسول ﷺ بوركها وفخذيها فقبله^(١٢).

وهذا يدل على أنهم ليسوا بمعمرين، حيث صادوا وأكل رسول الله من الصيد الذي صاده، وفيه فتوة أنس رضي الله عنه وسرعته في الجري. وفي المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بمر الظهران بني مسجد فيما بعد عرف بمسجد الفتاح.

٢- إسلام أبي سفيان بن حرب :

لما وجد العباس بن عبد المطلب أبا سفيان بن حرب أردفه خلفه على بقلعة رسول الله ﷺ، وأشار عليه أن يقدم على النبي ﷺ ويطلب منه الأمان لأهل مكة، فجع العباس كلما مرَّ على قوم قالوا : عم رسول الله على بقلته، حتى إذا مرَّ على نار عمر بن الخطاب عرف أبا سفيان بن حرب فقال : الحمد لله الذي أمكن منك من غير عهد ولا ميثاق، واسئل سوفه ليضربه، **فأسرع العباس**، وجاء عمر بجري خلفه، فسبقه إلى رسول الله ﷺ، ثم دخل عمر فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق عدو الله أبا سفيان. فقال العباس : يا رسول الله إني قد أجرتك، فقال النبي ﷺ للعباس : اذهب به معك فإذا أصبحت أجد به علي، فأخذ العباس إلى رحله، وبات عنده، ولما أذن لصلاة الصبح ثار الناس إلى الوضوء ورأى أبو سفيان أمراً عجيباً من الصحابة رضي الله عنهم في ابتدأهم وضوء النبي وتبركهم به فقال : ما رأيتم يا أبا الفضل مثلاً هكذا، لا مثلك كسري، ولا مثلك بني الأصفر ! فقال العباس : ويحك، آمن قبل أن تضرب عنقك. قال : أدخلني عليه. فأدخله العباس على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ فقال : بآبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

وفي رواية عند الواقدي^(١٣)، أن أبا سفيان قال : يا محمد استنصرت إلهي، واستنصرت إلهك، فلا والله ما نقيتُك من مرة إلا ظفرت علي، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً غلبتك. ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله ؟ قال بآبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !! أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

(١٢) صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب الأرنب، ح ٥٥٣٥، ومسلم ح ١٩٥٣. وأثرتنا : نفرتنا.

(١٣) مغزي الواقدي ٨١٦/٢

فقال العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.
قال : فتشهد شهادة الحق فأسلم^(٦٤).

٣- عرض الجيش الإسلامي أمام أبي سفيان :

لما أسلم أبو سفيان في مَرَّ الظهران، و أذن النبي ﷺ بتحريك الجيش الإسلامي نحو مكة، أمر العباس أن يأخذ أبا سفيان أمام الجيش ويحبسه عند مضيق الوادي إلى خطم الجبل بحيث يمر أمامه جميع الجيش على راياته وتشكيله العسكري، ليرى أبا سفيان قوة المسلمين واستعدادهم فيبأس من المواجهة، وينقل الصورة كاملة لقريش، فتعجز عن المقاومة وتقبل الأمان وتستسلم لرسول الله ﷺ، فأخذه العباس إلى مضيق الوادي ثم عدل به إلى خطم الجبل فحبسه، فقال أبو سفيان : غدرأ بني هاشم ؟ فقال العباس : إن أهل النبوة لا ي غدرون ولكن لي إليك حاجة. فقال أبو سفيان : فلها بدأت بها أولاً ليكون الفرج لروعي!! فقال العباس : لم أكن أذهب هذا المذهب^(٦٥).

وعبا رسول الله ﷺ أصحابه، ومرت القبائل على قادتها، والكتائب على راياتها، فكان أول من قدم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في بني سليم وهم ألف فيهم لسواء يحملته عباس ابن مرداس السلمي، ولواء يحملته خفاف بن نذبة، وراية يحملها الحجاج بن علاط، فقال أبو سفيان : من هؤلاء يا عباس ؟ فيقول العباس : هؤلاء بنو سليم. قال أبو سفيان : مالي وسليم، فإذا حاذوه كبروا ثلاثاً. ثم تمر القبيلة الأخرى، فيقول : من هؤلاء يا عباس ؟ فيقول : مزينة. قال أبو سفيان : مالي ولمزينة، حتى إذا نفذت القبائل ما تمر قبيلة إلا يسأل عنها، فإذا أخبره العباس يقول : ما لي ولبنى فلان، حتى مَرَّ رسول الله ﷺ في كتيبه الخضراء (وإنما سميت الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها) من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم لا يرى منهم إلا الحديد من الحديد، فقال : سبحان الله : يا عباس من هؤلاء ؟ قال العباس : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً قال العباس : يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال :- فنعم إذن^(٦٦).

ولما مرت كتيبة الأنصار قال سعد بن عباد لأبي سفيان : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، فشكاه أبو سفيان إلى الرسول ﷺ، فعزله عن راية الأنصار وأعطاها الزبير بن العوام، كما في رواية موسى بن عقبة^(٦٧).

(٦٤) ابن هشام ٤/٤٤

(٦٥) مغازي الواقدي ١٨٨/٢

(٦٦) ابن هشام، السيرة النبوية ٤/٤٤، ٤٥ وعند البخاري بمعناه من مرسل، عروة، حديث

رقم (٤٢٨٠)

(٦٧) ابن كثير، السيرة ٣/٥٥٠

وفي رواية ذكرها الواقدي أن النبي ﷺ لما نزع الراية من سعد بن عبادَة أعطاها لابنه قيس^(٦٨).

قال ابن اسحاق : زعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلأ مكة قال : اليوم يوم المنحمة اليوم تستحل الحرمه ، فسمعها رجل من المهاجرين قال ابن هشام : هو عمر بن الخطاب - فقال يا رسول الله : اسمع ما قال سعد بن عبادَة ، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة . فقال رسول الله ﷺ لعلي : أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها^(٦٩).

دخول رسول الله ﷺ مكة وفتحها

١- رجوع أبي سفيان إلى مكة بالأمان :

أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بالأمان فقال : من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل داره وأغلق بابَه فهو آمن ، فقال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الشرف ، فقال ﷺ : ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن^(٧٠). فرجع أبو سفيان إلى مكة فصرخ بأعلى صوته . يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت زوجته هند بنت عتبة تلومه على ما جاء به وقالت : قُبِحت من طليعة قوم . قال : وبلكم لا تفركم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : وما تفنسي عنا دارك ، قال : ومن أغلق عليه بابَه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد الحرام^(٧١).

و : أبة موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ قال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . وكانت بأعلى مكة - ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن - وكانت بأسفل مكة أغلق بابَه فهو آمن^(٧٢)

وقد قبل عامتهم الأمان إلا بعض نفر فيهم عكرمة بن أبي جهل ، وصبوان بن أمية ، وناس من بني بكر وهذيل ، تلبسوا السلاح ويقسمون لا يدخلها عليهم عتوة.

(٦٨) المغازي ٨٢٢/٧ وله شاهد في صحيح البخاري من مرسل عروة حديث (٤٢٨٠)

(٦٩) ابن هشام ، المصدر السابق ٤٨/٤

ابن هشام ٤٥/٤ وله شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم ، كتاب الجهاد والسير

١٤٠٧/٣

المصدر السابق ٤٥/٤ - ٤٦

في كثير ، السيرة النبوية ٥٤٨/٣

٢- دخول رسول الله ﷺ والحشود الإسلامي مكة :

تحرك الجيش الإسلامي من معسكره في مر الظهران إلى ذي طوى فصكروا بها حتى تلاحق الناس، ووقف النبي ﷺ على راحلته بذي طوى معتجراً بشمعة بردي حيزرة حمراء، واضعاً رأسه حتى إن عثونه بسر واسطة الرجل تواضعاً لله على ما أتم به عليه^(٧٣).

وعند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر^(٧٤)، وكان ﷺ راكباً على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجع، قال عبد الله بن مغفل : لولا يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجعت^(٧٥).

وسأله أسامة بن زيد فقال : يا رسول الله أين تنزل غداً ؟ قال النبي ﷺ : وهل ترك لنا عقيل من منزل^(٧٦) وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله، الخيف حيث تقاسموا على الكفر^(٧٧) والمراد حيث تقاسمت قبائل قريش على مقاطعة النبي ﷺ وبنو هاشم وحصارهم في الشعب قبل الهجرة عند خيف بني كنانة، كما جاء في رواية أخرى لحديث أبي هريرة^(٧٨)، وهو الأبطح. ويحدد الواقدي منزل النبي ﷺ زمن الفتح أنه بالأبطح وجاء شعب أبي طالب حيث حصر رسول الله ﷺ^(٧٩).

وقد قسم النبي ﷺ جيشه إلى فرق ودخل مكة من أربع جهات^(٨٠):

١- أمر خالد بن الوليد أن يدخل من الليط (الحفاير) من أسفل مكة، وكان خالد على المجنبية اليمنى وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل العرب.

٢- وأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدى (جبل الكعبية) وكان على المجنبية اليسرى.

(٧٣) ابن هشام، السيرة ٤/٤٦ و٤ شاهد عند الحاكم في المستدرک ٣/٤٧ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

(٧٤) المصدر نفسه حديث ٤٢٨٥

(٧٥) المصدر نفسه حديث ٤٢٨١ والترجيح ترتيل القراءة ورفع الصوت بها.

(٧٦) المصدر نفسه حديث ٤٢٨٢

(٧٧) المصدر نفسه حديث ٤٢٨٤

(٧٨) المصدر نفسه حديث ٤٢٨٥

(٧٩) مقاري الواقدي ٢/٢٨٨

(٨٠) ابن هشام، السيرة ٤/٤٨ و ٤٩ والأمر بالدخول من كداء، وكدى، في صحيح البخاري

حديث ٤٢٨٠ و ٤٢٩٠ و ٤٢٩١

٣- وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء (الحجون) من حيث قال حسان في شعره :

عدمتنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء^(٨١)

٤- وتقدم أبو عبيدة بن الجراح بالصف - وهم المشاة - من المسلمين بين يدي رسول ﷺ حتى دخل من أذاخر، وأقبل حتى نزل بأعلى مكة وضربت لرسول الله هنالك قبة، وكانت في البطحاء عند مصب شعب أبي طالب.

وكان الزبير بن العوام قد سبق فركز الراية عند أدنى بيوت مكة من البطحاء وهي أعلى مكة، وقد بني مسجد هناك فيما بعد سُمي مسجد الراية (مسجد خدام الحرمين الشريفين اليوم).

وركز خالد بن الوليد رايته عند أدنى بيوت مكة من الجهة التي دخل منها وهي أسفل مكة، وكان الراية اليوم مسجد خالد بن الوليد في حارة الشبيكة قبل الخروج من ريع الرسام.

وقد لقي خالد بن الوليد مقاومة مما اضطره للرد عليهم، وقُتل من المشركين قرابة اثني عشر أو ثلاثة عشر رجلاً^(٨٢) وقُتل من أصحابه ثلاثة هم : خنيس بن خالد الخزاعي، وكرز بن جابر الفهري، وسلمة بن الميلاء الجهني. وطاردهم خالد حتى أوصلهم إلى الخندمة فاهزموا وقتلوا بالحزورة حتى بلغ قتلهم باب المسجد الحرام، وفي ذلك يقول حماس بن قيس بن خالد البكري الذي وعد زوجته بأن يخدمها بخسانم من المسلمين إذا جازوا مكة :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة

وأبو يزيد فأنتم كالمؤتمة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا يسمع إلا غغمة

لهم نهيت خلفنا وهممة لم تتطقي في اللوم أدنى كلمة^(٨٣)

(٨١) البيهقي، دلائل النبوة ٥/٦٦

(٨٢) ابن هشام، السيرة ٤/٥٠ وفي مغازي موسى بن عقبة ص ٢٧٤ أن عدد القتلى من بني بكر قرابة العشرين، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة.

(٨٣) المصدر السابق ٤/٥٠ وانظر تاريخ الطبري ٣/٥٨ والسيرة النبوية لابن كثير

ورأى النبي ﷺ بارقة السيوف فقال : ما هذا ؟ ألم أنه عن القتال ؟ فقالوا : خالد بن الوليد قاتل فقاتل، ولما انصرف الناس إلى بيوتهم وإلى المسجد الحرام توقف القتال^(٨٤).

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال له : اهتف لي بالأنصار، قال : فاطافوا به وويشت قريش أوباشاً لها وأتباعاً، فقال رسول الله ﷺ : ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، ثم قال بيديهما إحداهما على الأخرى، ثم قال : حتى توافوني بالصفاء.

قال : فا نطلقنا، فما شاء أحدنا أن يقتل أحداً إلا قتله. وما أحد منهم بوجه إلينا شيئاً قال : فجاء أبو سفيان فقال : أباحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم^(٨٥).

فهذه الرواية فيها إشارة إلى إذن النبي ﷺ للأنصار بأن يقتلوا من يتعرض لهم حتى يلقوا رسول الله عند الصفاء، ولكن الأنصار لم يجدوا مقاومة إلا شيئاً يسيراً لم يقف لهم.

وكان ﷺ قد أهدر دماء بعض الأشخاص وأمر بقتلهم ولو وجدوا متعلقين بأسفار الكعبة وذلك بسبب جرائم ارتكبوها في حق الإسلام والمسلمين.

قال الحافظ ابن حجر: وقد جمعت أسماءهم من مفارقات من الأخبار وهم :

عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد، ومقيس بن صباب، وهبار بن الأسود، وقينان كاتنا تغنيان بهجاء النبي ﷺ، وسارة مولاة بني المطلب وهي التي وجد معها كتاب حاطب، والحارث بن طلائع الخزاعي، وكعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة، وأرنب مولاة ابن خطل، وأم سعد.

قال : فكمثلت العدة ثمانية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد هما القينتان، اختلف في اسميهما أو باعتبار الكنية واللقب^(٨٦).

وقد بين الحافظ ابن حجر مصير كل واحد منهم، فعبد العزى بن خطل، قتل وهو متعلق بأسفار الكعبة، قتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو هريرة الأسلمي، اشتركا في قتله، وأما الحويرث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ فقتله علي بن أبي طالب يوم

(٨٤) مغازي موسى بن عقبة ص ٢٧٥ وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٤٤/٥ وفتح الباري

١١/٨

(٨٥) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما جاء في فتح مكة ١٤٠٦/٣

(٨٦) فتح الباري ١١/٨ ويلاحظ أن الرجال المذكورين تسعة.

الفتح. وأما مقيس فكان أسلم ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ثم ارتد؛ فقتله نائلة بن عبد الله يوم الفتح، وأما هبار فكان شديد الأذى للمسلمين، وعرض لزيث بنت رسول الله ﷺ لما هاجرت فنخس بعيرها فأسقطت، ولما كان يوم الفتح أعلن إسلامه فغفا عنه رسول الله ﷺ. وأما الحارث بن الطلائع فقتله علي بن أبي طالب يوم الفتح، والفيتان استؤمن لإحدهما فأسلمت، وقتلت الأخرى، وأما سارة فأسلمت وعفا عنها رسول الله ﷺ وعاشت إلى خلافة عمر، وأما عبد الله بن سعد، وعكرمة بن أبي جهل فقد استؤمن لهما من رسول الله ﷺ فأمنهما، وأسلما، وكذلك كعب بن زهير. ووحشي، وهند بنت عتبة، لما أسلموا عفا عنهم رسول الله ﷺ، وكان ﷺ لا يرد أحدا جاءه مسلما وشعاره يوم الفتح (اليوم يوم الرحمة).

وفي بعض ما ذكر الحافظ ابن حجر نظر، فإن عكرمة، وكعب بن زهير، ووحشي، لم يرد نص صحيح في إهدار دمائهم، ولكنهم خالفوا وهربوا، ثم جاءوا تائبين مسلمين، فقبلهم رسول الله ﷺ، وهند جاءت مع عامة النساء وبايعت وهي خالفة لكن رسول الله ﷺ عفا عنها وقبل إسلامها.

الرسول ﷺ في مكة بعد الفتح :

١ - الطواف بالبيت :

كان النبي ﷺ قد نزل في القبة التي ضربت له بأعلى مكة في البطحاء، واغتسل هناك فقد أخرج ابن إسحاق، عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : لما نزل رسول الله بأعلى مكة، فرأى رجلان من أحماني من بني مخزوم، وكنت أم هانئ عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي وهما - كما قال ابن هشام - : الحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة. قالت : (فدخل عليّ أخي علي بن أبي طالب فقال : والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جلست رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة - إن فيها لأثر العجين - وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل، أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إلى فقال : مرحباً وأهلاً يا أم هانئ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وأخبر عليّ فقال : قد أجزنا من أجزت، وأمتنا من أمت، فلا يقتلنهما^(٨٧).

(٨٧) ابن هشام، السيرة ٤/٥٤ والخبر في صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ اغتسل في بيتها وصلى ثماني ركعات يوم فتح مكة. (٨٨)

وعند الواقدي عن عطاء قال : بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يدخل بيوت مكة، اضطرب بالأبطح (أي ضربت له خيمة) في عمرة القضية، وعام الفتح، وفي حجته (٨٩) وذكر أنه كان يأتي لكل صلاة - أي إلى المسجد الحرام -، ومعه في فتح مكة من زوجاته : أم سلمة، وميمونة (٩٠).

ولما أطمأن الناس خرج ﷺ من منزله حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده (٩١) ويعطي الواقدي - على عادته - تفاصيل أوسع فيقول (٩٢) : مكث رسول الله ﷺ في منزله ساعة من نهار حتى أطمأن واغتسل، ثم دعا براحلته للقصواء فأدبته إلى باب قيته، ودعا للبس السلاح، والمغفر على رأسه، وقد صف له الناس. فركب راحلته، والخيل تموج بين الخندمة والحجون، ومز رسول الله ومعه أبو بكر بنبات أبي أحيحة بالبطحاء حذاء منزل أبيهن، وقد نشرن رؤسهن يطمئن وجوه الخيل بالخمر، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتهنمن وذكر بيت حسان بن ثابت فأنشده أبو بكر

نظل جياناً متمطرات
يلطمهن بالخمر النساء

وكان ﷺ قد بعث عمر بن الخطاب من البطحاء ومعه عثمان بن طلحة، وأمره أن يتقدم فيفتح البيت فلا يدع صورة إلا محاها، وكان فيه صور الملائكة، وصور إبراهيم يستقسم بالأزلام، وصورة مريم بنت عمران (٩٣).

(٨٨) الصحيح، كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح، حديث ٤٢٩٢

(٨٩) المغازي ٨٢٩/٢

(٩٠) المصدر نفسه ٨٢٩/٢

(٩١) ابن هشام، السيرة ٥٤/٤ وطواف النبي ﷺ يوم الفتح على راحلته في صحيح البخاري، حديث رقم ٤٢٨٩

(٩٢) المغازي ٨٣١/٢ - ٨٣٥

(٩٣) إرسال عمر لمحو الصور من الكعبة ذكره الإمام أحمد في المسند كما عند ابن كثير ٥٧١/٢ وله شاهد في صحيح البخاري من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله !! لقد علموا ما تنقسمان بها فط (كتاب المغازي حديث ٤٢٨٨).

وقد جاء رسول الله ﷺ إلى الكعبة على راحلته فاستلم الركن بمحجنه وكبر، فكبر المسلمون لتكبيره، فرجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً، حتى جعل رسول الله يشير لهم : استكوا - والمشركون فوق للرجال ينظرون - ثم طاف رسول الله ﷺ على راحلته وأخذ بزمامها محمد بن مسلمة، فلما فرغ من طوافه نزل رسول الله عن الراحلة وأخذها معمر بن عبد الله بن نضلة فأخرجها عن المسجد، وتقدم رسول الله إلى المقام فصلى خلفه، ثم التصرف إلى زمزم فاطنح فيها وقال : لولا أن يغلبكم الناس لنزعت معكم، فنزع له العباس بن عبد المطلب دلوا فشرب منه، ثم طلب مفتاح الكعبة وأحضره عثمان بن طلحة وهو من الحجابة - وكان قد أسلم بعد الحديبية - وأخذه منه ثم فتح باب الكعبة ودخل ﷺ ومعه أسامة بن زيد، وبلال، وعثمان بن طلحة، وأجاف بلال عليهم الباب، فمكث فيها ما شاء، ورأى بقايا صور فأمر أسامة أن يحضر له دلواً من ماء فأخذ ﷺ يبل الثوب ويضرب به الصور حتى زال أثرها ويقول (قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون) وكبر ﷺ في نواحي الكعبة، وكانت على ستة أعمدة، ثم تقدم وجعل عمودين عن يمينه وعموداً عن يساره وثلاثة أعمدة وراءه وصلى^(٩٤)، ثم خرج رسول الله ﷺ ووقف على الباب والمفتاح في يده ثم جعله في كفه، وأمسك بعضائتي الباب، وأشرف على الناس وقد حضروا له وهم جلوس حول الكعبة، فخطب فيهم - كما سيأتي تفصيله - وأعطى المفتاح لعثمان بن طلحة وهو يتلو قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تَوْثِقُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعَظْمِكُمْ بِهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)^(٩٥) ثم قال: خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم^(٩٦)

وقد تعرض ﷺ لمحاولة اغتيال وهو يطوف بالبيت، حيث ذكر ابن هشام أن فضالة بن عميز بن الملوح اللبني أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : (فضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله. قال : ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال : لا شيء، كنت أنكر الله، قال : فضحك النبي ﷺ ثم قال : استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه^(٩٧))

(٩٤) ابن كثير، السيرة ٣/٥٧٥ . ومعنى أجاف الباب : أغلقه.

(٩٥) سورة النساء : ٥٨

(٩٦) الأزرقي، أخبار مكة ١/٣٧٠ بإسناد مرسل، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ٨٥/٥

(٩٧) السيرة النبوية ٤/٥٩ والذي يظهر أن هذه المحاولة لمست أثناء الطواف الأول عندما

كان على راحلته وإنما في طواف آخر، أو بعد الفراغ من الطواف والتزول عن

الراحلة

٢- تحطيم الأصنام :

روى البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يقطعها بعدد في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد^(٩٨)

وعند ابن هشام من حديث ابن عباس رضي الله عنه تفصيل أكثر حيث قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص (أي مثبتة في الأرض بالرصاص) فجعل النبي ﷺ يشير بقبضيه في يده إلى الأصنام ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً^(٩٩)

فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع، فقال نعيم بن أسد الخزاعي في ذلك :

وفي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقاب^(١٠٠)

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : وأقبل رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر ثم طاف بالبيت فأتى إلى صنم إلى جانب البيت كانوا يعبدونه، وفي يد رسول الله ﷺ قوس، وهو آخذ بسية^(١٠١) القوس فلما أتى على الصنم جعل يطن في عنقه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً^(١٠٢).

ويحدد الواقدي^(١٠٣) مواقع بعض الأصنام فيقول : وكان هبل أعظمها وهو وجاء الكعبة على بابها، قلت : ولعله المراد بحديث مسلم الصنم الذي طعنه النبي ﷺ بقوس في عنقه.

وأما إساف وثائلة فهما بقرب زمزم حيث ينحرون وينحون الذبائح عندهما.

ولما كسبر هبل والنبي ﷺ واقف عليه قال الزبير لأبي سفيان بن حرب : يا أبا سفيان قد كسبر هبل، أما لك كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم، فقال أبو سفيان : دع هذا عنك يا أبن العوام، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير

(٩٨) صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث ٤٢٨٧ وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير،

حديث ٨٧ ص ١٤٠٨

(٩٩) سورة الإسراء آية ٨١

(١٠٠) السيرة النبوية ٥٩/٤ وانظر سيرة ابن كثير ٥٧٢/٣

(١٠١) سية القوس : ما عطف من طرفي القوس.

(١٠٢) كتاب الجهاد والسير، حديث ٨٤ ص ١٤٠٦

(١٠٣) المغازي ٨٣٢/٢

ما كان. وفي رواية يونس بن بكير، عن ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما دخل الكعبة وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها ثم قام على باب الكعبة ورسم بها^(١٠٤).

وأخرج البيهقي عن ابن أبيزى قال : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز حبشية شمعاء تخمش وجهها وتدعو بالويل، فقيل يا رسول الله : رأينا عجوزاً شمعاء حبشية تخمش وجهها وتدعو بالويل، فقال : تلك نائلة أيست أن تعبد ببلدكم هذا أبداً^(١٠٥).

وقد أمر ﷺ أن لا يبقى صنم عند أحد إلا كسره، فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام؛ وكان عند هند بنت عتبة صنم في بيتها فجعلت تضربه بالقدوم حتى صار قطعاً وهي تقول : كنا منك في غرور^(١٠٦).

٣- خطبة الرسول ﷺ يوم الفتح :

تدل المصادر على تعدد خطب النبي ﷺ عند فتح مكة حسب المناسبات والحاجات، فكانت أول خطبة بعد خروجه من جوف الكعبة، حيث وقف على باب الكعبة وقد جمع الناس له فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة^(١٠٧) أو دم أو مال^(١٠٨) يدعى فهو تحنت قسدي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلفة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش : إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم و آدم من تراب. ثم تلا هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾^(١٠٩) ثم قال : يا معشر قريش : ما ترون أتى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال : أذهبوا فأنتم الطلقاء^(١١٠). هكذا ذكر ابن إسحاق، أما غيره فذكر أن النبي ﷺ قال لهم : فإني

(١٠٤) البيهقي، دلائل النبوة ٧٤/٥

(١٠٥) المصدر السابق ٧٥/٥ وهو مرسل، وانظر سيرة ابن كثير ٥٧٢/٣.

(١٠٦) الواقدي، المغازي ٨٧٠/٢ و ٨٧١

(١٠٧) المأثرة : المنقبة التي يتفاخر بها

(١٠٨) المراد المال المترتب على الربا فيقه موضوع

(١٠٩) سورة الحجرات آية ١٣

(١١٠) ابن هشام، السيرة النبوية ٥٥/٤ وللخطبة شاهد عبد أبي داود ٩٩٢/٢ والترمذي

٦٤/٥ ومسنند أحمد ١١/٢ برقم ٤٥٨٣ عدا قوله : أذهبوا فأنتم الطلقاء.

أقول لكم كما قال أخى يوسف ﷺ (لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ تَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ^(١١١))

= وروى الإمام أحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لما فتحت مكة على رسول الله ﷺ قال : كفوا السلاح الإخراعة من بني بكر، فأتى لهم حتى صلوا العصر، ثم قال : كفوا السلاح. فلقى رجل من خزاعة رجلا من بني بكر من غير المزدلفة فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقام خطيباً فقال : - وأبنته مسنداً ظهره إلى الكعبة - إن أعدى الناس على الله من قتل في الحرم، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول^(١١٢) الجاهلية. فقام إليه رجل فقال : إن فلاناً ابني، فقال رسول الله ﷺ لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفرش وللعاشر الأئلب، قالوا : وما الأئلب ؟ قال : الحجر، قال : وفي الأصابع عشر عشر، وفي المواضع خمس خمس. قال : ولا صلاة بعد الغداة حتى تطلع الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، قال : ولا تنتح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا يجوز لامرأة عطية إلا بئان زوجها^(١١٣)

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن خزاعة قتل رجلًا من بني نيث يقتل لهم في الجاهلية، فقام رسول الله ﷺ فقال : إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، ألا وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرام، لا يفتلي شوكمها، ولا يعضد شجرها، ولا يكتنط ساقطتها إلا منشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يودى، وإما أن يفاد. فقام رجل من قريش فقال : يا رسول الله إنا الإنخسر فإتينا نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله ﷺ : إنا الإنخسر^(١١٤) وفي جامع الترمذي

(١١١) أبو عبيد، الأموال ص ١٤٣ و البيهقي في دلائل النبوة ٨٥/٥، والآية من سورة يوسف ٩٢ وانظر الوافدي، المغازي ٨٣٦/٢.

(١١٢) الذحل : الحقد والعداوة، يقال : طلب بذله، أي بئاره، والجمع ذحول (الجوهري، الصحاح، باب اللام، فصل الذال)

(١١٣) المسند ١٨٠/٢ حديث رقم ٦٦٨١ والحديث قال عنه الألباني : حسن صحيح، وقال شعيب : الحديث حسن ولبعضه شواهد يصح بها. ومعنى في الأصابع عشر عشر : أي في كل أصبع عشر من الإبل. والمواضع جمع موضحة، وهي الشجعة التي توضع عن العظم، وفيها خمس من الإبل.

(١١٤) صحيح البخاري، كتاب الديات، حديث رقم (٦٨٨٠) ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها ٩٨٩/٢ وينحوه في صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، حديث رقم (١٨٣٢) من حديث أبي شريح الخزاعي وكذا برقم (١٨٣٣) من رواية ابن عباس.

زيادة وهي قوله ﷺ : يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر أن يقع، لقد قتلتم قتيلا لأدينه، فمن قُتل بعد يومي هذا فهو بخير النظرين: إن أحب قدم قتله، وإن أحب قطعته^(١١٥)

ومن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب فقال : إن الله ورسوله حَرَمَ بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقبِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ : أَرَأَيْتُمْ شُعُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهُ يَطْلَى بِهِ السُّلَاقُ، وَيُذَنُّ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ، فَقَالَ : لَا، هُوَ حَرَامٌ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : عِنْدَ ذَلِكَ : قَاتِلِ اللَّهَ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُعُومَهَا، أَجْمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ^(١١٦)

وأخرج البيهقي من طريق ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ خطب الناس عام الفتح ثم قال : أيها الناس إنه لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لا يزيده إلا شدة، والمؤمنون يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، تَرُدُّ سَرَايَاهُمْ عَلَى قَعِيدَتِهِمْ. لَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، دِيَةَ الْكَافِرِ نِصْفُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ، لَا جَنْبٍ وَلَا جَنْبٍ، وَلَا تَأْخُذُ صَدَقَتُهُمْ إِلَّا فِي دَوْرِهِمْ^(١١٧)

وأخرج البخاري في صحيحه، حديث عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، أن امرأة سُرقت في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ فقال : أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ فقال أسامة، استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً، فأتى على الله بما هو أهله، ثم قال : أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت تربتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة : فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ^(١١٨)

(١١٥) جامع الترمذي، كتاب الديات، حديث رقم (١٤٠٦) والمعلل : الدية.

(١١٦) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب بيع الميتة والأصنام، حديث (٢٢٣٦) ومسلم،

كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر ١٢٠٧/٣

(١١٧) دلائل النبوة ٨٦/٥. ومعنى لا جلب ولا جنب : أن عامل الزكاة يأتي للناس في محالهم فلا تجلب الماشية ولا تجنب له.

(١١٨) الصحيح، كتاب المغازي، حديث ٤٣٠٤ وفي كتاب الأنبياء، والحدود، ومسلم، كتاب الحدود، حديث (١٦٨٨).

٤- مبايعة أهل مكة :

بعد تطهير الحرم من الأصنام وخطبة النبي ﷺ الأولى جاءه الناس ببائعين، الرجال والنساء والصبيان، فكان يبايعهم على الإسلام والإيمان والخير والجهاد، فقد جاء مجاشع بن مسعود السلمي بأخيه مجاهد، وكان أسنّ منه وقال يا رسول الله : جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال ﷺ : ذهب أهل الهجرة بما فيها. فقلت على أي شيء تبايعه ؟ قال : أبايه على الإسلام والإيمان والجهاد^(١١٩) وفي رواية لمسلم: إن الهجرة قد مضت لأهلها ولكن على الإسلام والجهاد والخير.

وفي حديث ابن عباس عند البخاري (أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا^(١٢٠)) وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله جلس للناس عند قرن مسقة، فبايع الناس على الإسلام والشهادة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله^(١٢١))

وكان ﷺ يبايع النساء بالكلام من غير مصافحة وعلى ما في سورة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَتَأْتِيَنَّكَ وَتَأْخُذْنَ بِلِيَابِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ بِيَهُنَّ خُفْيَةٌ فَمِنْهُنَّ تُؤْمِنُ بِمَا قُلْتَ وَأُخْرَى كُفْرَتْ وَلَهُنَّ أَسْجُدُكُنَّ غَافِرُونَ رَجِيمٌ^(١٢٢)﴾

وكان ﷺ يمسح على رؤوس الأطفال وعلى وجوههم^(١٢٣). وقد جاء الصديق رضي الله عنه بأبي قحافة - وكان قد كف بصره - فأعلن إسلامه، وفرح النبي ﷺ بذلك وهذا الصديق بإسلام أبيه^(١٢٤).

بعض أعمال النبي ﷺ وقضاياه في مكة :

وفي مدة إقامته ﷺ في مكة قام بعدد من الأعمال وحكم وأفتى في عدد من القضايا. ومن أعماله ﷺ :

(١١٩) أخرجه البخاري في صحيحه ٩٣/٥ كتاب الجهاد، وفي المغازي برقم ٤٣٠٧ و

٤٣٠٨، ومسلم، في كتاب الجهاد ١٤٠/٢

(١٢٠) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، حديث رقم ٣٠٧٧

(١٢١) المسند ٤١٥/٣ وهو حديث حسن

(١٢٢) المسند (٦٤/٢١ من الفتح الرباني) والآية رقم ١٢

(١٢٣) صحيح البخاري ١٩١/٥ والمسند ٤٣٢/٥

(١٢٤) ابن هشام، السيرة ٤٦/٤ ورواه الحاكم في المستدرک ٦/٣ وقال : صحيح على شرط مسلم، وتابعه الذهبي.

١ - تجديد أعلام الحرم :

فقد أمر ﷺ بتجديد أعلام الحرم، وأسند ذلك إلى تميم بن أسد الخزاعي. وكان أول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم عليه السلام وجبريل يريسه ذلك، ثم جدها إسماعيل ثم جدها قصي بن كلاب، ثم لم تحرك حتى جدها النبي ﷺ يوم فتح مكة^(١٢٥).

قال الواقدي : وكل وإد في الحرم يسيل في الحل، ولا يسيل وإد من الحل في الحرم إلا موضع واحد عند التنعيم^(١٢٦).

وفي كتاب الأزرقي، والفاكهي، تفصيلات دقيقة عن أعلام الحرم وحدوده، وقياس المسافات من الكعبة إلى الأعلام^(١٢٧).

٢ - الولاية على مكة :

لما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى حنين استخلف عليها عتاب بن أسيد - بفتح الهمزة - بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان عمره واحداً وعشرين سنة. وقال له: أتدري على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله، فاستوص بهم خيراً^(١٢٨). وجعل معه معاذ بن جبل الأنصاري إماماً ومقرئاً ومعلماً^(١٢٩).

وعند ابن سعد : أنه استخلف أولاً : هبيرة بن شبل بن العجلان الثقفي، فلما رجع من الطائف استخلف عتاب بن أسيد^(١٣٠).

وذكر ابن سعد : أن رسول الله ﷺ استعمل سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة حين فتحها، فلما خرج إلى الطائف خرج معه سعيد بن سعيد فاستشهد بالطائف^(١٣١).

وأمر رسول الله ﷺ أبا محذورة القرشي الجمحي (أوس بن مغيرة بن لؤذان بن سعد) بالأذان، حيث سمعه مع غلظة يحاكي الأذان فأعجبه صوته، فطلبه وأجلسه

(١٢٥) مغازي الواقدي ٨٤٢/٢

(١٢٦) المصدر نفسه

(١٢٧) انظر أخبار مكة للأزرقي ٦٨٦/٢ وأخبار مكة للفاكهي ٢٧٣/٢ وانظر تفصيلاً أكثر في بحث الشيخ عبد الملك بن دهيش، أعلام الحرم وحدوده.

(١٢٨) ابن هشام، السيرة ١٣٩/٤، وابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ١٢٨/٢، والفاكهي، شفاء الغرام ٢٥٢/١.

(١٢٩) المصدر السابق ١٣٩/٤، وانظر الفاكهي، شفاء الغرام ٢٥١/٢.

(١٣٠) كتاب الطبقات الكبير ١٣٥/٢.

(١٣١) كتاب الطبقات الكبير ١٣٤/٢.

أمامه، وألقى عليه الأذان حرفاً حرفاً، ثم دعا له وأمره أن يؤذن بالحرم، فما زال مؤذناً حتى مات سنة ٥٩ هـ. وقبل سنة ٧٩ هـ^(١٣٢)، وتعلم النبي ﷺ الأذان لأبي محذورة، في صحيح مسلم، وسنن الترمذي^(١٣٣).

ومن القضايا التي حكم فيها :

١ - قضية في النسب :

قضى ﷺ في مسألة رفعت إليه في النسب، فقد روى عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عتبة بن أبي وقاص، عهد إلى أخيه سعد، أن يقبض ابن وليدة زمعة، وقال: إنه ابني. فلما قدم رسول الله ﷺ مكة في الفتح أخذ سعد بن وليدة زمعة فأقبل به إلى النبي ﷺ، وأقبل معه عبد بن زمعة، فقال سعد بن أبي وقاص: هذا ابن أخي عهد إلي أنه ابني. فقال عبد بن زمعة: يا رسول الله هذا أخي، هذا ابن وليدة زمعة ولد على فراشه، فنظر رسول الله ﷺ إلى ابن وليدة زمعة فإذا أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ: هو لك، وهو أخوك يا عبد بن زمعة من أجل أنه ولد على فراشه، وقال رسول الله ﷺ: احتجبي منه يا سودة، لما رأى من شبه عتبة بن أبي وقاص. قال ابن شهاب: **قلت عائشة: قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر.** قال ابن شهاب: وكان أبوهريرة يصيح بذلك^(١٣٤).

٢ - البيان أنه لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم :

أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما حديث أسامة بن زيد { أنه سأل النبي ﷺ في فتح مكة قال يا رسول الله: أنزل في دارك بمكة؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرثه جعفر ولا علي شسينا، لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين^(١٣٥).

(١٣٢) انظر ترجمته في ابن عبد البر، الاستيعاب ١٢/١٣٢، وابن الأثير، أسد الغابة ٢٧٨/٥، وابن حجر، الإصابة: ١٢/١٢، وانظر الفاسي، العقد الثمين ٩٩/٨.

(١٣٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب صفة الأذان حديث رقم: ٣٧٩، وسنن الترمذي، كتاب أبواب الصلاة، باب ١٤٠ (الترجيح في الأذان) حديث رقم: ١٩١.

(١٣٤) العاهر: الزاني

(١٣٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي حديث رقم ٤٣٠٣ ورواه في مواطن أخرى برقم ٢٥٣٣ و ٢٤٤١ و ٢٢١٨

(١٣٦) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب توريت دور مكة حديث رقم: ١٥٨٨ وأخرجه في مواطن أخرى برقم: ٣٠٥٨ و ٤٢٨٢. وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب النزول بمكة وتوريت دورها حديث رقم: ٤٣٩/١٣٥١ و ٤٤٠.

٣- قضاء النبي ﷺ لهند بنت عتبة أن تأخذ من مال زوجها بالمعروف :

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها، أن هند بنت عتبة أم معلوية، قالت لرسول الله ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل علي جناح أن آخذ من ماله سرا؟ قال : خذي أنت وبتوك ما يكفيك بالمعروف^(١٣٧).

السرايا بعد فتح مكة :

بعث النبي ﷺ بعد فتح مكة سرايا حول مكة للدعوة وتطعيم الناس الإسلام وإزالة آثار الشرك والجاهلية، ومن أبرزها الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، ومن تلك البعوث:

١- سرية خالد بن الوليد لهدم الغزى:

بعث النبي ﷺ في الخامس والعشرين من شهر رمضان خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم صنم الغزى، وهي من أعظم أصنام العرب، وكانت بنحلة الشامية، تعظمها قريش وكنانة ومضر كلها، وكان سدنتها من بني شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم، وهي ثلاث سمرة وعينها بناء، فلما جاءها خالد هرب السادن في الجبل، فقطع خالد السمرة وهدم البناء، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : ارجع فإنك لم تصنع شيئاً، فرجع خالد، فلما رآه السدنة هربوا في الجبل وهم يقولون : يا عزي خبله، يا عزي عوريه، وإلا قموتي، فنظر خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحنوا التراب على رأسها ووجهها، فضربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره. فقال : تلك الغزى^(١٣٨).

٢- سرية عمرو بن العاص لهدم سواع :

بعث النبي ﷺ في شهر رمضان سنة ثمان سرية بقيادة عمرو بن العاص لهدم صنم سواع، وكان في رهاط، وتعظمه هذيل، فسار عمرو ﷺ حتى انتهى إليه وعنده السادن فقال : ما تريد؟ قال عمرو : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه. قال : لا تقدر

(١٣٧) صحيح البخاري، كتاب البيوع حديث رقم : ٢٢١١ وأخرجه في مواطن أخرى منها رقم : ٢٤٦٠، ٣٨٢٥، وصحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب قضية هند، حديث ٧/١٤١٧، وانظر دلائل النبوة للبيهقي ١٠٠/٥ وما بعدها.

(١٣٨) ابن هشام، السيرة ٤ / ٧٩، والواقدي، المغازي ٢ / ٨٧٠، وابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٥، والبيهقي، دلائل النبوة ٥ / ٧٧، وابن كثير، السيرة النبوية ٣ / ٥٩٧.

على ذلك. قال عمرو : ولم ؟ قال : تمنع ! قال : حتى الآن أنت في الباطل !! وبهك
وهل يسمع لو يبصر ! قال : لقدوت منه وكسرتة، وأمرت أصحابي فهدموا البيت.

ثم قلت للسان : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله. (١٢٩)

٣- سرية سعد بن زيد لهدم مناة :

بعث النبي ﷺ في شهر رمضان سنة ثمان سرية بقيادة سعد بن زيد الأنصاري
الأشجعي في عشرين فارساً لهدم صنم مناة، وكانت بالمثل من قديد، وأكثر من
بعظها الأوس والخزرج، فلما انتهى إليها وعليها سمان، قال السمان : ما تريد ؟ قال
: هدم مناة. قال : أنت وذلك ! فخرجت من الصنم امرأة سوداء عريانة تدعو بالويل
وتضرب صدرها، فضربها سعد ﷺ حتى قتلها، ثم أقبل على الصنم فهدمه، ولم يجد
في خزانته شيئاً فرجع إلى النبي ﷺ. (١٣٠)

٤- سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة :

كان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة، ومعه ثلاثمائة وخمسون من
الصحابه، وأمره النبي ﷺ بأن يكون داعياً لا مقاتلاً، فخرج ﷺ إلى جنوب مكة فاصداً
بني جذيمة - بفتح الجيم وكسر المعجمة - ابن عامر بن عبد مناة بن كنانة (١٣١)،
وكانوا ناحية يلمع، بمكان يسمى القيصاء (١٣٢). فلما وصل إليهم دعاهم إلى الإسلام
لكنهم استعصوا بالقتال وحموا السلاح، وقالوا كما في لفظ حديث ابن عمر عند
البخاري (فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا، فجعلوا يقولون : صلبنا، صلبنا) (١٣٣)،
فأخبرهم خالد أن للناس قد أسلموا، وعليهم أن يضعوا السلاح، فأعطوا بأيديهم بعد
المحاربة، واستأسروا وكنف بعضهم بعضاً، فأعطى خالد كل أسير إلى رجل من
أصحابه، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل أسيره، فاعترض عبد الله بن
عمر فلم يقتل أسيره ولا من أطاعه من أصحابه (١٣٤)، حيث فهم كما في سياق حديثه

(١٢٩) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٥، وابن جرير، تاريخ الطبري ٣ / ٦٦.

وإبن سيد الناس، عيون الأثر ٢ / ٢٣٨.

(١٣٠) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٦، وابن جرير، تاريخ الطبري ٣ / ٦٦.

وإبن سيد الناس، عيون الأثر ٢ / ٢٣٨.

(١٣١) تنظر البيهقي، دلائل النبوة ٥ / ١١٣، وابن حجر، فتح الباري ٨ / ٥٧.

(١٣٢) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٦، وابن جرير، تاريخ ٣ / ٦٦، والبيهقي،

الروض الأثف ٧ / ٢٦٤، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢ / ٢٣٩.

(١٣٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث خالد إلى بني جذيمة، حديث رقم : ٤٣٣٩.

(١٣٤) المصدر نفسه.

أنهم أسلموا لكنهم لم يحسنوا النطق فقالوا : صلبنا، بينما فهم خالد من ذلك أنهم يستهزلون بالمسلمين ولذا أمر بقتلهم فقتلوا، ولما بلغ الأمر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين ^(١٤٥). ثم أمر علي بن أبي طالب عليه السلام أن يأتي بني جذيمة ويصنع للوضع وأعطاه مالا، فذبح ذبائح القتلى لأولادهم، وعرضهم عن كل شيء فقتلوه حتى ميلغة الكلب، وزاد مال مما معه فأعطاه لهم احتياطا وصلة ^(١٤٦).

٥- ميرة الطفيل بن عمرو لهدم صنم ذي الكفوين :

هذه السرية ذكرها ابن سعد في شهر شوال سنة ثمان قبل خروج النبي ﷺ إلى الطائف حيث أمر الطفيل بن عمرو الدوسي أن يسير إلى ذي الكفوين (صنم عمرو بن حممة الدوسي) فيهدمه، ويستمد قومه وكانوا قد أسلموا، ويواليه بالطائف، فخرج الطفيل سريعا وهدم الصنم وحرقه وهو يقول :

يا ذا الكفوين لست من عبادك

مياذننا لكسدم من مياذنك

إني حششت النار في فؤادك

واستقر قومه فنذر معه منهم أريمية، ووافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام ومع الطفيل دابة ومنجنيق ^(١٤٧).

٦- سرايا أخرى :

ذكر الواقدي في المغازي ^(١٤٨) : أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة بث السرايا في كل وجه، وأمرهم أن يغربوا على من لم يكن على الإسلام، فخرج هشام بن العاص بن وائل السهمي في متنين قبل بلعم، وخرج خالد بن سعد بن العاص الأموي في ثلاثمائة قبل غرة، ولم يذكر أي تفاصيل عن هاتين السريتين، وقد نورد بذكر ذلك عن بركة كتاب المغازي والسير، فلم يذكرهما ابن إسحاق، ولا تلميذ الواقدي ابن سعد، ولا الصالح صاحب سبل الهدى والرشاد مع تبرعه واستقصائه، ولم أجد في ترجمتهما

(١٤٥) للمصدر نفسه.

(١٤٦) ابن هشام، الميرة ٧٣/٤، وميلغة الكلب : الإناء الذي يسقى به ويطعم.

(١٤٧) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ١٤٥/٢، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢٥٨/٢.

(١٤٨) الواقدي، المغازي، ٨٧٣/٣.

ما يدل على ذلك، سوى ما ذكره ابن حجر في ترجمة هشام بن العاص من أن التبي
 في بعه في سرية في رمضان عام الفتح، ونسبه للواقدي^(١٤١).

الدروس والعبر من الفتح الأعظم :

١- خرج صلى الله عليه وسلم من مكة وهي أحب البلاد إليه، وقد أعلمه الله
 أنه سيعود إليها، ولذا عمل صلى الله عليه وسلم على تهيئة هذا الفتح، بنشر الإسلام
 وتقوية الجبهة الإسلامية لمواجهة حلف المشركين، وبعد التفضاض الأحزاب عن
 حصار المدينة في السنة الخامسة من الهجرة أعلن عليه الصلاة والسلام إستراتيجيته
 لمواجهة في السنوات القادمة فقال : اليوم نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم^(١٤٠). أي أنه سيحاصر العدو وينقل المعركة إليه.

٢- أعلن صلى الله عليه وسلم في شهر ذي القعدة من السنة السادسة أنه
 خارج إلى مكة يريد العمرة وتعظيم البيت الحرام، ومناق الهدي لينحر في مكة وهذا
 الموقف سيجري قريشاً، ويكشف أنها ليست أهلاً لرعاية البيت الحرام إذا صدت من
 جاء معظماً له، مما يساعد في التصديق عليها وخروج حلفائها عنها.

٣- لما عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدنة والصلح قبله، لأنه
 يريد أن يهدئ النفوس الشائرة حتى يتمكن من النظر الصحيح في دعوة التوحيد، ولهذا
 سمى الله صلح الحديبية فتحاً مبيناً ، وقد بان أثر هذا الصلح في سعة انتشار الإسلام،
 ودخول قبائل بأكملها فيه حتى قال الإمام الزهري : فما فتح في الإسلام فتح قبله كان
 أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب،
 وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتفوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد
 بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك المستنين مثل من كان في الإسلام قبل
 ذلك^(١٤١) قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 سلم قد خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج في
 عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف^(١٤٢).

(١٤٩) ابن حجر، الإصابة ٥٤١/٦.

(١٥٠) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٥٢/٣ والحديث في صحيح البخاري، كتاب المغازي،

باب غزوة الخندق حديث رقم ٤١١٠

(١٥١) ابن هشام، السيرة النبوية ٤٤٧/٣.

(١٥٢) المصدر نفسه ٤٤٨/٣.

٤- حافظ صلى الله عليه وسلم على احترام العهد، لكن جاء النقص من قريش بمعاونتها لحلفائها بني بكر على حلفائه خزاعة، فلما وقع منها النقص استبشر صلى الله عليه وسلم بفتح مكة وقد تهيأت الأحوال خلال سنتي الهدنة، ولهذا قال: نصرت يا عمرو بن سالم^(١٥٣) ونظر إلى سحابة في السماء ثم قال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب^(١٥٤).

٥- الاستعداد لفتح مكة بما يليق به، فقد أخفى صلى الله عليه وسلم أسره، ودعا الله أن يحبس الأخبار عن قريش حتى يفاجلهم قبل أن يستعدوا، وأمر بحراسة الطرق المؤدية إلى مكة، والتعرف على الخارجين من المدينة والداخلين إليها، وروى بإرسال سرية إلى بطن إضم (شمال المدينة) ليظن أنه باستعداده يريد تلك الناحية، وأرسل عليه الصلاة والسلام لمن حوله من القبائل وأهل البادية بالحضور إلى المدينة، وأنه عازم على الغزو ولم يحدد وجهته.

٦- في قصة حاطب رضي الله عنه ومحاولته إفشاء سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتابة لقريش دروس وفوائد وهي أن الضعف والخطأ لا يؤمن وقوعه من الإنسان حتى وإن كان من ذوي السابقة.

٧- وقاية الله لرسوله وللمسلمين بكشف ذلك للكتاب قبل أن يصل إلى العدو، وحسن تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العوقف لما علم صدق حاطب واعتراقه بالخطأ. فقال: (قد صدقتم) وعفا عنه.

٨- رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وشفقته، حيث أوقف أحد أصحابه عند كنية وجدوها في الطريق ترضع أولادها لثلاث يوثبها أحد، وأمر أصحابه بالفطر ولزمهم بذلك لما قرب من مكة لثلاث يشق عليهم، وليكونوا أقدر على مجابهة العدو.

٩- حسن التنظيم والترتيب للجيش وإدارته، حيث عقد الرايات والألوية للقبائل، وجعلها في مجموعات محددة يسهل إدارتها وإبلاغها الأوامر والنواهي، وعند دخول مكة أحاط بها من كل جوانبها من أسفلها ومن أعلاها ومن وسطها ليتمكن من الفتح ويرهب العدو ويضمن استسلامه وقبول الأمان.

١٠- سماحة النبي صلى الله عليه وسلم وحسن خلقه، حيث تجاوز عن سفیان بن الحارث وعبد الله ابن أبي ربيعة لما جاءا مسلمين، رغم ما قاما به من الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا حسن تعامله صلى الله عليه وسلم مع أبي

(١٥٣) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٥/٤ والهيتمي، مجمع الزوائد ١٦٣/٦.

(١٥٤) الهيتمي، مجمع الزوائد ١٦٤/٦.

سفیان بن حرب مما فتح قلبه للحق فأسلم، وعاد إلى قريش بالأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١١- كان صلى الله عليه وسلم يوازن بين اللين وبين الحزم وإظهار القوة، حيث أمر أن يُوقَفَ أباهُ سفیان عند مضيق الوادي ليطلع عن كثب على قوة المسلمين وحسن تنظيمهم، ولقد أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقوله : من كان عنده سلاح فليخرجه (أي يظهره ويعرض به، مما يجعل أبو سفیان يبأس من فئدة قريش على المقاومة، فذهب منادياً بأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم) (من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفیان فهو آمن).

١٢- تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكره الله الذي هيا له الأسباب ومكّنه من العودة إلى مكة بعد أن خرج منها خائفاً، فكان صلى الله عليه وسلم خافضاً رأسه على الراحلة حتى إن عتونه (طرف لحيته) ليمس واسطة الرجل تواضعاً لله على ما أنعم به عليه.

١٣- علوه صلى الله عليه وسلم بعد المقدرة عن صناديد الكفر والمن عليهم، وتأليف قلوبهم ليدخلوا في الإسلام. **هل حتى الذين استنوتوا من الأمان وأمر يقتلهم عفا عن جاء منهم مسلماً.**

١٤- تطهير رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيت من الأوثان والأصنام المحيطة به وإزالة الصور التي كانت على جدران الكعبة، وتأكيد حرمة مكة وأنها إنما أُلحِتَ له صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار، ثم علّت حرمتها كما كانت إلى يوم القيامة.

وأمر منادياً ينادي : لا يبقى عند أحد صنم إلا كسره.

وفي هذا كله إظهار لشعائر التوحيد، وطمس لمعالم الجاهلية والكفر.

١٥- يعتبر فتح مكة أعظم الإنجازات والتجارات للسياسة النبوية في نشر الإسلام، فبعد الفتح وتحطيم الأصنام، تفتحت قلوب العرب وصدورهم للإسلام، وزال عنهم طاغوت الكفر والرهبة من الأوثان، حيث اتضح لهم يقيناً أنها لا تنفع ولا تنفع، وأنهم منها في غرور.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (١٥٥).

وروى البخاري عن عمرو بن سلمة الجرمي قال: كانت العرب تتلوم (أي تنتقِر) بإسلامها الفتح، فيقولون : أتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح، يادر كل قوم بإسلامهم ، ويدر أبي قومه بإسلامهم ^(١٥٦) وقد سَمَى علماء السيرة النبوية العام التاسع من الهجرة - الذي جاء بعد الفتح - عام الوفود لكثرة وفود العرب فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم معتلين إسلامهم وخضوعهم لطاعته.

(١٥٦) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، حديث ٣٠٢.



قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد الجزري) ت : ٦٣٠ هـ :-
 - أسد الغابة في معرفة الصحابة، د، ت، دار الشعب بمصر.
- الأزرقي (محمد بن عبد الله) ت بعد ٢١٤ هـ :-
 - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق : عبد الملك بن دهيش، ط الأولى ١٤٢٤ هـ، مكتبة الأسد بمكة.
- البخاري (محمد بن إسماعيل) ت : ٢٥٦ هـ :-
 - الجامع للصحیح، ط الأولى ١٤١٧ هـ، نشر دار السلام بالرياض.
- البیهقي (أحمد بن الحسين) ت : ٤٥٨ هـ :-
 - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق : عبد المعطي قنعي، ط الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الترمذي (محمد بن عيسى) ت : ٢٧٩ هـ :-
 - سنن الترمذي، تحقيق : أحمد شاكر، د، ت، دار إحياء التراث العربي، مصر.
- الحاكم (محمد بن عبد الله) ت : ٤٠٥ هـ :-
 - المستدرک علی الصحیحین، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.
- ابن حجر (أحمد بن علي السقلافي) ت : ٨٥٢ هـ :-
 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية بالقاهرة.
- الإصابة في معرفة الصحابة، تحقيق : طه محمد الزيني، ط ١٣٩٦ هـ، مكتبة للكتابات الأثرية.
- ابن حنبل (أحمد بن محمد الشيباني) ت : ٢٤١ هـ :-
 - المسند، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، وإشراف : عبد الله التركي.
- أبو داود (سليمان بن الأثير السجستاني) ت : ٢٧٥ هـ :-
 - المعتن، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، طبع دار الفكر، بيروت.
- ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع) ت : ٢٣٠ هـ :-
 - الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.
- كتاب الطبقات الكبرى، تحقيق : علي محمد عمر، ط الأولى ١٤٢١ هـ، مكتبة الفاضل بالقاهرة.
- السيهلي (عبد الرحمن بن عبد الله الفخمي) ت : ٥٨١ هـ :-
 - الروض الأنف في شرح السيرة لابن هشام، ط الأولى ١٤٢١ هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن سيد الناس (محمد بن محمد البصري) ٧٢٤ هـ :-
 - عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الأفاق ١٩٧٧ م، بيروت.
- الصنعاني (عبد الرزاق بن هيثم) ت : ٢١١ هـ :-
 - المصنف، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، ط ٢ سنة ١٤٠٣ هـ، المكتبة الإسلامية، بيروت.

الطبري (محمد بن جرير بن يزيد) ت : ٣١٠هـ.

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف بمصر.

ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله التماري القرطبي) ت : ٤٦٣هـ.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مطبوع بهامش الإصالة، تحقيق : طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٩٦هـ.

أبو عبيد (القاسم بن سلام) ت : ٢٢٤هـ.

- الأموال، تحقيق : محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، ودار الفكر العربي.

عروة بن الزبير بن العوام، ت : ٩٤هـ.

- مغازي رسول الله ﷺ، جمع وترتيب : محمد مصطفى الأعظمي، مكتب التربية بدول الخليج العربي، الرياض ١٤٠١هـ.

القاسي (محمد بن أحمد الحمضي المكي) ت : ٨٣٢هـ.

- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق : محد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية بمصر.

- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

الفاكهي (أبو عبد الله محمد بن إسحاق) ت : القرن الثالث.

- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق : عبد الملك بن دهبش، ط الأولى ١٤٠٧هـ، مكتبة النهضة بمكة.

ابن كثير (إسماعيل بن عمر القرشي) ت : ٧٧٤هـ.

- السيرة النبوية، تحقيق : مصطفى عبد الواحد.

محسن بن أحمد النور (معاصر).

- مرويات فتح مكة، رسالة ماجستير، غير منشورة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري) ت : ٢٦١هـ.

- صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

موسى بن عقبة الأسدي، ت : ١٤١هـ.

- المغازي، جمع وترتيب : محمد باقرشيش أبو مالك، نشر جامعة ابن زهر بأغادير، المغرب.

ابن هشام (عبد الملك الحميري) ت : ٢١٨هـ.

- السيرة النبوية، علق عليها : عمر عبد السلام تدمري، ط الأولى، دار الريان بالقاهرة.

الهيثمي (علي بن أبي بكر) ت : ٨٠٧هـ.

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي، ط٣.

الواقدي (محمد بن عمر) ت : ٢٠٧هـ.

- المغازي، تحقيق : (مارسدن جونز)، دار عالم الكتب، بيروت.

الخلفية وحركتهم الانفصالية في طرابلس الغرب وجبل نفوسة (١٩٦-٢٩٤هـ/٨١١-٩٠٧م)

د. إبراهيم فرغل محمد (*)

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، خاتم النبيين، وبعد،

فهذا بحث في التاريخ الإسلامي يتناول موضوع "الخلفية وحركتهم الانفصالية في منطقة طرابلس الغرب وجبل نفوسة"، وذلك في الفترة من سنة (١٩٦-٢٩٤هـ / ٨١١-٩٠٧م) ويرجع سبب اختيار هذا الموضوع إلى عدم وجود دراسة مستقلة توضح أسباب الحركة الانفصالية للخلفية ودورها في الأحداث السياسية في منطقة المغرب وتناجها، وإنما كان تاريخها يكتب عرضاً ضمن الحديث عن تاريخ الدولة الرستمية.

ونظراً لخطورة هذه الحركة في تاريخ المغرب العربي وأثرها على الأحداث في المنطقة وطول الفترة الزمنية لها، رأيت أن أقوم بدراسة تفصيلية عنها. وقد حرصت فيها على إلقاء الضوء من خلال التعريف بالخلفيين وكيفية قيام حركتهم واستقلالهم بحيز طرابلس الغرب وبيان أهمية خطورتهم على الأئمة الرستميين بآثارهم. وكيف كانت هذه الحركة أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى انهيار الدولة الرستمية وسقوطها سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م.

ترجع أهمية هذا الموضوع أن تلك الحركة، قامت في الجهات الشرقية من الدولة الرستمية، وهذه الجهات كانت حيوية وكان مصدر حيويتها أنها كانت عامرة بالسكان الذين كان من بينهم المتقدمون في العلم وأهل الشجاعة والحرب.

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية كلية دار العلوم جامعة الفيوم.

وقد نجح الخلفيون في السيطرة على الجهة الشرقية للدولة الرستمية لفترة طويلة، بدأت في أواخر عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وكان لهم كيان في جزيرة جربة، ثم بدأ نجمهم في الأفول زمان أبي مسور (أبى أواسط القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي) حتى انقرضوا ولم يبق لهم أتباع، وترتب على قيام حركتهم مجموعة من الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وزادت من الصراع بين النفوسيين الإباضيين المؤيدين لأئمة الدولة الرستمية وبين النفوسيين المؤيدين للخلفية، مما أدى إلى الدخول في حرب أحياناً كثيرة.

كما كان قيام حركتهم سبباً في قيام حركات أخرى في نفس المنطقة، وكان انشقاقهم بسبب قضية تعدد الأئمة وحق الرعية في اختيار عمالها. ولعل مكنن الخطورة في هذه الحركة أن زعيمها - وهو خلف بن الأسح - لم يكن فقط يريد الاستقلال بجبل نفوسة أو حيز طرابلس، وإنما كان يريد أن يكون إماماً للإباضيين جميعاً.

ولا شك أن خلفاً ظل يتمتع بنفوذ في معظم جهات طرابلس وجبل نفوسة حتى وفاته، وأن أنصاره من نفوسة وزواغة الذين عرفوا بالخلفية ظلوا موالين لابنه المعروف بالطيب حتى أواخر عهد الدولة الرستمية.

والحقيقة أن منطقة جبل نفوسة تنصف ضمن المناطق التي عانت من إهمال الدارسين فترة طويلة من الزمن، ولذا كانت هذه الدراسة في تلك المنطقة - برغم ما اكتنفني من صعوبات - محاولة لإزالة بعض الغبار عن صفحات من التاريخ والحضارة في هذه المنطقة، ومن جهة أخرى هي محاولة لتمهيد السبيل أمام أولئك الذين يودون الذهاب إلى أبعد من هذا الهدف، وذلك بالسعي لإتجاز دراسات أكثر تفصيلاً وعمقا.

الأبعاد الجغرافية لجبل نفوسة وحيز طرابلس ودورها في قيام حركة الخلفية

من للجبال أهمية في بلاد المغرب جبل نفوسة^(١)، وقد وصفه المؤرخون بصفات عديدة نظراً لأهميته ومكانته في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فقال عنه ياقوت الحموي: "نفوسة: جبال في المغرب بعد إربقية، عالية نحو ثلاثة أميال، وطول هذا الجبل مسيرة ستة أيام من الشرق إلى الغرب

(١) نفوسة: بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهمة، وقد افتتح عمرو بن العاص نفوسة، وكانوا نصارى ومن جبل نفوسة رجع عمرو بن العاص بكتاب ورد عليه من عمر بن الخطاب رضى الله عنه، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٨ ص ٣٩٧ دار إحياء التراث العربى، بيروت ٢٠٠٨م.

وبين جبل نفوسة وطرابلس ثلاثة أيام، وبينه وبين القيروان ستة أيام وبه مدينتين، أحدهما سروس في وسط الجبل والأخرى يقال لها جادو من ناحية نفزاوة^(١)

وقد تميز جبل نفوسة بمياهه الجارية وكثرة الفواكه من الكروم والأعصاب والتين، وكان أكثر زروع أهل نفوسة الشعير الطيب المتناهي طيبا، مما إذا خيل كان أطيب من سائر الطعام في سائر الأقاليم^(٢) ولأهل نفوسة في صناعة الخبز حنق وتعمهر فاقوا في ذلك كل الناس، ويمتاز هذا الجبل أيضاً بالنخل الكثير والزيتون^(٣).

وكانت تسكن في هذا الجبل قبيلة نفوسة، فعرف الجبل بهم فسمى بجبل نفوسة، وأما قبيلة نفوسة، فهي نسبة إلى نفوس بن زاجيك، وهم نفوس بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها، ونفوسة من قبائل البربر البئر^(٤) وكانت قبيلة نفوسة من

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٨ ص ٣٩٦.

ونفزاوة: هم بنو يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر، كانت مواطنهم جنوبى شط الجريد، حتى سميت المنطقة ببلاذ نفزاوة ثم تفرعت قبائلهم في سائر المغرب واستوطنت في مناطق متعددة منه، انظر: ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١١٤، ط بيروت ١٩٧١، وابن منصور: قبائل المغرب ج ١٠ ص ٢٠٦ ط الرباط ١٩٦٨ م. وكانت المدينة التي تميزت بخبز هذا الشعير هي مدينة سروس إحدى مدن هذا الجبل وكان هذا الخبز أئذ من محل طعام، انظر: ياقوت: مرجع سابق ج ٨ ص ٣٩٦.

(٢) انظر في ذلك: ابن حوقل: صورة الأرض ص ٩٤ - ٩٥، وأبو زكريا: مسير الأئمة ص ١١٥، ١١٦، نزهة المشتاق ص ٢٩٧-٢٩٩، وابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٠. Despois: Le Djebel Nefousa, p.137 Paris 1935.

Basset: Les Sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique, p.426 Paris 1899.

(٣) والبربر هم سكان المغرب الإسلامي، وقد عاشوا على شكل قبائل وجماعات الترتشت أرض المغرب، وقد قسم التنايبون شعب البربر إلى قسمين كبيرين وهما برانس ومادغوس، ويلقب بالأبتر ومن قبائل البئر التي سادت الدولة الرستمية نفوسة ولواته وسدرته ونملية، ومن البرانس، هورة، وعن البربر انظر: ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ٩١، الصلاوي: الاستقصا ج ١ ص ٥٤، ابن خلدون: العبر ج ٧ ص ٩، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٤٦١، ابن منصور: قبائل المغرب ج ١ ص ٢٩٩، ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ٤٨، د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٢٣، ٢٨، د. شكوي فيصل: حركة الفتح الإسلامي ص ١٢٦، أحمد توفيق: كتّاب الجزائر ص ١٠.

أوسع قبائل البربر وأكبرها فهم شعوب كثيرة مثل بني زمور^(١) وبني مسكور ومطوسة، وكانت مدينة صبرة^(٢) قبل الفتح في مواطنهم، وكانت هي ياكورة الفتح الأول للإسلام.

والحقيقة أن قبيلة نفوسة لعبت دورا مهما في دعم الدولة الرستمية ومساندتها، مما جعل أحد الأئمة الرستميين وهو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يصرح بأن المذهب الإباضي والدولة الرستمية، إنما قامت بأسسها بنفوسة، وفي ذلك يقول المؤرخ أبو زكريا في سير الأئمة: "وحدثني غير واحد من أصحابنا أن نفوسة بلغت في التأييد لسلطان الرستميين بأرض تاهرت مبلغا عظيما لم يبلغه غيرهم في مغربنا هذا، فلذلك قال الإمام: إنما قام هذا الدين بسبب نفوسة وأموال مزانة^(٣)."

وقد بقيت جموع نفوسة في موطنها بالجبل قرب طرابلس، إلا أن أعدادا منهم وفدوا على العاصمة لنصرة الإمامة الرستمية ومساندتها في مواجهة المشاكل التي تعترضها واستقروا داخل العاصمة، وأصبحت لهم أحياء تنسب إليهم مثل عدوة نفوسة ودرج النفوسيين^(٤).

وأهل جبل نفوسة شراة، إما إباضية من أصحاب عبد الله بن أبيان أو وهبية من أصحاب عبد الله بن وهب^(٥).

(١) وفي ذلك يقول ياقوت الحموي: "وبها - أي نفوسة - قبيلة يقال لهم بنو زمور لهم حصن يقال له تيرفت في غاية المنعة لا يقدر عليه أحد"، انظر: معجم البلدان: ج ٨ ص ٣٩٦.

(٢) صبرة: بالفتح ثم السكون بلد قريب من مدينة القيروان وكانت بلدة حصينة لا تغل حصانتها عن حصانة طرابلس، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥ ص ١٧٧. وعن قبيلة نفوسة: انظر ابن خلدون العبر ج ٦ ص ١١٤ وابن منصور: قبائل المغرب ج ٣ ص ٢٠٤.

(٣) أبو زكريا: سير الأئمة ص ١٥٤ ومزانة: قبائل كثيرة ونسابة البربر يعدون في مزانه بطون كثيرة مثل: بلايان وفرنه وبحيحه ودكمة وحمرة ومدونة، وقد ساندت مزانة الدولة الرستمية بأموالها، وقد ذكر ابن حوقل صفة الاعتزال التي كانت تغلب على قبيلة مزانة، انظر: صورة الأرض ص ٩٦، أبو زكريا: سير الأئمة ص ١٥٥ و ابن خلدون: العبر ج ٦ - ص ٢٣٥.

(٤) د. الحبيب الجناحلي: المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية ص ٣، ٤ ط الدار التونسية وانظر أيضا:

(٥) ابن خلدون: معجم البلدان ج ٨ ص ٣٩٦، ياقوت الحموي: العبر ج ٦ ص ٢٣٠.

وقد شاركت قبيلة نفوسة بصورة فعالة في الوظائف الإدارية في الدولة الرسمية، وساندت الأئمة الرسميين في النواحي العلمية والفقهية وهذا إلى جانب المساندة العسكرية.

وفي النهاية يمكن القول إن قبيلة نفوسة، نظراً لكثرة أعداد أبنائها وشجاعتهم، استطاعت أن تحمي الإمامة الرسمية من الأخطار التي تعرضت لها، ولذلك احتلت قبيلة نفوسة مكانة الصدارة في المجتمع الرسمي، بل وأشرفت على النواحي الإدارية بها.

وذلك مما دفع المؤرخ ابن الصغير المالكي إلى القول " وكانت نفوسة تلي عقد تقديم القضاة وبيوت الأموال وإتكال المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق وكانت الأجناد بطانة السلطان وأولاده وحشمه " (١١).

وعن أهمية نفوسة يقول أحد الباحثين : (كانت نفوسة عماد الدولة الرسمية تحتكر أكبر المناصب بها، فهي التي رفعت راية الإمامة في الحرب والسلم، قوية الدولة بقوتها وانتصرت بانتصارها (١٢).

وأما طرابلس الغرب (١٣) فقد وصفها ياقوت الحموي في معجمه بقوله : (طرابلس)، بالرومية والإغريقية، ثلاث مدن سماها اليونانيون طرابلسية، وذلك بلغتهم أيضاً ثلاث مدن، لأن (طرا) معناه ثلاث وبليلة (مدينة)، وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان وهي على شاطئ البحر ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة، وبها مسجد يعرف بمسجد الشعب مقصود، وفي بربرها من كلامه بالنبطية، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعب، ومرساها مأمون من أكثر الرياح (١٤).

(١١) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرشدين ص ٢٧.

(١٢) إحسان عبد الله : للدولة الرسمية في تاهرت ص ٢٨٨، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٦م.

(١٣) طرابلس : بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضاً مضمومة وسين مهملة، ويقال لها أيضاً : أطرابلس، وتوجد مدينة أخرى في بلاد الشام تحمل اسم طرابلس أيضاً، فقول لهذه طرابلس الغرب تميزاً عن الأخرى التي يقال لها طرابلس الشام. وعن طرابلس الغرب : تظفر : البكري : المغرب ص ١٠٧، الاستبصار : ص ١١٠.

(١٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٦ ص ٢٥٤.

وذكر البكري أن طرابلس كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة في شرقها^(١٥) وقد توجه عمرو بن العاص على رأس قواته تجاه مدينة طرابلس سنة ٢١هـ، وضرب حولها الحصار الذي انتهى بفتحها والاستيلاء عليها، وكان استيلاء عمرو بن العاص عليها هو آخر النشاط العسكري الذي مارسه عمرو على أرض المغرب^(١٦).

وقد نجح إمام الإباضية (أبو الخطاب عبد الأعلى بن السبح المعافري) في الاستيلاء على طرابلس سنة ١٤١هـ / ٧٥٨ م أثناء التفكك السياسي للمغرب في هذه الفترة، وذلك عندما استغاث به بعض المسلمين لإتقاذ مدينة القيروان لما حل بها من الدمار والخراب لمساجدها ومساكنها على أيدي ورفجومة^(١٧) وكان استيلاء الإباضية على طرابلس مقدمة للاستيلاء على القيروان، وبذلك أصبحت السلطة في القيروان للخوارج الإباضية يحكمون أمرها ويوجهون الأمور فيها، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على نجاح التيار الخارجي في المغرب وإقبال البربر على اعتناق تلك المذاهب الوافدة من المشرق، وتأثير هذه المذاهب في المنطقة، وقيامها بدور فعال في مجريات الأحداث.

وفي سنة ١٥٤هـ / ٧٧١ م ثار إباضية إقليم طرابلس ضد ولاية الدولة العباسية في المغرب، والتفوا حول أحد زعمائهم، وهو أبو حاتم يعقوب بن لبيب المغيلي مولى كندة، الذي نجح في محاربة والي طرابلس (الجنيد بن بشار الأمدي) وهزمه، وبذلك أصبح إقليم طرابلس خاضعا للإباضية بقيادة أبي حاتم، وهذا النجاح شجع بقية إباضية المغرب على التجمع ومحاولة القضاء على سلطة الخلافة^(١٨).

(١٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية ص ٢٢٦

(١٦) انظر في ذلك : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٧١ ط ليدن ١٩٢٠ م / البلاتري : فتوح البلدان ص ٢٢٧ ط ١١ تحقيق محمد رضوان القاهرة ١٩٥٩ م. د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، عصر الولاة ص ٥٧، مطبعة مصر ١٩٤٧ م.

(١٧) انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٥٩٨، وابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٨١ والسلاوي : الاستقصا ج ١ ص ١١١ وقبيلة ورفجومة : قبيلة صغرية من نفاوة، من قبائل البربر، عاشوا فسادا في القيروان وسيطروا عليها سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م و نجح أبو الخطاب عبد الأعلى زعيم الإباضية في قتلهم قتلًا ذريعا ثم رجع إلى طرابلس. انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٧٠، وابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٠.

(١٨) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٥٩٨، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٩٣.

وفي سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م نجح والي العباسيين يزيد بن حاتم في هزيمة الإباضية ومقتل أبي حاتم الإباضي، وبذلك ضعف التجمع الإباضي في طرابلس وجبل نفوسة، ولكن ذلك لم يمنع أن يتطلع الإباضيون إلى اختيار أحد أئمتهم لإعادة نفوذهم مرة أخرى، وبالفعل تمت مبايعة عبد الرحمن بن رستم إماما للإباضية في المغرب الأوسط سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م، وهو التاريخ الذي رجحته كتب الإباضية ابتداء من أبي زكريا ومن نقل عنه ^(١٩)

وبذلك بدأ تاريخ الدولة الرسمية في بلاد المغرب ^(٢٠) وأما حيز طرابلس الذي أقام فيه الإباضيون، فالمقصود به المنطقة الواقعة بين المدينة (طرابلس) وبين جبل نفوسة.

التعريف بالخلفية :

ينتمي الخلفية إلى خلف بن السمع بن أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري ^(٢١) الذي قام بثورة وحركة وتمرد والفصل عن الدولة الرسمية، وقد اتخذت طابعا دينيا واستفحل خطرهما وذلك في الجبهة الشرقية من الدولة، وبخاصة في منطقة جبل نفوسة وحيز طرابلس، خلال السنوات الأخيرة من حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وردحا طويلا من عهد ابنه أفلح. وقد عرف أتباعه بالخلفية منذ أن بايعوا خلفا بالإمامة وأيدوه في الانشقاق عن إمارة تاهرت ^(٢٢).

^(١٩) انظر أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، ١٢٠.

^(٢٠) وكانت هذه الدولة إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها فارسية في إدارتها، انظر : د. عصام الدين عبد الروؤف الفلي : تاريخ المغرب والأندلس ص ١٥٢ مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٩٠ م.

^(٢١) وقد علق الأستاذ الدكتور سعد زغول عبد الحميد على اسم خلف بن السمع بقوله : (ونحن لا ندرى إن كان خلف هو اسمه الحقيقي أم أنه اسم تجريح أطلقه عليه الكتاب من خصومة، كما سيطلقون عليه لقب الخبيث بن الطيب تماما كما فعل أهل السنة بمحمد بن أبي بكر الذي اتهم في مقتل عثمان، وكما فعل كتاب الأمويين بأبان بن عثمان عندما اتهم في فتنة ابن الزبير، انظر : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٣٤، ٣٣٣ منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩ م.

^(٢٢) ومن الجدير بالذكر أن أهم الانشقاقات الإباضية الأخرى هي النكارية والنفتالية والحسينية أو العبرية والسكاكية والغرية، انظر : الشهر ستقي : الملل والنحل ج ١ ص ١٨٢ ط القاهرة ١٩٥٦ م ، الإسرائيبي : التبصير في الدين ص ٥٧،

وبذلك أصبحت فرقة الخلفية فرقة معارضة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم^(٢٣).

والدولة المرستمية تنسب إلى عبد الرحمن بن رستم الفارسي من مسلمي الفتح، وقد نجح في تأسيس دولة بإقليم تاهرت في المغرب الأوسط بعد أن بايعته القبائل لعلمه وفضله، على أن يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وأثار الصالحين.

وقد جمعت الدولة المرستمية بين المغربيين الأكنى والأوسط من خليج سرت شرقاً إلى وهران غرباً، فشملت كل المناطق التي كان يسكنها الإباضية تقريباً في جبل نفوسة وحيز طرابلس، وقد بدأت الدولة إمامة إسلامية انتخابية ثم تحولت إلى ملكية وراثية^(٢٤).

القاهرة ١٩٥٥ م، د. عامر النجار : الإباضية وعدى صلتها بالخوارج ص ٩٥ - ١٠٨ ط دار المعارف القاهرة ١٩٩٣ م.

Lewickj : Melanges Berberes , p.269

^(٢٣) الإمام عبد الوهاب هو الذي تولى خلفاً لوالده عبد الرحمن بن رستم، وقد اختلف المؤرخون في مدة حكمه فالتابع بينهم أنها دامت أربعين سنة، وأن سنة توليته الخلافة سنة ١٦٨هـ وأن وفاته كانت سنة ٢٠٨ هـ، وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري الباروني في الأزهار الرياضية فقد ذكر أنه تولى الحكم سنة ١٧١هـ وأن وفاته كانت سنة ١٩٠هـ، انظر : للشملخي : السمر ج ٢ ص ٢٧٢ - ٢٢٤ / ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٧.

الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٦ - ١٦٦ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ٤٧.

Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane , vol, 1, p. 244

^(٢٤) انظر : د. محمد ناصر : منهج الدعوة عند الإباضية ص ١٤٩ - ١٥٦ مكتبة الاستقامة سلطنة عمان، ١٩٨٣ م.

عمرو خليفة النامي : دراسات عن الإباضية ص ١١٣، ١١٤ ترجمة ميخائيل خوري و د. ماهر جرار ومراجعة د. محمد صالح ناصر دار الغرب الإسلامي ٢٠٠١ م.

د. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٤٤، ١٤٥ دار الثقافة للمغرب ط ٢ ١٩٨٥ م.

على يحيى مصر : الإباضية في الجزائر ص ٦٠، ٥٧ مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٩.

وتمثل حركة خلف بن السمع الانتشاق الثاني في صفوف الإباضية بحسب رأى المؤرخ أبى زكريا بينما يرى المؤرخ ابن الصغير المالكي أن الانتشاق الثاني كان يتمثل في موقف قبيلة هولة المعادى للإمام عبد الوهاب^(٢٥).

ومن تأمل في أمر خلف وأتباعه يظهر له أن خلفهم ليس دينيا بل هو سياسي محض لا يخرجهم عن الإباضية في الاعتقاد شيء، وقد عاصرت حركة خلف بن السمع أخريات عهد الإمام عبد الوهاب وفترة من حكم ابنه الفلاح، ثم ظهرت على فترات مختلفة حتى نهاية الدولة الرسمية، وقد شكلت خطرا على أوضاع الدولة، إذ نجح خلف في بسط نفوذه على منطقة طرابلس وجبل نفوسة واتخذت لها طابعا دينيا^(٢٦).

ومما يؤكد خطورة حركة الخلفية، اتساع المناطق التي كان يحكمها خلف بن السمع في الجبهة الشرقية من الدولة الرسمية ومدى ثرائها الاقتصادي والبشري، ولذلك فإن ما أقدم عليه خلف كان خطيرا، لأنه أراد أن يجعلها وراثية بدلا من عملية الاختيار التي يقوم بها الإمام في تاهرت.

وكان والد خلف (السمع بن أبى الخطاب) واليا على جبل نفوسة وحيز طرابلس^(٢٧) من قبل الإمام عبد الوهاب وبقاء على طلب أهل حيز طرابلس، رغم أن الإمام عبد الوهاب لم يكن راضيا عن ذلك لأن السمع كان وزيره وأحب الناس إليه وأنصحهم له، وكان الإمام قد وافق على توليته عندما قرر العودة إلى تاهرت بعد أن ظل في منطقة طرابلس لفترة طالت إلى سبع سنوات بسبب توتر الأحوال في المنطقة مما اضطره إلى الإقامة في جبل نفوسة، وقد أشارت الروايات الإباضية بأن الإمام عبد الوهاب اتخذ طريق المشرق ليقتصد الحج، فرفض أهل جبل نفوسة أن يتركوه يواصل طريقه خشية المصودة فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله^(٢٨).

(٢٥) ومن الجدير بالذكر أن ابن الصغير المالكي لم يذكر أو يتحدث عن حركة خلف بن السمع لأن مجال هذا الانتشاق كان منطقة طرابلس وجبل نفوسة وإما أفراد هو بأحداث العاصمة تاهرت، وقد خصص كل من أبى زكريا والدرجيني والشماعى مساحات في رواياتهم عن أحوال جبل نفوسة وحيز طرابلس.

(٢٦) د. محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإسلامي ص ١٢١ دار العودة بيروت، ١٩٧٦ م.

(٢٧) حيز طرابلس : هو المنطقة الواقعة بين مدينة طرابلس وجبل نفوسة.

(٢٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٥ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٨٣ المكتبة للتوثيق، القاهرة (د. ت) / الدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٦٥ -

أما السماح فقد أحسن المبررة وعدل في الأحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من أمناء الأهالي في التفتت المهمة ومراكز العمران وفق مرغوب إمامة، بحيث لم يتكروا عليه شيئا في مدة ولايته كلها، لا يخرج من رأى الإمام ولا يخالف له أمرا^(٢٩).

ولذلك عندما توفي السماح كان لموته صدى عظيم في نفوس الناس الذين أحبه وعظموه، حتى إنهم انتمروا بأمر العامة من الناس ممن ليس له بصيرة بأمر الدين ولا علم بأمر المسلمين، فوَلُوا على أنفسهم ابنه خلفا^(٣٠).

ويبدو أن خلفا هذا قد دعا لنفسه على أساس أنه حفيدا لأبى الخطاب عبد الأعلى بن السماح المعافى، الذي كان إماما للإباضية قبل قيام الدولة الرسمية^(٣١).

ويمكن القول إن التشقاق الخلفية كان بسبب قضية تعدد الأئمة وحق الرعية في اختيار عمالها.

ويقول المؤرخ الكبير الدكتور سعد زغول : "وبسبب الولاية على حيز طرابلس وهل يجب أن يستمع الإمام إلى رغبة أهل المنطقة في اختيار واليهم، أم

٦٧ / د. سعد زغول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٢٩٠ / د. السيد عبد العزيز

سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٦٩.

(٢٩) الشماخي : السير ج ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٤، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، الدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٦٨، الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٠.

(٣٠) د. سعد زغول : مرجع سابق ج ٢ ص ٣٣٣.

(٣١) أبو الخطاب عبد الأعلى بن السماح المعافى : وأبو الخطاب هذا من وجوه العرب، وهو أحد تلاميذ إمام الإباضية في البصرة بالمشرق (أبو عبدة مسلم بن أبي كريمة) وقد أخذ عنه أصول المذهب الإباضى وبعد عودته إلى المغرب، تم اختياره ليكون إماما للإباضية، وفي سنة ١٤٠هـ نجح الإباضيون في الاستيلاء على طرابلس ثم القيروان، ولكن هذا النجاح لم يستمر طويلا، إذ أرسلت = الخلافة العباسية واليهما على مصر ابن الأشعث الذى التقى بأبى الخطاب في سرت سنة ١٤٤هـ فقتل (أبو الخطاب) وكثيرا من أتباعه، انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٨١، الشماخي : السير ج ٢ ص ٢٤٦، ٢٤٧، الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص ١٩، ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرسميين ص ٢٣٩، ٢٤٠، د. عوض محمد خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٤٧.

أنه صاحب الحق المطلق في تولية من يشاء حجب ولاية من يشاء، مما يذكر بمسألة الشرط التي كان يطالب بها يزيد بن قسدين، كان الاشتقاق الثنائي أو الافتراق بين إباضية الرستميين ^(٢٢).

ويرى الأستاذ على يحيى معمر * أن فرقة الخلفية لم يكن لها رأى أو مبدأ، ماعدا قولهم بجواز انفصال ليبيا عن الجزائر في الحكم، ومن ثم فهي ليست فرقة دينية، وأقصى ما يقال فيها أنها فئة باغية على الإمامة الرستمية يرأسها زعيم سياسي وليس إماما دينيا * ^(٢٣)

وبعد أن أدرج الخلفية في قائمة الفرق التي انشقت عن الإباضية، قال هذا المؤرخ الإباضي : * والعجيب من المؤرخين وكتاب المقالات أن يتأثروا بالجانب السياسي هذا للتأثير الكبير، فيعتبروا هؤلاء المقاتلين فرقة، ويعتبرون خلفا إماما لفرقة ^(٢٤).

ومما لا شك فيه أن حروبا طويلة قد نشبت بين خلف التآثر وبين ولاية الأئمة الرستميين في حيز طرابلس، وقد ثبت هو وأتباعه على عصيائهم، على الرغم من أن فقهاء المشرق أكدوا أن خلفا وأتباعه على خطأ وأنه يجب عليهم طاعة أئمتهم من الرستميين.

ويبدو أن الحروب والمنازعات التي وقعت بين خلف والأئمة الرستميين، شغلته وأصحابه على أن يدلوأ بدلوهم في مجال العقيدة والفقه كما فعلت النكارية والتفائية ^(٢٥). ويقول أبو عمر المارغني الإباضي : ليس بيننا وبين الخلفية مسائل إلا واحدة، وهي قولهم لكل إمام حوزة لا يعدوها إلى غيرها وضلوا ضلالا بعيدا لخلافهم الإجماع ونقضهم ما سارت به الأمة أجمعين، وإنما خرج عن الإمام عبد الوهاب رحمه الله أيضا ^(٢٦).

(٢٢) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٣٣.

(٢٣) على يحيى معمر : الإباضية، دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم ص ٦٨، ٧٠ مكتبة وهبة، القاهرة ط ٢ ١٩٨٧م.

(٢٤) على يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٥٨ المطبعة العربية، الجزائر ١٩٨٧م.

(٢٥) د. صابر طعيمة : الإباضية، عقيدة ومذهبها ص ٦٠ ط دار الجيل، بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٢٦) انظر : د. عامر التاجر : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ص ١٠٣ دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

موقف الإمام عبد الوهاب من ولاية خلف بن السمح على طرابلس

بعد وفاة السمح بن أبي الخطاب المعافى، رغبت العامة في تولية ابنه خلفاً، وفي ذلك يقول المؤرخ الكبير الشماخي: "لما مات السمح... بادرت العامة، ومن لا بصيرة له بالأمر، إلى تقديم ولده خلف، ظناً منهم أن ذلك أرفق بالمسلمين وأوفق بأمر المؤمنين" (٢٧)

والحقيقة أن مبايعة العامة لخلف بن السمح، دون الرجوع إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، أمر يستحق التوقف عنده والنظر فيه، وذلك لعدة أمور، منها، المكائنة التي وصل إليها العامة في الدولة الرستمية، لدرجة أنهم اختاروا رجلاً دون الرجوع إلى إمامهم، ومنها، التصميم على اختيار خلف بن السمح ليكون والياً عليهم، ومنها، بعد الجهات الشرقية عن العاصمة تاهرت، ومنها، فقدان الثقة في أئمة الدولة الرستمية نظراً لتخليهم عن الشورى في الحكم واللجوء إلى نظام الوراثة.

ومن المنطقي تصور أن العامة يقدمون على اختيار خلف بن السمح، لأن والده كان حسن الميرة في ولايته، لدرجة أنهم طلبوا منه أن يوصيهم فيمن يتولى أمرهم بعده، فأوصاهم بتقوى الله وإتباع أمر الإمام وطاعته ما دلم مستقيماً على الحق الذي عليه السلف، وجهاد من خالفهم (٢٨) ولكن على الرغم من موافقة العامة على مبايعة خلف بن السمح، إلا أن بعض علماء الإباضية اعترضوا على ذلك، وكان في مقدمتهم أبو الحسن أيوب (٢٩)

وأبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي (٣٠) وبعض وجوه أهل النظر الذين رفضوا تعيين خلف واحتجوا بأنه لا يجب أن يستبقوا الإمام في اختيار واليهم،

(٢٧) الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١١ ط دار المدار الإسلامي.

ونظر أيضاً: أبو زكريا: سير الأئمة ص ١٢٠

(٢٨) أبو زكريا: مصدر سابق ص ١٢٢.

(٢٩) أبو الحسن أيوب: هو عامل الإمام عبد الوهاب على جبل نفوسة، نظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ج ١ ص ٥٨، ٦٢، ٦٤، ٦٨.

(٣٠) إسماعيل بن درار الغدامسي: هو أحد العلماء الخمسة المعروفين بحجة العلم، وهو غدامس جنوب طرابلس، وقد تلقى دراسته على إمام الإباضية في البصرة وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة.

انظر: د. عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية ص ١٣٧.

ولكن العامة اعتقدوا أن ذلك رأى المسلمين ويوافق رأى الإمام فأصروا على خلف وعلى أن يعزلوه إذا لم يوافق اختياره رأى الإمام.

وأما أهل الصلاح فقد امتنعوا عن مبايعة خلف وبادروا بإرسال كتاب إلى الإمام عبد الوهاب ببلقوته بما حدث.

وفي نفس الوقت أرسل خلف بن السمع ومزيدوه من الخلفيّة وغيرهم الكتب إلى الأئمة الإباضية المشاركة، فوصلت رسالتهم إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل^(١١) وكانوا يستفتونه راجين أن يجوز لهم الانفصال عن الدولة الرستمية بدعوى أنهم بعيدون عن تاهرت^(١٢).

ومن الواضح أن خلفا بن السمع كان يدعو لنفسه على أساس أنه من أسرة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافى الذي كان إماما للإباضية قبل قيام الدولة الرستمية - وكان الهدف من دعوته انتزاع حيز طرابلس من حدود الدولة الرستمية والاستقلال بالجبهة الشرقية

وعندما وصلت الكتب إلى الإمام عبد الوهاب من بعض علماء الإباضية وأهل الصلاح بحيز طرابلس، بأن **العلماء اختاروا خلفا بن السمع** واليا عليهم، رفض

ARCHIVE

(١١) أبو سفيان محبوب بن الرحيل : هو أحد أئمة علماء وفقهاء الإباضية، نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مكة المكرمة وعاش بها حتى وفاته، وهو أحد تلاميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، له العديد من المؤلفات ولكنها ضاعت ولم يبق فيها إلا بعض الشذرات المبعثرة في كتب الفقه والسير، وكانت وفاته في أواخر القرن الثالث الهجري. انظر : معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم ٥٤٤، جمعية التراث القرارة، الجزائر.

(١٢) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٣٦ ط ٣ دار العلوم ، الكويت ، ١٩٨٧م.

وتاهرت : قاعدة الدولة الرستمية، بناها عبد الرحمن بن رستم، وقد تم تأسيسها سنة ١٦٦هـ، وقد أحيطت بسور ضخمة يحميها من هجمات الأعداء، وحين اختطها عبد الرحمن كانت في موضع مربع، فقالت البربر نزل تاهرت وتفسيره الدفء لتربيعة، انظر : البكري : المغرب ص ٦٦، ويلفوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٩، واليعقوبي : البلدان ص ١٥٣.

الإمام عبد الوهاب ذلك، وأرسل إليهم كتابا يفضح فيه خطأ خلف ومن انضم إليه^(١٣).

وهكذا كان موقف الإمام عبد الوهاب موقفا معارضا تماما لما حدث، وقد قام الإمام بتوضيح الخطأ الذي وقع فيه خلف بن السمح، وذلك في كتابه الذي أرسله إلى علماء الإباضية بحيز طرابلس والذي أكد فيه أيضاً أن أمر التولية والعزل من اختصاصات الإمام وأن الذين أيدوا خلفا بن السمح ووافقوا على توليته بعد أبيه قد أخطأوا في ذلك.

ومما لا شك فيه أن ما أقدم عليه خلف ومن معه من الخلفية كان في غاية الخطورة، وبخاصة إذا وضعنا في الاعتبار مدى اتساع المناطق التي أراد أن يحكمها خلف ومدى ثرائها الاقتصادي والبشري، ويضاف إلى ذلك أيضاً أن الخلفية أرادوا أن يجعلوها وراثية بدلا من عملية الاختيار التي يقوم بها الإمام في تاهرت.

ويرى الدكتور محمود إسماعيل أن الإمام عبد الوهاب خشي على نفوذه في النواحي الشرقية من جراء قيام حكم وراثي فيها، فأنكر على آل أبي الخطاب ما استباحه هو وأسرته من الخروج على مبدأ الاختيار إلى مبدأ التوريث في الحكم، كما ضرب صفحا من توسلات إباضية الجيل لإبقائه واليا عليهم من قبله^(١٤).

وهكذا بدأ خلاف فقهي وسياسي يشعل في صفوف الإباضية فاضطربت أحوال الدولة الرسمية بعد عبد الرحمن بن رستم، واستأثرت بالفتن السياسية والاتشاقات المذهبية والصراع العنصري، مما حدا بالمؤرخ جوايان إلى القول بأن

(١٣) ومما ورد في هذا الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس، أما بعد، فإني أمركم بتقوى الله وتباع ما أمركم به ولجتنب ما نهاكم عنه، وقد بلغني ما كتبتم به إلي من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل البر ذلك، فإن من ولي خلفا من غير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى من توليته فقد أصاب، فإذا أنكم كنتم هذا، فأرجع كل عامل استعمله السمح إلى عمله الذي ولي عليه إلا خلفا بن السمح حتى يأتيه أمرى وتوبوا إلى ربكم ورجعوا التوبة لحكم تخلصون "

انظر نص الخطاب في : الشمالى : السير ج ٢ ص ٣١١، ٣١٢، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠، البارونى : الأثرار الرياضية ج ٢ ص ١٥١.

(١٤) د. محمود إسماعيل عبد الرزق : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ص ١٦٣ دار الثقافة، المغرب ط ١٩٨٥ م.

تاريخ تاهرت لم يكن سوى سلسلة من القلاقل والخلافات الداخلية^(١٥) ويبدو واضحا أن رأى الإمام عبد الوهاب فى خلف يختلف عن رأيه فى أبيه السمح، فقد سبق أن ولى الإمام " السمح " نفسه نزولا على رأى الجماعة، أما بعد وفاته واختيار الناس ابنه، كان يقابله الرفض من جانب الإمام.

تطور الخلاف بين الإمام عبد الوهاب والخلفية

بدأ الخلاف يتطور بين الإمام عبد الوهاب والخلفية وبخاصة بعد أن تمسك أنصار خلف به وكتبوا للإمام ثانية عسى أن يستجيب لـرغبتهم ولكنه رفض، وبطبيعة الحال لم يوافق خلف ولا أتباعه على رد الإمام عبد الوهاب، فاستمروا على موقفهم وعنادهم وقد طلب منهم الإمام عبد الوهاب أن يتوبوا وأرسل خطابا إلى خلف^(١٦) يأمره فيه بأن يعتزل أمور المسلمين ولا يأخذ من صدقاتهم ورغم أن خلفا هو الحفيد الأول للجماعة إلا أنه رفض الاعتزال والتف حوله جماعة من أتباعه لم يقتنعوا برأى الإمام عبد الوهاب، ورغبة منهم فى اكتساب هذا الموقف للشرعية المذهبية، أرسلوا كتابا إلى غلماتهم بالمشرق وزعيمهم فى ذلك الوقت، أبو سفيان محبوب بن الرحيل **يعرضون عليه الخلاف القائم بينهم وبين الإمامة فى تاهرت**، يطلبون رأيهم، إلا أن الرد جاء بغير ما يتوقعون، إذ أوضح لهم أبو سفيان محبوب بن الرحيل خطأ من ولى خلفا وإصابة من لم يوليه، وأمرهم باتباع الإمام عبد الوهاب والتمسك بإمامته لأنها الإمامة الحققة^(١٧)

ولكن الخلفية أهملوا الفتوى ولم يأخذوا بها واستمروا على موقفهم وصبغوا موقفهم بصيغة مذهبية، وبدأوا يدعون أن الإمام عبد الوهاب هو ليس إمامهم لأن إقليتهم ينفصل عن بلاده بإمرة ابن الأغلب^(١٨) فيجب أن يكون لهم

(١٥) Julian, Andre: Histoire de l' Afrique du nord.p. 335, paris 1931

(١٦) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٢، والقشماشى : السير ج ٢ ص ٣١٢.

(١٧) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٢

(١٨) ابن الأغلب : هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقيل التميمي، مؤسس دولة الأغلبية بالمغرب الأدنى، تولى الحكم سنة ١٨٤ هـ وحتى سنة ١٩٦ هـ، كان فقيها، أنيبا، شاعرا خطيبا، ذا رأى ونجدة وبأس، وعزم بالحروب ومكائدها، لم يزل إفريقية أحسن سيرة منه، تمهت إفريقية فى أيامه واستقلمت الأحوال بها، انظر : ابن أبى دینار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٤٨، ٤٩ نشر المكتبة العتيقة، تونس ط ١٩٦٧ م. / الرقيق القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٣٠ دار الفرجانى ١٩٩٤ م / ابن الأثير : الحلة السيرة ج ١ ص ٩٩ الشركة

إمامهم وهو خلف، وفي ذلك يقول المؤرخ أبو زكريا في سير الأئمة " وزعموا أن عبد الوهاب ليس بإمامهم بغير حدث ولا بدعه، وزعموا أن عليهم خلف بعد سؤالهم الإمام أن يجوز لهم ما فعلوا من توليته وزعموا أن الحوزات منقطعة عن عبد الوهاب وأنه في حوزة وهم في حوزة أخرى^(٩١).

ومن خلال النص السابق يتضح أن هناك نزعة إلى الاستقلال في حيز طرابلس وجبل نفوسة عن الدولة الرسمية وإمامة تاهرت وعن ولاية الجبل وإعلان إمامة خلف وبذا أنكروا إمامة عبد الوهاب من غير حدث ولا بدعه^(٩٢).

ومن المنطقي تصور أن يتطور الخلاف بين الإمام عبد الوهاب والخليفة من مجرد التمسك به إلى عدم الاعتراف بإمامة عبد الوهاب، وبأن سلطته لا تمتد إلى حوزة طرابلس.

ومن الجدير بالذكر أن الإمام عبد الوهاب كان يدرك تماما أن أخطار الانقسام تهدد دولته، وبخاصة لأن هذا الإقليم من دولته كان له أثره في دعمها ماديا وعسكريا، ولذلك تراث في كيفية منع هذه الفتنة الجديدة التي قد تصدع حكمه، وبخاصة بعد أن اقتنع تماما بأن الخليفة بدأوا يدخلون في دور العناد والافتراق عن الدولة والاتشاق عنه.

وبدأ تمرد الخليفة بحيز طرابلس يزداد وبدأ زعيمهم خلف يحرض الناس على التمسك بما فعلوه وبذل لهم الوعود ومناهم بما جعلهم يتمسكون به، كما فعل ابن قندين^(٩٣) وشعيب المصري^(٩٤).

العربية للطباعة ١٩٦٣ م. د/ بدر عبد الرحمن محمد : دولة الأغلبية والأدانة في بلاد المغرب ص ١ - ١٥ مكتبة الأنجلو المصرية للقاهرة ١٩٨٦ م.

(٩١) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٢

(٩٢) للدرجيني: طبقات الدرجني ج ١ ص ٥١، ٥٣، البازوني: الأزهار الرياضية: ج ٢ ص ١٥٠، ١٥١

الشماسي: السير ج ٢ ص ٣١٢، الماوردي : الأحكام السلطانية، عقد الإمامة ص ٧

(٩٣) يزيد بن قندين : هو زعيم جماعة من الإباضية يطلق عليهم (النكارية) وذلك لأنهم اعترضوا على إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الذي تولى الإمامة في تاهرت سنة ١٧٨ هـ وكان مبعث خلافهم أنهم أثاروا نقطة العلم عند الإمام وهل يجوز أن يبقى الإمام في السلطة إذا ما ظهر بين أفراد الجماعة من هو أعظم منه ؟ وبهذا المنطق أثاروا نوعا من الشك في صحة إمامة عبد الوهاب وتطورت هذه

وكان خلف قد غمره الحكم وامتلاً بخطرسة الأمر والنهي واستمر في تمرده وعصيانته، ولكن في نفس الوقت كان هناك من ينكر تصرفاته وعصيانته للإمام عبد الوهاب في تاهرت، ومن ثم طلبوا من الإمام أن يولى عليهم وألبا، فكتب بالولاية إلى أحد العلماء في ذلك الوقت وهو أبو الحسن أيوب بن عباس.

ولاية أبي الحسن أيوب بن عباس على حيز طرابلس الغرب

جاء اختيار أيوب بن عباس في الوقت المناسب، فقد بدأت حركة الخلفية تزداد وتنتشر ويزداد أعوانها، وهنا تظهر براعة الإمام عبد الوهاب في اختياره لهذا الرجل، لأن أيوب بن عباس كان رجلاً تقياً ورعاً، فهلل المسلمون لولايته وبخاصة لأنه كان يتمتع بشخصية قوية مما جعل خلف بهابه، وقد وصفه المؤرخ الشماخي بقوله : " ومنهم - أي علماء المغرب - أيوب بن عباس النفوسى، من أهل التقى والصلاح والاشتهار في طرق الخير وسبل الرشاد، وكان الغاية في الشجاعة، وقيل إنه قال : " لا أعلم من قاس إلى مصر فارساً بيارزنى"، وله أخبار في الشجاعة وسير في الحروب ومعرفة فرانسها ومزاولتها^(٥٢) وكان ذا بأس وشدة وشجاعة هابه الخلفية وكان ذا عدل واستقامة.

وبعد أن علم الخلفية بولاية أيوب، تملكهم اليأس، وأفلق خلف، فالتزم بالمسكون والطاعة لما يعرفه من مكانة أيوب من الناحيتين العلمية والعسكرية.

الحركة حتى وقع الصدام المسلح بين المؤيدين للإمام عبد الوهاب وبين أنكار أسفر عن مقتل زعيم النكار ابن فدين وبعض أنصاره.

انظر : أعمال الأعلام ص ٥٣، الإباضية بالجريد ص ٧٧، ٧٨، الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٥٨، الفصل في الملل والنحل ج ٤ ص ١٩١، د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣١٥، سير الأئمة ص ٩٣.

(٥٢) شعوب للمصرى : هو شعوب بن المعروف أحد زعماء الإباضية بالمشرق وكان موجوداً بمصر ثم خرج إلى تاهرت طمعا في الإمارة وقد نهض بعض مشايخ الإباضية في مصر عن التمسير إلى تاهرت إلا أنه لم يستجب إلى ذلك وانضم إلى يزيد بن فدين ورأى أن يطور الحركة (النكارية) من حيز النشاط السياسي المؤقت إلى حركة أو مذهب ديني يعتمد مسائل يختلف بها عن جمهور الإباضية، انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ٩٢ / ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرسميين ص ٢٥٠ دراسة وعرض د. حسن علي حسن، القاهرة ١٩٨٤ م. / د. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبها ص ٥٢ دار الجليل - بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٥٣) الشماخي : السير ج ٢ ص ٢٩٤

وقد نجح أيوب بن عباس في ضبط الأمور بحيز طرابلس وجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، وتذكر بعض الروايات التاريخية أنه حارب خلفا بن السمح عندما سولت له نفسه أن يتمرد مرة أخرى، وبذلك يكون أيوب قد نجح في إخماد فتنة الخلفية لفترة وجيزة، ولكن ما لبث أن توفي أيوب بن عباس، فأسند الإمام عبد الوهاب ولاية المنطقة إلى أبي عبيدة عبد الحميد الجنائني^(٥١).

ولاية أبي عبيدة عبد الحميد الجنائني على طرابلس

بعد وفاة أيوب بن عباس، أرسل أهل طرابلس إلى الإمام عبد الوهاب أن يولى عليهم أحدا، فأجابهم أن يختاروا أفضلهم وأولاهم بأمور المسلمين، فكتبوا إليه أنه ليس مثل أبي عبيدة لهذا الأمر، وهو عبد الحميد الجنائني، فأرسل الإمام إليهم أن يولوه بأمره، فاجتمعوا إلى أبي عبيدة وأخبروه بما كتب به الإمام وما أمرهم به من توليتهم إياه على أنفسهم، على أن يقضى بينهم بكتاب الله وسنة نبيه وآثار الصالحين^(٥٢).

وقد رفض أبو عبيدة في بداية الأمر الولاية على جبل نفوسة وحيز طرابلس، ولكن ما لبث أن استجاب لرغبة أهل الجبل وقبل الولاية^(٥٣) ومن المنطقي تصور أن أبا عبيدة يتردد في ولايته على حيز طرابلس لعدة أمور، منها، أنه خشي من الصعوبات التي قد يسببها له الخلفية بقيادة خلف بن السمح، ومنها، الاضطرابات في هذه المنطقة من الدولة للرسمية وصراعاتها الداخلية، ومنها، أيضا ورع وتقوى أبي عبيدة وتفرغه للعلم، ومنها، خوفه أن تكون هذه الولاية بدون علم الإمام عبد الوهاب.

ولذلك تباينت ردود فعله عندما عرض عليه أهل جبل نفوسة الولاية عليهم، حيث قال لهم : (أنا ضعيف، أنا ضعيف، ولا أطيق القيام بأمور المسلمين، فأرسلت نفسي إلى الإمام - عبد الوهاب - بامتناعه وقوله : أنا ضعيف، فأجابهم الإمام

(٥١) هو أبو عبيدة عبد الحميد الجنائني : أحد عظماء نفوسة الموصوفين بأقوى نفوسه مال إلى ما طبع عليه من الورع والطراح الحرص والدنيا وترك الطمع، وكان غاية في إتقان الأمور وإمضاها، وقام بالمداخلة لأحوال البغاة ودفاعها، ووليا بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها، فلما ولى "أحسن السيرة، انظر : الشملي : السير ج ٢ ص ٣١٠.

(٥٢) الشملي : السير ج ٢ ص ٣١٣

(٥٣) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٥

وحلف بالله بـ"لغة العرب وبـ"لغة العجم وبـ"لغة البربر، أن لا يقلد المسلمين وأموالهم إلا رجلا يقول أنا ضعيف، وكتب إلى أبي عبيدة بأمره بالدخول في أمور المسلمين^(٥٧).

ويعد أن تولى أبو عبيدة الأمور، أحسن السيرة وعدل في القضية وسأس الرعية وصحب الأشياء ورضي به أهل الخير مثل أبي زكريا وأبى فراس وأبى الحسن الأبداني^(٥٨).

وكان خلف بن السمح ومن معه من الخليفة في ذلك الوقت يستمرون في تمردهم وعصيانهم وازداد ذلك بعد تولية أبي عبيدة، فبدأوا يغفرون على المناطق الداخلية.

ويبدو واضحا أن خلفا بن السمح قد غضب عندما علم بقبول الناس لولاية أبي عبيدة، ولذلك جدد ثورته وقام بشن الغارات على بعض الأطراف التي تحت حكم أبي عبيدة ونشر الذعر في الطريق وقطع السبل ودمر النصوص على أهل الدعوة من رعية أبي عبيدة^(٥٩).

(٥٧) للشمالي: السير ج ٢ ص ٣١٤.

* وتشير بعض الروايات التاريخية بأن كلمة ضعيف التي ذكرها أبو عبيدة بقصد بها، أنه ضعيف المال واليدن والعلم فكتب إليه الإمام يقول: إن كنت ضعيف البدن فادخل في أمور المسلمين بقوى بدنتك وإن كنت ضعيف العلم فطوبك بأبي زكريا وإن كنت ضعيف المال فبيت المال يسعك ويسع غيرك * تنظر: الدرجيني: الطبقات الإيضاحية ج ١ ص ٧١، الشمالي: السير ج ١ ص ٣١٣.

(٥٨) الشمالي: السير ج ٢ ص ٣١٤.

* وذكر المؤرخ الدرجيني أن أبا عبيدة استشار عجزا معروفاً بالعلم والسورع والدين، فقال لها: إن أمور المؤمنين بعث إلي بالولاية، فأثري عني، فقلت: إن علمت في نفوسه أفضل منك فتقدمت، فستكون خشية في جهنم، وإن علمت ليس فيهم أفضل منك، فتأخرت، فستكون خشية في جهنم، فقال: أما في أمور الرجال، فلا أعلم فيهم مثلي، فرجع إلى المشايخ وقبل الدخول في أمورهم، تنظر: الطبقات ج ١ ص ٧١.

(٥٩) الدرجيني: الطبقات الدرجيني ج ١ ص ٧٢.

الباروني: الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٤، ١٥٥.

د. سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٤٣.

للشمالي: ج ٢ ص ٣١٣، ٣١٤.

وقد ذكر المؤرخ الشماخي مدى غضب خلف بن السمح قائلا: فلما سمع خلف بولايته - أي بولاية أبي عبيدة - اشمخر واستكبر وشن الغارات على المسلمين ومن كان في حيز أبي عبيدة^(١٠).

وهكذا استفحل شأن خلف وأتباعه وأخذ في شن الغارات على الأطراف، فأرسل أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب يطلب منه أن يأذن له في حرب خلف^(١١).

وقد نجح خلف في الاستحواذ على معظم أنحاء الجبل دون أن يحرك عامل عبد الوهاب ساكنا أو أن يحث الإمام لمواجهته بنفسه، وقد أشار المؤرخ الباروني إلى أسلوب التجسس الذي اتبعه الإمام عبد الوهاب، وذلك عن طريق شخص يدعى عمرو بن يانس الذي كان يندس بين أصحاب خلف ويكتب للإمام بكل ما يسمعه للإيقاع بخلف وأتباعه، كما أن الإمام عبد الوهاب بعث إلى المبرزين من أنصار خلف يستميلهم ويمنيهم بالأموال والضياح^(١٢).

ومن الملاحظ أن أبا عبيدة لم يكن متسرعاً في التعامل مع خلف لأنه لم يرد إراقة دم المسلمين، كما أنه كان يسعى دائماً إلى الحلول السلمية دون الدخول في قتال مباشر مع خلف وعندما ازداد خلف في تمرده وعصيانته لجأ أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب، وهو بدوره أيضاً لم يكن يريد للقتال، ولذلك أشار إلى أبي عبيدة أن يلاطف خلفاً وألا يفتح معه باباً للقتال، "وقد أرسل إليه أبو عبيدة كي يكف عن فعله، فأبى، فأرسل إلى الإمام أن يأذن له في دفاعه فأجابته بأن يلاطفه ويلاينه، إلا إن فاجأه فليدفعه"^(١٣).

وقد امتثل أبو عبيدة للأمر ورد على استفزازات خلف بطلب للكف عن المسلمين وجعل الخلاف نظرياً يعتمد على المناقشة والردود عليها، والحوار، وهكذا رغب الإمام في المهادنة والجنوح إلى المصالحة حتى لا تزداد شدة الخلاف بين

(١٠) الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١٤.

(١١) د. محمد عيسى الحريري: الفتوة الرسمية ص ١٣٧.

(١٢) الباروني: الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٥.

"ومن الواضح أن عمرو بن يانس كان على صلة أيضاً بخلف، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ الشماخي في السير، حيث يقول: "كان عمرو يلاء على المسلمين، وصاحب خلفاً، وأحدث أحداثاً على المسلمين وكان يتبع عورتهم ويكتب للإمام"، انظر: السير ج ٢ ص ٢٩٨.

(١٣) الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١٤.

أنصار وأتباع المذهب وقد هدأت الثورة قليلا من ناحية خلف، وبدأ يميل إلى السكون قلنا بما في يده ساعيا لاستمالة الناس^(١١)

وظل أبو عبيدة قائما بدوره في حيزه مواصلا للإمام بما يجب من المال^(١٢) ولكن قدر لهذه الحركة - الخلفية - الاستمرار إلى أن وافت المنية الإمام عبد الوهاب سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦ م^(١٣)، وعند وفاته كانت معظم أجزاء الدولة الشرقية في حوزة خلف بن السمح.

ولا شك أن الإمام عبد الوهاب نجح في توطيد دولته واتساعها، رغم أنه واجه عدة ثورات، اتخذ بعضها طابعا مذهبيا كحركة النكار وكالحركة الواصلية واتخذ البعض الآخر طابعا قبايليا كحركة قبيلة هواره.

كما أنه استطاع السيطرة على حركات التمرد والعصيان المتمثلة في حركة الخلفية بقيادة خلف بن السمح، وحركة النفاثية بقيادة فرج بن نصر النفوسى^(١٤)

وبذلك ترك لخلفائه دولة قوية الدعائم متينة الأركان، وقد تحدث المؤرخ ابن الصغير عن ضخامة الدولة في عهد الإمام عبد الوهاب وسيطرته على مقاليد الأمور فقال: "أخبرني بعض الإباضية أن عبد الرحمن بن رستم لما مات قامت الإباضية فعدت الإمامة لابنه عبد الوهاب فكان ملكا ضخما وسلطانا قاهرا" وعن اجتماع الإباضية حوله وكثرة جيشه واتساع مملكته ومكائنه بين الأمراء الرسميين يقول: "وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع

(١١) البارونى : ج ٢ ص ١٥٥

(١٢) البارونى : الأثرار الرياضية ج ٢ ص ١٥٧

(١٣) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٦، ود. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٣٣٧.

(١٤) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرسميين ص ١٦.

* وللقبائلية فرقة من فرق الإباضية، ألزمتها العوامل السياسية والمتغيرات التي كان يتعرض لها الإباضيون، وتنسب إلى فرج بن نصر النفوسى المعروف بالقنفاك وهو من القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد لقيت هذه الفرقة استجابة كبيرة من جانب الإباضيين في نفوسة، وذلك لمناخضة الدولة الرسمية، ولكن المصادر الإباضية تعتبر هذه الفرقة مارقة وخارجة عن الإمامة الإباضية وذلك لأسباب سياسية وعقدية عندهم، انظر : أبو الربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٧، ٣٨، وعلى يحيى مصر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٦٥، ود. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبها ص ٥٥ - ٥٧.

للإباضية قبله ودان له ما لم يكن يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله، ولقد حكى لي وجماعة من الناس أنه قد بلغت سمته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملا المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان^(١٨).

وقد وصفه المؤرخ الشماخي في السير، بقوله "الإمام الباسل، الشجاع، التقى، اللون، الحليم أمير المؤمنين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم"^(١٩).

موقف الخليفة من الإمام أفلح بن عبد الوهاب (٢١١هـ - ٢٤٠هـ / ٨٢٦ - ٨٥٤م)

بعد وفاة الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ببيع ابنه أفلح بالولاية، وقد اتصف الإمام أفلح بالعديد من الصفات، في مقدمتها الشجاعة، كما عرف شغفه بالعلم ومناظرة العلماء.

وقد أشار المؤرخ الباروني إلى أن الإمام أفلح قد خلف عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة ونصائح ومواظ وحكما، كما كان أدبيا ذا الفكر على النظم^(٢٠).

ولكن إمامة أفلح بن عبد الوهاب تعد خروجاً على مبدأ الانتخاب العام الذي نادت به فرقة الإباضية وغيرها من فرق الخوارج، فقد رفض الخوارج مبدأ التعيين أو الوراثة فطالبوا بتطبيق مبدأ الشورى أي الانتخابات، على أن يكون المرشح من أي جماعة من الناس حتى ولو كان عبداً حبشياً^(٢١).

وقد علل الإباضية هذا المسلك بإحاطة الأعداء بمدينة تاهرت، ومن ثم كلفت المصلحة تقتضي تعيين أفلح المشهور بالشجاعة والعلم درءاً لضرر متوقع، وهذا

(١٨) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٧

وتلمسان : بكسرتين وسكون للميم وسين مهملة، وبعضهم يقول تلمسان بفتحون عوض التلم بالمغرب، وهي قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد وغلاتها ومزارعها كثيرة وفوقها جمه وخيراتها شاملة، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة ألمان وفلس أكثر من أهلها أموالاً ولا أرفه منها حالاً، ولم تزل تلمسان داراً للعلماء والمحدثين وحمة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله "انظر : البكري : المغرب في ذكر بلاد المغرب ص ٧٦، ٧٧، الاستبصار ص ١٧٦، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٢ ص ٤٤٤

(١٩) الشماخي : السير ج ٢ ص ٢٧٢

(٢٠) الباروني : الأثرار ج ٢ ص ١٦٦، وتظر أيضاً : رايح بونل : المغرب العربي، تاريخه وثقافته ص ١١١، ١٢٧ - ١٤٥ ط الشركة الوطنية للنشر بالجزائر (د. ت.).

(٢١) د. إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ص ٢٠١

تبرير من جانب مؤرخي الإباضية، لأن أفلح ببيع بولاية العهد قبل ذلك، خلال معركته ضد هواره، فضلاً عن ممارسته للإدارة في تاهرت خلال عهد والده^(٧٢).

ويقول الدكتور إبراهيم العدوي : 'ويُعتبر خروج الإباضية في الدولة الرستمية على قاعدة الانتخاب العام أو الشورى، نوعاً من حرية التشريع لجأ إليها الأئمة الرستميون حفاظاً على كيان الدولة من التفتت والانقسام من جراء الفتن والفتائل التي كانت تتعرض لها من حين لآخر، وبهذا أصبحت الدولة الرستمية تجرى على أسس تشريعية مشابهة للأسس التي تجرى عليها سائر الدول الإسلامية في المشرق والمغرب، وهي احترام مبدأ الوراثة'^(٧٣).

وعندما علم الخليفة بإمامة أفلح بن عبد الوهاب كان موقفهم موقف المعارض سواء للإمام أفلح أو لأبي عبيدة الجنائوني الوالي الشرعي لمنطقة جبل نفوسة وحيز طرابلس، وقد أصر الخليفة على عدم الاعتراف بإمامة أفلح بن عبد الوهاب، واستمرت حركتهم في المناطق الشرقية من الدولة لمدة عشرين عاماً من حكم هذا الإمام، وقد تطورت هذه الحركة واتخذت طابع الإغارات على المناطق التي يحكمها أبو عبيدة عبد الحميد والي منطقة نفوسة من قبل الإمام عبد الوهاب.

ومن المنطقي تصور أن الخليفة استغلوا وفاة الإمام عبد الوهاب فآزادوا تقدمهم وتعديهم وجورهم وفسادهم نظراً لانشغال الدولة الرستمية بتعيين الإمام الجديد، وهي محاولة منهم للسيطرة على الأمور والاستفادة من هذا الموقف.

وفي ظل تلك الأحداث لجأ أبو عبيدة إلى الطرق السلمية، فعرض على خلف بن السمع فكرة النقاش السلمي بين الطرفين على أن يكتفي كل بناحية، لكن خلفاً رفض ذلك، وبدأ يشن الغارات على ناحية أبي عبيدة، وانتشرت جماعاته للسلب والنهب والتخريب وقتل النفس التي حرم الله دون تمييز، حتى قيل إنه كان يقتل بالخطأ أناساً من أتباعه، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي 'وتملأ - أي خلف - في العو والفساد فقتل الأتلس ونهب الأموال وقتل بعضاً من أصحابه غلظاً'^(٧٤).

جهود الإمام أفلح بن عبد الوهاب في القضاء على ثورة الخليفة

بعد أن فشل الوالي أبو عبيدة عبد الحميد في المحاولات السلمية التي بذلها تجاه خلف وأتباعه لمنع سفك الدماء، لم يكن أمامه إلا اللجوء إلى الإمام أفلح بن

(٧٢) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين، في ١ دراسة وعرض د. حسن علي حسن ص ١٥٠.

(٧٣) د. إبراهيم العدوي : مرجع سابق ص ٢٠٢.

(٧٤) الشماخي : الميرج ج ٢ ص ٣١٥.

عبد الوهاب لمعالجة الموقف والحقيقة أن الإمام أفلح لم يأل جهدا في القضاء على ثورة خلف بن السمح، تلك الثورة التي كانت تفت في عضد الدولة من أيام والده عبد الوهاب، وبعد أن تولى أفلح منصب الإمامة وصلته من أبي عبيدة عامله على جبل نفوسة، رسالة يطلب فيها من الإمام أن يسمح له بحرب خلف بن السمح للقضاء على حركته.^(٧٥)

وفي أثناء ذلك كان خلف قد عظمت شوكته، فطغى واستخدم الترغيب والترهيب واستمال الرجال بالعطايا والأموال وتشبه بالأمراء، فسكن القصور واتخذ للخدم والحشم وأكثر من الموالى والعبيد وأنرف في حياته واتخذ زينة الحياة حتى غره متاعها من الحرث والخيول المطهمة والحصير وأجرى على أتباعه الإقطاعيات.^(٧٦)

وجاء الرد على رسالة أبي عبيدة من الإمام أفلح، بعدم للدخول في حرب وطلب الإمام من أبي عبيدة أن يساير خلفا ويلاطفه ويستعمل معه كل سياسة من شأنها أن توعد الأمن وتحقق الدماء.

وبذلك يتضح أن سياسة اللين والحوار التي طلبها الإمام أفلح من أبي عبيدة، هي نفس السياسة التي طلبها والده من قبل، ويتضح من ذلك أيضا أن سياسة الأئمة الرستميين لم ترغب في الصراع العسكري، ولكنهم كانوا يفضلون الطرق السلمية من أجل استقرار البلاد، والسيطرة على الانشقاقات الداخلية حتى لا تضعف الدولة وتؤدي إلى سقوطها سريعا.

ومن العوامل التي ساعدت الخلفية على الاستمرار في التمرد، أن ناحيتهم كانت خصبة وتنعم بالرخاء، مما زاد من أتباع خلف، أما أبو عبيدة فلم يكن في استطاعته أن يجرى على أتباعه الإقطاعيات، لأن ناحيته كانت مجربة وأقل خصبا من ناحية خصمه خلف الذي ساعده ثراه كثيرا في حركته، ولذلك يقول أحد المؤرخين «فأخصب الله جهته - أي خلف - استدراجا، وأجذب جهة أبي عبيدة، فمال الناس إلى خلف طلبا للخصب والرخاء وإخلافا إلى الأرض والدنيا».^(٧٧)

(٧٥) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٤٤، دار

العلم، ط ٣ الكويت، ١٩٨٧ م ص ١٤٤.

(٧٦) الباروني : الأحرار الريفية ج ٢ ص ١٦٦.

(٧٧) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٥.

والحقيقة أن أبا عبيدة قد ضاق ذرعا من تصرفات خلف بن السمح ومن سياسة الثنين والحوار التي يطلبها من الإمام أفلح كلما أستاذنه في الدفاع والدخول في حرب مع خلف.

ومن ناحية أخرى كان خلف يعمل على إقصاء أبي عبيدة ويسعى لضم كافة الأقاليم التي كانت في نطاق حكم جده أبي الخطاب، وقد تمكن بالفعل من مد نفوذه حتى بلدة تيمنى وما وراءها شرقا منتهزا تقاعس أفلح عن مساعدة عامله (٧٨)

وضمن خلف بذلك السيطرة على الأرض الخصبة والمراعى الغنية فضلا عن بها من الإباضية.

محاولة الخلفية الاستيلاء على أدرف (٧٩) :-

بعد أن أدرك خلف بن السمح، انشغال الإمام أفلح بن عبد الوهاب عن حيز طرابلس وجبل نفوسة، وبعد أن تبين له عدم استطاعة أبي عبيدة على الدخول في حرب معه ورغبته في اللجوء إلى السلم، بدأ يتمادى في تصرفاته ويحاول التوسع والسيطرة على القرى المجاورة له.

وذلك خرج هو ومجموعة من جنده قاصدا ناحية (جادو) (٨٠) في محاولة منه لاستفزاز أبي عبيدة وتبيان ما إذا كان أبو عبيدة جادا في حربه معه أم أنه يركن إلى السلم والهدوء، وعندما علم أبو عبيدة بتحركات خلف خرج هو أيضا إلى نهاية غابة الزيتون عند قرية يقال لها أدرف وهي ناحية قريبة من الجبل.

(٧٨) Lewicki , Etudes Ibadites Nord Africaine , p.115

(٧٩) أدرف : إحدى القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد اختلف المؤرخون في اسم القرية حيث يذكرها الهاروني باسم "درف" ويذكرها الدرجيني باسم "ويدوف" أو "يدوف" بينما يسميها أبو زكريا "درف" وهي مشهورة باسم "درف" وينسب إليها أبو محمد الدرفي، انظر : الهاروني : الأثرار للرياضية ج ٢ ص ١٦٧، والدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٣، والاستبصار ص ١٤٤، والمسالك والممالك ص ١٠.

(٨٠) جادو : مدينة كبيرة بجبل نفوسة وهي مدينة جبلية تقع الآن في شمال غرب ليبيا وتعرف أحيانا باسم فساطو نسبة إلى القبيلة التي تسكنها وهي تبعد عن العاصمة للبيبة حوالي ١٨٠ كم تقريبا، وكلمة جادو تعني الأرض كثيرة التراب، وجادو هي المركز الاقتصادي والسياسي والديني للجهة الشرقية من جبل نفوسة. وعبان لهذا البلد القديم أسواق يسكنها عدد كبير من اليهود، انظر: الشماخي: السير ج ٣ ص ٨٤٨.

وتذكر الروايات التاريخية أن جماعة من عسكر خلف قاموا بالاعتداء على أصحاب أبي عبيدة، فأمر أبو عبيدة بعدم التعرض لهم إلا إذا بدأوا بشر، فلما أغاروا على القرية، أكثروا فيهم القتل والسلب والنهب، وبخاصة لأن أهل هذه القرية كانوا ضعافا، وقد أخذوا منهم الدواب واستطاعوا قتل عشرة من أصحاب أبي عبيدة^(٨١).

وهكذا نجح خلف في السيطرة على القرية والاستيلاء على مغانمها، ومن المنطقي تصور موقف أبي عبيدة أمام تلك الأحداث، فقد كان يراقب الموقف من مكانه، وكان لابد أن يدافع عن نفسه وعن أهل القرية، وبخاصة بعد أن اتضح له خطر عدوة، ولذلك أمر رجاله بوجوب الدفاع ونزل في مقدمتهم فقاتلوا عدوهم الذي ولى منهزما، وقد جاء بعض من عسكر خلف إلى أبي عبيدة بعد أن هلك من عسكره من هلك، ورغم ما حدث لأبي عبيدة وأصحابه من خلف إلا أنه أمر رجاله أن يخلوا سبيلهم ولا يتبعوهم^(٨٢).

معركة إجنانون سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م^(٨٣)

بعد هزيمة خلف بن السمع في أدرف، اتجه باتجاهه إلى ناحية، تسمى وما يليها شرقا، وهناك استطاع أن يجند جيشا ضخما للدخول في جولة حربية أخرى مع أبي عبيدة، أما أبو عبيدة فإنه عاد إلى (إجنانون) وكتب إلى خلف كتابا يعظه فيه، وذلك في إطار سياسة الملائقة التي أمر الإمام أفلح أبا عبيدة أن يلتزم بها، فأخذ يدعو إلى الكف عن الفساد أو الالتزام بالناحية التي هو فيها، وعدم الكر والفر وقال له : " وإذا نزعْتَ يا خلف يدك عن الطاعة، فكن في حيزك وأكون في حيزي، فما بال الحرب " ^(٨٤).

(٨١) الباريوني : الأثرال الرياضية ج ٢ ص ١٦٧.

(٨٢) الشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٥.

(٨٣) إجنانون: بلد في منطقة فسانلو غربى جادو في جبل نفوسة، ذكرت منذ القرن الثالث الهجرى ومازالت علمرة، وقيل إن كلمة (إجنانون) بربرية تعنى العبيد، ويذهب البعض إلى كونها الصيغة المحلية لكلمة الأجنة العربية، لما عرفت به من كثرة البساتين، وقد ذكر المؤرخ الشماعى أن عين إجنانون تدور على اثني عشر ألف زيتونة: انظر: الشماعى: السير ج ٢ ص ٨٢٥.

(٨٤) الشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٥، وقد علق هذا المؤرخ على خلف قائلا: (فأبى وتمادى في شن الغارات ونهب الأموال وقتل الأنفس، وما قدروا عليه من الفساد) انظر: ج ٢ ص ٣١٥.

ومن خلال النص السابق يكون من المنطقي تصور أن أبا عبيدة كان يدرك تماما مدى قوة وخطورة خلف وأتباعه، ولذلك تعددت محاولاته السلمية معه، ولكن رغم هذه المحاولات من جانب أبي عبيدة إلا أن خلفا كان حريصا على استمرار إغاراته وسفك الدماء في حيز أبي عبيدة، ومحاولة قتل أصحابه أينما وجدوا.

وقد ظل الحال على ذلك لمدة عام أو يزيد، كان خلف يستعد فيها للقيام بجولة حربية كبيرة مع أبي عبيدة.

والغريب في الأمر أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب تجاهل هذا التمرد من جانب الخلفية، رغم خطورة حركتهم، وكان يطلب دائما من واليه على حيز طرابلس، وهو أبو عبيدة، أن يلجأ إلى سياسة اللين والملاطفة، رغم أن هذه السياسة لم تفلح مع خلف بن السمح وأتباعه.

وربما يرجع تجاهل الإمام إلى خوفه من حدوث تشقاق عند الإباضية في العاصمة تاهرت، كما أنه كان يخشى أن يترك العاصمة ويتجه إلى المشرق فيحدث ما هو أسوأ من حركة خلف بن السمح.

وعموما فقد ازدادت حركة خلف الانفصالية وأصبح يدعو إلى فصل حيز طرابلس تماما عن العاصمة تاهرت وما حولها^(٨٥).

ولم يجد لوالى أبو عبيدة بدا من تجهيز حملة والخروج لمواجهة هذا الخطر الداهم والممستتر من جانب الخلفية، والحقيقة أن أبا عبيدة كان قد اشتد غيظه وضاق ذرعه من تصرفات خلف، ومن هنا بدأ يفكر في الدخول معه في حرب كبيرة وفاصلة.

وفي المقابل بدأ خلف يستعد للقاء أبي عبيدة بعد أن بلغه خبر استعداده لحربه، فخرج في أربعين ألف مقاتل قاصدا إياه، وقد تلقى أبو عبيدة هذا النبأ على غير توقع، فلم يجمع إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر^(٨٦) وقيل سبعمائة، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي: "ثم أقام - أي خلف - على ذلك نحو سنة فخرج بصكره، يريد أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فصكر أبو عبيدة بعدا عن الجبل في تله، لكنهم أهل بصائر يموتون على ما أبصروا، وقول عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا،

(٨٥) والمقصود بذلك أن يفصل خلف الحدود الشرقية للدولة الرسمية وهي التي تبدأ من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ماعدا مدينة طرابلس والساحل فإتھما يقعان تحت النفوذ الأغلب؛ انظر: محمد علي دبور: تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٦٥.

(٨٦) الباروني: الأزهار الربضية ج ٢ ص ١٦٨.

وعسكر خلف في أربعين ألفاً، وقيل : عدد من مع أبي عبيدة سبعمائة والله أعلم
.....^(٨٧).

ومما لا شك فيه أن تلك الأعداد الكثيرة التي كانت تابعة لخلف بن السمح، كانت أحد أسباب تردد أبي عبيدة في مواجهة خلف، كما أنها كانت حافزاً لخلف على الاستمرار في التمرد والطغيان، وأعطته ثقة في نفسه وزادت من أتباعه وملاّت نفسه بالخيلاء والعظمة والإعجاب بقوته وبما فاق به عدده من الكثرة ورباط الخيل.

ومن المنطقي تصور أن كثرة عساكر خلف، جعلته يتمادى في طلباته ويكثر بقوته، فبدأ يطلب من أبي عبيدة مطلباً خطيراً، وهو أن يخلع ببيعة الإمام أفلح بن عبد الوهاب وأن يبايعه، وكان ذلك عن طريق رسولين أرسلهما خلف إلى أبي عبيدة.

وهكذا حدث تطور جديد في العلاقة بين الخلفية بقيادة خلف بن السمح وبين أبي عبيدة لوالي على حيز طرابلس تلبية عن الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وهذا المطلب من خلف يبرز عدة أمور، يأتي في مقدمتها، أن خلفاً بدأ يتطلع إلى الإمامة على النحلة الرسمية كلها، ويتجاوز تمرده وتفصله المحلي في حيز طرابلس إلى **الميطرة على كافة** قلايم الدولة الرسمية، ومنها أيضاً، شعوره بالثقة بنفسه نظراً لكثرة جنده، ومنها أيضاً، خوف أبي عبيدة من التدخل معه في حرب يومنها أيضاً، تجاهل الإمام أفلح للمنطقة الشرقية من الدولة الرسمية وتركها في حلة لتمررد والعصيان.

ويضاف إلى ذلك أيضاً بعد العاصمة تاهرت عن الجهة الشرقية من الدولة الرسمية، وكان خلف قد أرسل للرسولين قبل بدء المعركة إلى أبي عبيدة ليدعواته على طاعته وخلع طاعة الإمام أفلح، وبطبيعة الحال رفض أبو عبيدة.

وقد ذكر المؤرخون مناقشة أبي عبيدة للرسولين، والحوار الذي دار بينهما، وكان موضوع الحوار حول ما إذا كان الإمام أفلح قد أحدث حدثاً يستحق به أن تخلع ولايته، وأن السمح والد خلف، كان عاملاً مخلصاً للإمام عبد الوهاب، وفي ذلك يقول المؤرخ الباروني في الأزهار الرياضية " فقال أبو عبيدة لهما: لما أخبراه بالرسالة، أخلع بغير سبب وحدث، يستحق به خلع طاعته؟ واحتج عليهم بطاعة السمح للإمام عبد الوهاب، ورد ما ادعوه من انقطاع الحوزات بذلك، فقالا : إن لم

^(٨٧) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٦ - الباروني : الأزهار ج ٢ ص ١٦٨.

وخلافاً للشماخي في السير وللباروني في الأزهار الرياضية، فقد ذكر الدرجيني في طبقات الإباضية أن عسكر خلف بعد أربعة آلاف، وهذا الرأي هو الصحيح لأنه يتناسب مع جبل نفوسة من حيث المساحة وعدد السكان، انظر : ج ١ ص ٧٤.

تجبه، تخاف إراقة الدماء، فقال - أي أبي عبيدة - إراقة الدماء أهون من عدم القيام بأمر الله ودينه، فقالا : إراقة الدماء أعظم، ورد مقاتلهم بفعل أهل النهروان والنخيلة وأبي بلال (مرداس)^(٨٨) وعبدالله بن يحيى وغيرهم^(٨٩).

ومن النص السابق يتضح تهديد الرسولين لأبي عبيدة في حالة عدم طاعته لخلف، وقد ظهر ذلك من خلال عبارة " إراقة الدماء أعظم " ويتضح أيضاً أن أبا عبيدة لم يجد بداً من لقاء خلف، رغم قلة عدد قواته، وعندما رجع الرسولان إلى خلف بن السمح أخبراه برأي أبي عبيدة، فأمر عسكره بالتهيز للقتال ورتب الصفوف، وبدأ أبو عبيدة أيضاً في تنظيم قواته استعداداً لهذا اللقاء.

وقد بدأت الأحداث تتطور، إذ جاء رجل من بقايا النكار، أتباع يزيد بن قندين، وحاول أن يصرف أبا عبيدة عن حرب خلف ويدعوه إلى خلع طاعته للإمام أفلح بن عبد الوهاب، وقال له: " لا طاقة لك اليوم بخلف وعساكره، ولا حاجة لك في لقائه، فحلف أبو عبيدة بالله، بكل لغة يحمسها من عربية وبربرية وكاتمية^(٩٠) وغيرها، لأقتلنه، ولو لم ألقاه إلا بسيغي هذا، وضرب بيده على قائم سيفه^(٩١).

وهكذا رفض أبو عبيدة هذه الدعوة مصمماً على القتال، ولكن هذه الدعوة من أتباع ابن قندين تبين مدى انتشار أتباعه في منطقة جبل نفوسة، وتكشف عن رغبتهم في خلع الإمام أفلح، كما رضوا من قبل في خلع والده الإمام عبد الوهاب.

وحين تدانى العسكران اقتربت الحرب على البداية، تقدم رجل ممن كانوا مع خلف بن السمح فقال لأبي عبيدة : أو إلى الجبل بأصحابك، فإن كانت لكم الدائرة، أدركتهم ما رجوتم وإن كُنت عليكم، كنت في حصن من عدوكم، فقال أبو

(٨٨) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٩، ١٦٨.

(٨٩) النهروان : هي بلد تقع بين بغداد وواسط، دارت فيها المعركة التي هزم فيها على يد أبي طلب الخوارج وقتل أحد زعمائهم وهو عبدالله بن وهب الراسي سنة ٣٨ هـ / ٦٥٨ م وإثر معركة النهروان دارت وقعة أخرى في النخيلة قرب الكوفة، انظر : ابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٦، دار التوفيقية للطباعة.

الدرجيني : طبقات ج ١ ص ٧٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٨ ص ٤١٨.

(٩٠) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٩.

(٩١) للغة الكاتمية: هي لغة أهل كاتم من الإمبراطوريات الإسلامية في غرب أفريقيا في العصور الوسطى، وقال ياقوت الحموي عن كاتم : هي من بلاد البربر بالسنغال المغرب في بلاد السودان. انظر : معجم البلدان ج ٧ ص ١١٦.

(٩٢) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧١، والشملخي : السير ج ٢ ص ٣١٧.

عبدة لأصحابه : نصيحة نزعها الله من عدو، فأمر أصحابه أن يستنوا إلى الجبل^(٩٢).

ومن النص السابق يتضح عدم إخلاص بعض جنود خلف له وعدم رغبته في القتال، وربما يكون هذا الرجل يؤيد خلفا خوفا منه، ولكنه في الباطن غير مقتنع بثورته وتمرده، ولذلك رغب في التخلص منه، ومن هنا جاءت نصيحته لأبي عبدة

وقد حقق أبو عبدة رغبة الرجل بعد أن اقتنع بها وأمر عسكره بأن يولسوا ظهورهم للجبل، وعندما رأى خلف بن السمح ذلك، ظن أن أبا عبدة مسالما وضعيفا ويريد الفرار من المعركة وأنه غير قادر على الهجوم، فبدأ بغتر بقوته ويظهر جبروته، فقام بتقديم كبار جنوده وراء أبي عبدة، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي في السير :

« فلما تنحى أبو عبدة إلى الجبل ظن خلف أن بهم ذلا وخوفا، ففشيهم بصاكره، فتنحى أبو عبدة واستتر، واغتمل وصلى ركعتين، فدعا الله تعالى، فقلل : يا من لم أعرض عنه منذ استقبلت أمره، أعطني دابره اليوم^(٩٣).

وفي ذلك الوقت بدأت التحالفات تظهر والنيات تنكشف، فقد أقبل أهل مدينة شروس^(٩٤) يريدون خلفا للتعاون معه ضد حربه مع أبي عبدة، وفي ذلك يقول المؤرخ الباروني : « ثم إن أهل شروس أقبلوا يريدون خلفا شاكين بالسلاح^(٩٥) فقال أبو عبدة حين أبصرهم : هيجوا فينا حرارة الخوف، فلا أعدمهم الله ذلك، فبقى فيهم ذلك بدعوته تلك، فقد كان مستجاب الدعاء كما يقول كتاب الإيضاح^(٩٦).

(٩٢) الباروني : الأذهار ج ٢ ص ١٧١.

(٩٣) الشماخي : السير ج ٢ ص ٤١٧.

(٩٤) شروس : وفي معجم البلدان : شروس بفتح أوله وضم ثانيه وربما قيل بالشسين للمعجمة في أوله فتصبح "شروس" وهي مدينة جبلية في جبل نفوسة من ناحية إفريقية وهي كبيرة أهلة، وهي قصبة ذلك الجبل بينها وبين طرابلس خمسة أيام وبينهما حصن لدة وهي حاليا آثار، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٣.

(٩٥) شك السلاح أو شك في السلاح : أي كان لا يملك سلاحا تاما وغارقا فيه.

(٩٦) الباروني : الأذهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٢.

ومن المنطقي تصور أن أهل مدينة شروس يفلتون بجوار الخليفة، فقد وصلهم المؤرخ ياقوت الحموي بقوله : " وأهلها إباضية خوارج ليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى ولم يتفقوا على رجل يقدمونه للصلاة " (١٨).

وقد بدأ أبو عبيدة بمتعد للدخول في الحرب مباشرة بعد أن خطب في الناس ورغبهم في الجهاد وأزال الخوف من نفوسهم، وبخاصة لأن عددهم قليل إذا ما قورن بعدد خلف وأتباعه، وكان مما قاله في خطبته : " أطمح الجنة لمن مات تالبا في هذه الواقعة، إلا من كان على فراش حرام، أو قتل نفسا أو غصب مالا " (١٩).

وبالقرب من جادو، دارت المعركة بين الفريقين والتي تسمى "إجناون" وذلك عشية يوم الخميس، الثالث عشر من رجب سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م وأهلى كل من الفريقين في المعركة، ولكن رغم قلة عدد جنود أبي عبيدة، إلا أن أبا عبيدة نجح في أن ينتصر على خلف بن السمع ويقتل العديد من أنصاره، وذلك يرجع إلى قوة إيمان أصحاب أبي عبيدة ورغبتهم في الجهاد بحق وعزمهم على النصر.

وتشير الروايات التاريخية أن هذه المعركة انتهت بهزيمة متكررة لخلف وعسكره، وأظهر فيها أصحاب أبي عبيدة بطولات مجيدة، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي في السير : " فلما التحم القتال، نظر أبو عبيدة إلى العباس بن أيوب يضرب في أعراض الخيل، ويكشفها يمينا وشمالا وقد حمى الميمنة والقلب والميسرة، فقال - أي أبي عبيدة - صار في عيني كالعقاب، معصما لا أكلنه النار " (٢٠).

وقد لعبت بعض الشخصيات للقيادة دورا مهما في هذه المعركة، وفي تحقيق النصر لأبي عبيدة، ويأتي في مقدمة هؤلاء أبو مرداس (٢١) والعباس بن أيوب، فقد أشارت للروايات التاريخية أنه في تلك المعركة خرج رجل من عسكر خلف يدعى، عبيد بن سيدي ومعه رجلين من أصحابه يطلبون المبارزة، وكان عبيد هذا ممن يدعى النمسك وأتقن قبل ذلك، وكان يحمل الفتح والكباش للمشتجع، فخرج إليهم أبو عبيدة وأبو مرداس والعباس، ولا أسرع العباس إلى صاحبه فقتله، وأما

(١٨) ياقوت الحموي: مصدر سابق ج ٥ ص ٤٣.

(١٩) الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١٧.

(٢٠) السابق ج ٢ ص ٣٢٠، وانظر أيضاً : الدرجيني، طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٦.

(٢١) أبو مرداس : هو أبو مرداس مهاصر السدراتي، السلك بنبرست. ولذلك يقال له أحيانا : أبو مرداس للتبرستي، بلغ في الطوم النهاية، وجرى في أمر الصلاح للغاية، كان ينفق ماله على الضعفاء، وكان له مسجد في كهف يتعبد فيه، انظر : الشماخي : السير ج ٢ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

أبو عبيدة فقد تماثل مع نده، ولما أبو مرداس فقد جد عليه (عبيد) حتى كاد يفتقرمه.

فلما رأى العباس ذلك ضرب ركبته بيمينه ثم حز رأسه، ولما رأى رأسه يطير في الهواء من شدة الضربة : قال له : إني النار، فقال الرأس : " وعبس المصير" فقال العباس : إنا لله وإنا إليه راجعون^(١٠٢)، جمد طالما دعوت له بالجنة ستكله النار^(١٠٣) وذلك لأن العباس كان يعتقد في عبيد الصلاح، فقد اشتهر بالنسك والعبادة وسقاء اليد وحب العلم، وقال أبو مرداس للعباس 'ضربة فتسى لا أكتس معصمه النار'.

وفي هذه المعركة اشتهر أن رجلا من أصحاب أبي عبيدة قذف بحربة، فوقعت برجل فخرجت منه ورقت خنقه، وجعلوا مصلى فيه^(١٠٤) أي بنوا فيها به مصلى في ذلك المكان.

ويذكر المؤرخ الدرديني في طبقاته أن أبا عبيدة أمر أصحابه - به هزيمة الخلفية - ألا يتبعوا مديرا ولا يجهزوا على جريح، كما أنه أحسن معاملة المنهزمين رغم بغي الخلفيين^(١٠٥).

ولا شك أن المعاملة الحسنة من جانب أبي عبيدة لأتباع خلف المنهزمين، ترجع إلى ما وصف به من أخلاق نفيسة وعلم غزير وما طبع عليه من ورع.

وبعد أن انتهت معركة إجنانون بهزيمة الخلفيين ومقتل العديد من جنودهم، نجح خلف في الفرار من المعركة ومعه عدد قليل من أتباعه واتجه بهم إلى ناحية تسمى 'وأمر بإخراج من بها من نفوسة وغيرهم من أصحاب أبي عبيدة'.

ثم اتبع خلف بن السمح سياسة خاطئة - أدت إلى تفريق من حوله، وذلك أنه بدأ بتشكك في أصحابه فلما منه أنهم موالين لأبي عبيدة، فبدأ يفرج الكثير من أصحابه خطأ مع الذين أخرجهم من أصحاب أبي عبيدة من نفوسة، وأعطى بعضهم مهلة ثلاثة أيام، فإن لم يخرج أهدر ماله ومنه، كما أنه أفسرج التماسي والأراميل والضعفاء دون جريرة، فاضطروا إلى ترك أوطانهم ومنازلهم وأزواجهم على كره،

(١٠٢) سورة البقرة : آية ١٥٦.

(١٠٣) التماسي ج ٢ ص ٣١٨.

(١٠٤) نفسه ج ٢ ص ٣١٨.

(١٠٥) الدرديني: طبقات الإيضائية ج ١ ص ٧٦، ٧٥ والنظر أيضا: الباروني: الأزهار

الرياضية ج ٢ ص ١٧٣.

ونتيجة لهذه السياسة الخاطئة، ارتد عنه الكثير من أتباعه، وبعض أصحابه المقربين إليه، وأيقنوا أن أمره قد أئبر، فنفروا عنه، وأتوا أبو عبيدة طالبين.

وفي ذلك يقول أحد المؤرخين * ثم إن الناس رجعوا بعد انهزام خلف ورجع من أصحابه من أظهر التوبة فأقبلهم أبو عبيدة إلا من أتى منهم الأمر عمداً، وأساء سائد الفرستاتي فقال : تبت يا أبا عبيدة، قال له : إن لم يسدد بعد يا ابن تحيمة - يعنى باب التوبة - وهو ممن أتى الأمر عمداً (١٠٦)

وكان سائد ومنيب بن إسماعيل بن درار الغدامسى وأبو يوسف حجاج بن وقتين ممن مال إلى خلف بن السمع في حربه ضد أبي عبيدة، وعندما رجع أبو يوسف حجاج بن وقتين - وهو ممن التحزوا إلى خلف - فأتى أهله وأراد السخول، عبرته زوجته وقالت له امرئته : من عندك يا بئع دينه ؟ فوقف بالباب إلى الصباح، إحدى رجله داخل الباب والأخرى خارج الباب، يميز بين الحق والباطل، أي بين أبي عبيدة وخلف، فظهر له أن خلفاً على خطأ وأبا عبيدة على حق، فتاب، ورجع إلى أبي عبيدة، وكان أبو يوسف بعد ذلك من أفضل الشيوخ (١٠٧).

وهكذا قبل أبو عبيدة الذين أعلنوا التوبة، وكان ذلك اقتصاراً له وضغطاً لشوكة خلف الذي سكنحت حركته بعض الشيء، ويقال إنه سار بأعوانه فيما بعد إلى جزيرة جربة (١٠٨) بعداً عن أحداث الدولة الرستمية وقيل أيضاً إن ابنه هو الذي فعل ذلك (١٠٩).

أما المؤرخ الدرجيني فيقول إن حفيد خلف هو الذي التحز إلى جربة بعيداً عن المشاركة في أمور الدولة (١١٠).

وبذلك يمكن القول إن فترة الخليفة تكاد تكون قد انتهت بالفعل، وإن بقيت بعد ذلك تظهر على فترات مختلفة، وهي تمثل إحدى الانشقاقات الرئيسية عن الدولة الرستمية ويقول المؤرخ الشماعى مطلقاً على ضعف الخليفة - بعد هزيمتهم أمام

(١٠٦) الشماعى: السير ج ٢ ص ٣١٩.

(١٠٧) السامق: السير ج ٢ ص ٣١٨.

(١٠٨) جزيرة جربة : تقع بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر فيها بستين كثيرة وأهلها مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج وبينها وبين البر الكبير مجاز، انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٢، والبرقى : المغرب ص ١٩

(١٠٩) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٣.

(١١٠) الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص ٧٠.

أبى عبدة - " فلما أوهن الله شوكة خلف وأظهر الإسلام واستقامت الأمور وحسنت الأيام وذهب الجور وقام العدل، فبلغ الخير المشرق والمغرب، كتب أبو عيسى الخراساني رسالة مع جماعة المسلمين إلى أهل المغرب يوصونهم بالحق وإتباعه، ومناذرة الباطل وإطراحه والاعتداء بمن قبلهم من السلف الصالح^(١١١).

ومن النص السابق تتضح أهمية وخطورة الحركة الانفصالية التي قام بها الخلفية في جبل نفوسة، وكيف أثرت على الأحداث وأدت إلى فتن كثيرة بين أهالي البلاد. ومن الجدير بالذكر أن تلك الرسالة التي كتبها أبو عيسى الخراساني مع جماعة المسلمين إلى أهل المغرب، تضمنت أيضاً بيان لحالة أهل جبل نفوسة قبل قيام حركة الخلفية، وأن سبب الفتن التي حدثت هو اختيار خلف بدون رغبة الإمام وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي في بقية الرسالة " ثم ذكروا من هلك قبلهم من أهل دين المسلمين وخلافهم أئمة الهدى، ثم ذكروا أن عبد الوهاب مضى على الرضا من المسلمين والاستقامة على الدين، لا ينقم عليه أحد من أهل الخير عندنا وعندكم، سيرته سيرة من مضى من أئمة الهدى في حكمه وحربه وقسمه ودينه، وقد أدركنا أبا أيوب وإبل بن أيوب، وغيره من الأنبياء ومن بعده أبا سفيان محبوب بن الرحيل وهم راضون عنه، واستعمل السمع فكان على طريقته من العدل والاستقامة، ثم ابتلى القوم بعد ذلك (يقصد فتنة الخلفية) فتمسأل الله ربنا أن يعيظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ويُفًا أن أهل تلك القرية استعملوا خلفاً على غير رضي من عبد الوهاب وإجازته، وينبغي لهم إذا أكر الإمام الأمر ولم يجره أن يسمعوا له ويطيعوه ويخضعوا، من خلع وينتهوا إلى رأيه، وطاعته واجبه عليهم، فمن شقه ويغى عليه، فهو عندنا كافر شبل، حتى يرجع ويتوب، ويستغفر الله مما صنع.

ثم كان بعد عبد الوهاب، أفلح ابنه - عفا الله عنه - على بالهنة وحجم بالسنوية - على في الرعية لا ينقم عليه أحد قبلنا ونحكم في حكم ولا قسم، متفاناً الله بحياته، فخالف خلف وأصحابه وأبوا إلا رأيهم، وقد فسرنا لهم، ولكم معالم ديننا ورأى المسلمين^(١١٢).

ومن الرسالة السابقة يتضح مدى إخلاص الإباضيين لأمتهم وطاعتهم لهم والدفاع عنهم، ويتضح أيضاً مدى كراهيتهم لأعداء أمتهم. ومعنى ذلك أن خلفاً بن الشماخي بالنمبية لهم هو كافر طغاك وخير مطيع إلا إذا تاب واستغفر الله بما صنع.

(١١١) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٩.

(١١٢) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٩.

وقد توفي أبو عبيدة بعد ذلك، فوصفه المؤرخون بأنه كان شديد الشكيمة قوى العريكة لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان شديدا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١١٣).

الصراع بين العباس بن أيوب والخلفية في جبل نفوسة

بعد وفاة أبي عبيدة عبد الحميد الجنائني، قام الإمام الفتح بن عبد الوهاب بتولية العباس بن أيوب^(١١٤) على جبل نفوسة وما حوله من البلاد، وكان خلف بن السمح قد بدأ يستعيد نشاطه مرة أخرى بعد وفاة أبي عبيدة، ونجح في أن يضم جماعة من أصحابه الذين كانوا قد تفرقوا بعد هزيمتهم في موقعة إجنان سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م، وذلك في الفترة ما بين وفاة أبي عبيدة وتولية العباس.

وهكذا قامت صحوة أخرى للخلفية، جددوا فيها الفرات وأعمال السلب والنهب وتهديد أمن البلاد، وكان خلف يدرك تماما مدى قوة وبأس ويطش العباس بن أيوب، إلا أنه اختار بقوته وكثرة عدده، وقد بدأ معه العباس سياسة اللين والحوار والنصح والإرشاد، فلم يتوقف خلف عن تمرده.

محركة فافيسني

كان العباس بن أيوب يدرك تماما أن سياسة اللين لن تفلح مع خلف، فاضطر إلى الدخول معه في حرب، ورغم كثرة جنود وأنبياع خلف وقلة عسكر العباس إلا أن العباس اختار في جيشه جماعة من الأبطال والفرسان المشهود لهم بالقوة والمغامرة في الحروب، وذلك ليعوض كثرة عسكر خلف.

وكان في مقدمة هؤلاء الأبطال، أبو مرداس التبرستى، الذي حارب ضد خلف من قبل مع أبي عبيدة، وأبو الحسن الأبدلاني^(١١٥)، وهو مشهود له بالفروسية

(١١٣) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٥

الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص ٧١.

الشمالي : السير ج ٢ ص ٣١٣.

لباروتى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٦.

(١١٤) والعباس هذا هو ابن أيوب بن العباس الذي كان واليا على حيز طرابلس وحبل نفوسة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وكان له دور مهم في الصراع مع الخلفية، وقد ذكرتها فيما سبق في هذا البحث.

(١١٥) أبو الحسن الأبدلاني : كان واسطة العقد وإنسان العين، تعلم العلوم وعمل بموجبها وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها، وهو أحد الأربعة الذين تكلفوا بما ظليه

أيضا، ويؤكد ذلك ما ذكرته الروايات التاريخية، فعندما كان خلف بن السمح في كثرة، خاف بعض المسلمين، فأتى أباه مرداس، وأخبره، فقال أبو مرداس، لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلي، ثم أتى أباه الحسن فقال له أبو الحسن : لا أخاف على عسكر فيه أبو مرداس^(١١٦).

وكان اللقاء بين الخليفة والعباس بن أيوب عند موضع يسمى "لماغيس" وهو يقع بالقرب من تيمتى^(١١٧)، وبدأ الجيشان يتصارعان، فلما حمى الوطيس واشتد القتال، قال أبو مرداس : أطمع لمن مات هنا الجنة إلا من قتل نفسه أو كان على فراش حرام أو غصب مالا^(١١٨).

ويبدو أن هذه الحرب أخذت وقتا طويلا وجهدا كبيرا من الفريقين ويتضح ذلك عندما طلب أبو مرداس من العباس بن أيوب الاستغفار والتوبة حين اشتد خلف وعساكره على العباس حيث قال له : "تب إلى الله، فإن الباطل لا يقف للحق أكثر من هذا، فقال العباس : كتبت إلى الله"^(١١٩).

وبعد ذلك نزل العباس بنفسه للقتال، فتغير الموقف واشتد جيش العباس على خلف وأتباعه فاضطربت جنود خلف، ونجح العباس في هزيمة الخلفية بعد صراع طويل وحرب شرسة، وبعد أن انتهت الحرب كان رأى أبي مرداس ألا يتبعوا

الإمام وهو أحد الاثني عشر المشهورين بإجابة الدعاء في عصر واحد بجبل نفوسة، انظر : الشماخي في السير ج ٢ ص ٣٠١، ٣٠٢.

* ومن الجدير بالذكر أن كل من أبي مرداس وأبى الحسن الأبدلي كانت موافقهما تشهد لهما بصدق التوبة وصغر القلوب، ولكل منهما فضائل عالية ومغائر ومناقب نكرها المؤرخون، انظر الباروني : ج ٢ ص ١٧٥/الشماخي : ج ٢ ص ٣٠٢/الدرجيني : طبقات الإباضية ج ٢ ص ٢٩٢، ٢٩٤.

الباروني : الأزهار الريضية ج ٢ ص ١٧٥^(١١٦)

تيمتى : جاء في المصادر الإباضية أنها قرية في الجهة الشرقية من جبل نفوسة قرب جادو والتسمية الحالية لها هي تومتلت، وقد ظلت تيمتى مركزا إباضية جهة طرابلس زمن السمح بن عبد الأعلى، ثم للخلفية زمن خلف بن السمح، وذكرت أر مرة على عهد أبي منصور إلياس في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، انظر : الدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٢ والشماخي : السير ج ٢ ص ٨٤٦.

الشماخي : السير ج ٢ ص ٣٣١^(١١٨)

نفسه : نفس الجزء والصفحة.^(١١٩)

خلفا وأصحابه، ولكن البعض الآخر كان رأيهم أن يتبعوا الخلفية، ويطلبوهم إلى أن يفرجواهم من حيزهم، فافلتوا أثرهم حتى تجاوزوا حيز أطراف نفوسة (لايت)^(١٢٠)

وفي ذلك يقول المؤرخ الباروني في الأثرار الرياضية : " قال أبو مرداس للناس : ارجعوا عن طلبهم، فقال له رجل : أين لايت؟ يعني طرف نفوسة، لأنهم في الحيز بعد، فقال أبو مرداس: نسيت لايت، فأتبعوهم حتى خرجوا حيز لايت " (١٢١).

ويمكن القول إنه بفضل جهود كل من أبي مرداس وأبي الحسن الأبدلاني، استطاع العباس أن يسيطر على المواقف وينتصر على خلف، ولذلك عندما رجع العباس وجنوده من حرب خلف، أقبل للناس ليقدمون له التهنية، فقال لهم : هنأوا أبا مرداس وأبا الحسن الذين لم يتألموا ليلهما، يدعوان ربهما ويرغبانه " (١٢٢).

وبعد هذا الانتصار، لم ينس العباس أن يعزى الشيوخ في أقالبيهم الذين ماتوا مع خلف، وفي ذلك يقول صاحب السير " فلما رجع العباس إلى معسكره، ترجل وأقبل يعزى للشيوخ في أقالبيهم الذين ماتوا مع خلف، وقال: أجركم الله في مصابكم في إغوانكم، فقالوا: يا عباس: ليسوا بإخواننا، ولكنهم أرحامنا، وإنما إخواننا، أنتم " (١٢٣).

ومن خلال النص السابق يتضح مكانة العباس بن أيوب في قومه، وأنه ينال تقديرهم واحترامهم، ويتضح أيضا أن هذا الرجل كان يجمع بين اللين والشدّة، ولا شك أن نزوله بنفسه للقتال في المعركة مع خلف كان أحد الأسباب الرئيسية لانتصارهم على الخلفية، وعندما قاتلت زوجة أبي مرداس لزوجها : رزقك الله الجنة، قال لها: إنما يستأهل الجنة توفيق بن أيوب - يعني العباس - الذي لم يخلع الدرع من عتقه من يوم إلى يوم، فوجد صدا الحديد في فيه وبه أصبنا " (١٢٤).

(١٢٠) لايت : هو الوادي الفاصل بين (الزنتان) من جهة (تغرمين) و(الرجبان) من جهة (السلطان) والذي سمي فيما بعد بوادي الآخرة لصعوبته وعمله، ويلاحظ في ذلك أن قرية (تغرمين) لم تدخل في الطاعة وتحرز شهرتها في دولة بني رستم إلا بعد تلك الواقعة وهي حاليًا نلوت، وتقع غرب جبل نفوسة، انظر : الباروني : الأثرار ج ٢ ص ١٧٧.

(١٢١) الباروني : الأثرار الرياضية ج ٢ ص ١٧٦.

(١٢٢) التمامي : السير ج ٢ ص ٣٣١.

(١٢٣) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

(١٢٤) التمامي : ج ٢ ص ٣٣١.

والحقيقة أن العباس لم يكتف باتنصاره على الخلفية فقط، ولكنه استمر في مطاردتهم، كما أنه نجح في استمالة أصحاب خلف بن السمح نظرا لاستقامته وعذله، وكان لاتنصاره على خلف دور كبير في استقرار البلاد وانتشار الأمن، فقد خافه المفسدون والمتمددون، ومن ناحية أخرى بدأت شوكة خلف تضعف وبدأ أنصاره يتفرقون، وبدأ جمعه ينشبت مرة أخرى.

وبعد صراع طويل مع الأئمة الرستميين وولاتهم في الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية توفي زعيم الخلفية خلف بن السمح، ذلك الرجل الذي أنهكته حروبه وعصيانته من أجل وصوله للإمامة واستقلاله بجبل نفوسة وحيز طرابلس.

وقد واصل العباس جهاده ضد الخارجين عن الطاعة في جهات الجبل الشرقية^(١٢٥) حتى أطاعوا الإمام الفتح واعترفوا بإمامته.

وهكذا نجح العباس في إعادة الأمن إلى الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية بعد مجاهدته للأعداء، والتي تكررت أكثر من مرة في عهد الإمام الفتح، وبذلك بدأت البلاد تستقر وتعود إلى طبيعتها، إلى أن توفي العباس، فكانت وفاته إيذانا ببدء حركات تمردية أخرى **وتشققات بين إباضية تاهرت**، كان في مقدمتها، حركة نصر بن فرج النفوسى بجبل نفوسة^(١٢٦).

ومما لا شك فيه، أن الفتن والثورات التي جعلت البعض يفرج عن طاعة الإمام في جبل نفوسة، تدل على حيوية تلك الجهات، وذلك القسم من الدولة الرستمية في جبل نفوسة وحيز طرابلس، وكان مصدر حيويتها أنها كانت عاصمة مليلة بالناس ومنهم المتقدمون في العلم وأهل الشجاعة والحرب.

ومن الجدير بالذكر أنه رغم انتصار العباس على الخلفية، إلا أن أتباع خلف ظلوا موجودين في جبل نفوسة وحيز طرابلس وكانوا يظهرون كلما سنحت لهم الفرصة.

تمرد الخلفية في عهد الإمام أبي حاتم يوسف (٢٨١-٢٩٤هـ/٨٩٤-٩٠٧م) في سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م توفي الإمام أبو اليقظان محمد بن الفتح، فتولى مقاليد الأمور من بعده، ابنه أبو حاتم يوسف، نظرا لأن أخاه الأكبر يقظان كان غائبا في موسم الحج، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن الصغير المالكي: ثم مات أبو اليقظان

(١٢٥) المقصود بذلك جبل شماغ وجبل بفرن

(١٢٦) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٤٧

سنة إحدى وثلاثين ومائتين وخلف من الولد الذكور عددا منهم، يقظان الذي كنى باسمه.

وكان ابنه يقظان هذا خرج إلى الحج في حياة أبيه، ويوسف وهو المكنى بأبي حاتم، وأبو خالد وعبد الوهاب ووهب وغيرهم ممن له ذكر، وإته لما مات أبو يقظان قامت العوام وأهل الحرف فقدموا ابنه أبا حاتم بلا مشورة أحد من الناس لأمن القبائل ولا من غيرهم^(١٢٧).

ومن النص السابق يتضح أنه قد حدث نوع من التغيير في اختيار الأئمة الرسميين، فبعد أن كانت الإمامة تعقد بعد ترشيح واختيار زعماء المذهب، كما حدث لعبد الرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب، اختلقت الأمور فأصبح للعامة دور رئيسي في عقد البيعة^(١٢٨).

وقد وصفه المؤرخ الشماخي بقوله : " ومنهم - أي الإباضية - أبو حاتم يوسف، الإمام الماهر والبحر الذاهر، والعالم الذاكر، مكث في الخلافة أربع عشرة سنة^(١٢٩)."

وكان أبو حاتم قد دخل في ثورات وحروب مع عمه يعقوب بن أفلح الذي نادى به أهل تاهرت إماما فترة من الوقت، ثم استقر هو في ملكه بعد ذلك، وفي أثناء حكم والده، اكتسب خبرة ودراية إذ أن والده عينه قائدا على جيش من قبيلة زناته^(١٣٠) لحماية القوافل المقبلة من المشرق أو التي تتجه إليه حاملة البضائع المختلفة.

(١٢٧) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة للرستميين ص ٢٩٨، ٢٩٧ دراسة وعرض د. حسن علي حسن، القاهرة ١٩٨٤ م.

(١٢٨) ومن الجدير بالذكر أن منصب الإمامة الرسمية قد ضعف بسبب ذلك، لأن معناه أن رجال المذهب الإباضي قد ضعف نفوذهم لدرجة أنهم أبعدوا عن اختيار الإمام، وكان ذلك أحد العوامل الرئيسية للضعف والانهيار الذي أصاب الدولة الرسمية ولدى إلى سقوطها.

(١٢٩) الشماخي : السير ج ٢ ص ٤١٦

(١٣٠) قبيلة زناته : كانت منتشرة في بلاد المغرب من أتناها إلى أقصاها ومختلطة بغيرها من القبائل، فموطنها كما يقول ابن خلدون في سائر ممالك البربر بإفريقية والمغرب، فمنهم ببلاد التنجول ما بين غدامس والسوس الأقصى، ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية وبجبل أوراس، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط

وقد اكتسب أبو حاتم أيضا محبة في قلوب الناس نتيجة كرمه ومروجه التي عرف بها بين الناس وخير دليل على محبة الناس له مبايعته دون وجوده بالعاصمة، ودون استشارة زعماء القبائل للنظر في الأمر.^(١٢١)

وفي عهد أبي حاتم كانت عوامل الانهيار والتمزق تصيب الدولة الرستمية نتيجة لصراعه مع عمه يعقوب بن أفلح فاضطربت الحياة السياسية في العاصمة تاهرت وبدأ التفتك بصيب الدولة الرستمية.

وزاد من هذا الضعف والتمزق تمرد الخلفاء، وظهورهم على مسرح الأحداث في الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية في جبل نفوسة وحيز طرابلس، مما أدى إلى نشوب صراع مرة أخرى في تلك الجهات الشرقية بين الطيب بن خلف بن السمح^(١٢٢) ومن انضم إليه من زواغة^(١٢٣) وبين أبناء نفوسة المقيمين في هذه المناطق والموالين للإمامة الرستمية.



ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، انظر: ابن خلدون : المعراج ٧ ص ٢ وانظر أيضا :

Gautier : Les Siècles obscurs du Maghreb. P. 264 - 266, Paris, 1937

^(١٢١) الشمالى : ج ٢ ص ٤١٦ / البارونى : الأزهري ج ٢ ص ٢٦٥ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٩ / الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٩١ / عبد الرحمن الجيلاي: تاريخ الجزائر العلم ج ٢ ص ٢٤.

^(١٢٢) وفي بعض الروايات أن الطيب هذا هو حفيد خلف وليم ابنه، انظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٠.

^(١٢٣) زواغة : من القبائل التي اعتنقت المذهب الإباضى وكثرت تكوّن في غرب مدينة تاهرت، قال عنها ابن خلدون : " هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر، من ولد سمكان بن يحيى بن ضرى بن زبيك بن مادغيس الأبتري، ولهم ثلاثة بطون وهى : لمر بن زواغ وبنو واطيل وبنو ماضر ومن دمر بنو سمكان وهم أوزاع في القبائل، ومنهم بنو لحي طرابلس مفترقون في براريها، ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر وفي جهات قسنطينة أيضاً رط من زواغة، وكذلك بجبال سلف بنو واطيل منهم وبنو لحي فاس آخرون، انظر : المعراج ج ٦ ص ٢٦١ ٢٦٤.

أبو منصور إلياس وجهوده في القضاء على بقايا الخلفية

كان والي جبل نفوسة وحيز طرابلس في عهد الإمام أبي حاتم يوسف رجل من أهل تدميرت^(١٣٤) وهو أبو منصور إلياس النفوسي الذي وصفه المؤرخون الإهاضيون بقولهم: "وكان، بعد أن تولى أمور المسلمين، إذا خرج لقتال العدو يركب ولا يتقى نبلا ولا ضربة على نفسه ولا على مركوبه ولا تقع به، ولم يهزم له جيش ولم تنكس له راية"^(١٣٥).

ومعنى ذلك أن الخلفية سيواجهون رجلا قويا من الصعب أن يهزم، وقد بدأ أبو منصور في مطاردة بقايا الخلفية بزعامه الطيب بن خلف، وكان الخليون في ذلك الوقت قد ضيعوا نتيجة لصراعاتهم السابقة ولكنهم كانوا يظهرون كلما سئحت لهم الفرصة، فرغم ضعفهم وقلة عددهم إلا أنهم التفوا مرة أخرى وتجمعوا حول الطيب بن خلف، الذي كان متمسكا بمذهب والده وبتعاليمه^(١٣٦).

وعندما علم أبو منصور إلياس - والي جبل نفوسة - بتحركات الخلفية، خرج لمطارنتهم خشية أن تزداد ثورتهم ويكثر عددهم ويزداد أتباعهم، وبذلك أراد القضاء على تمردهم والقبض على زعيمهم قبل أن يستغل أمرهم.

وقد حدث تطور جديد في الأحداث، إذ أن الطيب بن خلف هرب، ولجأ إلى قبائل زواغة عندما علم أن إلياس يبحث عنه ويريد القضاء عليه، ونجح في أن ينشر أفكاره بين الزواغيين.

ومن الملاحظ أنه رغم بعد الزمن بين عصر الطيب وعصر والده إلا أن الزواغيين كانوا لا يزالون على ولايتهم للخلفية، ولما كانت منازلهم مجاورة لمنازل نفوسة الموالية للرستميين، فقد صار الاحتكام بينهما أمراً لا محيد عنه^(١٣٧).

(١٣٤) تدميرت : قرية من قرى نفوسة تقع في الجانب الغربي من الجبل، وفيها مسجد أبي منصور إلياس، ويقال لها تدميرت وتين سميرت وتدميرة، انظر الشملخي : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

Despois : Le Djebel Nefousa , p. 258 , 288.

(١٣٥) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٦ / الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص ٨٤ / الشملخي : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

(١٣٦) بحار إبراهيم بن بكير : الدولة الرستمية ص ١٥٠ ط ٢ جمعية التراث، للجزائر ١٩٩٣ م.

(١٣٧) إحسان عبد الله : الدولة الرستمية في تاهرت ص ٢٠٩ رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٨٦ م.

وهكذا لجأ الطبيب بن خلف إلى تلك القبائل خارج طرابلس في ساحل جزيرة جربة، وقد التفت حوله الزواغيون وحصنوه ومنعوه من النفوسيين، إذ كانوا شبيعة أبيه وعلى مذهبه^(١٣٨).

وفي ذلك يقول صاحب السير : * وخرج مرة - أي أبي منصور إلياس - في طلب ولد خلف^(١٣٩) - أي الطبيب بن خلف - وقد هرب إلى زواغة، وكان على مذهب أبيه^(١٤٠).

وبذلك يمكن القول إن الطبيب بن خلف أصبح زعيما على الزواغيين فأصبحوا يدافعون عنه ويحاربون من ضده.

وعندما خرج أبو منصور إلياس لمحاربة الطبيب بن خلف والزواغيين في مكان يقال له ريصوا، اجتمع رأي الزواغيين على قتاله ومدافعته ومنعه من التنبل من الطبيب بن خلف وأتباعه، ولذلك فإن أبا منصور وجدهم يحيطون بالطبيب في أعداد غفيرة، وفي ظل هذه الظروف تدخل شيخ من شيوخ بني يهراسن يسمى أبا سلمة^(١٤١) في محاولة منه للصلح بين الطرفين حقنا للدماء والقضاء على الفتنة.

وفي ذلك يقول المؤرخ أبو زكريا : * فقلل شيخ من شيوخ بني يهراسن، يسمى أبا سلمة : هل أن تتركوا ريصوا وتحصنوا بجزيرة جربة، أو ترسلوا إلى الإمام بتاهرت يخرجكم من عمالة نفوسة ويفرد لكم عاملا أو تدفعوا صاحبكم إلى نفوسة وأنا كفيل لكم أن لا يتجاوزوا فيه الحق وحكم الله^(١٤٢).

ومن خلال النص السابق يتضح أن هذا الشيخ عرض على الزواغيين أن يختاروا أحد ثلاثة أمور، فالأمر الأول : أن يتجه الخلفيون إلى داخل جزيرة جربة ليلاحقوا بزعيمهم ويتبعوا عن حيز أبي منصور، والأمر الثاني : أنهم إذا كانوا يريدون أن يستقلوا عن حكم نفوسة وأن هذا هو مطلبهم، فليرسلوا إلى الإمام أبي

(١٣٨) الشملخي : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

ومن الجدير بالذكر أن أنصار الخلفية، من نفوسة وزواغة، ظلوا موالين للطبيب بن خلف حتى أواخر حكم بني رستم.

(١٣٩) ولد خلف : لم تذكر الروايات التاريخية اسمه، وإنما تكتفي بالقول إن والي جبل نفوسة خرج على أيام أبي حاتم يوسف لطلب ولد خلف فهرب لاجئا إلى قبائل زواغة، انظر : د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٨٤.

(١٤٠) الشملخي : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

(١٤١) وفي طبقات الدرجيني يسمى (أبو سلامة) انظر ج ١ ص ٨٤.

(١٤٢) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٧.

حاتم ليولى عليهم واحدا منهم، أما الأمر الثالث : فهو أن يقوموا بتسليم الطبيب سر خلف إليه - أي إلى هذا الشيخ - ليسلمه إلى نفوسة على أن يضمن سلامته وأنهم لن يخرجوا فيه عن قانون الحق.

ومن الملاحظ في هذه الأمور الثلاثة - وبخاصة الثالث منها - أن الزواغيين تدفعوا تدفعا دون تفكير مع الخلفية، بمعنى أنهم ربما يكونوا قد تورطوا معهم، وأنهم إذا قاموا بتسليم زعيم الخلفية - بضمنان هذا الشيخ - عادت علاقاتهم السلمية مع النفوسيين.

ويرى د. محمود إسماعيل، أنه ربما يكون يعقوب بن أفلح ومن معه من مشايخ الكوفيين وراء حركة التحالف الزواغيين مع الخلفية، بعد أن غادروا تاسارت ونزلوا على زواغة سنة ٢٨٦هـ / ٩٠٠ م^(١١٣)

وبعد أن عرض الشيخ الأمور الثلاثة وأتم كلامه، فإن الزواغيين سفلخوا رأيه، ومن المنطقي تصور أنهم يريدون الحرب، ولذلك اتهموا الشيخ بسوء النية، وفي النهاية اجتمع أمرهم على لقاء أبي منصور إلياس - فلما بلغهم ناصبوه الحرب فهزموا^(١١٤) وقتل عددا كثيرا منهم، فاضطر الطبيب بن خلف أن يلجأ إلى جزيرة جربة ويتحصن ببعض قصورها، ولكن أبا منصور إلياس نجح في القبض عليه وسجنه، وفي ذلك يقول صاحب السير :

"فدخل ولد خلف إلى جربة، فتحصن ببعض قصورها، ثم أُرْسِي من نزل عنده، فدفعه لأبي منصور وسجنه"^(١١٥) وبذلك استقرت الأمور في جزيرة جربة، فلم تعرف بها فتنة أو قتال تسبب فيها الخلفية.

أما رئيس الحركة (جليد خلف) فقد كان مكروما في مسجته معززا لشرفه ولفقه وعلمه^(١١٦) و كان مرجع القوم عندما تنزل بهم نازلة أو تعرض لهم قضية وعرة أو معضنة مما جعله يتسائل متعجبا : يسجنونني ويسألونني^(١١٧)

(١١٣) د. محمود إسماعيل : الفوارج في بلاد المغرب ص: ١٨٠.

(١١٤) ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ أبا زكريا ذكر هذه الحرب في آخر ولاية الرستمين وكذلك المؤرخ الدرجيني في طبقاته، ولا شك أنها وقعت قبل موت أبي اليقظان سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م وأبي منصور إلياس الذي توفي قبل سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م.

انظر : سير الأئمة ص ١٤٧ / طبقات الدرجيني ج ١ ص ٨٤، ٨٥.

(١١٥) الشملخي : السير ج ٢ ص ٣٦٥.

(١١٦) د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٨٧.

(١١٧) أبو زكريا ص ٢٢ والدرجيني : الطبقات ج ١ ص ٨٤، ٨٥.

وقد أشارت المصادر التاريخية أن حفيد خلف هذا قد تاب وحسنت أحواله، حيث يقول أبو زكريا: "ونذكر بعض أصحابنا أنه رجع إلى مذهب أهل الحق وحسنت أحواله، والله أعلم" ^(١١٨) وقال الدرجيني أيضا: "إن الفتى تاب ورجع إلى مذهب أهل الحق وحسنت حاله" ^(١١٩).

ولا شك هذا انتصار لخصومه من الرستميين، فقد كانت غاية آمالهم أن تستقر الأمور في هذه المنطقة المضطربة البعيدة عن الدولة وبذلك نجح أبو منصور إلياس في القضاء على بقايا الخلفية بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك تهدد أمن الرستميين.

وقد حفلت تواريخ الإباضية بذكر انتصارات إلياس بن منصور على الطيب وأنصاره من الخلفية الذين ولوا الأنبار لأثنين بجزيرة جربة وقابس ^(١٢٠) وسيوف النفوسيين تجهز على فولهم، ورغم أن تعاليم المذهب الإباضي تحرم تتبع المدير والإجهاز على الجرحى، فلا غرابة فيما حدث.

ذلك لأن هذه التعاليم الإباضية تشترط في الفار المدير أن يكون بدون ماوى يلوذ به، فإن كان له ماوى جاز تتبعه وقتل حريمه، ولما كان للهاربين من زواغة ماوى في جزيرة جربة، استحل النفوسيون الإجهاز على فولهم ^(١٢١).

وبعد وفاة أبي منصور إلياس تولى أفلق بن العباس ولاية جبل نفوسة ^(١٢٢) وقد استقل جبل نفوسة بعد انقراض الدولة الرستمية وتولى إمارته أطفال من بنى

* * * وقد أضاف الدرجيني أنهم سألوه في قضية رجل رجل، فاجتلفوا فقال: تقطع الرجل دون العطب، وعندنا قال مقالة: جابر بن زيد لما استفتى في المسجن وخبره مشهور، وهذا يعنى أن مقالة: يسجنونى ويسألوننى " هي أصلا لجابر بن زيد، انظر الطبقات ج ١ ص ٨٧.

(١١٨) أبو زكريا: سير الأئمة ص ٣٣.

(١١٩) الدرجيني: طبقات الدرجيني ج ١ ص ٨٧.

(١٢٠) قابس: مدينة تقع على ساحل البحر الرومى، وتنصب إليها أنهار من بعض الجبال التي تليها، فهي بذلك لأخصب بلاد إفريقية وأوسعها فواكه وأغصانها، انظر: عبد الواحد المراكشى: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٠ دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت.)

(١٢١) الورجلاني: الدلائل لأهل العقول ج ٢ ص ٥٤ ط القاهرة ١٣٠٦ هـ.

أبى منصور إلياس^(١٥٣) كما فر عدد كبير من الإباحية الرستميين إلى واحدة وارجلان^(١٥٤) وأقاموا فيها حتى قدمت جيوش المرابطين فهاجروا إلى مزاب وحاولوا الأقاليم الصحراوية هناك إلى واحات خضراء، سميت فيما بعد باسم سبع مدن^(١٥٥) ومزال سكان إقليم مزاب إباحية حتى اليوم^(١٥٦).



ومن الجدير بالذكر أن أبى منصور إلياس كان واليا على جبل نفوسة في عهد كل من (ألتح بن عبد الوهاب وأبى اليقظان ثم أبى حاتم يوسف) وهو يعد من أشهر الشخصيات النفوسية في تاريخ إسالة تاهرت الرسمية على وجه العموم.

مختصر تاريخ الإباحية ص ٥٠، تونس ١٩٠٨ م.

وارجلان : بفتح أوله وسكون ثاقبه وفتح الجيم مكورة بين إريقية وبلاك الجريد، ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات، يستقها قوم من البربر، وهي حاليّا مدينة ورطلة، واحة في الجنوب الشرقي من البلاد الجزائرية، أضحت أهم مركز للإباحية بعد سقوط تاهرت عاصمة الرستميين، انظر: ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٨ ص ٤٥٣/ وللشمسلي: السير ج ٣ ص ٨٧٨.

محمد بن تلويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة المعهد المصري، مدريد عدد ٤٥٤، ١٩٥٧ م، ص ١٢٧.

د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٨٠. نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٩٨٢ م.

نتائج البحث:

بعد هذا العرض لموضوع " الخلفية وحركتهم الانفصالية في طرابلس الغرب وجبل نفوسة، يمكن استنتاج النقاط التالية : -

• أن فرقة الخلفية ظلت كافتراق في المذهب مثلها مثل النكارية والتفائية التي ظلت فرقتها منشقة عن المجتمع الإباضي إلى ما بعد سقوط تاهرت سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م.

• أن قيام الخلفيين في الجهة الشرقية من الدولة الرسمية كان أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى إضعافها وسقوطها فيما بعد.

• أن استقرار الأئمة الرسميين بالعاصمة تاهرت أدى إلى قيام حركات تمردية في مناطق مختلفة من الدولة وبخاصة المنطقة الشرقية وزاد من ذلك إهمال الأئمة لهذه المنطقة.

• كان من نتائج هذه الحركة قيام حروب داخلية بين النفوسيين الإباضيين المؤيدين لأئمة الدولة الرسمية وبين النفوسيين المؤيدين للخلفيين.

• أن قيام هذه الحركة أدى إلى تشجيع البعض الآخر للقيام بحركات مماثلة، فقامت حركة التفائية بزعامة فرج النفوسي ضد الدولة الرسمية وكانت أحد عوامل إضعافها أيضاً.

• أدى قيام هذه الحركة إلى فقدان الكثير من الرجال والأموال وبخاصة أن منطقة جبل نفوسة كانت تدعم الدولة الرسمية مادياً وعسكرياً.

• كان الضعف الاقتصادي في منطقة جبل نفوسة أحد نتائج قيام هذه الحركة نظراً للحروب الكثيرة التي قامت بين زعيم الحركة خلف وأتباعه وبين ولاية الأئمة الرسميين في المنطقة.

• ظهر من خلال هذا البحث مدى حرص الأئمة الرسميين على الجنوح إلى السلم وعدم الدخول في حرب منع معارضتهم خشية أن تزداد شدة النزاع بين الإباضيين.

• أدى قيام فرقة الخلفية وغيرها إلى صراعات حزبية وتكتلات واتجاهات مذهبية وانشطار في البيت الحاكم نفسه وظهور فرق جديدة أخرى في المذهب الإباضي، وقد وصلت كل تلك الخلافات على ضعف الدولة وتآكل المذهب فبدأت بوادر الانهيار للدولة الرسمية، ولذلك كان سقوطها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩م على يد الشيعة العبيديين أمراً سهلاً.

• أن منطقة جبل نفوسة تحتاج إلى المزيد من الاهتمام من جانب الدارسين في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ومن جانب الجغرافيين أيضاً.

(١) نفوسة : بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهمة، وقد افتتح عمرو بن العاص نفوسة، وكتابوا نصارى ومن جبل نفوسة رجع عمرو بن العاص بكتاب ورد عليه من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٨ ص ٣٩٧ دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٨ م.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٨ ص ٣٩٦.

ونقراوة : هم بنو بطون بن نغزوا بن لوا الأكبر، كانت مواطنهم جنوبى شط الجريد، حتى سميت المنطقة بهلا نقراوة ثم تفرعت قبائلهم في سائر المغرب واستوطنت في مناطق متعددة منه، انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٤، ط بيروت ١٩٧١، وابن منصور : قبائل المغرب ج ١٠ ص ٢٠٦ ط الرباط ١٩٦٨ م.

(٣) وكانت المدينة التي تميزت بخبز هذا الشعب هي مدينة سروس إحدى مدن هذا الجبل وكان هذا الخبز أذ من محل طعام، انظر : ياقوت : مرجع سابق ج ٨ ص ٣٩٦.

(٤) انظر في ذلك: ابن حوقل: صورة الأرض ص ٩٤-٩٥، وأبو زكريا: سير الأئمة ص ١١٦، ١١٥، نزهة المشتاق ص ٩٧-٩٩، وابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٠.

Despois : Le Djebel Nefousa, p.137 Paris 1935.

Basset : Les Sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique , p.426 Paris 1899.

(٥) والبربر هم سكان المغرب الإسلامي ، وقد عاشوا على شكل قبائل وجماعات الفترشت أرض المغرب، وقد قسم التسلبون شعب البربر إلى قسمين كبيرين وهما برانس وملاغيم، ويلقب بالأبتر ومن قبائل البتر التي سقلت الدولة الرستمية نفوسة ولواته وسدرته ولماية، ومن البرانس، هواره، وعن البربر انظر : ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ٩١، السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ٥٤، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٩، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦١ ، ابن منصور : قبائل المغرب ج ١ ص ٢٩٩ ، ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ٤٨، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٣، ٢٨ ، د. شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ص ١٢٦، أحمد توفيق : كتاب الجزائر ص ١٠.

(١) وفي ذلك يقول ياقوت الحموي : وبها - أي نفوسة - قبيلة يقال لهم بنو زمرور لهم حصن يقال له تيرفت في غاية المتعة لا يقدر عليه أحد، انظر : معجم البلدان : ج ٨ ص ٣٩٦.

(٢) صبرة : بالفتح ثم السكون بلد قريب من مدينة القيروان وكانت بلدة حصينة لا نقل حصانتها عن حصانة طرابلس، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٥ ص ١٧٧. وعن قبيلة نفوسة : انظر ابن خلدون العبر ج ٦ ص ١١٤ وابن منصور : قبائل المغرب ج ٣ ص ٢٠٤.

(٣) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٥٤ ومزقة : قبائل كثيرة ونسابة البربر يحدون في مزاته بطون كثيرة مثل : بلان وفرنه وبجيحه وكمكة وحجرة ومدونة، وقد سادت مزاة الدولة الرسمية بأموالها، وقد ذكر ابن حوقل صفة الاعتزال التي كانت تغلب على قبيلة مزقة، انظر : صورة الأرض ص ٩٦ ، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٥٥ و ابن خلدون : العبر ج ٦ - ص ٢٣٥.

(٤) د. الحبيب الجنتاحي : المغرب الإسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ص ٣، ٤ ط الدار التونسية وانظر أيضاً :

(١) ابن خلدون : معجم البلدان ج ٨ ص ٣٩٦، ياقوت الحموي : العبر ج ٦ ص ٢٣٠.

(٢) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرشدين ص ٢٧.

(٣) إحصان عبد الله : الدولة الرسمية في تاهرت ص ٢٨٨ ، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٦م.

(٤) طرابلس : بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضاً مضمومة وسين مهملة، ويقال لها أيضاً : أطرابلس، وتوجد مدينة أخرى في بلاد الشام تحمل اسم طرابلس أيضاً، فقول لهذه طرابلس الغرب تميزاً عن الأخرى التي يقال لها طرابلس الشام. وعن طرابلس الغرب : انظر : البكري : المغرب ص ١٧، الاستبصار : ص ١١٠.

(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٦ ص ٢٥٤

(٦) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية ص ٧٢٦

(٧) انظر في ذلك : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٧١ ط ليدن، ١٩٢٠ م / البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٧ ط تحقيق محمد رضوان القاهرة ١٩٥٩ م و د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، عصر الولاة ص ٥٧، مطبعة مصر ١٩٤٧ م.

(٨) انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٥٩٨، وابن عذاري : البيان المغرب ج ٨١ و السلوكي : الاستقصا ج ١ ص ١١١. وقبيلة ورهجوم : قبيلة صغرية من

نغزاة، من قبائل البربر، عاثوا فسادا في القيروان وسيطروا عليها سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م ونجح أبو الخطيب عبد الأعلى زعيم الإباضية في قتلهم قتلا ذريعا ثم رجع إلى طرابلس. انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٧٠، وابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٠.

(١٨) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٥٩٨، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٩٣.

(١٩) انظر أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، ١٢٠.

(٢٠) وكانت هذه الدولة إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها فارسية في إدارتها، انظر : د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : تاريخ المغرب والأندلس ص ١٥٢ مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٩٠ م.

(٢١) وقد علق الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على اسم خلف بن السمع بقوله : (ونحن لا ندري إن كان خلف هو اسمه الحقيقي أم أنه اسم تخرج أطلقه عليه الكتاب من خصومة، كما سيطلقون عليه لقب الخبيث بن الطيب تماما كما فعل أهل السنة بمحمد بن أبي بكر الذي اتهم في مقتل عثمان، وكما فعل كتاب الأمويين بإليان بن عثمان عندما اتهم في فتنة ابن الزبير، انظر : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٣٣، ٣٣٤ منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩ م.

(٢٢) ومن الجدير بالذكر أن أهم الانشقاقات الإباضية الأخرى هي النكارية والنفاثية والحسينية أو العمرية والسكاكية والثارية، انظر : الشهر ستاتي : الملل والنحل ج ١ ص ١٨٣ ط القاهرة ١٩٥٦ م ، الإسفراييني : التبصير في الدين ص ٥٧، القاهرة ١٩٥٥ م ، د. عامر التجار : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ص ٩٥ - ١٠٨ ط دار المعارف القاهرة ١٩٩٣ م.

Lewicki : Melanges Berberes , p.269

(٢٣) الإمام عبد الوهاب هو الذي تولى خلفا لوالده عبد الرحمن بن رستم، وقد اختلف المؤرخون في مدة حكمه فالشائع بينهم أنها دامت أربعين سنة، وأن سنة توليته الخلافة سنة ١٦٨ هـ وأن وفاته كانت سنة ٢٠٨ هـ، وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري أن مدة حكمه عشرين سنة بدأت سنة ١٦٨ وانتهت سنة ١٨٨ هـ، أما المؤرخ الباروني في الأزهار الرياضية فقد ذكر أنه تولى للحكم سنة ١٧١ هـ وأن وفاته كانت سنة ١٩٠ هـ، انظر : الشماخي : السير ج ٢ ص ٢٧٢ - ٣٢٤ / ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٧.

الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٦ - ١٦٦ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ٤٧.

Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane , vol. 1, p. 244

(٢٤) انظر : د. محمد ناصر : منهج الدعوة عند الإباضية ص ١٤٩ - ١٥٦ مكتبة الاستقامة سلطنة عمان، ١٩٨٣ م.

عمرو خليفة الثامي : دراسات عن الإباضية ص ١١٣، ١١٤ ترجمة ميخائيل خوري و د. ماهر جرار ومراجعة د. محمد صالح ناصر دار الغرب الإسلامي ٢٠٠١ م.

د. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٤٤، ١٤٥ دار للتقافة المغرب ط ٢ ١٩٨٥ م.

على يحيى مصر : الإباضية في الجزائر ص ٦٠، ٥٧ مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٩.

(٢٥) ومن الجدير بالذكر أن ابن الصغير المالكي لم يذكر أو يتحدث عن حركة خلف بن السمح لأن مجال هذا الاشتغال كان منطقة طرابلس وجبل نفوسة وإنما الفرد هو بأحداث العاصمة تاهرت، وقد خصص كل من أبي زكريا والدرجيني والشملي مساحات في رواياتهم عن أحوال جبل نفوسة وجيز طرابلس.

(٢٦) د. محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإسلامي ص ١٢١ دار العودة - بيروت، ١٩٧٦ م.

(٢٧) حيز طرابلس : هو المنطقة الواقعة بين مدينة طرابلس وجبل نفوسة.

(٢٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٥ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٨٢ المكتبة التوفيقية، القاهرة (د. ت) / الدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٦٥ - ٦٧ / د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٢٩ / د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٦٩.

(٢٩) للشملي : السير ج ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٤، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، الدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٦٨، الباروني : الأئمة الرياضية ج ٢ ص ١٥٠.

(٣٠) د. سعد زغلول : مرجع سابق ج ٢ ص ٣٣٣.

(٣١) أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري : وأبو الخطاب هذا من وجوه العرب، وهو أحد تلاميذ إمام الإباضية في البصرة بالمشرق (أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة) وقد أخذ عنه أصول المذهب الإباضي وبعد عودته إلى المغرب، تم اختياره ليكون إماما للإباضية، وفي سنة ١٤٠ هـ نجح الإباضيون في الاستيلاء على طرابلس ثم القيروان، ولكن هذا النجاح لم يستمر طويلا، إذ أرسلت = الخلافة العباسية وإليها على مصر ابن الأشعث الذي التقى بأبي الخطاب في سرت سنة ١٤٤ هـ فقتل (أبو الخطاب) وكثيرا من أتباعه، انظر : ابن عذاري : للبيان المغرب ج ١ ص ٨١، الشملي : السير ج ٢ ص ٢٤٦، ٢٤٥، ٢٤٧، الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص ١٩، ابن الصغير المالكي :

أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٣٩، ٢٤٠، د. عوض محمد خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٤٧.

(٣٢) د. سعد زغول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٢٣.

(٣٣) علي يحيى معمر : الإباضية، دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم ص ٦٨، ٧٠ مكتبة وهبة، القاهرة ط ٢ ١٩٨٧م.

(٣٤) علي يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٥٨ المطبعة العربية، الجزائر ١٩٨٧م.

(٣٥) د. صابر طعيمة : الإباضية، عقيدة ومذهبها ص ٦٠ ط دار الجيل، بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٣٦) انظر : د. علم النجار : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ص ١٠٣ دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

(٣٧) الشماعلي : المير ج ٢ ص ٣١١ ط دار المدار الإسلامي.

وانظر أيضا : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠.

(٣٨) أبو زكريا : مصدر سابق ص ١٢٢.

(٣٩) أبو الحسن أيوب : هو عامل الإمام عبد الوهّاب علي جبل نفوسة، انظر : الدرر جيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٥٨، ٦٢، ٦٤، ٦٨.

(٤٠) إسماعيل بن درار الغدامسي : هو أحد علماء الخمسة المعروفين بحجة العلم، وهو غدامس جنوب طرابلس، وقد تلقى دراسته على إمام الإباضية في البصرة وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة .

انظر : د. عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٣٧.

(٤١) أبو سليمان محبوب بن الرحيل : هو أحد أئمة علماء وفقهاء الإباضية، نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مكة المكرمة وعاش بها حتى وفاته، وهو أحد تلاميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، له العديد من المؤلفات ولكنها ضاعت ولم يبق فيها إلا بعض الشذرات الموثقة في كتب الفقه والسير، وكانت وفاته في أواخر القرن الثالث الهجري. انظر : معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم ٥٤٤، جمعية التراث القرارة، الجزائر.

(٤٢) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٣٦ ط ٣ دار العلوم، الكويت، ١٩٨٧م.

وتأثرت : قاعدة الدولة الرسمية، بتأها عبد الرحمن بن رستم، وقد تسم تأسيسها سنة ١١٦١هـ، وقد أحيطت بسور ضخم يحويها من هجمات الأعداء، وحين اختطها عبد الرحمن كانت في موضع مربع، فكانت البرير نزل تأثرت وتفسيره الدفاء لتربيعة، انظر : البكري : المغرب ص ٦٦، وياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٩، واليعقوبي : البلدان ص ١٥٣.

(٣) وما ورد في هذا الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين يحيز طرابلس، أما بعد، فبني أمركم بتقوى الله وإتباع ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، وقد بلغني ما كتبتم به إلى من وفاة السمع وإستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل البر كذلك، فإن من ولي خلفا من غير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى من توليته فقد أصاب، فإذا لتكم كتابي هذا، فليرجع كل عامل استعمله السمع إلى عمله الذي ولي عليه إلا خلفا بين السمع حتى يأتيه أمري وتوبوا إلى ربكم وراجعوا التوبة لحكم تفلحون "

انظر نص الخطاب في : الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١١، ٣١٢، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠، الباروني : الأذهار الرياضية ج ٢ ص ١٥١.

(٤) د. محمود إسماعيل عبد الرزاق : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ص ١٦٣ دار الثقافة، المغرب ط ٢ ١٩٨٥ م.

(١) Julian , Andre : Histoire de l' Afrique du nord.p. 335 , paris 1931

(٥) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٢، والشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٢.

(٦) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٢

(٧) ابن الأخطب : هو إبراهيم بن الأخطب بن سالم بن عقيل التميمي، مؤسس دولة الأغالية بالمغرب الأدنى، تولى الحكم سنة ١٨٤ هـ وحتى سنة ١٩٦ هـ، كان لقبها، أدبيا، شاعرا خطيبا، ذا رأى ونجدة وبأس، وعلم بالحروب ومكايدها، لم يل إفريقية أحسن سيرة منه، تمهدت إفريقية في أيامه واستقلت الأحوال بها، انظر : ابن أبي دؤاد : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٤٨، ٤٩ نشر المكتبة العتيقة، تونس ط ٢ ١٩٦٧ م. / الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٣٠ دار الفرجاني ١٩٩٤ م / ابن الأثير : الحلة للسير ج ١ ص ٩٩ للشركة العربية للطباعة ١٩٦٣ م. / د. بدر عبد الرحمن محمد : دولة الأغالية والأندلس في بلاد المغرب ص ١ - ١٥ مكتبة الأنجلو المصرية للقاهرة ١٩٨٦ م.

(٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٢

(٤٩) الدرجيتي : طبقات للدرجتي ج ١ ص ٥١ ٥٣ ، الباروني : الأثرار الرياضية : ج ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١

الشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٢ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ، عقد الإمامة ص ٧

(٥٠) يزيد بن فندين : هو زعيم جماعة من الإباضية يطلق عليهم (النكارية) وذلك لأنهم اعترضوا على إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الذي تولى الإمامة في تاهرت سنة ١٧٨هـ وكان مبعث خلافهم أنهم أثاروا نقطة العلم عند الإمام وهل يجوز أن يبقى الإمام في السلطة إذا ما ظهر بين أفراد الجماعة من هو أعلم منه ؟ وبهذا المنطق أثاروا نوعا من الشك في صحة إمامة عبد الوهاب وتطورت هذه الحركة حتى وقع الصدام المسلح بين المؤيدين للإمام عبد الوهاب وبين النكار أسفر عن مقتل زعيم النكار ابن فندين وبعض أتباعه.

انظر : أعمال الأعلام ص ٥٣ ، الإباضية بالجريد ص ٧٧، ٧٨ ، الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٥٨ ، الفصل في الملل والنحل ج ٤ ص ١٩١ ، د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣١٥ ، سير الأئمة ص ٩٣

(٥١) شعيب المصري : هو شعيب بن المعروف أحد زعماء الإباضية بالمشرق وكان موجودا بمصر ثم خرج إلى تاهرت طمعا في الإمارة وقد تهاه بعض مشايخ الإباضية فسي مصر عن المسير إلى تاهرت إلا أنه لم يستجب إلى ذلك وانضم إلى يزيد بن فندين ورأى أن يطور الحركة (النكارية) من حيز النشاط السياسي المؤقت إلى حركة أو مذهب ديني يعتمد مسائل يختلف بها عن جمهور الإباضية ، انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ٩٢ / ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة المستميين ص ٢٥٠ دراسة وعرض د. حسن علي حسن ، القاهرة ١٩٨٤ م . د / صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبها ص ٥٢ دار الجيل - بيروت ١٤٠٥ هـ .

(٥٢) الشماعى : السير ج ٢ ص ٢٩٤

(٥٣) هو أبو عبيدة عبد الحميد الجنائى : أحد علماء نفوسة الموصوفين بأخلاق نفوسه مال إلى ما طبع عليه من الورع وانطراح العرص والدنيا وترك الطمع ، وكان غاية في إتخاذ الأمور وإباضتها ، وقامت بالمداخلة لأحوال البغاة ودفاعها ، وولها بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحسينها ، فلما ولئ - أحسن السيرة ، انظر : الشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٠ .

(٥٤) الشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٣

(٥٥) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٥

(٦٦) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٣.

* وتشير بعض الروايات التاريخية بأن كلمة ضعيف التي ذكرها أبو عبيدة بقصد بها، أنه ضعيف المال والبدن والعلم فكتب إليه الإمام يقول : إن كنت ضعيف البدن فادخل في أمور المسلمين بقوى بدئك وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبي زكريا وإن كنت ضعيف المال فبيت المال بسعك ويسع غيرك " انظر : الدرجيني : طبقات الإياضية ج ١ ص ٧١، الشماخي : السير ج ١ ص ٣١٣.

(٦٧) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٤.

* وذكر المؤرخ الدرجيني أن أبا عبيدة استشار عجوزاً معروفة بالعلم والسورع والبدن، فقال لها: إن أمير المؤمنين بعث إليّ بالولاية، فأنشوري عليّ، فقلت: إن علمت في نفوسة أفضل منك فتعلمت، فستكون خشبة في جهنم، وإن علمت إيمان فبهم أفضل منك، فتأخرت، فستكون خشبة في جهنم، فقال: أما في أمور الرجال، فلا أعلم فبهم مثلي، فرجع إليّ المشايخ وقبل الدخول في أمورهم، انظر : الطبقات ج ١ ص ٧١.

(٦٨) الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص ٧٢.

الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٤، ١٥٥.

د. سعد زغول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٤٣.

الشماخي : ج ٢ ص ٣١٤، ٣١٣.

(٦٩) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٤.

(٧٠) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية ص ١٣٧.

(٧١) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٥.

* ومن الواضح أن عمرو بن يثلم كان على صلة أيضاً بخلف، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ الشماخي في السير، حيث يقول : " كان عمرو بلاء على المسلمين، وصاحب خلفاء، وأحدث أحداثاً على المسلمين وكان يتبع عوراتهم ويكتب الإمام "، انظر : السير ج ٢ ص ٢٩٨.

(٧٢) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٤.

(٧٣) الباروني : ج ٢ ص ١٥٥.

(٧٤) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٧.

(٧٥) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٦، ود. سعد زغول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٣٧.

(٦٦) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٦.

والنفاثة فرقة من فرق الإباضية، أفرزتها العوامل السياسية والمتغيرات التي كان يتعرض لها الإباضيون، وتنسب إلى فرج بن نصر التلمساني المعروف بالثقات وهو من القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد لقيت هذه الفرقة استجابة كبيرة من جانب الإباضيين في نفوسة، وذلك لمناهضة الدولة الرستمية، ولكن المصادر الإباضية تعتبر هذه الفرقة مارقة وخارجة عن الإمامة الإباضية وذلك لأسباب سياسية وعقدية عندهم، انظر : أبو الربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٧، ٣٨، وعلى يحيى مصر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٦٥، ود. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبها ص ٥٥-٥٧.

(٦٧) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٧

وتلمسان : بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة، وبعضهم يقول تلمسان بالنون عوض اللام بالمغرب، وهي قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جيدة وخيراتها شاملة، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أخصان وفاس أكثر من أهلها أموالاً ولا أرفه منها حالاً، ولم تزل تلمسان داراً للنماء والمحدثين وحملت الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله " انظر : البكري : المغرب في ذكر بلاد المغرب ص ١٧٧، الاستبصار ص ١٧٦، باقوت الحموي، معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٤

(٦٨) الشملخي : السير ج ٢ ص ٢٧٢

(٦٩) الباروني : الأزهار ج ٢ ص ١٦٦، وانظر أيضاً : رباح بونار : المغرب العربي، تاريخه وثقافته ص ١١١، ١٣٧ - ١٤٥ ط الشركة الوطنية للنشر بالجزائر (د.ت).

(٧٠) د. إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ص ٢٠١

(٧١) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين، في دراسة وعرض د. حسن علي حسن ص ١٥٠.

(٧٢) د. إبراهيم العلوي : مرجع سابق ص ٢٠٢

(٧٣) الشملخي : السير ج ٢ ص ٣١٥

(٧٤) د. محمد عيسى الحريوي : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٤٤، دار القلم، ط ٣ الكويت، ١٩٨٧ م ص ١٤٤.

(٧٥) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٦.

(٧٦) الشملخي : السير ج ٢ ص ٣١٥

(^١)Lewicki , Etudes Ibadites Nord Africaine ,p.115

(٧٧) أدرف : إحدى القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد اختلف المؤرخون في اسم القرية حيث يذكرها الباروني باسم "درف" ويذكرها الدرجيني باسم "ويدوف" أو "يدوف" بينما يسميها أبو زكريا "درف" وهي مشهورة باسم "درف" وينسب إليها أبو محمد الدرقلي، انظر : الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٧، والدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٣. والاستبصار ص ١٤٤، والممالك والممالك ص ١٠.

(٧٨) جادو: مدينة كبيرة بجبل نفوسة وهي مدينة جبلية تقع الآن في شمال غرب ليبيا وتعرف أحيانا باسم فساطو نسبة إلى القبيلة التي تسكنها وهي تبعد عن العاصمة للبيسة حوالي ١٨٠ كم تقريبا، وكلمة جادو تعني الأرض كثرة الشراب، وجادو هي المركز الاقتصادي والسياسي والديني للجهة الشرقية من جبل نفوسة وكان لهذا البلد القديم أسواق يسكنها عدد كبير من اليهود، انظر : الشماخي : السير ج ٢ ص ٨٤٨ .

(٧٩) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٧.

(٨٠) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٥.

(٨١) إجنانون : بلد في منطقة فساطو غربي جادو في جبل نفوسة، ذكرت منذ القرن الثالث الهجري ومماثلت عامرة، وقيل إن كلمة (إجنانون) بربرية تعني العبيد، ويذهب البعض إلى كونها الصيغة المحلية لكلمة الأجنة العربية، لما عرفت به من كثرة البساتين، وقد ذكر المؤرخ الشماخي أن عين إجنانون تدور على اثني عشر ألف زيتونة : انظر : الشماخي : السير ج ٢ ص ٨٢٥.

(٨٢) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٥، وقد علق هذا المؤرخ على خلف قسلا: (قاسي وتمادي في شن الغارات ونهب الأموال وقتل الأتلس، وما قدروا عليه من الفساد) انظر : ج ٢ ص ٣١٥.

(٨٣) والمقصود بذلك أن يفصل خلف الحدود الشرقية للدولة الرسمية وهي التي تبدأ من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ماعدا مدينة طرابلس والساحل فإثما يقعان تحت النفوذ الأغلبي : انظر : محمد علي دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٦٥.

(٨٤) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٨.

(٨٥) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٦ - الباروني : الأزهار ج ٢ ص ١٦٨.

وخلافا للشماخي في السير والباروني في الأزهار الرياضية، فقد ذكر الدرجيني في طبقات الإباضية أن عسكر خلف يعد أربعة آلاف، وهذا الرأي هو الصحيح لأنه يتناسب مع جبل نفوسة من حيث المساحة وعدد السكان، انظر : ج ١ ص ٧٤.

(٨٦) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٩، ١٦٨.

(٨٧) للنهروان : هي بلد تقع بين بغداد وواسط، دارت فيها المعركة التي هزم فيها علي بن أبي طالب الخوارج وقتل أحد زعمائهم وهو عبدالله بن وهب الراسي سنة ٢٣٨ هـ / ٦٥٨ م وإثر معركة النهروان دارت وقعة أخرى في التخيلة قرب الكوفة، انظر : ابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٦، دار التوفيقية للطباعة.

الدرجيني : طبقات ج ١ ص ٧٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٨ ص ٤١٨.

(٨٨) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٩.

(٨٩) اللغة الكتمية: هي لغة أهل كاتم من الإمبراطوريات الإسلامية في غرب أفريقيا فسي العصور الوسطى، وقيل ياقوت الحموي عن كاتم : هي من بلاد البربر بالصحى المغرب في بلاد السودان. انظر : معجم البلدان ج ٧ ص ١١٦.

(٩٠) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧١، والشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٧.

(٩١) الباروني : الأزهار ج ٢ ص ١٧١.

(٩٢) للشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٧.

(٩٣) شروس : وفي معجم البلدان : شروس بفتح أوله وضم ثانيه ورهما قيل بالشين المعجمة في أوله فتصبح " شروس " وهي مدينة جبلية في جبل نفوسة من ناحية إفريقية وهي كبيرة أهلة، وهي قصبة ذلك الجبل بينها وبين طرابلس خمسة أيام وبينهما حصن لبدة وهي حاليا آثار، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٣.

(٩٤) شك السلاح أو شك في السلاح: أي كان لباسا سلاحا تاما وغارقا فيه.

(٩٥) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٢.

(٩٦) ياقوت الحموي: مصدر سابق ج ٥ ص ٤٣.

(٩٧) للشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٧.

(٩٨) السابق ج ٢ ص ٣٢٠، وانظر أيضاً : الدرجيني، طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٦.

(٩٩) أبو مرداس : هو أبو مرداس مهاجر السدراتي، للسكان بتبرست ولذلك يقال له أحياناً : أبو مرداس التبرستي، بلغ في العلوم النهائية، وجرى في أمر الصلاح الغاية، كان ينطق ماله على الضعفاء، وكان له مسجد في كهف يتعد فيه، انظر : للشماعى : السير ج ٢ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

(١٠٠) سورة البقرة: آية ١٥٦.

- (١٠١) الشماعى ج ٢ ص ٣١٨.
- (١٠٢) نفسه ج ٢ ص ٣١٨.
- (١٠٣) الدرجينى : طبقات الإيضاح ج ١ ص ٧٥، ٧٦ / وانظر أيضا : البارونى : الأذهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٣.
- (١٠٤) الشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٩
- (١٠٥) السابق : السير ج ٢ ص ٣١٨.
- (١٠٦) جزيرة جربة : تقع بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر فيها بساكنين كثيرة وأهلها مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج وبينها وبين البر الكبير مجاز، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢، واليكري : المغرب ص ١٩
- (١٠٧) البارونى : الأذهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٣.
- (١٠٨) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج ١ ص ٧٠
- (١٠٩) الشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٩.
- (١١٠) الشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٩.
- (١١١) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٥
- الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص ٧١.
- الشماعى : السير ج ٢ ص ٣١٣.
- البارونى : الأذهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٦.
- (١١٢) والعباس هذا هو ابن أيوب بن العباس الذي كان واليا على حيز طرابلس وحبل نفوسة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وكان له دور مهم في الصراع مع الخلفاء، وقد ذكرتها فيما سبق في هذا البحث.
- (١١٣) أبو الحسن الأبدلاني : كان واسطة العقد وإنسان العين، تعلم العلوم وعمل بموجبها وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها، وهو أحد الأربعة الذين تكلفوا بما طلبه الإمام وهو أحد الاثنى عشر المشهورين بإجابة الدعاء في عصر واحد بجبل نفوسة، انظر : الشماعى في السير ج ٢ ص ٣٠١، ٣٠٢.
- * ومن الجدير بالذكر أن كل من أبي مرداس وأبى الحسن الأبدلاني كانت مواقفهما تسند لهما بصدق النية وصفو القلوب، ولكل منهما فضائل عالية ومفاخر ومناقب ذكرها

المؤرخون، انظر الباروني : ج ٢ ص ١٧٥ / الشماخي : ج ٢ ص ٣٠٢ / الدرجيني : طبقات الإباضية ج ٢ ص ٢٩٢، ٢٩٤.

(١١٤) الباروني : الأثرار الرياضية ج ٢ ص ١٧٥

(١١٥) تيمتى : جاء في المصادر الإباضية أنها قرية في الجهة الشرقية من جبل نفوسة قرب جادو والتسمية الحالية لها هي تيمنتت، وقد ظلت تيمتى مركزا لإباضية جهة طرابلس زمن السماح بن عبد الأعلى، ثم للخلفية زمن خلف بن السماح، وذكرت أر مرة على عهد أبي منصور إلياس في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، انظر : الدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٢ والشماخي : السير ج ٣ ص ٨٤٦.

(١١٦) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣٣١.

(١١٧) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

(١١٨) لالت : هو الوادي الفاصل بين (الزنتان) من جهة (تغرمين) و(الرجبان) من جهة (فساطو) والذي سمي فيما بعد بوادي الآخرة لصعوبته وعمقه، ويلاحظ في ذلك أن قرية (تغرمين) لم تدخل في الطاعة وتحرز شهرتها في دولة بني رستم إلا بعد تلك الواقعة وهي حاليا نالوت، وتقع غرب جبل نفوسة، انظر : الباروني : الأثرار ج ٢ ص ١٧٧.

(١١٩) الباروني : الأثرار الرياضية ج ٢ ص ١٧٦.

(١٢٠) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣٣١.

(١٢١) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

(١٢٢) الشماخي : ج ٢ ص ٣٣١.

(١٢٣) المقصود بذلك جبل شماخ وجبل يفرن

(١٢٤) د. سعد زغول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٤٧

Lewicki : Melanges Berberes, ibadites , P.270.

(١٢٥) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٩٨، ٢٩٧ دراسة وعرض د. حسن علي حسن، القاهرة ١٩٨٤ م.

(١٢٦) ومن الجدير بالذكر أن منصب الإمامة الرستمية قد ضعف بسبب ذلك، لأن معناه أن رجال المذهب الإباضي قد ضعف نفوذهم لدرجة أنهم أبعدوا عن اختيار الإمام، وكان ذلك أحد العوامل الرئيسية للضعف والانهيار الذي أصاب الدولة الرستمية وأدى إلى سقوطها.

(١٢٧) الشماخي : السير ج ٢ ص ٤١٦

(٢٨) قبيلة زناته : كانت منتشرة في بلاد المغرب من لنهاها إلى أقصاها ومختلطة بغيرها من القبائل، فمواطنها كما يقول ابن خلدون في سفر مواطن البربر بإفريقية والمغرب، فمنهم ببلاة النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، ومنهم قوم ياتلون بجبال طرابلس وضواحي إفريقية وبجبل أوراس، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط ومنهم بالمغرب الأقصى اسم أخرى، انظر: ابن خلدون : المعراج ج ٧ ص ٢ وانظر أيضا :

Gautier : Les Siècles obscurs du Maghreb. P. 264 - 266, Paris , 1937

(٢٩) الشماخي : ج ٢ ص ٤١٦ / الباروني : الأزهري ج ٢ ص ٢٦٥ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٩ / الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٩١ / عبد الرحمن الجيلاوي: تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٢٤.

(٣٠) وفي بعض الروايات أن الطبيب هذا هو حفيد خلف وليس ابنه، انظر: الدرجيني: طبقات الإيباضية ج ١ ص ٧٠.

(٣١) زواغة : من القبائل التي اعتنقت المذهب الإباضي وكانت تقيم في غرب مدينة تاهرت، قال عنها ابن خلدون : ' هؤلاء **البطون من بطون البرابرة البتر**، من ولد مسكان بن يحيى بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبر، ولهم ثلاثة بطون وهي : دمر بن زواغ وبنو واطيل وبنو ماضر ومن دمر بنو مسكان وهم أوزاع في القبائل، ومنهم بنوواحي طرابلس مفترقون في براريها، ولهم هناك الجبل المعروف بدمر وفي جهات قسطنطينية أيضا رهط من زواغة، وكذلك بجبال سلف بنو واطيل منهم وبنوواحي فاس آخرون، انظر : المعراج ج ٢ ص ٢٦١ ٢٦٤.

(٣٢) تندميرت : قرية من قرى نفوسة تقع في الجانب الغربي من الجبل، وفيها مسجد أبي منصور إلياس، ويقال لها تندميرت وتين دميرت وتندميرة، انظر الشماخي : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

Despois : Le Djebel Nefousa , p. 258 , 288.

(٣٣) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٦ / الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص ٨٤ / الشماخي : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

(٣٤) بحاز إبراهيم بن بكير : الدولة الرسمية ص ١٥٠ ط ٢ جمعية التراث، الجزائر م ١٩٩٣

(٣٥) إسمان عبد الله : الدولة الرسمية في تاهرت ص ٢٠٩ رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٨٦ م.

(١٣٦) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

ومن الجدير بالذكر أن أنصار الخليفة، من نفوسة وزواغة، قتلوا موالين للطبيب بن خلف حتى أواخر حكم بني رستم.

(١٣٧) ولد خلف : لم تذكر الروايات التاريخية اسمه، وإنما تكتفي بالقول إن والي جبل نفوسة خرج على أيام أبي حاتم يوسف لطلب ولد خلف فهرب لاجئا إلى قبائل زواغة، انظر : د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٨٤.

(١٣٨) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣٦٤

(١٣٩) وفي طبقات الدرجيني يسمى (أبو سلامة) انظر ج ١ ص ٨٤.

(١٤٠) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٧.

(١٤١) د. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٨٠.

(١٤٢) ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ أبا زكريا ذكر هذه الحرب في آخر ولاية الرستميين وكذلك المؤرخ الدرجيني في طبقاته، ولا شك أنها وقعت قبل موت أبي الوقلان سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م وأبي منصور إلياس الذي توفي قبل سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م.

انظر : سير الأئمة ص ١٤٧ / طبقات الدرجيني ج ١ ص ٨٤، ٨٥.

(١٤٣) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣٦٥.

(١٤٤) د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٨٧.

(١٤٥) أبو زكريا : ص ٣٣ والدرجيني : الطبقات ج ١ ص ٨٤، ٨٥.

• • وقد أضاف الدرجيني أنهم سألوه في قضية رجل رجل، فاختلوا فقال : تقطع الرجل دون العقب، وعندئذ قال مقالة، جابر بن زيد لما استفتى في السجن وخبره مشهور، وهذا يعني إن مقالة : مسجونتي ومسالونتي " هي أصلا لجابر بن زيد، انظر الطبقات ج ١ ص ٨٧.

(١٤٦) أبو زكريا : سير الأئمة ص ٣٣.

(١٤٧) الدرجيني : طبقات الدرجيني ج ١ ص ٨٧.

(١٤٨) قابس : مدينة تقع على ساحل البحر الرومي، وتتصب إليها أنهار من بعض الجبال التي تليها، فهي بذلك أقصب بلاد إفريقية وأوسعها فواكه وأغنيا، انظر: عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٠ دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت)

(١٤٩) الوريثاني : الدليل لأهل العقول ج ٣ ص ٥٤ ط القاهرة ١٣٠٦ هـ

Motyliniski : L'Aqida des Abadhites P. 512

(١٥٠) ومن الجدير بالذكر إن أبا منصور إلياس كان واليا على جبل نفوسة في عهد كل من (أفلح بن عبد الوهاب وأبى اليقظان ثم أبى حاتم يوسف) وهو يعد من أشهر الشخصيات النفوسية في تاريخ إمارة تاهرت الرسمية على وجه الصوم.

(١٥١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٥٠، تونس ١٩٠٨م.

(١٥٢) وارجلان : بفتح أوله ومكون ثقبه وفتح الجيم كورة بين إفريقية وبلاد الجريد، ضاربة في البر كثيرة التخل والخيرات، يسكنها قوم من البربر، وهي حاليا مدينة ورغلة، ولحة في الجنوب الشرقي من لبلاد الجزائرية، أضحت أهم مركز للإباضية بعد سقوط تاهرت عاصمة الرستميين، انظر: سالفوت الحموي معجم البلدان ج ٨ ص ٤٥٣ / والشملخي : السير ج ٢ ص ٨٧٨.

(١٥٣) محمد بن تلويت :دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة المعهد المصري، مدريد عدد ٥٤٠، ١٩٥٧م، ص ١٢٧.

(١٥٤) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٨٠ نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٩٨٢م.

❖ د. إبراهيم أحمد العدوي: الجزائر، تكوينها العربي والإسلامي، مكتبة الأنجلو، القاهرة.

❖ ابن الأثير (أبو عبد الله محمد ت سنة ٦٥٨هـ): الحلة السرياء، الشركة الوطنية للطباعة، الجزائر ١٩٦٣م.

❖ ابن الأثير: (علي بن أحمد ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨ م): الكامل في التاريخ، المكتبة التوفيقية، القاهرة

❖ الإبريسي: (أبو عبد الله محمد - ٥٥٨ هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٧٢م

❖ الإسفراييني: (أبو المظفر ت ٤٧١ هـ): التبصير في الدين، ط القاهرة ١٩٥٦م.

❖ ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ليبيا ١٩٦٩م.

❖ الباروني: (سليمان بن عبد الله النفوسي ١٢٥٩هـ): الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ط القاهرة ١٩٦٧م.

- ❖ د. بدر عبد الرحمن محمد : دولة الأغلبية والأدانة في بلاد المغرب ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٦ م.
- ❖ البكري: (عبد الله بن عبد العزيز ٤٦٠ هـ) : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، د. د. ي. سليل، الجزائر ١٨٧٧ م.
- ❖ البلاذري : (أبو العباس أحمد بن يحيى ٧٢٩ هـ / ٨٩٢ م) : فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان القاهرة ١٩٥٩ م.
- ❖ جمعية التراث : معجم أعلام الإباضية ، الجزائر ، قسم المغرب
- ❖ الحبيب الجناحي: المغرب الاسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ط الدار التونسية.
- ❖ ابن حزم الأندلسي: (علي بن أحمد، ت ٤٥٦ هـ) : جمهرة أنساب العرب، ت عبد السلام هارون ، دار المعارف ١٩٧١ م
- ❖ د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م.
- ❖ د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، مصر الولاية مطبعة مصر ١٩٤٧ م.
- ❖ ابن عبد الحكم : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧ هـ) : فتوح مصر والمغرب ط ليدن ١٩٢٠ م.
- ❖ ابن حوقل: (أبو القاسم محمد ت في ٤ هـ) : صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢ م.
- ❖ ابن خرداذبة: (عبدالله بن خرداذبة في ٣ هـ / ٩ م): المسالك والممالك مطبعة ليدن ٩٨٩ م.
- ❖ ابن الخطيب: (محمد لسان الدين ت ٧٧٦ هـ) : أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ، ت. العبادي وآخرون ، أحمد مختار العبادي وآخرون ط الدار البيضاء ١٩٦٤ م
- ❖ ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط بيروت ١٩٧١ م.
- ❖ الدرجيني : (أبو القاسم أحمد الدرجيني ت في ٧ هـ) : طبقات الإباضية، ت. إبراهيم طلاي، قسنطينة (د.ت).

- ❖ ابن أبي دينار: (أبو عبد الله محمد ت سنة ١١١٠هـ / ١٦٩٨م): المؤنن في أخبار إفريقية وتونس، المكتبة الصيقة ط ٢ تونس ١٩٦٧م.
- ❖ رايح يونار: المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر (د. ت)
- ❖ أبو الربيع سليمان الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ط ٢، تونس
- ❖ الرقيق القيرواني: (أبو إسحاق إبراهيم ت ق ٥ هـ) تاريخ إفريقية والمغرب، دار الفرجاني، القاهرة ١٩٩٤م.
- ❖ أبو زكريا: (يحيى بن أبي بكر ق ٤ هـ / ١٠ م): سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكريا ت إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٨٩٢م.
- ❖ د. سعد زغلول عبد الحميد: (تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٧٩م)
- ❖ السلوى: (أبو العباس أحمد ١٣١٥هـ): الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ت. جعفر الناصري سنة ١٩٥٤م
- ❖ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٩٨٢م.
- ❖ التشملي: (أحمد بن أبي عثمان سعيد عبد الواحد ت ٩٢٨ هـ)، السير، ط دار المدار الإسلامي.
- ❖ شهرستاني: (محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ)، الملل والنحل، ط القاهرة ١٩٥٦م.
- ❖ د. صابر طعيمة: الإباضية عقيدة ومذهب، دار الجيل، بيروت ١٤٠٥هـ.
- ❖ صالح باجي: الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية تونس ١٩٧٦م.
- ❖ ابن الصغير: (ابن الصغير المالكي ٢٨١ هـ / ٨٩٥ م) : أخبار الأئمة للمستميين ، ت. د / حسن علي ، القاهرة ١٩٨٤م.
- ❖ د. علم التجار: الإباضية ومدى صلتها بالوارج ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣م.
- ❖ ابن عذاري : (ابن عذاري المراكشي) ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ت إصمان عباس بيروت ١٩٦٧م.
- ❖ د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : تاريخ المغرب والأندلس ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ١٩٩٠م.

❖ على يحيى مصر:

❖ - الإباضية بين الفرق الإسلامية القاهرة ط ١٩٧٦ م.

- الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم ، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨٧ م.

❖ د. عوض محمد خليفات: الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، سقط ١٩٨٢م.

- نشأة الحركة الإباضية، عمان سنة ١٩٧٨ م.

❖ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد ت سنة ٤٥٠هـ) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط القاهرة ١٩٧٣م.

❖ محمد بن تايوت : دولة الرستميين أصحاب ناهرت ، صحيفة المعهد المصري - مدريد ، ٥٤٠ سنة ١٩٥٧ م.

❖ محمد علي دبول : (تاريخ المغرب الكبير) القاهرة ١٩٦٣ م

❖ د. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ط ٣ دار العلم ، الكويت ١٩٨٧م.

❖ د. محمد ناصر: منهج الدعوة عند الإباضية ، مكتبة الاستقامة سلطنة عمان ١٩٨٣م.

❖ د. محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب الإسلامي، دار العودة - بيروت ١٩٧٦م.

❖ المراكشي : (عبد الواحد بن علي ت ٦٤٧هـ): المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت.) .

❖ ابن منصور: قبائل المغرب، ط الرباط ١٩٦٨ م.

❖ الورجلاني: (أبو يعقوب يوسف ت ٣٨٠ هـ) : الدليل لأهل العقول ط القاهرة ١٣٠٦هـ.

❖ ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٨م.

المراجع الأجنبية:

- Basset , Rene : Les Sanctualres du Djebel Nefousa. Jurnal Asiatique , Tome 13,14.Paris 1899.
- Despois, Jean : Le Djebel Nefusa , Paris ,1935.

- Gavtler , E,F: Les Siecles Obscurs du Maghrb. Paris , 1937.
- Julian , Andre : Histire de , L Afrique du Nord , Paris , 1931.
- Lewicki , t : Etudes ibadites Nord Africaine , Warsaw , 1955.
Melanges Berberes ibadites , Revue des etudes
islam iques Annee ,1936 , Cahiar 3 , Paris , 1936.
- Motylinski , A,De ,C : L' Aqida des Abadhites Actes du Cngres
international des rientalistes international des orientalistes,
Alger ,1905.
- Provençal ,E,l : Histoire de L'ESPane musul mane , vol,1,
Alger,1950.



القضاء في الصعيد الأعلى
خلال العهدين الفاطمي والأيوبي
 (٣٥٨ - ٥٦٤٨ / ٩٦٨ - ١٢٥٠ م)
 د. معدوح محمد حسن (*)

مقدمة

يعرف القضاء بأنه فصل الخصومات وقطع المنازعات على وجه خاص، صادر عن ولاية عامة بالأحكام الشرعية، المتلقاه من الكتاب والسنة النبوية الشريفة^(١). وبوجه آخر؛ فالقضاء يعنى حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، أو جعلهم على مقتضى النظر الشرعي المنوط بسيادة الدارين، وهذا أكمل^(٢).

لذا يعد القضاء من أجل الوظائف المدنية، بل أرفعها وأسمها مرتبة^(٣)، لأنها فرض لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٥).

وكان الرسول ﷺ يتولى الفصل في الخصومات بنفسه، ولا سيما أن السلطة التنفيذية والقضائية في الإسلام، آنذاك، لم تكن مميزة أحدهما عن الأخرى^(٦). ولما توفي النبي ﷺ في ١٢ من ربيع الأول سنة ١١ هـ / ٨ يونيو سنة ٦٣٢ م، وابتدأ عهد الصحابة بخلافة أبي بكر الصديق (١١-١٣ هـ / ٦٣٢-٦٣٤ م)، كانت سلطة القضاء بتولاها الخليفة أبو بكر، فلم يتخذ قاضيا يخصصه بالقضاء^(٧).

أما في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه (١٣-٢٣ هـ / ٦٣٤-٦٤٣ م)، الذي اتسعت في حكمه رقعة الدولة الإسلامية، فقد قام بتعيين قضاة في الأقاليم ينوبون عنه وقدم على الأمصار قضاة أقامهم مقامه^(٨)، وأشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: "أول ما دفع (أي القضاء) إلى غيره وفوضه فيه عمر"^(٩).

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الآداب، جامعة سوهاج

وأصبح القضاء بذلك من الوظائف الداخلة تحت الخلافة ومندرجاً في عمومها^(١٠). ومن ذلك أخذ الخلفاء على عاتقهم الإشراف على النظام القضائي، وعينوا في الأقاليم القضاة.

ففي مصر نظم عمرو بن العاص^(١١) القضاء بها وفق أحكام الشريعة الإسلامية، فعم العدل، وانتشرت المساواة^(١٢)، وكان أول من تولى القضاء بمصر هو قيس بن أبي العاص^(١٣)، (ت ٥٢٣/٦٤٣م)، وكان ولاء عمر بن الخطاب، وكتب بذلك إلى عمرو بن العاص واليه على مصر^(١٤)، وظل أمر تعيين القضاة في مصر بيد الخليفة ويكتب بذلك إلى والي بندا في عهد الخلفاء الراشدين وكذلك في العهد الأموي، وإن كان معظم الأمويين استنابوا عنهم في تولية القضاء أمراء ولايتهم. وفي عهد الدولة العباسية استرد أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٣-٧٧٤م) حق تعيين الخلفاء للقضاة، فولى عبد الله بن لهيعة الحضرمي على مصر سنة (١٥٥هـ / ٧٧١م)^(١٥)، وكان لا يتولى القضاء آنذاك إلا كل عالم فقيه مجتهد^(١٦).

وهكذا جاء الفصل بين السلطة القضائية والسلطة الإدارية والسياسية، وصار لكل ولاية قاض يضطلع بشئون العدالة **وإقرارها، ويطبق الأحكام** وفق الشريعة الإسلامية. ومنذ هذا العهد بدأ تطلق التطور في النظام القضائي تطلقاً قوياً شمل جميع الولايات. وكانت الإدارة القضائية في مصر نموذجاً لهذا التطور المهتم الذي حدث في النظام القضائي على عهد عمر بن الخطاب، ثم استقر أمره فيما بعد خلال العصر الأموي والعباسي أيضاً^(١٧).

وكانت مصادر القضاة في مصر، منذ العهد الراشدي، هي القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والاجتهاد^(١٨)، شأنهم في ذلك شأن قضاة باقي الأمصار الإسلامية الأخرى، وخلال العهد الأموي لم يتقيد القضاة في مصر بمذهب بعينه، بل كان للقاضي مطلق الحرية في الفصل في الدعاوى والمنازعات بما يراه وفق اجتهاده وعلمه، وذلك إذا لم يجد حكماً منصوباً عليه في القرآن والسنة النبوية أو إجماع الصحابة^(١٩)، إلا أنه عندما ظهرت المذاهب الفقهية وانتشرت بين الناس بدأ القاضي يفقد طريقته في الاجتهاد وأصبح يحكم طبقاً لقواعد مذهب من هذه المذاهب، ففي عهد الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٤م) والإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٤-٩٦٩م) لم يكن القضاة جميعاً تابعين لمذهب واحد، فمنهم الحنفي^(٢٠) ومنهم المالكي^(٢١) ومنهم الشافعي^(٢٢)، فكان القاضي يحكم وفق عقائد المذهب الذي ينتمي إليه^(٢٣)، وذلك مما أدى إلى ضعف روح الاجتهاد في الأحكام^(٢٤)، وإن كان القضاء آنذاك في الغالب، يسير طبقاً للمذهب الشافعي^(٢٥).

وعندما جاء الفاطميون إلى مصر، وأضحت مقر خلافتهم (٩٣٥هـ/١١٦٨م)، تأثر القضاء بالمذهب الشيعي^(٢٦)، وصار قضاء مصر يتبعون ذلك المذهب حتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، وقيام الدولة الأيوبية، وعادت مصر من جديد منية المذهب، وعاد معها القضاء إلى ما كان عليه قبل مجيء الفاطميين إلى مصر، حيث عزل قضاء الشيعة جميعاً وتولى الشافعية القضاء بمصر ونواحيها^(٢٧).

وخلال الصفحات التالية نتناول بالبحث والدراسة موضوع القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي (٣٥٨-٦٤٨هـ/٩٦٨-١٢٥٠م)، ولكن ليس في القاهرة وسائر أنحاء مصر، بل يقتصر هذا البحث على الصعيد الأعلى، وذلك لأنه قد سبقنا الكثير من الباحثين في الكتابة عن القضاء في مصر، سواء في العهد الفاطمي أو الأيوبي^(٢٨)، وكان جل عنايتهم بالفسطاط والقاهرة، ولم تتعرض تلك البحوث والدراسات لموضوع القضاء في الصعيد الأعلى؛ الذي يشكل جزءاً مهماً من أرض مصر، ولعل تركيزهم الحديث عن القضاء في العاصمة، راجع إلى أنها كانت محور الأحداث ومركز السلطة حينئذ، هذا بالإضافة إلى وفرة المادة العلمية الخاصة بالقضاء في الفسطاط والقاهرة في المصادر التاريخية، بينما دراسة القضاء في صعيد مصر، بصفة عامة والصعيد الأعلى بصفة خاصة، لم تتعرض لها المصادر المعاصرة للعهد الفاطمي أو الأيوبي في الحديث عنه بالقدر الكافي الذي يجذب انتباه الباحثين، وربما ذلك راجع إلى جذب العاصمة القاهرة والمدن الكبرى في مصر، والقريبة من السلطة المركزية، انتباه الكثيرين من مؤرخي العهدين الفاطمي والأيوبي دون غيرهم.

غير أنني حاولت، عن طريق البحث والدراسة، أن أقف على العديد من المعلومات في بطون بعض المصادر التي بين أيدينا، والتي أعطينا تصوراً لا بأس به عن القضاء في الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي - محور هذا البحث - وهذه المعلومات كانت دافعاً لي للسير في الكتابة في هذا الموضوع، والجدير بالذكر أيضاً، أن معظم الدراسات السابقة في وقتنا هذا، والتي تناولت تاريخ الصعيد في العصر الإسلامي، لم تغط القضاء في الصعيد الأعلى القدر الكافي لإيضاحه وإبراز أهميته، فجاءت كتابات أحد هذه البحوث عن القضاء بسيطة لا تتعدى بعض الفقرات التي اقتضتها ضرورة أبحاثهم ليس إلا، بينما لم تتعرض باقي هذه الدراسات لموضوع القضاء في الصعيد الأعلى على الإطلاق^(٢٩).

وقبل الحديث عن القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، وجدنا لزاماً علينا أن نتعرف - بإيجاز - على موقع الصعيد الأعلى محور الدراسة، وذلك لما له من أهمية وأثر كبير في التعرف على النظام القضائي في مدن وقرى هذا الجزء من أرض مصر.

يمثل الصعيد بصفة عامة الشطر الثاني من مصر، فمئذ أن تم الفتح العربي الإسلامي لمصر، أطلق العرب على الوجه البحري أسفل الأرض أو الريف، بينما أطلقوا على الوجه القبلي أعلى الأرض أو صعيد مصر^(٣٠). وكان الصعيد يقسم إلى ثلاثة أقسام: الصعيد الأدنى ويبدأ من القسطنطينية حتى البهنسا^(٣١)، والصعيد الأوسط ويبدأ من البهنسا حتى أخميم^(٣٢)، أما الصعيد الأعلى فيبدأ من شمال أخميم حتى أسوان جنوباً^(٣٣).

وكان الصعيد (الوجه القبلي)، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، يشتمل على عدة أقاليم هي: إقليم الجيزية، والإطيجية، والبوصيرية، وإقليم الفيومية، والبهنساوية، والأشمونيين، والأسبوطية، ثم إقليم الإخمومية ثم إقليم القوصية في الجنوب^(٣٤).

وكانت هذه الأقاليم يطلق عليها اسم كورة^(٣٥)، إذ كانت مصر مقسمة إلى ثلاث وعشرين كورة، اختص الصعيد بتسع كور منها. وهي التي عرفت باسم الأقاليم. وقد ظل هذا التقسيم على هذا النحو حتى عصر المماليك البحرية في سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، حيث قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) بإجراء تعديلات على التقسيم الإداري لمصر، وحلت الأعمال محل الكور^(٣٦).

وأياً لما كان الأمر، فقد كان الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي من ولايات مصر المهمة، وقد وصف ناصر خسرو الصعيد الأعلى بأنه ولاية مصرية في الجنوب يأتي منها ماء النيل إلى مصر، وأكثر ثمارها منه. وهناك على ضفتي النيل كثير من المدن والقرى عظيمة الشأن^(٣٧)، ويمثل الصعيد الأعلى كورة القوصية وقصبتها مدينة قوص^(٣٨)، فقد أشار الأنفوي إلى أن الصعيد الأعلى يبدأ من حدود بلاد النوبة جنوباً، حتى مرج بن هرم المتصلة بأرضيه بأراضي جرجا، من عمل أخميم، شمالاً^(٣٩).

وعلى هذا النحو فقد ضم الصعيد الأعلى عدة مدن ونواحي جليلة مزدهرة بالأسواق، ودور الصناعة والحواتيت، والحمامات والمارستات، والمساجد العظيمة، والربط والمدارس والمباني الفخمة. ومن مدن إقليم القوصية من الجنوب إلى الشمال نذكر: أسوان، وأدفو، وإسنا، وأرمنت، والأقصر، وقوص، وقفط، وقتا، ودندرة، ودشنا، وغيرها من النواحي والقرى التي تقع على جانبي نهر النيل حتى شمال أخميم^(٤٠)، كما يضاف إلى أراضي الصعيد الأعلى: ثغر عذاب على البحر الأحمر الذي كان يعد من أعمال قوص آنذاك^(٤١)، والجدير بالذكر إن الكثير من مدن الصعيد الأعلى كان له دوره البارز في الحياة السياسية خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، وأثر

تأثيراً واضحاً في سير الأحداث، فقامت بها الكثير من الاضطرابات التي أفلقت السلطة المركزية في العاصمة القاهرة^(١٧).

وقد تولى أمر الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، وآل من قبل السلطة المركزية في القاهرة، وكان يعين مع الولي عامل للخراج وقاضٍ، وكان القاضي يتم تعيينه من قبل قاضي القضاة^(١٨).

وبعد هذه المقدمة - التي أوضحت فيها (بإيجاز) تطور القضاء، وموقع الصعيد الأعلى وأهم مدته، وكذلك أشرت فيها إلى مدى أهمية موضوع البحث الذي نحن بصدده - نذكر النقاط التي نتناول هذا الموضوع من خلالها، وهي على النحو الآتي: تعيين القضاة في الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، ثم نتحدث عن مذاهب القضاة في الصعيد الأعلى، ومكاتبهم، ومهامهم، ثم معاوني هؤلاء القضاة، ثم ننهي الحديث في هذا البحث بذكر إسهامات القضاة في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في الصعيد الأعلى، خلال الفترة البحث، وفيما يلي تفصيل ذلك.

تعيين القضاة في الصعيد الأعلى

احتفظ القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، بمكانته السامية التي كان عليها في العاصمة للقاهرة وباقي أنحاء مصر، خاصة وأنه بوصول الفاطميين إلى مصر سنة ٩٣٥هـ/٩٦٩م أضحت القاهرة، مثلها مثل بغداد أو قرطبة، مركز خلافة، وعرفت مصر منذ ذلك الحين منصب قاضي القضاة^(١٩) الذي كان يتم اختياره من الفقهاء الإسماعيلية، ويشترط عليه أن لا يحكم إلا بمذهب الدولة^(٢٠)، واستمر ذلك إلى أن نجح الناصر صلاح الدين الأيوبي في إزالة النفوذ الشيعي من مصر، وحرص على أن يكون قاضي القضاة شافعي^(٢١)، وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم طوال العهد الأيوبي^(٢٢).

وكان هناك قاضي قضاة يشرف على القاهرة والوجه البحري، وآخر يشرف على مصر (القساط) والوجه القبلي^(٢٣)، وكان قاضي قضاة مصر والوجه القبلي يعين سائر قضاة مصر والوجه القبلي^(٢٤)، بمن فيهم من قضاة الصعيد الأعلى، كما كان عليه أن يضع لقضاته (توابه) في الأقاليم الخطة التي يسيرون عليها في القضاء بين الناس، والأسس التي يستطيعون بفضلها أن يحتفظوا بهيبتهم أمام المتقاضين، وأخذ الحق للمظلومين^(٢٥)، ومن تولوا منصب قاضي قضاة مصر والوجه القبلي نذكر: تاج الدين عبد السلام بن الخراط وقد صرف عنه في سنة ١٢٢٠م/١٢٢٠هـ^(٢٦).

ثم أسند أمر قضاء مصر والوجه القبلي لقاضي القضاة شرف الدين محمد بن عبد الله الاسكندراني، المعروف بابن أعين، والذي كان يلي أمر قضاء القاهرة والوجه البحري. وظل ابن أعين بجميع أمر قضاء مصر والوجه القبلي وقضاء القاهرة والوجه البحري معاً، إلى أن فصل أمر قضاء مصر والوجه القبلي عن ابن أعين، وأسند إلى القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن السنجاري، في ربيع الآخر سنة ١٢٣٩هـ/١٢٤١م، وما لبث أن صرف عنه في نفس العام^(٩٢). وتولى الشيخ عز الدين بن عبد السلام قضاء مصر والوجه القبلي بدلاً منه، وكان الشيخ عز الدين قد قدم من دمشق في سنة ٦٣٩هـ، وكان له مكانة العلمية والدينية، فلما وصل إلى مصر تلقاه سلطاتها، الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) وأكرمه وولاه قضاء مصر والوجه القبلي^(٩٣)، غير أنه لم يستمر طويلاً وعزل نفسه، وولى بعده أفضل الدين محمد الخونجي، وظل في منصبه إلى أن مات سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م^(٩٤).

وممن تولوا منصب قاضي قضاة مصر والوجه القبلي، وكان بيدهم أمر تعيين قضاة الصعيد الأعلى، نذكر أيضاً في أواخر العهد الأيوبي: قاضي القضاة صدر الدين موهوب بن عمر الجزري^(٩٥)، ومنهم أيضاً قاضي القضاة شرف الدين أبو حفص السبكي (٥٨٥-٦٦٩هـ/٩١٨٩-١٢٧٠م)^(٩٦).

وعلى أية حال، فقد كان قضاة الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، تابعين لقاضي قضاة مصر والوجه القبلي فهم بمنزلة النواب عنه، وكانتوا يسمون في بعض الأحيان بالحكام^(٩٧)، وأشار الأندلسي في طالعاه، عند حديثه عن القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد الأسواني، إلى أنه كان حاكماً بأسوان في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، وكانت ولايته للقضاء من جهة الخليفة العاضد الفاطمي، وأسند إليه قضاء أسوان واسنا وأرمنت^(٩٨)، كما كان علم الملك الأندلسي تغلب بن أحمد بن جعفر بن يونس القاضي حاكماً بأدفو، واستمر لمدة سنتين في ولاية قضاء أدفو، وكانت وفاته في حدود سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م^(٩٩)، في عهد الملك الكامل الأيوبي (٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٧م)^(١٠٠). كذلك كان فخر الدين القتاني القاضي حاكماً بقتنا، في أوائل القرن السابع الهجري من جهة قاضي قضاة مصر والوجه القبلي آنذاك^(١٠١).

والجدير بالذكر أنه كما كان لأصحاب منصب قاضي القضاة مصر والوجه القبلي سلطة تعيين نواب عنه في أقاليم الوجه القبلي كان أيضاً من اختصاصاته عزلهم عن قضاء، ففي الصعيد الأعلى في أواخر العهد الأيوبي كان القاضي أحمد بن محمد بن... الأزمنتي، الفقيه الشافعي، يلي أمر القضاء في قوص، فجاءه يوماً كتاب... نقضاً بصرفه عن قضاء قوص دون أن يبين له سبب ذلك، ويبدو أن أحد... عليه قد وشى به عند قاضي القضاة، فتوجه القاضي أحمد بن محمد بن هبة

الله الأرمئتي إليه، لوتبين أسباب ذلك، وحضر مجلس قاضي القضاة آنذاك وأنشده شعراً لنفسه^(١١)، فأزال غضب قاضي القضاة عليه، وأصدر مرسوماً له بالاستمرار في نيابة القضاء بقوص^(١٢).

وظل القاضي أحمد بن أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمئتي يلي أمر القضاء في قوص حتى نهاية الدولة الأيوبية، وكان من الشعراء للمجيدين والفقهاء المتأدبين، وقد قرأ الفقه على الشيخ الإمام أبي الحسن علي بن وهب القشيري بن دقيق العيد (٥٨١-٥٦٧هـ/١١٨٥-١٢٦٨م) وكان القاضي أحمد شديد الرحمة بالفقراء، وكانت وفاته في سنة ١٢٦٢هـ/١٢٦٣م^(١٣).

وكان يتم اختيار القضاة بعناية، وفقاً لشروط معينة، ومن أهم هذه الشروط التي يجب أن تتوافر فيما يتولى منصب القضاء: حبه للإصاف والعدالة، ومعرفته بالفقه وأحكام الدين^(١٤). ففي الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي كان يتم اختيار قضاة بدقه، ووفق الشروط المعروفة والتي نصت عليها كتب الفقه^(١٥)، ومن أبرز قضاة الصعيد الأعلى حينئذ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: القاضي الحسين بن إبراهيم بن جابر بن علي الأدفوي، المعروف بابن أبي الزمام، المتوفى سنة ٩٧٣هـ/١٢٦٣م^(١٦). أما القاضي أبو علي محمد بن حيدر العيني الأمواتي، فقد كان من ألمع قضاة الأعمال القوصية في سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م^(١٧).

ومن قضاة الصعيد الأعلى، في أواخر المائة السادسة من الهجرة، والذين عرفوا بعد لهم وإصافهم: القاضي البهاء بن العجمي، الذي كان يلي أمر القضاء بأسنا وأدفو معاً^(١٨)، وكذلك كان القاضي كمال الدين بن شكر قاضي أسوان، في عهد الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م)^(١٩).

ومن قضاة الصعيد الأعلى البارزين، خلال العصر الأيوبي، نذكر: القاضي إسماعيل بن محمد بن حسين بن جواد بن علي بن خزرج أبو الطاهر الأتصاري الشافعي، كان فقيهاً ومحدثاً، وتولى قضاء أسوان مدة ودرس بمدرستها أيضاً، ثم رحل إلى القاهرة وتوفي بها في السابع من شهر رمضان سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م^(٢٠)، في عهد الملك العادل الأيوبي (٥٩٦-٦١٥هـ/١٢١٨-١٢١٩م)^(٢١)، ومن القضاة النابهين في ذلك الوقت: القاضي الموفق عبد المنعم بن عبد الله بن محمد الفاطمي، الذي كان يلي قضاء مدينة قوص في حدود سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م^(٢٢)، والقاضي مظفر بن نوفر بن جعفر بن أحمد بن جعفر بن يونس الثعلبي الأدفوي، كان من قضاة أدفو في العصر الأيوبي، وعرف بعلمه وعظمه، وتوفي بأدفو في سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م^(٢٣).

ومن قضاة الصعيد الأعلى أيضاً، خلال العصر الأيوبي: القاضي أبو الفضل القتالي جعفر بن محمد بن عبد الرحيم القتالي، كان مولده بقفا سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م

ونشأ وتعلم بها، حتى صار شيخ عصره في الفقه الشافعي، وكان يقتنى أكثر من خمسين سنة، ثم ولي أمر القضاء بالأعمال القوصية، ورحل إلى القاهرة وأقام بها يدرس بالمشهد الحسيني^(٧٥)، وطال به العمر حتى توفي في سنة ١٢٩٦هـ/١٢٩٦م^(٧٦)، أما القاضي الحسين بن الحسين بن يحيى بن محمد بن أبي علي الأرمني، فقد كان من فضلاء عصره، وشعراء أرمنيت وقضاتها المشهورين، وتوفي بها سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م^(٧٧). كذلك كان القاضي المفضل الأسواني عبد العزيز بن الحسين من قضاة الصعيد الأعلى، في أواخر العصر الأيوبي، وكان قاضياً كريماً عادلاً محباً للعلم، وكانت وفاته في سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م^(٧٨).

وقد ظهرت في الصعيد الأعلى، أبان العصر الفاطمي والأيوبي، بعض الأسر التي استأثرت بمنصب القضاء، والتي كانت تهتم بالشرع وعلومه، ومن أشهر هذه الأسر نذكر: أسرة بنو الفضل في أسوان، وذكرهم الأئقوى بقوله: «كان بأسوان القضاة، الفضل وبنوه، وهم أهل علم وكرم ورياسة وحشم، ولهم في المناصب الدينية رسوخ قدم»^(٧٩)، أما بنو يحيى في أرمنت، فقد عرفوا بأنهم أصحاب جاء ووجاهة ورياسة ومكارم ومناصب^(٨٠). كذلك كان بنو السيد في إسنا: بيت رياسة ووجاهة وتولى المناصب الدينية. فكان منهم القضاة والفقهاء^(٨١). ومنهم القاضي محمد بن عبد الوهاب بن علي بن السيد الإنساني وكان شافعي المذهب، وتولى قضاء إسنا في أواخر العصر الأيوبي، وكانت وفاته في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م^(٨٢). وبمدينة إسنا أيضاً كانت هناك أسرة بنو النضر رؤساء أعيان^(٨٣)، وكان منهم القضاة المشهورين أمثال القاضي علي بن النضر الإنساني قاضي الصعيد الأعلى وكان يلقب (بقاضي القضاة)، وكان ينظاها باعتناق مذهب الإسماعيلية خوفاً من الفاطميين، وتوفي سنة ٥٠٥هـ/١١١١م^(٨٤)، في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٢٩م)^(٨٥)، ومن قضاة بني النضر أيضاً: القاضي أبو المظفر بن النضر الذي كان يلي أمر القضاء في إسنا في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م في أواخر العصر الأيوبي^(٨٦).

ومن الأسر التي استأثرت بمنصب القضاء أسرة بنو الزبير الأسواني ومنهم: إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير القرشي الأسواني القاضي، وكان قد تولى قضاء قوص وأعمالها في سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م^(٨٧)، وكان يلقب بالقاضي الرشيد الموفق ثقة الملك^(٨٨)، أما حفيده القاضي الرشيد^(٨٩)، الذي يعرف بالقاضي الرشيد بن الزبير، فقد كان قاضياً على الصعيد الأعلى في أيام وزارة المأمون البطاحي^(٩٠)، تولى القاضي الرشيد في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م^(٩١)، كذلك كانت أسرة بنو عبد الظاهر الأسر التي تولى بعض أفرادها القضاء في نواحي الصعيد الأعلى، فقد كان بنو عبد الظاهر بيت رياسة وعدالة بقوص، ومن أبرز قضائهم القاضي ذخيرة الدين،

محمد بن عبد الظاهر بن عبد المولى، القرشي الهاشمي القوصي، وكان قاضياً بقوص، ثم تولى القضاء بالقاهرة وكان موجوداً في سنة ١٢٢٦هـ/١٢٢٨م^(٩٧).

مذهب القضاء في الصعيد الأعلى:

أما عن مذهب القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، ففي عهد الفاطميين سار القضاء على المذهب الشيعي، خاصة وأنه قد أصبحت رئاسة القضاء في يد الإسماعيلية الشيعيين، وعين القضاء، ومعظمهم من الإسماعيلية، وحتم عليهم أن يحكموا بمذهب الإسماعيلية، لا بمذهب الشافعي أو غيره من أئمة المسلمين^(٩٨)، وتأثر الصعيد الأعلى بسياسة الفاطميين الرامية إلى نشر مذهبهم وسيادته في أنحاء البلاد، وما زالوا على ذلك حتى أقبل على دعوتهم عدد كبير، واعتنقوا المذهب الشيعي رغبة أو رهبة^(٩٩)، وغلب على العديد من مدن الصعيد الأعلى التشيع مثل أسوان، وأدفو التي انتشر بها التشيع بصورة كبيرة، فكان أهلها طائفتين الإسماعيلية والأممية، وكذلك كان التشيع منتشرًا في أرمنت^(١٠٠)، وإسنا التي كان بها التشيع فاشياً^(١٠١)، كذلك كانت بلدة أسفون^(١٠٢) التي وصفها ابن دقماق بأنها معروفة بالتشيع الشيعي، ولكنه خفي منها **وقل بعد ذلك**^(١٠٣)، وقد نجح الفاطميون إلى حد كبير في نشر مذهبهم بمدن الصعيد الأعلى مما كان له أثره الواضح على القضاء هناك في عهدهم.

ولكن الأمر تبدل وتغير بمجيئ صلاح الدين الأيوبي، الذي أخذ على عاتقه مهمة القضاء على المذهب الشيعي فبدأ بقطع خطبة الفاطميين^(١٠٤)، وامتدت أيديه إلى مدن الصعيد الأعلى لإزالة المذهب الشيعي من هناك، حتى قلل إتباعهم واضمحل نفوذهم^(١٠٥)، وانحصر التشيع في أماكن بعينها، واستمر صلاح الدين في محاربة التشيع حتى فقد من أرض مصر كلها^(١٠٦)، وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة فقام بعزل قضاة مصر الشيعة، وقطع أرزاقهم وولى بدلاً منهم قضاة سنية على المذهب الشافعي الذي كان يتبعه غالبية المصريين قبل مجيئ الفاطميين إلى مصر^(١٠٧).

ففي الصعيد الأعلى كان المذهب الشافعي أكثر المذاهب الفقهية انتشاراً بمدنه، قبيل امتداد النفوذ الفاطمي إليه، وتمتع الصعيد الأعلى بوجود نخبة كبيرة من فقهاء الشافعية البارزين، من أشهرهم في أسوان على سبيل المثال: أبو ضيف الأسواني المتوفى سنة ٢٧١هـ/١٨٤م^(١٠٨)، وكذلك الفقيه أبو رجا محمد بن أحمد بن الربيع الأسواني الأديب الشاعر، المتوفى في سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م^(١٠٩)، لذا سرعان ما عاد نفوذ الشافعية من جديد، بعد زوال نفوذ الشيعة أمام جهود صلاح الدين الأيوبي الذي شرد دعائهم وألغى مجالسهم^(١١٠)، وحل القضاة الشافعية محلهم في القضاء^(١١١).

وذاع صيت القضاة الشافعية في الصعيد الأعلى، وذلك لعلمهم وحسن سيرتهم بين الناس، ومن بين هؤلاء القضاة : القاضي أبو طاهر الأنصاري إسماعيل بن محمد بن حسان الأسواني، الذي كان يلي قضاء أسوان في العصر الأيوبي وكان قد رحل إلى بغداد لطلب العلم، وتلقاه على يد كبار علمائها ثم عاد إلى وطنه، وكانت وفاته سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م^(١٠٧)، ومما ينهي الإشارة إليه؛ أنه إذا كان المذهب الشافعي هو السائد في العهد الأيوبي، وأن السواد الأعظم من القضاة كانوا شافعية، إلا أنه كان يوجد البعض من القضاة السنة ليسوا شافعية، ومما يدل على ذلك ما أشار إليه الأديبي بأن قاضي قنا الحسين بن رضوان القتاتى^(١٠٨) كان مالكي المذهب، وكان عالماً، وربما تولى أمر قضاء قنا من جهة قاضي القضاة بمصر^(١٠٩).

وأياً ما كان الأمر فقد وقف القضاة والعلماء أيضاً في وجه بقايا الشيعة، فسي بعض مدن الصعيد الأعلى التي ما زال بها أتباع للشيعة الإسماعيلية، فمن العلماء الذين أخذوا على عاتقهم ضرورة القضاء على التشيع واتبعوا في ذلك كافة الطرق، بعدد حلقات الدرس في المساجد - العالم الفقيه النحوي شيت بن إبراهيم بن الحاج القفطي، (ت ٥٩٨هـ/١٢٠١م)، الذي لم يدخر جهداً في التصدي للشيعة في قسطنطينية وغيرها^(١١٠) من مدن الصعيد الأعلى، كذلك استطاع على بن هبة الله بن دقيق العيد القشيري المنفلوطي^(١١١)، ثم القوصي (٥٨١-٦٦٧هـ/١١٨٥-١٢٦٨م)، أن يزِيل المذهب الشيعي ويجري المذهب السني على أسلوب حكيم، فقد كان ابن دقيق العيد يجمع بين العلم والعبادة، والورع والتقوى والزهد، والإحسان إلى الناس مع اختلافهم، وكان كثير التردد إلى والي قوص في قضاء حوائج الناس، وتسولى أمر التدريس بالمدرسة النجيبية بقوص في سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، وظل بقوص حتى مات في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م^(١١٢).

ومن بين القضاة الذين تصدروا لبقايا الشيعة في الصعيد الأعلى: القاضي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل العنزي، الذي كان قاضياً إسنًا في أوائل القرن السابع الهجري، وكان يطلق عليه فاتح إسنًا، لأنه قضى على التشيع بها^(١١٣)، وألف كتاباً لمحاربة التشيع أسماه: النصائح المفترضة في فضائح الرافضة^(١١٤)، وامتد العمر بالقاضي هبة الله، فكان مولده في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، وتوفي في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م^(١١٥).

ونتيجة لذلك، فقد اندثر التشيع في الصعيد الأعلى في العصر الأيوبي، وأصبح من الأمور المشينة، التي إذا ادعى بها على أحد أمام السلطة الحاكمة، يتعرض إلى القبض عليه وتصادر أمواله^(١١٦)، وإذا كان صاحب سلطة يستبعد من منصبه، ففسي مجال القضاء نذكر القاضي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن النخعي القوصي، الذي كان يتولى قضاء الأعمال القوصية، وكانت له الصدارة والرياسة والمكانة

الكبيرة، وتصدر أيضاً للفتوى والخطابة بقوص، فرماه بعض الحاقدين عليه بالتنشيع وأنه رافضي^(١١٧)، ثم حكم بسقوط عدالته واستبعد عن القضاء فغادر قوص إلى القاهرة وتوفي بها في سنة ١٢٤٣هـ/١٧٤٥م^(١١٨)، في عهد الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-١٢٤٧هـ/١٧٤٠-١٢٤٩م)^(١١٩).

مكانة القضاء في الصعيد الأعلى:

تبوأ قضاة الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، مكانة كبيرة لدى السلطة الحاكمة آنذاك، فتمتعوا بثقة السلطة المركزية في القاهرة، وكان ذلك نتيجة لمكانتهم الدينية والعلمية البارزة، هذا بالإضافة إلى ما عرف عنهم من عدل ونزاهة فذاع صيتهم، ونالوا بذلك ثقة الخلفاء الفاطميين، وكذلك السلاطين الأيوبيين من بعدهم، ففي العهد الفاطمي كان الكثير من قضاة الصعيد الأعلى محل تقدير الخلفاء ورجال دولتهم، فقد كان القاضي «حيدر بن الحسين القوصي»، متولى للقضاء بالأعمال القوصية في النصف الأول من القرن السادس الهجري، يلقب «بالقاضي النقيس ثقة الخلافة»^(١٢٠)، كذلك كان القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد الأسواني قاضي أسوان سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، ممن نالوا ثقة الخلافة في عهد الخليفة العاضد الفاطمي، ولقبه برضى الدولة^(١٢١).

ولم يكن قضاة الصعيد الأعلى في عهد الدولة الأيوبية أقل مكانة عن سابقيهم في العهد الفاطمي، بل كان حكام الدولة الأيوبية يقدرونهم وينزلونهم مكانة عالية لديهم، فيذكر أن القاضي علم الملك الألفوي، المتوفي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، قاضي أدفو، كان الملك الكامل يكتبه، مما يدل على عظم مكانته لديه^(١٢٢).

كما كان للقضاة مكانة رفيعة لدى العامة والخاصة من أهالي الصعيد الأعلى، فكان يقدروهم العلماء والأعيان وغيرهم، فقد حدث أن حضر مرة قاضي قوص إلى أسوان، فخرج منها أربعمائة راكب بقة للقاتل^(١٢٣)، وكان أكثرهم من العلماء، إذ كانت أسوان، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، بها الكثير من أهل العلم والدراسة والأدب^(١٢٤)، وحظي القضاء في هذا العصر بمدح الشعراء، فجد الشاعر داود بن الحسن الإنشائي، الذي يعد من أشهر شعراء عصره في الصعيد الأعلى، يمدح قاضي إسنا نجم الدين البهنسي لعنله وحسن سيرته في الناس^(١٢٥)، كما حدث أن أحد قضاة أرمنت قد مدحه، في أحد الأعياد، خمسة وعشرون شاعراً من مدينة إسنا^(١٢٦).

وليس أدل على ارتفاع منزلة قضاة الصعيد الأعلى، لدى رجال العلم والأدب أيضاً، ما قام به أحد أدباء قوص، ويدعى الأريب الفاضل على بن صادق بن علي بن محمد بن محمد الخرجي، من مدح القاضي محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن رفاعة القرشي القوصي، قاضي الأعمال القوصية في العصر الأيوبي، وقد مدحه على

بن صادق بقصائد كثيرة، وكان القاضي محمد بن إبراهيم من أشهر قضاة قوص لعلمه الواسع في كثير من العلوم، وكان يتعت بالكمال، ويكنى بأبي الفتوح، فجمع الأديب الفاضل على بن صادق هذه المديح في كتاب وقفها على حروف المعجم، وعمل فيها مقدمة وصفه فيها فقال: «إن القاضي أبا الفتوح، أطال الله بقاءه إطالة، تمدح بأصناف البلاغات، وتمنح بالأنطاف الكرامات، ويرقى سعدُها في أعلى المنازل، ويبقى مجدها في أمنع المعازل، منحوفة بتحقيق الآمال، محفوفة بتوفيق الأقوال والأفعال»، وظل القاضي أبا الفتوح، طوال فترة توليه القضاء في الأعمال القوصية، يتمتع بمنزلة كبيرة لدى الناس لعلمه وحسنه حتى توفي سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م^(١٢٧).

مهام القضاء في الصعيد الأعلى.

توعدت مهام القضاء واختصاصاتهم في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، فكانت سلطة القاضي غير قاصرة على الأعمال القضائية، بالإضافة إلى الأمور المتعلقة بالقضايا الدينية والمدنية والنظر في الجرائم والشرطة^(١٢٨)، بل أسندت إليهم أيضاً بعض الأمور الدينية التي ليس لها علاقة بالقضاء. وضمت إلى نظر القاضي بسبب معرفته للشرع الإسلامي، وأصبحت مقررة في سلطته واختصاصاته، فكانت الأعمال الإضافية تتكون غالباً من الصلاة والخطبة في الجوامع، والإشراف على الأماكن الدينية، والإشراف على أموال القاتنين للمفقودين، وغير ذلك من الأعمال الأخرى^(١٢٩).

ومن بين هذه الأعمال التي أسندت إلى القضاء آنذاك : مراقبة أموال البيتمس^(١٣٠) - أي الإشراف عليها- وكان للمتبع في نواحي الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، عند وفاة أحد الأثرياء وعظم ثروته، أن يوكل الوالي أحد القضاة لتسويتها وتوزيعها على مستحقيها، ففي أواخر العصر الأيوبي، على سبيل المثال، عندما مات أحد تجار مدينة إسنا وترك بعد وفاة تركة كبيرة، انتدب لتسويتها وتوزيعها على مستحقيها قاضي قوص نجم الدين عمر بن إبراهيم البيهقي^(١٣١).

كذلك تولى قضاة الصعيد الأعلى الإشراف على أموال الأحياس^(١٣٢) التي كانت تعد من موارد الدولة وهي الأموال الموقوفة على المساجد والمدارس وغيرها^(١٣٣). وكان ناظر الأحياس بقوص في سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م على بن محمد الإسمناني^(١٣٤). وقد عظم أمر الأحياس في الصعيد الأعلى خلال العهد الفاطمي وظل أيضاً على مكانته طوال العهد الأيوبي، إذ كان أهالي الصعيد الأعلى الأثرياء يتسابقون في وقف الأوقاف، ففي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) قام أحد أهالي إسنا، ويدعى أحمد بن علي الإسمناني ببناء مدرسة بها ووقف عليها أملاكاً جيدة، ووقف على الفقراء بإسنا أملاكاً جيدة أيضاً^(١٣٥)، وإلى جانب ذلك، كان يوكل للقضاة الإشراف

على دور الضرب، ففي الصعيد الأعلى أسند للقاضي قوص الإشراف على دار الضرب بقوص^(١٣٦)، كذلك كان بوكل لبعض القضاة بعض المهام الأخرى مثل: الإشراف على المنشآت الدينية، ففي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م أسند للقاضي أبي الحسين على بن النضر، قاضي أسوان، مهمة الإشراف على بناء مسجد النضر^(١٣٧)، وذلك من قبل الأمير بدر الجمالي (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)^(١٣٨)، كما كان من مهام القضاة في ذلك الوقت أيضاً: تلقد الجوامع والمساجد والإشراف على صيانتها ونظافتها وجمالها، وكان القضاة يحرصون أن لا يدخلها إلا من كان مصلحاً أو عالماً أو متطعاً أو مستمعاً^(١٣٩).

ومن بين المهام التي أسندت للقضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، الإمامة في الصلاة والخطابة، وذلك لما توافر فيهم من تلقه في أمور الدين، وبراعة العديد منهم في الخطابة، ومن أشهرهم: القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد بن نصر أبو الحسن الأسواني، قاضي أسوان سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م في أيام الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، فقد كان خطيب أسوان بلا منازع^(١٤٠)، كذلك كان القاضي أبو المظفر بن النضر من القضاة والخطباء البارعين في بلدة إسنا، في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، وذاع صيته في أنحاء الصعيد الأعلى خلال العهد الأيوبي^(١٤١). وكان أيضاً عبد الرحمن بن محمد النخعي القوصي المتوفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م من أشهر خطباء قوص وقضاتها^(١٤٢).

وعلى الرغم من كل تلك المهام التي كان يقوم بها القضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، إلا أنهم لم يكونوا بعيدين عن الأهالي، بل كانوا قريبين منهم، ووقفوا بجانبهم في حل ما شجر بينهم، وإزالة كل المشاكل التي تواجههم، فحينما وقعت المناوشات بين أسرة بني السديد بإسنا، وبين عبد القوي بن عبد الرحمن الإنشائي (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م) الذي تولى الخطابة بإسنا بعد أبيه فاعترض بنو السديد على ذلك، لأنه كان عاقلاً لأبيه وأحضر بنو السديد من شهد على عبد القوي الإنشائي بذلك، واشتد الأمر بينهما حتى حضر قاضي قوص آنذاك ليصل بينهما، وأسند الخطابة لأحمد بن السديد، وذلك عندما ثبت لديه عدم رغبة الناس في عبد القوي الإنشائي، فكان تدخل القاضي سبباً في حسم النزاع بين الطرفين، وهدأت الأوضاع بإسنا^(١٤٣).

كما نجح القاضي نجم الدين عمر البهنسي قاضي مدينة إسنا، أواخر العصر الأيوبي، في مساعدة أحد شباب مدينة إسنا ويدعى داود بن الحسن بن منصور الإنشائي، وتوسط له في الزواج من المرأة التي يريد أن يتزوجها، وذلك بعد إقناع أهلها به وكانتوا رافضين في أول الأمر واستقر الحال بعدها لداود بن الحسن بن منصور الإنشائي وطال به العمر إلى أن توفي في بداية القرن الثامن الهجري^(١٤٤).

وعلى أية حال، فإن وساطة القاضي نجم الدين البهنمى هذه، من الأمور التي تدل على مدى مشاركة القضاة في الصعود الأعلى للناس في حل مشاكلهم، وذلك على الرغم من أن عمل القاضي الأساسي كان الفصل في الخصومات المدنية والجنائية، وقضايا الأموال الشخصية والمعاملات، إلا أنه كان يجمع بين هذه الاختصاصات والأعمال الأخرى التي لا تقل أهمية وخطورة عما سبق، والتي شملت حق النظر في أمور عدة جعلت سلطته كبيرة، ونفوذه عظيماً، وقريباً من الناس^(١٤٥).

كما شارك القضاة في الصعود الأعلى للناس في العديد من احتفالاتهم، ففي معظم المناسبات الدينية الإسلامية، كان الأهالي في مدن الصعود الأعلى يقيمون الاحتفالات الدينية في الزوايا والمساجد، ويلقون القصائد الجميلة في مدح الرسول ﷺ وتلاوة القرآن الكريم، ومن أهم هذه الاحتفالات : الاحتفال بموسم الحج، ففي مدينة قوص كان يقام احتفال عظيم بهذه المناسبة، خاصة وأن قوص كانت مركزاً لتجمع الحجاج، فيجتمع الأمراء والوجهاء والفقهاء والصوفية والقضاة للذهاب إلى الحج، وكانوا يقضون الأشهر الطوال بقوص، وكانوا يأتون من مختلف الجهات الإسلامية، وكانوا يقيمون الندوات الإسلامية داخل المساجد، طوال مدة إقامتهم أثناء رحلة الذهاب والعودة، وكان قضاة قوص يشاركونهم في هذه الاحتفالات^(١٤٦).

كذلك كان لقضاة الصعود الأعلى مشاركات واضحة في الاحتفالات التي تقام في أنحاء الإقليم، وخاصة بمناسبة افتتاح دور العلم أو المساجد، حيث كانت العادة المتبعة، عند إنشاء مسجد أو دار علم، أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً رسمياً، فيمد السماط ويحضر الأمراء والولاة وعلية القوم، والطعام والفقهاء والقضاة، ثم يقوم الشعراء وينشدون قصائدهم، ويلقى الخطباء خطبهم، التي يمدحون فيها هذا العمل الإنساني المهم عند المسلمين، وقد ظهر العديد من خطباء الصعود الأعلى وعلمائهم وقضاة الذين كانوا يسهمون بالاشتراك في هذه الاحتفالات الجليلة^(١٤٧)، ففي مدينة قوص، عندما أنشأ والي قوص سابق الدين دار الحديث بقوص، وأسند للإمام أبي الفتح محمد بن علي بن وهب القشيري^(١٤٨) إدارتها والتدريس فيها، وأقيم الاحتفال بهذه المناسبة، فشارك في افتتاحها القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله بن قيس الشافعي، (ت ٦٦٢هـ/ ٢٦٣م)، قاضي قوص، وكانت له خطبة طويلة أثنى فيها على منشئ هذه الدار وأهميتها للمسلمين، وأشاد بالإمام أبي الفتح محمد القشيري الفائم على هذه الدار ومدرستها الأولى^(١٤٩)، وقد كشفت هذه الخطبة عن قدرة القاضي أحمد بن هبة الله على الخطابة ومكنته، وحرص القضاة في الصعود الأعلى، آنذاك، على الإسهام في هذه المناسبات المهمة لأهالي الإقليم.

معاونو القضاة في الصعيد الأعلى.

كان لاتصاع مهام القضاة واختصاصاتهم في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، أن وجد من يعاونهم في أداء مهامهم ومعاونتهم لإقرار العدل بين الناس، شأنهم في ذلك شأن باقي قضاة مصر، فكان هناك الشهود والأمناء والكتاب وغيرهم، وفيما يأتي ذكر هؤلاء المعاونين للقضاة في الصعيد الأعلى، وذلك بالقدر الذي أفصحت عنه المصادر التي بين أيدينا.

- الشهود.

كان الشهود من أوائل المعاونين للقضاة، وتعد الشهادة من الوظائف الدينية المهمة التي يقوم بها الشهود العدول^(١٥٠) التابعين للقضاء^(١٥١)، وذلك لأن الشاهد دليل يمشى القضاء على منتهاجه ويستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه^(١٥٢)، ويعاونون القاضي في أداء مهامه القضائية، وكان يُعرف الشاهد منهم باسم شاهد العدل، ويعرف رئيس الشهود باسم مقدم الشهود^(١٥٣)، وقد كثر الشهود في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، حتى إنه كانت لهم «حوائط خاصة بهم»^(١٥٤) في مدن الصعيد الأعلى مثل مدينة قوص^(١٥٥)، وكان يطلق على كل منها : «حائوت الشهود»^(١٥٦).

وكان يتم تعيين هؤلاء الشهود واختيارهم من قبل القضاة، وكان معظمهم من الفقهاء، فأورد لنا الأديب ما يدل على ذلك، عندما تحدث عن أحد فقهاء قوص ويدعى : عثمان بن مفلح أبو عمرو النجيب، في النصف الأول من القرن السابع الهجري، فقال:... وكان القاضي بقوص أراد أن يثبت عدالة عثمان بن مفلح ويجلسه بحائوت الشهود بقوص، غير أن عثمان بن مفلح لم يتمكن من ذلك، لوقوف جماعة من سادة قوص لمنعه، حسدا منهم لعثمان بن مفلح في أن ينال ذلك، ولعل هذا يبين لنا مدى مكانة الشهود في المجتمع آنذاك، حتى كان يحسد من يوكل إليه هذا الأمر، ولم يقف عثمان بن مفلح مكتوف الأيدي أمام ذلك، ولجأ إلى قاضي القضاة في مصر حينئذ، والذي سمع شكايته وما فطه أعيان بلاده به، واعتراضهم على انضمامه إلى حائوت الشهود بقوص، فكتب قاضي القضاة إلى قاضي قوص بإجلاسهم بحائوت الشهود بقوص وإكرامه^(١٥٧)، وعاد عثمان بن مفلح، وظل معززا مكرما في قوص، حتى رحل عنها بعد ذلك، وقام بالتدريس بالمدرسة العزية بإسنا، وكانت وفاته سنة ١٢٦٨هـ/١٢٦٩م^(١٥٨).

وجدير بالذكر، أنه لما كان الشهود العدول يختارهم القاضي ويعزلهم بنفسه، فإتهم كانوا يعزلون يعزله أو موته أيضا^(١٥٩)، وكان عدد الشهود يزيد وينقص حسب ما يرى القاضي، وحالة الناس في المجتمع، فإذا ما نفشى الاحتلال في المجتمع فإن

القاضي كان يستكثر منهم، وكان عدد الشهود - بصفة عامة في المتوسط - يبلغ نحو ثلاثين شاهداً^(١٦٠)، ففي الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، لم تغطنا المصادر التي بين أيدينا أعدادهم ولكن يمكننا القول بأن تواجد الشهود بالحوادث الخاصة بهم، كحالات الشهود بقوص، يدل على أن أعدادهم لم تكن بالقليلة، ولذا كانوا يتجمعون في مكان خاص بهم.

وكان الشهود يحضرون مجلس الحكم والقضاء، فإذا حضر القاضي المجلس جلس الشهود المعدلون حول القاضي، عن يمينه ويساره، على مراتبهم في أقدمية تعديلهم ويشاهدون ما يقع من الأحكام^(١٦١)، وكان القاضي يتصفح أعمال الشهود ويتابع حسن سيرتهم، ليضمن على عدالتهم، ويأخذ القاضي برأيهم فيما له علاقة بالمختاصمين. وكان اختصاصهم أيضاً بالشهادة على ما يصدره القاضي من الأحكام^(١٦٢)، وقد اقتصر بعض الشهود على الشهادة في بعض القضايا دون الأخرى، منهم شهود القيمة^(١٦٣)، وهي تكون عند تقويم ما يتنازع فيه الشركاء والتوصل للتقسيم، ويتولى هذا في اصطلاح العصر الخبراء^(١٦٤)، وهناك شهادة الأيتام^(١٦٥)، ومن الذين اقتصروا على شهادة الأيتام بقوص: الفقيه مظفر بن حنبل المجد الإسلامي، وكان دائم الجلوس بحاوت الشهود بقوص، في أواخر العصر الأيوبي، وطل به العمر، وكانت وفاته سنة ٥٧٠٩هـ/١٣٠٩م^(١٦٦).

وقد تمتع الشهود العدول، في الصعيد الأعلى، بثقة القضاة والناس، وذلك لما يتمتعون به من علم ودراية بما أسند إليهم، فكان أبو بكر محمد بن إبراهيم بن خالد الأسواني، (ت ٦١٥هـ/١٢١٨م)، مقبول القول عند القضاة^(١٦٧)، كذلك كان الفقيه عبد الرحيم بن علي الفخر القصوي من الشهود العدول، المعروفين بالأمانة والصدق، وذكره الأندلسي بأنه «اطلع على مكتوب تزكيتة والشهادة له بالاتصاف بصفات العدالة والعظم، وإثبات الحكم بقوص في سنة ٦٤٨هـ»^(١٦٨)، أيضاً كان علي بن مظفر النطلي الأندلسي (ت ٦٥٢هـ/١٢٥٢م) من الشهود العدول ببلدة أنفو، ومن مقبولى القول عند قضائها^(١٦٩)، ومن الشهود العدول للذين نالوا ثقة القضاة بمدينة قوص: علي بن إبراهيم بن عبد الملك القصوي، الذي كان من أبرز علماء قوص ومحدثيها في أواخر العصر الأيوبي، وكانت وفاته في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م^(١٧٠).

- الأمانة والكتاب -

ومن أعوان القضاة أيضاً: الأمانة (أمناء القاضي) وهم الذين يتولون التحفظ على أموال الأيتام الفقيرين^(١٧١)، في الصعيد الأعلى، ومن أشهر الأمانة آنذاك بقوص: نور الدين علي بن إبراهيم بن عبد الملك القصوي، وكان من خيار الناس بقوص وعقلها، عدلاً ثقة، وكانت وفاته سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م^(١٧٢)، كذلك كان يعاون القضاة

بالصعيد الأعلى بعض الكتاب^(١٧٣) لتسجيل القضايا وأحكامها^(١٧٤)، فكان كاتب الجلسة يقوم بتدوين كل ما يدور فيها تحت سمع القاضي وبصره، وتأكيداً لصحة ما دون كان يكلف بقراءة ما كتبه على شهود الجلسة، ولذلك كان الكاتب يختار بدقة من العدول الأمانة، حتى لا يضعف أمام رشوة أو محسوبية لقربة^(١٧٥)، ومن أمثلة هؤلاء الكتاب في الصعيد الأعلى: الفقيه إسماعيل بن يوسف بن حكى بن هبة الله، المكنى بالصدر القوصي المسمّى فقد كان يتولى كتابة مجالس الحكم والقضاء بقوص، وكان إلى جانب ذلك فقيهاً فاضلاً محدثاً^(١٧٦).

وهناك من يعاونون القضاة في الصعيد الأعلى في أداء مهامهم، من غير الشهود العدول والأمانة والكتاب، وهم الذين كانوا يباشرون التوقيع للقضاة، ونذكر منهم: أحمد بن ناشر بن عبد الله القوصي المولد سنة ٥٦١٠هـ/١٢١٣م وكان من علمائها المعروفين بالأمانة والعدل بين الناس، وباشر التوقيع للقضاة، ثم تولى قضاء قوص بعد ذلك، وطال به العمر حتى توفي في سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م^(١٧٧)، كذلك كان هناك الحجاب الذين يفلون خارج مجلس القضاة عند الباب ومعهم صاحب الشرطة^(١٧٨).

- مجالس القضاة في الصعيد الأعلى.

كانت مجالس القضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، تتميز بالبساطة فقد استمر جلوس القاضي للحكم، بنفس البساطة التي كان عليها في جميع أنحاء مصر الأخرى، فكان يجلس القاضي في الغالب في المسجد، ولم يكن الجامع، كما في أيامنا، مهيناً للصلاة فحسب، وإنما كان أيضاً مكاناً للفصل في أمور الناس^(١٧٩)، والجدير بالذكر أن القضاة قد حرصوا على عقد مجالس القضاء في كنف المساجد، لارتباط أحكام القضاء بالشرعية الإسلامية، طبقاً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولطمأن كل إنسان على الحصول على حقوقه كاملة^(١٨٠)، وكان في الجامع مكان معين يجتمع فيه القاضي بالخصوص، يعرف باسم «مجلس الحكم»^(١٨١)، كما كانت تعقد مجالس القضاء في دار القاضي أيضاً^(١٨٢).

وكان مجلس الحكم يعقد علناً في أيام محددة^(١٨٣)، ويتكون عادة من: القاضي، والشهود العدول، والموقعين الذين يكتبون ما يدور في الجلسة، والحجاب الذين يدخلون المتخاصمين، وعادة كان القاضي يجلس في وسط المجلس، وقد تزيّا بالبياض إذا كان شيعياً، وبالموحد إذا كان سنياً، ووضع على منكبيه الطيلسان زى القضاة، الذي هو عبارة عن طرحة وعقد بوسطه سيفاً، ويكون جلوسه على مخدة، وخلفه مسند، وأمامه كرسي توضع عليه الدواة، والشهود العدول عن يمينه وعن يساره^(١٨٤).

- إسهامات القضاة في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في الصعيد الأعلى:

شاهد الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، حركة علمية وأدبية نشطة في كافة أنحاء مدنه، التي كانت تضاهي باقي عواصم مصر الكبرى، مثل القسطنطينية، والقاهرة، والإسكندرية، فقد كانت مدينة قوص عاصمة الإقليم تزخر بنخبة من العلماء والأدباء في كل علم وفن^(١٨٥)، وبها العديد من المدارس التي قدّرت بحوالي ست عشرة مدرسة^(١٨٦)، هذا بالإضافة إلى دار الحديث النبوي الشريف^(١٨٧)، أما مدينة أسوان فكانت تعد هي الأخرى من كبريات مدن الصعيد الأعلى، وخرج منها الكثير من أهل العلم والرواية والأدب^(١٨٨)، وبها نحو ثلاث مدارس^(١٨٩)، كما اشتهرت مدينة إسنا بعلومها وأدبائها البارزين، حتى قيل أنه كان بها في وقت واحد سبعون شاعراً، وكانت بها مدرستان^(١٩٠)، وقد نسبت إلى إسنا بعض الأسر التي كانت لها اهتماماتها العلمية الظاهرة، ومنهم: بنو السديد، وبنو الخطيب، وبنو شواقي، الذين كانوا أصحاب علم وفضيلة وأدب^(١٩١)، أما أرمنت فقد ازدهرت فيها الحياة العلمية والأدبية، وخرج منها أفاضل العلماء والأدباء والشعراء، وكذلك كانت مدينة فقط، وأيضاً مدينة قنا، من أجل مدن الصعيد بفضل علمائها وأدبائها^(١٩٢)، وأياً ما كان الأمر، فقد خلف لنا علماء هذه المدن مصنفات عدة في شتى العلوم التي تسدل على نبوغهم وعلمهم الغزير، فأسهموا بنصيب وافر في النهضة العلمية والأدبية بالصعيد الأعلى.

وأسهم قضاة الصعيد الأعلى بقسط كبير في هذه النهضة العلمية والأدبية، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، فقد كانوا كسائر قضاة مصر، يتم اختيارهم من بين أفاضل العلماء والفقهاء والمحدثين، بل كان من بينهم عدد كبير من البارزين في علوم اللغة والأدب والشعر، وكذلك في العلوم العقلية، كالطب والفلك والفلسفة وغيرها، كما شارك العديد من قضاة الصعيد الأعلى في التدريس بمدارس قوص وإسنا وأسوان وغيرها، ووضعوا لنا الكثير من المصنفات في مجالات عدة.

ففي مجال العلوم الدينية: برع الكثير من قضاة الصعيد الأعلى في علم الفقه، فمن بين هؤلاء القضاة كان القاضي الفقيه أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن حسان الأسواني الأنصاري الشافعي، (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م)، محباً للعلم كثير الرحلة في طلبه فرحل من بلده أسوان إلى بغداد، وتلقه على كبار علماء عصره، وحدث بها ثم عاد وولى قضاء أسوان، وشارك في التدريس بمدرستها^(١٩٣).

كما كان القاضي أبو الفتوح محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن رفاعة القرشي القوصي، من أبرز قضاة الصعيد الأعلى وعلمائه في علم الفقه والأصول، وكذلك التفسير والنحو واللغة^(١٩٤)، ومدحه الشعراء لسعة علمه، ونكر أنه «صاحب

علم ثاقب، استوعب أصول الفقه والدين استيعاباً أقدم به فرمان الجدل^(١٩٥)، وكانت وفاة القاضي أبي الفتح بعد الستة مئة من الهجرة في مدينة قوص^(١٩٦).

ومن القضاة الذين برزوا في مجال الفقه الشافعي: القاضي أحمد بن محمد بن إسماعيل بن علي البعلبكي^(١٩٧)، وقد نزح الفقيه أحمد البعلبكي المولد والإسنائي الموطن، من مدينة بعلبك، إلى مدينة إسنا، وكان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي، وقد اشتغل فترة من عمره بالفقه بمدارس بغداد، ثم رحل إلى مصر وتولى القضاء بمدينة قنوص^(١٩٨)، ثم ألقوا، ثم استوطن إسنا وخلف أولاد بها، وكتبوا من علماء الفقه المعروفين بإسنا أيضاً، وكانت وفاة القاضي والفقيه البعلبكي في سنة ١٢٦٠هـ/١٢٦٩م بإسنا^(١٩٩). كذلك كان القاضي جمال الدين محمد بن عبد الوهاب بن علي بن السديد الإسنائي، قاضي إسنا في وقته، من فقهاء المذهب الشافعي المعروفين، وقد مات بإسنا سنة ١٢٧٨هـ/١٢٧٩م^(٢٠٠)، بعد أن بذل جهد كبير في ازدهار الفقه الشافعي، وذاع صيته بالصعيد الأعلى، فقد كان القاضي والفقيه جمال الدين ينسب إلى أسرة بني السديد التي اشتهرت بالعلم والرياسة بإسنا^(٢٠١).

أما القاضي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطسي (٦٠٠-١٢٧٩هـ/١٢٠٣-١٢٨٠م) قاضي إسنا، فقد كان من أكابر العلماء والمثقفين، وتلمذ على يديه العديد من الفقهاء والعلماء، ولم يتوان في الاشتغال بالعلم بجانب القضاء، وبرز في العديد من العلوم، ودرس في عدد من المدارس حتى قيل عنه: إنه على معرفة بعشرين علم^(٢٠٢)، فذكر السبوطي: أنه انتهت إليه رئاسة العلم في إقليمه (الصعيد الأعلى)، وصنف تفسيراً وكتباً كثيرة في علوم متعددة^(٢٠٣).

ومن قضاة الصعيد الأعلى، النابهين في مجال الفقه، القاضي إسماعيل بن هبة الله بن علي بن الصنوعة، المعروف بعز الدين الإسنائي، فقيه إسنا وقاضيه، وكان قد ترك إسنا وذهب إلى مدينة حلب^(٢٠٤)، بعد أن مكث بالقاهرة فترة، وتولى بحلب نظارة الأوقاف، غير أنه لم يلبث بها طويلاً، واتهم بالتشيع ونفى ذلك عن نفسه، وألف كتاباً في فضائل أبي بكر الصديق عليه السلام، ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها إلى أن توفي في سنة ١٢٧٠هـ/١٣٠٤م^(٢٠٥).

ومن القضاة المحدثين (حفاظ الحديث)، قبل العصر الفاطمي، بالصعيد الأعلى: القاضي إبراهيم بن موسى الأسواتي، وهو من مواليد القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)^(٢٠٦)، وقد قرب القضاة إليهم حفاظ الحديث، وعملوا على توجيههم حتى نهضوا بعلم الحديث، فكان هناك الكثير من حفاظ الحديث موضع ثقة عند القضاة في الصعيد الأعلى وعن المقرئين إليهم، ومنهم: محمد بن إبراهيم بن خالد أبو بكر الأسواتي، المتوفى سنة ٩٢٧هـ/٩٢٧م، وقد حدث عن كبار محدثي عصره، وكان

مقبول القول عند القضاة بأسوان^(٢٠٧)، واستمر تشجيع القضاة للمحدثين في الصعيد الأعلى، في العصر الفاطمي، ومن أمثلة هؤلاء : محمد بن هلال الأسواني، المتوفي سنة ٩٩٢/٣٨٢م^(٢٠٨)، وكذلك كان إبراهيم بن أحمد الأسواني، المتوفي سنة ٤١٠هـ^(٢٠٩)، ومحمد بن عتيق الأسواني، المتوفي سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م^(٢١٠)، من الحفاظ الثقات الذين تأثر بهم القضاة بنواحي الصعيد الأعلى.

ومن قضاة الصعيد الأعلى الذين أسهموا في ازدهار علم الحديث ونهوا فيه، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي : القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد بن نصر أبو الحسن الأسواني، الذي كان من أبناء أسوان، وولاة الخليفة العاضد لدين الله (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م) قضاة أسوان وإسنا وأرمنت، عام ٥٥٨هـ/١١٩٢م^(٢١١)، ومنهم أيضاً: القاضي محمد بن المفضل بن محمد بن حسان الأنصاري الأسواني، المتوفي سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، والذي ضرب بسهم والفر في علم الحديث، وولى قضاء أسوان^(٢١٢)، كما كان القاضي إسماعيل بن هبة الله الإسني - السابق الذكر في علم الفقه - عالماً في الحديث وقاضياً، سمع الحديث من كبار عصره، ومنهم الشيخ قطب الدين أبي بكر محمد بن القسطلاني^(٢١٣)، رحل إلى العديد من المدن الإسلامية في طلب العلم، واستقر به الحال في القاهرة، ومات بها سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م^(٢١٤).

وفي مجال علم اللغة والأدب: كان لقضاة الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، إسهامات كبيرة في هذا المجال، مما ساعد على ازدهار الحياة العلمية والأدبية في معظم مدن الإقليم، ومن هؤلاء القضاة : القاضي علي بن النضر الإسني (ت ٥٠٥هـ/١١١١م) كان من كبار قضاة الصعيد الأعلى، حفظ كتاب الله القرآن الكريم، وكان أدبياً شاعراً، حفظ كتاب سيبويه في النحو، وله شعر كثير حسن^(٢١٥)، وكان يتظاهر بالتشيع خوفاً من الخلفاء الفاطميين، وكان يعرف بالأديب، وحدث أن قدم القاضي علي بن النضر على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧-٥١٥هـ/١٠٩٤-١١٢١م) طالباً منه أن يقضى حاجة له، فلم يجبه الأفضل فأتشده قصيدة منها:

بين التعزير والتذلل	بإحدى المنار لعين
فأسلكه في كل المواطن	كبر الأبي وذله
ولقد جلبت من الصنائع	لأجل مختار وأكرم
ورجوت خفض العيش	لا بدغ أن نلقى

ومن القضاة الأتباء في الصعيد الأعلى: القاضي النفيس ثقة الخلافة حيدرة بن الحسين بن حيدرة بن علي بن أحمد بن الغمر، أبو المنقلب سراج الدين القوصي، كان عالماً أديباً فاضلاً، ولم تمنعه أعمال القضاء بقوص من اهتماماته الأدبية، حتى أصبح من المعروفين بقوص، وتوفي بها في حدود سنة ١٢٣٨/٥٣٣م^(٢١١)، ومن شعره يرثي قزازاً (بائع الحرير) قوله:

بكى ففدك المكوك وناح عليك النوير
وأعولت الأكفاح تدوره فيها أنا ملك
أنا مل لم تخلق ولقط وتخلص وبنا

ومن القضاة الشعراء نذكر: القاضي محمد بن إبراهيم القوصي، المولود سنة ١١٤٥/٥٤٠م، وكان من القضاة البارعين في اللغة والنحو، هذا بجانب كونه عالماً في الفقه والأصول والتفسير أيضاً، وكانت وفاته بقوص سنة ١١٩٩/٥٩٦م، بعد أن ولي قضائها عدة سنوات^(٢١٢)، أما القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله بن قدس الأرمنتي، الفقيه الشافعي، فقد كان من الشعراء المجيدين والفقهاء المتأدبين، وذكره الأديب تبارك له النظم الرائع، والنثر الفائق^(٢١٣)، وكان يلي أمر القضاء في قوص، ومات ببلدة أرمنت في سنة ١٢٦٢/٥٦٣م^(٢١٤)، وكان له شعر جيد^(٢١٥).

وبالإضافة إلى ما سبق، كان هناك العديد من القضاة في الصعيد الأعلى الذين شاركوا في ازدهار العلوم العقلية، فكانت لهم اهتماماتهم البارزة في علم الرياضيات والفلك والطب والإلهيات والمنطق، وغير ذلك من العلوم العقلية المعروفة في مصر، خلال للعهدين الفاطمي والأيوبي. ومن هؤلاء القضاة الذين تعددت مواهبهم ولم تشغلهم مهام القضاء عن العلم ودراسته، القاضي علي بن النضر الإسماعيلي، فقد كان من علماء إسماعيليين ذاع صيتهم في علم الفلك ونبيغ فيه^(٢١٦)، ومنهم أيضاً: القاضي محمد بن إبراهيم القوصي (ت ١١٩٩/٥٩٦م) قاضي قوص، برع في علم المنطق، وذلك بجانب تلوّقه في علم اللغة والنحو والفقه والأصول والتفسير^(٢١٧)، وقد ذكره ناصر خمرو بقوله: «عرفت وأنا في أسوان رجلاً تلياً صالحاً، يعرف شيئاً من علم المنطق»^(٢١٨).

كذلك كان القاضي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القلطس (١٢٠٣-١٢٩٧م) من بين المهتمين بالعلوم العقلية، وخاصة علم الرياضيات والمنطق، فقد ذاعت شهرته، ووضع المصنفات في الجبر والمغالب والحساب والمنطق أيضاً^(٢١٩)، ومن قضاة الصعيد الأعلى، الذين عرفوا باهتماماتهم بالطب

آنذاك، القاضي على بن منصور بن محمد بن المبارك الإسفاني، ويعرف بابن شوق، الذي برع في مهنة الطب^(٢٢٥)، وأخذ الطب عن ابن بيان^(٢٢٦)، واشتهر فيه بالمعرفة والحذق. ومما يدل على براعته الفاتقة أنه كان يطلب من الأماكن البعيدة، وكان ابن شوق حسن الخلق وتولى قضاء أسفون^(٢٢٧) وغيرها، وتوفي في حدود سنة ١٢٦٠هـ/١٢٦١م^(٢٢٨).

الخاتمة

وصفوة القول أنه تبين لنا من، خلال هذا البحث، أنه كان للقضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، أهمية كبرى وأثر لا بأس به على أحوال هذا الإقليم من أرض مصر، كما تبين أيضاً مدى الدور الذي قام به قضاء الصعيد الأعلى في إقرار العدل والمساواة والأمن بين الناس، وتطبيق الأحكام الشرعية وحماية الأوقاف وأموال الأيتام، هذا بالإضافة إلى مشاركتهم الواضحة في بعض جوانب الحياة الاجتماعية، كالاحتفالات والمناسبات، والعزل على حل ما شجر بين الناس من منازعات، والسعي في قضاء مصالحهم. كما أظهر البحث أن القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، كان يسير وفق الأسس والشروط المتعارف عليها في اختيار القضاة آنذاك، واتخاذهم معاونين لهم كالشهود والكتاب، وغيرهم من الذين كانوا يساعدهم في تأدية مهامهم القضائية.

كما بين هذا البحث ما بلغه قضاء الصعيد الأعلى من مكانة وتقدير لدى السلطة الحاكمة، وكذلك بين الخاصة والعامة من أهالي الصعيد الأعلى، وأبان البحث أيضاً: إسهامات هؤلاء القضاة في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في الصعيد الأعلى، فقد ظهر من بينهم الكثير من العلماء والأدباء والشعراء البارزين، وكان لكثير منهم مصنفات عدة تدل على نبوغهم وتفوقهم كما تنمذ على أيديهم العديد من طلاب العلم والمعرفة في مدن وقرى الصعيد الأعلى.

ولعل ذلك يدفعني في النهاية إلى القول إن القضاء في الصعيد الأعلى كانت لهم مكانة ونفوذ كبير في ولاياتهم شأنهم في ذلك شأن قضاة العاصمة في القاهرة وباني مدن مصر الكبرى.

الهوامش

- (١) ابن خلدون: المقدمة، طبعة دار ابن خلدون، الإسكندرية، بدون تاريخ طبع، ص ١١٥٤ محمود محمد عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، ١٩٣٤، ص ٨٣.
- (٢) عادل بصيوني: تاريخ القاتون المصري - مصر الإسلامية، طبعة مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٥م، ص ٥٧.
- (٣) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مطبعة وزارة الثقافة، دت ٣، ص ٣٧٨.
- (٤) سورة من من الآية ٢٦.
- (٥) سورة المائدة، من الآية ٤٨.
- (٦) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١٩٨٦م، ص ٤٨.
- (٧) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م، ص ٩٢.
- (٨) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ١٥٥. وولي عمر أبا الدرداء على قضاء المدينة المنورة، وولي شريحا بالبحيرة، وفيه بن أبي العاص في مصر، وولي أبا موسى الأشعري بالكوفة، وكتب له في تلك الكتب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاء وهي مستوفاة فيه. (ابن خلدون: المصدر السابق، ص ١٥٥). وعن نص كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري (الماوردي الأحكام السلطانية، طبعة القاهرة مكتبة الخليلي، ١٩٧٣م، ص ٧١-٧٢).
- (٩) المقدمة: ص ١٥٥.
- (١٠) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ١٥٥.
- (١١) عمر بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرش السهمي، وكان إسلامه في صفر سنة ثمان قبل فتح مكة بستة أشهر، وقال فيه رسول الله ﷺ: «أسلم الناس وأمن عمرو بن العاص»، وكانت وفاته في سنة ٤٣/٦٦٣م (انظر: ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، طبعة دار الشعب بدون تاريخ، ج ٤، ص ٢٤٤-٢٤٧).
- (١٢) عطية مشرفة: المرجع السابق، ص ١٣١.
- (١٣) هو قيس بن أبي العاص بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم، شهد فتح مصر، واختط بها دارا له (ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٤، ص ٤٣٢).
- (١٤) الكندي: الولاة والقضاة، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٠١، ص ٣٤٨.
- (١٥) الكندي: المصدر السابق، ص ٣٦٨، عطية مشرفة: المرجع السابق، ص ١٥٩، عبد الله بن لهيعة الحضرمي: هو عبد الله بن لهيعة بن عتبة بن فرعان بن ربيعة بن ثوبان الحضرمي، وكان أول قاض في مصر استقضاها خليفة في عصر الدولة

العباسية. (ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق جابر عبد المجيد، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م، ج٢، ص ٢٨٧-٢٨٨).

(١٦) عطية مشرفة: المرجع السابق، ص ١٥١.

(١٧) إبراهيم أحمد العلوي: النظم الإسلامية، طبعة ١٩٨٨م، القاهرة، ص ١٤٤-١٤٥.

(١٨) مناح القطان: النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة، طبعة القاهرة ١٩٩٢م، ص ٦٧، ص ٦٨.

(١٩) الكندي: المصدر السابق، ص ٣٠٩؛ الماوردي: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٢٠) المذهب الحنفي: ينسب إلى الإمام أبي حنيفة وهو النعمان بن ثابت بن زوطى فارسى الأصل ولد بالكوفة سنة ٨٠/٦٩٩م ونشأ بها، وكان في زمانه بعض الصحابة وكبار التابعين، وتعلم منذ صغره وجلس إلى الاستماع لحفلات العلم بمسجد الكوفة، ودرس الفقه في مدرسة الكوفة، وكانت مدرسة لها رجالها ولها طابعها الخاص، وتوفي أبو حنيفة في بغداد سنة ١٥٠/٧٦٧م ويذكر ابن التديم أن لأبى حنيفة كتاب الفقه الأكبر، كتاب رسالته إلى البستى، كتاب العالم والمتعلم، كتاب الرد على القدريه، وله رسالة في نصرة أهل السنة. (الفهرست طبعة بيروت بدون تاريخ، ص ٢٨٤، ص ٢٨٥؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٧٦، ص ١٨٠، ص ١٩٧؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، طبعة دار المعارف مصر سنة ١٩٨٣م، ج٣، ص ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢١) المذهب المالكي: ينسب للإمام مالك بن أنس الأصبحى المدني، والأصبحى نسبة إلى ذى أصبح قبيلة يمنية، فهو عربى الأصل، ولد سنة ٩٣/٧١١م وعاش حياته بالمدينة المنورة، وتعلم ودرس بها وسمع الحديث من كثير من شيوخ عصره بالمدينة، ومن أشهر كتبه الموطأ، بعد من لوقل الكتب التي ألّف في الحديث والفقه وقد نشره الآخزون عن مالك في الكثير من الأمصار الإسلامية، وكان للإمام مالك أثر كبير في الحركة العلمية الدينية على اختلاف العصور، وكانت وفاته في سنة ١٧٩/٧٩٥م ودفن بالبقيع. (ابن التديم: الفهرست، ص ٢٨٠-٢٨١؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص ٢٠٦، ص ٢١٥؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، ج٣، ص ٢٧٤-٢٧٦).

(٢٢) المذهب الشافعى: ينسب إلى الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن الشافعى بن السائب، أحد الأئمة الأربعة عن أهل السنة، ولد في غزة بفلسطين سنة ١٥٠/٧٦٧م، ونشأ بمكة، ودرس الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة، زار بغداد مرتين الأولى سنة ١٩٥/٨١٠م، والثانية سنة ١٩٨/٨١٣م، ثم قصد مصر سنة ١٩٩/٨١٤م، وصنف بها كتباً عدة منها الأم، والأملى الكبرى والإملاء الصغير ومختصر التلويطى وغيرها وكانت وفاته بمصر سنة ٢٠٤/٨١٩م ودفن بالقرافة. (ابن التديم: المصدر السابق، ص ٢٩٤-٢٩٦؛ ابن العباد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ج٢، ص ٩-١٠؛ أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٢١٨-٢٣٤).

(٢٣) الكندي: الولاة والقضاة، ص ٣٧١؛ عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، ص ١٥٦.

- (٢٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، طبعة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣م، ج٤، ص٣٧٧.
- (٢٥) عادل بسبوي: تاريخ القاتون المصري - مصر الإسلامية، ص٦٢.
- (٢٦) المذهب الشيعي: هو المذهب الذي يتبع على بن أبي طالب على الخصوص وقيل بإمامته وخلافته وقد اعتقد الشيعة أن الإمام لا يخرج من أولاده، وهم خمس فرق: كسائية وزيدية وإمامية، وغلاة وإسماعيلية، وبعضهم يعزل في الأصول إلى الاعتزال وبعضهم إلى السنة وبعضهم إلى التشبيه (لشهرستاني: الملل والنحل، طبعة مكتبة السلام للعالمية، للقاهرة، بدون تاريخ، ج١، ص١٥١، ص١٥٢).
- (٢٧) المقرئ: الخطوط، ج٢، ص٣٤٣، ص٣٦٣، عبد الناصر هاشم محمد، تاريخ القضاء والمظالم في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، دكتورة، آداب سوهاج، ١٩٩٩م، ص١٩٥.
- (٢٨) ومن هذه البحوث والدراسات نذكر: عطية مشرفة: القضاء في الإسلام؛ عبد الخالق حسين محمد: القضاء في عهد الفاطميين والأيوبيين، ماجستير سنة ١٩٧٥م، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة؛ عبد الناصر هاشم محمد: تاريخ القضاء والمظالم في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي؛ محمود محمد عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام.
- (٢٩) ومن هذه الدراسات التي تناولت تاريخ الصعيد نذكر: رسالة الأستاذ الدكتور/ محمد أحمد محمد: مظاهر الحضارة في الوجه القبلي منذ قيام الدولة الأيوبية حتى نهاية العصر المملوكي، دكتورة، آداب سوهاج، جامعة أسيوط، سنة ١٩٨٤م؛ نعمة علي مرسى: مصر العليا من الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية، طبعة المنيا سنة ١٩٩٨م؛ صلاح سليم طايح: مدينة فسطاط ودورها السياسي والحضاري منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس الهجري من ٢١-٤٧٨هـ، ماجستير، آداب قنا سنة ٢٠٠٢م؛ أحمد حامد أحمد: مدينة لشنا منذ الفتح الفاطمي لمصر حتى نهاية العصر المملوكي الأول (٣٥٨-٧٨٤هـ)، ماجستير، آداب قنا، سنة ٢٠٠٤م.
- (٣٠) المقرئ: المصدر السابق، ج١، ص١١٦؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٤٥م، ج١، ص٢٨.
- (٣١) البهنسا: من مدن الصعيد الأدنى وتقع غربي النيل، وكانت مدينة عامرة كبيرة كثيرة الدخول، وينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم: أبو الحسن أحمد بن عبد الله البهنسي (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) (بلاغات: معجم البلدان، ج١، ص٥١٦-٥١٧؛ المقرئ: المصدر السابق، ج١، ص٣٨٢).
- (٣٢) إخميم: تقع على الشاطئ الشرقي للنيل بالصعيد، وهي من أهم بلدان الصعيد وأجملها، وينسب إليها ذو النون بن إبراهيم الإخميمي المصري شاهده المتوفي سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م)، (بلاغات: المصدر السابق، ج١، ص١٢٣-١٢٤).
- (٣٣) بلاغات: معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٨. أسوان مدينة كبيرة تقع في شرق النيل في آخر صعيد مصر وكان تشتهر بتمورها الجيدة، وينسب إليها الكثير من العلماء والأدباء. (بلاغات: المصدر السابق، ج١، ص١٩١، ١٩٢).

- (٣٤) ابن ممتلي: قوتون الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية طبعة مصر سنة ١٩٤٣م، ص ١٠٨، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤م، ص ٢٨٩.
- (٣٥) الكورة: اسم فارسي أطلق على كل صقع يشتمل على عدة قرى (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٦).
- (٣٦) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ١١٨.
- (٣٧) سفرنامه: ترجمة يحيى الخشاب، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ١٣١.
- (٣٨) ياقوت: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤١٣؛ وقوس: مدينة كبيرة وعظيمة تقع شرق النيل في الصعيد الأعلى وبينها وبين القسطنطينا عشر يوماً أهلها أصحاب ثروة واسعة وهي محط التجار القادمين من عدن (ياقوت: المصدر السابق نفس الجزء والصفحة، وانظر المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨١).
- (٣٩) الألفوي: الطالع السعد لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ص ٨.
- (٤٠) أبو الفدا: تلويم البلدان، طبعة باريس، بدون تاريخ، ص ١٠٤.
- (٤١) ابن الجيعان: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، ط القاهرة، ١٩٧٤م، ص ١٩٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة، ١٩٧٩م، ج ١، ص ٢٧.
- (٤٢) عطية القوسي: تاريخ الكنوز الإسلامية. طبعة القاهرة، ١٩٨١م، ص ٧٥، ص ٧٦.
- (٤٣) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ١٤٤ محمد عبده الحجاوي: فوس في لتاريخ الإسلام من الفتح العربي حتى نهاية عصر المماليك، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، للطبعة الثانية، سنة ١٩٩٦م، ص ٢٧.
- (٤٤) عبد المنعم مازد: نظم الفاطميين ورسومهم، مكتبة الأجلو المصرية، ١٩٧٣م، ج ١، ص ١٤٠.
- (٤٥) أيمن فؤاد سيد: للدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، ص ٣٦٤.
- (٤٦) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٥٢.
- (٤٧) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١٧٤.
- (٤٨) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٣.
- (٤٩) أيمن فؤاد: المرجع السابق، ص ٣٦٢.
- (٥٠) حسن إبراهيم حسن: طه أحمد شرف: المعز لدين الله الفاطمي إمام الشيعة الإسماعيلية، طبعة ١٩٤٧م، ص ١٩٠.
- (٥١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٦٠؛ وابن الخراط: هو عبد السلام بن علي منصور الدمياطي ولد بدمياط في سنة ٥٧١/١١٧٥م، ودرس بها ورحل إلى بغداد

في طلب العلم وتفقه بها، وتميز في الفقه للشافعي، ثم رجع إلى دمياط فأقسام بها قاضيا ودرس بمدرستها، ثم ولي قضاء مصر والوجه القبلي، وكانت وفاته سنة ١٢٢٢/هـ. (السيوطي: المصدر السابق، ج١، ص ٤١٠).

- (٥٢) السيوطي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٦٠.
 (٥٣) السيوطي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٦١، ص ١٦٢.
 (٥٤) السيوطي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٦٣، ص ١٦٤.
 (٥٥) السيوطي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٦٤.
 (٥٦) الأذفوي: المصدر السابق، ص ٤٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، طبعة دار الفذ العربي سنة ١٩٩٢م، ٧، ص ٢٥٥-٢٥٦؛ والقاضي شرف الدين السبكي: هو الذي أصدر قرار في سنة ١٢١٢/هـ بتولية علي بن وهب بن دقيق العيد لتقشيري (٥٨١-٥٨٥/١١٨٥-١٢٦٨م) بولاية القضاء في أسبوط ومنفلوط وأعمالها (الأذفوي: المصدر السابق، ص ٤٣٤).
 (٥٧) الأذفوي: الطالع السعد، ص ١٣٥، ص ١٣٦.
 (٥٨) المصدر السابق، ص ٤٧٦، ص ٤٧٧.
 (٥٩) الأذفوي: المصدر السابق السابق، ص ١٧٦.
 (٦٠) أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ج١، ص ١٤٢.
 (٦١) الأذفوي: المصدر السابق، ص ٢٢٤-٢٢٥. فخر الدين القفاني هو الحسين بن رضوان بن هبة الله بن صالح بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن الفهم بن عبد الصمد بن الحسين بن عبد الغفار بن موسى بن يعمر بن سعد بن الحارث الهزلي، وينعت فخر الدين القفاني، وكان عالما ورعا، وكان حيا في سنة ١٢٦١/هـ. (الأذفوي: المصدر السابق، ص ٢٢٣-٢٢٤).
 (٦٢) ومن بين الأبيات التي أشدها القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمني لقاضي القضاة:

حاشاكم أن تقطعوا صلة الذي •• أو تصرفوا علم المعارف لحمدا
 هو مبتدا نجباء أبنائنا جنسه •• والله يلبي غور رفع المبتدا
 أغريتم الزمن المشتت بشمله •• وحذقتموه كانه حرف الندا

(الأذفوي: المصدر السابق، ص ١٣٦).

- (٦٣) الأذفوي: المصدر السابق، ص ١٣٥-١٣٦.
 (٦٤) الأذفوي: المصدر السابق، ص ١٣٥، ص ١٤٢، ص ٤٣٤.
 (٦٥) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٦٥-٦٧.
 (٦٦) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٥٢.
 (٦٧) الأذفوي: المصدر السابق، ص ٢١٩، ص ٢٢٠.
 (٦٨) الأذفوي: المصدر السابق، ص ٥١٩، ص ٥٢٠.
 (٦٩) الأذفوي: المصدر السابق، ص ٢٣٢.
 (٧٠) عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز، ص ١٢٦.

- (٧١) الألفوي: المصدر السابق، ص ١٦٥، ١٦٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٨٥.
- (٧٢) أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٢.
- (٧٣) الألفوي: المصدر السابق، ص ٣٤٥.
- (٧٤) الألفوي: المصدر السابق، ص ٤١٧.
- (٧٥) الألفوي: المصدر السابق، ص ١٨٢.
- (٧٦) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي، عهد الفتح الحلو، طبعة القاهرة ١٩٦٤م، ج ٥، ص ١٥٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٩١؛ ابن العباد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت، ج ٥، ص ٤٣٥.
- (٧٧) الألفوي: المصدر السابق، ص ٢٢٢.
- (٧٨) الألفوي: نفسه، ص ٣٢١-٣٢٢.
- (٧٩) الألفوي: المصدر السابق، ص ١٣٢؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في مجلسين مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، كامل المهندس، طبعة هيئة الكتاب، ١٩٦٩م، ص ٦٨.
- (٨٠) الألفوي: المصدر السابق، ص ٤١.
- (٨١) الألفوي: المصدر السابق، ص ٣٨.
- (٨٢) الألفوي: نفسه، ص ٩٧.
- (٨٣) الألفوي: نفسه، ص ٣٨.
- (٨٤) ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٨٩؛ القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط مكتبة المتنبى القاهرة، د.ت، ص ١٥٩.
- (٨٥) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ج ١، ص ١٣٣.
- (٨٦) الألفوي: الطالع السعيد، ص ٤٤٠٧؛ القاضي أبو المظفر: هو علي بن محمد بن علي بن إسحاق بن علي بن محمد بن الحسن الإنشائي ويكنى بالهدر.
- (٨٧) الألفوي: المصدر السابق، ص ٦٧.
- (٨٨) المقرئ: المظفي الكبير، تحقيق محمد السعدوي، طبعة بيروت، ١٩٩١م، ج ٢، ص ٥٣٣.
- (٨٩) هو أحمد بن علي بن إبراهيم بن علي بن إليزير أبو الحسن القرشي الأسدي الأسواني، يكنى بالرشيد، كان ذو علم غزير شاعرا. لكن أخوه المهذب الحسن بن علي بن إبراهيم بن علي بن الأثير (ت ٥٦١هـ)، كان شاعرا مجيدا واشهر منه في مجال الشعر والأدب. (انظر: الألفوي: الهدر عن ناس المسافر، تحقيق محمد فتحي، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م، ج ١، ص ٢٥١-٢٥٢؛ الألفوي: الطالع السعيد، ص ٩٨، ص ١٩٤).
- (٩٠) نعمة علي مرسى: مصر العليا من الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية، ص ١١٠، والمامون البطاحي: هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور للدولة أبي شجاع فلك ابن الأمير منجد للدولة أبي الحسن مختار المستنصرى واتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش سنة ٥٠١/١١٠٧، وترقى به الحال إلى أن وصل إلى

مُنصب الوزارة في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله وظل في خدمته إلى أن غضب عليه الأمر وقتله في سنة ١٢٨/٥٢٢م (المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٣٤٠-٣٤١).

(٩١) المقريزي: المصدر السابق، ج١، ص ٥٣٤.

(٩٢) الأندلسي: المصدر السابق، ص ٥٣٤.

(٩٣) حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية، ص ١٩٨.

(٩٤) محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى، طبعة دار المعارف، ١٩٨٠م، ص ١٦٢، وعلى الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها الشيعي بين أهالي البلاد التي ضمت إلى حوزتها، فإنها لم تنجح في ذلك السبيل، فظل المذهب السني محتفظاً بقوة، ورغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمي، خوفاً من تطبيق القوانين الجائرة التي فرضها الفاطميون على مخالفيهم في المذهب، كذلك كان من الأسباب التي جعلت أهل السنة، في مصر، يحتفظون بمذاهبهم وتقاليدهم، تلك التشريعات التي أدخلها الفاطميون، إذ رأوا فيها ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن وما نثر عن السنة (محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٨٤، ٨٥).

(٩٥) الأندلسي: الطالع السعيد، ص ٣٤، ص ٣٧.

(٩٦) الأندلسي: المصدر السابق، ص ٣٨.

(٩٧) أسفون: ذكرها ياقوت برسم (أسفون) وهي تقع غرب النيل بالصعيد الأعلى جنوب إسنا (معجم البلدان، ج١٦، ص ٦٦٣).

(٩٨) الانتصار، بواسطة عبد الأمير في تاريخ مصر وجغرافيتها، طبعة بيروت، دت، ج ٥، ص ٣٠.

(٩٩) ابن شداد: النوازل السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيباني، طبعة الختجي القاهرة، سنة ١٩٦٢م، ص ٨٦.

(١٠٠) الأندلسي: المصدر السابق، ص ٣٤، ص ٣٧.

(١٠١) محمود الحويري: المرجع السابق، ص ١٦٣.

(١٠٢) عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٩٧م، ص ٨٤.

(١٠٣) الأندلسي: المصدر السابق، ص ٤٦٩.

(١٠٤) السيوطي: المصدر السابق، ج١، ص ١٨٧.

(١٠٥) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ٨٤.

(١٠٦) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٧٤.

(١٠٧) السيوطي: المصدر السابق، ج١، ص ٤٠٨؛ الأندلسي: المصدر السابق، ٢١٦٥، ١٦٦.

(١٠٨) هو الحسين بن رضوان بن هبة الله بن صالح بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن القهم بن عبد الصمد بن الحسين بن عبد الغفار بن موسى بن يعمر بن

سعيد بن الحارث الهزلي، يتبع فخر الدين القسائي، كان حياً في سنة ١٢٦٢/٨٦١م (الأدقوى: الطابع السعيد، ص ٢٢٣، ٢٢٤).

(١٠٩) الأدقوى: المصدر السابق، نفس الصفحات.

(١١٠) القفطي: أنباء الرواة على إنباه النخاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة،

١٩٨٦م، ج ٢، ص ٧٣؛ الأدقوى: المصدر السابق، ص ٢٦٢-٢٦٥.

(١١١) المنقلاوطي: نسبة إلى مدينة منقلاوط التي تقع في غربي النوبل بالصعيد الأوسط، (بأقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢١٤).

(١١٢) الأدقوى: المصدر السابق، ص ٤٢٤، ص ٤٣٤.

(١١٣) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥، ص ١٦٣؛ المقرئزي: المقلي، ج ١، ص ٥٤٣؛

السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٩١؛ الداودي: طبقات المسلمين، طبعة

بيروت، دار الكتب العلمية، دت، ج ٢، ص ٣٤٨، ٣٤٩؛ السيوطي: بقية الوعاة في

طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الفكر،

١٩٧٩م، ج ٢، ص ٣٢٥.

(١١٤) الداودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٠.

(١١٥) الأدقوى: المصدر السابق، ص ٦٩١؛ السيوطي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٠.

(١١٦) الأدقوى: المصدر السابق، ص ٢١٠، ص ٢١١.

(١١٧) الرافضة: سموا بذلك لرفضهم أبا بكر وعمر، وقيل لرفضهم زيد بن علي.

وقال زيد بن رضىوانى فسموا رافضة (الحنبل: البرهان في معرفة عقائد أهل

الأنبياء، تحقيق يسام العموش، ط الأردن، ١٩٨٨م، ص ٦٥).

(١١٨) الأدقوى: المصدر السابق، ص ٢٩٤، ص ٢٩٥.

(١١٩) أحمد للسعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، ج ١، ص ١٤٢.

(١٢٠) الأدقوى: المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(١٢١) الأدقوى: المصدر السابق، ص ٤٧٧.

(١٢٢) الأدقوى: المصدر السابق، ص ١٧٦.

(١٢٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٨١؛ ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٦٧.

(١٢٤) الأدقوى: المصدر السابق، ص ٢٩.

(١٢٥) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، طبعة ١٩٦١م،

ج ٢، ص ٩٧.

(١٢٦) الأدقوى: المصدر السابق، ص ٤١.

(١٢٧) الأدقوى: المصدر السابق، ص ٤٨٢؛ المقرئزي: المقلي، ج ٥، ص ٧٣-٧٤.

(١٢٨) نعمة على مرسى: مصر العليا من الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية،

ص ١٠٩.

(١٢٩) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٤٨.

(١٣٠) الكندي: الولاة والقضاة، ص ٥٦٢؛ عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، ص ١٧١.

(١٣١) ابن دسوقي: الانتصار، ج ٤، ص ١٠٧.

(١٣٢) كان ديوان الأحياس من الدواوين المهمة، وذكر القلقشندي "أن الخدمة في ديوان الأحياس لا يخدم فيها إلا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين وفيها عدة مدراء بسبب أرباب الرواتب، وكان فيه كاتبان ومخبران لنظم الاستمارات ويورد استمارة كل ما في الرقاق والرواتب، وما يجبي له من جهات كل من الوجهين القبلي والبحري، وكان يوجد في الصعيد الأعلى ديوان للأحياس". (انظر: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٩٨).

(١٣٣) ابن مقلتي: قوانين الدواوين، ص٣٥٧.

(١٣٤) الأتقوى: المصدر السابق، ص٣٨.

(١٣٥) الأتقوى: المصدر السابق، ص١٠٣.

(١٣٦) المقرئ: الخطط، ج١، ص١٧٧.

(١٣٧) عطية القوصي: تاريخ دولة الكفوز الإسلامية، ص١٥٩، حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٣م، ج٢، ص٦٦.

(١٣٨) كان ذلك عندما نجح الأمير بدر الجمالي في الانتصار على قوات كنز الدولة بأسوان حيث التقيا عند بلدة إسنا، وهناك دارت معركة شديدة بين الطرفين، قضى فيها بدر الجمالي على غالبية قوات كنز الدولة الذي فر هارباً إلى أسوان، وتخليداً لهذا الانتصار أمر بدر الجمالي قاضي المدينة الحسن بن علي بن النضر ببناء جامع في مكان المعركة، والإشراف عليه عرف باسم جامع للنضر (انظر النويري: نهاية الأرب، ج٢٦، ص٧٠، عطية القوصي: المرجع السابق، ص٥٨).

(١٣٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص٢٥٢. ومن أهم المساجد في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، المسجد العمري بأصفون، وجامع النصر بإسنا، والجامع العتيق بفوقس الذي يرجع تاريخ إنشائه إلى العصر الفاطمي، والمسجد الجامع بأرمنت الذي لازمه العديد من الطعام والفقهاء للتدريس فيه، ومسجد قفط الذي كان معقلاً لتبذ التبضع، كما اشتهرت الأقصر بمسجد أبي الحجاج الأقصري نسبة إلى العالم الفقيه "أبو الحجاج الأقصري" (ت ٨٦٢١/١٢١٥م). (انظر الأتقوى: الطالع السعيد، ص٤٧٩، ص٥٠٧-٥٠٩، سعيد ماهر: محافظات الجمهورية العربية المتحدة وأثارها الباقية في العصر الإسلامي، طبعة القاهرة، ١٩٦٦م، ص٣٢، ص٣٣، سعيد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، طبعة القاهرة، ١٩٧١م، ج١، ص٧٥، ص١٦٤، ص٢٤١).

(١٤٠) الأتقوى: المصدر السابق، ص٤٧٧-٤٧٦.

(١٤١) الأتقوى: المصدر السابق، ص٤٠٧.

(١٤٢) الأتقوى: المصدر السابق، ص٢٩٤.

(١٤٣) الأتقوى: المصدر السابق، ص٣٣٣-٣٣٤.

(١٤٤) الأتقوى: المصدر السابق، ص٢٤١.

(١٤٥) محمود عرفة: الدولة الفاطمية في مصر، طبعة دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٢٨.

- (١٤٦) ممدوح عبد الرحمن الريطى: دور القبائل العربية في صعود مصر، طبعة مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٢٨.
- (١٤٧) محمد عبدة الحجاجى: قوس في التاريخ الإسلامى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٢م، ص ٧٠.
- (١٤٨) هو محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشورى، أبو الفتح نقى الدين من علماء قوس ورجالها المعروفين البارزين توفي يوم الجمعة حادى عشر صفر عام ٥٧٠٢ هـ (انظر أبو الغداء: المختصر في أخبار البشر، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ج ٤، ص ٥٠؛ الألفوى: المصدر السابق، ص ٥٦٧-٥٩٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مجلد ٧، ص ٣٩٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٥).
- (١٤٩) الألفوى: المصدر السابق، ص ١٣٧، ١٣٨، ص ١٤٢.
- (١٥٠) الفلقشندي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٨٦.
- (١٥١) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٥٧.
- (١٥٢) السبوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٧.
- (١٥٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٥٦٩.
- (١٥٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٥٨.
- (١٥٥) الألفوى: المصدر السابق، ص ٣٤٦.
- (١٥٦) الألفوى: المصدر السابق، ص ٥٠٢، ص ٦٤٧.
- (١٥٧) الألفوى: المصدر السابق، ص ٣٥٨، ص ٣٥٩.
- (١٥٨) الألفوى: المصدر السابق، ص ٣٥٩.
- (١٥٩) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ٧٦، آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريذة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٥م، ص ٣١٤.
- (١٦٠) محمود عرفة: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٣٢٤.
- (١٦١) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٦، ٤٨٧.
- (١٦٢) محمود عرنوس: المرجع السابق، ص ١٣١، ص ١٣٢؛ محمود عرفة: المرجع السابق، ص ٣٢٤.
- (١٦٣) السيكى: معبد النعم، ص ٦٤.
- (١٦٤) السيكى: المصدر السابق، نفس الصفحة، هامش ١.
- (١٦٥) الألفوى: الطالع السعيد، ص ٦٤٧.
- (١٦٦) الألفوى: المصدر السابق، نفس الصفحة.
- (١٦٧) الألفوى: المصدر السابق، ص ٤٧٩.
- (١٦٨) الألفوى: المصدر السابق، ص ٣٠٨.
- (١٦٩) الألفوى: المصدر السابق، ص ٤١٦-٤١٧.
- (١٧٠) الألفوى: المصدر السابق، ص ٣٦٣.
- (١٧١) السيكى: المصدر السابق، ص ٦٢.
- (١٧٢) الألفوى: المصدر السابق، ص ٣٦٣.

- (١٧٣) الكندي: الولاية والقضاء، ص ٥٦٣.
- (١٧٤) نعمة علي مرسى: مصر العليا، ص ١١٠.
- (١٧٥) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، ص ١٤٩؛ محمود عرفة: المرجع السابق، ص ٣٢٣.
- (١٧٦) الأذفوي: المصدر السابق، ص ١٧٢، ص ١٧٣.
- (١٧٧) الأذفوي: المصدر السابق، ص ١٥٠.
- (١٧٨) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص ٥١.
- (١٧٩) عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم ج ١، ص ١٤٨، ص ١٤٩.
- (١٨٠) محمود عرفة: المرجع السابق، ص ٣٢٠.
- (١٨١) الكندي: الولاية والقضاء، ص ٦٠٤.
- (١٨٢) المارودي: الأحكام السلطانية، ص ٧٣.
- (١٨٣) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٨٧.
- (١٨٤) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص ٥٠، ص ٥١.
- (١٨٥) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج ٣، ص ٦٣.
- (١٨٦) ابن دقماق: الانتصار، ج ٥، ص ٢٨؛ الأذفوي: المصدر السابق، ص ٤٤.
- (١٨٧) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٦٦.
- (١٨٨) الأذفوي: المصدر السابق، ص ١٢٩؛ ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ٦٧.
- (١٨٩) الأذفوي: المصدر السابق، ص ٤٤.
- (١٩٠) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٨٢.
- (١٩١) الأذفوي: نفس المصدر، ص ٣٨.
- (١٩٢) الأذفوي: نفسه، ص ٤١.
- (١٩٣) الأذفوي: نفسه، ص ١٦٥، ص ١٦٦.
- (١٩٤) الأذفوي: نفسه، ص ٤٨٢.
- (١٩٥) الأذفوي: الطالع السعيد، ص ٤٨٣.
- (١٩٦) الأذفوي: المصدر السابق، ص ٤٨٤.
- (١٩٧) هذه النسبة إلى بعلبك، مدينة بالشام، بينها وبين دمشق اثنا عشر فرسفاً من جهة الساحل، وينسب إليها العديد من العلماء والفقهاء والمحدثين (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٣-٤٥٥؛ ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ص ١٦١-١٦٢).
- (١٩٨) قولاً: ذكرها ياقوت بأنها بلدة تقع غرب النبل بأعلى الصعيد، كثرة النخل والخضرة (المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٩٨-٣٩٩).
- (١٩٩) الأذفوي: المصدر السابق، ص ١٢٨.
- (٢٠٠) الأذفوي: نفس المصدر، ص ٥٤٧.
- (٢٠١) الأذفوي: نفس المصدر، ص ٣٨.
- (٢٠٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥، ص ١٣١؛ السيوطي: بغية الوعاة في طبقات النوفيين، ج ٢، ص ٣٢٥.
- (٢٠٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٢٠.

(٢٠٤) حلب: مدينة كبيرة بالشام عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، وبينها وبين دمشق تسع أيام، ولها قلعة يضرب بها المثل في الحصن والحصانة، وكان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي قد اعتنى بها فصرها. وينسب إلى حلب الكثيرين من أهل العلم والأدب، والنسبة إليها الحلبي، (ياقوت: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٢-٢٨٦، ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٧٩).

(٢٠٥) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٢٠٦) الألفوي: المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢٠٧) المقرئ: المغلي، ج ٥، ص ٨٥.

(٢٠٨) الألفوي: المصدر السابق، ص ٣٦٧، ص ٣٦٨.

(٢٠٩) الألفوي: المصدر السابق، ص ٤٨.

(٢١٠) الألفوي: نفس المصدر، ص ٥٥١-٥٥٢.

(٢١١) المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ص ٤١.

(٢١٢) المقرئ: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٤.

(٢١٣) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٢١٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٤٣.

(٢١٥) ياقوت: المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٩.

(٢١٦) الألفوي: المصدر السابق، ص ٢٣٥، ص ٢٣٦.

(٢١٧) الداودي: طبقات المفسرين، ج ٢، ص ٥٢، ص ٥٣.

(٢١٨) الألفوي: المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٢١٩) الألفوي: المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٢٢٠) كان قاضي القضاة في وقته أراد أن يصرفه عن القضاء بقوص فحضر إليه القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله وأشدّه لنفسه قصيدة منها:

حاشاكم أن تقطعوا صلة الذي ••• أو تصرفوا علم المعارف أحدا

هو مبتدأ تجباء أبنا جنسه ••• والله يألئ غير رفع المبتدأ

أعريتم الزمن المشئت بضمه ••• وحذفتموه كانه حرف التدا

فأقره قاضي القضاة في منصبه بعد هذه الأبيات (انظر الألفوي: الطالع السعيد، ص ١٣٥، ص ١٣٦).

(٢٢١) القطبي: أخبار العلماء، ص ١٥٩.

(٢٢٢) الداودي: طبقات المفسرين، ج ٢، ص ٥٢، ص ٥٣.

(٢٢٣) سفرنامه: ص ١٣٢.

(٢٢٤) الألفوي: المصدر السابق، ص ٦٩١-٦٩٥.

(٢٢٥) كان هبة الله بن صدقة الأسواني من أشهر أطباء الصعيد الأعلى في العصر الفاطمي، وكان من أهل أسوان فقد ولد بها سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م وبرع في مهنة الطب حتى أنه تولى رئاسة الأطباء في مصر أواخر العصر الفاطمي في عهد الخليفة العاضد

الذي كان يستعين به للاستفادة من مهارته الطبية. وتوفي هبة الله الأسواني في سنة ١٢٤٤/٥٦٤٤م (الأقوى: المصدر السابق، ص ٦٩٠-٦٩١).

(٢٢٦) ابن بيان: هو سديد الدين أبو الفضل داود بن أبي البيان سليمان بن أبي الفريح إسرائيل بن أبي الطيب سليمان بن مبارك إسرائيل، ولد بالقاهرة سنة ١١٦٠/٥٥٥٦م، وكان ابن بيان شجاعاً متقناً للطب متميزاً فيه وخبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، وقد خدم الملك العادل الأيوبي، وعاش فوق الثمانين سنة، والشيخ سديد الدين بن أبي بيان بعض المصنفات في الطب والأدوية أجاد في جمعها (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، علق عليه محمد باسل، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٨م، ص ٥٣٩).

(٢٢٧) أسفون: سبق التعريف بها من قبل.

(٢٢٨) الأقوى: المصدر السابق، ص ٤١٨.



المصادر والمراجع

أولاً المصادر

- ١- ابن الأثير: أبو الحسن بن أحمد بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م)
- اللباب في تهذيب الأنساب، طبعة بيروت سنة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.
- ٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب- د.د.
- ٣- الأتقوى: أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م)
- الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن مراجعة طه الحاجري- طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م.
- ٤- البدر السافر عن أئمة المسافرين، تحقيق محمد فتحى محمد الجزء الأول، طبعة الجمعية المصرية لرعاية المواهب، سنة ١٩٩٧ م.
- ٥- ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م)
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تعليق محمد ياسر، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٨ م.
- ٦- ابن الجيعان: شرف الدين يحيى بن علم الدين بن الجيعان (ت ٨٨٥ هـ/١٤٨٠ م)
- التحفة المنوية بأسماء البلاد المصرية طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٤ م.
- ٧- ابن حجر: أحمد بن على العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨ م)
- رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، طبعة ١٩٦١ م.
- ٨- الحنبلى: أبو الفضل عباس بن منصور القرينى (ت ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م)
- البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، تحقيق يسام العموش، طبعة الأردن، ١٩٨٨ م.
- ٩- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م)
- المقدمة، طبعة دار ابن خلدون، الإسكندرية، بدون تاريخ.
- ١٠- الداودى: شمس الدين محمد بن على (ت ٩٤٥ هـ/١٥٣٨ م)
- طبقات المفسرين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ١١- ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلاتى (ت ٨٠٩ هـ/١٤٠٦ م)
- الانتصار لواسطة عقد الأنصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، طبعة بيروت، بدون تاريخ.
- ١٢- السبكى: تاج الدين أبى النصر عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ/١٣٧٠ م)
- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحى، عبد الفتاح محمد الحلو، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.

- ١٣- معبد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، الخاتجي القاهرة، ١٩٩٣م.
- ١٤- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥م)
— حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.
- ١٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٩م.
- ١٦- ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت ٦٣٢ هـ/١٢٣٤م)
— النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ١٧- الشهرستاني: ابن أبي الفتح محمد بن أبي القاسم (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣م)
— الملل والنحل، طبعة مكتبة السلام العالمية، القاهرة، د.ت.
- ١٨- ابن زهير: برهان الدين إبراهيم بن علي (٨٨٥ هـ/١٤٨٠م)
— الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، كامل المهندس، طبعة هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٦٩م.
- ١٩- ابن العباد: عبد الحي بن العماد الحنبلّي (ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨م)
— شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة المكتب التجاري للطباعة، بيروت، د.ت.
- ٢٠- أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١م).
— المختصر في أخبار البشر، طبعة القاهرة، مكتبة المتنبي، بدون تاريخ.
- ٢١- ———: ———: تقويم البلدان، طبعة مدينة باريس، سنة ١٨٥٠م.
- ٢٢- القفطي: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م)
— إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة، مكتبة المتنبي، بدون تاريخ.
- ٢٣- ———: ———: إنباه الرواة على أنباه النجاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة ١٩٨٦م.
- ٢٤- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م)
— صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة مصر، نسخة عن الطبعة الأميرية، بدون تاريخ.
- ٢٥- ابن كثير: الحافظ إسماعيل عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢م)
— البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، طبعة دار الفد العربي، سنة ١٩٩٢م.
- ٢٦- الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٣٥٠ هـ/٩٦١م)
— الولاة والقضاة، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.

- ٢٧- الماوردى: على بن محمد بن حبيب البغدادي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) — الأحكام المنطوقية والولايات الدينية، طبعة مكتبة مصطفى البابي الحلبي مصر سنة ١٩٧٣ م، الطبعة الثالثة.
- ٢٨- المقرئى: نقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) — الخطط المقرئية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، طبعة مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٢٩- المقفى الكبير، تحقيق محمد البعلوى، طبعة بيروت، سنة ١٩٩١ م.
- ٣٠- ابن ممتى: شرف الدين أبو المكارم أسعد (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) — قوانين الدواوين تحقيق عزيز سوريال عطية، طبعة مصر ١٩٤٣ م.
- ٣١- ناصر خسرو علوى: (ت ٤٨١ هـ / ١١٨٨ م) — سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، طبعة هيئة الكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٣ م.
- ٣٢- ابن النديم: محمد بن إسحاق الكاتب (ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) — الفهرست، طبعة دار المعرفة - بيروت بدون تاريخ.
- ٣٣- التويرى: شهاب الدين أحمد عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) — نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٦، تحقيق محمد فوزى العتيل، طبعة الهيئة المصرية للعلمة للكتاب، سنة ١٩٨٥ م.
- ٣٤- ياقوت: عبد الله الحموى الرومى البغدادي (ت ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) — معجم البلدان، طبعة دار صادر بيروت، سنة ١٩٧٦ م.

ثانياً المراجع

- ٣٥- إبراهيم أحمد العوى: (دكتور) — النظم الإسلامية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٨٨ م.
- ٣٦- أحمد أمين: (دكتور) — ضحى الإسلام، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.
- ٣٧- أحمد السعد سلومان: (دكتور) — تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، الجزء الأول، طبعة دار المعارف مصر، ١٩٦٩ م.
- ٣٨- آدم مزر: — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، طبعة الهيئة المصرية للعلمة للكتاب، سنة ١٩٩٥ م.
- ٣٩- أيمن فؤاد سيد: (دكتور) — الدولة الفاطمية في مصر، طبعة الهيئة المصرية للعلمة للكتاب، سنة ٢٠٠٧ م.
- ٤٠- بروكلمان (كارل): — تاريخ الأدب العربى، الجزء الثالث، طبعة دار المعارف مصر، سنة ١٩٨٣ م.
- ٤١- حسن إبراهيم حسن: (دكتور) — تاريخ الإسلام، ج ٤، طبعة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣ م.
- ٤٢- تاريخ الدولة الفاطمية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.

- ٤٣- طه أحمد شرف:
— المعز لدين الله الفاطمي إمام الشيعة الإسماعيلية، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٤٧م.
- ٤٤- حسن عبد الوهاب:
— تاريخ المساجد الأثرية، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٣م.
- ٤٥- سعاد ماهر: (دكتور)
— محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامي، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٦م.
- مساجد مصر ولوايقها الصالحون، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧١م.
- ٤٦- سعيد عبد الفتاح عشور: (دكتور)
— الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، طبعة دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.
- ٤٧- عادل بسيوني: (دكتور)
— تاريخ القانون المصري (مصر الإسلامية)، طبعة مكتبة نهضة للشرق، جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٥م.
- ٤٨- عبد المنعم ملحد: (دكتور)
— تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٨٦م.
- ٤٩- نظم القاطمين ورسومهم، الجزء الأول، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٧٣م.
- ٥٠- الدولة الأيوبية وتاريخ مصر الإسلامي، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٩٧م.
- ٥١- عبد الناصر هاشم: (دكتور)
— تاريخ القضاء والمظالم في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، رسالة دكتوراة، كلية الآداب بموهاج، ١٩٩٩ (غير منشور)
- ٥٢- عطية القوسي: (دكتور)
— تاريخ دولة الكتوز الإسلامية، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٨١م.
- ٥٣- عطية مشرفة: (دكتور)
— القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
- ٥٤- صر رضا كحالة:
— معجم المؤلفين، طبعة بيروت، ١٩٨٠م.
- ٥٥- محمد جمال الدين سرور: (دكتور)
— للدولة الفاطمية في مصر، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٧٤م.
- ٥٦- محمد رمزي:
— القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٤٥م.

- ٥٧- محمد عبده الحجاجي:
— قوص في التاريخ الإسلامي من الفتح العربي حتى نهاية عصر المماليك، طبعة
الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.
- ٥٨- محمود الحويري: (دكتور)
— أسوان في العصور الوسطى، طبعة دار المعارف ١٩٨٠.
- ٥٩- محمود عرفة: (دكتور)
— الدولة الفاطمية في مصر، طبعة دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة ٢٠٠٢م.
- ٦٠- محمود محمد عرنوس:
— تاريخ القضاء في الإسلام، طبعة للقاهرة، سنة ١٩٣٤م.
- ٦١- ممنوح عبد الرحمن الريطي: (دكتور)
— دور القبائل العربية في صعيد مصر، طبعة مكتبة مديولي، القاهرة، ١٩٩٦م.
- ٦٢- مناع القطان:
— النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة، طبعة القاهرة، سنة
١٩٩٣م.



القدس في رحلة القاضي أبي بكر بن العربي الأندلسي دراسة حضارية

د. محمد علي دبور (*)

مقدمة

يرتبط مفهوم الرحلة في الأصل اللغوي العربي، بركوب الإبل أو الجياد ونحوهما، وترويضها حتى تصير "رحلة"، وقد نقل ابن منظور عن أبي زيد قوله: "أرحل الرجل البعير (...)" إذا أخذ بعيراً صعباً، فجعله رحلة^(١)، ثم يضيف ابن منظور: "الرحلة من الإبل البعير القوي على الأسفار والأحمال، وهي التي يختارها الرجل لركبته ورحله.."^(٢)، ونستنتج من هذا القول أن تحقيق منعة الاكتشاف من ناحية، والرغبة في مكابدة الشدائد والتغلب عليها من ناحية أخرى، هما من الأضداد التي ينشدها الإنسان في الرحلة، ويختتم ابن منظور هذا العرض اللغوي بقوله: "وقال بعضهم: الرحلة الارتحال، والرحلة بالضم الوجه الذي تلخذه فيه وتريده"^(٣).

وتختلف الرحلات باختلاف الأغراض البشرية التي تستدعي القيام بها، غير أن هناك أغراضاً أخرى استدعت كتابتها بعد ذلك، فالرحالون لم يهتموا برحلاتهم إلا في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، واستمر التأليف فيها إلى أن أصبحت فناً أدبياً مميزاً، حدده الباحثون حديثاً، وصنفوه ضمن أنماط السرد الذي يتخذ الرحلة موضوعاً له، لكن فريقاً آخر من الباحثين يرون أن لهذا الفن قيمتين: الأولى علمية، والأخرى أدبية؛ فهو يتناول الكثير من نواحي الحياة الواقعية: "إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير"^(٤).

(*) مدرس بقسم التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

(١) ابن منظور: لسان العرب - دار صادر - بيروت، ١٩٥٥ م، مادة: "رحل".

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت -

ط ٢ مزيدة وملقحة، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، ص ٦.

وهذا يعني أن أي رحلة، كي تعد فناً، لا بد أن تحمل في الوقت نفسه هاتين القيمتين، أعني: العلمية والأدبية، لكن نسبة إحداهما إلى الأخرى متفاوتة في الرحلات العربية على الأقل، فبعض الرحلات يغلب عليه الجانب العلمي، الجغرافي والتاريخي، وبعضها الآخر يغلب عليه الجانب الذاتي أو الأدبي للوجداني.

وقد بين ابن خلدون أهمية الرحلة العلمية في قوله: «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التطعيم، ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتطعيماً وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتقليفاً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال»^(١).

لقد كانت الرحلة سجعاً يكشف عن منابع الثقافة التي ارتوى منها العالم، والأصول التي اعتمد عليها، ولقيت كلفت - نون شك - مرجعاً له فيما ألف من كتب^(٢)، كما عُدَّت الرحلة جانباً مهماً في تقدم الأثب الجغرافي الإسلامي، ومصدراً موثقاً به إلى حد كبير؛ إذ كان الرحالة - في الغالب - دقيق الملاحظة، حاضر البديهة حتى أصبحت كتب بعضهم من معالم الأثب للعالم^(٣).

وقد كان اهتمام الرحالين بتدوين رحلاتهم كبيراً جداً، ويضيق بنا المقام هنا لتعداد كل المؤلفين في الرحلة، من جغرافيين ومؤرخين وأدباء، وغيرهم من المتخصصين، ولكن نخص بالذكر أشهرهم: اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤ م)، مؤلف كتاب: "البلدان"^(٤)، وأحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢ م)، صاحب كتاب: "فتوح البلدان"، والمقنسي (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠ م) مؤلف "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"^(٥). كما تواصل تأليف الرحلات ذات الطابع الجغرافي والتاريخي، وعظم على

(١) ابن خلدون: المقدمة تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي- مكتبة الأسرة- القاهرة، ٢٠٠٦ م، ٢/ ٥٣٩-٥٤٠. وراجع: حسين محمد فهم: أئب للرحلات- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ١٩٨٩ م، ص ٨٠.

(٢) د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون - دار البيان العربي - جدة، د. ت، ص ٣٢٢.

(٣) د. حسين مؤنس: للجغرافية والجغرافيون في الأندلس - نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - مدريد - ط ٢، ١٩٨٦ م، ص ٩.

(٤) انظر: زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى - دار التراث العربي - بيروت، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م، ص ٣٥-٣٦. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٧١-٧٨.

(٥) انظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٢٩-١٣٥. زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٤٢-٤٣.

يد عدد من الشخصيات ذات الصيت الذائع أمثال : أبي عُبيد البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) صاحب كتاب: "الممالك والممالك" أو "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" (١)، وابن جبير الأندلسي (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، صاحب كتاب: تذكرة بالأخبار عن اتصالات الأسفار (٢)، وابن بطوطة المغربي (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) صاحب كتاب: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" (٣)، والقاسم بن يوسف التجيبي (ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) صاحب كتاب: "مستفاد الرحلة والاعتراب" (٤)، وعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) صاحب كتاب: "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً" (٥).

وقد ألف الرحالون المغاربة والأندلسيون المذكورون رحلاتهم؛ في الفترة ما بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين/ العاشر والخامس عشر الميلاديين. وبعد هذه الفترة شهدت الرحلات المغربية والأندلسية بعض التراجع في التأليف؛ لاشتداد وطأة الحروب بين المسلمين والأعداء الأوروبيين والإسبانيين والبرتغاليين، ولكن الرحلات ما لبثت أن عادت إلى نشاطها ورواجها المعهود في القرن الحادي عشر وما بعده، والمؤسف أن الكثير منها تعرض للضياع، بسبب الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي شهدتها الغرب الإسلامي.

وكان المشرق لا يزال محط أنظار المغاربة والأندلسيين، ويسترعى اهتمامهم؛ لما تضمنه بينته من معالم روحية ودينية تقصد العبادة والتبرك والاعتبار، والرغبة في لقاء علماء كبار في مختلف العلوم ومجالستهم والأخذ عنهم، ولما يحمله الرحالة من روابط تاريخية وحضارية تربط بين المشرق والمغرب، ولشتركة في الأهل والنسب أحياناً كثيرة، فالإحساس بالوحشة والاعتراب والحزن يكاد ينعم عند المغاربة

(١) انظر: زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٤٥. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٤٥-١٥٩.

(٢) انظر: حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص ١٩. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٢٣-٢٣٨. زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٧٠-٨٨.

(٣) انظر: زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ١٣٦-١٧١. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٦٩-٣٨٦. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص ٣٥.

(٤) انظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٥٥-٣٥٩.

(٥) انظر: حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص ٥٥-٦٧. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٢١-٢٣٢.

والأكديسيين وهم يزورون المشرق، أو يمشون فيه لفترات طويلة، بسبب تلك الروابط الدينية والروحية والاجتماعية التي تربط بين الإقليمين.

ومن هنا كان أدب الرحلات هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، حيث يسجل انطباعاته، ويصف ما يراه من عادات البشر وسلوكهم وأخلاقهم، كما يهتم بذكر الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية التي يشاهدها ويتفاعل معها، لذلك فإن أدب الرحلات يعدُّ مصدرًا مهمًا للدراسات التاريخية المقارنة، كما تعدُّ كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها ممتعة مسلية من ناحية، ومفيدة تاريخيًا وحضاريًا من ناحية أخرى.



أبو بكر بن العربي وأهمية رحلته

أولاً: أبو بكر بن العربي: المولد والنشأة:

وُلد أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي في أنشيلية، ونشأ نشأة دينية، وحفظ القرآن الكريم ابن سبع سنين، ثم أفقن العربية والشعر وعلم الحساب على يد أبيه وخاله، وجلس إلى العلماء واستمع منهم حتى أصبح من حفاظ الحديث، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، كما برع في الشعر والأدب^(١).

وكان أبوه أبو محمد بأنشيلية بدرًا في فلكها، وصدرًا في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بني عبد، ولاية الولايات للشريفة، وبوّه المراتب المنيفة^(٢)، وكان من أهل التفنن في العلوم، متقنًا في المعارف كلها، متكلمًا على أنواعها، حريصًا على نشرها، وقام بأمر القضاء أحمد قبله، مع الصرامة في الحق، والقوة والشدة على الظالمين والرفق بالمساكين وقيد الحديث، وضبط ما روى، واتسع في الرواية، وانتفن مسائل الخلاف والأصول والكلام^(٣).

ثانيًا: أبو بكر بن العربي الأديب الرحالة:

عرف الناس أبو بكر بن العربي قاضيًا وفقيهًا إسلاميًا كبيرًا، ومفسرًا للقرآن وشارحًا للمنة، كما أنه يعد أصوليًا عظيمًا، وتناسى الجميع أنه أديب ورحالة مشهور، رغمًا مساعد على ذلك أن أصل رحلة ابن العربي ترتيب الرحلة للترغيب في الملة^(٤) يُعدُّ

(١) انظر: ابن العربي: قانون التأويل - دراسة وتحقيق: محمد السليماني - منشورات دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة علوم القرآن ببيروت - ط ١، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م، ٤١٥ - ٤١٩. سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط ١، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ص ١٨٧ - ١٩١. حيث نكر ابن العربي بنفسه نشأته العلمية وما تلقاه من العلوم والمعارف في هذه الفترة الأولى من حياته. وانظر أيضًا: ابن بشكوال: الصلة - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة - سلسلة المكتبة الأندلسية (٤)، ١٩٦٦ م، ١ / ٥٩٠ - ٥٩١، لترجمة رقم ١٢٩٧. الضبي: بغية الملتزم في تاريخ رجال أهل الأندلس - دار الكتب العربي (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليًا) - القاهرة - سلسلة المكتبة الأندلسية (٦) - ١٩٦٧ م، ص ٨٣.

(٢) المقري للمسلماني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت، ١٩٦٨ م، ٣٤ / ٢.

(٣) المصدر السابق، ٢٩ / ٢.

من مؤلفاته المفقودة والتي لم تصل إلينا كاملة، وقد فقد الكتاب في حياة مؤلفه، ويخبرنا بذلك ابن العربي نفسه عندما يقول: "إن الحوادث قد استلبته" (١٨).

ولكن ابن العربي حفظ لنفسه مكانة متميزة في تاريخ الأدب العربي، كرالد من رواد أدب الرحلات، عندما قام بتجريد جانب من رحلته: ترتيب الرحلة للترغيب في اللمة، أسماء: "شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان" (١٩). كما قام ابن العربي بكتابة تلخيص آخر لرحلته، في مقدمة كتابه: "قانون التأويل"، وقد قام الأستاذ سعيد أعراب بتجريد هذه الخلاصة، وعمل على تحقيقها، وألحظها بدراسة له عن ابن العربي (٢٠).

وما قام به ابن العربي من تلخيص لرحلته، لا يمكن أن يعوضنا أبداً عن الأصل المفقود لكتابه: ترتيب الرحلة، ولا يمكن تتبع كل خطوات رحلة ابن العربي، ولكنه يمكننا من أن نرسم صورة واضحة لملاح رحلته، ومبوف نعمل على توضيح هذه الصورة أكثر، إذا قمنا بتجميع ما تنثر في بطون الكتب التي صنفها ابن العربي، ووصلت إلينا، مثل كتاب: أحكام القرآن، وكتاب: عارضة الأحوذ بشرح صحيح الترمذي، والتي جاء فيها إشارات مهمة عن رحلته.

ثالثاً. أهمية رحلة أبي بكر بن العربي

إن ما يجعلنا نهتم برحلة أبي بكر بن العربي للمعافري إلى المشرق، أنها كانت أسبق الرحلات الأندلسية، فهي من حيث التاريخ أسبق بنصف قرن، على الأقل، من رحلة ابن جبير اللكنائي (المتوفى سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م)، فأبو بكر بن العربي هو أول أندلسي يصف رحلته إلى بلاد المشرق وصفاً دقيقاً، وأول من دون رحلته في كتاب أسماء: ترتيب الرحلة للترغيب في اللمة (٢١)، وهو بذلك يعدّ رائداً لأدب الرحلة

(١٨) ابن العربي: قانون للتأويل، ص ٤١٤.

(١٩) تم نشر هذا الكتاب بتحقيق محمد يعلى - ضمن كتاب: ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي: (كتاب الأسساب لابن عبد الحليم ق ٨ هـ/ ١٤ م - كتاب مغلف البربر لمؤلف مجهول - كتاب شواهد الجلة لابن العربي ٥٤٣ هـ/ ١١٤٩ م) - سلسلة المصائر الأندلسية (٢٠) المجلس الأعلى للأبحاث العلمية - الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي - مدريد ١٩٩٦ م.

(٢١) سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط ١، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م. وانظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٢٢ حيث أشار إلى أن ابن العربي كان من أوائل الرحالة المغاربة الذين دونوا رحلاتهم.

(٢٢) انظر: ابن العربي: قانون للتأويل، ص ٤١٤.

المشرقية والرحلة إلى طلب العلم، ليس في بلاد الأندلس وحسب، بل في بلدان العالم الإسلامي كله بصفة عامة، وفي الغرب الإسلامي بصفة خاصة^(١).

عندما أقدم ابن العربي على تدوين رحلته إلى بلاد المشرق، وتدوين مشاهداته وانطباعاته التي تركتها هذه الرحلة في نفسه، ووصف البلاد التي مرَّ عليها، وتدوين الأحداث التاريخية التي شاهدها وعاشها، ويكره للعلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم؛ لفت ابن العربي بذلك العمل الأنظار إليه، وإلى أهمية العمل الأكاديمي الذي قام به، حيث كانت هذه الخطوة هي أول خطوة في عملية تدوين أنب الرحلات، فابن العربي هو أول من وضع أسس فن الرحلات، وتدوينها على هيئة مذكرات يومية، ووصف مشاهداته وانطباعاته بكل دقة وأمانة في الوصف.

والذي يؤكد على أهمية عمل ابن العربي وتميزه: أنه جاء صملاً مخالفاً لكل أنماط الكتابة السائدة، والتي كانت تنحصر - في الغالب - في كتابة التقارير العسكرية من قادة الجيوش الإسلامية عن طبيعة البلاد المراد فتحها، أو مشاهدات الجغرافيين، ومعينتهم لطبيعة الأرض، ووصف تضاريسها ومظاهرها الطبيعية في البلدان المختلفة، أو الحكايات العجيبة والغريبة التي شاهدها بعض التجار المغامرين في أسفارهم ورحلاتهم، أو كتب المسالك والممالك، وكتب البلدان، وكتب فضائل المدن، وكتب الخطط والآثار وغيرها.

رابعا: الغرض من الرحلة وخطة سيرها.

لما عن خط سير الرحلة فسوف نقوم الآن بمحاولة رسم خط سير رحلة ابن العربي، وتتبعها من خلال التلخيص الذي قيده في كتاب: "فائق التآويل"، ثم نقوم بتجميع ما تنأثر في بطون الكتب التي صنفها ابن العربي، والتي جاءت فيها إشارات مهمة عن رحلته، ثم ترتيبها حسب المنهاج الزمني، لتكون سردية متصلة متماسكة، ولا يوجد بين مراحلها أية فجوات تحرم القارئ لذة تتبُّع هذه الرحلة.

أ- الغرض من الرحلة:

تعددت آراء المؤرخين حول الغرض من رحلة القاضي أبي بكر بن العربي إلى المشرق، وسنحاول في السطور التالية أن نسرِّد تلك الآراء ونناقشها.

^(١) أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأديب الجغرافي العربي - ترجمة: صلاح الدين هاشم - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، ١٩٦٣ م، ص ٢٩٨.

١- أداء فريضة الحج:

عندما بلغ ابنُ العربي سنَّ التسابعة عشرة، ارتحل به أبوه من إشبيلية **Sevilla** إلى المشرق، بعد سقوط مملكة بنى عباد سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، واستولى المرابطون على إشبيلية، وصادروا أموال أمراتها ووزرائها^(٢٢)، فما كان من الوالد إلا أن اختار أن ينأى بنفسه وولده عن جحيم المياسة، بالارتحال إلى المشرق؛ لإداء فريضة الحج، حيث كان الوالد من رجالات بنى عباد الملازمين لهم، والعاملين في خدمتهم^(٢٣).

٢- طلب العلم:

يذكر ابن العربي غرضاً آخر للرحلة وهو طلبه للعلم، فيقول: "وكان الباعث على هذا التشبُّث - مع هول الأمر - همة لزمّت، وعزيمة أُلجِمت، ساقطتها رحمة سبقت، ولقد كنت يوماً مع بعض المعظّمين، فجلس إلينا أبي - رحمة الله عليه - يُطالع ما انتهى إليه علمي.... فدخل إلينا أحد المُعاصرة وعلى يديه رزمة كتب... فإذا بها من تاليف المصنّفي شيخ الباجي، فسمعتُ جميعهم يقولون: هذه كتب عظيمة، وعلوم جليّة، جلبها الباجي من المشرق، فصعدت هذه الكلمة كبدي، وقرعت خلدي، وجعلوا يُوردون في ذكره ويُصدرون، ويحكّون أن فقهاء بلادنا لا يفهمون عنه ولا يعقلون... ونزرت في نفسي طينة، لأن ملكت أمري لأهاجرنّ إلى هذه المقامات، ولأنّني على أولاء الرّجالات، ولأنّهم سنّ بما لديهم من المعاهد والمقالات، واستمررت عليها نية، واكتتمتها عزيمة"^(٢٤).

٣- الغرض السياسي:

يذكر ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) غرضاً آخر من أغراض الرحلة، وهو الغرض السياسي؛ حيث خرج عبد الله بن العربي وابنه، موفدين من يوسف بن تاشفين إلى عاصمة الخلافة، فيقول: "ولما مجى رسم الخلافة وتعطل دسّتها، وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لموتونة فملك الغدوتين، وكان من أهل الخير والاعتداء، نزعت همة إلى الدخول في طاعة الخليفة، تكميلاً لمراسم دينه، فخطب المصنّف للعباسي، وأولّد عليه ببيعه عبد الله ابن العربي،

(٢٢) ابن العربي: فتون التلويل، ص ٧٧ (مقدمة المحقق).

(٢٣) ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفى - سلسلة المكتبة الأندلسية (٧) - دار الكتب العربي للطباعة والنشر (الهيئة المصرية العامة للكتاب - حاليّاً) - القاهرة - ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م، ص ٦.

(٢٤) ابن العربي: فتون التلويل، ص ٤٢٠-٤٢٢.

وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية، يُطلبان توليته إياه على المغرب وتقليده ذلك، فانتقلبا إليه بعهد الخلافة له على المغرب^(١١).

٤- هذا بخلاف غرض السياحة والتجوال، وهذا الغرض واضح جداً من خلال تتبع رحلة ابن العربي، وقيامه بجولات استكشافية ووصفية.

قد تتعدّد الأغراض في الرحلة الواحدة، ورحلة ابن العربي من ذلك النوع من الرحلات، وهو نوع يحتاج رحالة مختلفاً من طراز خاص، يكون صاحب ملكات، ومواهب خاصة، وثقافة واسعة، وإحاطة بعلوم شتى، وله من العلاقات ما يجعله يواصل رحلته بنفس الكفاءة التي بدأ بها، وقد توافرت هذه المواصفات في ابن العربي.

قلت: إن رحلة ابن العربي كانت لها أغراضها المختلفة، منها أداء فريضة الحج، وطلب العلم، والسياحة والتجوال، ولا يستبعد أبداً أن يكون لها غرض سياسي، ولكن سياق الرحلة، وما تحصّلنا عليه من نصوص مكملة للرحلة لا يدل على ذلك، ربّما يفيدنا كتاب "شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والهدان" في إثبات ذلك، ولكننا حتى هذا الوقت لم يتيسر لنا الاطلاع عليه.

ب- خط سير الرحلة ومضمونها

إشبيلية ومدن الأندلس هنا نحاول أن نرسم خط سير هذه الرحلة وما شاهده فيها ابن العربي من معالم حضارية، وأثار ثقافية، وجوانب علمية، وقد بدأه ابن العربي بوصف يوم خروجه هو وأبيه من إشبيلية **Sevilla** بأنه كان يوماً صعباً، بل يصفه بأنه أعجب يوم مرّ عليه^(١٢)، ويصف ساعة خروجهم من إشبيلية فيقول: "خرجنا والأعداء يشمتون بنا"^(١٣)، "خرجنا مكرمين، أو قل: مكرهين، آمنين، وإن شئت خائفين"^(١٤).

خرج الشيخ والفتى من إشبيلية **Sevilla** صبيحة الأحد مستهلّ ربيع الأوّل عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢ م، متوجّهين إلى مالقة **Málaga**، ومنها إلى غرناطة **Granada**، التي لم يُطل فيها المقام، فتابع سيره إلى ألمرية **Almería**، وأوّل

(١١) ابن خلدون: مقننة ابن خلدون - تحقيق: د. علي عبد الواحد والفي - مكتبة الأسرة - القاهرة،

٢٠٠٦ م، ٢/ ٦١٦-٦١٧.

(١٢) ابن العربي: فتنون التكويل، ص ٤٢٠.

(١٣) ابن العربي: فتنون التكويل، ص ٤٢٠.

(١٤) المصدر السابق، ص ٤٢٢.

عمل يقوم به أبو بكر بن العربي في كل بلد ينزل إليه هو البحث عن الطعام، ومحاولة الاتصال بهم، والجلوس إليهم^(٢٠).

بجاية ومدن إفريقية (المغرب الأدنى): ثم ركب البحر إلى بجاية، وكان يعرفا بجاية بعض الطعام، حرص ابن العربي على لقاءهم، وكان يجد من حفاوة الترحاب والاستقبال من كبار القوم والمبالغة في إكرامهم، ولم لا وابن العربي الأب وزير سابق في حكومة إشبيلية السابقة؟!

ثم تابعا سيرهما طورا بالبحر وطورا بالبحر، ومرّا في طريقهما على بونة (أو عنابة)، ثم دخلا تونس، ثم زارا سوسة، والمهدية. وقد التقى أبو بكر بن العربي بجسلة من علماء وفقهاء القيروان، وقد أبدى إعجابه بما سمع وتعلم، حيث قال: 'لعلنا لمح لي هذا الكوكب بطريفة القيروان، واستنارت لي فيها بنوع من البرهان، واستبرأتها بواضح من الدلائل غصن الثبات والأفنان، قلت: هذا مطلبي، فأخذت في قراءة شيء من أصول الدين، والمناظرة فيها مع الطالبين، ولزمت مجالس المتفكرين'^(٢١)، ولم ينس أن يقيم ابن العربي حلة الأتوب في القيروان بأنّها: 'على حالة وسطى'^(٢٢).

برقة وساحل طرابلس: ثم ركب البحر من المهدية متجهين إلى الحجاز، ويصف ابن العربي ركوبه البحر أثناء رحلته من إفريقية وصفا دقيقا ممتعا، وكيف عصفت بهم الرياح، وقسا البحر عليهم، فتحطمت المنقنة، ونجا أبو بكر وأبوه من الغرق، وكان خروجهما بموضع من ساحل طرابلس (برقة)، تسكنه بيوت من بني كعب بن سليم، قال: 'وقد سبق في علم الله أن يعظم علينا - أي البحر - بزوله'^(٢٣)، ويفرقنا في هوله، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب من سليم، ونحن من المنقب^(٢٤) على عطب، ومن العري في ألبح زي، قد قذف البحر زقاق زيت مرّقت الحجارة هبنتها، وكسنت الأدهان وبزها وجلدتها، فاحترمانها أزرّا، واشتملتها للفا، تمجنا الأبهصار، وتخذلنا الانصار، فعضف

(٢٠) المصدر السابق، ص ٤٢٣-٤٢٤.

(٢١) المصدر السابق، ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٢٢) السابق، ص ٤٢٨.

(٢٣) أي: يعجزني.

(٢٤) المنقب: الجوع مع التعب.

أمرهم علينا..... فأولينا إليه فأوتانا، وأطعنا الله على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا وكساننا^(٢٥).

ثم يحدثنا أبو بكر بن العربي عن المبالغة في وصف ما نالهم من إكرام الأمير لهم، وعرضه عليهم البقاء: .. وأقمنا عنده حتى ثابت إلينا نفوسنا، وذهب عنا بؤسنا، وسألتنا الإقامة عنده على أن يصير إلينا صدقات بني سليم كلها، فأبينا إلا الاستمرار على العزيمة الأولى، والتصميم إلى المرتبة الكريمة التي كانت بنا أولى، ففارقناه..... وصرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر، فألفينا بها جماعة من المحققين والفقهاء والمتكلمين^(٢٦).

مضو: نزل ابن العربي في مرقا الإسكندرية ولم يطل بهم المقام بها، ومن ثم أصلا سيرهما إلى القاهرة، وكان وصولهما إليها في أواخر ربيع الثاني سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م.

ويصف ابن العربي حالة الركود العلمي لظماء مصر، والظروف السيئة التي تمر بها البلاد في ذلك الوقت قائلا: "ألفينا بها - أي مصر - جماعة من المحققين والفقهاء والمتكلمين، والسلطان عليهم جري^(٢٧)، وهم من الضمول في سرب خفي، ومن هجران الخلق بحيث لا يرشد إليهم جريء، لا يتيسون إلى العلم ببنت شفة، ولا ينتسب أحد منهم في فن إلى المعرفة، بله الأسب...^(٢٨)".

ورغم هذه الحالة التي كان عليها علماء مصر، إلا أن أبا بكر بن العربي كان يتردد على مجالس القراء، ويبدى إعجابه بطريقة القراء المصريين فيقول: "وقد سمعت تاج القراء ابن لفنة بجامع عمرو يقرأ: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك} [الإسراء: ٧٩]، فكأنني ما سمعت الآية قط، وسمعت ابن الرقام - وكان من القراء العظام - يقرأ، وأنا حاضر بالقرافة: {كهيعص} فكأنني ما سمعتها قط..... والقلوب

(٢٥) ابن العربي: فثون التلويح، ص ٤٢٨-٤٢٩.

(٢٦) المصدر السابق، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٢٧) الجري هو الوكيل، والسلطان الذي يرضيه ابن العربي هنا هو: سعد بن الظاهر بن الحاكم بأمر الله، خامس خلفاء مصر من بني عبّيد (٤٢٠-٤٨٧ هـ / ١٠٢٨-١٠٩٣ م). انظر: فثون التلويح، ص ٤٣٢، حاشية رقم ٢. وراجع: ابن تغري بردي: التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية للترجمة والنشر - القاهرة - (د. ت)، ٥ / ١٤٠.

(٢٨) ابن العربي: فثون التلويح، ص ٤٣٢.

تَخْشَعُ بالصُّنُوتِ الْحَسَنَ كَمَا تَخْضَعُ لِلرَّوْحَةِ الْحَسَنِ، وَمَا تَتَأَثَّرُ بِهِ الْقُلُوبُ فِي التَّقْوَى
فَهُوَ أَعْظَمُ فِي الْأَجْرِ وَأَقْرَبُ إِلَى لَبِنِ الْقُلُوبِ وَذَهَابِ الْقِسْوَةِ مِنْهَا^(٣٩).

وفي مصر تدرّب أبو بكر على الجدل، وناظر الشيعة والقدريّة، ويصف هذه
الطوائف قائلا: أئمة غلب عليها سوء الاعتقاد، ونشئت من غير فطم بلبن العناد،
واستولى اليأس منهم بما هم فيه من الفساد^(٤٠).

فلسطين ومن مصر اتطلقا إلى فلسطين، وواصلوا السير إلى بيت المقدس،
وفي هذه الجولة من الرحلة يمدنا ابن العربي بمعلومات مهمة عن الجوانب الدينية
والعلمية في القدس في هذه الفترة، ويحدثنا عن العديد من جولاته الأثرية فيها،
وسنأتي عليها بالتفصيل، فهي موضوع البحث.

عسقلان وما جاورها وبعدها يزور مدينة عسقلان، فينجذب إليها، ويعجب
بنشاط أهلها، وخفة روحهم، فيقيم بها نحو ستة أشهر، ويتخذ جملة من الرفقاء
والإخوان، لولا هاتف ديني أوحى إليه بالرحيل ما كان يترك تلك البلدة رغم إلحاح أبيه
عليه بالرحيل، وأقصر لأبيه عن نيّته في الرحيل، فسرّ بذلك، وركبا البحر إلى عكا، ثم
عرجا على طبرية وحوران، ثم دمشق^(٤١).

دمشق وقد وصل أبو بكر بن العربي وأبوه إلى دمشق في الشهور الأولى من
سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، واختار ابن العربي من باب الفرائيس مقراً له، ويصف هذا
الباب فيقول: باب الفرائيس ليس في الأرض مثله، عنده كان مقرّي، وإليه من
الوخشة كان مقرّي، وإليه كان الفرادي للدرن والتقرّي^(٤٢).

لم يطل المقام بابن العربي في دمشق؛ لأنّ الحركة العلمية فيها تكاد تكون
متشابهة مع الحركة العلمية التي في القدس كما سنرى، فدمشق لن تضيف إليه
جديداً، فتوى الرحيل إلى بغداد، وعلى الرغم من قصر مدة الإقامة في دمشق، إلا أنّ
ابن العربي كانت له جولات ومشاهداته التي لم يفقه تدوينها، فوصف لنا المعالم

(٣٩) ابن العربي: أحكام القرآن - تحقيق: محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية، بيروت - ط ٣.

١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م، ٤/ ٤-٥.

(٤٠) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٣.

(٤١) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٤٣-٤٤٤.

(٤٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٣٩٢.

الأثرية والتاريخية في دمشق، كما صور عمران دمشق وتقلّمها في أسباب الرفاهة والصيانة والتعميم^(١٢).

بغداد: لم يطل المّقام بأبن العربي في دمشق، فرحل إلى بغداد، في شعبان سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، وأهل هلال رمضان والقافلة على مشارف العراق، فلمّا دخل دار المّلام، كان أوّل شيء يفعله هو الصّوال عن حلقات أهل العلم، فدلوه على المدرسة النظامية، ولكن إقامة ابن العربي لم تطل بالعراق أكثر من ثلاثة أشهر^(١٣)، حيث نوى أداء فريضة الحجّ هذا الموسم، ورحل ابن العربي إلى الحجاز أواخر ذي القعدة سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م.

الحجاز: خرج ابن العربي من بغداد، إلى بلاد الحجاز، قاصداً الحجّ، فأحرم من ذات عرق - وهو ميقات الحجّيج القادمين من العراق ونواحيها - يقول ابن العربي: **وأما أنا فجنّت مراهقاً من ذات عرق إلى الموقف ليلة عرفة**، نصف الليل، فأصبحت بها، ووقفت من الزّوال يوم الجمعة **سنة سبع وثمانين وأربعمئة**^(١٤)، ثم دفعت بعد غروب الشمس إلى المزدلفة، فبّت بها^(١٥).

ولا يخفى ابن العربي شعوره الجارف بالسعادة لأدائه فريضة الحجّ في هذا الموسم؛ لأنّ وقفة عرفة جاءت في يوم الجمعة، فاجتمع للحجّيج فضل اليومين، لمّا كانت سنة سبع وثمانين وأربعمئة^(١٦) أهل علينا هلال ذي الحجة ليلة يوم الخميس...

(١٢) انظر: ابن العربي: قاتون التأويل، ص ٤٤٤-٤٤٦.

(١٣) لقاض ابن العربي في رحلته إلى العراق في الحديث عن الطعام الذين قابلهم وتلقى عنهم، وكانت له معهم مداخلات ومنطلقات علمية، حيث يذكر أنه تلقى أبا بكر الشاشي فقيه الوقت وإمامه (قاتون التأويل، ص ٤٤٩)، ولقي الشيخ الطوسي شيخ الشيوخ وصاحب الباع والرسوخ في العلم (قاتون التأويل، ص ٤٥٢)، كما سرد عدداً من الكتب التي قرأها واطلع عليها خلال هذه الرحلة، مثل: تفسير الثعلبي، وكتب الماوردي، ومختصر الطبري، وغيرها (قاتون التأويل، ص ٤٥٥-٤٥٦).

(١٤) هذا تصحيح والصحيح أنها سنة سبع وثمانين وأربعمئة.

(١٥) ابن العربي: عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١، ١٩٩٥م، ٤/١٥٣.

(١٦) أخذ البعض من هذا النّص، والنّص السابق عليه، حجة بأن ابن العربي قام بأداء فريضة الحجّ مرتين: المرة الأولى: كانت في عام ٤٨٧هـ/١٠٩٣م. والمرة الثانية: كانت في عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م. وهذه مغالطة بيّنت على تحريف في النّص، فافرق بين سنة سبع وثمانين

وقد فرح الناس بوقفة الجمعة ليجتمع لهم فضل اليومين: فضل يوم عرفة وفضل يوم الجمعة؛ ولأن حج النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً كان يوم عرفة يوم الجمعة^(١٨).

وقد شاهد قافلة من الحجيج الشيعة القادمين من العراق سنة ١٤٨٩ هـ/ ١٠٩٥ م، وقد تركوا الإحرام من ميقات ذات عرق، فد الشيعة لا يحرمون منه^(١٩).

ومن المشاهد المهمة التي سجلها ابن العربي أثناء إقامته بمكة في موسم الحج: مشهد ميقات الحجاج بعرفة ليلة عرفة، قال: "مررت من ذات عرق، فأنفقت الحاج كله باننا بعرفة ليلة عرفة"^(٢٠).

وهذا بخلاف السنة النبوية؛ إذ ينبغي أن يكون ميقات الحاج في تلك الليلة بمعنى لا عرفة^(٢١)، وليس على من فعل ذلك شيء، ولكنه تركه فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد خاب من تركه كما قال ابن العربي^(٢٢).

ويعلق أحد الباحثين على هذا المشهد، ذكراً سبب عدم ميقات الحجيج في منى فيقول: "الحجيج في ذلك الوقت كانوا غير آمنين على أنفسهم أثناء تأديتهم لمناسك الحج، فاضطروا إلى ترك سنة الميقات بمعنى في اليوم الثامن من ذي الحجة، فكانوا يصعدون إلى منى في ذلك اليوم، ثم يتوجهون منها مباشرة إلى عرفة؛ خوفاً من غارات محتملة قد يشنها بتو شعبة على الحجاج أثناء صعودهم لعرفات"^(٢٣).

وأربعين، وتسع وثلاثين وأربعين بغير، والتكفل على أن ابن العربي لم يحج في سنة سبع وثلاثين وأربعين أمران: أولاً: أنه بدأ رحلته، سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وكما يقول ابن العربي: إنه أقام في القدس ثلاث سنوات، فمعنى ذلك أن ابن العربي كان ما زال في القدس سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٣ م. ثانياً: أن ابن العربي جاء الحجاز قاصداً من العراق، والتكفل على ذلك أنه أحرم من ذات عرق - وهو ميقات الحجيج القادمين من العراق - فكيف لابن العربي أن يخرج من العراق لأداء فريضة للحج سنة سبع وثلاثين وأربعين، وهو ما زال بالقدس، والصحيح المتفق عليه أن ابن العربي لم يؤد فريضة الحج إلا مرة واحدة سنة تسع وثلاثين وأربعين.

(١٨) ابن العربي: عارضة الأحوذ، ٤/ ١٩-٥٠.

(١٩) ابن العربي: عارضة الأحوذ، ٤/ ٤٩.

(٢٠) المصدر السابق، ٤/ ١١٠.

(٢١) انظر: محمد أحمد الحقي: قبيلة بني شعبة - مجلة العرب (ج ١١-١٢) سنة ١٣٩٤ هـ/

١٩٧٤ م - الرياض - دار اليمامة، ص ٨٩٧-٨٩٩.

(٢٢) ابن العربي: عارضة الأحوذ، ٤/ ١١٠.

(٢٣) محمد أحمد الحقي: قبيلة بني شعبة، ص ٨٩٧-٩٠٠.

ثم يقول ابن العربي: لقد كنت بمكة مقيماً في ذي الحجة، سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكنت أشرب ماء زمزم كثيراً، وكلما شربته نويت به العلم والإيمان، حتى فتح الله لي بركته في المقدار الذي يسره لي من العلم، ونسيت أن أشرته للعقل، وبأثنتي شربته لهما حتى يفتح الله عليّ فيهما، ولم يفتّر، فكان صفوي إلى العلم أكثر مبة إلى الفضل^(٩٨).

وصف ابن العربي مشاهدته ودون تطابعاته، فصور لنا معالم الحرم المكي، كما توقف عند المعالم الأثرية والتاريخية بمكة، وتجرى الدقة في استقصاء الأخبار، وحرص على وصف نظم التعليم ووسائله في مكة، وأبدى إعجابه الشديد بتلك الوسائل، كما أثنى على الطريقة المتبعة في التعليم، والتي تقوم على أساس التدرج في اكتساب العلوم، فيقول: "كنت أحضر عند الحاسب بذلك الدار المكرمة، وهو يجعل الأعداء على المتعلمين الحاسبين، وأقواهم مملوءة من الماء، حتى إذا انتهى إلقاءه، وقال: ما مكرم؟ رضى كل واحد بما في فيه، وقال ما منعه ليعودهم خزل اللسان عن تحصيل المفهوم عن المستوع، وللقوم في التعلم سيرة بدية، وهي أن الصغير منهم إذا عقر بعثوه إلى المكتب، فإذا عزز المكتب أخذوا بتعليم الخط والجنب والعربية، فإذا حذقه كله أو حتى منه ما قدر له، خرج إلى المقرئ فلقنه كتاب الله، فحفظ منه كل يوم ربع حزب، أو نصفه، أو حزباً، حتى إذا حفظ القرآن خرج إلى ما شاء الله من تعليم العلم أو تركه، ومنهم - وهم الأكثر - من يؤخر حفظ القرآن، ويتعلم الفقه والحديث وما شاء الله، فربما كان إماماً وهو لا يحفظه، وما رأيت بعثي إماماً يحفظ القرآن، ولا رأيت فقيهاً يحفظه إلا اثنين، ذلك لتعلموا أن المقصود حذوه لا حرؤفه، وغلفت القلوب اليوم بالحرؤف وضنوا الحذوف..."^(٩٩).

وحدثنا عن مقام إبراهيم وزيارته له وتحديده بدقة فقال: "إن المفسرين استرسلوا فيه على عاداتهم، فقالت طائفة: المقام هو مناسك الحج كلها، وقيل: هو الحجر في أقال لا يتحصل منه على مقتضى الدليل مراد، والصحيح أنه الحجر الذي قام عليه إبراهيم يدعو حين خلف تركته بمكة، وهو الذي قام عليه حين جاء بطائع تركته في إسماعيل وأهله، وأثر قدمه فيه إلى اليوم، رأيته ولمسته بيدي وخدي، تبركاً به في ذي الحجة من سنة تسع وثمانين وأربعمائة، والحمد لله رب العالمين"^(١٠٠).

وابن العربي في مكة والمدينة لا ينسى طلبه للعلم، فيواصل ابن العربي طلب العلم على يد مشايخ وعلماء مكة والمدينة، فجلس إليهم مدة، ثم عاد إلى بغداد.

(٩٨) ابن العربي: أحكام القرآن، ٩٨/٣.

(٩٩) ابن العربي: أحكام القرآن، ٣٤٩/٤.

(١٠٠) ابن العربي: عارضة الأحوذ، ٨١-٨٠/١١.

العراق: ثم ارتحل ابن العربي راجعاً إلى بغداد مرة ثالثة بعد أدائه فريضة الحج، وأقام فيها بعض الوقت، وصحب بها كثيراً من العلماء والأدباء، فأخذ عنهم وتلقاه عندهم، وسمع العلم منهم^(٥٧)، فتتلمذ على يد التبريزي العالم اللغوي (٤٢١-٥٠٢ هـ/١٠٢٩-١١٠٨ م)، وأبي بكر الشاشي الشافعي (٤٢٩-٥٠٧ هـ/١٠٣٧-١١١٣ م)، واستمع إلى دروس أبي حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هـ/١٠٥٨-١١١١ م)، في المدرسة النظامية، وقد التقى به برباط أبي سعيد بمدينة السلام، في جمادى الآخرة سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م، ولا يخفى ابن العربي فرحته بلقاء الإمام الغزالي، وكان يفخر بالأخذ عنه، فيقول: «ورد علينا دانشمند^(٥٨) فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية، معرضاً عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشيتاً إليه، وعرضنا أمنيتنا عليه، وقلت له: أنت ضاللتنا التي كنا ننشد، وإيماناً الذي به نسترشد، فلقيتنا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة، وتحققنا أن الذي نقل إلينا من أن الخير عن الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم، ولو رآه علي بن العباس^(٥٩) لما قال:

إِذَا مَا مَدَحْتَ امْرَأً غَائِبًا فَلَا تَقُلْ فِي مَنْحِهِ وَالْقَصْدِ
فَبِأَنَّكَ إِنْ تَقُلْ تَقُلْ الظَّنَّ نَ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبَدِ
فَيُصَغَّرُ مِنْ حَيْثُ عَظُمَتُهُ لِفَضْلِ الْمَغِيبِ عَلَى الْمَشْهَدِ

فقصدت رباطه، ولزمت بساطه، واغتنمت خلوته ونشاطه^(٦٠).

ثم قام ابن العربي بجوكة في أنحاء للعراق، فزار البصرة، والكوفة، والكرخ، والموصل.

في طريق العودة: غادر ابن العربي بغداد أواخر سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م، وغادر العراق إلى الشام، فمر على دمشق والقدس، فجدد أبو بكر العهد بشيوخه في الشام، وطاف على مزارات بيت المقدس^(٦١).

(٥٧) المقري: نفع الطيب، ٢/ ٢٩-٣٠.

(٥٨) دانشمند: كلمة فارسية تعني العارف، أو الحكيم العلامة، والمقصود بها هنا الإمام الغزالي.

(٥٩) هو الشاعر العباسي المعروف بابن الرومي.

ابن العربي: قانون التأويل، ٤٥٠-٤٥١.

انظر: ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٥-٤٣٨. أحكام القرآن، ٢/ ٤-٥، ٦، ٧، وسيأتي الحديث عن هذه المزارات بالتفصيل بعد قليل.

* * *

الإسكندرية: ثم انتقل إلى الإسكندرية أوائل سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م، ونزل على استاذِه أبي بكر الطرطوشي، الذي انتقل هو الآخر إلى ثغر الإسكندرية ليتخذَه مقرًّا له - وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس في شعبان سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م - وقد حرص بها على لقاء جماعة من المحدثين، فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم.

ويحكي عن بعض مشاهداته بالإسكندرية فيقول: "وقد شاهدت بثغر الإسكندرية إذا مات منهم ميتٌ صُوِّرَوه من خشب في أحسن صورة، وأجلسوه في موضعيه من بيته وكسوة برَّته إن كان رجلاً، وجلَّبتِها إن كانت امرأة، وأظفوا عليه الباب، فإذا أصاب أحدًا منهم كربٌ أو تجذَّ له مكروه، فتح الباب عليه وجلَّس عذَّه بكنى ويتأجبه بكان وكان، حتى يكسر سوزة حزبه بإهراق دموعه، ثم يُطلق الباب عليه وينصرف عنه، وإن تمادى بهم الزمان يُعَذِّبُها من جملة الأصنام والأوثان" (١).

وكانت وفاة والده بالإسكندرية، في محرم سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م، أحد الأسباب القويَّة، التي دفعته للرجوع إلى وطنه، في العام نفسه، بعد رحلة استغرقت ثمانية أعوام (٢)، قضاهَا ابن العربي، متجولاً في بلاد المشرق الإسلامي، طالباً للعلم تارة، وحاجاً تارة، وسائحاً تارة أخرى.

* * *

المغرب ومن الصعوبة تحديد طريق العودة إلى الأندلس، أكلت بحراً أم برًّا؟، إلا أنه نزل بتلمسان، وفاس وأملِّي بهما مجالس علم كانت مثار إعجاب الحاضرين، ثم مرَّ بأرض ذكَّالة، ثم دخل مراكش عاصمة المغرب وقابل ابن تاشفين، فتسلم منه المراسم السلطانية التي حملها إليه من عاصمة الخلافة العباسية - بغداد - بتقليده لقب "أمير المسلمين"، وجعله نائباً عن الخليفة العباسي في أقطار القرب الإسلامي (٣).

* * *

(١) ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٩.

(٢) لقد استغرقت رحلة ابن العربي ثمانية أعوام حتى وفاة والده، وحوالي عشر سنوات حتى عودته إلى إشبيلية، حيث ابتدأ رحلته في مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وكلفت عودته سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م.

(٣) انظر: ابن العربي: فتون التأويل، ص ٨٨-٨٩ (مقدمة المحقق).

الأندلس: ثم عبر من المغرب إلى الأندلس، 'وقدم إلى بلده إشبيلية، بعلم كثير لم يدخله أحد قبله، ممن كانت له رحلة إلى المشرق' ^(١٦)، 'فحلها والنفوس إليه متطلعة، ولأنه متسعة' ^(١٧).

ويبدو أن ابن العربي، بعد عودته إلى بلاد الأندلس، أكثر من الحديث عن رحلاته، ومشاهداته وانطباعاته عن بلاد المشرق، 'ولكثره حديثه وأخباره، وغريب حكاياته ورواياته، أكثر الناس فيه الكلام، وطعنوا في حديثه' ^(١٧).

وكما شاهد ابن العربي سقوط دولة بني عباد على يد يوسف بن تاشفين في أول شبابه، شاهد كذلك سقوط دولة بني تاشفين أو دولة المرابطون على يد عبد المؤمن بن علي، صاحب دولة الموحدين في أواخر شيخوخته.

وفي سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م ترأس ابن العربي وفد (إشبيلية)، لمقابلة عبد المؤمن بن علي بمراكش، إلا أن عبد المؤمن حبس هذا الوفد في مراكش نحو عام لانتقاله بحرب بعض الخارجين عليه، ثم سرحوا، ولأن لهم بمقابلته، فتقدموا للسلام عليه، ثم قدموا له بيعة أهل إشبيلية، فقبلها منهم واستحسن صنيعهم ^(١٨)، وتوفي ابن العربي في طريق العودة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م بمقربة من مدينة فاس، ودفن بها ^(١٩).

ARCHIVE

^(١٦) المقرئ: نفع للطبيب، ٢/ ٢٩-٣٠.

^(١٧) المصدر السابق، ٢/ ٣٤.

^(١٨) المقرئ: نفع للطبيب، ٢/ ٣٠.

^(١٩) ابن العربي: قانون التأويل، ص ١٠٥-١٠٦ (مقدمة المحقق).

^(٢٠) النظر: ابن بشكوال: الصلة، ٢/ ٥٩١.

القدس في رحلة أبي بكر بن العربي

كانت القدس والمسجد الأقصى المبارك في طليعة الأماكن التي يتوجه إليها العلماء الرحالة من كل أنحاء العالم الإسلامي، لاسيما من المغرب والأندلس، لأنها تمثل مركز جذب رئيساً، نظراً للمكانة الدينية التي كانت تتمتع بها باعتبارها أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفضل الصلاة في مسجدنا الأقصى كبير، وإليه يشد الرحال، وكانت عملية التواصل معها من قبل علماء الغرب الإسلامي تمثل معلماً بارزاً من معالم الوحدة الثقافية والحضارية مع العالم العربي والإسلامي عبر العصور.

وفي هذا البحث نحاول أن نتعرف على ظروف القدس وأحوالها السياسية والحضارية من خلال رحلة القاضي أبي بكر بن العربي الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث يمثل رصد أحوال القدس خلال هذه الحقبة، مصدراً مهماً لمرحلة متميزة من مراحل حياة القدس العربية والإسلامية، ويسد نقصاً حقيقياً عجزت المصادر التاريخية التقليدية عن سده؛ لأنها اهتمت بالظروف السياسية وأغفلت الجوانب الحضارية المختلفة إلا ما ندر. ومع هذه الندرة لا نملك إلا الرجوع إلى كتب الرحلات، بمختلف أنواعها، لتكوين صورة متكاملة عن القدس وتاريخها وحضارتها في حقبةا المتعددة.

ولا يقف الأمر عند حد الاستفادة مما رصده الرحالة من ظروف وأحوال حضارية في القدس، بل نقف أيضاً عند جهود هؤلاء العلماء القادمين من الغرب الإسلامي، ونشرهم للعلم والمعرفة في القدس، وتواصلهم مع علمائها، واتدماجهم معهم، والأخذ عنهم، ومن ثم الرجوع بإرث حضاري متميز من المشرق لنشره في المغرب والأندلس.

القاضي أبو بكر بن العربي في القدس:

بعد زيارة مصر خرج أبو بكر بن العربي وأبوه منها منطلقين إلى فلسطين، وفي نيتهما مواصلة المنير، فواصلتا المسير إلى بيت المقدس، فبقيتا نهاية سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وكانت مقاليد الحكم بيد السلّاجقة، وكانوا يعتنقون المذهب السنّي، ويعملون على نشر الوعي الإسلامي، فأسسوا المدارس، وأسقطوا المكوس، وأقربوا

العلماء، فوجد فيها ابن العربي يُعَيِّنه من طلب العلم، فيها كثرة من العلماء، وتتوَّع في المذاهب، ووفرة في المدارس، وتعدُّ في الأئمة^(٧٠).

أولاً: الحركة العلمية في القدس:

وقد بُهر ابن العربي بزهدها الحركة العلمية في القدس آنذاك، وقد عبر عن ذلك بقوله: ثم رحلنا عن ديار مصر إلى الشام، وأملنا الإمام، فدخلنا الأرض المقدسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدرُ المعرفة، فاستترت به أزيد من ثلاثة أعوام... فقلت لأبي رحمة الله عليه: إن كانت لك نية في الحج فامض لعزيمك، فإني لست برأى من هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها، وأجعل ذلك دستوراً للعلم، وسلماً إلى مراقبها، فساعدني حين رأي جدي، وكانت صحبتته لي من أعظم أسباب جدي^(٧١).

ونلاحظ من خلال هذا النص مدى تعلق ابن العربي بالقدس وجوها العلمي الذي كان يبحث عنه لبروي عقله، حيث تخلى عن صحبة والده حينما أراد الذهاب إلى الحج، مفضلاً البقاء في القدس لطلب العلم وإجادة ما يجيده علماؤها من علوم مختلفة.

وفي رحاب المسجد الأقصى كان ابن العربي يقضي معظم أوقته، يظلُّ نهاره في الدرس والتحصيل، ويبيت ليله في التهجد والعبادة، وحرص على طلب العلم، واستيفاء تحصيله العلمي من شيوخها، فحرص على لقاء جماعة من العلماء والمحدثين الفقهاء الذين أخذ عنهم، وتلمذ على يد شيخه الأندلسي أبي بكر الفهري الطرطوشي (٤٥١-٥٢٠هـ/١٠٥٩-١١٢٥م)، حيث لازمه أكثر من خمس سنوات ما بين القدس والإسكندرية، وسمع منه، وتلقى عنه العديد من العلوم حتى بزغ نجمه، وذاع صيته في الجدل وعلم الكلام، وأصبحت الأقطار ترتو إليه، واحتل مركزه في صفوف العلماء، واعترف له للشيوخ بالفضل والمزية^(٧٢).

وقد أشار ابن العربي إلى أهمية مجلس الطرطوشي العلمي، وتأثيره عليه وعلى سواه من المترددين على مجالس العالم والمعرفة في القدس آنذاك، فقال عن لقائه به: فشاهدت هديه، وسمعت كلامه، فامتألت عيني وأنتى منه..... وانفتح لي به إلى العلم كل باب، ونفعني الله به في العلم والعمل، وبسر لي على يديه أعظم أمل،

(٧٠) ابن العربي: فتون لتأويل، ٤٣٢-٤٣٦. وراجع: سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ١٩-٢٠.

(٧١) ابن العربي: فتون لتأويل، ص ٤٣٢-٤٣٥.

(٧٢) ابن العربي: فتون لتأويل، ص ٤٣٥. وراجع: سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ٢٧.

فاتخذتُ بيت المقدس مباءة، والتزمتُ فيه القراءة، لا أقبل على دنيا، ولا أكلّم إنسيا، نواصل الليل والنهار فيه، وخصوصاً بقية السلسلة....^(٧٣).

وقد طالت إقامة ابن العربي ببيت المقدس أربعين شهراً - أي: ما يزيد عن ثلاثة أعوام - حيث وجد القدس بيئة صالحة للتعلّم والتحصّل، كما وجد بها مدارس للشافعية والحنفية، كما أنّ الشيوخ والعلماء يعقدون مجالس العلم والمناظرة بين أصحاب المذاهب المتعددة، والمناظرة بين أصحاب الديانات المختلفة، لقد أغراه هذا الجو العلمي في القدس، فأقبل على علوم عصره بِلتهِمها، فاستوفى علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، الأمر الذي من أجله اتخذ قراراً تأجيل رحلته إلى الحج، رغم إلحاح والده عليه^(٧٤).

المناظرات الحسنية في القدس:

أشار ابن العربي أكثر من مرة إلى حضوره التناظر بين الطوائف المختلفة، وتردده على المدارس الموجودة في القدس، وحلقات العلم فيها، من ذلك - مثلاً - قوله: "وحيث صليت بالمسجد الأقصى، فاتحة دخولي له، عمدت إلى مدرسة الشافعية بباب الأسباط، فألفت بها جماعة من علماتهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحيى.... وهم يتناظرون على عانتهم....."^(٧٥)، وكذلك قوله: "وأدخل إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف، لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة ولي، وتقاة عدو"^(٧٦).

(٧٣) ابن العربي: قنون التأويل، ص ٤٣٥، د. إحسان عباس: رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قنون التأويل - مجلة الأبحاث - ج ٢-٣، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٨٠-٨١. وقبة السلسلة: قبة صغيرة تقع إلى شرق مسجد الصخرة، وهي على مثله. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ١٧٠/٤. مجير الدين الحنبلي: الأئمة الجليل في تاريخ القدس والخليل - منشورات المطبعة الحيدرية - النجف، ١٩٦٨م، ١٨/٢.

(٧٤) ابن العربي: قنون التأويل، ص ٤٣٥-٤٣٨.

(٧٥) المصدر السابق، ص ٤٣٣-٤٣٤.

(٧٦) انظر: د. إحسان عباس: رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قنون التأويل، ص ٨١. ابن العربي: قنون التأويل، ص ٤٣٦.

ومن جملة المناظرين الذين أشار إليهم في مدرسة الشافعية التي تقع بباب الأسباط، شيخ الشافعية بالمسجد الأقصى أبو الفضل عطاء المقدسي^(٧٧)، والقاضي يحيى بن علي المعروف بابن الصانع، وقاضي القضاة مجلي بن جميع المخزومي^(٧٨).

ويعود الفضل إلى ابن العربي في إشارته إلى المدرسة الحنفية التي تدعى بمدرسة أبي عقبة ببيت المقدس، والتي لم نسمع بوجودها من مصدر آخر^(٧٩)، فقد ذكرها في ثلاثة من كتبه^(٨٠)، وأشار إلى المناظرات التي كانت تجري فيها، وأن شيخها كان يدعى القاضي أبو الفضل الريحاني^(٨١)، وأورد مناظرة جرت أمامه بين هذا القاضي وعالم غريب دخل إلى المدرسة في أحد أيام الجمع، يدعى الصاغانئي^(٨٢)، وابن العربي بذلك يوثق لأقدم المعاهد العلمية التي كانت موجودة في القدس قبل احتلال الصليبيين لها، وتكميرهم لتلك المراكز العلمية المهمة.

ويظهر كذلك من كلامه أن للقدس كانت مركزاً لنشاط المدارس الإسلامية المختلفة، وملتقى المتناظرين المسلمين وغير المسلمين، فقد ذكر أنه حضر مناظرات لعلماء من ملل مختلفة^(٨٣)، كما أشار إلى وجود ثمان وعشرين حلقة لطلب العلم في المسجد الأقصى^(٨٤)، وإلى وجود عدد كبير من العلماء الوافدين على المدينة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي^(٨٥).

كما نأظر هو بنفسه بعض أحبار اليهود، وجرت بينه وبين الباطنية الإسماعيلية مناظرة عظيمة، تحدث عن صعوبتها فقال: "وهي كانت الشدة الرابعة من شدائد

(٧٧) انظر: القاضي مجير الدين الحنبلي: الأئمة الجليل في تاريخ القدس والخليل، ١/ ٢٩٨. ابن العربي: فتاوى التلويح، ص ٤٣٦.

(٧٨) د. إحسان عباس: "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، بحث سابق، ص ٨٠. ابن العربي: فتاوى التلويح، ص ٤٤٠.

(٧٩) انظر: كامل جميل الصليبي: معاهد العلم في بيت المقدس - جمعية المطابع التعاونية - عمان، ١٩٨١ م، ص ٣١.

(٨٠) انظر: "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، بحث سابق، ص ٨٣. ابن العربي: أحكام القرآن، ١/ ١٥٢، وقد ذكرها في هذا الكتاب باسم "مدرسة أبي عقبة" ولطه تصحيف، حيث ذكرت في بقية المصادر باسم "مدرسة أبي عقبة". ابن العربي: العواصم من القواصم: تحقيق: د. عمار الطائي - مكتبة دار التراث - القاهرة - د.ت، ص ٤٥. ابن العربي: فتاوى التلويح، ص ٤٤١.

(٨١) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٨٣. ابن العربي: فتاوى التلويح، ص ٤٣٩، ٤٤١.

(٨٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ١/ ١٥٢. فتاوى التلويح، ص ٤٤١-٤٤٢.

(٨٣) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٦٥، ٨١، ٨٢.

(٨٤) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٤٥.

(٨٥) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٦٥، ٨٢.

عمري التي أنقذني الله منها.....^(٨٦)، كما ناظر بعض رجالات الشيعة، وخاص معارك كلامية مع الكرّامية^(٨٧) والمعتزلة وغيرهم، وكانت له الحجة في كل مناظراته، فخرج منها ظافراً منصوراً^(٨٨).

العلوم والمعارف في القدس:

وكانت العلوم الشائعة في فترة زيارته للقدس هي: علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، حيث يشير إلى اطلاعه عليها هناك^(٨٩)، كما يذكر أيضاً أنه اطلع على كتاب المدونة بالطريقة القبروتية، التي تقوم على التنظير والتمثيل، والطريقة العراقية التي تقوم على الاستنباط واستخراج العلل ومعرفة الدليل، ويبيّن أن دراسة المدونة - وهي الأصل الثاني للفقه المالكي بعد موطأ مالك - في مدينة القدس، كانت تقوم على الجمع بين هاتين الطريقتين^(٩٠).

واهتم ابن العربي بدراسة كتب الحديث في القدس، وأسهم في نقلها إلى المغرب والأندلس، من ذلك مثلاً: كتاب المصباح والداعي إلى الفلاح في حديث رسول الله، تأليف أبي الفتح نصر بن إبراهيم النابلسي المقدسي، توفي سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦-١٠٩٧م)، الذي سمعه منه بلفظه، وحذّث به أحد تلامذته (علي بن خلف بن ذي النون العمسي)، الذي سمعه بدوره أيضاً عن مؤلفه في القدس^(٩١)، واستمرت رولية هذا الكتاب في الغرب الإسلامي لمدة ليست بالقصيرة، حتى وردت

(٨٦) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٤٨.

(٨٧) الكرّامية: هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام المجسّتي (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) يوافقون أهل السنة في إثبات الصفات، ولكنهم يبالغون في ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم، وكذلك يوافقون السلف في إثبات قدر القول بالحكمة، ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله بالعلل. انظر: ابن حزم: الفصل في المائل والأهواء والتملح - دار المعرفة - بيروت - ط ٢، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م، ٤/ ٤٥، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٨٨) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٥٤. وراجع: سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ٢٣.

(٨٩) رحلة ابن العربي إلى المشرق، ص ٨٢. ابن العربي: قانون التلويل، ص ٤٣٨.

(٩٠) رحلة ابن العربي إلى المشرق، ص ٦٥، ٨٢. ابن العربي: قانون التلويل، ص ٤٣٨. وانظر: عبد الجليل حسن عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصورين الأيوبي والمملوكي - مكتبة الأقصى، ١٩٨٠ م، ص ٣٢.

(٩١) ابن العربي: قانون التلويل، ص ٤٣٤، ٤٤٤. وراجع الحاشية رقم ٥ من ص ٤٤٤.

ضمن ما سمعه ابن خير الإشبيلي في فهرسته عن شيوخه في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي^(١٩)

ويتبين مما سبق أن ابن العربي قضى أكثر من ثلاث سنوات في القدس - كما أشرنا من قبل - رافق فيها الشيخ الطرطوشي في حلقاته العلمية، وزار مدارس القدس، ومعاهدها، ومشايعها، وأخذ العلم عنهم. ومن المرجح أن هذه السنوات الثلاث هي التي تقع بين سنتي ٤٨٦ و ٤٨٩ هـ، لأنه غادر في السنة الأخيرة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وبعد ذلك رجع مرة ثانية إلى بغداد، حيث لقي فيها أبا بكر الشاشي، وأبا حامد الغزالي، وغيرهما من العلماء والأبهاء، ثم غادر إلى مصر، ومنها إلى الأندلس، حيث عاد إليها يعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، وتوفي سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م^(٢٠).

ثانياً: المعالم الأثرية في القدس كما شاهدها ابن العربي:

برغم اشتغال ابن العربي بالدرس والتحصيل وطلب العلم والمعرفة، والنهل من العطاء الحضاري المتميز لهذه المدينة المقدسة، إلا أنه حرص خلال جولاته، على زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وتسجيل مشاهداته ولقطاعاته، والوقوف على الآثار، وقد سجل لنا في زيارته مشاهد حية للعديد من الأماكن الأثرية التي زارها، واهتم اهتماماً بالغاً بوصف كل ما شاهده، فكان دقيق الوصف، جيد الملاحظة، مستغرق للفكر فيما يشاهده، ويظهر هذا من دفته في حديثه عن الآثار التي استمتع بمشاهدتها، فلم يكن وقوفه أمامها وقوفاً عابراً، بل وقوف المتأمل المدقق المترث، فتشعر وكأنه التقط لها صورة فوتوغرافية كاملة المعالم، واضحة المشهد، بحيث لا يغيب عنك شيء من تفاصيلها وجمالها وعظمتها، فكان من أهم هذه المعالم:

- **المسجد الأقصى** لا شك أنه أكثر الأماكن التي ارتادها ابن العربي، حيث الحفقات العلمية ومجالس العلماء التي هي المطلب الأسمى له في رحلته تلك، ولكن الجديد هنا أنه يمدنا بمعلومات مؤكدة عن مكان هذا المسجد، فيقول: "هذا أمر مستفيض متفق عليه بين الصحابة أن المسجد الأقصى على شرف من الأرض، في سورة

(١٩) ابن خير الإشبيلي: فهرسة ما رواه عن شيوخه - نشر: فرانشيسكو قديرة إي زيدن، وخليان ريبيرة طرابلس - سرقسطة، ١٨٩٣ م، وأعلنت نشره في بيروت - دار الأفاق الجديدة، ١٩٧٩ م، ص ١٥٩.

(٢٠) ابن بشكوال: كتاب الصلاة - لدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة، ١٩٦٦ م، ٥٩١/٢. ابن خلكان: وفیات الأعيان وأنباء الزمان - تحقيق: د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت، ١٩٦٨ م، ٢٩٦/٤.

الشرقي باب التوبة والرحمة، يقول الناس إنه الباب الذي أخبر الله عنه بقوله (باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)، يليه خندق يقال له خندق جهنم، وعليه يُنصب الصراط، وفي ضفة الوادي شرقًا السامرة، وهي أرض المحشر، فيها مسجد عمر بن الخطاب، صلى به حين افتتحها، وقال: هذه أرض المحشر^(١٤).

• **قبر يوسف عليه السلام** - حيث زاره وقضى فيه عدة ليالي، فقال: "لا جرم شأهت قبره في قبلة قبور آباه إبراهيم وإسحاق وزوجاتهم في قبلة الحرم الذي فيه هذه القبور، زناه مرارًا، ونكرنا الله فيه، وبتنا ليالي آمنين عنده والحمد لله"^(١٥)، وقال عنه أيضًا: "شاهدناه سنة سبع وثلاثين، وجاورنا فيه أعوامًا وأيامًا آمنين في نعم فاكهين، وعلى الدرس والمناظرة متقابلين، وهو في قرية جيزون"^(١٦) التي كانت لإبراهيم الخليل، بينها وبين المسجد الأقصى ستة فراسخ في سفح الجبل الذي كان فيه بيت رامة متعبد إبراهيم الخليل عليه السلام المشرف على مدائن لوط..."^(١٧).

ولم يكتف ابن العربي بذلك، بل يمضي في جولته الأثرية ليحدثنا عن قبور بقية آل يعقوب، فيقول: "وفي وسط القرية (يقصد قرية جيزون المذكورة آنفاً) بنيان مرصوص من حجارة عظام، سورًا عظيمًا، في داخله مسجد، في الجانب الغربي منه مما يلي القبلة إسحاق (يبنى قبر إسحاق عليه السلام)، ويلي في الجانب المذكور إبراهيم الخليل، ويلي في الطرف الجنوبي من الجانب الغربي يعقوب على نسبة متماثلة، وفيما يقابلها من الجانب الشرقي قبور أزواجهم على الاعتدال، على كل قبر حجر عظيم واحد، له الطول والعرض والعقب، حسما بيناه في كتابي ترتيب الرحلة..."^(١٨).

ثم يعود ابن العربي ليحدد بدقة موقع قبر يوسف عليه السلام، ويصف لنا مدى العناية والاهتمام به، حيث كان له قِيَمٌ مسئول عن صيانتها، وكانت له أم تنوب عنه في صيانة القبر إن غاب لأي عارض. ويؤكد على أن هيئة قبر يوسف وشكله الخارجي كهنية بقية قبور أسرته دون تمييز، فيقول: "وفي الجانب القبلي منه خارج هذا الحرم

(١٤) ابن العربي: عارضة الأحوذ، ١٣/ ٢٧٧.

(١٥) ابن العربي: عارضة الأحوذ، ٤/ ٢٧٤.

(١٦) ذكر ابن العربي في موضع آخر من كتابه أحكام القرآن هذا الاسم على أنه باب من أبواب دمشق، حيث قال عنها: "ولها باب جيزون بن سعد بن عبدة، وعنده القبة العظيمة والميقات لمعرفة الساعات...". انظر: ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٣٩٢.

(١٧) ابن العربي: أحكام القرآن، ٣/ ٧٣-٧٤.

(١٨) المصدر السابق، ٣/ ٧٤.

قبر يوسف منتبذاً، كان له قيم طرطوشي زينة، وله أم تتوب عنه، وهينة قبر يوسف كهينة قهورهم، وهذا أصح الأقاويل في موضع قبره.....^(١٠٠).

• **قبر يونس - عليه السلام** - حيث كان يقع في طريقه من المسجد الأقصى إلى قبر الخليل، وتلقى الكثير من العلم عنده، وقد أشار إلى ذلك فقال: قصدت قبره مراراً بقرية جلحون في مسيري من المسجد الأقصى إلى قبر الخليل، وبت فيه، وتقربت إلى الله بمحبته، ودرسنا كثيراً من العلم عنده.....^(١٠١).

• **باب حطة**، وهو الباب الثامن من أبواب المسجد الأقصى من جهته القبليّة، دخله ابن العربي سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٢م، فقال: "هو باب المسجد الثامن، وهو من جهة القبلة معلوم مذكور، دخلته سنة ست وثمانين، وسجدت وخضعت، وقلت لا إله إلا الله، اللهم احطط عني ذنبي وأخط لي، وبقيت فيه أعواماً، وكل مرة أكرر هذا الكلام، وأكثر من الدخول والقول: سمعنا وأطعنا، والحمد لله رب العالمين"^(١٠٢).

• **مسجد عمر بن الخطاب** زاره ابن العربي وصلى فيه، وقال عنه: روي عن عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس، وقب على الطور بشرقيه وقال: هذه أرض المحشر، واتخذ به مسجداً، **رأيتُه وصليت فيه** ما لا أحصى، بينه وبين المسجد وإد يسمي وادي جهنم، وللمسجد باب يقال له باب التوبة والرحمة، يقال إنه الباب الذي باطنه للرحمة، وظاهره من قبله العذاب.....^(١٠٣).

• **الحاندة بطور زيتا** تعد صخرة المائدة من أروع الأماكن الأثرية التي وصفها ابن العربي في جولاته الأثرية، حيث قال عنها: "شاهدت المائدة بطور زيتا"^(١٠٤) مراراً، وأكلت عليّها ليلًا ونهاراً، وتكررت اللذة - منبحاته - فيها سراً وجهاراً، وكان ارتفاعها أسفل من القامة بنحو الشبر، وكان لها درجتان قلبيّان وجوقيّان، وكانت صخرة صنداء لا تؤثر فيها المعاول، فكان للناس يقولون: مسبت صخرة

(١٠٠) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١٠١) ابن العربي: أحكام القرآن، ١٩٧/٢.

(١٠٢) ابن العربي: عارضة الأحوذ، ٧٨/١١.

(١٠٣) ابن العربي: عارضة الأحوذ، ٤٦/٩، ٢٧٧/١٣.

(١٠٤) طور زيتا: هو جبل الطور المقدس، ويُعرف في اصطلاح اليوم بجبل الزيتون، وتقع عليه قرية

الطور، وهو إلى الشرق من قبة السلسلة الواقعة إلى شرق مسجد الصخرة، واسمه مأخوذ من

شجر الزيتون الذي كان موجوداً عليه بكثرة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤/١٧٠.

ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/٢. مجير الدين الحنبلي: الأوس الجليل في تاريخ القدس

والخليل، ١٨/٢.

إِذْ مُسِخَ أَرْبَابُهَا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ، وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ كَانَتْ فِي الْأَصْلِ صَخْرَةً قُطِبَتْ مِنَ الْأَرْضِ مَحَلًّا لِلْمَائِدَةِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَا حَوْلَهَا حِجَارَةٌ مِثْلُهَا، وَكَانَ مَا حَوْلَهَا مَحْفُوفًا بِقُصُورٍ، وَقَدْ نَحَتَ فِي ذَلِكَ الْحَجَرِ الصُّلْبُ بَيُوتٌ، أَبْوَابُهَا مِنْهَا، وَمَجَالِسُهَا مِنْهَا مَقْطُوعَةٌ فِيهَا، وَحَتَايَاهَا فِي جَوَانِبِهَا، وَبَيُوتٌ خِدْمَتُهَا قَدْ صُوِّرَتْ مِنَ الْحَجَرِ، كَمَا تُصَوَّرُ مِنَ الطِّينِ وَالْخَشَبِ، فَإِذَا دَخَلْتَ فِي قَصْرِ مِنْ قُصُورِهَا، وَرَدَدْتَ الْبَابَ، وَجَعَلْتَ مِنْ وَرَائِهِ صَخْرَةً كَثَمَنَ دِرْهَمٍ، لَمْ يَفْتَحْ إِلَّا بَعْدَ صَبِّ الْمَاءِ تَحْتَهُ وَالْإِكْتَارَ مِنْهُ، حَتَّى يَسِيلَ بِالتَّرَابِ وَيَتَفَرَّجَ مُتَفَرِّجُ الْبَابِ، وَقَدْ مَاتَ بِهَا قَوْمٌ بِهَذِهِ الْعِلَّةِ، وَقَدْ كُنْتُ أَهْلُو فِيهَا كَثِيرًا لِلدَّرْسِ، وَلَكِنِّي كُنْتُ فِي كُلِّ حِينٍ أَكْتَسُ حَوْلَ الْبَابِ مَخَافَةً مِمَّا جَرَى لِعُزِّي فِيهَا، وَقَدْ شَرَحْتُ لَمَرْأَا فِي كِتَابِ تَرْكِيبِ الرَّحْلَةِ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا^(١٠١).

• **محراب داود عليه السلام** وصف ابن العربي أيضًا محراب داود - عليه السلام - بالدفقة المعهودة عنه فقال: «شاهدت محراب داود - عليه السلام - في بيت المقدس بناءً عظيمًا من حجارة صلبة لا تؤثر فيها المعاول، طول الحجر خمسون ذراعًا، وعرضه ثلاثة عشر ذراعًا، وكلما قام بناؤه صغرت حجراته، ويرى له ثلاثة أسوار؛ لأنه في السحاب أيام الشتاء كلها لا يظهر لارتفاع موضعه وارتفاعه في نفسه، له باب صغير، ومنزجة غريضة، وفيه الدور والمساكن، وفي أعلاه المنجد، وفيه كوة شرقية إلى المسجد الأقصى في قدر الباب... وليس لأحد في هذه حيلة»^(١٠٢).

• مقارنة بين حال أهل القدس وأهل الأندلس وموقفهم من الثورات:

خلال الجولة الأثرية لابن العربي، في ربوع القدس، تثير انتباهه بعض المواقف التي تفرض عليه المقارنة بين أهل بلده الأندلسيين وأهل القدس، وموقفهم من الثورات والاضطرابات التي تحدث بين الحين والآخر، فيصف مشهدًا ثائرًا على واليه، ويقارن بين حال أهل القدس وموقفهم من الثورة، وحال أهل الأندلس وموقفهم من هذه الفتن لو حدثت في بلادهم، فيقول: «ورأيت فيه - أي: محراب داود عليه السلام - غريبة الدهر، وذلك أن ثائرًا ثار به على واليه، وامتدح فيه بالقوت، فحاصره، وحاول قتاله بالشباب مددة، والبلد على صغره مستمر على حاله، ما أغلقت لهذه الفتنة سوق، ولا سار إليها من الغائبة بشر، ولا برز للحال من المسجد الأقصى معكف، ولا انقطعت مناصرة، ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة، ولو كان بعض هذا في بلادنا لاضطربت نار»

(١٠١) ابن العربي: أحكام القرآن، ٢/ ٤-٥.

(١٠٢) المصدر السابق، ٦/ ٤.

الحرب في البعيد والقريب، وانقطعت المغاليش، وغلقت الدكاكين، وبطل التعامل لكثرة فضولنا وقلة فضولهم^(١٠٦).

• وصفه لنساء نابلس: تجول ابن العربي في ربوع القدس وشرق الأردن، فزار أكثر من ألف قرية ومدينة، منها مدينة نابلس، ووصف نساءها قائلا: 'ولقد دخلت نيفا على ألف قرية من بريّة، فما رأيت نساء أصون عيالا، ولا أعف نساء من نساء نابلس... فإني ألفت فيها شهرا، فما رأيت امرأة في طريق نهارا، إلا يوم الجمعة، فإتتهن يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهن، فإذا قضيت الصلاة، وإتقلبن إلى منازلهن، لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى، وسائر القرى ترى نساؤها متبرجات بزينة وعظلة^(١٠٧)، متفرقات في كل فتنه وعضلة^(١٠٨)، وقد رأيت بالمسجد الأقصى عقالف ما خرجن من مكشفتهن حتى استشهدن فيه^(١٠٩)'.

كلمة ختامية

لقد اشغل القاضي أبو بكر بن العربي في القدس بطلب العلم والمعرفة، والنهل من العطاء الحضاري المتميز لهذه المدينة المقدسة، واضعا نصب عينيه تكوين مشاهداته وانطباعاته وملاحظاته بدقة متناهية، فلم يترك شيئا مما حدث له أو رآه إلا وسجله بعناية، مما أعطى مشاهداته وانطباعاته قيمة تاريخية وحضارية مهمة، فأصبحت رحلته إلى القدس سجلا حافلا بالعديد من المعطيات العلمية والثقافية والأثرية في آن واحد، تكشف لنا بوضوح عن التطور العلمي والثقافي لتلك المدينة التاريخية الثليدة، وتمكن المشتغلين بالآثار من الوقوف على التطور الأثري للعديد من المنشآت في القدس، وما أدخل عليها من تعديلات وترميمات، كما تكشف لنا عما ازدادت به المدينة من أساطين العلم وجهانته، خلال هذه الفترة من تاريخ القدس، في العصر الوسيط.

ومن الجدير بالملاحظة أن رحلة ابن العربي تعد رواية شاهد عيان للأحداث التي جاءت فيها، وشهادة العيان هي قمة ما يصبو إليه المؤرخ لتسجيل الروايات التاريخية، وقد دون خلال هذه الرحلة الكثير من المعلومات التي تعد وثائق من الدرجة الأولى، لما تميزت به هذا الرحالة من دقة الملاحظة، وصريح العبارة، وسلاسة

(١٠٦) السابق، ٧/٤.

(١٠٧) عظلة: عارية من الزينة.

(١٠٨) عضلة: شجرة تشبه الدفلي.

(١٠٩) ابن العربي: أحكام القرآن، ٣/٥٦٩.

الأسلوب، فكما كان فقيهاً ومفسراً، كان أيضاً أديباً يمتلك ناصية البيان واللغة، إذ إنه اعتمد أسلوباً مرتناً أثبت فيه تمكنه من آليات الرصد والتوصيف، فلم يدع تفصيلاً بسيطاً يغيب عنه، ولم يغفل شيئاً مما وقعت عليه عينه، فكانت رحلته من المصادر الأساسية لتاريخ كل مدينة أو قرية مر بها، كما تعد مصدراً مهماً للباحثين في مجالات التاريخ والاجتماع، والحضارة الإسلامية، خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين.



قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر:

- * ابن الأثير (أبو بكر محمد بن عبد الله، ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م):
- المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصوفي - سلسلة المكتبة
الأندلسية (٧) - دار الكتّاب العربي للطباعة والنشر (الهيئة المصرية العامة
للكتاب حالياً) - القاهرة - ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.
- * ابن بشكوال (أبو للقاسم خلف بن عبد الملك، ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م):
- الصلوة - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة - سلسلة
المكتبة الأندلسية (٤)، ١٩٦٦ م.
- * ابن نغري بردي (جمال الدين يوسف الأتليكي، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م):
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية
للتأليف والنشر - القاهرة - (د.د.ت.).
- * ابن حزم الظاهري (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م):
- الفصل في الملئ والأهواء والنحل - دار المعرفة - بيروت - ط
٢، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.
- * الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م):
- معجم البلدان - دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٩٩ هـ /
١٩٧٩ م.
- * ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م):
- المقدمة - تحقيق وتعليق: د. علي عبد الواحد وافي - مكتبة
الأسرة - القاهرة - ٢٠٠٦ م.
- * ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م):
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق: د. إحسان عباس
- دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٨ م.
- * ابن خير الإشبيلي (أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأسوي، ت
٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م):
- فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب
العلم وأنواع المعارف - وقف على نسخها وطبعها ومقابلتها على أصل
محفوظ في خزنة الإسكوريال للشيخ / فرانشسكة قدارة زبدین، وتلميذه/
خليان ربارة طراغوه - سلسلة ذخائر التراث العربي - منشورات دار الأفاق
الجديدة - بيروت - ط ٢ منقحة ومنقطة، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.

*- الضبي (أحمد بن يحيى، ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م):

- بغية الملتزم في تاريخ رجال أهل الأندلس - دار الكتب العربي
(للهيئة المصرية العامة للكتاب حالياً) - القاهرة - سلسلة المكتبة
الأندلسية (٦) - ١٩٦٧ م.

*- ابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٩ م):

- قانون التناول - تحقيق: محمد السليماني - منشورات دار القبلة
للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة علوم القرآن ببيروت - ط١، ١٤٠٦
هـ / ١٩٨٦ م.

- أحكام القرآن - تحقيق: محمد عبد القادر عطا - دار الكتب
العلمية - بيروت - ط٣، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.

- العواصم من القواصم - تحقيق: د. عمار الطاطبي - مكتبة دار
الثراث - القاهرة - د.ت.

- عارضة الأخوذي بشرح صحيح الترمذي - دار الكتب العلمية -
بيروت - ط١، ١٩٩٥ م.

- شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان - تحقيق: د.
محمد يعلى - ضمن كتاب: ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب
الإسلامي (كتاب الأنساب لابن عبد الحليم ق ٨ هـ / ١٤ م - كتاب مفخر
البربر لمؤلف مجهول - كتاب شواهد الجلة لابن العربي ٥٤٣ هـ / ١١٤٩
م) - سلسلة المصادر الأندلسية (٢٠) - المجلس الأعلى للأبحاث العلمية -
الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي - مدريد - ١٩٩٦ م.

*- مجير الدين الحنبلي (أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد العلوي ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م):

- الأئس الجليل في تاريخ القدس والخليل - منشورات المطبعة الحيدرية
- النجف، ١٩٦٨ م.

*- المقرئ (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م):

- نفع الطبيب من غصن الأندلس الرطوب وذكر وزيرها لسان الدين ابن
الخطيب - تحقيق: د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ط ١، ١٩٦٨ م.

*- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ت ٧١١ هـ /
١٣١١ م):

- لسان العرب - دار صادر - بيروت - ١٩٥٥ م.

ثانياً المراجع العربية والمترجمة:

*- د. أحمد رمضان أحمد:

- الرحلة والرحالة المسلمون - دار البيان العربي - جدة، د. ت

* أخطايوس كراتشكوفسكي:

- تاريخ الألب الجغرافي العربي - ترجمة: د. صلاح الدين هاشم -
لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، ١٩٦٢ م.

* حسني محمود حسين:

- ألب الرحلة عند العرب - دار الأندلس للطباعة والنشر
والتوزيع - بيروت - ط٢ مزيّدة ومنقّحة، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

* د. حسين مؤنس:

- الجغرافية والجغرافيون في الأندلس - منشورات المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم - مدريد، ١٩٨٦ م.

* حسين محمد فهمي:

- ألب الرحلات - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب -
الكويت، ١٩٨٩ م.

* زكي محمد حسن:

- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى - دار الرائد العربي -
بيروت، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

* سعيد أعراب:

- مع القاضي أبي بكر بن العربي - دار الغرب الإسلامي -
بيروت - ط٢، ٧، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٧ م.

* عبد الجليل حسن عبد المهدي:

- الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصورين الأيوبي
والمملوكي - مكتبة الأقصى - ١٩٨٠ م.

* كامل جميل الصلبي:

- معاهد العلم في بيت المقدس - جمعية المطابع التعاونية - عمان،
١٩٨١ م.

ثالثاً. الدوريات:

* د. إحسان عباس:

- "رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها فقون التأويل" -
مجلة الأبحاث (ج ٢-٣) - بيروت، ١٩٦٨ م.

* محمد أحمد العقيلي:

- "قبيلة بني شعبة" - مجلة العرب (ج ١١-١٢) - دار اليمامة -
الرياض، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.

الإسلام وتنوع الهوية دراسة في الأبعاد الاجتماعية والثقافية والسياسية - الأندلس نموذجاً -

د. عير زكريا سليمان بيومي (*)

الهوية الأندلسية :

من المعروف أن الهوية هي مجموعة من الخصائص والصفات والمميزات التي تشكل شعباً أو مجتمعاً بعينه وتميزه عن باقي الشعوب أو المجتمعات، والهوية الأندلسية بدأت مع دخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وتسميتهم لها بالأندلس، وظلت باقية إلى الآن على الرغم من زوال الحكم الإسلامي من الأندلس، لتظلها في نفوس أتباعها مع اختلاف عروقهم وأصولهم وماضيهم، لأنهم عاشوا حاضراً مشتركاً وحلموا بمستقبل واحد^(١). ومن هنا جاءت القومية التاريخية الأندلسية التي تجسدت من خلال الخصوصية التي سعى إليها الأندلسيون واستطاعوا تحقيقها.

وهذا البحث يحاول إلقاء الضوء على العوامل التي ساعدتهم على تحقيق هذه الهوية، والمعوقات التي واجهتهم وكيف استطاعوا التغلب عليها، أو التأقلم معها قدر الإمكان، حتى وصلوا في نهاية الأمر إلى هوية تتحدى كثير من الظروف وأكدت حرصهم على البقاء، من خلال العديد من المنظمات والجمعيات والأحزاب التي أصبحت جرساً يذيق باسم الأندلس.

الإسلام والهوية السياسية للأندلس

على الرغم من أن جل الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب، تمت في عصر الخلافة الأموية وهو أمر لا يستطيع أحد إنكاره عليها، إلا أن الحكومة الأموية لم تسمح لترسيخ قواعد الإسلام في الأقاليم المفتوحة، ولم تحدد سياسة بعينها تجاه هذه الأقاليم، التي لم تتل منها اهتماماً، وتركزت ذلك للولاة الذين أعطتهم قدراً من الحرية في إدارة شئون أقاليمهم وحل مشكلاتها مقابل مبلغاً من المال يرسله الولاة إلى الخلافة. وهذا ما حدث في الأندلس بالفعل، حيث وجد الوالي نفسه

(*) مدرّس التاريخ والحضارة الإسلامية كلية الآداب - جامعة سوهاج

أمام مجتمع متعدد الديانات والهويات والأجناس، وكان عليه أن يؤلف هذا المجتمع حتى يستطيع أن يحكم البلاد بشكل آمن مستقر. وكانت مهمة استتباب الأمن وتحقيق الاستقرار مهمة صعبة للغاية، نتيجة للصراعات السياسية التي عاشها الأندلس في ذلك الوقت، متخذة شكلاً عصبياً أو عنصرياً أو كلاهما معاً، وهي في الحقيقة طمعاً في السيادة والسلطة بما تقدمه من مميزات اقتصادية واجتماعية. ولم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة التي كانت تطفو على السطح في الأندلس، بل هناك مشكلات اقتصادية برزت في تعدد مسئوليات الوالي ومنها مسؤوليته حول الإتفاق على إقليمه من واردات هذا الإقليم، وإرساله قدر من المال للخلافة سنوياً^(١)، كما كان عليه أن يقوم بإنشاء مدن ومساجد ومؤسسات دينية ؛ كمراكز ثقافية لنشر الدين الإسلامي وترسيخ تعاليمه، وكذلك كان عليه أيضاً أن ينفق على الجيش لاستكمال مهمة الجهاد وراء جبال الألب، والتوغل في القارة الأوروبية الذي لم يتوقف إلا بعد هزيمة موقعة بلاط الشهداء (١١٤هـ / ٧٣٢م).

وقد حاول الولاة، بإمكانياتهم الضعيفة، تحقيق التوازن بين كل هذه الأمور وتحدي المشكلات، والحقيقة أنهم لم يجدوا عناء في إنجاز مهمتهم الأساسية الممثلة في نشر الدين الإسلامي، حيث **إنهم باحترامهم للعهود والمواثيق**، مثل اتفاقية أو معاهدة تدمير التي عقدت في شرق الأندلس، بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وتومير حاكم هذا الإقليم، ظلت موضع احترام من المسلمين^(٢)، كما أنهم بتسامحهم مع أهل الذمة وبترك الحرية لهم في كل أمورهم الحياتية، قد قدموا نموذجاً طيباً دفع كثيرين للدخول في الدين الإسلامي. إضافة إلى الدور الذي لعبه الفقهاء والعلماء في نشر الإسلام، كذلك تبني الولاة فكرة الجهاد والحفاظ على كيان الدولة الجديدة، وتتبع القوط إلى الشمال، وكلها أمور رسخت قواعد الإسلام في الأندلس من جهة، ونالت إعجاب الأسبان الذين تكالبوا على الدين الإسلامي من جهة أخرى.

ولكن الصراعات المستمرة في الأندلس بين عرب الشام وعرب الحجاز، وبين العرب والبربر، وبين عنصري العرب القيسية واليمانية^(٣)، كلها أمور أضطعت من الكيان السياسي الجديد وعرقلت مسيرة الولاة نحو تحقيق الهوية السياسية في الأندلس، خاصة وأن الولاة أنفسهم وقعوا فريسة لهذه الصراعات التي اشتركوا فيها حفاظاً على مصالحهم السياسية.

وهكذا فإن الاضطرابات السياسية التي عاشتها الأندلس كانت في حاجة إلى تغيير جذري ينهي هذه الصراعات، ويحقق العدل والمساواة، خاصة وأن الشرق شهد نهاية الخلافة الأموية، وقيام الدولة العباسية وانشغالها بتوطيد أركانها وتتبع الأمويين للقضاء عليهم.

وكان من الطبيعي أن يمر الأندلس بهذه الفترة التي تعتبر مرحلة انتقالية بين حكومات ولت بأنظمتها ومعتقداتها وتوجهاتها وثقافتها، وبين الحكم الإسلامي الذي أحدث تغييراً جذرياً في كل ذلك بما قدمه من إصلاحات وتغيرات في كل جوانب الحياة. وإذا كان الاضطراب السياسي الذي عاشته الأندلس في عصر الولاة سبباً رئيسياً في نهاية هذا العصر فلم تكن بمنأى عن عبد الرحمن بن معاوية الذي فر من المشرق بعد تهيار الخلافة الأموية^(١) وسار في رحلة طويلة حتى أقام في المغرب الأقصى يتتبع ويراقب شئون الأندلس، ويعتبر على أحوالها السياسية عن كثب، ومعه بقايا البيت الأموي ومواليه الذين عبروا معه إلى الأندلس حيث هزم بهم الولاة، وأقام حكماً جديداً مستنداً فيه إلى مبادئ الحكم الإسلامي في إرساء العدل والمساواة والتسامح مع الآخر، وترك الحريات الدينية ما لم تتعرض للكيان السياسي. وبرغم عدائه للعباسيين، الذين قضوا على دولة أبيه وأجداده، إلا أنه لم يتخذ لنفسه لقب خليفة، ولكنه اكتفى بلقب الأمير حفاظاً على وحدة الخلافة الإسلامية، خاصة وأن المسلمين في ذلك الوقت لم يألوا تعدد الخلافت وربطوا شرعية الحكم بالخلافة التي هي رمز الوحدة السياسية والدينية.

ولعل كثرة ما واجه الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨م) من مشكلات - وثورات حاولت الإطاحة بنظامه الجديد معتمدة على القوى الخارجية المناهضة لها - جعلته يعتمد على عناصر الموالى والصقالبة والمتطوعين من البربر في الجيش، كما اهتم في توطيد دعائم دولته بتحصين الثغور، وإنشاء قواعد إستراتيجية دفاعية لحماية الشمال. و مما ساعد على تقوية الدولة أن سكان الثغور، والمنضمين إليهم لحمايتها، أنشأوا الأربطة والحصون^(٢)، وتهيئوا للجهاد ضد القوى الخارجية. كما أنه اتخذ سياسة الدفاع والسلم ولم يقم بالهجوم على الأسبان في الشمال^(٣) لانشغاله بتقوية دولته داخلياً.

واستطاع بما امتلك من قدرات سياسية ومهارات عسكرية أن يتغلب على أغلب هذه المشكلات وإن كلفه ذلك بعض القسوة أو العنف، كما استعان بالرجال المخلصين من بيوت الموالى في ترسيخ قواعد النظام الإداري في الأندلس^(٤)، وحمل على كاهله عبء بناء الهوية السياسية بالتخلص من العنصرية والعصبية بالتسامح ونشر العدالة والمساواة وتقوية دولته لمواجهة الصعوبات داخلياً وخارجياً. وإذا كان البعض قد اتهمه بالأتانية أو الميكافيلية والاستبداد بالحكم^(٥)، فإن هذا الاستبداد كان أحد العوامل التي حققت الوحدة السياسية، وسارت بالهوية الأندلسية خطوات ناجحة وساهمت في تذويب العنصرية والقضاء عليها.

ويتضح دور المنهج الإسلامي جلياً في بناء الهوية السياسية للأندلس في عهد الأمير هشام الرضا (١٧٢ - ١٨٠هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦م) الذي لم يكن أكبر أبناء عبد

الرحمن سنًا، ولكنه تولى الحكم بسبب ورعه وزهده وتدينه ومساندة الفقهاء له، ويرى البعض أن اختباره شكل تنويهاً للعصرية، حيث كان من أم إسبانية وأنه ولد وتربى في الأندلس^(١١)، وهو نوع من تفتيت القومية الإسبانية وقد يجتمع السببان معاً في بناء الهوية السياسية للأندلس، وهو أمر متفق تماماً مع سياسة الأمير عبد الرحمن الداخل في التقرب من عناصر المولدين الذين شكلوا غالبية السكان، كما أن ورعه وتدينه قد أعطاهم قوة، أي أن هوية الدولة اعتمدت على الوحدة السياسية والوازع الديني^(١٢). ومما ساعد على ذلك أن طبقة الفقهاء بدأت تظهر في الحياة الاجتماعية، وخاصة بعد اتساع انتشار الدين الإسلامي، كطبقة مميزة لدى الطرفين الدولة والشعب وتلعب دوراً فيما بينهما.

وأمام اتهام الحكام الأمويين بالاستئثار بالسلطة، جاء استناد الأمير هشام إلى الفقهاء مما جعله أكثر تقرباً من العامة ومحبياً لديهم^(١٣) حيث كان الفقهاء لهم مكانة اجتماعية مرموقة ألهتهم للعب دور الوساطة بين السلطة والشعب إزدادت بازدياد انتشار الإسلام واتساع تأثيره في نفوس غالبية السكان^(١٤).

كما قام الأمير هشام بالسماح للفقهاء وعلماء الإسلام بالرحلة إلى المدينة وأخذ العلم من الإمام مالك^(١٥)، **وسمح لهم بنشر تعاليم الإمام مالك وبخاصة فيما يتعلق بالتكاتف والوحدة وترك عوامل التمزق والتفرق، وكلها أمور احتاج إليها الأمويون لتوطيد دعائم دولتهم.**

وإذا كان الأمير عبد الرحمن الداخل قد تشغل بإخماد الثورات وحل المشكلات السياسية في الداخل، وحقق الإستقلال التام عن المشرق، فإن ابنه الأمير هشام قد رفع راية الجهاد ضد الأسبان في الشمال، وهو أمر لقي قبولا لدى العامة الذين ربطوا بين الجهاد كفرض وواجب ديني وبين قوة الدولة وعظم شخصية الحاكم من جهة، كما أدركوا قيمة الجهاد في بقاء الهوية السياسية للأندلس من جهة أخرى.

والحقيقة أن الأمير عبد الرحمن بذل جهده في إقرار الأمن الداخلي والقضاء على كل الثائرين بكل توجهاتهم؛ ليرسخ قواعد الحكم، وفضل إتباع سياسة السلم والمهادنة مع الأسبان الشماليين ثم قام الأمير هشام من بعده باستكمال بناء الهوية الأندلسية برد الهجوم الإسباني والتحول إلى الهجوم وإرهاب الأسبان في الشمال، والاهتمام بالثغور لحماية هذا البناء^(١٦)، واختيار مذهب مخالف لمذهب العباسيين وهو المذهب المالكي، وبالتالي ساعد على بروز الخصوصية للشخصية السياسية للأندلس.

ومع ذلك ظل استئثار الأمويين بالحكم بشكل عقبة نحو استكمال تحقيق الهوية السياسية للأندلس، فالعرب اليمينيون الذين لم يحصلوا على امتيازات من السلطة ولم تكن لهم مشاركات سياسية بالقدر الذي طمعوا فيه، برغم وقوفهم

إلى جوار عبد الرحمن للدخل لملأ في تحقيق هذه الأطماع — قاموا بالثورة على النظام الجديد ولكن الأمير عبد الرحمن تصدى لهم، ولكنهم ما لبثوا أن نشطوا مرة أخرى بعد أن وجدوا الفرصة سانحة أمامهم بسبب خلاف أبناء عبد الرحمن على الحكم^(١١)، وتدخلوا لتوسيع الخلاف وإيجاد ثغرة لتحقيق منافعهم^(١٢). وكان الاستقرار السياسي داخل الأندلس قد ارتبط بوجود زعامات قوية تستطيع أن تتصدى للمنافسات والأطماع السياسية^(١٣)، وهو أمر ساهم في زعزعة الهوية السياسية في الأندلس خلال هذه الفترة.

ويبدو أن هناك عقبات واجهت استكمال بناء الهوية السياسية في الأندلس بتولي الأمير الحكم بن هشام (الريضي) (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٣٢م) الذي شعر بخطر النزاع القائم بين أبناء البيت الأموي المتمثل في خلفه مع أعمامه حول السلطة، واستغلال الأسباب هذه للفرصة في التقدم نحو الجنوب للاستيلاء على مدينة برشلونة (١٨٥هـ/٨٠١م)، وتكرار المحاولة في الاستيلاء على طرطوشة ووشقة (١٩٣هـ/٨٠٩م). وتحول موقفه من الهجوم إلى الدفاع^(١٤)، وهو أمر أضعف من مكانته أمام الأندلسيين ؛ الذين افترق لديهم نجاح سياسة الحاكم أو إخفاقه بقدرته على مواصلة الجهاد، أو بما يحققه من انتصارات في الشمال، للحفاظ على الوجود السياسي لدولتهم. وقد أدرك الأمير الحكم ذلك وحاول تغييره من خلال الحفاظ على الكيان السياسي فقيض على الحكم بيد من جديد، وتعامل مع الثائرين عليه — والرافضين لسياسته وبخاصة الفقهاء بكل قسوة وعنف — وقتل عدداً كبيراً منهم سواء في يوم الحفرة (١٨٩هـ/٨٠٥م) أو في ثورة الريض (٢٠٢هـ/٨١٧م)^(١٥).

وبرز خلال هذه المرحلة دور الفقهاء في بناء الهوية السياسية للأندلس متمثلاً في تدخلهم في أمور الحكم كلما استشعروا خروج الحاكم عن الإطار الذي رسموه له وحاول الاستئثار بهم، وهذا ما حدث حين اتجه الفقهاء إلى أبي القاسم القرشي وهو من أبناء البيت الأموي، لتعيينه مكان الحكم، لولا أن اكتشفت هذه المؤامرة^(١٦)، مما دفع البعض إلى اتهامهم بأنهم هدفوا إلى إنشاء دولة دينية وانتزاع السلطة^(١٧).

وعلى أية حال فإن الحكم الرضي حاول أن يحافظ على قوة الأندلس، ويتابع التقدم نحو تحقيق الهوية السياسية للأندلس، مستنداً إلى فكرة الجهاد ومحاربة الأسباب، ومحاولة استعادة برشلونة من جهة، وإدخال المذهب المالكي كمذهب رسمي للدولة لتأكيد فكرة الوحدة الدينية والسياسية، واسترضاء للعامة من جهة أخرى^(١٨).

ومن العوائق التي صادفت لاستكمال أو استمرار الهوية الأندلسية منذ عصر الأمير هشام تكون بعض الممالك التي تعبر عن الهوية الإسبانية، التي شكلت تحدياً للهوية الأندلسية^(٢١)، فقد كانت هذه الممالك تتحين الفرص للتخلص من هذه الهوية أو التغلب عليها، كما حدث من انتهازهم فرصة انشغال الحكم الربضي في الصراع مع عميه، والاستيلاء على مدينة برشلونة، وهي عقبة أخرى واجهت الحكومات الأندلسية. وكان انشغال عبد الرحمن الداخل بتوطيد أركان دولته داخلياً واكتفائه بحماية حدوده هو الذي سنجح لهم بتكوين نواة دولتهم، ومهاجمة الأندلس بعد ذلك.

ثم جاء عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م) ليشكل تقدماً ملحوظاً في بناء الهوية السياسية للأندلس حيث كادت تكتمل أركان هذا البناء السياسي المميز بما قام به من أعمال تمثلت في مواجهة قوات النورمان والتصدي لهم، وتحصين السواحل الأندلسية^(٢٢) وإنشاء الأسطول البحري، وتأسيس العديد من القواعد الإستراتيجية البحرية، التي قامت بمهمة كبيرة في الحفاظ على الكيان السياسي بصد هجمات النورمان، والتصدي للأسطول القاطمي^(٢٣) بل والامتداد نحو الجزائر الشرقية. كما أحرز تقدماً ملحوظاً في حماية الحدود الشمالية للأندلس وتوسيع هذه الحدود، وعين على الثغور قادة أكفاء، وقاد بعض الحملات بنفسه، وحقق انتصارات على الأسبان في موقعة فح جولين (غرنق)^(٢٤).

وحاز الفقهاء في عصره على مكانة مرموقة وزاد عددهم، فاستقطب عبد الملك بن حبيب وأعطاه لقب رئيس الفقهاء المشاورين^(٢٥)، ثم تولى هذا المنصب يحيى بن يحيى الليثي، بعد وفاة عبد الملك بن حبيب الذي أشار على الأمير عبد الرحمن ببناء سور إشبيلية فلخذ برأيه^(٢٦). فكان تقريبه للفقهاء نوعاً من التغلب على معارضة الشعب لمسألة الانفصال بالحكم، على النهج الذي سار عليه الأمويون، والذي شكل عائقاً أمامهم في السعي وراء الخصوصية السياسية والحضارية للأندلس.

وجاء اكتمال نضج للهوية السياسية بالتنظيم الإداري الذي أدخله عبد الرحمن من نظام الوزارات^(٢٧)، وتحديد اختصاصات كل وزارة، واجتماعه بهذه الوزارات للإشراف عليها، وأنشأ دار للسكة في الأندلس بعد أن كانوا يتعاملون بدنانير أهل المشرق^(٢٨)، وتلك عوامل أسهمت في نضج الهوية السياسية الأندلسية، وإذا استحق أن يطلق عليه أحد بناء الحضارة الإسلامية.

والحقيقة أن الشخصية الأندلسية المنبثقة عن الشرق، الحريصة على الوحدة السياسية، قد ظهرت في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط)، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، وإن كان قد واجه مشكلة كبيرة تهدف إلى عرقلة مسيرة الهوية السياسية، وهي حركة المستعربين (أو الاستشهاد كما

عرفت) التي ظهرت في عهده، وعبرت عن الشعبية أو القومية الإسبانية التي ظلت تحتفظ بوجودها أمام هذا السيل الجارف من التغيرات الدينية واللغوية والثقافية التي شهدتها بلاد الأندلس. وإن كان البعض يرى أن القومية الإسبانية ظلت موجودة وتتجلى الوقت للظهور^(٣٢). ولكن هذا الحدث أكد من جهة أخرى نجاح خطوات الأندلسيين، حكماً وشعباً، في تحقيق الهوية السياسية والثقافية للأندلس، بشكل أثار بعض المتعصبين لدينهم والقلّة المتمسكة بقوميتها، وأرادوا أن يواجهوا هذا التيار المتنامي الجارف - الذي يزداد المنضمون إليه يوماً بعد يوم - نحو تحقيق هوية جديدة على الأراضي الأيبيرية^(٣٣).

ولم يتهاون الأمير عبد الرحمن في هذه الأمور التي استشعر أنها تهدد الوحدة السياسية والدينية للأندلس، ولم يكن موقفه ذلك تشدداً أو اضطهاداً لأهل اللّمة لأنه حاول استئابهم، ولم يجد أمامه إلا أن يحكم بالشرع في قتل المرتد^(٣٤). ولم يفعل ذلك مع المستعربين فقط، وإنما ورد عند ابن عذاري أنه قتل رجلاً ادعى النبوة وتاول على القرآن، والتف حوله العديد من الناس، بشكل هدد الوحدة السياسية وزرع بذور التفرق والتمزق في الدولة، فقتله وتخلص من حركته^(٣٥) وهو أمر أقره الفقهاء في أحكامهم وأجمعوا عليه في شتى العصور^(٣٦).

وعلى الرغم من نجاح الحكام الأمويين في تحقيق الهوية السياسية الأندلسية والمسير بها خطوات واسعة، إلا أن عصر الطوائف الأول - الممتد من عصر الأمير محمد وحتى عصر الأمير عبد الله - (٢٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٨٥٢ - ٩١٢ م) قد شهد انتكاسة كبيرة في الهوية السياسية، لما أصاب الأندلس من النزاع والتفرق والخروج على السلطة المركزية. وتعددت الآراء حول تفسير ذلك فاعتبر البعض أن الثوار خرجوا على الدولة بدافعين هما : القومية الإسبانية والحساسيات العربية^(٣٧)، بينما رجح البعض الآخر أن هذه الثورة كانت تعبيراً عن ظلم اجتماعي، أو إهمال من الدولة لشئون هذه الطبقة، كما أشار آخرون إلى أن سيادة النظام الإقطاعي في أوروبا دفعهم إلى تحقيق ذلك النموذج^(٣٨)، ورأى أحد المستشرقين أن الوحدة السياسية في الأندلس كانت رهينة لقوة الحاكم، وأن ظهور زعيم ضعيف قد أسهم في أن تطفوا على السطح كل العناصر الثائرة^(٣٩).

وكان استئثار الأمويين بالحكم وإصرارهم على المركزية قد أدّى إلى غضب العديد من العناصر الداخلية، التي بدأت تتجه نحو الاعتزال بالسلطة، وساعدهم على ذلك طبيعة المكان الجغرافية^(٤٠)، وربما كان ذلك تائراً بنظام الدويلات المستقلة الذي ظهر في المشرق وحول النظام العباسي من المركزية إلى اللامركزية، أو تائراً بالنظام الإقطاعي السائد في أوروبا^(٤١). وقد أثرت هذه الأمور سلباً على مسيرة الهوية السياسية للأندلس، والتي أصبحت في حاجة إلى البناء بعد انقراط عقد

الوحدة وتوقف حركة الجهاد، وتقوي الشمال الإسباني على حساب السلطة الإسلامية، وتدخله في شئون الأندلس الداخلية، بمساندة بعض الحركات الانفصالية أملاً في تهيار هذه الهوية.

والجدير بالذكر أن القومية الإسبانية لم تكن قوية بالقدر الكافي وكان بإمكانها أن تعبر عن نفسها بحركة انفصالية مستقلة مستندة إلى القوى المسيحية الأوروبية، ولكنها لم تستطع أن تقف بمفردها فوفقت إلى جانب حركة عمر بن حفصون^(١١)، وربما لم تفكر في القضاء على الحكم الإسلامي الذي حقق لها الحرية والعدالة وقضى على الخلافات المذهبية، واقتصرت رغبتها على المشاركة السياسية في بلادها.

على أن الحركات الانفصالية الداخلية أو الشعبية الأندلسية قد شكلت العامل الأساسي في مساندة الأيبان في تحجيم الهوية الأندلسية من خلال اعتمادها على المساعدة التي كانت تأتي إليها من القوى الإسبانية الكامنة في الشمال، والتي كانت تنتهز هذه الفرص لتفتيت وزعزعة القوة السياسية والاجتماعية والفكرية للأندلس، وبالتالي ساعدت على نمو حركة الاسترداد الإسباني التي لم تشهد نمواً إلا في فترات الضعف السياسي للأندلس^(١٢). ويرى البعض أنها نتجت عن حركة الشعبية^(١٣)، أي أن الشعبية سواء في الداخل أو الخارج أو اتحادهما معاً، كانت تهدف إلى القضاء على الهوية الأندلسية.

وحاول الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ/ ٩١٢ - ٩٦١ م) التصدي لهذه الظاهرة أملاً في استعادة الهوية السياسية، من جديد بعدما ذبلت وضعفت خلال عصر للطوائف الأول. على أن ذلك لم يكن يعني أن الأمراء السابقين عليه قد وقفوا عاجزين أمام موجة التمزق السياسي التي كانت أن تطيح بدولتهم ولكنهم حاولوا إيقاف هذا التيار، فقد كان للأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢ م) دوراً مميزاً في مواجهة الثائرين الذين كانوا على وشك الاستسلام بعد أن أضعف قواهم^(١٤)، كما ضغطت القوى الحركات الانفصالية وهي حركة عمر بن حفصون، وخاصة بعد أن أعلن تنصره، وفقد عدداً كبيراً من المنضمين تحت لوائه، واقتصرت ثورته على المستعربين، وأصبحت محاربتها واجبة، كما أشار ابن عذاري إلى اعتبار محاربته جهاداً، وتتابع عليه الصوائف والشواتي^(١٥).

ولعل ذلك قد أكد تغلب الهوية الإسلامية على الهوية القومية الإسبانية التي ربطت الدين المسيحي بالأراضي الأيبيرية، وهي أمور ساعدت على بقاء الهوية السياسية في الأندلس مرتبطة بحكام بني أمية، لأنهم مع استنثارهم بالحكم كانوا يمثلون الشرعية، ويرفعون راية الإسلام، ويشكلون كياناً سياسياً مستقلاً.

أما عن جهود عبد الرحمن الناصر في استعادة الهوية الأندلسية فقد أدى إعلانه العفو والتسامح مع الثائرين إلى استسلام الكثير من دعاة الشعبوية والثائرين ودخلهم في طاعة الدولة، وبخاصة بعد أن قام بحملة استطاع فيها إسقاط العديد من الحصون^(١٧)، وقام كذلك بإعادة إخضاع الأراضي الأندلسية إلى حوزة الدولة ؛ فعادت الوحدة السياسية إلى الأندلس مرة أخرى، كما اتخذ إجراءات عديدة أكدت القوة السياسية للأمويين، وعادت الهوية السياسية للأندلس قوية بعد أن أدرك الأندلسيون ارتباط الهوية السياسية بالحكم الأمويين ؛ فأعلن الخلافة وبإيعه بها الخاصة والعامة^(١٨)، وقام بضرب العملة وتحديد وزنها من الذهب والفضة مما أدى إلى تثبيت العملة واستقرار التعامل بها^(١٩)، وأنشأ مدينة الزهراء كعاصمة جديدة لدولته، واتخذ ألقاب الخلفاء فدُعي بأمير المؤمنين الخليفة الناصر^(٢٠)، وحقق انتصارات باهرة على الأسبان في الشمال^(٢١)، وهي أمور أبهرت الأندلسيين، ودفعتهم للاعتراف بوطنهم وحاكمهم.

وقد قامت الهوية السياسية في عهد "الناصر" على أساس الحوار مع الغرب من خلال السفارات المتبادلة بينه وبينهم، فأرسل ريسموند أو ربيع بن زيد المستعرب القرطبي إلى حاكم ألمانيا، وخرجت في عهده سفارات عديدة إلى الشمال^(٢٢)، وكانه بلور كل الخطوات التي سار فيها الحكام نحو الهوية السياسية التي نضجت واكتملت على يديه ؛ فظهرت الشخصية السياسية للأندلس بشكل مستقل أسمياً وفعلياً، وظهرت الخلافة بكل مراسمها، وقوى من القواعد العسكرية البحرية لمواجهة الخطر الفاطمي، وطور الأسطول البحري واستولى على سبته ووطنجه في البحر المتوسط حماية لحدود دولته ؛ فوصلت في عهده للهوية السياسية إلى أوج عظمتها وإزدهارها^(٢٣).

ولأن الهوية الثقافية للأندلس قد ارتبط بناؤها بتوفر الأمن والاستقرار السياسي؛ فإن عصر الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ - ٩٦١ / ٩٧٦م) شهد بروز عنصر آخر لهذه الهوية وهو البناء الثقافي للمجتمع الأندلسي بعد أن عادت إليه قوته ووحدته من جديد، وهذا لا يعني أن المستنصر لم يقم بأعمال سياسية للحفاظ على المقوم السياسي لهذه الهوية، بل أنه استمر على سياسة أبيه في الدفاع عن الحدود، والحفاظ على الدولة قوية باستكمال الحملات إلى الشمال، واستمرار السفارات بين الأندلس ودول الشمال^(٢٤)، والعناية بالسواحل وحمايتها، أي أنه بشكل عام قد حافظ على المقومات السياسية والثقافية للشخصية الأندلسية.

ومع أن الحكم المستنصر قد ارتكب خطأ فادحاً حينما ترك ولاية العهد لابنه الذي كان لا يزال طفلاً، جعل الخلافة مطعماً لكل العناصر المحيطة به من رجال الدولة، حتى انتهى الأمر بتولية الحاجب المنصور محمد بن أبي

عامر (٣٦٦-٣٩٢هـ / ٩٧٧ - ١٠٠٢م) وصياً على الخليفة وحاجباً له^(٥٥)، إلا أن مواصلة حركة الجهاد، وتحقيقه انتصارات عديدة على الشمال الإسباني فقام باثني وخمسين غزوة دافع فيها عن الأراضي الإسلامية، واستمرار السفارات في عهده التي كانت تأتي إلى قرطبة طالبة الود والصدقة^(٥٦)، واحتفاظه بلقب الحاجب حفاظاً على شرعية الخلافة^(٥٧)، قد كفلت الحفاظ على الوحدة السياسية للأندلس، ودفعت الأندلسيين إلى تقبل حكمه، وقد أدرك ذلك جيداً فترأى بوصي ابنه قبل وفاته بالأفكر في الأفراد بتدبير دولته، ويحثه على البقاء وفيما لصاحب القصر، الذي كان رمزاً للوحدة السياسية (يقصد الخليفة هشام المؤيد)^(٥٨).

ولعل تجرؤ ابنه عبد الرحمن (شجنول) (٣٩٩هـ / ١٠٠٩م) على أخذ ولاية العهد من الخليفة، واختراق الشرعية، كانا من أهم أسباب انهيار الدولة وضعف الهوية، أما الموالي المساندون للسلطة الأموية والمخلصين لها، فقد استبعدهم العامريون وحذر المنصور بن أبي عامر أبناءه من التعامل معهم^(٥٩)، وكون حزباً بدلاً عرف بالحزب العامري، ولذلك سعى الموالي إلى إعادة الحكم الأموي الممثل للشرعية السياسية، والمحقق لمصالحهم وأطماعهم السياسية، وديرُوا فتنة للقضاء على الدولة العامرية^(٦٠)، وانتهت الفتنة التي اشتعلت بين كل الطامعين في السلطة إلى انقراط عقد الوحدة الساسية، وقيام عصر ملوك الطوائف (٤٢٢هـ / ١٠٣١م) وعودة الشعبية التي أسهمت في توارى الهوية الأندلسية سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، فتخلّى ملوك الطوائف عن الجهاد المهمة الأساسية للحكام في الأندلس، وتخاذلوا عن الدفاع عن أراضيهم، وتحولوا من موقف الهجوم على الشمال إلى الدفاع عن أراضيهم قاضحلت بذلك هويتهم السياسية^(٦١)، وفضلوا الخضوع ودفع الإتاوات عوضاً عن المواجهة العسكرية^(٦٢)، وبدلاً من الاتحاد ووحدة التوجه والاتجاه السياسي حاربوا بعضهم البعض ليوسع كل منهم أراضيهم على حساب الآخر، ولم يتلبه هؤلاء الحكام للشعبية الكامنة في ظليلة المسنودة من الشمال الإسباني والتي ظلت عتبة أمام الحكام الفاضة للخضوع والاندماج حتى قويت مع الضعف السياسي^(٦٣)، فكان أمراً طبيعياً أن تسقط مدينة طليطلة (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) الذي بعد سقوطها إنذاراً بسقوط الأندلس هوية ودولة^(٦٤).

وعبثاً حاول الأندلسيون استعادة دولتهم، وبقاء هويتهم السياسية الإسلامية، فلم يكن أمامهم سوى العبور إلى المغرب ليستجدوا ببومف بن تاشفين أمير دولة المرابطين^(٦٥)، الذي رفع لواء الإسلام، وتبنى الوحدة السياسية في المغرب، وبداًف من الحفاظ على الهوية الإسلامية فضل الأندلسيون الانضمام تحت لواء المغرب بعد كل ما عرفوه عن شخصية يوسف بن تاشفين : من الحرص على العدالة والجهاد على أن تسقط سلطتهم وينهار الكيان السياسي لدولتهم.

ولعل معركة الزلاقة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) شهدت مشاركات بين الأندلسيين والمغاربية للدفاع عن الأراضي الإسلامية، وقد نجح المرابطون (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) في الحفاظ على الكيان السياسي للأندلس بالجهاد والوحدة السياسية، والتمسك بوحدة المذهب المالكي، ورفع شأن الفقهاء والأخذ برأيهم، واستشارتهم في الأمور السياسية لاسترضاء العامة، واستقطاب هذه الفئة الهامة، مع الحرص على المركزية^(١٧)، وكأنيهم ساروا على نفس نهج الأمويين، ولكنهم ضموا المغرب والأندلس تحت حكم واحد، واتخذوا المغرب مركزاً لحكم دولتهم.

على أن الأندلسيين لم يقبلوا استمرار الاتصاء تحت حكم المرابطين، وحاولوا بعد انتهاء الأزمة استعادة هويتهم خاصة بعد أن اكتملت شخصيتهم السياسية المستقلة حيث لم يعادوا التبعية سياسياً أو حضارياً، فقاموا بالعديد من الثورات ضد المرابطين في أخريات حكمهم للأندلس لتوقعهم عن الجهاد - وهو المهمة الأساسية التي تقبلهم الأندلسيون كحكام على بلادهم من أجله بعد أن تهاوت قوتهم العسكرية (٥٣٩هـ/١١٤٧م)^(١٨)، وفتح هذا الباب لقوة جديدة هي قوة الموحدين (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) الذين لم يجدوا مقاومة، وبخاصة أنهم أحبوا الجهاد ونجحوا في استرجاع المدن التي كانت قد سقطت في غرب الأندلس في أيدي الأسبان.

واستطاع الموحدون القضاء على الشعوبية الإسبانية التي وقعت ضدهم في شرق الأندلس تحت زعامة ابن مردنيش، ونجحوا في تحقيق الوحدة السياسية والعسكرية والدينية للأندلس، وساروا على سياسة المرابطين نفسها في الحفاظ على الهوية الأندلسية، بتقريب مجموعة من الفقهاء والعلماء الأندلسيين لهم، والاهتمام بأحوال الرعية، ورعاية العلماء، وعلى الرغم من أنهم أدخلوا المذهب الظاهري كمذهب رسمي للمغرب والأندلس إلى جانب للمذهب المالكي؛ إلا أنهم لم يفرضوه على الرعية أو يضايقوا فقهاء المالكية في الأندلس^(١٩). ولكن سرعان ما انتهى الوجود السياسي للموحدين في الأندلس بعد هزيمة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) ونزاع الموحدين حول السلطة، ففقدوا قدرتهم في الحفاظ على الهوية السياسية بفقدان الدور العسكري.

أما عن الهوية السياسية في عصر بني الأحمر (٦٢٦هـ - ٨٩٧هـ/ ١٢٣٢ - ١٤٩٢م) فقد وصف ابن خلدون عصبية الدولة بالقلة أو الضعف^(٢٠)، وهو يعني أن الأسرة الحاكمة كانت قليلة العدد، ورأى أن ذلك سبب في ضعفها، وإن كان الصحيح أن الضعف الذي انتاب بني الأحمر لم يكن راجعاً إلى قلة أعدادهم، وإنما إلى ضعف التحالف بينهم، أو الخلافات التي دارت حول الحكم، وتشغالهم بمصالحهم الشخصية، واستغناءهم عن مساعدات بني مرين خوفاً من أطماعهم في الوصول إلى حكم

الأندلس، واضطراهم إلى التعاون مع الأسبان أحياناً في استيلائهم على بعض المدن الأندلسية^(٧٠)، وكلها أمور أضعفت الكيان السياسي، لأن خوفهم على الحكم كان أكبر من خوفهم على استمرار الكيان السياسي تحت مظلة الإسلام، أو بمعنى آخر أن المصالح السياسية تغلبت على الهوية الإسلامية، فكان اتحاد جبهة الممالك الإسبانية في الشمال يقابله تفرق للحكام المسلمين في الجنوب، وكان للوإزع الديني في الشمال دوره في تقويتهم، فنشطت الجماعات العسكرية الدينية متأثرة بنظام الأربطة التي تولت الجهد الإسلامي، بينما ضعف اللوإزع الديني في الجنوب أمام صراع السلطة والمصالح، فكان العوامل التي بنى عليها الوجود الإسلامي في الأندلس - من الوحدة السياسية واتحاد الكلمة والقوة العسكرية وهيمنة الأيدلوجية الدينية - تهاوت لدى المسلمين في عصر بني الأحمر، بينما انتقلت بأكملها إلى الشمال، فكان من الطبيعي أن ينتهي الوجود الإسلامي في الأندلس دولة وهوية^(٧١).

ولعل وجود عناصر المدجّتين يؤكد أن بناء الهوية الأندلسية كان يحتاج إلى اكتمال الأضلاع الثلاثة، لأن هذه العناصر كانت على العقيدة الإسلامية ومن الجنس الأندلسي، إلا أن وجودهم في المدن التي سقطت تحت يد النصارى، وفقدانهم للهوية السياسية، أدّى إلى فقدانهم لهويتهم الثقافية والاجتماعية، فكانوا أقرب في العادات والتقاليد والثقافة واللغة من الأسبان إلى الأندلسيين^(٧٢).

هناك نقطة مهمة تتركز في أن الامويين نحملوا عبء بناء الشخصية الأندلسية، وسعوا لتحقيق الهوية الأندلسية بمزيج من الهوية الدينية والقومية، وبذلوا جهوداً كبيرة وساعدهم الموقع المتطرف على تحقيق ذلك، ولكنهم ارتكبوا العديد من الأخطاء التي أودت بالهوية السياسية للأندلس، بعد مرور حوالي أربعة قرون من انهيار دولتهم، وهي أمور كاد أن يجمع عليها المؤرخون، وعلى رأسها : أنهم لم يستأنسوا شأفة الممالك الإسبانية التي نشأت في الشمال منذ بداية العصر الأموي، ونمت واتحدت مع نهاية دولتهم، إضافة إلى أنهم اعتمدوا على عناصر المولدين في حماية الثغور ورغم تذبذب ولائهم للحكومة، كما أن إصرارهم على الاستئثار بالسلطة وحرمانهم للشعب من المشاركة في الحكم جعل نظامهم مسئولاً عن عدم وجود شعوب قادرة على الحفاظ على هويتها، وارتباط الحفاظ على الهوية السياسية بالحكومات لا بالشعوب.

انتماس الديني والتعايش وبناء الهوية الاجتماعية:

أولى الكثير من الدراسات اهتماماً بالمجتمع الأندلسي، وتعرضت هذه الدراسات إلى بنيته ومكوناته والعلاقات الاجتماعية بين عناصر سكانه، وتناولت

قضية التعايش والتسامح للدينين بين عناصر السكان في الأندلس، من خلال الاستناد إلى كتب النوازل الفقهية التي ألقت الضوء على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس، بشكل كبير وعلى فترات متعددة، ومن خلال الرجوع إلى كتب الحسبة التي أشارت بشكل واضح إلى تلاحم المجتمع الأندلسي بكل عناصره، برغم ما وجهه الفقهاء من تحذيرات، وكذلك من خلال شهادة العديد من المستشرقين المنصفين المعتمدين بالدراسات الأندلسية^(٧٣).

ولا يهتم هذا البحث باوضاع أهل الذمة في الأندلس وهم عناصر المستعربين من النصراني واليهود الذين عاشوا في الأندلس تحت مظلة الحكم الإسلامي، ونعموا بكل أوجه التسامح، فالمسلمون منذ أن وطأت أقدامهم شبه الجزيرة الأيبيرية سمحوا لليهود أن يظلوا في المدن التي تم فتحها مع الحاميات العسكرية الإسلامية، رغم أن هذه الجاليات كانت قليلة العدد والخبرة بالأمور العسكرية، وإنما كان قصد الفاتحين من ذلك غرس الاطمئنان في نفوسهم^(٧٤).

وبعد أن تمت الفتوحات الإسلامية للأندلس نعم الأسبان بكل الحريات في ممارسة عقائدهم وطقوسهم ومزاولة حياتهم اليومية، والاحتكام إلى قضاتهم، وامتلاك أراضيهم، والتصرف في أحيائهم، والدفن في مقابرهم، والعيش في مدن أو أحياء خاصة بهم، فأمكنهم الاحتفاظ بتقاليدهم، وعاداتهم دون التعرض لهم أو المساس بحقوقهم^(٧٥).

وكان في احترام المسلمين للمعاهدات والاتفاقات التي أبرموها مع كل مدينة تم فتحها والالتزام بها، وعدم تعديهم على الملكيات وإتباعهم نظام المزارعة^(٧٦)، ونشرهم العدل والمساواة بين السكان، دافعا لكثير من الأسبان للانضمام إلى الدين الإسلامي، وواكب انتشار الإسلام في الأندلس انتشار اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم، ووسيلة التعرف على تعاليم الدين الإسلامي، والتعامل مع الحكام، والتواصل مع المجتمع الجديد^(٧٧).

ولعب الأمويون دوراً رئيسياً في بناء الهوية الاجتماعية بإعلائهم اللغة العربية لغة رسمية للبلاد، وبتعريبهم لغة الكنائس، فساهم ذلك في إقبال الأسبان الذين ظلوا على دينهم على تعلم اللغة العربية، لتأدية طقوسهم ومحاولة للاندماج في المجتمع، وتحقيقاً لمصالحهم الاقتصادية، والحصول على الوظائف الحكومية. وظهر ما سمي باللغة الرومانسية، وهي خليط بين اللغة العربية واللغة اللاتينية، والتي انتشرت وتغلطت في المجتمع الإسباني، وأصبحت إحدى أهم ميزات وأبرز سماته الشخصية، الأمر الذي دفع مستعربي طليطلة للاحتفاظ بهذه اللغة بعد سقوط المدينة بعدة قرون^(٧٨). كما حرص الأمويون على صبغ الأندلس : «الصبغة العربية

التي أطلق عليها التقليد الشامي^(٧٩)، ونشأ تقليداً أندلسياً مميزاً امتزجت فيه التقاليد الإسبانية بالتقاليد الشرقية العربية.

ومع الاعتراف بدور الحكام في حركة التعريب ؛ فإن التعريب الحقيقي جاء من خلال احتكاك وتلاحم الشعب الأندلسي نفسه، وكما كان لهذه الحركة دور كبير في المزج بين عناصر السكان، كان لظاهرة الزواج المختلط دور لا يمكن إغفاله في استكمال حركة التعريب، وتحقيق الهوية الاجتماعية للأندلس، وانتشرت هذه الظاهرة بشكل كبير منذ عصر الولاة وحتى عصر بني الأحمر، وبدأت بالولاة وعلى رأسهم عبد العزيز بن موسى بن نصير (٩٥هـ/٧١٤م)، وزادت في عصر الحكام الأمويين، ثم في عصر العائريين، وامتدت إلى الشعب الأندلسي نفسه، خاصة أن الفاتحين كان منهم الأفراد والقبائل^(٨٠)، حتى إنه مع بدايات القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حدث امتزاج تام بين السكان، وتشابكت الأجناس والأنساب، وتكون جنس جديد هو الجنس الأندلسي، وظهر ذلك جلياً في كتب التراجم والنوازل، وغيرها من المصادر التي تعرضت لأسماء الأندلسيين، حيث اختفى الانتماء إلى القبائل والعائلات، وظهر الانتماء إلى المدن الأندلسية أو إلى الأندلس بأسرها، وهو أمر يؤكد الانتماء إلى الوطن وبزوغ الهوية الأندلسية.

وقد اشترك في هذه الظاهرة كل من الشعب والحكام، في محاولة منهم لتفويض العنصرية والتغلب على القومية الإسبانية. وظهر نتيجة لذلك جيل من المولدين مثل : ابن القوطية وابن حفصون وغيرهم^(٨١)، وأسرات مولدة ساهمت بدور كبير في الساحة السياسية والاجتماعية والثقافية، منهم كآسرة بني عمرو وأسرة بني قسي وهؤلاء تولوا حملة التثغور الأندلسية، وأسرات وصلت إلى الحكم مثل أسرة بنو مردنيش^(٨٢).

وقد واجهت موجة التعريب لجارفة نوعاً من الاعتراض من بقايا الممتهين للقومية الإسبانية، الذين استاءوا من انتشار الإسلام والعروبة، وتناقص أعداد الأسبان المتمسكين بدينهم ولغتهم، واتجاذب الجميع نحو الثقافة واللغة العربية، مما هدد اللغة اللاتينية بالانقراض والاختفاء التام من الساحة الأندلسية. وتجسد ذلك الاعتراض في حركة الاستشهاد التي قام بها بعض القساوسة في عهد عبد الرحمن الأوسط، وقد سبقت الإشارة إلى هذه الحركة وما آلت إليه من فشل، نتيجة لتغلب التعايش والتسامح بين السكان.

وإذا كان البعض يرى أنها حركة قومية، واستدل بها على أن القومية الإسبانية ظلت باقية في الأندلس^(٨٣)، فالحقيقة أن المسلمين لم يعارضوا حب الوطن واحترمو القوميات، ولكن متطلبات الحكم الإسلامي، ومقتضيات المجتمع الأندلسي، وما أقرزاه من ثقافة جديدة، وما سار عليه المسلمون في المناطق المفتوحة من

سياسة عرفت بنظام المواطنة، قد فرض هوية جديدة تغلبت بدورها على كل الهويات السابقة عليها.

ومن مظاهر التعايش بين سكان الأندلس، مشاركة المسلمين للأسبان في أعيادهم برغم معارضة الفقهاء لذلك^(٨٤)، وفي تقويم قرطبة لعريب بن سعد ما يؤكد معرفة المسلمين بأسماء ومواعيد أعياد النصارى الأسبان^(٨٥)، كما اتخذت بعض الحكومات الأندلسية من يوم الأحد يوم عطلة رسمية، وهذا دليل على وجود أعداد كبيرة من الأسبان في الوظائف الحكومية^(٨٦)، ودليل أيضاً على محاولة الدولة التقرب لهذه العناصر واحترام حقوقهم، كما استخدم الذميون في العديد من الوظائف الدبلوماسية والإدارية والمالية والعسكرية، كسفراء وحرس وأطباء وجباة أموال وعناصر نظامية في الجيش، وغير ذلك^(٨٧).

وقد ربط البعض بين القوة السياسية والهوية الاجتماعية، ورأوا أن الشعوبية عبرت عن القومية الإسبانية في فترات الضعف السياسي^(٨٨)، وهذا الأمر صحيح إلى حد ما، برغم أنها ظهرت في الأندلس في عهد عبد الرحمن الثاني، وهو عصر قوة واستقرار سياسي. وكذلك الأمر بالنسبة لعصر مجاهد العماري حاكم داتية في عصر ملوك الطوائف، وظهور ابن غرسبه الذي أظهر الشعوبية في عصره وربما يكون ذلك بتشجيع منه لانشأته لأصول صقلبية^(٨٩)، وعلى أي حال فإنها حركات ضيقة المجال لا تضم إلا أعداداً قليلة من السكان، ولا تعبر عن الغالبية العظمى من الأندلسيين، واعتبرها البعض احتجاجاً على تخلي بعض المولدين عن أسمائهم وأصولهم، والانتساب إلى قبائل عربية واتخاذ أسماء عربية، لتحقيق مصالح بعينها، مما أثار البعض^(٩٠).

وإذا جاز هذا التفسير في القرون الأولى من الحكم الإسلامي للأندلس أو فترات القوة فقد تفاقمت هذه المشكلة في قرون لاحقة وأصبحت عبئاً واجهت الحكام في تحقيق الهوية الأندلسية، فنرى النصارى المعاهدين يتفقون مع الفونسو المحارب على الدخول إلى الأندلس^(٩١).

برغم ما تمتعوا به من تسامح تحت حكم علي بن يوسف، بدافع من القومية وتحقيق الهوية الإسبانية، خاصة وأن الدولة المرابطية كانت قد بدأت مرحلة الضعف في هذه الآونة. وكذلك اليهود الذين فتحوا أبواب غرناطة لابن هشك وخاتوا الموحدون (٥٥٧هـ / ١١٦٢م)^(٩٢). ومن الواضح أن بعض هذه العناصر لم تشعر بالانتماء الكامل للمجتمع الأندلسي، ولم تكن جزءاً من الهوية الأندلسية في كثير من الأوقات، وخاصة عناصر اليهود التي انضمت إلى الأسبان بعد توالي سقوط المدن الأندلسية^(٩٣).

وإذا كانت الصراعات السياسية قد شكلت عائقاً في بناء الهوية الاجتماعية للأندلس، لما نتج عنها من فقدان للأمن والاستقرار، وحدث أضرار اقتصادية وخسائر بشرية، فإن أصحاب النظرية العنصرية رأوا أن العصبية قد استأصلت شأفتها في عهد عبد الرحمن الناصر، بعد قضائه على الحركات العنصرية وإعادته للوحدة^(٩١)، بينما رأى آخرون أن تفتت العصبية حدث في عهد المنصور بن أبي عامر، حينما غرر التقسيم القبلي للجيش فتكونت عصبية جديدة هي العصبية الأندلسية^(٩٢)، والحقيقة أن السلطة قامت بمحاولات وجهود للقضاء على العصبية منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل، الذي اعتمد في جيشه على البربر والصقالبة والأسبان، كما اعتمد في تأسيس النظام الإداري على الموالي^(٩٣).

ولا يمكن اعتبار الفترة القرطبية (٣٩٩-٤٢٢هـ / ١٠٠٩/١٠٣١م) فترة عصبية، ولكنها صراعات قوى سياسية لم تؤثر على بناء الهوية الاجتماعية، وإن كانت قد عرقلت مسيرتها نتيجة لحدوث المجاعات والأوبئة، وانتشار السلب والنهب وعدم استقرار الأمن، وكذلك هجرة أعداد كبيرة من سكان قرطبة إلى مدن أخرى^(٩٤).

وحسب إجماع المؤرخين، فإن الهوية الاجتماعية والثقافية للأندلس اكتملت في القرن الخامس الهجري حيث ظهر ذلك جلياً في رسالتي ابن حزم والشافعي في الافتخار بالأندلس وعلمائها^(٩٥).

وقد حرص الحكام المرابطون والموحدون على الحفاظ على الهوية الأندلسية بأبعادها الاجتماعية والثقافية، ولعل في وصية يوسف بن تاشفين لابنه "علي" بتقبل المحسن من أهل قرطبة والتجاوز عن المسيء^(٩٦) ما يؤكد احترام المرابطين للهوية الأندلسية، وخاصة في قرطبة التي استمرت عاصمة للأندلس على مدى أربعة قرون، وكان لأهلها اعتزازاً بأنفسهم وبقوميتهم بل وأحسوا بالتمايز عن غيرهم من الشعوب^(٩٧)، وعاش المرابطون ومن بعدهم الموحدون كطبقة عسكرية شبه منعزلة عن السكان، ولذا لم يحدث في عهدهم تغير في البنية السكانية^(٩٨). ولكنهم ساروا على نظام نشر العدل الاجتماعي بين السكان، والاهتمام بالشعب وتغدق أحواله، إضافة إلى تقريب طبقة الفقهاء كرموز دينية حظيت بتقدير واحترام المجتمع، نتيجة سيطرة الأيدلوجية الدينية عليه^(٩٩)، وبذلك ساهموا بشكل كبير في الحفاظ على الهوية الاجتماعية.

أما ما يخص التعايش بين السكان، أو التسامح مع غير المسلمين، وأثره على بناء الهوية الاجتماعية؛ فهناك اتهامات من بعض المستشرقين، أو من سار على نهجهم، للمرابطين والموحدين باضطهاد هذه العناصر، مستندين إلى بعض الأقوال ومنها: ما ذكر حول مطالبة يوسف بن تاشفين لليهود بالوفاء بالعهد الذي

أخذوه على أنفسهم في عصر الرسول بترك اليهودية واعتناق الإسلام إذا مرت خمسة قرون ولم يظهر المهدي المنتظر^(١٠٣)، وورد أن هذه الوثيقة تم العثور عليها في أوراق ابن مسرة المعتزلي، ويبدو أن هذه القصة كان متفقاً عليها بين الأمير يوسف بن تاشفين والفقهاء الأندلسيين، لتقليص نفوذ اليهود الذي وصل إلى درجة كبيرة في عصر ملوك الطونف^(١٠٤). ونجم عن هذه القصة فرض ضريبة على اليهود القاطنين في مدينة اللسانة^(١٠٥)، ولو أن يوسف بن تاشفين كان مضطهداً لليهود لطردهم من مدينة اللسانة وهدم المدينة، خاصة وأنهم كانوا يشكلون قوة اقتصادية قد تهدد أمن دولته، ولكنه اكتفى بتقليص نفوذهم.

أما عصر علي بن يوسف (٥٠٠-٥٣٧هـ/١١٠٧-١١٤٢م) فقد شهد تسامحاً كبيراً مع أهل الذمة حتى وصف بصديق النصارى، وقد استخدمهم كحرس خاص، واستخدم اليهود في جباية الأموال كما اعتاد الحكام المسلمون^(١٠٦).

وفي عصر الموحدين اتهموا باضطهاد اليهود وإخلاء البلاد منهم، مستدلين على ذلك بهجرة أعداد من اليهود إلى المشرق، إضافة إلى ما ورد في كتاب عبد الواحد المراكشي من أنه لا يوجد ذمي في المغرب والأندلس، بعد قرار الخليفة عبد المؤمن الموحدي بإخراج هذه العناصر من المغرب والأندلس^(١٠٧). وهو أمر مبالغ فيه، لأن الدراسات أثبتت وجود أعداد من اليهود في عصر بني الأحمر^(١٠٨)، كما أن اليهود هاجروا إلى المشرق بعد أن فتح لهم صلاح الدين باب العودة إلى فلسطين^(١٠٩). واستمر التسامح في عصر بني الأحمر واحتفظت الهوية الاجتماعية الأندلسية بقوتها برغم وجود أعداد من المدجنين في المدن الساقطة في أيدي الأسبان، وهجرة أعداد كبيرة من السكان خارج الأندلس^(١١٠).

الهوية الثقافية ودور الحكام فيها :

كانت الهوية الثقافية في الأندلس إرثاً طبيعياً للهوية السياسية والاجتماعية، ولعبت السلطة دوراً رئيسياً في ذلك منذ بداية حكمهم للأندلس، وظهر ذلك في حرص الولاة مع قلة الإمكانيات المتاحة لهم على بناء المساجد كمؤسسات دينية وعلمية وثقافية حيث كان لها دوراً كبيراً في نشر الإسلام وبناء الشخصية الثقافية للأندلس^(١١١).

وكما كان للأيوبيين دوراً ريادياً في بناء الهوية السياسية والاجتماعية لم يقبلوا بأقل منه في بناء الهوية الثقافية، وبرز ذلك من خلال إجراءات اتخذوها وخطوات ساروا عليها، بدأت بإصرارهم على اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية في مراسيمهم وأوامرهم وقوانينهم ومعاملاتهم وعملتهم فكانت خطوة إيجابية نحو بناء الهوية الاجتماعية والثقافية، بما قدمته من التقريب بين عناصر السكان وتذويب

العنصرية بكل صورها، وحدث التلاحم الاجتماعي الذي أدى إلى انصهار ثقافي نتج عن وجود لغة للتواصل الاجتماعي والفكري، كما سبقت الإشارة.

ولعل في اتخاذ الأمويين للمذهب المالكي مذهباً رسمياً للدولة، والسعي لنشره في الأندلس، ما رمخ الوحدة الفكرية، ورجح المذهب السني في نفوس الأندلسيين على غيره من المذاهب، وأبعد الفكر الأندلسي عن الأفكار السائدة في الشرق، كالفوارج والمرجئة وغيرها، ويرجع ذلك لأن المذهب المالكي قد دخل الأندلس مع بدايات تكون الشخصية الأندلسية، فأحبوه واقتنعوا به، وبخاصة لما امتاز به من المرونة والتناسب مع البيئة الأندلسية، فدافعوا عنه وأصروا عليه، ولم يكن المذهب المالكي مذهباً دينياً فحسب بل كان فكراً وأسلوباً حضارياً دفعهم لعب العلم^(١١٢). ولم يكن تمسك الأندلسيين بالمذهب المالكي حجراً على الفكر، ولكن سالت أجواء من الحرية الفكرية في الأندلس، أو ما سمي بوحدة التنوع.

وكان لأمراء بني أمية دوراً كبيراً في العناية بالدراسات الفقهية، وتشجيع الفقهاء بشتى السبل، حتى ظهر أقطاب للمالكية خلال القرن الخامس الهجري من أشهرهم: أبو الوليد الناجي بمؤلفاته الشهيرة، والطرطوشي وابن عبد البر وغيرهم^(١١٣)، واستمرت لهذا المذهب الريادة حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، رغم ما أصابه من جمود وتوقف الاجتهاد، والاقتصار على المختصرات والشروح التي تخدم الفقهاء في وظائفهم فقط^(١١٤).

مع أن الموحيدين دخلوا الأندلس بمذهب وفكر مغاير للمذهب المالكي، وسعوا لنشر مذهبهم الظاهري، إلا أن غالبية الأندلسيين تمسكوا بالمذهب المالكي لأنه كان يشكل جزءاً من هويتهم. ولأن ثورة الموحيدين كانت فكرية مذهبية، فإنهم سعوا للقضاء على الجمود الذي أصاب المذهب المالكي، بالتخلص من كتب الفروع والعودة إلى الأصول، فنهضوا بالمذهب المالكي.

وعلى الرغم من سيادة المذهب المالكي على الفكر والثقافة الأندلسية، إلا أن هذا لا يعني جموداً فكرياً أو حجراً من السلطة على حرية الفكر الأندلسي التي ظلت سائدة على مر العصور. وهذا يعارض ما رآه البعض من خلال تعرض بعض المفكرين من قبل الحكام على فترات متعددة دليلاً على جمود الفكر الأندلسي أو معوقاً للنهوية الثقافية، فهذا أمر بعيد عن الصواب، حيث ترجع هذه المحن إلى أسباب سياسية وليست فكرية مثل محنة "أبو الوليد بن رشد" الذي اتهم بالإلحاد ثم تم نفيه^(١١٥)، أو لما حدث مع ابن مسرة المعتزلي^(١١٦) وابن حزم الظاهري^(١١٧). والحقيقة أن السلطة حاولت استرضاء الفقهاء من جهة، وحافظت على الحرية الفكرية من جهة أخرى، فسمح الأمير محمد للفقهاء بقاء بن مخلد أن ينشر فكره ومذهبه الشافعي، وحماه من فقهاء المالكية^(١١٨)، ودخلت في عهده رسائل إخوان

الصفاء التي جلبها الفيلسوف الكرمتي من الشرق^(١١٩). وكذلك المنصور بن أبي عامر الذي أحب الفلسفة، ولكنه حرق بعض كتبها إرضاء للفقهاء^(١٢٠)، ووجود تلاميذ لابن مسرة وعلى رأسهم إسماعيل أريعتي في القرن الخامس الهجري، ما يؤكد تسامح السلطة معهم خلال القرن الرابع الهجري. واستمرت هذه المدرسة إلى القرن السادس الهجري، حيث يعد محيي الدين بن العربي، آخر روادها دليلاً آخر على حرية الفكر خلال عصر المرابطون^(١٢١). ولم تكن المحن هي السائدة في الأندلس، ولكنها مواقف فردية لا يمكن الحكم على الحياة الثقافية من خلالها، كما أن هذه الأمور تكررت في شتى المناطق وعلى مر العصور^(١٢٢).

وقد شهد عصر الموحدين، الذي واكب عصر النضج والاستقرار للهوية الاجتماعية، نهضة ثقافية وحرية فكرية نتيجة لتعدد المذاهب الدينية، سواء المذهب المالكي أو المذهب الظاهري، أو المذهب الشافعي الذي انتشر في عصر الموحدين لأنه مذهب الإمام الغزالي الذي تتلمذ ابن تومرت على يديه، وقيام المناظرات والمجالس العلمية بين هذه المذاهب، وازدهار ثقافات جديدة كعلوم الجدل والكلام والمنطق والفلسفة، وغيرها من العلوم العقلية^(١٢٣).

واستمرت الحرية الفكرية في عصر بني الأحمر، وتنوعت الثقافات مع تزايد الاختلاط بالحضارة الإسبانية، وتوارى الاهتمام بالفلسفة ليحل محلها الفكر الصوفي نتيجة الضغوط السياسية، ومع ذلك ظهر أكبر عدد من العلماء في هذه الفترة وازدهرت العلوم بشكل كبير^(١٢٤).

وساهمت السلطة في البناء المادي للحضارة الأندلسية، من خلال الاهتمام بالعمارة التي تمثلت في بناء العواصم (كالزهاء والزاهرة)، والمدن كمرآكز ثقافية وعلمية (مثل غرناطة ومرسية وبطليوس وقلعة رباح وغيرها)، وما تحتويه هذه المدن من المساجد الهائلة الأعداد، والتي شكلت مؤسسات تعليمية وثقافية في آن واحد وكان لها دور رئيسي في الحركة العلمية، وخاصة مع تأخر ظهور المدارس إلى عصر بني الأحمر^(١٢٥)، إضافة إلى القصور والقلاع والحصون والأسوار والأبراج والفتاخر والأسواق والقيساريات^(١٢٦) وغيرها من المعالم التي كانت شاهداً على الحضارة الأندلسية^(١٢٧).

وقد ظهر الفن المعماري الأندلسي بكل خصوصياته، حيث مزج بين الحضارات القديمة والحضارة الإسلامية، فيشير بعض المؤرخين إلى أن ثمة تشابه بين مسجد قرطبة الذي أسسه عبد الرحمن الداخل، وبين مسجد دمشق الذي أسسه أجداده الأمويون في المشرق^(١٢٨) وبين قصر قرطبة والقصر الدمشقي كنوع من التأكيد على التأثير الشامي على الأندلس^(١٢٩)، وهناك الكثير من الكتابات التي تؤكد على تأثير المعمار الأندلسي بالمعمار الشامي طوال عصر الأمويين. ومن ناحية

أخرى نجد الخليفة الناصر لا يستكف أن يوجه سفارة إلى روما لشراء بعض الأعمدة الرومانية المتخلفة من معابدها، ليستفيد بها في تشييد مدينة الزهراء، كما أرسل سفارة أخرى إلى القسطنطينية لشراء بعض التحف والسواري الرومانية القديمة. وفي عهد الخليفة المستنصر أوفد سفارة إلى بيزنطة لإحضار صانع بيزنطي مختص في تنزيل القسوفساء في زيادة المسجد الجامع بقرطبة^(١٢٠).

واعتنى الحكام أيضاً ببناء المكتبات تشجيعاً للعلماء ومشاركة في ازدهار الحياة العلمية. ومن أشهر هذه المكتبات: المكتبة التي أسسها الخليفة الحكم المستنصر، والتي كانت أكبر مكتبة في العصور الوسطى^(١٢١)، والمكتبة التي أنشأها المنصور بن أبي عامر في مدينة الزاهرة^(١٢٢)، والمكتبات التي أسسها ملوك الطوائف في العديد من المدن^(١٢٣)، ومكتبات أشبيلية التي شهدت نهضة علمية في عصر الموحدين^(١٢٤)، والمكتبات التي تأسست في عصر بني الأحمر^(١٢٥)، ناهيك عن مكتبات القصور والمكتبات الخاصة التي تواجدت في بيوت العلماء والمثقفين، وشملت حتى غير المهتمين بالعلم، الذين حرصوا على اقتناء الكتب كنوع من التفاخر والتباهي، إضافة إلى مكتبات المساجد، وبدأت هذه الظواهر منذ العصر الأموي، ثم صارت سنة متبعة كجزء من حياة الأندلسيين^(١٢٦). ولا يمكن إنكار دور الحكام الأمويين في سيادة المناخ العلمي في الأندلس، وحرص حب العلم في نفوس الأندلسيين حرصاً منهم على تحقيق المباداة السياسية والتميز الحضاري لدولتهم، ثم اعتنى من جاء بعدهم بالعلم إرضاء للعامة، وإتباعاً لسنة الحكام السابقين، وأملاً في الوصول لنفس التميز الحضاري الذي حققه الأمويون وأهم من كل ذلك: السعي للخصوصية التي حازها الأندلسيون وحرصوا على بقاءها.

كما قام الحكام الأندلسيون بتشجيع الرحلات العلمية إلى المشرق الإسلامي للإفادة من الحضارة العباسية، وفتحوا أبواب الأندلس للمشاركة، فتوافدوا على الأندلس، وأثروا على الثقافة الأندلسية بشكل كبير، ومن أشهرهم زرياب المغني، وأبو علي الفارسي اللغوي، وسنان بن ثابت الحراني الطبيب وغيرهم. وكان للرحلات وما نجم عنها من انتشار الكتب المشرقية في الأندلس، وسعي الحكام لجلبها إلى الأندلس^(١٢٧)، دور رئيسي في بناء الهوية الثقافية الأندلسية، التي اعتمدت على الشرق في البداية، ثم أضافت إليه، ومن ثم خرجت بإبداعات ميزتها، وبذلك نضجت الشخصية الأندلسية. ولا يمكن إغفال دور الرحلات الدائمة والمستمرة بين المغرب والأندلس، وخاصة تحت حكم المرابطين والموحدين، وانضمامهم تحت كيان سياسي واحد، ووجود مراكز علمية في المغرب، وخاصة مراكش العاصمة السياسية ومركز الإشعاع الحضاري لكلا الدولتين.

ومن الملاحظ أن الدراسات الدينية كان لها مكان الصدارة من عناية واهتمام العلماء، فقاموا بإنتاج مؤلفات خاصة بهم، وبرزت شخصيتهم من خلال استبعاد الأفكار المتطرفة، وإن قرأوا فيها وتعرفوا عليها ونقدوها، وظهر ذلك جلياً في كتاب ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل.

وفي مجال الدراسات اللغوية والأدبية نمت الشخصية الأندلسية بشكل مبكر، نتيجة للبيئة السياسية الآمنة المستقرة في أغلب الأحيان، والبيئة الجغرافية ذات الطبيعة الخلابة والمناخ المعتدل، فتميز الشعر الأندلسي بأغراضه، وظهر النثر الأندلسي بصورتيه الموشح والزجل الذي نتج من انصهار الثقافة الأيبيرية والثقافة الإسلامية كما أنهم كتبوا بالخط الأندلسي الذي ميزهم عن الخط المشرقي^(١٣٨).

وساهمت حركة الترجمة، التي قام بها الخليفة عبد الرحمن الناصر، في تطور العلوم العقلية في الأندلس وخاصة علم الطب، وكان للتسامح الديني أهميته في إتمام هذه الحركة، حيث استعان بطبيبه حسداي بن شبروط وعدد من النصارى واليهود، ومنهم نيقولا الذي أرسله ملك الروم لمعرفته باللغتين الإغريقية واللاتينية، والذين قاموا بترجمة كتاب ديسقوريدس في الطب^(١٣٩). واستمرت هذه الحركة في عهد الخليفة للحكم المستنصر الذي حوت مكتبته أعداداً من كتب أجنبية تمت ترجمتها^(١٤٠)، وأنت ثمارها في القرن الخامس الهجري حيث اكتملت الشخصية الأندلسية في العلوم، وانتقلت إلى أوروبا عن طريق مدرسة الترجمة في طليطلة^(١٤١).

ومع الإقرار التام بفضل السلطة في بناء الهوية الثقافية الأندلسية، فإن العلماء والمتفكرين ساندوا السلطة بشكل كبير في بناء الهوية السياسية للأندلس، من خلال ترسيخهم للمذهب المالكي، الذي يخدم أهداف الدولة، ويحقق مطلبها في الوحدة سواء السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية.

وقد أشار الدكتور إبراهيم حركات - في سلسلة مقالاته عن الثقافة الأندلسية من النشأة حتى الاستقرار - إلى الدور الذي قام به العلماء في التقريب بين السلطة والمجتمع في مرحلة النشأة^(١٤٢)، ودورهم في الدعوة إلى الجهاد والغزو وتحسيس الناس له^(١٤٣). والحقيقة أنهم استمروا في التقريب بين السلطة والمجتمع حتى في مرحلة التضج، وليس أدل على ذلك من وصية الباجي لولديه بطاعة ولي الأمر، والبعد عن التفرق، وأن الحاكم الظالم أفضل من التعرض للفتن^(١٤٤). كما أن دورهم في الدعوة إلى الجهاد والغزو استمر في كل المراحل والعصور^(١٤٥).

وقد برز دور الفقهاء جلياً في الحفاظ على الهوية السياسية للأندلس، حينما استدعوا المرابطين لإنقاذ دولتهم من السقوط نتيجة لضعف ملوك الطوائف، وسعياً للحفاظ على الوحدة السياسية^(١٤٦)، وكان تدخلهم في بعض الأمور السياسية،

خلال عصر المرابطين، بهدف الحفاظ على الهوية السياسية الإسلامية لدولة المرابطين سواء في المغرب أو في الأندلس، مثل فتوى ابن رشد بناءً على مراكش، أو فتواه بتغريب النصارى المعاهدين بعد اشتراكهم في حملة ألفونسو المحارب (٥١٩هـ / ١١٢٥م) ^(١١٧).

وإن كان للأندلس والشعراء الأندلسيين، الذين برزوا خلال عصر ملوك الطوائف ^(١١٨)، دور سلبي تجاه السلطة المرابطية التي أهملتهم ولم تجزّل لهم العطاء، أو تحشدهم في بلاطها للتملق والانتفاف حول السلطة كما اعتادوا، فأظهروها بشكل الدولة المتخلفة البعيدة عن العلم، واستغلوا نضج هوية الأندلسيين الثقافية في غرس روح القومية والتعالى ^(١١٩) وتوارت الهوية الإسلامية وراء الهوية الأندلسية، فكانها أعادت روح العنصرية التي حاربها الإسلام، ولذا كره الأندلسيون الحكم المرابطي برغم ما قدمه لهم من جهود حافظت على هويتهم السياسية.

ولم تكن العلاقة طيبة دائماً بين السلطة والمثقفين، فقد سبقَت الإشارة إلى تعرض العلماء للمحن من قبل السلطة، فنتج عن ذلك نفور عدد كبير منهم من المناصب أو من التقرب للسلطة، وسبقَت الإشارة إلى أن هذه المحن لم تكن مسؤولية السلطة دائماً، إذ نعت الوشائيات والدسائس دوراً هاماً فيها، كما أن السلطة كانت تساند المثقفين أحياناً إذا تعرضوا لمثل هذه الوشائيات أو الدسائس، مثلما حدث مع بَقِي بن مخلد الذي كان على المذهب الشافعي، وأنصفه الأمير محمد على الفقهاء، وسمح له بنشر فكره، وكذلك مساندة الخليفة المنصور الموحدي لأبي بكر بن زهر وحمايته من الوشائيات ^(١٢٠). وإن كان هذا لا يعطى السلطة من الانقلاب على بعض المثقفين أحياناً مثلما حدث مع أبي حفص الهوزني ^(١٢١) وابن حزم ^(١٢٢) وأبي الوليد بن رشد ^(١٢٣).

أما عن علاقة السلطة بالمثقفين والعلماء في عهد بني الأحمر، والتي أسهمت في ضعف الهوية الثقافية الأندلسية فقد كانت مليئة بالتملق من جانب المثقفين للوصول إلى المناصب، وانتشرت الدسائس بين المثقفين نتيجة ضيق فرص العمل بعد سقوط غالبية المدن الأندلسية وسوء الظروف الاقتصادية والاضطرابات السياسية، وذلك أصاب الحياة الفكرية نوع من الجمود ^(١٢٤).

وهناك عشرات واجهت الهوية الثقافية في الأندلس وعرقلتها بعض الشيء كالفتن والاضطرابات السياسية والصراعات حول السلطة، مثلما حدث بعد ثورة الرضى من حرمان الأندلس من عدد من علمائها ومثقفها ^(١٢٥)، فكان لفئة قرطبة أثر بالغ على المسيرة الثقافية، حيث تعرضت مدينة قرطبة ومنشأتها للتخريب، وخربت مكتبة الخليفة المستنصر، وتم بيع الكتب الموجودة فيها، كما نهبت سائر

مكتبات قرطبة بعدما تعرض الشعب للمجاعة والقحط، وتعرض عدد من العلماء والمثقفين للسجن^(١٥٦).

وكان للتمزق السياسي، الذي عاشته الأندلس في عصر ملوك الطوائف، أثره على الحياة الثقافية، فنشأت طبقة من المتملقين للحكام، والباحثين عن المال والمنصب، من الأدباء والشعراء والطابعين من الفقهاء^(١٥٧)، وفي المقابل ظهر العديد من الفقهاء الذين تمسكوا بفكرة الوحدة، وتدعوا بملوك الطوائف منهم ابن حزم، وأبو الوليد الناجي، والقليعي، وأبو العباس بن الرملة، وغيرهم^(١٥٨).

وإذا اعتبرنا أن القرن الخامس الهجري شهد نضج واكتمال الشخصية الثقافية للأندلس فإن الفضل في ذلك يرجع إلى جهود بني أمية التي أثمرت في هذه الفترة، ولا يمكن إنكار الإضافة الإسبانية من خلال الحضارة الأيبيرية القوطية والرومانية، وانصهارها مع الثقافة الإسلامية الشرقية بالشكل الذي صبغ الثقافة الأندلسية بطابع شديد الخصوصية^(١٥٩). كما أن تعدد المراكز الثقافية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف وحرص الحكام على إيمانها ورعايتها، والتنافس الثقافي فيما بينها وتنوع اهتماماتها، إلى بروز الشخصية الثقافية في عصرهم وظهور الأعلام بإبداعاتهم في المجالات المختلفة^(١٦٠).

وبالطبع كان لنمو حركة الاسترداد الإسباني أثراً سلبياً على الحياة العلمية، فهاجرت أعداد كبيرة من العلماء خارج الأندلس، وسادت أجواء الركود والمؤامرات حول الوصول إلى الوظائف كما سبق التنويه في عصر بني الأحمر.

وكما كان للأمن والاستقرار دور رئيسي في نمو الهوية الثقافية، فإن العامل المادي كان له أهمية كبرى في رعاية السلطة للمثقفين ولذا ارتبطت المسيرة الثقافية بالمسيرة الاقتصادية في أحيان كثيرة^(١٦١). وإذا كانت الشعوبية التي ظهرت في الأندلس متأثرة بالمشرق، قد شكلت عائقاً أمام الهوية الإسلامية بكل صورها، فإن نظام المواطنة الذي سارت عليه السلطة، قد فتح باب الأندلس على الحضارات الأخرى، وجعلها تتغلب على مثل هذه النظرات القصيرة الأفق. وهكذا فإن الهوية الثقافية للأندلس بنيت على التسامح والانفتاح على الحضارات، وتقبل فكر الآخر، وقبول التعددية الثقافية، فيما عرف بتنوع الوحدة أو وحدة التنوع.

الهوامش

(١) Andlucia un país con historia , apuntes para una Historia de Andaluclia.

(٢) عبد الواحد طه ذنون: نص أندلسي من تاريخ ابن أبي الفياض، دراسات في تاريخ الأندلس، الموصل، سنة ١٩٨٧م.

(٣) العزري: ترصيع الأخبار وتلويح الآثار، ت: عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة ١٩٦٥م، ص ٤، ٥ .

(٤) عبد الواحد طه ذنون: التنظيم الاجتماعي للأندلس في عصر الولاة، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٢، سنة ١٩٨٧م، ص ١٨٣ - ١٨٥.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ت: ج. س. كولان، ليفي بروفسال، الدار العربية للكتاب، ط ٣، ج ٢، ص ١٠٤٢ المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: يوسف البقاعي، ج ٤، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٨٦م، ص ٢٨

(٦) ليفي بروفسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، مج ٢، ج ١ - التنظيم والمؤسسات والحياة الاجتماعية والفكرية، ت: علي عبد الرؤف المهي، علي إبراهيم المنوفي، صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، سنة ٢٠٠٠م، ص ٧٣. يشير المؤلف إلى أن الثغور التي أنشأها الأمويون في الأندلس صورة مطابقة للثغور العباسية في المشرق.

(٧) محمد عبد الله عثمان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٨٨م، ج ١، ص ١٠٩٩ محمد أحمد أبو الفضل: بحث حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، سنة ١٩٩٦م، ص ٦٢.

(٨) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، نشر بامكوال جارتيا جومس، سنة ١٩٦٨م، ص ٣٠ وما بعدها. مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم، نشر: محمد أسامة الكرم، دمشق، مدريد، ط ٣، سنة ١٨٦٧م، ص ١٠٩١ المقري: نفع الطيب، ج ٤، ص ١٤٧.

(٩) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، سنة ١٩٩٢م، ص ٣٠٤.

(١٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ١٠٦١ عبد المجيد النضي: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٨٦م، ص ١٧٢.

(١١) أميروك كاسترو: إسبانيا في تاريخها، المسيحيون - المسلمون - اليهود، ت: علي إبراهيم منوفي، م: أحمد أبو حامد، المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، سنة ١٩٩٤م، ص ٥٩.

- (١١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١٤. حيث يرى أن الأمير هشام تظاهر بالتدين ولم يكن كذلك، وإنما كان سياسياً يجتنب الناس إليه، واستدل على ذلك بأنه سمل عيني شاعر لأنه مدح لهاء.
- (١٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، نشر: باسكوال ديخاريا نجوس، غوليان ريبيرا، مدريد، سنة ١٩٦٨م، ص ١٩٢. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ت: ليفي بروفنسال، ط ٢، سنة ١٩٥٦م، ص ١٢. وصف ابن الخطيب الأمير هشام بأنه بمنزلة عمر بن عبد العزيز في قومه.
- (١٣) ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس في تاريخ الأندلس، ت: محمود مكي، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، ط ١، سنة ٢٠٠٣م، ص ١٩٧.
- (١٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٦٣، ٦٤.
- (١٥) ابن حيان: المقتبس، ص ١١٦.
- (١٦) عبد المجيد التغمي: تاريخ الدولة الأموية، ص ١٧٤.
- (١٧) أميروكو كامسترو: المرجع السابق، ص ٦٠. يرى أن قوة الإسلام مرتبطة بالزعامات القوية الفاعلة على تشجيع الهمم بالانتصارات وإبهار الجماهير بالثورات التي كانت في الأندلس. والصواب أن قوة الكيان السياسي الإسلامي في إسبانيا هي التي ارتبطت بالزعامات، وليس الإسلام نفسه لأنه متقبل في بلوس أتباعه سواء كان الكيان السياسي قائماً أو لم يكن.
- (١٨) ابن عذاري: البيان، ج ٢، ص ٧٢، ٧٤. عبد المجيد التغمي: تاريخ الدولة الأموية، ص ١٩٥-٢٠٠.
- (١٩) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤١، ٥٠، ٥١. ابن حيان: المقتبس، ص ١٠٥.
- (٢٠) ابن عذاري: نفس المصدر، ص ١٦٩. ابن غالب: فرحة الأندلس، ص ١١٤.
- (٢١) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ٤١، ٥٠، ٥١. ابن حيان: المقتبس، ص ١٠٥ - ١٠٧.
- ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأندلس في تاريخ الأندلس، ت: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١، ج ٢، سنة ١٩٥٥م، ص ١١٤. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٩٠. ابن عذاري: البيان، ج ٢، ص ١٦٩. ابن السمك: الزهراء المنورة في نكت الأخبار المأثورة، ت: محمود مكي، منشورات المعهد المصري، مدريد، ص ١١٥.
- (٢٢) محمد عبد الله علان: دولة الإسلام، ص ٢٣٣.
- (٢٣) ابن حيان: المقتبس، ص ١٩٧ - ١٩٩.
- (٢٤) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١١، ٣١٢.
- (٢٥) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٣ - ٦٥.
- (٢٦) ابن حيان: المقتبس، ص ٤٥٠.
- (٢٧) نفس المصدر، ص ١٢٠٨. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٩.
- (٢٨) ابن حيان: المقتبس في ذكر رجال الأندلس، ت: محمود مكي، سنة ١٩٧١م، ص ١٨٠.
- (٢٩) نفس المصدر، ص ٢٨٣.

- (٢٠) نفسه، ص ٢٩٤.
- (٢١) ابن السماك: الزهرات المنشورة، ص ١٣١.
- (٢٢) ورد أن سيمونيت أرجع سبب حركة الشهداء إلى اضطهاد النصارى ثم عاد وتناقض نفسه حينما أشار إلى توليهم الوظائف والمناصب الكبرى واستخدامهم كعناصر في الجيوش، أما ألتاميرا فإشار إلى أن المضايقات جاءت من الشعب نفسه وليس من الحكام. انظر: محمد عبد الله علان: دولة الإسلام، ج ٢، ص ٢٧٠، ٢٧١. ولترد عليهم نقول: إن حركة الشهداء لم تكن نتيجة ضيق اقتصادي أو تضيق اجتماعي، وإنما هي ناتج إلهام الشعور الوطني، والرغبة في المشاركة السياسية، والوصول إلى الحكم، لأهم سكان البلاد الحقيقيين، أي أن أسباب الحركة سياسية وليست عقائدية أو اجتماعية.
- (٢٣) ورد أن زعيم حركة الشهداء يسمى الليرو يرجع إلى أصل يهودي وهو أمر يفسر تشدده وتصعبه ضد الإسلام خاصة أن اليهود لم يشعروا بالهوية والانتماء تجاه أي شعوب أو حكومات أو دول، لأسباب تخص عقيدتهم.
- Simonete: Historia de Mozarabes , Amesterdam , Oriental , Press , ١٩٧٦ , p.١١٣.
- (٢٤) دوزي: المسلمون في الأندلس، ت: حسن حبشي، ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٨م، ص ١٠١، ١٠٢.
- (٢٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٩، ص ٩٠.
- (٢٦) القاضي عياض: مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، ت: محمد بن شريفه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٠م، ص ٨١. يشير إلى أن ذمي استغف بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالإسلام فإلتى بأن يسجن فإذا ثبت عليه الأمر يحكم القاضي بقتله.
- (٢٧) عبد المجيد النطنج: تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٩١.
- (٢٨) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٤٧.
- (٢٩) أمبركيو كاسترو: أسبانيا في تاريخها، ص ٦٠.
- (٣٠) عبادة كحيل: الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، دار عين للطباعة، ط ١، سنة ١٩٩٥م، ص ٤٠ حيث يشير إلى أن الطبيعة الجغرافية أثرت على الأندلسيين فعاشوا في مجتمعات منعزلة بعضها عن بعض حتى أصبح الميل إلى الإقليمية يفوق الولاء للدولة الكبيرة.
- (٣١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٤٤. انظر أيضاً محمود إسماعيل: إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر العربي، عامر للطباعة والنشر، المنصورة، ط ١، سنة ١٩٩٦م، ص ٢٤. حيث يشير إلى أن الحركات الانفصالية تعود إلى سيادة التنظيم الإقطاعي في الأندلس وتأثرها بفكر إخوان الصفا الليبرالي الذي يعد ثورة على النظام الإقطاعي المسائد في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً .

- (١١) اعتبر المستشرقون عمر بن حفصون بطلا قوميا يسعى لإحياء القومية الإسبانية، رغم أنه استغل هذه العناصر لتحقيق أغراض سياسية. بدرو شالميتا: ضوابط عمر بن حفصون، قصص من تاريخ الأندلس، بداية النهاية، ترجمة عبد الفتاح عوض، عين للدراسات الإسلامية، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص ٩٠.
- (١٢) ساعدت هذه الحركة على توسع الدول الإسبانية المعارضة للعرب في الشمال والتي تمثل صلب حركة الاسترداد. علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد الإسباني وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربة في كبح جماحها، جامعة دمشق، التاريخ العربي، ج ١، سنة ٢٠٠٢م، ص ١٦٦.
- (١٣) فاروق عمر فوزي: حول طبيعة الحركة الشعبية، من مظاهر الحركة الشعبية في الأندلس، مجلة الموزع العربي، ج ٣٢، سنة ١٩٨٧م، ص ١٥٤. يرى د/ حسين مؤنس أن هذه الثورات اجتماعية تعبر عن إهمال الحكومة لهذه العناصر وسوء أحوالهم: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٤٩.
- (١٤) ابن حيان: المقتبس في ذكر رجال الأندلس، ت: إسماعيل العربي، ط١، سنة ١٩٩٠م، دار الأفاق الجديدة، المغرب، ص ١٤٤، ١٤٥. ابن الطوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٠ وما بعدها. مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم، نشر: محمد أسامة الكرم، دمشق، مدريد، ط٣، سنة ١٨٦٧م، ص ٩١.
- (١٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٩.
- (١٦) ابن حيان: المقتبس، الجزء الخامس، ت بدرو شالميتا، ف. كورينطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، سنة ١٩٧٩م، ص ٥٨ وما بعدها. ابن الخطيب: أحوال الأعلام، ص ١٣٣. مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٥٣.
- (١٧) مدونة عبد الرحمن الناصر، ت: ليفي بروقتمال، إميليو غرسيا غومس، مدريد، سنة ١٩٥٠م، ص ٣٠ يشير إلى حرصه على مظاهر البيئة في الإسلام، كما كانت أيام الخلفاء الراشدين، وهو أمر يؤكد دور الإسلام في تدعيم الهوية السياسية للأندلس. ابن حيان: نفس المصدر، ص ٢٤١.
- (١٨) ابن حيان: المقتبس، ج ٥، ص ٢٤٣.
- (١٩) يشير صاحب الحلل الموشية إلى أن العامة لقبوه بالخلافة قبل أن يعلنها رسمياً وهذا دليل على سعادة الأندلسيين بالعودة إلى الوحدة وحرصهم على شرعية الحاكم السياسي وارتباطه بالنظام السياسي للحكم. مؤلف مجهول: الحل الموشية في الأخبار المراكشية، ت. سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، سنة ١٩٧٩م، ص ٣٩.
- (٢٠) ابن حيان: المصدر السابق، ص ٤٣١ وما بعدها. ابن عذاري: البيان للمغرب، ج ٢، ص ١٨٥.

- (٢٧) ابن عذاري: نفس المصدر، ص ٢١٢.
- (٢٨) نفسه، ص ٢٢٥.
- (٢٩) اعتبر ابن خلدون أن العصبية أساس قيام الدولة، وأن الدولة الأموية في الأندلس فسدت لما فقدت عصبيتها من العرب، وأن الأمويين استظهروا أنفسهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الأندلس من أهل العوة. ابن خلدون: العرب، ج ١، ت. خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، سنة ١٩٨١م، ص ١٩٥.
- (٣٠) ابن عذاري: البيان، ج ٣، ص ١٠.
- (٣١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٠٣٩٧. أحمد محمد عبد الهادي: العرب في الأندلس - مركز الذاكرة للنشر والإعلام، القاهرة، ط ١، سنة ٢٠٠١م، ص ٣٧.
- (٣٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٨١.
- (٣٣) نفس المصدر، ص ٨٢.
- (٣٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٥٠.
- (٣٥) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ت: إحسان عباس، ج ٢، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ط ٢، سنة ١٩٨٧م، ص ٣٣. يشير إلى الضعف المسيحي وتسلیم الحصون دون قتال.
- (٣٦) علق الطرطوشي على ذلك بأن المسلمين في الأندلس في عصر الطوائف اعتلوا بجمع المال، بينما تقوى العدو على حسابهم بجمع الرجال. سراج الملوك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢، سنة ١٤١٢هـ، ص ١٠٨. أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، ص ٦٥. يشير إلى أن الهبة العسكرية للمسلمين بدأت في الاضمحلال ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي.
- (٣٧) يشير سيمونيت إلى أن ملابطة مستقلة تحت حماية ملك ليون منذ عصر الأمير محمد. Simonete : Historia los Mozarabes , Tom x111 , Madrid , 1897 , P. 504 - 506.
- (٣٨) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص ١٤١. الناصري: الاستقصار في تاريخ المغرب الأقصى، ت. جعفر الناصري و محمد الناصري ، ج ٢، لدار البيضاء، سنة ١٩٥٤م ، ص ٢٠٩.
- (٣٩) الناصري: الاستقصار، ج ٢، ص ٢٠٦.
- (٤٠) محمود مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، مدريد، سنة ١٩٥٩م، ١٩٦٠م، ص ١٤٣، ١٢٦، ١٤٤. مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص ٩٠.
- (٤١) الناصري : المصدر السابق، ص ٢٦٠.
- (٤٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس (الكنيس المطرب)، دار المتصورة للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٢م، ص ٢٠٦، ١٢٠٧. الناصري: الاستقصار، ج ٢، ص ١١٠، ١١٥.
- (٤٣) ابن خلدون: العرب، ج ١، ص ٢٠٨، ٢٠٧.
- (٤٤) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٥٣.

- (٧١) علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد الإسباني، ص ١٧٨.
- (٧٢) رابح عبد الله المغراوي: تاريخ الأوضاع المضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين ابن الخطيب، حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٠، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، سنة ٢٠٠٠م، ص ٣٨.
- (٧٣) أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، ص ١٠٢٤. دوزي: المصطلحون في الأندلس، ج ٣، ص ١٦٣، ١٦٤. رأوا أن التسامح في الأندلس استمر أربعة قرون وانتهى بمجيء المرابطين.
- Simonets: Historia de los Mozarabes , p. ٧٤ , ٧٥
- (٧٤) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ت: محمد عبد الله عنان، ج ١، مكتبة الخاتجي، القاهرة، ط ٤، سنة ١٩٧٥م، ص ١٠١. الملحمة البدرية في تاريخ الدولة النصرانية، ت: محب الدين الخطيب، القاهرة، سنة ١٩٢٤م، ص ١١٦. مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص ١١٢. المقرئ: نفح الطيب، ج ١، ص ٣٥٢.
- (٧٥) عبادة كحيلة: النصاري في الأندلس، القاهرة، سنة ١٩٩٣م، ص ٨٥ — ١٠٧. عبد الواحد نون: التنظيم الاجتماعي للأندلس في عصر الولاة، ص ١٨٨ — ١٩٩.
- Dozy: Recherches sur L Histoire et la litterature De L Espagne , Leyde ١٨٨١ , p. ٣ — ٦ , Ann chrhistys :Christian in Andalus , p. ١١.
- (٧٦) أحمد لطايعي: الفلاحمة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عبد، مركز إسكندرية للكتاب، سنة ٢٠٠٤م، ص ٢٢ ومباحثها.
- (٧٧) نفس المرجع، ص ١٤٧ — ١٤٩.
- (٧٨) نشر المؤرخ جونثالث بالنتيا مجموعة من الوثائق في أربعة مجلدات تتعلق بمستعربي طليطنة خلال القرون ١١، ١٢، ١٣، ١٤ م. عصمت نندش: علاقة الأندلس بمملكة قشتالة من خلال الأقليات إلى القرن السابع الهجري، مؤتمر الغرب الإسلامي والغرب المسيحي، ت. محمد حمام، كلية الآداب، الرباط، سنة ١٩٩٥م، ص ١٠٢. ويؤكد العديد من المؤرخين استمرار تأثر المستعربين بالعرب حتى بعد سقوط المدينة.
- Alberto Ferreiro: The Visigoths studies in culture E society, Leiden, ١٩٩٨ , p. ٣١١.
- (٧٩) حسين مؤنس: المغرب والأندلس، ص ٣١٠، ٣١١.
- (٨٠) سحر عبدالعزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، الرباط، سنة ١٩٩٠م، ص ٤٢.
- (٨١) Alberto Ferreiro : The Visigoths studies in culture , p. ٣١١
- (٨٢) كمال أبو مصطفي: المولدون في منطقة لتغر الأعلى الأندلسي و دورهم السياسي في عصر الإمارة الأموية، بحث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة ١٩٩٣م، ص ٤٧، ٥٠.

- (^{٨٧}) عبد المجيد النعني: تاريخ للدولة الأموية، ص ٢٦٣، ٢٦٤ .
- (^{٨٨}) عمر بنميرة: جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس، كلية الآداب - الرباط، ص ١٢٠.
- سحر سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط، ص ٧٠.
- (^{٨٩}) عريب بن سعد: تقويم قرطبة، نشر: نوزي، لندن، سنة ١٨٧٣م، ص ١٤.
- (^{٩٠}) ابن السماك: الزهراء المنثورة، ص ٧٣. ورد في التحقيق أن هذا النظام كان سائدا منذ عصر الأمير محمد.
- (^{٩١}) حول ذلك انظر: عبادة كحيلة: النصارى في الأندلس، ص ١١٣، ١١٤. محمد أبو الفضل: حول السفارات الأندلسية، ص ١٧١. محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٧٠م، ص ٢٣. إبراهيم القادري: المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، قرون من الثقافات والإعطافات، سنة ١٤١١هـ، ص ٢٣٧.
- (^{٩٢}) فاروق عمر فوزي: حول طبعة الحركة الشعبية، ص ١٥٣.
- (^{٩٣}) ابن بسلام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت: إحسان عباس، ق ٣، مج ٢، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، سنة ١٩٨١م، ص ٧٠٥.
- (^{٩٤}) لوي بروغنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من التفتح حتى سقوط الخلافة، مج ٢، ج ١، ص ١٧٣.
- (^{٩٥}) Claudio Sanchez Albomoz: La Espana musulmana Segon los autares , Tom ٢, Madrid , Espasa - clape . S.A , ١٩٧٤ , p. ٢٢٢
- (^{٩٦}) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ت: عبد الهادي التتاري، ص ١٢٤، ١٢٥، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، سنة ١٩٧٨م.
- (^{٩٧}) عبد الوهاب المسيري: الموسوعة اليهودية، مج ٤ من الثنت.
- (^{٩٨}) المقرئ: نفع الطيب، ج ١، ص ٣٧٣.
- (^{٩٩}) نفس المصدر، ص ٣٨٩. لوي بروغنسال: المرجع السابق، ص ١٦٨. إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٨م، ص ٥٢.
- (^{١٠٠}) ابن خلدون: المعبر، ج ١، ص ١٩٥.
- (^{١٠١}) ابن حزم: رسائله، رسالة التوقيف على شارع النجاة، ضمن رسائل ابن حزم، ت: إحسان عباس، ج ٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨٧م، ص ٣٢.
- (^{١٠٢}) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ج ٢، ص ١٧١. المقرئ: نفع الطيب، ج ٤، ص ١٨٠.
- (^{١٠٣}) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص ٨٣.
- (^{١٠٤}) عبادة كحيلة: الخصوصية الأندلسية، ص ٦٦.
- (^{١٠٥}) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٣٦، ١٣٧. الصلاوي الناصري: الاستقصا، ج ٣، ص ١١٥.

- (^{١٠٢}) الناصري: المصدر السابق، ص ١٠١٥. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٣٦، ١٣٧. داود عمر سلامه عبيدات: المرباطون والأندلس، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ط ١، سنة ٢٠٠٧م، ص ٦١.
- (^{١٠٣}) مؤلف مجهول: التحلل الموشية، ص ٨٠.
- (^{١٠٤}) ظريف راشد سيد أحمد فشكل: الحياة السياسية لليهود في الأندلس في عهد بني أمية وملوك الطوائف، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، سنة ٢٠٠٣م، ص ١٥٩ وما بعدها.
- (^{١٠٥}) الإبريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج ٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٩٩٤م، ص ٥٧١.
- (^{١٠٦}) نفس المصدر، ج ١، ص ١٢٣٥. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، دار ناصر للنشر، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨٢م، ص ١٥٤٦. إبراهيم الفلدي: المرباطون وسياسة التسامح مع النصارى، ص ٢٣٧.
- (^{١٠٧}) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: محمد سعيد العربي، إشراف محمد توفيق عويضة، القاهرة، سنة ١٩٦٣م، ص ٣٨٢.
- (^{١٠٨}) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ١٣٨٨. رابع المغراوي: الأوضاع الحضارية لقرنناطة، ص ٣٦.
- (^{١٠٩}) عطية القوسي: سلاح الدين واليهود، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج ٢٤، سنة ١٩٧٧م، ص ٣٩.
- (^{١١٠}) رابع المغراوي: المرجع السابق، ص ٣٦، ٣٧.
- (^{١١١}) محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، إشراف د/ لويس سواريث فرنانديث، تقديم: د/ عبد الحفي عبود، دار الفكر العربي، ط ١، سنة ١٩٨٢م، ص ٢٧٤.
- (^{١١٢}) محمد الكتاني: دراسة تحليلية لكتاب عن تاريخ الأندلس في عهد ملوك الطوائف، أمحمد بن عبود: جوائب من الواقع الأندلسي في ق. ٥هـ، تطوان، مجلة دراسات مغربية، مجلة البحث والبيولوجيا المغربية، ج ١ - ٢، سنة ١٩٩٦م، ص ١٠١. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٤.
- (^{١١٣}) عبير زكريا: دور الفقهاء السياسى والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار العلم والإيمان، ط ١، سنة ٢٠١٠م، ص ٢٣٢ وما بعدها.
- (^{١١٤}) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٢٣٦. مجموعة رسائل موحدة، إصدار ليفي بروغنسفال، مطبوعات معهد العلوم العليا، سنة ١٩٤١م، ص ١٣٢.
- (^{١١٥}) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ٣٨٤. ابن أبي أصيبعة: عيون الأبناء وعلقات الأطباء، ت: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص ٥٣١، ٥٣٢.
- (^{١١٦}) ابن هزم: رسائله، ج ٢، ص ١٨٨.
- (^{١١٧}) ابن بسلام: الأخيرة، ق ١ - ج ١، ص ١٦٨. ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، ج ١، القاهرة، سنة ١٩٩٣م، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

- (١١٨) الحميدي: جذوة للمفتيس، ج ١، ت: إبراهيم الإبراري، دار الكتاب المصري - اللبناني، سنة ١٩٨٣م، ص ٤٠.
- (١١٩) أنخل جونثالت بالنتشا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، سنة ١٩٥٥م، ص ٣٣٣.
- (١٢٠) ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ت. حياة بوعطوان، بيروت، سنة ١٩٨٥م، ص ١٦٤.
- (١٢١) بالنتشا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣٣٢، ٣٣١.
- (١٢٢) محمد الكتاني: دراسة تحليلية لكتاب جوانب من الواقع الأندلسي، ص ١٠١٠ إبراهيم حركات: الثقافة وتبليغها في مرحلة النضج، التاريخ العربي، ع ٧، سنة ١٩٩٨م، ص ٩٨. يشير إلى أن هذه المعن انتشرت في المغرب ومصر وغيرها.
- (١٢٣) فاروق حمادة: النهضة الفقهية في ظل دولة الموحدين، مجلة التاريخ العربي، ع ٤، سنة ١٩٩٧م، ص ١٦٤.
- (١٢٤) محمد المنوني: حضارة الموحدين، الدار البيضاء، المغرب، ب. ت، ص ١٨٢. فاروق حمادة: النهضة الفقهية في عصر الموحدين، ص ١٥٤ وما بعدها.
- (١٢٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣، ص ١٧٦. حوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ت. الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص ٢١٠.
- (١٢٦) تأثر الأندلسيون في بناء القناطر بالأثر الرومانية مثل قنطرة رباح التي بنيت في العصر الإسلامي على نفس نسق قنطرة الوادي التي بنيت في عصر الرومان .
Andalucia para Ninas Y Ninos
- (١٢٧) تؤكد الدراسات أن الحضارة الأندلسية تأثرت إلى حد كبير بحضارة مصر والمغرب و سوريا، وتأثرهم ببغداد في بناء الأسوار .
- Ann christys: Christian in Andlus , p.١٤
- (١٢٨) محمد أبو الفضل : التأثيرات الشلمية في حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، من كتاب تاريخ وحضارة الأندلس، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة ١٩٩٦م، ص ٢٧١.
- Ann Christys : opsit , p.١٦
- (١٢٩) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج ١، مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٤م، ص ٤٨ وما بعدها.
- (١٣٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٧٢. محمد أحمد أبو الفضل: حول السفارات الأندلسية، ص ٧١، ٧٢، ٨٧.
- (١٣١) ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ص ١٦٣، ١٦٢. ابن الأبار: الحلة السبوعاء، ت. حسين مؤنس، ج ١، سنة ١٩٩٣ م، ص ٢٠١. وينسب بناء نواة هذه المكتبة إلى عبد الرحمن

الناصر. حول ذلك انظر. ساميه مسعد: الوراقة والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، دار عين للطباعة والنشر، سنة ٢٠٠٠ م، ص ٦.

(١٢٢) ابن ساعد: المصدر السابق والصفحة.

(١٢٣) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص ٢٢١ - ٢٢١.

(١٢٤) نفس المرجع، ص ٢٢٠.

(١٢٥) نفس المرجع، ص ٢٢٠، ٢٢١.

(١٢٦) نفس المرجع، ص ٢١٨. ساميه مسعد: المرجع السابق، ص ٢٣ - ٢٦.

(١٢٧) المقرئ: نفح الطيب، ج ١، ص ٣٦٩.

(١٢٨) نفس المصدر، ج ٤، ص ١٥٠.

(١٢٩) ابن جلجل: طبقات الأطباء ت: فؤاد سيد، نشر المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، سنة ١٩٥٥ م، ص ١٩٨. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٤٩٤. السيد عبد العزيز سالم:

الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، كتاب تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٥ م، ص ٢٨٣.

(١٣٠) Claudio Sanchez : la Espana musulmana , p. ٢٣١.

(١٣١) عن مدرسة الترجمة: محمد القاضي: طليطلة مدرسة المترجمين مدرسة الاستعراب الإسباني، مجلة التاريخ العربي، ع ١٥٥، سنة ١٤٢١ هـ.

(١٣٢) إبراهيم حركات: الثقافة الإسلامية وتجلياتها في عصر الريادة، التاريخ العربي، ع ٦٤، سنة ١٩٩٨ م، ص ١٢٥.

(١٣٣) المرلكشي: المعجب، ص ٣٢٨.

(١٣٤) أبو الوليد الباجي: وصيته لولديه، ت: جوده عبد الرحمن هلال، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ع ٣، مع ١، سنة ١٩٥٥ م، ص ٤٣.

(١٣٥) عبد الواحد المرلكشي: المعجب، ص ١٣٢٨. المقرئ: نفح الطيب، ج ١، ص ١٧٧. إبراهيم حركات: الثقافة وتجلياتها في عصر الريادة، ص ١٢٥.

(١٣٦) مؤلف مجهول: الحل الموشية، ص ١٣٣. محمد عبد الجليل: كفيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين على خلق ملوك الطوائف، أعمال الملتقى الإسباني الرابع، المعهد الإسباني اتونسي، سنة ١٩٨٥ م، ص ١٣.

(١٣٧) نفس المصدر، ص ٩٠، ٩٢. محمود مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، ص ١٢٤.

(١٣٨) Claudio Sanchez Albormoz : La Espana musulmana , t . ١ , p. ١١٤

(١٣٩) محمود مكي: وثائق مرابطية، ص ١٢١.

(١٤٠) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص ٥٢٣.

(١٤١) ابن بسم: للخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٨٢.

(١٤٢) نفس المصدر، ق ١، ج ١، ص ١٦٨. ابن سعيد: المغرب، ج ١، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

(^{١٥٣}) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٠٣٨٤. ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص ٥٣١، ٥٣٢.

(^{١٥٤}) إبراهيم حركات: الثقافة وتبليغها في مرحلة الإستقرار، ع ٨، سنة ١٩٩٨ م، ص ٣٩.
(^{١٥٥}) ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس، ص ١٦٤٣. حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٢٠.

(^{١٥٦}) ابن صاعد: طبقات الأمم، ص ١٦٤، ١٦٥. خميس بو لعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، سنة ٢٠٠٧ م، ص ٢٧ - ٢٩.

(^{١٥٧}) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف، سنة ١٩٨٩ م، ص ١٤١، ١٤٢. صبير زكريا: نور الفقهاء السياسي والحضاري، ص ١٣١ - ١٣٥.

(^{١٥٨}) صبير زكريا: نفس المرجع، ص ٢٠٦ ومابعد.
(١٥٧) ليفي بروفسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، مج ٢، ج ١، ص ١٧٥.

(^{١٥٩}) خميس بو لعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس، ص ١٢١، ١٢٢.
(^{١٦٠}) ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ٢٢٦.



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء وطبقات الأطباء، ت: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، د.
- ابن أبي زرع: روض القرطاس (الأئمن المطرب)، دار المنصورة للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٢ م.
- ابن الأبار: الحلة السراة، ت. حسين مؤنس، ج ١، سنة ١٩٦٣ م .
- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ت: لوفى بروفنسال، ط ٢، سنة ١٩٥٦ م .
- : الإحاطة في أخبار غرناطة، ت: محمد عبد الله عنان، ج ١، مكتبة الختجي، القاهرة، ط ١، سنة ١٩٧٥ م.
- : التلمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، ت: محب الدين الخطيب، القاهرة، سنة ١٩٢٤ م.
- ابن السماك: الزهرات المنثورة في نكت الأخبار الماثورة، ت: محمود مكي، منشورات المعهد المصري، مدريد.
- ابن القوطية: تاريخ الفتاح الأندلس، نشر: باسكوال ديجاريا نجوس، غوليان ريبيرا، مدريد، سنة ١٩٦٨ م .
- ابن بسلام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت: إحسان عباس، ق ٣، مج ٢، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، سنة ١٩٨١ م
- ابن جلجل: طبقات الأطباء، ت: فؤاد سيد، نشر المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، سنة ١٩٥٥ م .
- ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ت: إحسان عباس، ج ٢، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ط ٢، سنة ١٩٨٧ م .
- : رسالة التوقيف على شارع النجاة، ضمن رسائل ابن حزم، ت: إحسان عباس، ج ٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨٧ م.
- ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس في تاريخ الأندلس، ت: محمود مكي، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، ط ١، سنة ٢٠٠٣ م.
- : المقتبس في ذكر رجال الأندلس، ت. إسماعيل العربي، دار الأفاق الجديدة، المغرب، ط ١، سنة ١٩٩٠ م.

- _____ : المقتبس، الجزء الخامس، ت: بدرو شالميتا، لب. كورينطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، سنة ١٩٧٩م.
- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ١، ت. خليل شحاده، سهيل زكار، دار الفكر- بيروت، سنة ١٩٨١م.
- ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، ج ١، القاهرة، سنة ١٩٩٣م.
- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ت: عبد الهادي التازي، ط ٣ دار الغرب الإسلامي، سنة ١٩٧٨م.
- ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ت. حياة بوعلون، بيروت، سنة ١٩٨٥م.
- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ت: ج. م. كولان، ليفي بروفنسال، ج ٢، ط ٣، الدار العربية للكتاب.
- ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأندلس في تاريخ الأندلس، ت. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، م ١، ج ٢، سنة ١٩٥٥م.
- الإدريسي: نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، ج ٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٩٩٤م.
- البلجي: وصيته لولديه، ت: جوده عبد الرحمن هلال، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ع ٣، مج ١، سنة ١٩٥٥م.
- الحميدي: جذوة المقتبس، ج ١، ت: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب المصري — اللبناني، سنة ١٩٨٣م.
- الحموري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، دار ناصر للثقافة — بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨٢م.
- الطرطوشي: سراج الملوك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢، سنة ١٤١٢هـ.
- العنزي: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، ت: عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة ١٩٦٥م.
- القاضي عياض: مذاهب الحكم في نوازل الأحكام، ت: محمد بن شريفه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٠م.
- المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٨٦م.
- الناصري: الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى، ت: جعفر الناصري و محمد الناصري ، ج ٢، الدار البيضاء، سنة ١٩٥٤م.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: محمد سعيد العريان، إشراف محمد توفيق عويضة، القاهرة، سنة ١٩٦٣م.
- _____ : مجموعة رسائل موحدية، إصدار ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا، سنة ١٩٤٩م.

- عريب بن سعد: تقويم قرطبة، نشر: دوزي، لندن، سنة ١٨٧٣م.
- مدونة عبد الرحمن الناصر، ت: ليفي بروفنسال، إميليو غرسيا غومس، مدريد، سنة ١٩٥٠م.
- مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم، نشر: محمد أسامة الكرم، دمشق، مدريد، ط٢، سنة ١٨٦٧م.
- مؤلف مجهول: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، ت: سهيل زكار، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، سنة ١٩٧٩م.
- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، ت: محمود مكي، مدريد، سنة ١٩٥٩م، ١٩٦٠م.

ثانياً: المراجع العربية:

- أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، المسيحيون — المسلمون — اليهود، ت: علي إبراهيم منوفي، م: أحمد أبو حامد، المجلس الأعلى للثقافة، ط٢، سنة ١٩٩٤م.
- إبراهيم القناري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٨م.
- أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، مركز إسكندرية للكتاب، سنة ١٩٩٤م.
- أحمد محمد عبد الهادي: العرب في الأندلس — مركز الذاكرة للنشر والإعلام، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١م.
- السيد عبد العزيز سالم: الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، كتاب تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٥م.
- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج١، مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٤م.
- أنخل جونثالث بالنشيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، سنة ١٩٥٥م.
- حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشد، سنة ١٩٩٢م.
- خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ت: الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- داود عمر سلامة عبيدات: المرابطون والأندلس، دار الكتلة الثقافية، الأردن، ط١، سنة ٢٠٠٧م.
- دوزي: المسلمون في الأندلس، ت: حسن حبشي، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٨م.

- ساميه مسعد: الوراقة والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، دار عين للطباعة والنشر، سنة ٢٠٠٠م.
- شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف، سنة ١٩٨٩م.
- عبادة كحيلة: التنصاري في الأندلس، القاهرة، سنة ١٩٩٣م.
- _____ : الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، دار عين للطباعة، ط١، سنة ١٩٩٥م.
- عبد المجيد النعي: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٨٦م.
- عبير زكريا: دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار العلم والإيمان، سنة ٢٠١٠م.
- كمال أبو مصطفى: المولدون في منطقة الثغر الأعلى الأندلسي ودورهم السياسي في عصر الإمارة الأموية، بحث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط١، سنة ١٩٩٣م.
- ليفي بروفسنال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، مج ٢، ج ١ — النظم والمؤسسات والحياة الاجتماعية والفكرية، ت: علي عبد الرؤف البهي، علي إبراهيم المنوفي، صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، سنة ٢٠٠٠م.
- محمد أبو الفضل: التأثيرات الشامية في حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، من كتاب تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة ١٩٩٦م.
- _____ : بحث حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، سنة ١٩٩٦م.
- محمد المنوني: حضارة الموحدين، الدار البيضاء، المغرب، دت.
- محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٧٠م.
- محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، إشراف د/ لويس سواريث فرتانديث، تقديم: د/ عبد القوي عبود، دار الفكر العربي، ط١، سنة ١٩٨٢م.
- محمد عبد الله علان: دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، مكتبة الخاقجي، القاهرة، سنة ١٩٨٨م.
- محمود إسماعيل: إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر العربي، عامر للطباعة والنشر، المنصورة، ط١، سنة ١٩٩٦م.

ثالثاً: الدوريات.

- إبراهيم حركات: الثقافة الإسلامية وتبليغها في عصر الريادة، التاريخ العربي، ع ٦، سنة ١٩٩٨م.
- _____ : الثقافة وتبليغها في مرحلة النضج، التاريخ العربي، ع ٧، سنة ١٩٩٨م.

_____ : الثقافة وتبليغها في مرحلة الاستقرار، ع ٨، سنة ١٩٩٨ م .

— إبراهيم القدوري: المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، قرون من الثقافات والإعطافات، سنة ١٤١٤ هـ .

— بدرو ثالمينا: ضوابط عمر بن حفصون، فصوص من تاريخ الأندلس، بداية لنهاية، ترجمة عبد الفتاح عوض، عين للدراسات الإنسانية، ط١، سنة ٢٠٠١ م.

— رابع عبد الله المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٠، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، سنة ٢٠٠٠ م.

— سحر عبدالعزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، الرباط، سنة ١٩٩٠ م .

— طريف راشد سيد أحمد فشكل: الحياة السياسية لليهود في الأندلس في عهد بني أمية وملوك الطوائف، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، سنة ٢٠٠٢ م.

— عبد الواحد طه دنون: التنظيم الاجتماعي للأندلس في عصر الولاة، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٢، سنة ١٩٨٧ م.

_____ : نص أندلسي من تاريخ ابن أبي الفياض، دراسات في تاريخ الأندلس، الموصل، سنة ١٩٨٧ م.

— عصمت دنش: علاقة الأندلس بمملكة قشتالة من خلال الأختيات إلى القرن السابع الهجري، مؤتمر الغرب الإسلامي والغرب المسيحي، ت. محمد حمام، كلية الآداب، الرباط، سنة ١٩٩٥ م.

— عطية القوصي: صلاح الدين واليهود، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج ٢٤، سنة ١٩٧٧ م.

— عمر بنميرة: جوائز من تاريخ أهل الذمة في الأندلس، كلية الآداب — الرباط، المغرب، د. ت.

— علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد الإسباني وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربة في كبح جماحها، جامعة دمشق، التاريخ العربي، ع ١٤، سنة ٢٠٠٢ م.

— فاروق حمادة: النهضة الثقافية في ظل دولة الموحدين، مجلة التاريخ العربي، ع ٤٤، سنة ١٩٩٧ م.

— فاروق عمر فوزي: حول طبيعة الحركة الشعبية، من مظاهر الحركة الشعبية في الأندلس، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٢، سنة ١٩٨٧ م .

— محمد القاضي: طليطلة مدرسة المترجمين مدرسة الإستعراب الإسباني، مجلة التاريخ العربي، ع ١٥، سنة ١٤٢١ هـ.

— محمد الكتّاني: دراسة تحليلية لكتاب عن تاريخ الأندلس في عهد ملوك الطوائف، أحمد بن عيود: جواتب من الواقع الأندلسي في ق. ٥٠هـ، تطوان، مجلة دراسات مغربية، مجلة البحث والبيولوجيا المغربية، ع ١٦-٢، سنة ١٩٩٦م.

— محمد عبد الجليل: كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف، أعمال الملتقى الإسباني الرابع، المعهد الإسباني التونسي، سنة ١٩٨٠م.

رابعاً الرسائل العلمية والموسوعات:

— خميس بو نعرش: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف — كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، سنة ٢٠٠٧م.

— عبد الوهاب المسيري: الموسوعة اليهودية، مج ٤ من التت.

خامساً. المراجع الأجنبية:

Alberto Ferreiro: The Visigoths studies in culture E society , Leiden , 1998 .

Ann Christys: Christian in Andlus , published in 2002 , British library —

(internet) Andlucia un pals con historia, apuntes para una Historia de Andalucia—

(Internet) Andalucia para Ninas Y Niños—

Dozy: Recherches sur L Histoire et la litterature De L Espagne , Leyden , 1881 —

Claudio Sanchez Albomez : La Espana muslimana Segon los autares , Tom 1,—

Madrid , Espasa — clape , S.A , 1974 .

Simonete: Historia de Mozarabes , Amestardam ,Oriental , Press , 1976. — , Tom x111 , Madrid , 1897 .

دور مدارس خراسان في تطور النهضة العلمية في العصر السلجوقي

(٤٢٩ = ٥٥٢ هـ / ١٠٢٧ = ١١٥٧ م)

د. صلاح الدين علي عاشور (*)

خراسان في التاريخ:

خراسان في الفارسية القديمة معناها " البلاد الشرقية " وكان هذا الاسم يطلق في القرون الوسطى بوجه عام على جميع الأقاليم التي تقع شرق الدولة الإسلامية^(١). وتمتد أهمية خراسان في التاريخ من الناحية السياسية بجذورها إلى ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد فارس (إيران) حيث ارتبط اسم هذه الولاية سياسيا، واقتصاديا، وثقافيا عند الفرس ببلاد الشمس المشرقة المزدهرة^(٢). ويتمتع إقليم خراسان بموقع جغرافي ممتاز جعله معتدل المناخ ليس فيه مناطق شديدة الحرارة، ولا شديدة البرودة، هذا مع توافر تربة صالحة، وتجارة رائجة مما كان له أكبر الأثر في وفرة أسباب المعيشة، وإتجاب كوكبة من العلماء والأدباء، شهد لهم بذلك المقدسي في تقاسيمه^(٣). كما وصلهم بالوقت^(٤) بقوله: " هؤلاء من أهل الأدب والنظم والنثر الذين يفتون حصرهم ويعجز البلوغ عن عددهم " وكانت خراسان قديما في مدلولها الواسع تضم كلا من "بلاد ما وراء النهر"^(٥) ما عدا "مجستان"^(٦)، ومعها "قوهستان"^(٧) في الجنوب، إلا أن

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية اللغة العربية بالقاهرة — جامعة الأزهر

(١) كانت خراسان إحدى الأقاليم المزدهرة في العصور الوسطى، وهي اليوم تشمل القسم الغربي من أفغانستان. كي لسترايتج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٢٣، ترجمة: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ط ٢ بيروت ١٩٨٥ م.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٠ دار صادر بيروت ١٩٧٩ م.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٥٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٧ م.

(٤) معجم البلدان: ج ٢ ص ٣٥٤. كي لسترايتج: بلدان الخلافة، ص ٤٢٤.

(٥) ما وراء النهر: لفظ استخدمه المؤرخون والجغرافيون المسلمون للتعبير عن المنطقة المحصورة بين نهري جيحون في الجنوب وسيحون في الشمال، وسكان تلك المنطقة من العصر التركي. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ٢، ٣. ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨ م.

حدودها في العصور الإسلامية صارت أكثر تحديداً، فأصبحت تشمل أربعة أقاليم كبرى هي : "نيسابور"^(٨)، "مرو"^(٩)، و"هراة"^(١٠) و"بلخ"^(١١). وبعد الفتح الإسلامي كانت عاصمة خراسان تتحصر في "مرو" ثم "بلخ"، وفي عصور الأمراء الطاهريين (٢٠٥-٢٩٥هـ/٨٢٠-٨٧٢م)^(١٢) أصبحت نيسابور دار الإمارة الطاهرية. وفي العصر الصفاري^(١٣) (٢٥٤-٢٩٠هـ/٨٦٧-٩٠٣م) كانت "خراسان" هي الصغرة التي

(٦) سجستان : ناحية كبيرة وولاية واسعة، واسم مدينتها "زرنج" وهي قريبة من هراة. معجم البلدان : ج ٣ ص ١٩٠.

(٧) قوهستان : معناها موضع الجبال بالفارسية، وهي الجبال التي بين هراة، ونيسابور، وهي أكبر بلاد العجم، أحد أطرافها متصل بتواهي هراة. معجم البلدان : ج ٤ ص ٤١٦.

(٨) نيسابور : مدينة عظيمة من أهم مدن خراسان، خرج منها من أشمة القطم من لا يحصى، النسبة إليها نيسابوري. ياقوت : معجم البلدان، ج ٥ ص ٣٢١.

(٩) مرو : يقال لها أيضاً "مرو الروز" و"مرو الشاهجان" وهي من أشهر مدن خراسان وقصبتها العظمى بينها وبين نيسابور سبعون فرساً وبينها وبين سرخس ثلاثون فرساً، والنسبة إليها مروزي ومروزي. ياقوت : معجم البلدان ج ٥، ص ١١٢.

(١٠) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان قال عنها ياقوت : "لم أر بخراسان عند كوني بها في سنة (٦٠٢ هـ/١٢١١م) مدينة أجل ولا أعظم ولا ألهم ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها". ياقوت : معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩٦.

(١١) بلخ : من أجل مدن خراسان، وأكثرها خيراً، وأوسعها غلة، تحمل غلتها إلى جميع خراسان، وإلى خوارزم، ينسب إليها كثير من الطعام، والنسبة إليها بلخي. ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ص ٤٧٩.

(١٢) الطاهريون : تنسب الإمارة الطاهرية إلى "طاهر بن الحسين" الفارسي الأصل الذي قاد جيوش المأمون خلال نزاعه مع أخيه الأمين، فقلده عدة وظائف مكافأة له، ولم يلبث أن ولاه على إقليم خراسان سنة (٢٠٥ هـ/٨٢٠م) وأضاف إليه بعض ولايات المشرق الإسلامي، فلتخذ من نيسابور (حاضرة إقليم خراسان) عاصمة له، فكانت أول دولة من أصول فارسية تظهر باستقلال ذاتي عن الحكومة المركزية في بغداد. ابن خلدون شاه: روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ص ٤٧، ٤٨. ترجمة د/ أحمد عبد القادر الشاذلي، لدار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة ١٩٨٨ م - محمود عرفة محمود: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقتها بالخلافة العباسية، ص ٦٨، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨ م.

(١٣) الصفاريون: تنسب هذه الجماعة إلى "يعقوب بن الليث الصفار" الذي كان يصل في صناعة الصفار (النحاس) وقد ظهرت إمارتهم في إقليم سجستان، والتي كانت في بداية أمرها تتكون من المتطوعين الذين أرادوا معاونته الخلافة العباسية ضد أعداءها من الخوارج وقطاع الطرق، ثم سيطر على حركة المتطوعة "يعقوب بن الليث الصفار" الذي

تحتطمت عليها الآمال الصفارية في الاستيلاء على المشرق الإسلامي كله^(١٤)، على الرغم من أن الصفاريين لم يتخذوا من خراسان مقراً لحكمهم، وفضلوا البقاء في سجستان مهد حركتهم، ومنشأ قادتهم، وبنوا سياستهم على تحويل خراسان ولاية ممولة لحكمهم في سجستان، مما أفقدها امتيازها السياسي في عصرهم^(١٥). ونتيجة لمعطيات تلك المنطقة السياسية آنذاك، كان طبيعياً أن يدخل إقليم خراسان في حوزة السامانيين^(١٦) (٢٦١-٣٨٩هـ/٨٧٤-٩٩٩م) المتطلعين إلى السيطرة والنفوذ، والذين أغرتهم إمكانات الإقليم الاقتصادية والبشرية على تثبيت سلطاتهم^(١٧). ولكن الحقيقة أن خراسان بأهميتها السياسية سال عليها لعب كثير من المغامرين الجدد في المنطقة للاستحواذ عليها، حتى أصبحت مطعماً لقوى سياسية جديدة أهمها الدولة

قوية شوكتها، واستطاع أن يستولي على سجستان، ثم أخذ يتحشش بالإمارة الطاهرية، حتى تمكن من إسقاطها سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م). خليل السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (١٣٢ - ٦٥٦ هـ/ ٧٤٩ - ١٢٥٨ م) ص ١١٩، طبع جامعة الموصل ١٩٨٨م.

(١٤) سادت العلاقات بين الصفاريين، والخلافة العباسية وذلك عقب استيلاء يعقوب بن الليث الصفار على إقليم خراسان، على الرغم من تحذير الخليفة العباسي بعدم إقداسه على هذا العمل - وذلك للعلاقة القوية التي كانت تربطهم بالطاهريين - إلا أن يعقوب استسلم لأطماعه، ولم يستمع لصوت العقل، وبذل في صراع مع الخلافة مما عجل بنهايته، ونهاية دولته من بعده. للمزيد من التفاصيل أنظر: محمود عرفة: الدول الإسلامية المستقلة، ص ٢٥٣، ٢٥٥.

(١٥) فتحي أبو سيف: خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنويين، ص ٨٥، مكتبة سعيد رلفت ط ١٩٨٨ م.

(١٦) السامانيون: تنسب هذه الجماعة إلى إحدى الأسر الفارسية التي ظهرت في المشرق الإسلامي، لاسيما في عهد الخليفة للمأمون، حيث نالت حظوة كبيرة عنده، فولاهم بلاد ما وراء النهر. ومن أشهر حكام هذه الأسرة "إسماعيل بن أحمد الساماني" و"نوح بن نصر". وقد ظهر في عهد هذه الأسرة للعديد من العلماء الأجلاء الذين خدموا الفكر الإسلامي. للفرسخي: تاريخ بخاري، ص ١١٣، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف، ط ٣ القاهرة ١٩٦٥ م - أرمنيوس قامبري: تاريخ بخاري، ص ٩٣، ترجمة: أحمد محمود الساداتي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة (د.ت).

(١٧) محمد سعيد السيد عزب: الحياة الفكرية في إقليم خراسان في العصر السلجوقي (٤٢٩ - ٥٥٨هـ/ ١٠٣٧ - ١١٦٢م)، ص ٥٥، ٥٦ شركة نوايغ للفكر ط ١ القاهرة ٢٠٠٩م.

الغزنوية^(١٨)، التي بدأ حكامها يعملون على مد نفوذهم السياسي إلى خراسان باعتبارها من أهم الولايات السلطانية^(١٩). ولما كان التغير السياسي قدراً تاريخياً حتمياً، وبخاصة في تلك المنطقة الحيوية، دخلت خراسان في حوزة الدولة السلجوقية سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) عقب معركة «مرخس»^(٢٠) الشهيرة، التي انتصر فيها الجيش السلجوقي على الغزنويين، فكان ذلك إيذاناً بقيام دولتهم، حيث سار السلطان «طغرل بك» إلى نيسابور فدخلها، وجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي، ولقب نفسه بالسلطان المعظم ركن الدين والدنيا أبو طالب محمد، وأمر أن تضرب النقود باسمه^(٢١). وقد بلغت خراسان أوج ازدهارها وتفوقها الثقافي في العصر السلجوقي، حيث اعتمدت الدولة السلجوقية على غنى هذا الإقليم الاقتصادي، وبشرى، مما جعل له الزعامة السياسية في منطقة المشرق الإسلامي، واستتبعت ذلك زعامة ثقافية على جميع أقاليم المشرق، لاسيما بعد أن تحولت خراسان إلى مركز الثقل الثقافي بين الولايات الشرقية.

(١٨) الدولة الغزنوية: هي إحدى الدول الإسلامية التي قامت في شرق الدولة الإسلامية، ويرجع ظهور الغزنويين إلى «البنكين» كبير حجاب الأمير «عبد الملك بن نوح الساماني، وكان البنكين أحد الموالى الأتراك الذين اعتمد عليهم السامانيون في ضبط أمور دولتهم، فعلا شأنه وزاد طموحه حتى أصبح مقرباً لرجال الدولة، مما أتاح له أن يتبوأ مناصب رفيعة في الدولة، لمزيد من التفاصيل انظر: محمود عرفة محمود: الدول الإسلامية المستقلة في المشرق، ص ٢٥٣، ٢٥٥.

(١٩) فتحى أبو سفيان: خراسان تاريخها السياسي، ص ٧.

(٢٠) السلاجقة: يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة التي تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، وقد كثرت هجرتهم إلى المناطق الإسلامية في إيران وقت انهيار الدولة السلطانية حيث التمازج الوافرة، وقد عرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم «سلجوق بن دقاق» الذي جمع شملهم ووحدهم تحت زعامته وخضعوا لحكم أبنائه وأحفاده من بعده، ومن أشهر ملوكهم «طغرل بك» و«ألب أرسلان» و«ملك شاه بن ألب أرسلان» و«مسئرج بن ملكشاه». الحسيني: زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص ٢٣، تحقيق د/ محمد نور الدين، دار إقرأ ط١ بيروت ١٩٨٥.

(٢١) مرخس: مدينة كبيرة من أشهر مدن خراسان وتقع في وسط الطريق بين نيسابور ومروياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠٨.

(٢٢) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٦٨٥، ترجمه إلى العربية د/ يحيى الخشاب، وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦ م - الراوندي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص ١٥٨ ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربي وزميله دار القلم القاهرة ١٩٦٠ م.

وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام أشار إليها أحد الباحثين^(٢٣)، وهي: فلك التناقض الذي وقع فيه كثير من المؤرخين القدامى، والمحدثين، عندما اعتبروا أن نمو الحركات القومية - المتمثل في تجزأ العالم الإسلامي إلى كيانات سياسية متعددة - كان نوعا من الضعف أصاب العالم الإسلامي، والذي أدى في النهاية إلى التيهياره، متأثرين في ذلك بالافتكار السائدة في عصرهم، والتي كانت ترى عدم استفادة القوميات من هذا الضعف، وهم يتصورون أن التمسك بالوحدة السياسية هو العلاج الناجح للإصلاح السياسي للخلافة العباسية، بما يعتقونه من فكر تقليدي ساد كتابات هؤلاء المؤرخين، ولم يلتزموا الحيدة التاريخية، إذ كانوا يتمنون عودة الخلافة الإسلامية إلى سابق عهدها وحدة سياسية واحدة، كما كان عليه الحال أيام الخلافة الراشدة، والدولة الأموية. ومع ذلك نجدهم يقعون في تناقض عجيب، وأية ذلك أنهم يذكرون مثلا: فضل الظاهريين، والسماتيين، والغزنويين في حماية الثغور الشرقية، وحين يتحدثون عن التفكك يذكرون أن الحركة الثقافية الإسلامية للحد من هذا الوضع، الذي كان له مردود إيجابي من الناحية العلمية، واعتبروه نوعا من الحيوية المتدفقة التي دبت في أرجاء العالم الإسلامي، وأوجد نهضة علمية عارمة، وانعكس ذلك في ظهور مراكز علمية في: بخاري "و" سمرقند "و" خراسان "و" أصفهان "و" القاهرة "و" القيروان "و" قرطبة " وغيرها، ناضت بغداد، بل وتفوقت عليها في بعض الأحيان.

وعلى أية حال فإن الفتح السلجوقي لمنطقة خراسان لم يكن حدثا سياسيا، وحربيا فحسب، بل إن هذا الفتح قد تبلور في شكله إلى حدث علمي وثقافي واسع، فقد اختطت الحضارة الإسلامية لنفسها في بلدان المشرق جداول ظلت تندفق في كل ركن من أركانها، فانتشرت تلك الجداول في كل من: نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ، وأصفهان، والري، وبخاري، وسمرقند، وخوارزم، وطبرستان، وهمدان، وجرجان. فانتقدت فيها مشاعل العلم، وأثارت تلك المدن، وحملت كل واحدة مشعل الحضارة والثقافة والنور في المشرق، وأضحت مركز إشعاع للعلوم والثقافة، وموطن رحل العلماء، وموئل الساعين من طلاب العلم ورواد الثقافة والباحثين عن المعرفة، وأخرجت تلك المدن الكثير من العلماء النابهين، التي تغيض بهم المصادر لتدون أعمالهم الجليلة في خدمة العلم والدين. والواقع أن الطبقة العليا في المجتمع السلجوقي، وكبار رجال الدولة اتخذوا من خراسان مقرا لإقامتهم، فيذكر الراوندي^(٢٤) أن قصور السلطان منجر كانت بمدينة "مرو"، وبجوارها قصور أمراء السلاجقة،

(٢٣) حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٣٠٢ در الفكر العربي، ط ٣، القاهرة، ١٩٧٧م.

(٢٤) رحلة الصدور : ص ٢٦٠.

وكانت في غاية من الروعة والفخامة والإبداع. بيد أن النهضة العلمية في المشرق الإسلامي (إيران) اقتصرت إلى حد كبير بأسماء العديد من المدن التي قامت بدور بارز في إحياء الحياة العلمية، وخاصة في العصر السلجوقي، وكان طبيعياً ألا تصل الحياة العلمية إلى هذا الطور من التقدم إلا بفضل تشجيع السلاجقة، واهتمامهم بتلك المراكز العلمية وتقديرهم لرجالها.

هذه إطلالة سريعة على إقليم خراسان ولامحه السياسية والجغرافية عبر التاريخ، لأن البيئة في أي مجتمع تشكل - كما هو معروف - حياة البشر الذين يعيشون في هذا المجتمع، وتؤثر دائماً على تفوقهم الذهني والفكري، فالإنسان دائماً ابن بيئته، ولذلك لا نعجب إذا رأينا أن خراسان بنقلها المياسي والثقافي، كانت تهفو إليها نفوس الطلاب والعلماء من شتى بقاع الأرض على اختلاف تخصصاتهم. ومن المسلم به، في العصر الإسلامي، أنه كان لا ينبغ أحد في علم من العلوم إلا إذا كان متمكناً في علوم شتى، ذلك لشدة الارتباط بين العلوم آنذاك، ولم يكن للتخصص الذي ساد بعد ذلك مكان، بل إن الطابع الموسوعي هو الذي كان سائداً.

النهضة الثقافية في إقليم خراسان

استأثرت خراسان باهتمام السلاجقة منذ أن وطئت أقدامهم هذا الإقليم، انطلاقاً من عدة معطيات وضعت هذا الإقليم على مستوى النخاض مع المشرق كله، إذ تعود أهميته إلى طابعه المركزي، فهو يشكل قلب المشرق، ولحمته وسداه، نظراً لأهميته الاستراتيجية، والاقتصادية، فإقليم خراسان دائماً كان نواة لدول أهلها أن تلعب دوراً مهماً في المنطقة، كما كان الإقليم مناخاً لمناطق حضرية عريقة مثل: "خوارزم"، و"بلاد ما وراء النهر" و"أصفهان" و"طبرستان" مما جعله مفتاح النهضة الثقافية للمشرق، وسر قوته، ونهوضه.

وكان طبيعياً أن يعمد السلاجقة إلى اغتنام الفرصة، في تلك التربة الطيبة، التي زخرت بالعلماء والأنباء على مر العصور، لاسيما أنهم ورثة نهضة علمية زاهرة في هذا الإقليم، فكان للتشجيع المادي والأدبي الذي قدمه السلاجقة لهؤلاء العلماء أثر كبير في ازدهار الثقافة في خراسان، إذ كانوا ينفقون المبالغ الطائلة على العلماء، ويقيمون الندوات العلمية والأدبية، والمباريات الشعرية، ويمنحون الجوائز للمميزين.

كما يمكننا أن نعزو النهضة الثقافية التي عمت إقليم خراسان، في العصر السلجوقي، إلى تعاقب الثقافات المختلفة عليه، بتعاقب الدول من: صفاريين وسامانيين وبويهيين، والذين أغرموا بالثقافة ونشر العلوم، فكان تنوع الثقافات في هذا الإقليم من الأسباب المهمة في وجود حياة علمية وأدبية عالية. كل هذا كان أساساً صالحاً بنى عليه صرح النهضة الفكرية والعلمية الشاملة في العصر السلجوقي. ولقد تأثرت النهضة العلمية في خراسان بالعناصر المكونة للأمة الإسلامية والأجناس الداخلة تحت

سلطان الدولة من: فرس وترك وعرب والأقليات الأخرى، حيث قدم كل جنس من هؤلاء ذخائر ما لديه من علوم وقنون، لبناء للصرح الثقافي الإسلامي، مما جعل جغرافيا كالمقدمي^(٢٥) يصف الإقليم بقوله: "هو أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء، ومعدن الخير ومستقر العلم وركن الإسلام وحصنة الأعظم" ويصفه في موضع آخر بقوله: "فيه يبلغ الفقهاء درجات الملوك"^(٢٦). والواقع أن العصر السلجوقي هو العصر الذي اتصهرت في بوتقته جميع التيارات والثقافات الإسلامية، مستفيداً من التراث العلمي الهائل، الذي خلفه علماء العرب والمسلمين في شتى الآداب والفنون، فتفجرت بنابيع الثقافة في العلوم العربية والعقلية وأثمرت تلك العلوم والفنون بفضل تعهد السلاطين والخلفاء لها بالرعاية، فقد أقاموا المساجد والمدارس ودور العلم والمكتبات، وجعلوا منها مجامع علمية تدور فيها المناقشات والمطارحات، حتى أصبح التفاهت على نيل العلم واحتواء المعرفة ظاهرة ملموسة في ذلك العصر، واحتشد فيه طائفة من أجل العلماء والأنباء والفقهاء، طبقت شهرتهم الآفاق، وامتازوا بسعة الأفق، وضخامة الإنتاج، وخلفوا لنا ثروة علمية وأدبية في مختلف فروع العلوم الإسلامية والإنسانية.

ازدهار الحركة المدرسية بخراسان في العصر السلجوقي

ازدهرت الحركة المدرسية في العصر السلجوقي ازدهاراً ملحوظاً، وأصبحت خراسان محوراً لنشاط علمي واسع، ويرجع ذلك إلى ولع سلاطين السلاجقة بالعلم وأهله، محاكين في ذلك البويهيين وحبيهم للعلم والعلماء، إذ أحاط السلاجقة أنفسهم بالعلماء والأنباء والشعراء من العرب والفرس، كان لهم نصيب من عنايتهم وتشجيعهم، وكان لحب سلاطين السلاجقة للعلم أهد الأثر في اختلاط الإيرانيين بالعراقيين، وامتزاج حضارة كل من البلدين، فأصبحت يمثلان صورة صادقة للحضارة الإسلامية.

فقد كان السلطان طغرل بك (٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٧-١٠٦٣م) على ما وصفه المؤرخون^(٢٧) مسلماً يحب أهل السنة ويميل إليهم، ويحرص على أداء الفرائض والتقرب إلى أئمة الدين، ويبنى المساجد، ويقول: "أستحي من الله تعالى أن

(٢٥) أحسن التقاسيم: ص ٢١٢

(٢٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢١٢

(٢٧) لعاد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق. ص ٢٨ (اختصار الفتوح بن علي البنداري).

دار الألفا الجديدة، ط ٣، بيروت ١٩٨٠م.

أبني لي داراً ولا أبني إلى جانبها مسجدًا"، كما كان شديد التقرب إلى العلماء مكرماً إياهم^(٢٨).

وعلى الرغم من أن السلاجقة أتراك، وكان من المنتظر أن تروج اللغة التركية في عهدهم، لأنهم أصحاب السيادة والسلطان، إلا أنه حدث عكس ذلك، حيث راجت اللغة والثقافة العربية وكذلك الفارسية في ذلك العصر، وأصبحتا لغتي الكتابة والأدب، ويرجع ذلك إلى اتخاذ السلاجقة مدناً فارسية عواصم لهم أقاموا فيها^(٢٩). ويمتاز عصر السلطان سنجر بن ملكشاه (٥١١-٥٥٢هـ/١١١٧-١١٥٧م) - الذي اتخذ من مدينة مرو عاصمة لمملكته - من الناحية العلمية والأدبية بكثير من البهاء، إذ يعتبر عصره من العصور الهامة في تاريخ الثقافة في الدولة السلجوقية، ويتجلى ذلك في سياسته الرامية إلى توفير كل الرعاية للعلماء والأدباء والشعراء، فزخر بلاطه بكثير منهم، تركوا تراثاً ضخماً من المصنفات في كل علم وفن.

والواقع أنه، في عصر السلطان سنجر أصبحت اللغة الفارسية هي لغة الكتابة والأدب، فقد زاحمت الفارسية العربية، وخاصة في مدن خراسان وما وراء النهر، التي تعد من أهم مراكز الثقافة في المشرق الإسلامي إبان ذلك العصر، وبرز كثير من العلماء في شتى فروع المعرفة، يثرون الحياة العلمية بترائهم، بفضل اهتمام وتشجيع السلطان سنجر لهم، وأصبح للتأليف بالفارسية والعربية معاً، سمة من سمات ذلك العصر، وصارت خراسان في عصره مقصد كثير من العلماء، ومنهلاً للعلوم والمعرفة^(٣٠). كما أصبحت مدن خراسان في عهد سنجر من أكبر مراكز الثقافة، وذات كيان ثقافي مستقل، وغدت تتمتع باستقلال سياسي، لذلك نلاحظ تغيُّب الفارسية على العربية،

(٢٨) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٨ ص ١١٦، دائرة المعارف العشائية ط ١ حيد آباد ١٣٥٢هـ - ابن الأثير: التكملة في التاريخ. ج ٨ ص ٣٩. دار الفكر. بيروت، ١٩٧٨م.

(٢٩) اتخذ سلاطين السلاجقة حواضر خاصة بهم في بلاد المشرق الخاضعة لسلطانهم ولم يتخذوا من بغداد مقراً لإقامتهم كما فعل البويهيون لكنهم أرسلوا نواباً لهم ليراقبوا نشاط الخلفاء العباسيين ووزرائهم، وصاروا يصرفون شؤون الحكم من عاصمتهم فاتخذ طغرل بك أول سلاطين السلاجقة في أول الأمر مدينة "الري" لتكون حاضرة ملكه ثم جعل تيسابور واتخذ ألب أرسلان مدينة "مرو" واتخذ ملكشاه مدينة "أصفهان" التي كانت أحب المدن إليه بينما اتخذ السلطان سنجر مدينة "مرو" عاصمة لدولته، ومنذ أن تولى السلطان محمد بن محمود أصبحت "همدان" عاصمة للسلاجقة إلى آخر أيامهم. محمود إدريس: رسوم السلاجقة ص ٤٥.

(٣٠) محمود إدريس: السلطان سنجر السلجوقي ص ١٢٤، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة ١٩٨٨م.

إن اهتمت بالفارسية سائر أفراد المجتمع، وظهرت مصنفات كثيرة في العلوم الدينية واللغوية، وتم خلال عصره تأليف عدد من أمهات الكتب العربية والفارسية، ومن أشهر المؤلفات الفارسية كتاب: "نخبة خوارزمشاهي" وهو كتاب مفصل باللغة الفارسية في جميع فروع علم الطب، ألفه زين الدين أبو إبراهيم الجرجاني المتوفى سنة (٥٣١هـ/١١٣٦م)^(٢١) ومقامات القاضي حميد الدين أبي بكر البلخي المتوفى سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م)،^(٢٢) وكتاب "جهاز مفاتيح" أو "المفاتيح الأربع" التي ألفها نظامي عروضي السمرقندي المتوفى سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) وهو من أقدم الكتب الفارسية التي عالجت جوانب الحياة الأدبية والعلمية في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري حتى منتصف القرن السادس الهجري^(٢٣).

كذلك زخر عهد سنجر بكثير من الأبناء والشعراء بفضل تشجيعه لهم، ودعوتهم إلى بلاطه، وجعلهم من جلسائه، إلى درجة أنه يمكن تعداد أكثر من خمسين شاعرا منهم، غير الوزراء، والأمراء، والأطباء، ومن أشهرهم: "معزى"^(٢٤) الذي لقب بالأمير معزى، ويعد من أحسن شعراء الفرس وأجملهم إتشادا، وقد بلغ من تقدير السلطان سنجر للمعزى أنه كان يناديه بأبيه، ويملا قمه بالجواهر حسين يستحسن أشعاره، ومنحه لقب أمير الشعراء^(٢٥).

وقد خدم وزراء السلاجقة الحياة العلمية خدمات جليلة ويرجع الفضل في ذلك إلى سلاطينهم الذين كانوا لا يستوزرون إلا من بلغ مرتبة عالية من الثقافة والمعرفة، وخير دليل على ذلك أن السلطان طغرل بك - أول سلطان سلجوقي - عندما أراد أن يتخذ وزيرا، حرص على أن يكون من رجال العلم والأدب، وأن يكون متقلبا للغتين العربية والفارسية، فلما علم أن عميد الملك الكندري على دراية بهما؛ استدعاه وولاه

(٢١) العروضي السمرقندي: جهاز مفاتيح، ص ١٦٦، ترجمة: عبد الوهاب عزرام ويحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١ القاهرة ١٩٤٩ م.

(٢٢) السابق: جهاز مفاتيح، ص ٩٩.

(٢٣) براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي، ص ٤٢٥، ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربي. مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٤ م.

(٢٤) معزى: هو محمد بن عبد الملك البرهقي المعروف بمعزى التيمسبورى من مشاهير شعراء عصره امتدح السلطان ملكشاه والسلطان سنجر ووزرائهما ولكن نهاية المعزى كانت حزينة فقد قتلته سهم الفلج خطأ من قوس سنجر عندما كان يقوم بالرماية وذلك سنة ٥٤٢ هـ. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي ص ٨٩.

(٢٥) محمد غنيمي هلال: مختارات من الشعر الفارسي ص ١٤٧، ١٤٨.

وزارته. وكان الكندري معروفاً بالذكاء والفراسة، ومشهوراً بالفضل والكرامة، وكانت له أياد بيضاء في الكتابة والفصاحة^(٣٦).

وكان مجلس الوزير نظام الملك^(٣٧) عامراً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الدين والندى، حتى كانوا يشغلونه عن أمور الدولة وأعمالها، فقال له بعض خاصته: هذه الطائفة من العلماء قد بسطتهم في مجلسك حتى شغلوك عن مصالح الرعية لئلا ونهارا، فقال: 'هذه الطائفة أركان الإسلام وهم جمال الدنيا والآخرة ولو أجلسنا كلنا منهم على رأسي لاستقلت لهم ذلك'^(٣٨).

وتعد المدارس النظامية، التي أسسها الوزير نظام الملك في خراسان، من أول المدارس العلمية المنظمة في الإسلام، بل وذهب البعض^(٣٩) إلى أن التعليم الجامعي بأسلوبه الذي نعهد اليوم، عرفته إيران منذ القرن الخامس الهجري، فكانت صاحبة ابتكار هذا النوع من الدراسة، الذي نقله عنها الأوروبيون بعد ذلك. ويصف العماد الأصفهاني^(٤٠) نظام الملك، فيقول: 'ولم يزل بابيه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء، ومن رآه مستحقاً لرفع قدره رفعه وأعلاه، ومن رأى الانتفاع بطنه أغناه، وربب له ما يكفيه من جدواه، حتى ينقطع إلى إفاضة العلم ونشره، وتدريس الفضل وذكره، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله، ويحيى به حقه، ويميت باطله'. وقد أقام الوزير نظام الملك للكثير من المؤسسات العلمية في سائر أقطار وأطراف البلاد في فارس والعراق وخراسان، وأوقف على هذه المؤسسات مزارع وضياعاً علمية^(٤١).

(٣٦) خواتمير: دستور الوزراء، ص ١٣٨، ترجمة: د/ حربي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠ م — الرابندي: راحة الصدور ص ١٨٦، ١٨٧.

(٣٧) نظام الملك: هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ولد عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) بقرية من نواحي طوس عمل في بداية حياته في دولتين الدولة الغزنوية بخراسان فلما أفل نجمهم انتقل إلى خدمة السلاجقة الذين ورثوا الغزنويين بخراسان ثم لم يلبث أن اتخذه ألب أرسلان وزيراً له فلما قتل ألب أرسلان عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) اتخذ منكشاه بن ألب أرسلان وزيراً له إلى أن قتل عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) على يد أتباع الحسن الصباح ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩ ص ٦٤، الحسيني: الزبدة، ص ١٤٠-١٤٥.

(٣٨) ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ٦٥ — خواتمير: دستور الوزراء ص ٢٤٨.

(٣٩) صادق نشأت: صفحات عن إيران ص ١٤٢، مطبعة مخيم، القاهرة ١٩٦٠م.

(٤٠) آل سلجوق: ص ٥٩.

(٤١) يحيى الخشاب: نظام الملك المدارس للنظامية، ص ٥٥٦، ٥٦٧، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس ١٩٧٥م.

ولا شك أنها أصبحت كما تقول الآية الكريمة: (وَأَمَّا مَا يَنْفَع النَّاسَ فَمَا كُنْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) (الأرض: ١٢).

وتلحق على جميع العلماء والفضلاء، وأهل الدولة والسلطان مدة ثلاثين عاماً، خلال سلطنة السلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه، لجمعه لأسباب الفضل والرفعة، وأدوات العلم والمعرفة، وظلت مدارسه تؤدي دورها العلمي والثقافي، وخدمة المعرفة، حتى بعد القضاء العصر السلجوقي^(١٧). ويذكر عن نظام الملك أنه كان كثير الإحسان على أهل العلم، حتى إنه رتب رواتب ثابتة تصرف لهم بانتظام، بحيث كان رزقه يجري على اثني عشر ألف عالم من فقيه وغيره^(١٨)، كما كان يحوّل العلماء برعايته وتأنيده، فيذكر المؤرخون^(١٩) أنه كان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري^(٢٠) وأبو المعالي الجويني^(٢١) يقوم ويجلسهما، وإذا دخل عليه أبو علي الفارمزي قام وأجلسه مكانه وجلس بين يديه. وتذكر الروايات^(٢٢) أن تاج الملك أبا القاسم، صاحب خزائن السلطان ملكشاه، نعم على الوزير نظام الملك، فوشى به عند

(١٧) سورة الرعد: آية ١٧.

(١٨) خواندمير: دستور الوزراء، ص ٢٤٨، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ٦٦، ٦٧.

(١٩) ابن الفلاني: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢١. مطبعة الأنباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ م.

(٢٠) ابن الجوزي: المنتظم ج ٩، ص ٦٦، السبكي: طبقات الشافعية ج ٣، ص ١٣٧.

(٢١) أبو القاسم القشيري: هو أبو القاسم عبد الكريم بن هارث بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري القشيري الفقيه الشافعي شيخ خراسان في عصره كان علامة في الفقه والحديث والتفسير والأصول والأدب وعلم التصوف وكان ثقة حسن السوعد وله تصانيف مشهورة منها "الرسالة القشيرية" و"التنوير في علم التفسير" وتوفي سنة (٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م). ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ٢٨٠. ابن عساکر: تبیین کذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص ٢٧٤.

(٢٢) أبو المعالي الجويني: هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي الملقب بإمام الحرمين أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه وتفنته في العلوم من الأصول والفروع والأدب وهو من أهل نيسابور رحل إلى بغداد ولقي بها جماعة من العلماء وذهب إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين ولذا قيل له "إمام الحرمين" ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فيها وحضر دروسه الأكابر والأئمة وله مصنفات كثيرة منها "العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية" و"الإرشاد" و"الورقات" وغير ذلك وتوفي الجويني سنة (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م).

ابن عساکر: تبیین کذب المفتري، ص ٢٧٨، السبكي: طبقات الشافعية ج ٣، ص ٢٤٩.

(٢٣) الحسيني: زبدة التواريخ ص ١٤١، ١٤٢.

السلطان قاتلاً: "إنه ينفق في كل سنة على الفقهاء والصوفية والقراء ثلاثمائة ألف دينار، ولو جيش بها جيشاً لطن باب القسطنطينية"، فاستحضر السلطان ملكشاه نظام الملك وعاتبه، وطلب منه أن يبرر تصرفاته، فأجابته: "إنك تنفق على الجيوش المحاربة كل سنة أضعاف هذا المال مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً، ولا يضرب سيفه إلا ما قرب منه، وأنا أجيء لك بهذا المال جيشاً تصل من دعائهم سهام إلى العرش لا يحجبها شيء عن الله"، فبكى السلطان وقال له: "استكثر من هذا الجيش والأموال مبدولة لك، والدنيا بين يديك"^(٩٠). وقد تضمنت كتب التراجم والتاريخ، والأدب والطبقات، معلومات مفصلة عن العلماء الذين اختلفهم نظام الملك برعايته، واستعان بهم في تولي مهنة التدريس في مدارس النظامية، منهم الإمام حجة الإسلام الغزالي أكبر فقهاء الإسلام في عصره.

وكان نظام الملك أينما وجد عالماً متميزاً، يتبوأ منزلة مرموقة بين العلماء، بنى له مدرسة، وأوكل إليه التدريس بها، والقيام على شؤونها. فيذكر ابن الأثير^(٩١) أن العالم الجليل أبا بكر بن ثابت الخجندي^(٩٢) سمعه نظام الملك وهو يعظ بمرور، فأعجب به وعرف محله من الفقه والعلم، فحمله إلى أصفهان، وعينه مدرساً بمدرستها النظامية فقال جاها عريضا، كما اهتم نظام الملك بأبي المظفر السمعاني^(٩٣) ورفع من قدره، وأناط به مهمة التدريس بمدرسته النظامية بمرور، ووكل له جميع شئونها^(٩٤)، كما أن نظامية نيسابور قد بنيت برسم إسماعيل الحرمين أبي المعالي

(٩٠) السابق: زبدة للتواريخ ص ٩٤٢.

(٩١) التكملة في التاريخ ج ٨ ص ٢١٩.

(٩٢) أبو بكر الخجندي: محمد بن ثابت بن علي أبو بكر الخجندي نزيل أصفهان وأصل بيت الخجندي من مدينة خجندة بما وراء النهر، وهو إمام غزير الفضل، حسن السيرة، تفقه فبرع في الفقه حتى صار من جملة رؤساء الأئمة وتخرج به ويكلمه جماعة من أهل العلم وانتشر علمه في الألق، وولاه نظام الملك مدرسته التي بناها بأصفهان وتوفي سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م). للصيرفيغيني: المنتخب من السيل في تاريخ نيسابور ص ٦٨، ٦٩.

(٩٣) أبو المظفر السمعاني: منصور بن أحمد بن عبد الجبار بن الفضل بن الربيع بن مسلم بن عبد الله التميمي الإمام لجليل العالم الزاهد أحد أئمة الدين أبو المظفر بن الإمام أبي منصور المعروف بالسمعاني كان الإمام أبو منصور من أئمة الحنفية ثم صار إلى مذهب الشافعي، وكان إمام عصره بلا مدافعة وصار إمام الشافعية بعد ذلك يدرس ويفتني ويصنف في مذهب الشافعي، وتوفي سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٥م). للكنوي: الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ١٧٢، تحقيق السيد محمد بدر الدين مطبعة السعادة ط ١ القاهرة ١٣٢٢هـ.

(٩٤) للكنوي: الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ١٧٢، ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ٣ ص ٢١٢.

الجويني، الذي ظل يدرس بها ثلاثين سنة إلى حين وفاته^(٥١). وكان الوزير نظام الملك على الجملة يحوط هؤلاء العلماء برعايته، ويمده بتأييده، حتى تبوأ منزلة رفيعة في البلاد التي حلوا بها، وأصبح يشار إليهم بالثبات.

وقد تمكن نظام الملك أن يجنب إلى جانب عطف وتأييد أعلام العلماء في جميع المراكز المهمة، التي امتد إليها سلطان السلاجقة فتحول كبار العلماء إلى مدرسين في مختلف المدن، حتى راجت سوق العلم في أيامه، وظل لعمامه في عهده مرفوعي الهامة.

وثمة حقيقة تاريخية ظاهرة وجدت في المجتمع الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وهي: أنه قبل ظهور السلاجقة كان يسود جو من التعقيد الذي أثر على الفكر الديني، وبخاصة في منطقة خراسان التي ظهرت فيها قوى متصارعة، ومتنافضة فيما بينها من أجل البقاء، أو السيطرة، وبرزت مشاعر الشك والريبة المتبادلة بين المذاهب الدينية، مما سبب تنافرها، وحال دون تألفها وتفاهمها^(٥٢).

كان المذهب الشيعي قد انتشر في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وقامت دولتان شيعيتان كبيرتان في طرفي العالم الإسلامي الشرقي والغربي، أصبحت السيادة والسلطان لهما، فالدولة الفاطمية في الغرب، وتضم إليها بلاد المغرب ومصر واليمن والحجاز والشام، والدولة البويهية في الشرق، ولها السيادة على إيران والعراق قلب الدولة الإسلامية نفسها.

ولم يلبث أن حدث رد فعل قوي في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وبدأ المذهب السني يسود من جديد، بعد أن ضغطت الدولتان الفاطمية والبويهية بظهور دولة سنية كبيرة في المشرق الإسلامي ألا وهي: "الدولة السلجوقية"، والتي كان هدفها الرئيس القضاء على الدول والمذاهب الشيعية في كل مكان، بل وكان جل اهتمام سلاطينها المحافظة على المذهب السني ونموه، ويسرون ضرورة التخلص من كل الحركات المناوئة له في العالم الإسلامي، وإعادة هيئة الخلافة الإسلامية من جديد على أساس متين.

ويلاحظ أنه حين ظهر السلاجقة، كان المذهب السني مضيقاً عليه، سواء في داخل الدولة العباسية أو في خارجها، ففي الداخل كان يسيطر على الحكم "بنو بويه"

(٥١) ابن عسكرك: تبين كذب المغنزي ص ٢٧٨، ابن قاضي شهبه: طبقات الشافعية ج ٣ ص ٣٥٨.

(٥٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق (٢٢٩-٥٩٠هـ / ١٠٣٨-١١٩٤) ص ٢٣، دار التنقيص ط ١ بيروت ٢٠١٠ م.

الشيعية، الذين ظلوا جاثمين على صدر الخلافة العباسية ما يزيد على قرن من الزمان، أما في الخارج فكانت مصر والشام والحجاز والمغرب واليمن بحكمها الفاطميون، الذين لم يكتفوا باتخاذ التشيع مذهباً رسمياً داخل دولتهم، بل عملوا على بث دعائهم في سائر أنحاء الدولة العباسية، لاسيما في المشرق الإسلامي، من أجل القضاء على دولة السلاجقة^(٥٦).

وكان السلاجقة متحمسين للمذهب السني، فتصدوا للدفاع عنه خاصة، وعن الإسلام عامة، وعملوا على تحقيق ذلك بشتى الوسائل، سواء بالقوة العسكرية، أم بالتعليم ونشر المعرفة. والواقع أن العصر السلجوقي يمثل، من الناحية العلمية، ثورة الفكر السني ضد تيارات الفكر الشيعي، والتصدي لها بقوة، حتى خفت صوت الشيعية، وأصبح أمرهم إلى زوال.

كما كان للعلماء المنتمين إلى المذاهب الأربعة دور عظيم في تنشيط الحركة الفكرية، في إقليم خراسان في العصر السلجوقي تمثل في: إنشاء العديد من المدارس الشافعية، والحنفية، والحنبلية، فكان لكل مذهب مدارسهم المعروفة. وكان رجال الأمة، الحريصون على مصالح الإسلام، جادين في العمل على دعم النشاط العلمي والثقافي، وإشاعة العلوم الشرعية، وتبني استخدام المنطق والجدل وعلم الكلام للدفاع عن عقيدة أهل السلف. وقد أدى ذلك كله إلى **التعاضد العلمي** هائل تمثل فيما ظهر من مؤلفات علمية مختلفة للدفاع عن العقيدة. وشرح أصولها، وأكبر دليل على ذلك تلك المؤلفات الضخمة لتي خلفها علماء المذاهب المختلفة^(٥٧).

وكانت خراسان في منتصف القرن الخامس الهجري قد تنازعت فيها قوتان مهمتان هما: الحنفية، والشافعية، إلا أن شوكة الشافعية بخراسان عامة كانت قد قويت بسبب اهتمام وزراء السلاجقة الشافعية بالناحية العلمية، وكان على رأسهم الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، الذي بنى عدة مدارس عرفت بالنظاميات في

(٥٦) قام الفاطميون بمحاولات واسعة لبث الدعوة إلى مذهبهم، وبدأ نشاطهم واضحا في المشرق، وبخاصة منذ بداية القرن الرابع الهجري حتى "الرويني" شاعر البلاط الساماني يتغنى بالمذهب الفاطمي، ويعن صراحة تامة محبته، وإخلاصه، للخلفاء الفاطميين الشيعة. ولم يلبث أن فشا المذهب في خراسان حتى كان يعتنقه الأمير "تصر بن أحمد الساماني" المتوفى سنة (٣٣١هـ/٩٤٢م) فغضب عليه علماء السنة هناك، وألقوا بتكفيره، وحثوا الجند على أن ينقضوا من حوله، إذ لم يكن من السهل عليهم أن يقبلوا حكما يجهرون بتشييعهم، أو يدعون إلى التشيع، حتى أجبروه على التخلي عن العرش. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠٤، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي: تاريخ المذهب السني ص ١٠٢.

(٥٧) محمد سعد عذب: الحياة الفكرية في إقليم خراسان، ص ٩٦.

جميع أنحاء خراسان، في نيسابور، ومرو، وهراة وبلخ. وكان نظام الملك قد جعل في هذه المدارس وفقاً على المذهب الشافعي^(٥٨).

وقد عمل نظام الملك ... في السنوات العشر التي وُزر فيها لأكب أرسلان، والعشرين سنة التي عمل فيها مع ملكشاه ... على جعل المذهب المني مذهباً عاماً للمسلمين، عن طريق إنشاء المؤسسات التعليمية في جميع أرجاء السلطنة، كي تعمل على نشر العلم، ومحاربة الفكر الشيعي حرباً لا هوادة فيها، وإقامة الوحدة على أساس متين، وجعل المدارس النظامية - التي جد في إنشائها - تضاهي أزهر الفاطميين، وتقوم بنشر الدعوة للمذهب المني، رداً على تحدي الدعوة الفاطمية المنظمة^(٥٩). كان الحدث العلمي الكبير في عهد السلاجقة، هو: تأسيس المدارس النظامية، ويذكر القزويني^(٦٠) أن إنشاء نظام الملك لهذه المدارس كان بتكليف من السلطان "ألب أرسلان"، فقد نخل يوماً مدينة نيسابور، فرأى جمعاً من الفقهاء وطلاب العلم على باب أحد المساجد، وهم في ثياب رثة، فلم يلتفتوا إليه عندما مر بهم، فسأل وزيره عن ذلك، فقال: "هؤلاء طلبة العلم، وهم أشرف الناس نفساً، ولا حظ لهم من الدنيا، ويشهد زعيمهم على فقرهم" فلان قلب السلطان لهم، فاستأذنه نظام الملك في بناء أماكن لهم، ليمارسوا بها العلم، وإجراء الأزواق عليهم، ليتفرغوا لطلب المعرفة^(٦١).

ولم يلبث أن أقام الوزير نظام الملك عدداً كبيراً من المدارس، وبخاصة في خراسان، نظراً لأهميتها السياسية، والعلمية، والدينية، وألحق بها مكتبات نفيسة، لينتفع بها الطلبة والعلماء في تحصيل العلم والمعرفة^(٦٢).

والواقع أن المدارس التي أنشأها نظام الملك، لم تكن هي بداية ظهور المدارس في العالم الإسلامي، ولم تكن من مستحدثات القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بل كانت من منشآت القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وأن نيسابور كانت مهداً للمعاهد العلمية، وأن أول مدرسة بنيت بها كانت لأبي إسحاق الإسفراييني^(٦٣).

(٥٨) ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ٣ ص ٢١١.

(٥٩) يحيى الخشاب: نظام الملك والمدارس النظامية ص ٥٥٧.

(٦٠) آثار البلاد: ص ٤١٢.

(٦١) محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩٠.

(٦٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩ ص ٦٤، المبيكي: طبقات الشافعية، ج ٣ ص ١٣٧.

(٦٣) أبو إسحاق الإسفراييني: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران بن الإسفراييني الملقب بركن الدين الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي أخذ عنه الكلام والأصول علمه شيوخ نيسابور وأقر له أهل العراق وخراسان بالعلم والفضل، وله التصانيف الجليلة، واختلف

وكذلك المدرسة البيهقية للإمام البيهقي^(١١) المتوفى سنة (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)، بل وتشير بعض النصوص التاريخية إلى أن المدارس في الإسلام أنشئت منذ وقت مبكر، يدل على ذلك ما ذكره ياقوت^(١٢) عند حديثه عن ابن حبان البستي^(١٣) المتوفى سنة (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) إذ قال: "أبو حاتم بن حبان وداره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه، ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة، وفيها خزنة كتبه في يدي وصي مسلمها إليه ليوصلها لمن يريد نفع شيء منها من غير أن يخرجها منها" وجاء في بعض المصادر^(١٤): "إن أبا بكر الحصن بن فورك الأصفهاني^(١٥) المتوفى سنة (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) أقام بالعراق مدة يدرس العلم، ثم توجه إلى الري، فراسله أهل نيسابور وطلبوا منه التوجه إليهم، ففعل وورد نيسابور، فبني له فيها مدرسة وداراً ولحقها الله به أنواعاً من العلوم". وعلى هذا لم تكن التنظيمات أول ما أنشئ من المدارس، ولكن يمكن أن توصف بأنها أول مؤسسات تعليمية تدخلت للدولة في تحديد أهدافها، ودراسة مناهجها، واختيار طلابها وأساتذتها، والقيام بالإشراف عليها، وإمداد طلابها بجميع ما يحتاجون إليه من مرتبات وأرزاق شهرية، فضلاً عن الحبر والورق اللازمين للحركة التعليمية.

وكانت هذه التنظيمات من المدارس المستقلة عن المساجد، أي أنها لم تكن تابعة لها، ولكن كان ملحقاً بكل مدرسة منها مسجد، تؤدي فيه الشرائع والشعائر الدينية^(١٦).

إلى مجلسه أبو القاسم القشيري والحافظ البيهقي وتوفي الإسفراييني سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م). ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ١ ص ٢٨، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٤. ^(١١) الإمام البيهقي: هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الفقيه الشافعي الحافظ الكبير المشهور واحد زمته، وفرد أقرانه في الفنون رحل كثيراً وحصل علماً واسعاً بالحديث وطلب إلى نيسابور لتدريس فقه الشافعي. ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ١ ص ٧٥، ٧٦، ابن عساکر: تبیین کتب المفتری ص ٢٦٥.

^(١٢) معجم البلدان: ج ١ ص ٤١٧، ٤١٨. ^(١٣) ابن حبان البستي: أبو محمد بن أحمد بن حبان البستي كان من فقهاء الدين علماً بلطبع والنجوم وفنون العلم واللغة والفقه والحديث وألف كتاب "المسند الصحيح". ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٤١٧، ٤١٨.

^(١٤) ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٤ ص ٢٧٢، ابن الأثير: التلخيص، ج ٢ ص ٢٤٢. ^(١٥) ابن فورك الأصفهاني: الأستاذ أبو بكر محمد بن بن فورك المستكمل الأصولي الأديب التحوي الواعظ الأصفهاني، كان أحد أوعية العلم وبلغت مصنفاته قريباً من مائة. ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ٤ ص ٢٧٢.

^(١٦) ناجي معروف: علماء التنظيمات ومدارس المشرق الإسلامي ص ١٢، مطبعة الإرشاد ط ١ بغداد ١٩٧٣.

وكان التعليم في هذه المدارس قائماً على تلقي العلوم الدينية واللغوية، ونشر الفقه الشافعي على وجه خاص، إذ كان من الشروط الواجب توافرها في المتقدم بهذه المدارس، أن يكون شافعيّاً أصلاً وفرعاً^(٧٠) ثم أخذت هذه المدارس تتوسع يوماً بعد يوم في إدخال موضوعات جديدة. ولم يدخل نظام الملك بتوفير الإمكانيات المادية، التي تعين هذه المدارس على النهوض برسالتها العلمية على أكمل وجه، ولذا نراه ينطبق عليها بسطاء، ويخصص لها الأوقاف للإتفاق على عمارتها ودور كتبها، فيذكر ابن الجوزي^(٧١) أن نظام الملك وقف على مدرسته ببغداد ضياعاً وأملاكاً كثيرة، بينما يذكر المافروخي^(٧٢) أن نظامية أصفهان قدرت نفقاتها بقيمة أوقافها بعشرة آلاف دينار، كما كان نظامية نيسابور أوقاف عظيمة للإتفاق عليها.

واستقدم السلجقة لهذه المدارس خبرة العلماء والفقهاء والأنباء في مختلف فروع العلم، وأغدقوا عليهم المال والعطايا، ونقلوا إليها الكثير من الكتب ليستعين بها طلاب العلم، وشجعوا الطلاب من البلاد الإسلامية الأخرى للالتحاق بها، والعلماء للتدريس لطلابها، إذ كان يقوم بالتدريس في هذه المدارس نخبة من مشهوري العلماء المشهود لهم بالعلم والمعرفة وبعضهم كان له من الصيت والشهرة ما يدفع بعض طلابي العلم من البلاد المختلفة لتحمل المشاق للحضور إلى هذه المدارس، للتزود بالعلم على أيدي هؤلاء العلماء، فكان لهم تلامذتهم ومريدوهم، الذين يعدون خاصة لتلقي العلم منهم، والتعلم على أيديهم.

وقد أجمعت المصادر على وصف رجال هذه المدارس — والذين تعاقبوا على منصب التدريس بها — بالفضل والعلم والتقوى، والقدرة على التأليف والإنتاج العلمي، فأبو إسحاق الشيرازي^(٧٣) -مدرس نظامية بغداد- عدهم إمام وقته، فاق أهل زمانه بالعلم والزهّد، وأكثر علماء الأمصار من تلامذته، ومحاسنه أكثر من أن تحصر^(٧٤). وأما أبو بكر الشاشي -مدرس نظامية بغداد أيضاً- فتصفه المصادر بأنه فخر الإسلام، يضرب المثل باسمه^(٧٥).

(٧٠) خواتمير: دستور الوزراء ص ٢٥٣، ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ٦٦.

(٧١) المنتظم: ج ٨ ص ٢٥٦.

(٧٢) محاسن أصفهان: ص ١٠٤.

(٧٣) أبو إسحاق الشيرازي: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الملقب جمال الدين ضرب به المثل في الفصاحة والمنافرة وكانت الطلبة ترحل إليه من المشرق والمغرب وصنف التصانيف المفيدة منها "المهذب" و"اللمع" و"التنبيه" وغير ذلك وتوفي سنة

(٤٧٦هـ/١٠٨٣م). ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ١ ص ٣٠.

(٧٤) ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ٧.

(٧٥) السبكي: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧.

وأما حجة الإسلام الغزالي - مدرس نظامية نيسابور - فيصفه ابن خلكان ^(٧٦) بقوله: ثم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، بينما يصفون الجويني - مدرس نظامية نيسابور أيضا - بأنه أعلم المتأخرين على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه ^(٧٧) والسمعاتي مدرس نظامية مرو إمام عصره بلا مدافعة ^(٧٨) في حين يصفون الخجندي - مدرس نظامية أصفهان - بأنه من جملة رؤساء الأئمة، ومن الذين انتشر علمهم في الأفاق ^(٧٩).

وهذا خير دليل على المستوى العلمي للمدارس النظامية، وتفوق علماء العصر وأساتذة الجيل بين علماء المسلمين، ممن حملوا عبء التدريس بهذه المدارس.

وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الجهود إلى رواج سوق العلم، فأقبل الجميع على طلبه حتى بلغ عددهم في نظامية بغداد عام (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) ثلاثمائة طالب، كانوا يتلقون العلم على الإمام الغزالي ^(٨٠) أما في نظامية نيسابور فكان يقعد بين يدي إمام الحرمين كل يوم أربعمائة طالب من الأئمة والطلبة، فقد ذاع صيته وطبقت شهرته الأفاق، حتى قصده الكثيرون من جميع البلدان، يطلبون العلم على يديه ^(٨١).

وكان تأسيس المدارس النظامية رافعا، والدافع الذي قامت عليه دافعا قويا لإيجاد غيرها من المدارس في خراسان، إذ أصبح إنشاء المدارس وإقامة دور العلم والمكتبات ظاهرة طيبة شملت جميع أفراد المجتمع من مختلف الطبقات.

ووجدت إلى جانب النظاميات عشرات المدارس التي يؤمها الفاضل العلماء وأجلهم، وكان المؤسسون يبقون الثواب، أو خدمة مذهبهم، أو منافسة معارضهم. ومنذ ذلك الوقت ونتيجة لهذا الاهتمام، ارتبطت رسالة العلم بتلك المدارس، التي أصبحت من المنارات العلمية الكبرى، وسمة ظاهرة من سمات العصر السلجوقي. ولا ريب أن السلاجقة، ببنائهم هذا الكم الهائل من المدارس العلمية والفقهية، تمكنوا من إرساء قواعد النشاط الثقافي في بلادهم على أسس منظمة، إذ غدت تلك المدارس مؤسسات ثقافية لتخريج واستقبال المدرسين والطلاب داخل المنطقة وخارجها. وحسبنا أن نقول: إن إقليم خراسان، وإن كان أعجميا، إلا أنه خرج مئات العلماء

^(٧٦) وفیات الأعيان ج ٤ ص ٢١٦، ٢١٧، ابن قاضي شهبه: طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٥٥.

^(٧٧) ابن عساکر: تبیین کتب المفتری ص ٢٧٨، ابن النجار: ذیل تاریخ بغداد ج ١ ص ٨٥.

^(٧٨) اللکنوی: الفوائد البهیة فی تراجم الحنفیة، ص ١٧٣، ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ٣ ص ٢١٢.

^(٧٩) السبکی: طبقات الشافعية ج ٣ ص ٥٠، ابن الأثیر: الکامل، ج ٨ ص ٢١٩.

^(٨٠) ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ٥٥، السبکی: طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٠٣، ١٠٤.

^(٨١) ابن عساکر: تبیین کتب المفتری ص ٢٧٨.

والفقهاء، والمحدثين، والمفسرين، والأدباء، الذين كان لهم أثر كبير في الدراسات الإسلامية والفكر الإسلامي، وخلفوا لنا أثاراً من الكتب القيمة. ومن الجدير بالإشارة أن أكثر علماء خراسان - خاصة في العصر السلجوقي - لم يقتصروا على فن واحد من فنون العلم والمعرفة، وإنما كتبوا شعراء وكتّاباً ثم فقهاء ومحدثين وفلاسفة، وقد حاز بعضهم قصب السبق في العلوم الدينية واللغوية، حتى ظهرت بعض الشخصيات التي أسهمت في كثير من ميادين الحياة العلمية، بل وفرضت نفسها على النتاج العلمي بشتى ميادينه، ويتجسد هذا في المؤلفات الضخمة والأسفار الزاخرة في شتى ميادين الفن والعلم التي ظهرت في هذا العصر، حتى يمكن القول: إن العصر السلجوقي كان من العصور التي وصلت فيها الحياة العلمية إلى قمة ازدهارها وتقدمها، فضلاً عما امتاز به هذا العصر من كثرة المؤسسات العلمية في كل ركن من أركان الدولة السلجوقية، إضافة إلى المكتبات الحافلة بأنواع العلوم والفنون والمعرفة.

وهكذا كان العصر السلجوقي هو عصر رواج وانطلاق الحركة المدرسية في خراسان، واستجابة لتطور الحياة العلمية ونموها، حتى أصبحت قاعدة مهمة للتعليم، فلم يكن إنشاء هذه المدارس والإنفاق عليها سخافاً، يرمي إلى نشر العلوم الدينية فحسب، وإنما كان الهدف الأكبر منه هو تحقيق إصلاح جذري في المجتمع، وجمع القلوب والعقول والأفئدة حول سلاطين السلاجقة، والإخلاص للمذهب السني، بعد أن كانت هذه القلوب متفرقة مزعزعة.

ومن أشهر مدن خراسان التي ازدهرت بها الحركة المدرسية: مدينة * نيسابور، ومدينة * مرو، ومدينة * هراة، ومدينة * بلخ *.

أولاً: الحركة المدرسية بمدينة نيسابور في العصر السلجوقي:

نيسابور من أهم مدن خراسان الأربع (هراة ومرو وبلخ ونيسابور) وإحدى مدن إيران الهامة، وهي مدينة قديمة ذات شهرة في تاريخ الإسلام، وحسب الإنسان أن يقرأ وصف الجغرافيين لها ليعجب لهذه الحركة، التي تعج بها المدينة، في شتى نواحي النشاط الإنساني، يقول ياقوت الحموي^(٨٢) ثم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها، بينما يصفها القزويني^(٨٣) بأنها "مجمع العلماء، ومعدن الفضلاء، ومن أحسن بلاد الله وأطيبها".

وكانت نيسابور أول مركز علمي مزدهر في المشرق الإسلامي، ظل محتفظاً بمكانته العلمية حتى العصر السلجوقي، وقد تقلب حظ هذه المدينة بين الانتعاش

(٨٢) معجم البلدان: ج ٥، ص ٢٣١.

(٨٣) آثار البلاد، ص ٤٧٢.

والانتكاس، حتى اتخذها السلاجقة عاصمة لدولتهم منذ قيامها سنة (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، فبدأت تنتعش ولمع اسمها، ووصلت إلى ذروة نهضتها، وأصبحت عنواناً للنهضة الثقافية الإسلامية.

وقد توفرت لنيسابور في هذه الفترة مقومات الازدهار العلمي، وأهمها: الانفتاح الثقافي الذي كان يسود العالم الإسلامي آنذاك، فمن المعلوم به أن أهم ما يميز الحياة العلمية أنها حركة علمية، وليست خاصة بإقليم معين، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنوعات علمية سرعان ما ينقل إلى البلدان الأخرى، من أقصى المشرق في خراسان إلى أقصى المغرب في الأندلس، وكان لموقعها الجغرافي (على أبواب خراسان) ما جعلها مجمع الطعام وملقى الفضلاء والأبناء. وإذا كان انتشار المدارس في العصر السلجوقي هو الحدث الأكبر والأهم؛ الذي حققته الحضارة الإسلامية على المستوى الثقافي، والقفزة الكبرى في سلم التطور العلمي — بعد أن كان التعليم محصوراً في المساجد — فقد كانت مدينة نيسابور أولى المدن التي عرفت هذه المؤسسات في العالم الإسلامي، فقد أنشأ فيها علماء المسلمين العديد من المدارس منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فكانت أول مدرسة بنيت بنيسابور لأبي إسحاق الأسفراييني المتوفى سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) ومن قبلها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م)، فقد كتبا من كبار الأئمة وأولى العلم في نيسابور^(٨١).

وسار السلاجقة على هذا النهج الثقافي، فأنشأوا فيها العديد من المدارس الجديدة، التي أدت دوراً مهماً في ذبوع العلم وانتشار الثقافة، وطبقت شهرة مدارسها ومكتباتها الزاخرة الأفاق، وتمت فيها العلوم والفنون، وبرز العلماء في الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب، والعلوم للرياضية من هندسة وفلك وحساب، ثم في علوم الطب وغير ذلك من العلوم الوثيقة الصلة بحياة الإنسان، فطورتها المعرفة بنخبة فريدة من رجال العلم والأدب، بسطوا عليها نور الثقافة، وأضأوا فيها مصابيح المعرفة.

وكان من أهم علماء نيسابور المشهورين: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، المتوفى سنة (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، كان حجة في الحديث وفقه الشافعي، رحل كثيراً وحصل علماً واسعاً، قال إمام الحرمين في حقه: "ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منة، إلا البيهقي فإن له على الشافعي منة لتصانيفه في نصرة مذهبه"^(٨٢). وقال الذهبي^(٨٣): "لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه؛ لكان قادراً

(٨١) المبكى: طبقات الشافعية: ج ٣، ص ٥٢، ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٤، ص ٢٧٢.

(٨٢) ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ١، ص ٧٥، ص ١٥٩، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ٢٤٢.

(٨٣) تذكرة الحفاظ: ج ٣، ص ١١٢٧.

على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالخلاف* وله تصانيف كثيرة منها : "السنن الكبرى" وغير ذلك^(٨٧). وقد خرجت نيسابور كثيرا من العلماء والأبناء، نخص بالذكر منهم: أبا القاسم القشيري، صاحب الرسالة القشيرية في التصوف، والمتوفي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٣م) كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف، وهو أحد مشاهير الدنيا في الفضل والعلم والزهدي، وكان يعد شيخ خراسان، في عصره، زهدا وعلمًا بالدين^(٨٨). وكان له ابن يقال له عبد الله بن عبد الكريم القشيري، كان إماما كبيرا أشبه أبيه في علومه ومجاليه، وقد أنجب عدة أولاد كلهم فضلاء وعلماء مشهورون^(٨٩).

ويكفي لغفر هذه المدينة وفضلها أنه ولد فيها علي بن محمد بن علي الواحد المتوفي سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م)، صاحب التفاسير، وأستاذ عصره في النحو والتفسير وغير ذلك من العلوم، ورزق السعادة في تصانيفه التي أجمع الناس على حسنها، وذكرها المدرسون في دروسهم^(٩٠). قال ياقوت^(٩١) عنه: هو الإمام المصنف المفسر النحوي أستاذ عصره وواحد دهره، أتقن صباه وأيام شبابه في التحصيل، وعطاف على أعلام الأمة، وقعد للإفادة والتدريس سنين، وتخرج عليه طائفة من الأئمة سمعوا منه وقرعوا عليه وبلغوا محل الإفادة، وكان حقيقا بكل احترام وإعظام، ومن تصانيفه المشهورة "البسيط" في تفسير القرآن، وكذلك "الوسيط" و"الوجيز"، ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة، وله كتاب: "سبب النزول"^(٩٢).

وإمام الحرمين الجويني، المتوفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) الذي بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية بنيسابور، وعهد إليه بالتدريس فيها، ظل فيها مدرسا ثلاثين سنة، يحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة، وكان يحضر بين يديه كل يوم نحو من أربعين رجلا من الأئمة والطلبة، وتخرج على يديه جماعة من الأئمة والفحول وأولاد الصدور في زمانه، حتى بلغوا محل التدريس^(٩٣). كما خرجت هذه المدينة الوزير الكبير والعالم الجليل: نظام الملك الطوسي، المتوفي سنة

(٨٧) ابن الجوزي : المنتظم، ج ٨، ص ٢٤٢، السيوطي: طبقات الحفاظ، ص ٤٣٢.

(٨٨) ابن الجوزي : المنتظم، ج ٨، ص ٢٨٠، السبكي: طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٢٤٣.

(٨٩) الصريفي: المنتخب من السبكي لتاريخ نيسابور، ص ٢٩٨، تحقيق محمد أحمد عبدالعزیز، دار الكتب العلمية ط ١ بيروت ١٩٨٩ م.

(٩٠) القطبي: إنباه الرواة، ج ٢ ص ٢٢٣، ياقوت: معجم الأبناء، ج ٣، ص ٥٥٦.

(٩١) معجم الأبناء، ج ٣ ص ٥٥٦.

(٩٢) السيوطي: طبقات المفسرين، ص ٧٩، للذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٣٢٩.

(٩٣) ابن عساکر: تبیین کذب المفتری، ص ٢٧٨، ابن الجوزي : المنتظم ج ٩، ص ١٩.

(١١٥) (١٠٩٢هـ/١١٠٩م).

ومن مشاهير العلماء النيسابوريين الإمام الغزالي، المتوفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م) (١١٥).

وأبو المظفر الأبيوردی، المتوفي سنة (٥٠٧هـ/١١١٣م)، الشاعر المشهور، كان فاضلا في العربية والعلوم الأدبية، وكان مهيبا محترما معظما لا يخاطب إلا بمولانا لغزارة علمه، وقد دأب على التدريس والإفادة والتصنيف، وله مؤلفات كثيرة (١١٦). ومن علمائها الحكيم والفلكي النيسابوري عمر الخيام، المتوفي سنة (٥١٧هـ/١١٢٣م) (١١٧).

ومنهم الميداني النيسابوري، المتوفي سنة (٥١٨هـ/١١٢٤م) كان فاضلا عارفا باللغة، وأتقن فن العربية خصوصا اللغة وأمثال العرب، وله فيها التصنيفات المفيدة، منها كتاب: "مجمع الأمثال" وكتاب "المسامي في الأسماء" (١١٨).

ومن أعلام نيسابور: عبد الغافر الفارسي المتوفي سنة (٥٢٩هـ/١١٣٤م) الفقيه الشافعي، كان إماما في الحديث واللغة والأدب والبلاغة، والتاريخ وله فيه مؤلفات، تفقه على إمام الحرمين، ثم رحل فأكثر الأسفار ولقي العلماء، وله تصنيفات منها: "السياق في تاريخ نيسابور" وغير ذلك كثير (١١٩). ومحمد بن يحيى بن أبي منصور النيسابوري، الملقب بحبي الدين، المتوفي سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م) استأذ المتأخرين وأوجدتهم علما وزهدا، برع في الفقه وصنف فيه، وانتهت إليه رئاسة الفقهاء بنيسابور، ورحل إليه الناس من البلاد، واستفاد منه كثير حتى صار أكثرهم سادة وأصحاب طرق (١٢٠)، وكان يدرس بنظامية نيسابور، ثم درس بمدينة هراة في المدرسة النظامية.

وقتلته الغز (١٢١) لما استولوا على نيسابور في وقتهم مع السلطان سنجر

(١١٥) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٣، ص ١٣٥، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ٦٥، ٦٦.

(١١٦) ابن عساکر: تبیین کذب المفسري، ص ٢٩١، ابن قاضي شهبه: طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٢٩٣.

(١١٧) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٤، ص ٦٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٢٨٣.

(١١٨) التبيين: تاريخ الحكماء، ص ١١٩، ابن خاوند شاه: روضة الصفاء، ص ٢٣٥.

(١١٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٤٨٩، ابن الأثير: نزهة الألباء، ص ٢٨٨.

(١٢٠) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٢٧٥، السبكي: طبقات الشافعية، ج ٤، ص ٢٥٥.

(١٢١) ابن خلکان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٢٢، الذهبي: المعبر، ج ٤، ص ١٣٢.

(١٢٢) الغز: طبقاته من التركمان يستكون في بلاد ما وراء النهر ویدینون بالإسلام ثم أخرجهم منها القرة خطاتبون (للخطا) عندما هاجموا بلاد ما وراء النهر واستولوا عليها فأسار الغز إلى إقليم خراسان واستقروا في بلخ، وكنوا يدينون بالطاعة للسلطان سنجر

السلجوقي. ومن بينهم ابن فندق البيهقي، المتوفى سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م) كان باحثاً ومؤرخاً ودرس علم الكلام، واشتغل بعلم الحكمة والحساب والفلك، وتعلم المناظرة والمجادلة، وصار يعقد مجالس الوعظ، وله تصنيف كثيرة منها: تاريخ حكماء الإسلام، وتاريخ بيهقي، وكتاب أسامي الأتوية وخواصها ومنافعها وغير ذلك كثير^(١٠٢). كما كانت نيسابور مركزاً هاماً للعلماء والأدباء، وكثيراً ما جذبت إليها علماء العالم الإسلامي آنذاك، كي يتلقوا العلم على علمائها، وأوضحت بذلك متدفقة بالحياة والنشاط، زاهرة بمجالس العلم على اختلاف أنواعه، بتصدرها مدرسون من كبار شخصيات الإسلام، ويتزاحم الطلبة الوافدون إليها من مختلف البلدان.

وكانت نيسابور من أولى المدن التي عرفت المدارس في العالم الإسلامي، كما تشهد بذلك النصوص التاريخية فقد أنشأ فيها علماء المسلمين العديد من معاهد العلم منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وسار السلاجقة على هذا النهج، فأنشأوا فيها العديد من المدارس، حيث أنوا معادراً مهمما في نشر الثقافة والعلم الإسلامية. والواقع أن كثيراً من مدارس خراسان قد ورد ذكرها في المصادر عرساً، وذلك عند الحديث عن تراجم العلماء والأدباء، في الوقت الذي لم ترد فيها أية معلومات خاصة عن هذه المدارس، ولا تاريخ بنائها وتأسيسها، وإنما فهم ذلك من خلال تراجم مدرسيها أو العلماء الذين نزلوها أو عقدوا فيها مجالس الإملاء أو المناظرة أو الوعظ.

ويعدد أحد الباحثين^(١٠٣) أكثر من ثلاث وثلاثين مدرسة، أنشئت في مدينة نيسابور كان يرئادها العلماء والأدباء والفقهاء، وعقدوا فيها مجالس الوعظ والمناظرة، وبعض هذه المدارس كان موجوداً قبل العصر السلجوقي. ولكني سأقتصر الحديث على المدارس التي استمرت المصادر والنصوص التاريخية تشير إلى وجودها واستمر العمل بها، وأرئادها علماء وأدباء عاشوا في العصر السلجوقي^(١٠٤).

السلجوقي ولكن لم يلبث أن انقلبوا عليه فهاجموا مرو ونيسابور وجميع بلاد خراسان ودارت بينهم وبين سنجر حروب انتهت بهزيمة السلاجقة، ووقع السلطان سنجر في الأسر وذلك سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م). أرنوندي: راحة الصدور، ص ٢٦٨ - محمود إدريس: السلطان سنجر، ص ٨٤.

^(١٠٢) ياقوت: معجم الأدباء، ج ٤ ص ١١٣.

^(١٠٣) ناجي معروف: مدارس قبل التنظيمية، ص ١٢٣، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني والعشرين ١٩٧٣م.

^(١٠٤) صلاح الدين على عاشور: الحياة العلمية في العراق والمشرق الإسلامي إبان العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٩٠هـ/١٠٥٥-١١٩٣م) ص ١٦٠، ١٦١ رسالة الدكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩٦م.

١- المدرسة الصاعدية:

ورد ذكر هذه المدرسة في كتاب: 'منتخب السباق لتاريخ نيسابور' في عدة مواضع، وذلك عند ترجمته لكثير من العلماء، فقد ورد ذكرها عند الترجمة لأبي القاسم الصاعدي المتوفى سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) قال عنه: 'كان رجلاً كبيراً فاضلاً مشهوراً من الدوحة الصاعدية، حسن الطريقة متعبداً لأهل السنة، تولى القضاء بنيسابور ودرس بالمدرسة الصاعدية سنين، وكانت إليه الفتوى على مذهب أبي حنيفة'. ومن مدرسيها أيضاً أبو العلاء صاعد بن منصور المتوفى سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م) أحد وجوه الصاعدية، كان يحضر المجالس والمحافل مع أبيه، وينوب عن والده في الخطابة، ولقّبه في المدرسة للتدريس^(١٠٥). كما جاء ذكر المدرسة أيضاً عند الحديث عن عبد الملك الصاعدي المتوفى سنة (٥٠١هـ/١١٠٧م) قال عنه: شيخ فاضل فقيه مدرس من وجوه الصاعدية^(١٠٦).

٢- مدرسة سهل الصعلوكي:

ورد ذكر هذه المدرسة في 'منتخب السباق' في ترجمة محمد بن يحيى بن أبي زكريا المزكي المتوفى سنة (٤٧٤هـ/١٠٨١م)، وكان من أكابر العلماء، ويحكى أنه كان يحضر مجلس إمامه أكثر من خمسمئة محبرة، وعند وفاته دفن خلف مدرسة سهل الصعلوكي بنيسابور^(١٠٧) وقد ذكر المؤرخون^(١٠٨) أن سهل الصعلوكي هذا هو: أبو الطيبان بن أبي سهل الصعلوكي العجلي المتوفى بنيسابور (٤٠٤هـ/١٠١٣م) فعلى هذا تكون مدرسته قد أُنشئت قبل هذا التاريخ، وكان سهل الصعلوكي مفتي نيسابور، ووصف بأنه جمع بين رياستي الدنيا والدين، ويلقب بشمس الإسلام^(١٠٩).

٣- مدرسة الصابوني:

يظهر مما ورد في المصادر أن هذه المدرسة أُنشئت قبل سنة (٤٠٥هـ/١٠١٤م) فقد ورد ذكرها في ترجمة لعبد الله بن طاهر البوشنجي، جاء فيها: محترم فاضل قدم نيسابور سنة (٤٠٥هـ، وعقد له مجلس الإملاء في مدرسة الصابوني^(١١٠)، مما يدل على أن المدرسة كانت موجودة قبل هذا التاريخ، وقد ذكر المؤرخون أن الشيخ أبا عثمان الصابوني المتوفى سنة (٤٤٩هـ) لما حضرته الوفاة طلب من

(١٠٥) للصريفيني: منتخب السباق، ص ٢٦٠.

(١٠٦) السابق: منتخب السباق، ص ٢٣١، ٢٣٢.

(١٠٧) الذهبية: تذكرة الحفاظ، ج ٢ ص ١١٨٣.

(١٠٨) ابن الصاد: شذرات الذهب ج ٣ ص ١٧٢.

(١٠٩) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص ١٢٧.

(١١٠) السيوطي: طبقات المفسرين ص ٣٦ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٧٦.

أصحابه أن يجلسوا في المدرسة، ويساعدوا الأصحاب على قراءة القرآن، كما طلب أن يدفن في المدرسة^(١١١)، وبعد وفاته قام ابنه عبد الرحمن الصابوني المتوفى سنة (٥٠٠هـ) بمهمة التدريس بالمدرسة^(١١٢).

٤- المدرسة الناصحية:

نكرها العديد من المؤرخين^(١١٣) بصدد ترجمتهم لأحد مدرسيها، وهو: أبو عبد الله الفراوي الملقب بـفقيه الحرم، والمتوفى سنة (٥٣٠هـ/١١٣٥م)، قالوا فيه: درس الأصول والتفسير على زين الإسلام القشيري، وتلقه على إمام الحرمين، وحج وعقد له مجالس العلم بالحرمين، ويروى أنه ألقى أكثر من ألف مجلس، وعاد إلى نيسابور ودرس بالمدرسة الناصحية وأخذ الطلبة فيها.

٥- المدرسة البيهقيّة:

ذكر المؤرخون أن المدرسة البيهقيّة بنيسابور أنشئت قبل أن يولد نظام الملك أي قبل سنة (٤٠٨هـ/١٠١٧م) ومؤسسها هو: علي بن الحسين بن علي البيهقي المتوفى سنة (٤١٤هـ/١٠٢٣م) كان كاتباً وأديباً من وجوه أصحاب الشافعي، بنى مدرسة من خالص ماله وألقى على عمارتها ومصالحها آلاف مؤلفة^(١١٤) ومن العلماء الذين ورد ذكرهم في المدرسة البيهقيّة: الحافظ أحمد بن عبد الملك بن عبد الصمد المتوفى سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) الذي كان عليه الاعتماد في الودائع وكتب الحديث المجموعة في الخزائن المعروفة عن المناياخ والموقوفة على أصحاب الحديث وكانت موضوعة عنده في حجرته في المدرسة البيهقيّة، فكان يصونها ويتعهد حفظها، ويتولى أوقاف المحدثين من الحبر والورق وغير ذلك، كما وكلت إليه أوقاف المدرسة وعمارتها، وكان يقوم إلى جانب ذلك بالوعظ والتدريس بهذه المدرسة^(١١٥)، وبعد وفاته قام ابنه أبو الفضائل مقامه في حفظ الكتب ومهمة الوعظ والتدريس في المدرسة^(١١٦).

كما ورد في ترجمة إمام الحرمين الجويني، المتوفى سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) أنه كان يذهب طلباً إلى مدرسة البيهقي لتلقي العلم على أساتذتها^(١١٧). وأبو القاسم

(١١١) لذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٤٠.

(١١٢) الصريفي: منتخب السيق، ص ٣١٨.

(١١٣) ابن الصاد: شذرات الذهب ج ٤، ص ٤٦، السبكي: طبقات الشافعية ج ٤، ص ٩٢.

(١١٤) الصريفي: منتخب السيق، ص ١٠٧، ١٠٨، لذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٣، ص ١١٦٢.

(١١٥) الصريفي: منتخب السيق، ص ١٠٨، لذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٣، ص ١١٦٢.

(١١٦) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص ١٣٥.

(١١٧) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص ٢٧٨، السبكي: طبقات الشافعية ج ٣، ص ٢٤٩.

الأنصاري المتوفي سنة (٥١٢هـ/١١١٨م) كان يخلف الشيخ أبا صالح بعد وفاته في مدرسة البيهقي وعمارتها والسمعي في مصالحتها وحفظ الكتب، كما كان يقوم بالتدريس في المدرسة^(١١٨). وأبو بكر البوشنجي المتوفي سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) كان إماماً فاضلاً ورعاً اشتغل بالعبادة واتزوى عن الخلق في مدرسة البيهقي^(١١٩).

٦- المدرسة النظامية:

أنشأها الوزير نظام الملك قبل نظامية بغداد بنحو عشر سنوات، فقد أجمع المؤرخون^(١٢٠) أن مدرستها الأول إمام الحرمين الجويني، المتوفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، درس بها نحو ثلاثين سنة، وعلى هذا يكون وقت إنشائها في حدود سنة (٤٤٨هـ/١٠٩٥م)، وذلك وقت أن كان نظام الملك يعمل وزيراً لأبى أرسلان أيام ولايته على خراسان، وقبل أن يلي أمور السلطنة خلفاً لعنه طغرل بك^(١٢١).

وتعد نظامية نيسابور من أشهر المدارس الإسلامية التي أنشئت بها، فقد نالت صيتاً ذائعاً في كل أنحاء العالم الإسلامي، وتولى التدريس فيها أكابر العلماء، ممن كانت لهم قدم السبق في تطوير الحياة الثقافية وإعاشتها، وبما تركوا من مؤلفات نفيسة أصبحت من أمهات الكتب المعتمدة عليها في العصر السلجوقي والعصور اللاحقة له وبما خرجوا من طلبة نجباء فضلاء كان لهم فضل كبير في نشر الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهناك عدد كبير من الأئمة الذين أسندت إليهم مهمة التدريس بها، أو الذين عقدت لهم مجالس الإملاء أو المناظرة، عدا من تخرج منها، وأشهر مدرسيها: إمام الحرمين الجويني وابنه أبو القاسم المتوفي سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)^(١٢٢)، وأبو حامد الغزالي المتوفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م)^(١٢٣).

(١١٨) الصريفي: منتخب السيلقي، ص ٢٤٩، الذهبي: العبر، ج ٤ ص ٢٧.

(١١٩) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص ١٣٨.

(١٢٠) ابن الأثير: التلخيص ج ١ ص ٣١٥، ابن العساكر: شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٥٨.

(١٢١) بعد النصر الذي حققه قادة السلاجقة باستيلائهم على منطقة خراسان، رأى السلطان "طغرل بك" كي يضمن قيام الوحدة والترابط بين أفراد البيت السلجوقي أن يستعين بهم في حكم البلاد تحت سلطانه فقسم البلاد فيما بينهم وعين كل واحد منهم حاكماً على إقليم ومسيره إليه وأعطى له الحق بفتح وضم ما يشاء من البلاد المجاورة لمملكته بحيث لا يتعدى على ممتلكات الآخر فجعل لأخيه جفري بك منطقة خراسان الذي عهد بها لابنه ألب أرسلان وعينه حاكماً عليها وعين له وزيراً من قبله هو نظام الملك ثم لم يلبث أن توفي جفري بك فخلفه على الإمارة ابنه ألب أرسلان وأصبح نظام الملك هو المسئول عن كل أعمال ألب أرسلان إلى أن آلت السلطنة إليه، قطعت منزلة وزيره. الحصيني: زبدة التاريخ ص ٧٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٧.

(١٢٢) ناجي معروف: علماء التنظيمات ومدارس المشرق الإسلامي، ص ٤٤.

وقطب الدين النيسابوري المتوفى سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م)^(١٢٤).

٧- المدرسة القشيرية:

هي منسوبة إلى الأستاذ أبي القاسم القشيري المتوفى سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) صاحب الرسالة القشيرية الشهيرة في التصوف. ومن الذين تولوا مهنة التدريس بهذه المدرسة: الفضل بن محمد الفارمذي المتوفى سنة (٤٧٧هـ/١٠٨٤م)^(١٢٥) والمظفر بن علي بن العباس الهمداني المتوفى سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م) فقيه فاضل، ومناظر كبير، عقد له مجلس الوعظ والإملاء في المدرسة القشيرية بنيسابور^(١٢٦).

ثانياً: الحركة المدرسية بمدينة مرو في العصر السلجوقي:

مرو حاضرة إقليم خراسان وعاصمتها في عصر السلاجقة العظام، وتعد بلا مراء من أعظم مراكز الثقافة في المشرق الإسلامي، إذ كانت واسطة العقد، والمدينة الكبرى، ومنبع العلماء والفضلاء، ودار الملك لجماعة من سلاطين السلاجقة دهرًا طويلاً، فبلغت الحضارة الإسلامية فيها مبلغاً كبيراً، وأقيم فيها العديد من المدارس العلمية لنشر العلم.

وكانت نظامية مرو، التي أنشأها الوزير نظام الملك، من أهم المدارس التي أسست لأصحاب الشافعي، ووكّل أمر التدريس فيها لابن المظفر السمعاني المتوفى سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٥م)، وقد تولى التدريس بعده جماعة من مشاهير العلماء^(١٢٧)، وبقيت تلك المدرسة مقصد طلاب العلم من مختلف البلدان الإسلامية، ينزلون بها ويتعلمون فيها كلما وفدوا على مرو^(١٢٨). كذلك كانت هناك مدرسة لأصحاب أبي حنيفة، وهي المدرسة العميدية التي أنشأها عميد خراسان "محمد بن منصور" المتوفى سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)، وجعلها وفقاً لأصحاب مذهبه، وكانت تحتوي على خزنة كتب^(١٢٩).

وقد ظهرت أهمية هذا الإقليم في عصر السلطان "ألب أرسلان" الذي اتخذ من مرو حاضرة لدولته، حيث ظهرت في عهده نهضة علمية شاملة، فقد بنى الرئيس أبو

(١٢٤) ابن عساکر: تبين كتب المفترى، ص ٢٩١، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩ ص ١٦٨.

(١٢٥) ابن قاضي شهاب: طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٠، المبكي: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٣٠٩.

(١٢٦) ناجي معروف: مدارس قبل التنظيمية، ص ١٥٠.

(١٢٧) ناجي معروف: السابق، ص ١٥١، ١٥٢.

(١٢٨) ابن خلکان: وفیات الأعيان ج ٣ ص ٢١٢.

(١٢٩) ناجي معروف: علماء التنظيمات ومدارس المشرق الإسلامي ص ٦١، ٦٢.

(١٣٠) ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص ٢٤٥، ابن الأثير: الكامل، ج ٨ ص ٢٠٥.

على المنيعي، المتوفي سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، جامعا يَمرو تَقام فيه الجمعة والجماعة، وصار جامع البلد المشهور، يدرس فيه العلوم والآداب وشتى نواحي المعرفة^(١٣٠).

وكان السلطان 'سنجر بن ملكشاه' مع مئة ملكه، قد اختارها على سائر بلادها لتكون مقرا له، وكان يجل الطعام ويقدرهم، فقصدته عدد كبير من مشاهير العلماء والأبهاء، وتولوا المقاعد التدريسية وحلقات الطلبة، وأسهموا في تنشيط الحركة الثقافية في هذه المدينة، وولت إليهم كبرى المناصب القضائية والإدارية، بما عرف عنهم من مقدره علمية وأدبية رشحتهم لأرقى المناصب، مما يشير إلى مدى ما كانت تتمتع به هذه المدينة من ازدهار علمي وأدبي.

كما بلغت حركة التأليف والنسخ واقتناء الكتب بها شأوا كبيرا. وقد اشتهرت مدينة مرو، فضلا عن مدارسها ومعاهدها، بمكتباتها الحافلة بأنواع العلوم والفنون، فيذكر ياقوت الحموي^(١٣١) وكان معاصرا، لهذه الفترة: أنه أقام طويلا في مدينة مرو، وأخذ العلم من علمائها، وأفاد من خزائن كتبها، وأن هذه الكتب قد أعانتها على جمع مادة كتابه المعروف بـ "معجم البلدان" ويقول: "فتبى فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف، لم أر في الدنيا مثلاً كثرة وجودة"، وكانت خزائن كتبها ملحقة بالمساجد أو المدارس، وكان الاطلاع على تلك الكتب سهلاً ميسوراً دون قيود، حيث كان يرتع فيها ويقتبس من فوائدها، حتى إن حبه لها أساء كل بلد، وأنهاه عن الأهل والولد^(١٣٢).

وقد خرجت مرو كثيراً من الأعيان والعلماء، وكان لواء الرياسة والصدارة في مرو معقوداً لأسرة السمعاني، وهي أسرة علم وفضل، فقد برز من البيت السمعاني أكثر من أربعة عشر، ما بين عالم ومحدث وفقه وأديب يشار إليهم بالبنان، قد شغلوا وظائف مهمة في القضاء والإفتاء والتدريس، والخطابة ومجالس الوعظ والإسلام، وما كان لهم من خزانة الكتب بمدينة مرو، والتدريس في المدرسة النظامية، وكذلك المدرسة الصغرى، كما كانت لهم للخطابة بجامع مرو، وعقدوا فيه المجالس العلمية^(١٣٣).

ومن أشهرهم: الإمام أبو منصور محمد بن عبد الجبار بن الفضل بن منصور السمعاني المروزي، المتوفي سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، كان إماماً في النحو واللغة

(١٣٠) للصريفيني: منتخب السيلقي ص ٢١٤.

(١٣١) معجم البلدان: ج ٥ ص ١١٤.

(١٣٢) ياقوت: معجم البلدان، ج ٥ ص ١١٤، ١١٥. محمد محمود إدريس: السلطان سنجر، ص ١٣٩.

(١٣٣) منيرة ناجي سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعاني ص ٣٤، ٢٥.

العربية، صنف فيها التصانيف، وكان حنفيا ورعا ومن رؤساء الحنفية بمرو^(١٢٤).

أما ولده منصور فكان أولا حنفيا، ثم تحول شافعيا بعد ثلاثين سنة، فصار أولاده وأحفاده كلهم شافعية، وكان أبو منصور هذا مفتي خراسان، فقمه نظام الملك على أقرانه في مرو، وعهد إليه بمهمة التدريس بنظامية مرو^(١٢٥) ويوصف بأنه أحد أئمة الدنيا، رفيع القدر، عظيم المحل، صنف في مختلف العلوم والفنون، ومن كتبه: تفسير السمعاتي، و"المنهاج لأهل السنة"، و"الانتصار لأهل الحديث"، وهو جد أبو سعد السمعاتي صاحب "الأنساب"^(١٢٦). ومنهم أيضا تاج الإسلام أبو بكر السمعاتي، المتوفى سنة (٥١٠هـ/١١١٦م)، برع في الفقه، وتبحر في علم الحديث ومعرفة الأسانيد والرجال والجرح والتعديل، مع الإحاطة بالتواريخ والأنساب، خلف أباه في مجالس التدريس بنظامية مرو، وخلفه في الوعظ، وزاد عليه في الخطابة والقبول التام بين الخاص والعام، عظمه الملوك والأكابر، وقصر أيامه على الإفادة ونشر العلم، وصنف تصانيف في الحديث، وهو والد صاحب الأنساب^(١٢٧). وأشهرهم جميعا أبو سعد السمعاتي المروزي صاحب "الأنساب"، المتوفى سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م)، كان بيته من أرفع البيوت، وأعلمها في بلاد الإسلام، وأقدمها في العلوم الشرعية والأمور الدينية، طاف بمراكز العلم في بلاد الإسلام عدة سنوات، ورحل إلى خراسان وأصفهان ونيسابور، والري وهمدان وما رءاء النهر، والعراق والحجاز والشام، وطبرستان والجزيرة، وزار بيت المقدس وحج مرتين ثم رجع إلى وطنه^(١٢٨).

ومن كتبه المشهورة: "الأنساب"، و"التحبير في المعجم الكبير"، وتاريخ مرو، و"تذيل تاريخ بغداد للخطيب"^(١٢٩)، وانتهت إليه رئاسة آل السمعاتي. قال فيه ابن الأثير^(١٣٠): "وأما تاج الإسلام أبو سعد فإنه كان واسطة عقد بيت السمعاتي، وعينهم الباصرة، ويدهم الناصرة، إليه انتهت رئاستهم، وبه كملت سيادتهم، وقد درس بالمدرسة العسدية بمرو ودرس بها، كما درس بنظامية مرو، وصارت له شهرة

(١٢٤) الذهبي: العبر ج ٣ ص ٢٢٢.

(١٢٥) الصريغوني: منتخب السيلي، ص ٤٤٢، السبكي: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢١.

(١٢٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢١٢، ابن العاص: شذرات الذهب، ج ٣ ص ٣٩٣.

(١٢٧) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ١٨٨، ابن قاضي شهاب، طبقات الشافعية، ج ٢ ص ١٢.

(١٢٨) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤ ص ٣١٦.

(١٢٩) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ٣١٦، اليافعي: مرآة الجنان ج ٤ ص ٣٧١.

(١٣٠) الكامل: ج ٩ ص ٩٨.

فأفقه، وقصده الطلبة من سائر البلاد الإسلامية لتلقى العلم على يديه^(١١١).

وعلي بن محمد بن أرسلان بن محمد للكتيب، المتوفى سنة (٥٣٦هـ/ ١١٤١م)، كان ملوح للخط فصيح العبارة، وله شعر وترسل وبلاغة في غاية الحسن، قيل عنه: "اجتمعت فيه أسباب المناجاة والكتابة وصحبة الملوك"^(١١٢)، وله مصنفات كثيرة منها: "تطعة المشتاق إلى ساكني العراق" ويذكر ياقوت الحموي^(١١٣)، نقلاً عن الزمخشري الخوارزمي، أنه قال: "أنشدني الكبير المنتخب أبو علي محمد بن أرسلان لنفسه بيتاً لو وقع في شعر المتقدمين لسيرته الرواة، وخلدته الأئمة في كتبهم، وكم من أخوات له ضيعت بضياح الأكب، وقلة النقلة، واتضاع الهمم، وترجع الأمور على أعقابها"^(١١٤). وأبو منصور المظفر بن أبي الحسين أرشد بن أبي منصور العبدي الواعظ المروزي المتوفى سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) له اليد الطولى في الوعظ، حسن العبارة حتى صار عين ذلك العصر، وشهد له الكل بالفضل وحباسة قصب السبق، قدم بغداد وأقام فيها ثلاث سنوات يعقد فيها مجالس الوعظ ولقي من الخلق قبسولا تاماً^(١١٥). وأبو محمد الخرقى المتوفى سنة (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م) كان فقيهاً فاضلاً، ثم اشتغل بالحساب وحصل منه طرفاً صالحاً وجاوزه إلى العلوم الفلسفية وغيرها، وجمع تاريخاً لمرو ذكر فيه أحوال الأئمة والمحدثين والعلماء، وله مصنفات غير تاريخ مرو منها "فضائل الأوقات" و"منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك"^(١١٦) وخرق قرية بين فرى مرو^(١١٧).

١- المدرسة النظامية:

أنشأ هذه المدرسة الوزير السلجوقي الكبير: نظام الملك الطوسي، ولعل تاريخ إنشائها يوافق تاريخ انتقال أبي المظفر السمعاني إلى المذهب الشافعي سنة

^(١١١) صلاح الدين علي عاشور: أبو سعد السمعاني وكتابه الأسماء، ص ٢٧٢٥، ٢٧٢٦، مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الثالث، العدد الثالث والعشرين، القاهرة ٢٠٠٥.

^(١١٢) السمعاني: التحرير في المعجم الكبير ج ١، ص ٢٤١، تحقيق منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥م.

^(١١٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٦٠.

^(١١٤) معجم الأئباء: ج ٤، ص ٣١٧.

^(١١٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥، ص ٢١٢، ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠، ص ١٥٠، ١٥١.

^(١١٦) ياقوت الحموي: معجم الأئباء ج ٥، ص ١٥٧.

^(١١٧) ابن الجوزي: المنتظم ج ٩، ص ٦٠.

(٤٦٨هـ/١٠٧٥م)، وربما يكون نظام الملك قد بنى هذه المدرسة باسم هذا العالم الجليل، فيذكر المؤرخون أن هذا الوزير قد رفع من قدره وقدمه على أقرانه، وعقدت له مجالس الوعظ والتدريس بنظامية مرو، وكانت وفاته سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٥م)^(١٤٨).

وقد درس في هذه المدرسة أغلب الأسرة السمعتية، ومن أشهر مدرسيها: أبو المجد الرازي من أهل الري، فقيه فاضل نزل مرو في المدرسة النظامية عام (٥٢٩هـ/١١٣٤م)، وتولى مهمة التدريس بها^(١٤٩). وأبو القاسم أحمد بن منصور السمعتي المتوفى سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م) وهو العم الأصغر لأبي سعد السمعتي^(١٥٠) ثم درس بها الإمام أبو سعد السمعتي صاحب الأساب، المتوفى سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م). ويكفي للدلالة على المنزلة العلمية الرفيعة التي بلغها هذا البيت: أن الوزير نظام الملك الطوسي بنى "المدرسة النظامية" بمرو لأبي المظفر السمعتي جد أبي سعد، وذلك بعد انتقال أبي المظفر جد أبي سعد إلى المذهب الشافعي سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م)، فرفع نظام الملك من مقامه، وقدمه على أقرانه، وعقد له مجلس للتذكير والتدريس في مدرسة أصحاب الشافعي بمرو^(١٥١). وقد درس بها أيضاً أبو بكر السمعتي والد أبي سعد، وكذلك درس بها أبو القاسم عم أبي سعد، ثم درس بها أبو سعد نفسه^(١٥٢). وعندما بنى عميد خراسان محمد بن منصور النموي، المتوفى سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)، المدرسة العميدية بمرو، أوقفها على أبي بكر السمعتي

(١٤٨) الصريغني: منتخب السبائك ص ٤٤٢.

(١٤٩) ناجي معروف: علماء التنظيمات ومدارس المشرق الإسلامي ص ٦٢.

(١٥٠) ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠ ص ٨٦.

(١٥١) كانت خراسان في منتصف القرن الخامس الهجري قد تنازعت فيها قوتان مهمتان هما الحنفية والشافعية، إلا أن شوكة الشافعية بخراسان عامة كانت قد قويت بسبب اهتمام وزراء السلالة الشافعية بالناحية العلمية، وكان على رأسهم الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، فبنى عدة مدارس عرفت بالتنظيمات في جميع أنحاء المشرق الإسلامي في نيسابور وهراة وبلخ ومرو، وكان نظام الملك قد جعل في هذه المدارس وفقاً على المذهب الشافعي، فكان من غير المستبعد أن يتطلع أبو المظفر السمعتي (جد أبو سعد) للتدريس في نظامية مرو لما كان له من مكانة عالية بين الفقهاء، الأمر الذي أدى إلى حدوث اضطرابات شديدة في مدينة مرو، حتى كادت الحرب تفزع بين أصحاب أبي حنيفة والشافعي، ومنذ ذلك الحين صار أولاده وأحفاده كلهم شافعية. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢١١.

(١٥٢) الصريغني: المنتخب من السبائك لتاريخ نيسابور ص ٤٤٢، ٤٤٣، تحقيق محمد أحمد عبدالعزيز، دار الكتب العلمية ط ١ بيروت ١٩٨٩ م.

وأولاده^(١٠٣)، حتى قال ابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧هـ - ١٢٠١م): فهم فيها إلى الآن^(١٠٤). وقد برز من هذا البيت مجموعة كبيرة من العلماء ما بين عالم ومحدث وفقه وأديب يشار إليهم بالبنان، شغلوا وظائف مهمة في القضاء والإفتاء والتدريس والتحديث والخطابة ومجالس الإملاء والوعظ والتذكير. وكانت لهم خزائن الكتب بمدينة مرو وكذلك في المدرسة العميدية الخاصة بالبيت السمعتي.

والتواقع أن البيت السمعتي كان بيت نعمة ويسار فكان لهم عدد من الضياع في مرو ومرخس^(١٠٥)، إضافة إلى ما كان لهم من عبيد وخدم وجوار ومؤدبين ومربين لأولادهم، كما أن معظم أعيان البيت السمعتي قلموا برحلات كبيرة في سبيل تحصيل العلم، يوم كانت الرحلة قطعة من العذاب، فضلا عن التكلفة الكبيرة من النفقات، إضافة إلى ما لفتتوه من كتب ومجلدات أثناء رحلاتهم، فتركوا دويًا هائلًا في دنيا البحث والدراسة. وأكبر دليل على المنزلة العلمية الرفيعة التي بلغها هذا البيت: ما كان لهم من خزائن الكتب، (المكتبات) بمدينة مرو، إذ كان لهم فيها ثلاث خزائن للكتب قال عنها ياقوت الحموي عند زيارته لهذه المدينة: "إنها كانت سهلة التداول لا يفارق منها منزلي منّا مجلد وأكثرها بغير رهن... فكانت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأتسأتى حبها كل بلد، وألهأتني عن الأهل والولد، وأكثر فوائد هذا الكتاب - يقصد معجم البلدان - وغيره مما جمعته، فهو من تملك الخزانة^(١٠٦). وكانت مساجد مدينة مرو، لا سيما في العصر السلجوقي، من أكثر وأهم المؤسسات العلمية، فعلى الرغم من كون الهدف الرئيس من إنشاء هذه المساجد هو جعلها أماكن للعبادة، إلا أنها قامت بدور مهم في نشر الثقافة والمعرفة، والوعي الديني، فقد ضمت حلقات لتدريس مختلف أنواع العلوم النظرية، والعقلية، حتى صارت أشبه بجامعات يدرس فيها مختلف أنواع التخصصات، وكان يتولى التدريس فيها مشاهير العلماء الذين استقنهم السلاطين، والأمراء والوزراء للقيام بهذا العمل^(١٠٧).

(١٠٣) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ص ٨٤، ٨٥ ترجمة د. أحمد كمال الدين حلمي جامعة الكويت ١٩٨٤ م. صلاح الدين عشور: أبو سعد السمعتي، ص ٢٧٢٦.

(١٠٤) ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ١٢٨.
 (١٠٥) مرخس: مدينة كبيرة من أشهر مدن خراسان، تقع في وسط الطريق بين نيسابور، ومرو. ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠٨.
 (١٠٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥ ص ١١٤.
 (١٠٧) يحيى بن حمزة الوزنة: مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، ص ١٣٥، مكتبة الثقافة الإسلامية، ط ١ القاهرة ٢٠٠٧ م.

٢- المدرسة العميدية:

أنشأ هذه المدرسة عميد خراسان محمد بن منصور المستوفي، المتوفي سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)، ووقف فيها كتباً نفيسة ووقفها على أبي بكر بن أبي المظفر السمعاني وأولاده^(١٥٨)، ويذكر ابن الجوزي، المتوفي سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م) أنهم فيها إلى الآن^(١٥٩).

وقد أشار إليها ياقوت الحموي عند زيارته لها سنة (٦١٦هـ/١٢٢٠م)، وذكر أن إحدى خزائن كتب البيت السمعاني كانت موجودة بهذه المدرسة^(١٦٠) ومعنى ذلك أن هذه المدرسة ظلت تؤدي دورها العلمي والتعليمي حتى ذلك الوقت.

ثالثاً الحركة المدرسية بمدينة هراة في العصر السلجوقي:

كانت مدينة هراة من أمهات مدن خراسان، يقول عنها القزويني^(١٦١): "ما كان بخراسان مدينة أجمل، ولا أعمر، ولا أحسن، ولا أكثر خيراً منها"، بينما يقول عنها ياقوت الحموي^(١٦٢): "لم أر بخراسان عند كوني بها أجمل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها".

وكانت مدينة هراة من المدن التي اهتم السلاجقة بنشر الثقافة فيها، فقد أسس بها الوزير نظام الملك إحدى نظامياته، واستدعى لها العالم الجليل "أبا بكر السشاشي" للتدريس بها، والقيام على شؤونها، فأصبحت منارة للطب والمعرفة^(١٦٣). ومن مشاهير علماء هراة: أبو المظفر الإسفزاری، المتوفي سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) وهو من الذين اشتغلوا مع الخيام بالعلوم الرياضية، وأحد عظماء المنجمين الذين كلفهم ملكشاه بعمل "التقويم الجليلي"، المعروف بالرصد الملكشاهي^(١٦٤). والشيخ عبد الله الأنصاري الهروي المتوفي سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م)، من مشاهير الصوفية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ومن الذين أجادوا اللغتين الفارسية والعربية وألف بهما، وقال الشعر العربي والفارسي، وفرق في أشعاره بين الشعر الصوفي والشعر التعليمي، وكان يلقب بشيخ الإسلام، وتنسب إليه مجموعة من الرباعيات تتضمن أفكاراً دينية وصوفية، غير أن شهرته ترجع في المقام الأول إلى

(١٥٨) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣١٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧٨.

(١٥٩) ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ١٢٨.

(١٦٠) ياقوت: معجم البلدان: ج ٥ ص ١١٤.

(١٦١) آثار البلاد: ص ٤٨١.

(١٦٢) معجم البلدان: ج ٥ ص ٣٩٦.

(١٦٣) السبكي: طبقات الشافعية ج ٣ ص ٧٩، ٨٠.

(١٦٤) البيهقي: تاريخ الحكماء، ص ١٢٥، العروضي السمرقندي: جواهر مقالة، ص ١٦٠.

مؤلفاته النثرية العديدة الفارسية والعربية، فمن مؤلفاته الفارسية: "رسالة أسرار"، و"كنز السالكين"، أما تصانيفه العربية فمنها: كتاب "ثم الكلام"، وكتاب "منزل السالكين" (١٦٥).

ومن مشاهير علماء هراة أيضا: عبد الرحمن بن عثمان بن منصور المعدل الهروي، المتوفي سنة (٥٤٦هـ/١١٥١م)، وكان حافظا أدبيا يلقب ثقة الدين، وقيل عنه: "حافظ فاضل مقدم المحدثين بهراه له معرفة بالحديث والأدب" (١٦٦).

نظامية هراة:

أنشأها الوزير نظام الملك، وعهد بالتدريس فيها إلى محمد بن علي بن حامد الإمام أبو بكر الشافعي المتوفي سنة (٤٨٥هـ/١١٥٣م) فقيه عصره بقرى مدة بهراة يدرس في المدرسة المتسوية إلى نظام الملك (١٦٧) وقد ذكر ابن الجوزي نظامية هراة في حوادث سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) عندما وقعت الفتنة بهراة بين الشيخ عبد الله الأنصاري المتوفي سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) وكان حنبلي المذهب، وأحد الشافعيين فهجم الحنابلة على المدرسة النظامية، فبعث نظام الملك من قبض على الشيخ عبد الله الأنصاري وأبعده عن هراة حتى خبت الفتنة، ثم أعاده إلى هراة مرة أخرى (١٦٨). ومن أشهر الذين تولوا مهنة التدريس بها الشيخ محمد بن يحيى المتوفي سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م) وكان يدرس بنظامية نيسابور، ثم درس بمدينة هراة في المدرسة النظامية، وحضر دروسه فضلاء عصره في مدينة هراة (١٦٩).

رابعا. الحركة المدرسية بمدينة بلخ في العصر السلجوقي:

من أجل مدن خراسان وأكثرها خيرا (١٧٠)، يقول عنها ابن حوقل (١٧١): "مدينة قديمة أزلية، تجمع جميع التجارات، وتلصق بالأمعة من سائر الجهات، وفي أهلها علم، ويغلب عليهم الأدب ودقة النظر في الفقه والعلوم الغامضة، وقد خرجت غير رئيس، وعرف من أهلها غير نفس".

وقد عنى السلاجقة بهذه المدينة وعمرها، وأقاموا فيها المساجد والمدارس

(١٦٥) نظام الملك: سياست نامه ص ١٧٥. السيوطي: طبقات المفسرين ص ٥٧.

(١٦٦) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٤ ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(١٦٧) ابن قاضي شهاب: طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٧٠، السبكي: طبقات الشافعية ج ٣ ص ٧٩.

(١٦٨) ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ١٥، ١٦.

(١٦٩) ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ٤ ص ٢٢٣.

(١٧٠) القزويني: آثار البلاد ص ٣٣١.

(١٧١) صورة الأرض: ص ٣٧٤.

والربط، وأسس فيها الوزير نظام الملك مدرسة لأصحاب الشافعي، هي المدرسة النظامية (١٧٢).

وفوض أمر التدريس بها لعبد الله بن طاهر بن محمد بن شهور، المتوفى سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، وكان إماماً في الفروع والخلاف والأصول، وله الجاه والمال الكثير والمنزلة الرفيعة، حتى إنه لما قدم بلغ استقباله أهل البلد بحفاوة بالغة (١٧٣).

وعمر بن أحمد بن اللوشي الطالقاني البلخي المتوفى سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م) الفقيه الشافعي، كان من الفضل الناس في عصره في علم اللغة والأدب، هذا إلى جانب إجادته الفقه وعلم التفسير والحديث مما جعله من أكابر علماء عصره، وبلغ من قدره وعلمه أنه كان أمر بالتدريس بنظامية بلخ، وظل يدرس بها إلى حين وفاته (١٧٤) وبعد القاضي ظهير الدين أبو بكر البلخي من الكتاب الذين تعلقوا في الكتابة الأدبية باللغة الفارسية في العصر السلجوقي، ويتجلى ذلك من خلال مقاملته التي كتبها في سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م)، والمسماة "مقامات حمودي"، فهي خير مثال للصورة الأدبية النثرية الفارسية، وهو تقليد فارسي للمقامات العربية التي وضعها تميم الزمان الهذلي "والحريري". وعلى الرغم من أنها لا تصل إلى مستوى المقامات العربية، من حيث الموضوع وسبك العبارة، إلا أنها تعد من الكتابات النثرية الجيدة (١٧٥). وينسب إلى هذه المدينة الجليّة جماعة من أهل العلم، على رأسهم محمد بن عبد الجليل الملقب برشيد الدين الوطواط المتوفى سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) الأديب للكتاب الشاعر، كان من نوادر الزمان وعجائبه، وأفراد الدهر وغربائه، أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب، وأسرار النحو والأدب، طار في الآفاق صيته، وسار في الأقاليم نكره، وبلغ به الإتقان أنه كان ينشئ في حالة واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحر آخر ويمثلهما معاً، وله من النصائيف "حدائق السحر في دقائق الشعر" باللغة الفارسية، وللوطواط أيضاً ديوان شعر، وديوان رسائل عربي، وديوان رسائل فارسي، وغير ذلك كثير (١٧٦).

(١٧٢) السبكي: طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٣٥.

(١٧٣) ياقوت: معجم الأديباء، ج ٥ ص ٤٣٠، السيوطي: بغية الوعاة ج ١ ص ٢٢٦.

(١٧٤) السبكي: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٨٥.

(١٧٥) برون: تاريخ الأدب، في إيران، ص ٤٤١، محمود إبريس، السلطان سنجر السلجوقي ص ١٢٧.

(١٧٦) ياقوت: معجم الأديباء، ج ٥ ص ٤٣٠، السيوطي: بغية الوعاة ج ١ ص ٢٢٦.

نظامية بلخ:

أنشأها الوزير نظم الملك، ووكل مهنة التدريس فيها للشيخ عبد الله بن طاهر الإسفراييني، المتوفى سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، وكان لعبد الله ابن يقال له 'أبو المحاسن' ثقة فاضلا منظرًا، تولى أمر التدريس بعده^(١٧٧). ومن الذين تولوا مهنة التدريس بها عبد الله بن الحصين البلخي، المعروف بابن الظريف، المتوفى في نفس العام، وكان إماما كبيرا في الفقه والأصول ذا علوم متعددة^(١٧٨) وأبو حفص عمر بن أحمد بن الليث الطالقاني البلخي للمتوفى سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م)، كان من أكابر العلماء^(١٧٩).

وبعد، فهذا موضوع البحث، وهذه رؤيتي، حاولت فيها قدر جهدي الاقتراب من الصواب، فإن وفقت فهذا ما كنت أبغي، وإن جاتبني الصواب فحسبي أنني اجتهدت، والله من وراء القصد، وهو يهدي إلى سواء السبيل.

(١٧٧) ناجي معروف: علماء التنظيمات ومدارس المشرق الإسلامي، ص ٧٠.

(١٧٨) للمبكي: طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٠٤.

(١٧٩) السابق: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٨٥.

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- * ابن الأثير (ت - ٦٣٠هـ) علي بن أبي الكرم.
- ١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.
- * البنداري (ت - ٥٩٧هـ) الفتح بن علي البنداري الأسفهاني
- ٢- تاريخ دولة آل سلجوق (اختصار الفتح بن علي البندري) دار الأفاق الجديدة ط٣ بيروت ١٩٨٠م
- * البيهقي (ت - ٤٧٠هـ) أبو الفضل محمد بن حسين.
- ٣ - تاريخ البيهقي، ترجمه إلى العربية د/ يحيى الخشاب، وصالح نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦ م.
- * الثعالبي (٤٢٩هـ) أبو منصور بن عبد الملك بن محمد التنيسلوري.
- ٤ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر تحقيق د. مفيد محمد متممة، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣.
- * ابن الجوزي : (ت - ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي
- ٥- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر آباد ١٣٥٩هـ.
- * الحسيني (ت - ٦٢٢هـ) صدر الدين علي بن ناصر
- ٦- زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية تحقيق: د/ محمد نور الدين. دار الفرقا. بيروت. ١٩٨٢م.
- * ابن حوقل (ت - ٣٦٧هـ) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي
- ٧- صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩ م.
- * ابن خاوند شاه. (ت - ٩٠٣هـ) محمد بن خاوند شاه بن محمود.
- ٨- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.
- * ابن خلدون (ت - ٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.
- ٩- العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب للبلقي، بيروت، ١٩٨٠م.
- * ابن خلكان (ت - ٦٨١هـ) أبو العباس شمس الدين أسد بن محمد

١٠- وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

* خواتمير (ت - ٩٤٢هـ) غوث الدين خواتمير

١١- دستور الوزراء، ترجمة: د/ حري أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠ م

* الذهبي (٧٤٨هـ) أبو عبد الله شمس الدين بن محمد الذهبي

١٢- تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤هـ.

١٣- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت ١٩٨٤.

* الراوندي (من علماء القرن السادس الهجري) محمد بن علي بن سليمان

١٤- راحة الصبور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة د/ إبراهيم أمين الشورابي وزميله، دار القلم - القاهرة ١٩٦٠ م.

* ابن الصامعي (ت - ٦٧٤هـ) علي بن أنجب

١٥ - تاريخ الخلفاء العباسيين، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٣م.

* السبكي (٧٧١هـ) تاج الدين بن تقي الدين السبكي

١٦ - طبقات الشافعية الكبرى دار المعرفة ط٢ بيروت (د. ت.).

* السمعتي (ت - ٥٦٢هـ) أبو سعد بن محمد بن منصور.

١٧ - الأنساب، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت ١٩٩٨.

١٨ - التحرير في المعجم الكبير، تحقيق: منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥ م.

* السيوطي (٩١١هـ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

١٩ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت ١٩٦٤م.

* الشهرستاني (ت - ٥٤٨هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

٢٠ - الملل والنحل، مؤسسة ناصر للثقافة، ط١. بيروت. ١٩٨١م.

* الصريغيني (٦٢٢هـ) إبراهيم بن محمد بن الأثر الصريغيني

٢١- المنتخب من السباق لتاريخ نوسابور، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت ط١ ١٩٨٩م

* ابن العبري (ت - ٩٨٥هـ) غريغوريوس أبو الفرج بن هارون.

- ٢٢ - تاريخ مختصر الدول، دار الأفاق العربية ط١ ، القاهرة، ٢٠٠١م.
- * ابن عساکر (٥٧١هـ) أبو القاسم علي بن الحسين.
- ٢٣ - تبیین کذب المفتری فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق ١٣٤٧هـ.
- * العباد الأسفلهاتي (ت - ٥٩٧هـ) عماد الدين محمد بن حمد الکاتب.
- ٢٤ - تاريخ دولة آل سلجوق (اختصار الفتح بن علي البنداري)، دار الأفاق الجديدة، ط٣. بيروت ١٩٨٠م.
- * ابن قاضي شهبة (٨٥١هـ) أبو بكر أحمد بن محمد.
- ٢٥ - طبقات الشافعية تحقيق د/ عبد الطيم خان، عالم الكتب ط١ بيروت ١٩٨٧م.
- * اللقزويني (ت - ٦٨١هـ) زكريا بن محمد بن محمود.
- ٢٦ - آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.
- * ابن كثير (ت - ٧٧٤هـ) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر.
- ٢٧ - البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.
- * الكرديزي (ت - ٤٢٢هـ) أبو سعيد عبد الحي الضحاك
- ٢٨ - زين الأخبار، ترجمة: د/ عفاف السيد زيدان، دارا لطباعة للمحمدية، القاهرة ١٩٨٢م
- * أبو المحاسن (ت - ٨٧٤هـ) جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتاتكي.
- ٢٩ - التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٣٥م.
- * المقنسي (ت - ٣٨٧هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر.
- ٣٠ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
- * ناصر خسرو (ت - ٤٨١هـ) ناصر خسرو علوي
- ٣١ - سفرنامه:، ترجمة: د/ يحيى الخشاب، الهيئة المصرية للعلمة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.
- * النويري (ت - ٧٣٣هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
- ٣٢ - نهاية الأرب في فنون الأدب دارا لكتب المصرية القاهرة ٢٠٠٧.
- * ياقوت الحموي (ت - ٦٢٦هـ) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي.
- ٣٣ - معجم الأنباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١م.

٣٤ - معجم البلدان، دار صابر، بيروت، ١٩٧٩م.

ثانياً - المراجع :

* أحمد السعيد سليمان (دكتور)

١ - تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ م.

* أحمد كمال الدين حلمي (دكتور)

٢ - السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية، ط١، الكويت، ١٩٧٥.

* لؤورد برون.

٣ - تاريخ الألب في إيران من الفردوس إلى السعدي، ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٤م.

* بارتولد.

٤ - تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ص ٢، ٣. ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

* بدر عبد الرحمن محمد (دكتور)

٥ - الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجري حتى ظهور السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية ط١، القاهرة، ١٩٨٩م.

* تامارا رايس (دكتور)

٦ - السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفي الخوري، مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٨م.

* حسن إبراهيم حسن (دكتور)

٧ - تاريخ الإسلام السياسي، دار الجيل، ط ٨ بيروت ١٩٩٦م.

* حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف (دكتور)

٨ - العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م.

* حسن سلهب (دكتور)

٩ - تاريخ العراق في العهد البويهي (دراسة في الحياة الفكرية ٣٣٤-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م) دار المحجة البيضاء، ط١ بيروت ٢٠٠٨ م.

* حسين أمين (دكتور)

١٠ - تاريخ العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٦٥م.

* خليل السامرائي (دكتور) وزميله د/ طارق فتحي سلطان د/ جزييل عبد الجبار الجومرد

١١- تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (١٣٢ - ٦٥٦ هـ - / ٧٤٩ - ١٢٥٨ م) طبع جامعة الموصل ١٩٨٨ م

* شوقي ضيف (دكتور)

١٢- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الجزيرة العربية، العراق، إيران)، دار المعارف ط٢، القاهرة، ١٩٨٣ م.

* فتحي أبو سيف (دكتور)

١٣- خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنويين، مكتبة سعيد رافت ط١، ١٩٨٨ م.

* عباس إقبال .

١٤ - تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القلاجوية، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م .

* عبد المجيد أبو الفتوح بدوي (دكتور)

١٥ - لتاريخ السياسي والفكري للمذهب المسمي في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، دار الوفاء للطباعة والنشر. ط٢ المنصورة، ١٩٨٨ م.

* عبد النعم محمد حسنين (دكتور)

١٦ - سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية. ط١، القاهرة ١٩٥٩ م.

* عصم عبد الرؤوف الفلي (دكتور)

١٧ - الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧ م.

* علي محمد الصلابي (دكتور)

١٨- دولة السلاجقة وبرز مشروع إسلامي لمقاومة التغافل الباطني والفزو للصليبي، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة ٢٠٠٦ م .

* كلود كاهن :

١٩- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، نقله إلى العربية : د/ بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، ط ٣ بيروت ١٩٨٣ م.

* كي لسترايج

٢٠ - بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ط٢ بيروت ١٩٨٥ م

* محمد سعد السيد أحمد عزب (دكتور)

٢١- الحياة الفكرية في إقليم خراسان في العصر السلجوقي (٤٢٩-٥٥٨هـ/ ١٠٣٧-١١٦٢م) شركة نوايغ الفكر، ط١ القاهرة ٢٠٠٩ م.

* محمد عبد العظيم أبو النصر (دكتور)

٢٢- السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣ م.

* محمد محمود إدريس (دكتور)

٢٣- سلطان السلاجقة الأعظم السلطان سنجر السلجوقي (سياسة الداخلية وأهم مظاهر الحضارة في عصره) المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة ١٩٨٨ م.

* محمود عرفة محمود (دكتور)

٢٤- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقتها بالخلافة العباسية، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨ م.

* يحيى بن حمزة الوزنة (دكتور)

٢٥- مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، مكتبة الثقافة الإسلامية ط١ القاهرة ٢٠٠٧ م.

ثالثا- الرسائل الجامعية .

* صلاح الدين علي عاشور

١- الحياة العلمية في العراق والمشرق الإسلامي إبان العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٩٠هـ/ ١٠٥٥-١١٩٣م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩٦ م .

رابعا- الدوريات :

* صلاح الدين علي عاشور (دكتور)

١ - أبو سعد السمعاني وكتابه الأنساب، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الثالث، العدد الثالث والعشرين، القاهرة ٢٠٠٥ م .

* ناجي معروف (دكتور)

٢- مدارس قبل التنظيمية، مجلة المجمع العلمي العراقي، للمجلد الثاني والعشرين ١٩٧٣ م.

* يحيى الخشاب (دكتور)

٣- نظام الملك والمدارس التنظيمية، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس ١٩٧٥ م.

الصفاريون وإشكالية العلاقة مع العباسيين

(٢٥٤هـ/٨٦٨م - ٩٠٨م)

د. محمد طه بن صلاح بن صالح بكري (*)

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.... وبعد

فقد أثار انتباهي منذ زمن بعيد عندما كنت طالبا في الكلية، وبخاصة عند دراسة "تاريخ الدولة العباسية" ذلك التشوُّم، والتفكك الذي أصاب العالم الإسلامي، لاسيما بعد عصر القوة الذي تمتعت به تلك الدولة، فخرج من أحشائها كثير من الدول المستقلة، التي رغبت في إقامة كيان سياسي مستقل عن الدولة الأم، وكان من بين تلك الدول "الدولة الصفارية" التي كانت نقاج صراع الفوي المحلية للاستئثار بالسلطة والنفوذ في تلك المنطقة وظلت فكرة هذا البحث ترلود فكري وعقلي. ولما كانت مادة البحث متوفرة، ولكنها متفرقة متنوعة، ومتناثرة هنا وهناك، دون أن تقوم عليها دراسة مستقلة على حد علمي - فكان ذلك حافزا لي للسعي لإخراج هذا البحث.

وتطالعنا الروايات التاريخية أن الدولة العباسية، والتي آل إليها أمر المشرق الإسلامي دأبت على إيجاد كيانات سياسية تابعة لها في تلك المنطقة، إذ كان الطاهريون - صنيع العباسيين - يعتبرون أنفسهم شركاء في توجيه سياسة الدولة العباسية في منطقة المشرق، وفي مقابل ذلك تمتعوا باستقلال داخلي. ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال، وتضاءلت أهمية الطاهريين، وتقلص دورهم، وازداد ضمور هذا الدور مع ظهور قوة الصفاريين المتنامية، مما أغرى العباسيين إلى الاستعانة بهم ضد الخارجين عليهم، لاسيما فرق الخوارج في المشرق.

وكانت إشكالية العلاقة المتوترة والمتأزمة ؛ هي المحور الذي ارتكزت عليه، وحاولت إبرازه في تلك الدراسة ، إذ كان الصفاريون والعباسيون دائمي التشاحن

(*)الأستاذ المساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى مكة المكرمة

والتباغض، إلى درجة يصعب معها إقامة توازن بينهما. والمتابع لسير الأحداث يشعر، من الوهلة الأولى، بأن صراعاً عربياً فارسياً قد نشأ نتيجة للاحتقان المياسي بينهما، يدفعه شعور بالحقد والكراهية وعداوة شرسة، من جانب الصفاريين الفرس، ضد استئثار العنصر العربي بالخلافة والسلطة. وما لبثت أن تحولت المجابهة السياسية إلى مجابهة عسكرية؛ فرضت مطبقاتها الجديدة على المنطقة. وقد وقر في ذهن الصفاريين أن يكونوا مستقلين، وألا يكونوا أداة تستخدمها الخلافة لضرب القوى المحلية، أو استعمالهم كردف لمد الفراغ الذي تركه الطاهريون، فعملوا على ترسيخ كياناتهم السياسية في المنطقة، في ظل السلاخم القوي بين تلك الثلاثة السياسية المتشردمة في المنطقة وبين الخلافة، والتي كانت تحركها مصالحها الخاصة، ولكن كانوا أحياناً يجدون أنفسهم مضطرين للارتقاء في أحضانها لدرء غضب حكامها، وغضب الرأي العام الإسلامي آنذاك. بينما كان العباسيون يتعاملون مع الصفاريين بحذر، ويشعرون من الخوف نتيجة طموحهم المياسي المتنامي، ولما أحس العباسيون بخطرهم للاداهم، وتوجهاتهم الفارسية التسلطية بدأوا يميلون إلى اتخاذ مواقف حاسمة ضدهم، لاسيما وأن الاختلاف في الفكر السياسي بين الطرفين كان عميقاً. فبينما كان العباسيون يريدون حكماً مستقراً في المشرق الإسلامي، دون خلق أية مشاكل في تلك المنطقة الاستراتيجية، نرى أن الصفاريين كانوا دائمى التنازع والتخاصم مع الخلافة، ولذلك عمل العباسيون للقضاء عليهم بكل ما أوتوا من قوة، واستعانوا في ذلك بقوة جديدة بدت في الأفق، ألا وهي قوة الدولة السامانية الصاعدة، الذين جندوا بدورهم في القضاء على فلول تلك الأسرة وأعوانها، فكانت النهاية الحتمية للدولة الصفارية من على المسرح السياسي للعالم الإسلامي.

حول بلاد سجمستان:

سجمستان أطلقت عليها المصادر العربية القديمة "ميستان" وهي بلاد سهلية يقع أغلبها حول بحيرة "نره"^(١). وميستان: يقال لها بالفارسية "نيمروز" أيضاً، ومخاها الأرض الجنوبية. يصفها ابن حوقل^(٢): بأنها أرض خصبة كثيرة الطعام والتمور والأعشاب.... يرتفع منها غلة عظيمة من الحليت (البقل) حتى إنه غلب على طعامهم. وتسمب سجمستان إلى "سجمستان بن فارس". وجاءت شهرة سجمستان في الأساطير الفارسية القديمة على أنها موطن "زال" أبي البطل القومي رستم، الذي كان

(١) كي لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٧٢، ترجمة: بشير فرنسيم، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ط٢ بيروت ١٩٨٥م.

(٢) صورة الأرض: ص ٣٥٢، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩ م

بالغا في الشجاعة والفروسية إلى حد أن "الفردوسي" ذكره في الشهنامة^(٣). وسجستان كما وصفها المقدسي^(٤) بلاد حارة، أهلها من خيل الناس، مفردة بمحاسن لم تعرف لغيرها من البلدان، وما في الدنيا سوقة أصح معاملة، ولا أكبر مجاملة منهم، وفي رجالهم عظم خلق وجلادة، ويمشون في أسواقهم وبأيديهم سيوف مشهورة.

ولم يكن البلديون العرب المتأخرون يعرفونها إلا بمدينة سجستان. وعاصمة الإقليم مدينة "زرنج" وقد وصف لنا "ابن حوقل"^(٥) هذه المدينة وصفا دقيقا، وكان بها دار الإمارة الصفارية^(٦). وقد أشار المقدسي^(٧) إلى غنى أهل سجستان وأتاهم أصحاب عقل وعلم، ونوة بقلعتها الحصينة وبمنازلها المشهورتين في مسجدها الجامع. وكانت قاعدة الإقليم مدينة "زرنج" الشهيرة^(٨). ويؤخذ من أقوال الجغرافيين^(٩) العرب أنها كانت قاعدة سجستان، ومن أشهر مدنها "بست" وهي ثلثة المدن الجبلية في سجستان، وزى أهلها زي أهل العراق، وبها متاجر الهند، وبها نخيل وأغاب، قال عنها المقدسي^(١٠): لها جامع حسن وأسواق عامرة (وبها بلدة يقال لها "كركوية" كلهم خوارج. ومن عاداتهم أن المرأة لا تخرج من منزلها أبدا، فإن أرادت زيارة أهلها فبالليل. ويقول ياقوت^(١١): وسجستان كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم، ولا يتحاشون منه، ويفتخرون عند المعاملة. ثم أرفب قائلا: حدثني رجل من التجار قال: تلامت إلى رجل من سجستان لأشتري منه حاجه فعاكسته (جادلته) فقال: يا أخي لنا من الخوارج لا تجد عندي إلا الحق، وأست ممن يبخسك حقه، وإن كنت لا تلهم حقيقة ما أقول فسل عنه، فمضيت وسألت عنه متعجبا.

(٣) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية. ص ٩٧، ٩٨، ترجمة د/ محمد علاء الدين منصور. دار الثقافة والنشر والتوزيع للقاهرة.

١٩٨٩م

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٤٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٧م.

(٥) صورة الأرض: ص ٣٤٩.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ١٩٠، دار صادر بيروت ١٩٧٩ م.

(٧) أحسن التقاسيم: ص ٢٤١.

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٤. تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م. كى لمترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٧٣.

(٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٥٠. ياقوت: معجم البلدان ج ٣ ص ١٩٠.

(١٠) أحسن التقاسيم: ص ٢٤١، ٢٤٠.

(١١) معجم البلدان: ج ٣ ص ١٩٠.

الفتح الإسلامي لإقليم سجستان:

بدأ الفتح الإسلامي لإقليم سجستان في عهد الخليفة الراشد "عثمان بن عفان" سنة (٣٠ هـ/ ٦٥٠م) إلا أن شعب تلك المنطقة كان عصياً على الفتح الإسلامي، إذ ثار عدة مرات على الحكومة المركزية في المدينة المنورة، وكان عمال العرب يؤذونهم في كل مرة، إلا أنه بعد مرور الوقت أخذ نفوذ الإسلام، والآداب العربية، يزيد يوماً بعد يوم ويتأصل في هذا الإقليم^(١١). وبعد مقتل عثمان دخلت الدولة الإسلامية في حالة من الفتن والفتائل، ولحق بكثير من الناس الأذى فمسلخوا سبيل المخالفة ولحقوا بالخوارج. ولما كان أهل سجستان في شدة نتيجة إيذاء عمال بني أمية لهم، اعتصموا بالولايات البعثة عن أعين الخلافة، ومن هذه البلدان سجستان التي اتخذوها ملجأ من بطش الحكام^(١٢).

ظهور الصفاريين وموقف الخلافة:

في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ / ٦٨٤-٧٠٥ م) قام شيخ من كبار العرب يدعى "قطري بن الفجاءة" كان شاعراً قصيداً وورعاً - من أهل سجستان - على مظالم الحجاج، **وفساد أجهزته**، فباعه جمع كبير منهم وقام بهم ثأراً، ومع أن الحجاج أرسل جيشاً كبيراً لدفعه إلا أنه تمكن من هزيمته، وقتل عدد كبير من جند الحجاج في هذا المعركة.

وكانت سجستان قد أصبحت مركزاً رئيسياً للعيارين^(١٣) الذين استطاعوا تنظيم صفوفهم، وتكوين فرقة حربية للوصول إلى مراكز القوة السياسية، والاستيلاء على الحكومة، لأن البلاد كانت تعج بالفقراء والمعوزين الذين اهتمنوا حرفة صيد السمك من نهري "هيرمند"^(١٤) و"ولي"^(١٥) ونسج الخوص، وعمل اللقائف، وعاش أهلها في

(١١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٨٥، عني بمراجعته والتعليق عليه. رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣ م.

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٨٧.

(١٣) العياريون: العيار في اللغة هو الكثير المجيء والذهاب في الأرض، وقيل هو الذكي الكثير التكلف، والعرب تمدح بالعيار وتذم به فيقال: غلام عيار نشيط في المعاصي، وغلام عيار تشيط في الطاعة لله عز وجل. ابن منظور في لسان العرب مادة (عير) ج ٦ ص ٥٣، دار الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣.

(١٤) نهر هيرمند: ويطلق عليه أيضاً "هيرمند" وهو من أنهار سجستان المشهورة، ويقع على بعد ثلاثين ميلاً من مدينة "زرنج" عاصمة الإقليم. لستراخ: بلدان الخلافة، ص ٣٧٧

ضيق وشدة لاسيما بعد سنة (٢٢٠-٨٣٥ م) إذ تعرضت البلاد لقطط شديد فحدث كثير من الانفلات الأمني، والفوضى العارمة، الأمر الذي أدى إلى انعدام الأمن، وانتشار الفوضى، فكانت الظروف مهيأة لظهور رجل قوي يستطيع أن يتخذ البلاد و العباد^(١٧).

والواقع أن التكوين التاريخي لإقليم سجستان كان خاضعا لمجموعة من المعطيات الجغرافية، والظروف الاقتصادية التي تدخلت بصورة فاعلة في إبراز شخصية سكانها، فظروف سجستان الاقتصادية كانت هي المحرك الرئيس لأهلها لإعلان التمرد على السلطة المركزية في بغداد، لاسيما بعد تعرض بلادهم للعديد من سنوات القحط والجفاف التي تتعرض لها البلاد معظم الأحيان، بالإضافة إلى قلة المياه الصالحة للزراعة، ثم إن سجستان بحكم موقعها الجغرافي، وبعدها عن مركز الخلافة، أغرت زعماء المعارضة السياسية والمذهبية على اتخاذها مقراً للعزل ضد الخلافة^(١٨).

وكانت قد نشأت في معظم مدن إيران جماعات من الشباب والكبار، من الطبقات الدنيا والمتوسطة، من أهالي سجستان عرفوا بالعيارين، الذين تجمعهم روح التعاون والغيرة والحمية على رفعة ومكانة بلادهم. وكانت تجمعهم تقاليد وشروط هي : الفتوة والشجاعة، والاستقامة والصدق وحفظ الأسرار، ولما زادت أعدادهم أخذوا في تنظيم صفوفهم تحت إمرة رؤسائهم.

وكان الصفاريون ينقسمون إلى عدة فرق متناثرة في أنحاء سجستان، لذلك كان من الضروري توحيد صفوفهم تحت قيادة واحدة، وكان الصفاريون يعاتون من جشع الظاهريين بهذه المناطق^(١٩).

ومن المعروف أن العيارين بدأ ظهورهم في بغداد أواخر القرن الثاني الهجري (٨م) وكان تدخلهم حاسماً بين الأمين والمامون، فاستعان بهم الأمين لما فقد معظم

(١٦) نهر لي: ينشئ من نهر "هلمند" كمية كبيرة من الماء تجري في خمسة أفرع كبرى تسقي كمية كبيرة من الأراضي بين مدينتي "بست" و "زرنج" منها نهر "لي".
لستراتيج: بلدان الخلافة، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(١٧) مجهول المؤلف: تاريخ سجستان، ص ١٥٥، ترجمة: محمود عبد الكريم علي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م.

(١٨) فتحى أبو سيف: خراسان تاريخها السياسي من سقوط الظاهريين إلى بداية القرنين، ص ٤١، مكتبة سعيد رافت، ط١، ١٩٨٨ م.

(١٩) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٥٦.

جيشه، حتى إنه اضطر إلى بيع أواني الذهب، والفضة، والمتاع، والأقمشة النفيسة، وأعطاهم للعارفين للدفاع عنه، وعن العاصمة بغداد^(٢٠).

لاشك أن ظهور الصفاريين يعتبر الخطوة الأولى في سبيل استرجاع الاستقلال الفارسي للبلاد الفارسية، وحلقة من حلقات التآمر الفارسي على السيادة العربية^(٢١).

ويرجع ظهور هذه الدولة على مسرح الأحداث السياسية إلى زمن خلافة المتوكل على الله "العباسي" سنة (٢٣٧هـ/٨٥١م) حينما كان يلبي إقليم خراسان وملحقاته "طاهر بن عبد الله"^(٢٢) أحد أمراء الدولة الطاهرية^(٢٣). ولما تولى خراسان "محمد بن طاهر"^(٢٤) (٢٤٨-٢٥٩هـ/٨٦٢-٨٧٢م) لم يعأ بدولته، في الوقت الذي وقعت فيه للسلطة المركزية في بغداد تحت نفوذ الأتراك^(٢٥)، وكثرة

(٢٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٤.

(٢١) محمود عرفة محمود: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقتها بالخلافة العباسية، ص ١٠٨، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

(٢٢) طاهر بن عبد الله: تولى الإمارة بعد موت أبيه "عبد الله بن طاهر" (٢١٣-٢٣٠هـ/٨٢٨-٨٤٤م) وكان الخليفة العباسي قد أنابه مكان أبيه، وقد ظل يحكم المشرق الإسلامي مدة ثمانية عشر عاما على خراسان وسجستان بعدالة ونقوى. عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٧.

(٢٣) الدولة الطاهرية: (الطاهريون) تنسب هذه الإمارة إلى "طاهر بن الحسين" الفارسي الأصل الذي قاد جيوش المأمون خلال نزاعه مع أخيه الأمين، فقلده عدة وظائف مكافأة له، ثم لم يلبث أن ولاء على إقليم خراسان سنة (٢٠٥هـ/٨٢٠م) وأضاف إليه بعض ولايات المشرق الإسلامي، فاتخذ من نيسابور (حاضرة إقليم خراسان) عاصمة له، فكانت أول دولة من أصول فارسية تنظر باستقلال ذاتي عن الحكومة المركزية في بغداد. محمود عرفة: الدول الإسلامية، ص ٦٨، ٦٩.

(٢٤) كان محمد بن طاهر آخر حكام الأسرة الطاهرية في المشرق الإسلامي، حيث قُدر لهذه الأسرة أن تتوكل على أيدي الصفاريين، وكان محمد بن طاهر معاصرا لثدني قووي الشكمية هما: الداعي الكبير "الحسن بن زيد العلوي" و"عقوب بن الثالث الصفار" فكان ضحية لتؤريتهما على الخلافة العباسية. وقد وصفه المؤرخون بأنه كان رجلا غافلا ضعيف النفس ماجنا، وكان عياله يعملون الناس في ولايتهم باستبداد وظلم حتى تمنوا زواله. عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٧.

(٢٥) نفوذ الأتراك في الدولة العباسية: اعتمد الأمويون على العنصر العربي في جميع شؤون الدولة، وأسندوا إليهم مناصب الدولة، كما اعتمدوا عليهم في الشؤون الحربية، ولما آل الأمر إلى العباسيين اعتمدوا على الموالي من الفرس الذين قامت على أكتافهم دولتهم، وأخذوا عنهم كثيرا من نظم الحكم التي كانت مسائدة في العهد الساساني، ولما ولي

منازعاتهم، مما أضر بمركز الخلافة في الأطراف الشرقية، لاسيما خراسان، مما مهد الطريق أمام "يعقوب بن الليث" للظهور على المسرح السياسي للدولة الإسلامية^(٢٦).

التوسع الصفاري وموقف الخلافة العباسية.

كان يعقوب مقرباً من القادة والجند كريماً معهم، ينفق ما يكتسبه على إطعامهم، فساعدته طموحه على أن ينتقل من زمرة الصفاريين إلى جماعة العيارين، وأخذ يترقى حتى أصبح رئيس جماعتهم، وزادت أمواله، وكثر أتباعه، لأنه كان يرسل أصحابه إلى المناطق القريبة لمراقبة الطرق، وإرشاد القوافل، وأخذ إتالات الطريق لها، كما فرض الإتاوات على الأثرياء في كل المدن، ومنها كان ينفق على متطلبات العيارين وتسليحهم، وكان ينفق كل ما يحصل عليه بسخاء على أقرابه وأصحابه، مما كان له أبلغ الأثر في احترام يعقوب وتقديمه على زملائه في كل ما يقومون به^(٢٧). وتمكن يعقوب بقوة جماعته المنظمة أن يفرضوا سيطرتهم وسيادتهم على مدينة "رنج" عاصمة سجستان، ثم أخذ طريقه نحو التوسع على حساب ضيف الطاهريين^(٢٨).

وبعد أن وطد "يعقوب بن الليث" مملكته، وأمن شر كل من الأتراك والخوارج^(٢٩)، تطلع إلى التوسع، على حساب الطاهريين ولم يفتح بما تحت يديه،

المعصم الخلافة، وكانت أمه تركية، تواجد الأتراك بشكل واسع، وأسند إليهم مناصب الدولة، حتى إنه غني بشراهم من الأسواق، وبذل في ذلك أموالاً طائلة. ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا مولع بهم في جسد الدولة العباسية عندما ضعف خلفاؤها، فبر قندين على الوقوف في وجوهم. بدر عبد الرحمن: الدولة العباسية، ص ١٠٠، ١٠٢.

(٢٦) خواندمير: روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ص ٥٧، ترجمة د/ أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة ١٩٨٨ م.

(٢٧) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤ ص ٤١٨، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠ م.

(٢٨) ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٨٠ م.
(٢٩) شهد عصر يعقوب في بدايته معارك طاحنة بينه وبين الأتراك المتحصبين بجبال سجستان المنيع، إذ كانوا يتمتعون بوفرة الجند والعتاد، وكان يعقوب يعلم أن هؤلاء الأتراك الدائم التمرد لن يتركوه مطمئناً، وكان هو نفسه يدرك هذه الحقيقة، ويقول: "إذا أنا استرحت فإياهم لن يدعوني أستريح". أما بالنسبة للخوارج فقد لقنهم يعقوب درساً قاسياً سنة (٢٥١هـ/٨٦٥ م) بعد أن أعقلوا العصيان عليه أكثر من مرة، لاسيما في عهد "صار

فاتجه صوب " هراة " سنة (٢٥٣هـ / ٨٦٧م) والتي كان يحكمها " الحسين بن عبد الله بن طاهر " من جاتب الأمير محمد بن طاهر الثاني آخر أمراء هذه الأسرة، وكانت هذه المدينة مثل سائر ولايات خراسان في هذا الوقت ضمن ملك آل طاهر^(٢٠). وكانت هراة تعد بوابة خراسان الشرقية، وهي من الحصانة والمنعة مما يجعل اقتحامها أمرا صعبا، إذ كانت المدينة تقع في أحضان الجبال، ويخترقها نهر عظيم (نهر هراة) ولها قلعة حصينة، فتحصن بها الحسين، الذي أمر بملء الخنادق بالمياه، وتخزين المواد الغذائية، بما يكفي المدينة مدة كبيرة، وهما نفسه لحصار طويل، ولكن يعقوب استطاع الاستيلاء عليها بعد أن ضرب حولها الحصار، بل إنه تمكن من القبض على حاكمها " الحسين بن عبد الله "، ثم أرسل إلى الخليفة " المعتز بالله " ^(٢١) يخبره بانتصاره، ويقول: "إنني طائع لكم وتابع"^(٢٢) فأرسل إليه المعتز كتابا أورد ابن خلكان^(٢٣) نصه نقلا عن رواية للرسول الذي أرسله الخليفة للصغار، قال فيه: " صرت إليه بكتاب أمير المؤمنين المعتز بالله إلى زرنج (كرسي بلاد سجستان) فاستأذنت عليه فلأذن لي، فدخلت ولم أسلم عليه، وجلست بين يديه من غير أمره، ودفعت الكتاب إليه، فلما أخذه قلت له: قبل كتاب أمير المؤمنين، فلم يقبكه، وفضه، فتراجعت القهقري إلى باب مجلسه الذي كان فيه، ثم قلت: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله، فاعجبه ذلك، وأحسن مثواي، ووصلني، وأطلق الطاهرية "، وتغلب يعقوب عن هراة، ثم حاول ترضية الخليفة بأن أرسل إليه تمونجا مصفرا لمسجد من الفضة وكثير من السدواب والثياب الفاخرة^(٢٤). وبعد عودة يعقوب منتصرا إلى مسجستان أشده أحد الشعراء شعرا بالعربية فلم يفهم واستنكف ذلك، فطبيب وزيره " محمد بن صيف السعدي "

الخارجي " الذي علا شأنه وزاد نفوذه، وجمع جيشا عظيما في مدينة " نيشك " (إحدى مدن سجستان) من أجل محاربة يعقوب، ولكن الأخير استطاع القضاء عليه وعلى تمرده. لمزيد من التفاصيل انظر، محمود عرفة : الدول الإسلامية، ص ١١٦، ١١٧.

(٢٠) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤ ص ٢٢٩، ٢٣٠، تحقيق: مفيد محمد قبيحة، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت ١٩٨٥م - خوانمير: روضة الصفا، ص ٥٨.

(٢١) المعتز بالله: هو أبو عبد الله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، ولد سنة (٢٣٢هـ / ٨٤٦م) وأمه أم ولد رومية تسمى " قبيحة " يبيع له بالخلافة عند خلع المستعين بالله سنة (٢٥٢هـ / ٨٦٦م) وله تسع عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أحد أصغر منه. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٠٦. تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، بيروت ١٩٨٩م.

(٢٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩ ص ٤٧٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط ٤، القاهرة ١٩٧٩م.

(٢٣) وفیات الأعيان: ج ٦ ص ٤٠٤.

(٢٤) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٧١، ١٧٢.

خاطره، وأشدّه شعراً بالفارسية. عده صاحب تاريخ سجستان أول ما قيل بالفارسية من شعر. وهذا يدل على حقد يعقوب وشعوبيته على كل عربي^(٢٦).

اتجه يعقوب بقواته ناحية "بوشنج" لمحاربة "إبراهيم بن الياس" (أحد قادة الطاهريين) وترك أخاه "علي بن الليث" مع الأسلحة والأسرى في هراة، فلما التقى الطرفان في بوشنج تلقى إبراهيم وجيشه هزيمة نكراء، وولي منهزماً إلى نيسابور، حيث التقى هناك بـ "محمد بن طاهر" وأفهمه أنه لا يمكن القتال مع هذا الرجل (يقصد يعقوب) لأن جيشه مخوف، مما دفع حاكم خراسان الطاهري إلى استمالة "يعقوب" بأن فوض إليه ولاية سجستان، وكابل، فضلا عن كرمان، وفارس، وأرسل إليه الخلع^(٢٧).

ويرى البعض^(٢٨) أن محمد بن طاهر كان يهدف من وراء هذا التفويض صرف نظر يعقوب عن إقتيم خراسان، وشطه بصحاري فارس وكرمان، لأنه كان يدرك أطماعه في هذين الإقليمين^(٢٩)، غير أن هذه الخدعة لم تتطل على يعقوب، الذي قفل عائداً إلى سجستان، وكتب إلى الخليفة العباسي "لمعتر" أن يوليه على البلاد التي تم الاستيلاء عليها^(٣٠).

واتجه فكر يعقوب من أجل زيادة سعة بلاده إلى كرمان وفارس. وكانت كرمان في هذا التاريخ جزءاً من أملاك الطاهريين، ولكن بسبب ضعف الأمير "محمد بن طاهر" لم يكن له نفوذ بها، حتى طمع وإلى فارس "علي بن الحسين بن فريش"، من طرف المعتر، في كرمان، ولما كان الخليفة يخشى من هذا الرجل وعصابته، واستيلائه على خوزستان والعراق، فقد أمره بالسيطرة على كرمان، وأرسل بنفسه الأمر إلى يعقوب^(٣١).

والمستغرب أن الخليفة العباسي أعطي ولاية "بوشنج" إلى أكثر من حاكم. فعندما كتب إليه يعقوب أن يوليه على كرمان وفارس. كان "علي بن الحسين" أحد عمال الطاهريين قد أقره الخليفة على حكم هذه المناطق نظراً لضبطه الأمور هناك، لاسيما بعد أن ضعف الطاهريون عن حماية تلك المناطق وفي الوقت نفسه أصدر مرسوماً بتولية يعقوب أيضاً، مستخدماً أسلوب المراوغة السياسية، حتى يتجنب

(٢٦) السابق: ص ١٧٠.

(٢٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٥ - خوانمير: روضة الصفا، ص ٥٩.

(٢٨) فتحى أبو سيف: خراسان، ص ٥٤، ٥٥ - محمود عرفة: الدول الإسلامية، ص ١٢٠.

(٢٩) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٥٧، تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية طابروت، ٢٠٠٣.

(٣٠) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٧٥.

(٣١) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٣٨٥ - ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤١٩.

الصدام مع الصفاريين، وخاصة بعد تصاعد قوتهم، هادفاً إلى أن يتوالد العداء والقتال بين علي ويعقوب — وكان كلاهما يتظاهر بطاعة الخليفة ويبطن العداء له — فيستريح من شر الاثنين^(١١) لاسيما أن "علي بن الحسين" حاكم فارس كان قد تلقأ في إرسال الخراج إلى الخلافة، مما اعتبره للخليفة نوعاً من الخروج عن الطاعة غير المقبول، والذي يُعدّ آنذاك نوعاً من الخضوع السياسي للخليفة العباسي^(١٢).

ويرى البعض^(١٣) أن الخليفة العباسي كان يعلم أن كلا من يعقوب بن الليث وعلي بن الحسين يظهران طاعة غير حقيقية: من أجل خدمة مصالحهما الشخصية، ولذلك كان يريد ضرب أحدهما بالآخر.

وزحف 'يعقوب بن الليث' نحو كرمان، ولكن علي بن الحسين كان قد وجه أحد قواده ويدعى 'طوق بن المغنم' إلى هناك فتحصن بها، فلجأ يعقوب إلى خداع طوق بأن موّه عليه، فاتصرف عنه مرحلتين، فوضع طوق آلة الحرب، وأقبل على الشرب والملاهي، فباغته يعقوب، وأحاط به وبأصحابه، وتمكن من أسره، ودخل كرمان ومنكها، ثم سار في العام التالي إلى 'شيراز' عاصمة فارس، واستولى عليها بعد أن هزم ابن الحسين، وأخذ ما في بيت المال، وجبى الخراج، فأرسل إليه الخليفة 'المعتمد على الله'^(١٤) يذكر عليه فطنه بقوله: **"طالما أن مملكة فارس لم تعطك إياها، فلماذا تقود الجيوش إليها من فترة إلى أخرى"**^(١٥)، وكتب إليه الموفق بولاية 'بلخ' و'طخارستان' و'المند' فقبل يعقوب ذلك، وعاد إلى بلخ ثم عاد إلى سجمستان، وأرسل إلى الخليفة رسولا يحمل إليه كثيراً من الهدايا^(١٦). ولما فارق يعقوب بلاد فارس استعاد الخليفة سلطانه عليها، وأرسل إليها أحد عماله^(١٧).

(١١) ابن خلكان: وفات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٥.

(١٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩ ص ١٩٧.

(١٣) السابق: ج ٩ ص ١٩٧.

(١٤) المعتمد على الله: هو أحمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، ولد سنة

(٢٢٩هـ/٨٤٣م) وأمه رومية اسمها "فتيان" ولما قتل "المهتدي" كان المعتمد

محبوساً من قبل أخيه، فأخرجوه وبنيوه، ثم استعمل أخاه "الموفق طلحة" وجعله ولياً

لعهده، لما كان من ضعفه وعدم قدرته على شؤون الحكم، واتهمه المعتمد في اللهو

الملاذات، واشتغل عن الرعية فكرهه الناس، وأحبوا أخاه الموفق طلحة. ابن كثير: البداية

والنهاية، ج ١١ ص ٢٧، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

(١٥) خواتمير: روضة الصفا، ص ٥٨.

(١٦) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٣٨٣.

(١٧) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤١٩، ٤٢٠.

ويعتبر "يعقوب بن الليث" أول من عمل على نشر الإسلام في الجزء الشرقي من الدولة العباسية (أفغانستان الحالية) ومد اتساع رقعة الدين حتى القسم الأعلى لوادي السند قبل القرنين^(١٨). والواقع أن يعقوب كان مدفوعاً بهجومه على تلك المناطق بتصرفات حاكمها رتييل (أي راتكب الأفيال) الذي أقدم على مساعدة منافسه "صالح بن نصر الكنتاني" في سجستان، فلم يتردد في السير بقواته ناحية كابل، وألحق برتييل هزيمة ساحقة في سنة (٢٥١هـ/ ٨٦٥ م) ومن ثم أصبحت هذه الولاية ضمن الولايات التابعة للصقاريين^(١٩). ولكن يبدو أن اتشغال يعقوب بحروبه في كرمان وفارس جعل للخليفة المعز يدخل هذه الولاية في طاعته مرة أخرى، فقتضت يعقوب بسبب أن خراجها يحمل إلى بغداد وليس إلى سجستان، وكان يفكر في العودة إليها مرة أخرى لولا أن "ابن رتييل" الذي ألقى به في السجن، استغل اتشغال يعقوب وهرب من محبسه سنة (٢٥٦هـ/ ٨٦٩ م) حيث تجمع حوله أنصاره ومن والاهم من الناقمين على حكم يعقوب، ومطالباً بدم أبيه، فسلح يعقوب بجيشه إليهم واستعاد سيطرته على كابل من جديد، وخرّب كثيراً من المعابد والأصنام البوذية هناك وحمل معه غنائم ضخمة، وعدداً من الأصنام الذهبية والفضية البوذية، وأرسل خمسين منها هدية للخليفة المتعبد على الله ليظهر له خدمته للإسلام^(٢٠).

التوجه نحو خراسان

لما كانت خراسان هي أهم الولايات في شرق الخلافة العباسية، ومركز حكم الطاهريين، رأى "يعقوب بن الليث" أنه لا يكون مطمئناً في حكمه في سجستان إلا أن يصبح هذا الإقليم بين يديه، حتى يأمن شر الطاهريين المتحالفين مع الخلافة - لاسيما وأن الأخيرة كانت تماطل في الاعتراف بشرعية حكمه - قبل أن يشعرهم بقوته^(٢١). وفي المقابل كان الطاهريون قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الضعف والانهيار، الأمر الذي أطمع يعقوب في حكم هذه الولاية، مستنداً في ذلك إلى قوة الجيش الذي يمتلكه، وخاصة عندما تمكن من هزيمة "الحسن بن زيد العلوي"^(٢٢) صاحب طبرستان، والذي

(١٨) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٠٧.

(١٩) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٤٤، ترجمة عن الفارسية: د/ عفاف السيد زيدان، دار الطباعة المحمدية، ط١، القاهرة ١٩٨٢ م - تاريخ سجستان: ص ١٧٦، ١٧٧.

(٢٠) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٤٤.

(٢١) الطبري: الرسائل والملوك، ج ٩ ص ٢٥٩.

(٢٢) الحسن بن زيد العلوي: كان الحسن بن زيد في الكوفة منضماً إلى حركة "يحيى بن عمر العلوي" ضد الخلافة العباسية السنية، ولما قُتل يحيى فر بعض من أصحابه ممن نجوا خوفاً من بطش الخليفة العباسي، وكان من بينهم "الحسن بن زيد" الذي توجه إلى الري لاجئاً إليها، وبقي فيها مدة حتى سمحت الظروف أن ينتقل إلى طبرستان ويؤسس ما

كان قد استولى لتوه على جرجان من "محمد بن طاهر" سنة (٢٥٧هـ / ٨٧٠م)^(٥٢) فتوطدت أقدام يعقوب بذلك في سجستان، وهرات، وما حولهما، ولم يبق للطاهريين في خراسان سوى "نيسابور" التي تحصنوا فيها، بعد أن نقلت ممتلكاتهم في معظم المشرق الإسلامي، والتي تقاسمها كل من يعقوب بن الليث، والحسن بن زيد الطوسي، فضلا عن الخوراج، فوجد يعقوب أن الفرصة مواتية لوضع المشرق كله تحت لوائه، وخاصة بعد أن اتصل به بعض أهل نيسابور (عاصمة خراسان) وطلبوا إليه القدوم، لما أحسوا عدم قدرة ابن طاهر على حمايتهم^(٥٣).

وقد حاول أمير خراسان آنذاك من قبل الخلافة "محمد بن طاهر" (٢٤٨-٢٥٩هـ / ٨٦٢-٨٧٢م) استرضاء يعقوب بأن أرسل إليه بكتاب يعترف فيه بشرعية حكمه على سجستان، فكان أول اعتراف رسمي من جانب الطاهريين بحقيقة الوضع الجديد^(٥٤). والحقيقة أن "هرات" كانت البوابة الرئيسية لاستيلاء يعقوب على إقليم خراسان، فبعد أن أخضعها سنة (٢٥١هـ / ٨٦٥م) توجه إلى مدينة "بلخ" ثم توالي سقوط المدن الخراسانية، لاسيما بعد أن عين يعقوب عمالاً من قبله على هذه الولايات، ولم يبق أمام يعقوب سوى نيسابور عاصمة الإقليم^(٥٥).

ولما رأى الصفار أن الخلافة تمر بمرحلة صعبة نتيجة سيطرة الأتراك عليها، ورغبة منه في الحصول على موافقة الخلافة على إقراره على الولايات التي استولى عليها، قام بمراسلة الخليفة المعتمد سنة (٢٥٧هـ / ٨٧٠م) لاسترضائه، وأرسل إليه العديد من الهدايا كان من بينها أسنام الذهب والفضة - التي استولى عليها من معابد البوذية أثناء استيلائه على كابل - حتى يبين للخلافة دوره في الدفاع عن نصرة الإسلام. ولم تجد الخلافة بداً من الاعتراف بولايته على فارس، وكرمان، وسجستان، فضلا عن كابل^(٥٦).

ويرى البعض^(٥٨) أن يعقوب أراد أن يؤمن وجوده في كل من كابل، وسجستان، وكرمان، وفارس بضم ولاية خراسان، وأنه أجل هجومه عليها حتى يتمكن من توطيد

يعرف بالدولة للزبدي مستغلاً بعدها من مركز الخلافة، وارتباك الأوضاع السياسية فيها. إبراهيم سلمان الكردي: البويهيون والخلافة العباسية ص ٦٢، دار العربية للنشر والتوزيع، ط ١، بيروت، ١٩٨٢م.

(٥٢) خزانة مير: روضة الصفاء، ص ٩. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣ ص ٧٤.

(٥٣) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٨٥.

(٥٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٣٣.

(٥٥) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٧.

(٥٦) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٨٦.

(٥٨) الكردي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٥.

سلطاته على تلك الجهات أولاً، أو لأنه أراد أن يستغل موارد تلك الولايات الاقتصادية لتزويد جيشه بالعتاد اللازم حتى يتمكن من تحقيق أهدافه، باعتبار أن خراسان هي أهم الولايات التابعة للطاهريين، ومقر حكمهم^(٩٩)، فضلاً عن أن يعقوب أحسن بالزهو والفخر عندما اعترفت الخلافة بشرعية حكمه في الولايات التي استولى عليها، فلما أراد أن يحل محل الطاهريين في خراسان. وكان حكم محمد بن طاهر، وذلك بعد أن فقد الطاهريون هيبتهم وقوتهم، وتفتت أملاكهم بخروج العديد منها مثل: سجستان، وطبرستان، وبلاد ما وراء النهر، مما أدى إلى ضعف الاقتصادات للدولة، ولم يلبث أن كثرت المنازعات بين أبناء البيت الطاهري. وتذرع يعقوب في سنة (٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م) بمطاردة بعض الفارين منه إلى نيسابور عاصمة الطاهريين في خراسان، ويدعي 'عبد الله بن محمد بن صالح'، وطلب من الأمير الطاهري تسليمه إياه فاستنكف الأخير من طاعة أمره فيها بذلك له حجة قوية لمهاجمة نيسابور^(١٠٠). ولما كان يعقوب يعلم جيداً مدى العلاقة القوية التي تربط الطاهريين بالعباسيين، فلم يرد أن يعلن حربه على للطاهريين مباشرة، حتى لا يظهر أمام الرأي العام الإسلامي بصورة العاصي أو المتمرد، فتحرك إلى نيسابور مدعياً أنه يريد محاربة علوي طبرستان الذين عصوا الخلافة، واستولوا على طبرستان من يد عمال الخلافة، وطلب عبد الله بن محمد بن صالح من الأمير محمد بن طاهر أن يمنع يعقوب، لكنه رفض مجابته لشدة ضعفه، قائلاً: لا طاقة لنا اليوم بيعقوب وجنوده، فاضطر عبد الله وأخواه الهرب إلى السدافغان، وجرجان، واعتصموا بالحسن بن زيد الداعي الكبير الذي كان يسيطر آنذاك على طبرستان، وجرجان. ولما اقترب يعقوب من نيسابور - راسله أتباع محمد بن طاهر وحاشيته وأطلعوه سراً على سوء وضع الطاهريين، وسهولة استيلائه على نيسابور^(١٠١)، وطمأنوا محمد من تاحية يعقوب وحسن مسيرته، حتى وصل يعقوب (٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م) إلى نيسابور فقبض على محمد بعد أن وبخه كثيراً على عدم كفايته، وضعف رأيه، وعمله، ثم صفده بالأغلال وأرسل معه نحو مئة وستين من حاشيته إلى سجستان فحبسوا هناك، وبذلك سقطت الأسرة الطاهرية على يد يعقوب^(١٠٢).

وبعد هذا الانتصار الذي حققه يعقوب، أصبح هو القوة الوحيدة المسيطرة على المشرق الإسلامي، فلما أراد أن يوليه الخلافة العباسي أمر المشرق، حتى يستمد من تلك

(٩٩) حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٤٥٩، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧ م.

(١٠٠) الكنديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٤.

(١٠١) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٢٧٠، ٢٧١.

(١٠٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٦٦ - ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٤٢.

التولية نفوذاً روحياً يضمه إلى ما حصل عليه من نفوذ عسكري^(١٣). ويذكر ابن الأثير: أن "يعقوب بن الثلث" أرسل إلى الخليفة العباسي المعتمد يصف له أحوال خراسان، وكيف تمكن من القبض على آخر أمرائهم وهو محمد بن طاهر، لعجزه وضعفه، وأن أهل خراسان سألوه المسير إليهم، كما يذكره أيضاً بتقلبه على الزيديين في جرجان وطبرستان.

ووافق أن الموقف الذي اتخذته يعقوب بن الثلث من الطاهريين كان تحدياً سافراً لهيبة الخلافة، وحرمتها من نصير موال لها، على الرغم مما وصل إليه الطاهريون من ضعف وهوان، وإن كان يعقوب نفسه قد وعد الخلافة بالتأييد والطاعة، كما تعهد أن يقدم إلى الخليفة كل ما يحتاجه من أموال، فضلاً عن حملته خراج الأقاليم الخاضعة له^(١٤). على أن الخليفة العباسي لم يكن راضياً عن تصرف يعقوب هذا، على الرغم من حرصه على هبة الخلافة في المقام الأول، وأن يشعر ولاية الأقاليم بأنهم خاضعين لها، تمام الخضوع، في كل ما يقومون به من أعمال، ولذلك لم تلق مطالب يعقوب بشأن خراسان قبولاً حسناً، وردت رسالته محملة برسالة من الخليفة جاء فيها: "إن أمير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعل، وأنه يأمره بالانصراف إلى الذي ولاه إياه، وإنه لم يكن ليعقوب أن يفعل ما فعل بغير أمره، فليرجع، فإن فعل كان من الأولياء، وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين"^(١٥).

يعقوب والحسن بن زيد العلوي:

بعد أن أكمل يعقوب فتح نيسابور، وإسقاط الدولة الطاهرية، ظل مغرباً في خراسان حتى جاءته الأخبار بأن "محمد المجزي" سار من السامغان إلى جرجان، متحالفاً مع "الحسن بن زيد العلوي" فقرر مهاجمة جرجان، على الرغم من علمه مدي الخطورة التي يشكلها عبور تلك المناطق لطبيعتها الجبلية، لاسيما غاباتها الكثيفة التي يستعصى معها عبور القوات، فضلاً عن أمطارها الغزيرة الدائمة^(١٦). ومن أجل تجنب ذلك أرسل رسالة إلى الحسن بن زيد يطلب منه تسليم غريمه والذين التجلوا معه إلى جرجان، ولما رأى أن الحسن يماطله تحرك بجيشه متوجهاً إلى جرجان سنة (٢٦٠هـ/٨٧٣م) وفي نفس الوقت حاول استخدام الحيل العسكرية بأن استمال إليه أحد أعوان الحسن بن زيد ووعده بولايتي جرجان واسترباذ، إن انضم إليه وسهل له مهمته العسكرية^(١٧). ولما علم الحسن بما عزم عليه يعقوب من مهاجمة بلاده هرب

(١٣) بدر عبد الرحمن: الدولة العباسية، ص ١٢٣.

(١٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٧.

(١٥) خواتمير: روضة الصفا، ص ٥٩.

(١٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٢.

(١٧) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٤٤.

إلى بلاد النيلم، فما كان من يعقوب إلا أن تعقبه، واستمرت تلك المطاردة مدة شهرين متتاليين حتى أنهك يعقوب وقرر العودة إلى بلاده، وفي أثناء العودة واجهه غضب الطبيعة المتمثل في هطول الأمطار الغزيرة، وما يعقبها من سيول عارمة، والتي قدره المؤرخون بأنها استمرت أربعين يوماً دون انقطاع، مما أعاق تحرك الجيش من مكانه، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعرضت المنطقة إلى زلزال عنيف، دفن معه أكثر من ألفي جندي من جنود يعقوب تحت الطين والتراب^(٦٨).

ولا شك أن ما تعرض له يعقوب وجيشه قد فت في عضده، وكان له أسوأ الأثر على جيشه فاضطر للعودة إلى بلاده منهكا، وفشلت حملته التي لم تؤت ثمارها، بل دمرت معظم جيشه، ولم يحصد منها أية مكاسب^(٦٩).

استيلاء يعقوب علي خراسان وانتهاء العلاقة الحسنة:

أكدت الأحداث التاريخية أن يعقوبا في تعامله مع الخلافة لم يصل إلى مرحلة التضييق في تكوينه المياسي، وأثبت أنه قليل الخبرة والدراسة السياسية، إذ كان استيلائه علي خراسان هو السبب في تغير العلاقة الحسنة التي جمعت بين الصفاريين والعباسيين، حيث شعرت الخلافة بخطورة أطماع يعقوب التوسعية التي أصبحت واضحة، لاسيما بعد سيطرته علي خراسان، وإنهاء الوجود الطاهري فيها. وقد حاول يعقوب أن يبرر فعله بأنه حريص علي هبة الخلافة في نظر أعدائها لاسيما الشيعة المتربصة بها. وعدم قدرة الطاهريين في الحفاظ علي مكتسباتها السياسية.

وحدث ما لم يكن متوقعا إذ جاء رد الخلافة مستنكرا لما فعله يعقوب في خراسان، ومطالبته بتركها و ألا يشق عصا الطاعة، وعودته سريعا إلى ولايته في سجستان، وإلا اعتبرته الخلافة خارجا عن الشرعية، وعاملته معاملة المتمردين^(٧٠). وكان يعقوب قد أقدم علي هذا العمل دون مشورة الخلافة وعلي غير رضاها، فزادت هوة الخلاف بينهما. من ناحية أخرى أرسل أهالي "جرجان" جماعة من كبارهم إلى بغداد لمقابلة الخليفة يتظلمون فيها من ظلم يعقوب وسوء معاملته لهم، فغضب غضبا شديدا، وأعلن استنكاره لما قام به يعقوب واعتبره خروجاً عن الطاعة، وأمر أن يلقي القبض علي أصحاب يعقوب و غلماته. الذين أرسلهم يعقوب من قبل لإقناع الخلافة بتفهم موقفه تجاه استيلائه علي نيسابور. وسجنهم وصادر أموالهم^(٧١).

(٦٨) ابن الأثير: السابق، ص ٢٤٦.

(٦٩) تاريخ سجستان: ص ١٩١ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٣ ص ٧٥.

(٧٠) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٧ - ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٤٣.

(٧١) الكندي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٦.

وكان واضحا منذ البداية من أن أطماع 'يعقوب بن الليث' ليس لها حدود، وظهر ذلك واضحا من خلال طموحاته المتزايدة، ولما أدرك الخليفة العباسي 'المعتد' مدى الخطورة التي يشكلها يعقوب على دولته أضمر له العداوة. وتآزمت العلاقة بينهما، وذلك عندما أصدر الخليفة 'المعتد على الله' أوامره لـ 'عبد الله بن عبد الله بن طاهر' وإلى شرطة بغداد^(٧٢) بجمع حجاج خراسان، وطبرستان، وجرجان، والري، وهي الولايات التي اشكتك من حكم يعقوب، وألقي عليهم منشور الخلافة الذي جاء فيه: "... لقد كنا منحنا يعقوب بن الليث ولاية سجستان والآن وقد ظهرت على وجنته علامات الطغيان فبقنا نحكم بلعنه"^(٧٣). وفي هذا المنشور يعلن الخليفة أن يعقوب لم يعد حاكما على خراسان، كما أعلن أنه يعتبر كافرا، بل اتهمه بالتشيع، وعليه أن يعود إلى رشده، وأن سلطته غير شرعية^(٧٤). وقد حاولت الخلافة إثارة المدن الخراسانية ضد يعقوب فأعلنت تشككها في تحول يعقوب إلى المذهب الشيعي لإثارة الأهالي ضده، والتحالفه بأحد الفرق الشيعية، وخاصة فرقة الإسماعيلية التي بدأت تظهر في المشرق الإسلامي^(٧٥)، والتي اتخذت طابع السرية في انتشارها فحاولت الخلافة الإساءة إليه، وروجت الإشاعات ضده^(٧٦). ويبدو أن تلك الشائعات قد آتت أكلها، فما إن عاد يعقوب إلى إقليم سجستان سنة (٢٦١هـ/٨٧٤م) حتى سارع عمال المدن الخراسانية بالخروج **علي طاعته مستندين** إلى ما أشاعته الخلافة ضده، وانتسابه للمذهب الشيعي^(٧٧). ويبدو أن ما أشاعته الخلافة ضد يعقوب قد شجع كثيرا من الأقاليم للخروج عليه، فما إن عاد من جرجان حتى بلغه أن أهل بخاري قد

^(٧٢) جرت العادة أن يتولي الشرطة في بغداد أحد أعضاء الأسرة الطاهرية، إذ كان الخليفة العباسي عندما يعين أحدهم لإمارة خراسان ينسب أخاه، أو ابنه، أو أحد من بني عمومته في هذا المنصب. والواقع أن الطاهريين كانوا أوفياء للخلافة العباسية، إذ كانوا يعتبرون أنفسهم أمناء على توجيه سياسة العباسيين في المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي، ولذلك تمتعوا بنفوذ داخلي في إدارة شؤون الإقليم طوال العصر العباسي. عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٧ - بدر عبد الرحمن: الدولة العباسية، ص ١٢٩.

^(٧٣) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٢. ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٧٢.

^(٧٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٣.

^(٧٥) فرقة الإسماعيلية: الإسماعيليون من أشهر فرق الشيعة وأكبرها، وهي الفرقة التي ادعت أن الإمام جعفر الصادق قد نص على إسماعيل ابنه إسماعيل من بعده. وقد ظهرت هذه الفرقة منذ القرن الثالث الهجري (٩م) فصاعدا وهي مزيج من فرق غالبية معظمها من الشيعة. محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران، ٤٧، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٥ م.

^(٧٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٩.

^(٧٧) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٢.

أسقطوا اسمه من الخطبة، وأحلوا محله اسم "تصر بن أحمد الساماني" فضلاً عن خروج أحد أعوانه المقربين وهو "أحمد بن عبد الله الخجستاني" الذي كان من أشد المخلصين لعقوب، حتى إنه هاجم نيسابور سنة (٢٦٢هـ/٨٧٦م) واستولى عليها وأخرج عامل يعقوب منها، مستغلاً الكوارث والمحن التي تعرض لها الأخير، وضرب السكة باسمه^(٧٨).

وقد يسأل البعض: لماذا وقفت الخلافة هذا الموقف العدائي تجاه يعقوب، ألم يكن من الممكن السيطرة على طموحاته؟ يري البعض^(٧٩) أن السبب المباشر لهذا الموقف هو تحريض الطاهريين في بغداد حيث كانت لهم ولاية الشرطة، ولاشك أن الطاهريين كان يملؤهم الحقد والكراهية تجاه الصفاريين لما نالهم منه من إسقاط دولتهم وزوالها^(٨٠). بينما يري البعض الآخر^(٨١) أن السياسة التي انتهجتها الدولة الصفارية، المتمثلة في استعادة أمجاد الفرس، والمناداة بعودة الوجود الفارسي، لا سيما بعد أن أعلن يعقوب أنه من سلالة آل سلسن، والتي كان لها صداها السلبى عند العباسيين.

على كل حال لم يعيا يعقوب بما جاء في رسالة الخليفة، وراح يوطد سلطته على الأقاليم المتاخمة، حتى بلغت حدوده العراق مقر الخلافة العباسية.

تقدم يعقوب ناحية العراق سنة (٢٦٢هـ/٨٧٥م)

ويتضح من معارضة الخلافة سيطرة يعقوب على خراسان؛ أنها حاولت أن تضعه في وقف حرج من الناحية الشرعية - وذلك بتحريض أهالي الولايات التابعة له، وأقدمت على عزله ولعنه، وسارع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر - والي شرطة بغداد - بإرسال عشرات التمسح من المنشور إلى كافة الولايات لتذاع بين الناس، وخاصة خراسان لإخراج يعقوب أمام الأهالي، وتحريضهم على الخروج عليه^(٨٢).

وقد أثارت كل تلك التحركات غضب يعقوب، وبدلاً من أن يتدارك الموقف، اثبت عدم درايته وقصر نظره السياسي، فتحرك يريد احتلال بغداد، متحدياً الخلافة، معتمداً على قوة جيشه وطاعة جنده، وفوجئت القوات الصفارية بأمر يعقوب بالتوجه ناحية العراق، رغبة منه في إسقاط الخلافة العباسية، فصار إلى "الأهواز" وهناك كتب الخليفة، وسأله ولاية خراسان، وبلاد فارس، وكل ما في حوزة الطاهريين من البلدان،

(٧٨) الكنديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٦.

(٧٩) ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٢، فتحى أبو سيف: خراسان، ص ٥٩.

(٨٠) فتحى أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٤٩.

(٨١) فتحى أبو سيف: المرجع السابق، ص ١٣١.

(٨٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٦٣.

كما سألته أن يعطيه شرطة بغداد، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند، وأصر يعقوب على أن يحضر الخليفة ومعه الحجاج، وكل من قرئت عليهم الكتب التي نسخت بعزله ولعنه، في دار "عبد الله بن عبد الله بن طاهر"، ويذيع فيهم كتاباً آخر يعلن فيه رضاه عنه، فيبطل بهذا الكتاب الجديد الأكثر السمي الذي تركه الكتاب الأول^(٨٣).

وتماذي يعقوب في طلباته، فزاد على ذلك بأن طلب من الخليفة أن يقتله شرطة سامراء إضافة إلى شرطة بغداد^(٨٤) الأمر الذي أزعج الخليفة، فبادر بإرسال الرسل إلى يعقوب محاولة منه لإثناؤه عن التقدم صوب العراق، إلا أن يعقوباً لم يستمع إلى صوت العقل، وقرر المضي في طلبه، فما كان من الموفق أخو المعتمد^(٨٥) إلا أن جمع حجاج خراسان في بغداد، وأعلن لهم موافقة الخليفة على توليه يعقوب خراسان، بالإضافة إلى الولايات التي تحت نفوذه مثل: سجستان وكرمان وفارس وكابل، بل وبلغ تكليل يعقوب بأن أوكلت إليه شرطة بغداد التي كان يتولها أبناء البيت الطاهري^(٨٦).

والواقع أن الحكمة السياسية كانت تتطلب كل هذا الخضوع لمطالب يعقوب، ومن يطالع تاريخ تلك الفترة يجد أن الكثير من الأخطار كانت تحيط بالخلافة العباسية، وعلى رأس تلك الأخطار "ثورة الزنج"^(٨٧) الذين ثاروا منذ سنة (٢٥٥هـ/ ٨٦٨ م) والتي كانت قد امتدت إلى الأهواز، وكان الموفق أخو الخليفة يستعد لقتالهم، وخوف

(٨٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٣.

(٨٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٦.

(٨٥) كان الخليفة المعتمد هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة، فللمعتمد القطبة والسكة، والتلقب بأمير المؤمنين، ولأبي أحمد الأمر والنهي، وقيادة العسكر، ومراقبة الثغور، وترتيب الوزراء. وعلى الجملة لم يبق للخليفة سوى مكانته الروحية. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٢٧.

(٨٦) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٩.

(٨٧) كان صاحب الزنج قد عرض على يعقوب فكرة التعاون بينهما ضد الخلافة العباسية، لاسيما وأن صاحب الزنج قد خرج على العباسيين في نفس التوقيت الذي خرج فيه يعقوب، ولكن الأخير لم يحاول الاستفادة من هذا العرض، حيث رأى أن أي تعاون مع صاحب الزنج سوف يكون له مردود سلبي، ويصبح أمام الرأي العام الإسلامي متبهما بالزندقة والكفر، وفي هذه الحالة لا يمكن من تعرض جيشه لغضب عارم أمام كلفة المسلمين، ولذلك نراه يأمر كاتبه بأن يرسل إليه برسالة شديدة اللهجة جاء في آخرها سورة الكافرون: "قل يا أيها الكافرون الآية. محمود عرفة: الدول الإسلامية، ص ١٣٨، ١٣٩.

الخلافة من حدوث تقارب بينهم وبين الصفاريين حال حدوث مواجهة بينه وبين يعقوب، فرأى من الحكمة ترضية الأخير لكسب ولائه، وإبعاده عن المعركة لحسين التفرغ له، فضلاً عن ثورات الأتراك المستمرة في بغداد، والذين شكلوا معول هدم في جسد الخلافة، فليس من المستغرب أن يقدم الموفق - مدير أمر المعتد - على اتخاذ مثل هذه الخطوة، و التماهل مع يعقوب ليؤمن مكره ^(٨٨)

ويذكر المؤرخون ^(٨٩) أن أطماع " يعقوب بن الليث " لم تقف عند حد، ولم يقتنع بما تحت يديه، بل إنه كان مصمماً على قصد بغداد نفسها لحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه، وكان يساعده في ذلك جيش قوي، قدر للبعض أن مساحته كانت ميلاً في ميل ^(٩٠)، ولذلك أعاد يعقوب الرسل إلى الخليفة بكتاب ذكر فيه : إنه لا يرضيه ذلك دون أن يسمي إلى باب السلطان (يقصد الخليفة) فاستشعر الخليفة الخطر، وخاصة بعد أن علم أن يعقوب قد تحرك ناحية " عسكر مكرم " ^(٩١). والحقيقة أن "يعقوب بن الليث" لم يكن مطمئناً لموقف الخلافة المتأرجح، فقرر السير تجاه بغداد، علي الرغم من محاولات الخلافة للوقوف في وجه تقدمه، إلا أن يعقوب كانت تدفعه عوامل نفسية لعلها كانت هي المحرك الرئيسي له ^(٩٢). ولكن ما هي الأسباب الحقيقية التي دفعت يعقوب للإصرار علي هذا الفعل ؟ يرى البعض ^(٩٣) أن الدافع العنصري كان هو المحرك إذ كان يعقوب فارسياً يكن الحقد والكراهية للعرب ويرغب في القضاء عليهم لأن العرب هم الذين أفلوا أجداده من قبل، وبدأ ذلك واضعاً من تلك الحركات الشعبية التي تجسدت في كثير من الحركات السياسية، ولا ننسى أيضاً أن وجود الطاهريين في بغداد وهم الأعداء للتقليديين ليعقوب، جعله يفكر في الأمرين معاً: القضاء علي الطاهريين، وإزالة الخلافة.

ويشترط البعض في رأيه بقوله: إن يعقوب كان يريد أن يجلس علي كرسي الخلافة، وهذا أمر مستبعد، لا يمكن قبوله علي مستوى الرأي العام الإسلامي ^(٩٤). وحرصاً من الخلافة علي منع يعقوب من التقدم صوب بغداد، بعث إليه برسالة مفادها، أنه لا عمل لك في بغداد، وخير لك العودة إلى خراسان وبلاد فارس.

(٨٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣١.

(٨٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٤.

(٩٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٥.

(٩١) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٦٢.

(٩٢) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٨ - ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٥.

(٩٣) محمود عرفة: الدول الإسلامية، ص ١٦.

(٩٤) فتحى أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٤٩.

وزاد من خطورة الوضع أن يعقوب اغتر بما حققه من انتصارات على الجبهات الفارسية والهندية، حتى جاءت الوفود من مختلف الأقاليم تعكس ولاعها له حتى زاد إحساسه بالفخر وعدم المبالاة على رد الخلافة. ولم يلبث أن وصلت الخلافة أخبار الوفود التي أتت إلى يعقوب واتضمامها إليه، الأمر الذي فلق بال الخلافة، وبدأت تستشعر خطورتها.

وكانت قوة يعقوب المتنامية وعلو شأنه، قد أغريا الطامعين في تبؤ منصب الخلافة بالاستعانة به للوصول إلى أهدافهم، فيذكر الكرديزي^(٩٠) أنه كانت هناك مراسلات بين الموفق طلحة - أخى المعتمد وولي عهده - وبين يعقوب للتآمر ضد المعتمد، كما كان الموفق يريد أن يستغل قوة الصفارين الفارسية ضد الأتراك المستجوبين على بغداد. والمحتمل أن الخلافة أرادت أن تستعين بالصفارين في ولاية شرطة بغداد لمواجهة سيطرة الترك على اعتبار أنهم من الفرس المناولين للترك.

وتذكر الروايات التاريخية^(٩١) أن هناك مكاتبات دارت بين يعقوب وبعض أبناء الواثق - خليفة العباسيين السابق - وطلبوا مساعدته ضد أبناء المتوكل الذين تولوا الخلافة واستأثروا بها. فقد التقى عبد الله بن الواثق - يعقوب، ودعا للقدوم إلى بغداد للقضاء على المعتمد، ومساعدته على تولي سدة الخلافة، مما جعل يعقوب يبتعد عن محالفة الموفق.

بيد أن السبب الرئيسي الذي كان وراء إصرار يعقوب على التوجه إلى عاصمة الخلافة : تلك الانتصارات المتعاقبة التي حققها في المشرق الإسلامي، وجعلت طموحه لا حدود له. ولما تيقن الموفق من فشل خطته، وتصميم يعقوب على السير إلى بغداد : قرر القضاء عليه حتى إنه تولى قيادة جيش الخلافة بنفسه.

واستدعى الخليفة المعتمد كبار رجال الدولة، وأعلن فيهم: أن يعقوب شق عصا الطاعة، وهو قادم إلى هنا، ولم آذن له في الحضور إلينا، وأمرته بالعودة فلم يرجع، وإذا فهو يحمل في قلبه الخيانة، ولهذا لا يجب التفتل عن اتخاذ الحيلة. وأمام الخطر الداهم الذي شكله يعقوب فكرت الخلافة في درء هذا الخطر عن طريق استدراج يعقوب للقدوم إلى بغداد ليحظى بتقدير الخلافة ومكافأته على ما قام به من أعمال ضد أعدائها، فأرسل إليه المعتمد رسالة جاء فيها : " ولستعلم أننا نرضى بالخطبة، لأننا من بيت المصطفى صلى الله عليه وسلم، وتقى أنت دينه، لأن لك غزوات كثيرة في ديار الكفر... وأثر سيفك واضح على الكفار في كل مكان، وقد

(٩٠) زين الأختار: ج ١ ص ٢٢٥.

(٩١) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٩.

أصبح حقه واجباً على كل المسلمين، وقد أمرنا أن يخطب لك في الحرمين... ونحن والمسلمون الآن عون لك حتى تعود الدنيا على يدك إلى دين واحد هو دين الإسلام*.

والواقع أن تلك الرسالة، وهذا الأسلوب الاستعطاقي، من جانب المعتمد جعل يعقوب متحرجاً أمام جيشه برفض طلب أمير المؤمنين. وهكذا نجح المعتمد في خداع يعقوب وإيقاعه في حرج أمام جيشه. ولكن يبدو أن يعقوب كان متوجساً خيفة من الخليفة وأخيه، فسار يعقوب بجيشه من "عسكر مكرم" إلى "واسط"، ومن هناك أرسل برسالة إلى الخليفة يطلب منه أن يصدر منشوراً بحكم الولايات التي وعده إياها من قبل^(٩٧). ولكن الخليفة لم يرد على طلب يعقوب، بل أمر بلعنه على المنابر ووصفه بالعاصي، ولأبد من حربه. ولما وصل يعقوب إلى مدينة عسكر مكرم "بالأهواز"^(٩٨)؛ أرسل من هناك كتاباً إلى الخليفة العباسي يعلن فيه الخضوع والتضرع، ويخبره أنه لم يجيء إلا لخدمة أمير المؤمنين، والتشرف بالتمول بين يديه، والنظر إليه، وأن يموت تحت ركابه^(٩٩).

ولكن الخلافة أعلنت استنكارها لفعل يعقوب، واتهمته بالتشيع، وخرجه عن المذهب السني، وأظهر يعقوب تحديه للخليفة وأمره بترك بغداد ليدخل هو وجنوده إليها. أوكل المعتمد قيادة جيش الخلافة إلى أخيه الموفق^(١٠٠) الذي سار بالجيش إلى قرية "دير العاقول (شرق دجلة)" ولما التقى الجمعان، خرج أحد قادة الخليفة وخاطب الجيش الصفاري بصوت مرتفع قللاً: يا أهل خراسان وسجستان، ما عرفناكم إلا بطاعة السلطان (يعني الخليفة) وتلاوة القرآن، وحج البيت وطلب الإنكار، وإن دينكم لا يتم إلا باتباع الإمام، وما نشك أن هذا الملعون قد موّه عليكم، وقال لكم إن السلطان قد كتب إليه بالحضور، وهذا السلطان قد خرج لمحاربته، فمن أنر منكم الحق وتمسك بدينه وشرائع الإسلام فلينفرد عنه إذ كان شاكاً للعصا محارباً للسلطان...^(١٠١).

(٩٧) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٧١.

(٩٨) الأهواز إقليم مهم جداً بالنسبة للعراق وبالنسبة لفارس، ولم تكن أهميته خافية على كل من يريد قصد العراق، فالذي يملك الأهواز يستطيع أن يمد كل الطرق المؤدية إلى فارس، لاسيما العسكرية منها، فوجود أي قوة عسكرية قوية في هذه المنطقة الاستراتيجية، سوف يكون حائلاً أمام أي تقدم ناحية العراق، فالأهواز مفتاح الدخول إلى العراق من ناحية فارس. وكان يعقوب يدرك ذلك، ولهذا حاول وضع يده على هذه المدينة لأنها المعبر الرئيسي له للعراق. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي، ص ٥١٦.

(٩٩) ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٧.

(١٠٠) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥ ص ٣٣، دائرة المعارف العثمانية، ط ١ حيدر آباد ١٣٥٩هـ.

(١٠١) ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٨.

والحقيقة أن أغلب جيش يعقوب، وكبار قادته، قد تأثروا برؤية الخليفة العباسي أمامهم في ميدان القتال، وتخلوا عن يعقوب، ولحقوا بجند الخلافة، وقالوا: لقد ظننا أنه قادم إليك طائعا مسلما، ولكن لما بدت لنا مخالفته وعصيانته تركناه^(١٠٦).

ولما بدأت المعركة جعل الموفق على ميمنة الجيش "موسى بن بفا" وعلى ميسرته "مسرور البلخي" وتولى هو قيادة الجيش بنفسه. وقد أصرر يعقوب نصرا أوليا في بداية المعركة، إذ حملت ميسرته على ميمنة الموفق فكسرتها، وقتل جماعة من قادة الموفق، وكانت الهزيمة تحل بجيش الخلافة، إلا أن الموفق ثبت في المعركة، وكشف رأسه وقال: "أنا للغلام الهلثمي" وهجم ومن معه على جند يعقوب، واقتتلوا قتالا شديدا حتى العصر، وتحولت الهزيمة إلى نصر مؤزر، حتى اضطر يعقوب أمام شدة المقاومة إلى التقهقر ومن معه من الجنود، وأصيب هو بثلاثة أسهم في حلقه وفي يديه، ولم تزل الحرب قائمة حتى انهزم يعقوب وجنوده، وتبعهم أصحاب الموفق قتيلا وأسرا، وغنموا ما في مصكرهما، واستطاعوا تخليص "محمد بن طاهر" من الأسر - والذي كان قد اصططحبه يعقوب معه في المعركة. فخلع عليه الموفق وأعطاه شرطة بغداد^(١٠٧). بينما أصدرت الخلافة كتابا يلعن يعقوب، واعتبرته خارجا على أمير المؤمنين، منكرًا للنعم، ساعيا إلى الفساد.

وقد أورد الطبري^(١٠٨) مضمون الكتاب الذي أمر الخليفة بأن يقرأ على الناس ببغداد، والذي أخذ يعد مساوئه فيه قائلا: "ولم يزل للملعون المارق المسمى يعقوب بن الليث ينتحل الطاعة، حتى أحدث الأحداث المنكرة، من مصيره إلى أصحاب خراسان، وغلبته إياه عليها، وتقلده الصلاة والإحداث بها، ومصيره إلى فارس مرة بعد مرة، واستيلائه على أموالها، وإقباله إلى باب أمير المؤمنين مظهر المسألة في أمور أجابه أمير المؤمنين منها ما لم يكن يستحقه، استصلاحا له، ودفعا بالتي هي أحسن، فولاه خراسان والري وفارس وقزوین وزنجان والشرطة بمدينة السلام، وأمر بتكثيته في كتبه، وأقطع الضياع النفيسة، فما زاده ذلك إلا طغيانا وبغيا، فأمره بالرجوع فأبى، فنهض أمير المؤمنين لدفع الملعون حين توسط الطريق بين مدينة السلام وواسط، وأظهر يعقوب أعلاما على بعضها الصليان، فقدم أمير المؤمنين أخاه أبا أحمد الموفق بالله ولى عهد أمير المسلمين في القلب... فحاربه حتى أئخن بالجراح، وحتى انتزع أبو عبد الله محمد بن طاهر سالما من أيديهم، وولوا منهزمين مسلوبين، وسلم للملعون كل ما حواه ملكه".

(١٠٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٧١.

(١٠٧) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٧، ٥١٨.

(١٠٨) الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٨، ٥١٩.

وتراجع الحملة الفاشلة بعد الهزيمة الساحقة التي مني بها يعقوب ففقل عائداً إلى "خوزستان" بعد أن تفرق عنه معظم جيشه، وهلك كثير من دوابه^(١٠٤). ولم يلبث أن جاءه نيا استيلاء "أحمد بن عبد الله الخجستاني" (أحد رجاله السابقين) على نيسابور، مستغلا غيابه، ومسيطرته على الأوضاع هناك، فزاد ذلك من مرارة الهزيمة، مما كان له بالغ الأثر على صحته، وضعف روحه المعنوية إلى درجة كبيرة^(١٠٥).

والواقع أن تصاهل الخلافة مع يعقوب جعله يبالغ في ثقته بنفسه، لاسيما وأن معه جيشا كثيفا، ولكن الحقيقة التي غابت عن ذهن يعقوب؛ أن الأوضاع كانت قد تغيرت في عاصمة الخلافة، التي بدأت تسترد هيبتها ومكانتها، وخاصة بعدما تسولي الموفق قيادة دفة الحكم في بغداد، فخانته التوفيق في ذلك، حتى اتهمه البعض^(١٠٦) بالقباء السياسي، إذ لم يكن بعد النظر حين خاصم الخلافة، كما كان في إكاته الاستعانة بصاحب الزنج الذي عرض عليه التعاون ضد الخلافة^(١٠٨)، فرفض ذلك مستكبرا فعله. كذلك كان الصفار قصير النظر حين أفرط في ثقته بجنده، خاصة وإنه كان مقربا منهم، شديد الإحسان إليهم، ضابطا لأمرهم، حتى أحبوه وأخلصوا له، ولكن نسي يعقوب أن هؤلاء الجنود من المتطوعة الذين جندتهم الخلافة لنصرتها ضد الخارجين عليها في المشرق الإسلامي. ولم يكن من المتوقع أن ينتصروا ليعقوب ضد الخليفة العباسي، لاسيما لما خرج الخليفة المعتمد مع الجيش ليوحد وجوده التأثير الروحي على جند الصفار حين يرويه بقاتل صلابهم^(١٠٩). فكان ولاء أكثرهم لشخص الخليفة لا لشخص يعقوب. ولذلك كان طبيعيا أن يتخاذلوا عن يعقوب عندما رأوه يقاتل خليفته، فتخاذلوا عنه وانضموا للموفق، فكانت بداية النهاية ليعقوب الصفار^(١١٠). ويذكر ابن خلكان^(١١١) أن الموفق أخى الخليفة كشف رأسه وقال: أنا الغلام الهاشمي، وحمل على أصحاب الصفار، وقتل بين الطائفتين خلق كثير، فلما رأى الصفار تلك الحال ولي راجعا تاركا أمواله وخزائنه ونخائره، ومضي على وجهه فلم تتبعه العساكر، وما أقلت من أصحابه رجل إلا يسهم أصابه، وأدركهم الليل فتساقطوا في الأنهار لأزدحامهم، وثقل الجراح بهم. وأعادت الخلافة محمد بن طاهر

(١٠٤) ابن خلدون: المعبر، ج ٤ ص ٤٢٢.

(١٠٥) الكنديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٥.

(١٠٦) حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي، ص ٤٦١.

(١٠٧) المسعودي: مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٢٨.

(١٠٨) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٨.

(١٠٩) تاريخ مجستان: ص ١٨٩، ١٩٠.

(١١٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٥.

— الذي كان قد فرّ من أسر الصفار — إلى منصبه^(١١٢) رليما لشرطة بغداد، بينما عاد يعقوب إلى إمارته ليستعد لخوض معركة أخرى ضد الخلافة، فاستولى على الأهواز من صاحب الزنج، والأهواز كما هو معلوم مفتاح العراق من ناحية فارس.

حاول يعقوب إرضاء الخلافة العباسية بشئى الطرق فنراه يحارب الخوارج في سجستان وكرمان، وينكل بزعمائهم^(١١٣)، بل ويرسل برؤوسهم إليها، كما نراه يشن حرباً ضد الزيديين في جرجان وطبرستان لينال ود الخليفة السفى^(١١٤). ولكن، في الواقع كانت سيطرة يعقوب على خراسان هي التي فجرت الصراع بينه وبين الخلافة، فتحوّلت العلاقة إلى عداء سافر. ولما رأى الخليفة المعتمد انتصارات يعقوب المتعاقبة، وأيقن أن القوة الصفارية أصبحت لها الزعامة، أرسل برسالة إلى يعقوب عبر فيها عن رضا الخلافة عن الصفاريين، ومحاولاً أن يثنيه عن معاودة التفكير في مهاجمة بغداد مرة أخرى، واسترضائه بأن عفا عنه وعما بدر منه تجاه الخلافة، بل ومنحه إمارة خراسان. وتأكيذاً على العلاقات الطيبة أطلق الخليفة المعتمد أسرى الصفاريين الذين تم القبض عليهم من قبل، عندما استولى يعقوب على خراسان، وحبس محمد بن ظاهر عامل الخليفة هناك^(١١٥).

ولما انتهى يعقوب من سماع رسالة الخليفة، أمر أن يحضروا له قطعة من الخبز الجاف، وبصلة، ووضعوهما بجانب سيفه الذي كان أمامه، ثم قال للرسول: "إنني صفار وقد تعلمت هذه الصنعة من أبي، وكان طعمي خبز الشعير والسمك والبصل والكرات، وحصلت على هذا الملك والثروة والثمنة عن طريق العيلة والشجاعة، وليست ميراثاً عن أبي، أو عطاء منك .. وقد عقدت العزم على ألا أستريح حتى أقهر الخليفة، فإني مت فقد استرحت منك واسترحت مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف، حتى آخذ بثأري أو تكمرتي، وأعود إلى هذا الخبز والبصل"^(١١٦).

(١١٢) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٩.

(١١٣) حاول يعقوب استرضاء الخلافة بقتله عبد الرحمن الخارجي الذي استقل غياث يعقوب عن سجستان وأعلن خروجه عن الخلافة، وأطلق على نفسه لقب المتوكل على الله، ولكن يعقوب تمكن من القبض عليه وأرسل برأسه إلى الخليفة المعتمد الذي أمر بأن يطاف برأسه في شوارع بغداد، وعادت الخلافة الاتصال بيعقوب وعادت العلاقات الدافئة بينهما.

ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٦٦.

(١١٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٨.

(١١٥) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٦.

(١١٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٨٣. خواتمير: روضه الصفاء، ص ٥٩.

ويبدو أن يعقوب لاحظ عدم جدية الخلافة، وتناقض مواقفها حول شرعية حكمه سواء في خراسان، أو سجستان، وكانت الهزيمة التي لحقت به جعلته يفكر في الانتقام لينار لنفسه، ويسترد كرامته التي أهدرت أمام جنوده ورعاياه، فقرر مواصلة الحرب ضد الخلافة، حتى إنه بدأ بتحريك جيوشه ناحية العراق^(١١٧). ولكن القدر لم يمهله إذ لم يلبث بعد عودة الرسول أن توفي يعقوب في "جند يسابور" إحدى مدن الأهواز، بعد حكم دام إحدى عشرة سنة (٢٥٤-٢٦٥هـ/٨٦٨-٨٧٨م) ودُفن بها بعد مرض ألم به دام ستة عشر يوما^(١١٨). ويقول صاحب تاريخ سجستان: "ثم مرض يعقوب هناك، وكان مرضه شديدا، وعندما تم له أمر الدنيا كلها لحق النقصان بالتمام". ثم يقول في موضع آخر: "وكان له عمال في خراسان وسجستان وكابل والسند والهند وفارس وكرمان... ودان له الناس في مختلف الأماكن وامتلأوا لأمره، وكانت بلاد الكفر ترسل إليه في كل عام الهدايا، وكانوا يسمونه ملك الدنيا لمدة طويلة من الزمان، وإذا أحصيت مناقبه كلها لكنت قصصا كثيرة ولطال هذا الكتاب..."^(١١٩). وبعد دفنه وجد مكتوبا على قبره :

ملكك خراسان وأكتاف فارس وما كنت من ملك العراق بآيس
سلاما على الدنيا وطيب نسيما إذا لم يكن يعقوب فيها بجالسا^(١٢٠)

ومن هذين البيتين يتضح أن يعقوب بن الليث كان قد امتد طموحه بالفعل ليشمل عاصمة الخلافة نفسها، وإعادة تولة العرس كما كان يحلم جميع من خرج على العباسيين من الفرس. ولكن من سوء حظ يعقوب أن حركته حادت في وقت كانت فيه الخلافة في أوج نشاطها، خاصة في عهد المعتمد وأخيه الموفق إذ كانا من القوة بحيث أمكنهما كبح جماح الطامعين، ومع ذلك يحسب ليعقوب أنه استطاع الوقوف في وجه كل الحركات المناهضة للخلافة، لاسيما الخوارج المتشققين عن الدولة العباسية، والزيديين الذي كانوا شوكة في ظهر العباسيين في منطقة المشرق الإسلامي^(١٢١). ومع ذلك فقد تمكن يعقوب في النهاية من الحصول على اعتراف الخلافة بشرعية حكمه على خراسان، والتي كانت سببا في تدهور علاقته بالعباسيين.

(١١٧) فتحي أبو سيف: خراسان، ص ٨٠.

(١١٨) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٥ - خواتمير: روضه الصفا، ص ٥٩.

(١١٩) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٩١.

(١٢٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٠.

(١٢١) بدر عبد الرحمن محمد: الدولة العباسية، ص ١٣٨.

عمرو بن الليث والخلافة العباسية (٢٦٥-٢٨٧هـ/٨٧٨-٩٠٠م)

كان طبيعياً أن يخلف عمرو بن الليث - الرجل الثاني في الدولة الصفارية. أخاه يعقوب^(١٢٢)، الذي حاول أن يكون حسن السياسة والتدبير حتى قيل عنه: ما أدرك من حسن السياسة للجنود، والهادية إلى قوتين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث^(١٢٣). وكان الجند قد بايع عمرو بن الليث بعد وفاة أخيه يعقوب سنة (٢٦٥هـ/٨٧٨م) لاسيما بعد أن كتب عمرو إلى الخلافة بطاعته، فأرسل إليه الموفق للتقليد بولاية خراسان، وفارس، وأصفهان، وسجستان، والسند، وكرمان، وبذلك أصبح يمتلك ما كان بيد أخيه^(١٢٤)، وزادت الخلافة على ذلك بأن أعطته شرطة بغداد، الذي أوكلها بدوره إلى "عبد الله بن عبد الله بن طاهر"^(١٢٥). بيد أن عمرو بن الليث لم يجد مبرراً للاستمرار في حرب الخلافة، لاسيما بعد أن أعطته ولاية خراسان خالصة له^(١٢٦). ولكن بدا لعمرو أن الجيش الصفاري في حاجة إلى الراحة، خاصة بعد الحروب الطاحنة التي خاضها يعقوب ضد الخلافة^(١٢٧)، حتى إن بعض فرق الجيش وخاصة الخراسانية كانت ترفض الاشتراك في حروب ضد الخلافة، على اعتبار أن الخليفة العباسي هو الرمز الديني للمسلمين في العالم الإسلامي، كما أن ولاية خراسان كانت تربطها علاقة قوية بالخلافة، على اعتبار أنها كانت مهد الدعوة العباسية في مراحلها الأولى^(١٢٨). وهكذا فضل عمرو أن يهادن الخلافة - متخلياً عن فكرة سلفه يعقوب بالسير إلى بغداد - وأن يعقد صلحاً مع الخليفة المعتمد العباسي، تم بموجبه إنهاء الحرب بين الطرفين، وتقليد عمرو على ولايات خراسان، وسجستان، فضلاً عن كرمان، وفارس، على أن يرسل مقابل ذلك خراج قدره عشرون مليون درهم سنوياً^(١٢٩). وتأكيذاً من "عمرو" على حسن المودة والصداقة بينه وبين الخلافة، بعث إلى الموفق بالعديد من الهدايا من بينها عمود من الذهب^(١٣٠).

(^{١٢٢}) كان عمرو بن الليث قد تولي قيادة جيوش الصفاريين لأخيه يعقوب في حروبه ضد الخوارج في سجستان كما تولي عمرو أيضاً قيادة الجيش الصفاري في حروب يعقوب بكرمان، وفارس. أبو سيف: خراسان تاريخها السياسي، ص ٨١.

(^{١٢٣}) تاريخ سجستان: ص ١٩١.

(^{١٢٤}) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٩.

(^{١٢٥}) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٨٤.

(^{١٢٦}) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٦٥.

(^{١٢٧}) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٣٢٢.

(^{١٢٨}) الكنديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٥.

(^{١٢٩}) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ٥٠ - خزانة المير: روضه الصفا، ص ٦٠، ٦١.

(^{١٣٠}) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٤٩.

وعلى الرغم من أن عمرا كان أبعد من أخيه نظرا ورؤية وحسن سياسية ؛ إلا أن طموحه الزائد، ورغبته المتعطشة للحكم، جعلته غير راض عما حققه من مكاسب، وجعلته يبذل المزيد من الجهد للحصول على الأراضي المتاخمة له. وكانت الخلافة من جانبها تترك هذا الطموح، والرغبة التوسعية الجارحة لدى الصفاريين، ولذا كانت تتوجس خيفة من تلك الرغبة، وتترقب الفرصة للقضاء عليهم. ولم يلبث إلا قليلا حيث ساءت العلاقات بين الخلافة العباسية والصفاريين، وذلك عندما أُلدِم الخليفة المعتمد على عزل "عمرو بن الليث" عن البلاد التي ولاه إياها، وأمر بخلعه على المنابر، ومن العجيب أنه أعلن هذا القرار على ملا من حجاج خراسان، حتى إنه لعنه بحضرتهم، وأخبرهم أنه قلد "محمد بن طاهر" محله^(١٢١). ولكن محمد بن طاهر فضل المقام في بغداد، وأتاب بدلا منه أحد قاداته ويدعى "رافع بن هرثمة" لإدارة شؤون الإقليم^(١٢٢).

ولكن ما هو السبب الذي دفع الخلافة لاتخاذ هذا الموقف من "عمرو بن الليث"، لاسيما بعد أن هادننها وأظهر الطاعة والولاء ؟. يقول المؤرخون^(١٢٣) إن الخلافة بررت العزل بوصول شكايات من أهالي خراسان للخليفة ضد عمال الصفاريين، الذين وصلوا بالتصنف في معاملة الأهالي، كما كان الخطأ الفادح الذي ارتكبه الصفاريون هو: عدم اتخاذهم خراسان عاصمة لملكهم — كما جرت العادة لمن سبقهم — ولكنهم فضلوا البقاء في سجستان موطنهم الأصلي، مما أفسح المجال للطامعين والمعرضين ليلعبوا دورا مهما في غضب الخلافة المتزايد على الصفاريين^(١٢٤). كما أسهمت الخلافة بزيادة حدة التوتر الدائر بين الأمراء الطامعين في السيطرة على خراسان، فبعد أن هادن عمرو الخليفة "المعتمد على الله" وأظهر الطاعة والولاء، اصطدم بقوة "أحمد بن عبد الله الخجستاني"^(١٢٥) الذي كان قد استفحل أمره بعدما استولى على كثير

(١٢١) الكردبزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٧.

(١٢٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ٥٦ - خوالنمير : روضه الصفا، ص ٦١.

(١٢٣) النرشخي: تاريخ بخاري، ص ١١٨، ترجمة وتحقيق: د/أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله الطرازي، ط ٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

(١٢٤) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٦٦.

(١٢٥) أحمد بن عبد الخجستاني: أحد قادة بطوب بن الليث الصفار، وأحد القوميين الخراسانيين الذين تولوا مهمة الدفاع عن خراسان ضد العدوان الخارجي، إذ عمل في بداية حياته بحراسة القوافل التجارية، ثم أصبح أحد قادة الطاهريين المشهورين، وطمع أن يكون له شأن فالتحق بخدمة الصفاريين، ثم لم يلبث أن انقلب عليهم، وجمع حوله الأنصار والأعوان لإخراج الصفاريين من خراسان، وكان يظهر المول للظاهريين مستملا

من أملاك الصفاريين - مستغلا حالة الإرباك التي كانت تعاني منها الأخيرة قبيل وفاة عاهلها الأول. والذي تعتبر حركته من أقوى حركات المعارضة الخراسانية للحكم الصفاري - حيث هاجم "جرجان" سنة (٢٦٥هـ/٨٧٩م) وبلغ من جرأته أنه صار إلى نيسابور واستولى عليها، غير مكترث بقوة الصفاريين^(١٣٦).

ولما علم 'عمرو بن الليث' بذلك توجه على رأس جيش كبير، هو وأخوه 'علي بن الليث' وابنه 'محمد' ناحية نيسابور لمحاربة الخجستاني، ولكن حلت الهزيمة بالصفاريين، وفرّ عمرو إلى هراة، بينما استقر الأول في نيسابور، وأحكم السيطرة عليها، وكان ذلك سنة (٢٦٧هـ/٨٨٠م) ثم قام بسك العملة باسمه، واسم الخليفة العباسي دليلا على تبعيته للعباسيين^(١٣٧). ولم يلبث أن قتل 'الخجستاني' فسي العمام التالي على يد أحد غلماته^(١٣٨)، فأجمع جيشه على تولية 'رافع بن هرثمة'^(١٣٩) حاكم هراة، فسار بجيشه إلى نيسابور، فدخلها سنة (٢٦٩هـ/٨٨٢) وخطب فيها باسم 'محمد بن طاهر'^(١٤٠).

وظلت خراسان عتبة كزوداً في وجه أي تقارب صفاري عباسي، فعندما حاول 'عمرو بن الليث' استرداد إقليم خراسان، نراه يواجه غضب الخلافة، التي كانت قد أوكلت أمر خراسان إلى 'رافع بن هرثمة'. ويبدو أن الخلافة حاولت إثارة الفلاقل في وجه عمرو عن طريق تأييدها لحركات المعارضة الخراسانية ضده، إذ كانت تستشعر دائما الخوف من طموح الصفاريين المتزايد، المتحيز دائما للخروج عن الطاعة، وخوفها أيضا من أن يفكر عمرو بالسير مجددا تجاه بغداد، كما فعل أخوه من قبل. ولذلك حاولت أن تجد لعمرو منافسا قويا من أجل الإيقاع به. وظلت العلاقات يحكمها

بذلك قلوب أهل نيسابور، لمعرفته بمحبتهم للطاهريين. ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٣، ٤٢٤. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٧٢.

(١٣٦) الكردبزي: زين الأخبار، ج ١ ص ١٢٦ - ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٥، ٤٢٦.

(١٣٧) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٩٠٠.

(١٣٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٤.

(١٣٩) رافع بن هرثمة: كان "رافع بن هرثمة" أحد الأعوان "لأبي ثور" وكان أبو ثور أحد قادة "محمد بن طاهر" فلما استولى يعقوب على نيسابور، دخل أبو ثور في طاعته متصرفا عن محمد بن طاهر، ولما رجع يعقوب إلى سجستان، اصطحب معه أبا ثور، ومعه رافع بن هرثمة، واصله "ابن خلكان" بأنه رجلا طويل اللحية، كرية الوجه، فدخل يوما على يعقوب، فلما خرج من عنده قال يعقوب: إني لا أمل إلى هذا الرجل، فليحرق بما شاء، فترك سجستان، وظل مبعدا حتى استقدمه "أحمد بن عبد الله الخجستاني" وجعله قائد جيشه. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٣، ٤٢٤.

(١٤٠) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٧٧.

سوء الفهم بين الطرفين حتى نجح رافع في حمل الخليفة "المعتمد على الله" على إصدار منشور بمعاقبة عمرو^(١١١).

والواقع أن هناك عدة اعتبارات جعلت الخلافة تقدم على هذا العمل ضد عمرو، كان في مقدماتها تخلص الخلافة من أكبر خطر كان يتهدها، ألا وهو ثورة الزنج والقضاء عليها التي أفلقت مضاجع العباسيين، فالتخلص من ثورة الزنج كان معناه أن الخلافة أصبحت حرة طليقة؛ في مواجهة الخارجين عليها من حكام الأقاليم بكل قوة وإصرار، كما أن الخلافة بدأت تعتمد على ظهور قوة جديدة بدت في الأفق، ألا وهي قوة السامانيين الفتية، الراغبين دائماً في كسب رضا الخلافة، فأصدر المعتمد العباسي قراراً بعزل "عمرو بن الليث" عن البلاد التي ولاه إياها، وأعلن هذا البيان على ملأ من حجاج خراسان الذين حضروا إلى بغداد، وأعلن فيهم: "إني عزلت عمرو بن الليث عن خراسان، وأمرت بلغه"^(١١٢) ثم كلف "محمد بن طاهر" بأمر خراسان^(١١٣). ولم يلبث أن أرسل المعتمد جيشاً من واسط بقيادة "صاعد بن مخلد" لمحاربة عمرو بن الليث، فلما التقى الجمعان هزم الأخير، ونجا بأعجوبة بعد أن كاد يقع في الأسر، حيث غادر أرض المعركة متجهاً إلى "فارس" ثم اتجه منها إلى "سجستان" لإعادة تنظيم صفوفه، وتدبير أمره لخوض مرحلة جديدة ضد الخلافة^(١١٤).

ومن المستغرب، خلال تلك الحقبة التاريخية، ذلك التردد الواضح من العباسيين تجاه حكام الأقاليم في المنطقة الشرقية لاسيما الصفاريين، فنراهم يتحالفون معهم، ثم يعودون في سرعة عجيبة ويقتلون عليهم مرة أخرى، في تصارع عجيب، فبعد أن استفحل أمر "رافع بن هرثة"، بعد أن استولى على "الري" و"بلاد الجبل"، حتى اتصل بحدود "قزوین" تتطايّر خبره إلى الخليفة "المعتمد بالله" الذي أمر بتخليه عن مدينة الري، ولكن رافعا لم يذعن لأمر الخليفة، وشق عصا الطاعة، فكتب الأخير إلى "عمرو بن الليث" يعلمه بتوليته أمر خراسان، وبالمسير إلى رافع للقضاء عليه، فلما تقابلا عند الري انهزم عمرو، لكنه اتجه إلى "نيسابور" من أجل إرباك رافع، بينما اتجه الأخير إلى "طبرستان" سنة (٢٨١هـ/٨٩٥م) وخضع طاعة الخليفة العباسي، وقام بمراسلة "محمد بن زيد العلوي" وخطب له على منابر طبرستان، لكنه لم يستجب لطلبه، ولم يمهده بأحد، وتفرق عنه أصحابه، وغلماؤه، ثم سار رافع إلى نيسابور لمداومة عمرو هناك، وجرت بينهما معارك حامية الوطيس انتهت بهزيمة ساحقة لرافع الذي فر ملتجئاً إلى "أبيورد" - من نواحي نيسابور - ولكنه لم يلبث أن قتل سنة

(١١١) ابن خلکان: وفیات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٤.

(١١٢) مجهول: تاریخ سجستان، ص ٢٠٥.

(١١٣) ابن خلکان: المعبر، ج ٤ ص ٤٢٧.

(١١٤) ابن خلکان: وفیات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٥.

(٢٨٣هـ/٨٩٦م) وحمل رأسه إلى "عمرو بن الليث" وهو بنيسابور^(١٤٥)، الذي أرسلها بدوره إلى الخليفة العباسي المعتضد بالله^(١٤٦).

ولم تثبت أن تحسنت العلاقات بين عمرو والخليفة بعد التنصر المؤزر الذي حققه على "ابن هرثمة"، والذي كان يصب في المقام الأول في مصلحة الخليفة، وذلك لردع كل من تسول له نفسه الخروج عليها^(١٤٧).

والتوقع أن الخليفة "المعتضد بالله" فرح فرحا شديدا، وقد عبر عن فرحه ذلك بأن أرسل إليه الخلع واللواء، دليلا عن رضائه عنه، وأمر الخليفة أن يكتب اسم "عمرو بن الليث" على الفرش والمقاعد والأعلام، بل إن الخليفة، وكالعادة، أمر بجمع حجاج خراسان، وأن يقرأ عليهم منشورا بتوليته خراسان وملحقاتها^(١٤٨). ورد عمرو على ذلك بأن أرسل هدايا قيمة إلى قصر الخليفة في بغداد، وذلك سنة (٢٨٤هـ/٢٨٤م) قدرها البعض بأربعة ملايين درهم، تعبيرا عن فرحته هو الآخر، وامتنانه لفعل الخليفة. ولكن في الوقت نفسه طالب عمرو بضم ولاية "ما وراء النهر" إلى أملاكه، وهي الولاية التي كانت تابعة إداريا للسامانيين، بحجة أن تلك الولاية، كانت تتبع من قبل إقليم خراسان^(١٤٩).

ثم ساءت العلاقات بين عمرو بن الليث والخليفة. وذلك عندما طلب الأول من الخليفة المعتضد أن يوليه على "بلاد ما وراء النهر"^(١٥٠) التابعة للسامانيين^(١٥١). ويبدو أن عمرا لاحظ نمو وإزدياد العلاقة الودية التي كانت تربط بين العباسيين

(١٥٠) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ١٦١ - تاريخ سبستان: ص ٢٠٦.

(١٥١) المعتضد بالله: هو أبو العباس ابن ولي العهد طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ولد سنة (٢٤٢هـ/٨٥٦م) وأمه أم ولد اسمها "صواب" وصفه المؤرخون: بأنه كان ملكا شجاعا مهيبا، وكان فهما جلدا، موصوفا بالرجولة. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ١٢٣ - السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤١٧.

(١٥٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ١٧٠.

(١٥٣) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٩.

(١٥٤) كانت بلاد "ما وراء النهر" منذ الفتح العربي، وبخاصة منذ عهد "الوليد بن عبد الملك" تتبع إقليم خراسان، ولما جاء العباسيون أبقوا لعمل خراسان حتى الإشراف الإداري على هذه البلاد، لاسيما في عهد الدولة الطاهرية، وظل هذا الوضع قائما حتى صدر منشور من الخليفة سنة (٢٥١هـ/٨٦٥م) بفصل ولاية ما وراء النهر عن إقليم خراسان، نظرا لقوة حكم السامانيين في تلك المنطقة. الترشحي: تاريخ بخارى، ص ١١٨ - ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٨٨ - فتحي أبو سيف: الدولة العباسية ص ١٦٨.

(١٥٥) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٣١.

(١٥٦) خواتمير: روضه الصفا، ص ٦٣.

والسامانيين، فأراد أن يختبر متانة تلك العلاقة بهذا الطلب، وفي الوقت نفسه كان يحلم بمد نفوذه إلى "ما وراء النهر"، بحكم أنها كانت من قبل تتبع إقليم خراسان. والواقع أن الخلافة من جانبها كانت تخشى من اتساع نفوذ "عمرو بن الليث" وتحاول تطويق طموحه والحد من خطره من أجل المحافظة على توازن القوى السياسي في المنطقة، فاتهزت الخليفة الفرصة فأراد أن يضرب عمراً بقوة السامانيين الزامية في بلاد ما وراء النهر، فوجه إليه الخلع واللواء وهو بنيسابور، وأظهر له موافقته على مطلبه، بينما كانت الخلافة تتصل سرا بـ "إسماعيل بن أحمد الساماني" وتنثبته على ولايته^(١٥٢). غير أن عمراً اعتذر عن قبول هذه الخلع، وأصر على طلبه، ولم يجد الخليفة مفرًا من إجابته لطلبه، وهو بقدر مدي الخطر والمغامرة التي يتعرض لها عمرو الذي لم تقف أطماعه عند حد^(١٥٣). وقد صدق تقدير الخليفة، حيث إن "إسماعيل بن أحمد الساماني" هب للدفاع عن مكاسبه السياسية، ورفض الاتصايع لأمر الخليفة، وتسليم الإقليم، وكتب إلى عمرو ينثبه عن الإقدام على مثل هذا العمل: إنك قد ولبت دنيا عريضة (يقصد أملاكاً كثيرة) وأنا في يدي ما وراء النهر، وأنا في ثغر، فافزع بما في يدك، واتركني مقيماً في هذا الثغر، فإني إجابته إلى ذلك، وذكر له من أمر نهر بلخ، وشدة عبوره. ولكن عمراً أخذته العزة والغرور، ورد عليه قائلًا: لو شئت أن أسكره ببدر الأموال، وأعيره لفلعت^(١٥٤). ولكن عمراً لم يقدر الصعاب التي قد تقف في سبيله، وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته لجيش جرار قدره المؤرخون بسبعين ألف، فغير تهر جيحون سنة (٣٨٧هـ/٩٠٠م) والتقى في "بلخ" من أعمال خراسان. ولكن دارت الدائرة على "عمرو بن الليث"، وحلت الهزيمة به وبجيشه، ووقع أسيراً في قبضة "إسماعيل بن أحمد الساماني"، بعد أن تسكنت شمل جيشه^(١٥٥) فقال قوله الشهيرة: "أصبحت أسيراً، وأمسيت أسيراً"^(١٥٦).

ولما علم الخليفة "المعتضد" بما حل بعمرو بن الليث من الهزيمة؛ سر غايصة السرور، وأشاد بفعل "إسماعيل بن أحمد"^(١٥٧). ويذكر خواندمير^(١٥٨): أن إسماعيل الساماني لم يكن راغباً في تسليم عمرو للخلافة، بل إبه لكرمه، وأحسن إليه، بعدما قبض عليه، إلا أن الخليفة المعتضد أرسل إليه يقول: "الرحمة لإسماعيل واللغة على

(١٥٢) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٦٨، ١٦٩.

(١٥٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٨٩.

(١٥٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٧.

(١٥٥) خواندمير: روضه الصفا، ص ٦٢.

(١٥٦) الكريزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٣١.

(١٥٧) خواندمير: روضه الصفا، ص ٦٢.

(١٥٨) روضة الصفا: ص ٦٢، ٦٣.

عمرو"، وأرسل الرسل بعد ذلك لإسماعيل ليسلمه عمرا. ولم يلبث أن سير إسماعيل "عمرو بن الليث" إلى الخليفة في بغداد، الذي أمر بحمله على جمل له سنامان، كان عمرو قد أهداه للخليفة من قبل، وأنخل إلى دار الخلافة مشهرا ذليلاً، وعمرو رافع يديه بالتضرع والدعاء دهاء منه، حتى رقت له العامة، وأمسكت عن الدعاء عليه، ثم قام الخليفة بتوبيخه بقوله: "شكرا لله الذي أوقفك في يدي، وكفانا شرك" (١٥٩). ثم أمر الخليفة بحبسه في غرفة قد أعدت لذلك، وظل محبوسا بها حتى مات ودفن، وقيل إنه قتل (١٦٠). وأرسل "المعتضد" بالخلع إلى إسماعيل الساماني، وولاه ما كان بيد عمرو من البلدان، وأصبحت خراسان ضمن ممتلكاته (١٦١).

على كل حال كانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة التي أدت إلى سقوط الدولة الصفارية، وقيام الدولة السامانية على أنقاضها (١٦٢).

خلفاء "عمرو بن الليث" والخلافة:

كانت الأمور في الدولة الصفارية تمير بخطى سريعة نحو الانهيار، إذ انتقل حكم الصفاريين بعد أسر الأمير "عمرو بن الليث" إلى أحد أحفاده وهو "طاهر بن محمد بن عمرو" سنة (٢٨٨هـ/٩٠٠م)، وأرسل إليه الخليفة بالخلع بولاية فارس وسجستان، إلا أنه لم يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه. فقد وصفه المؤرخون (١٦٣) بأنه تشاغل باللهو والصيد، ولم يهتم بالملك، وقضى ليله ونهاره في الشرب، وترك الأمور كلها بيد أحد غلمان "عمرو بن الليث" المقيمين، ويدعى "سبك السبكري" (١٦٤).

ولما رأى كبار القادة والأمراء هذا السلوك خشوا من عاقبة الأمور، وقالوا له: لقد أخذنا هذا الملك بسيوفنا، فهل تريد أن تحفظه بلهوك، إن الملك لا يبقى بالهزل (١٦٥). ولكن طاهرا لم يعبأ بهذا الكلام، واستمر في لهوه، الأمر الذي مكن للسبكري من القبض عليه، وعلى، أخيه "يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث" سنة (٢٩٦هـ/٩٠٨م) وبعث بهما إلى بغداد تقربا إلى الخلافة، حتى تصفو له الأمور، ولا يبقى له شريك في الملك، وتغلب على البلاد، وضرب العملة باسمه (١٦٦). ظل السبكري

(١٥٩) السابق: ص ٦٣.

(١٦١) الكنديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٣١، ٢٣٢.

(١٦٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٩٩.

(١٦٣) تاريخ سجستان: ص ٢١١.

(١٦٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٣٢٢.

(١٦٥) خوانسمير: روضه الصفا، ص ٧٢.

(١٦٥) السابق: ص ٦٥.

(١٦٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٦٧.

بحكم سجستان، فضلا عن بلاد فارس، حتى طرده" اللوث بن علي بن الليث الصفار" فاستنجد السبكري بالخليفة "المقتدر بالله" فأمده بجيش استطاع أن يلحق الهزيمة بالليث سنة (٢٩٧هـ/٩٠٩م) ووقع في الأسر^(١١٧). ولم تلبث الخلافة أن واجهت ثورة جديدة بسبب عصيان السبكري، الذي امتنع عن إرسال الأموال المقررة عليه إلى بيت مال الخلافة، مما اضطر للخلافة لإرسال الجيوش للقضاء عليه، ولكن فشلت جميع الحملات التي شنتها عليه، حتى تمكن "أحمد بن إسماعيل الساماني" من الاستيلاء على سجستان، والقبض على "محمد بن علي بن الليث الصفار" الذي كان قد غلب على سجستان، ثم على "السبكري"، وبعث بهما إلى بغداد في سنة (٢٩٨هـ/٩١٠م) فأبخلوا ببغداد مشهرين على فيلين^(١١٨). ثم طارد "أحمد الساماني" جميع أفراد الأسرة الصفارية، حتى أسرمهم جميعا، ونكل بهم، ومن ثم زالت الدولة الصفارية من الوجود، والتي لم يقتصر خطرها على إقليم المشرق الإسلامي، بل امتد خطرها إلى بغداد نفسها.

وهكذا زالت الإمارة الصفارية بعد عمر قصير، على الرغم من قوة جيشها، وحسن تسليحها وبرغم اتساع البلاد التي وقعت تحت يديها، واستلاء خزائنها بالأموال. ويعود السبب في ذلك إلى أن الصفاريين وجهوا جهدهم الحربي إلى الداخل، واتجهت أطماعهم إلى قلب نظام الحكم في عاصمة الخلافة، الأمر الذي أفقدهم تعاطف القوى المحلية في المنطقة، فضلا عن غضب الرأي العام الإسلامي. ولو أنهم وجهوا جهدهم العسكري إلى المجال الخارجي. واكتساب أقاليم جديدة، تدخل في حوزة الإسلام لكان خيرا لهم، ولاكتسبوا عطف الخلافة، وعطف مؤيديها، لكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بإمارتهم، وسقطوا سريعا.

والحقيقة أن ضعف الإمارة الصفارية وزوالها يعود إلى موقف الخلافة العباسية العدائي منها، إذ لم تدخر وسعا في القضاء عليهم، لاسيما بعد التعامل غير المسئول من جانب الصفاريين تجاههم، فضلا عن موقف السامانيين العدائي للصفاريين المدفوع من قبل العباسيين، كما كان لعصيان "سبك السبكري" غلام "عمرو بن الليث" أسوأ الأثر في التعجيل بانهيارها، وزوالها في النهاية من على مسرح التاريخ.

وأقول، كما قال الشافعي رحمه الله: (ألفت هذه الكتب ولم آل فيها، ولا يبد أن يوجد فيها الخطأ، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فما وجنتم في كتابي هذا، لو كتبي مما يخالف الكتاب والسنة، فقد رجعت عنه).

(١١٧) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٣٢٧.

(١١٨) الكنديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٣٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر

- ابن الأثير (ت - ٦٣٠هـ) على بن أبي الكرم.
- ١ - الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط ٣، بيروت، ١٩٨٨م.
- البلاذري (ت - ٢٧٩هـ) (الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري
- ٢ - فتوح البلدان، عني بمراجعته وللتعقيق عليه. رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣ م.
- البيهقي (ت - ٤٧٠هـ) أبو الفضل محمد بن حسين.
- ٣ - تاريخ البيهقي، ترجمه إلى العربية د/ يحيى الخشاب، وصالح نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦ م.
- ابن الجوزي : (ت - ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي
- ٤ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط ١ حيدر آباد ١٣٥٩هـ.
- ابن حوقل (ت - ٣٦٧هـ) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي
- ٥ - صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩ م.
- ابن خلدون (ت - ٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.
- ٦ - العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن خلكان (ت - ٦٨١هـ) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد.
- ٧ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- خواتمير (ت - ٩٠٣هـ) محمد بن خاوند شاه بن محمود.
- ٨ - روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة، ١٩٨٨م.
- السيوطي (ت - ٩١١هـ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر
- ٩ - تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤م.
- الطبري (ت - ٣١٠هـ) محمد بن جرير الطبري.
- ١٠ - تاريخ الأمم والملوك، دار المعارف، ط ٤ القاهرة، ١٩٧٦م.

= ابن العربي (ت - ٩٨٥هـ) غريغوريوس أبو الفرج بن هارون.

١١ - تاريخ مختصر الدول، دار الأفاق العربية ط١، القاهرة، ٢٠٠١م

= ابن كثير (ت - ٧٧٤هـ) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر.

١٢ - البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

= الكنديزي (ت - ٤٢٢هـ) / أبو سعيد عبد الحي الضحاك

١٣ - زين الأخبار، ترجمة: د/ عفاف السيد زيدان، دارا لطباعة المحمدية، القاهرة ١٩٨٢م.

مجهول المؤلف

١٤ - تاريخ سبستان، ترجمة: محمود عبد الكريم علي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م.

= المسعودي (ت - ٣٤٦هـ) علي بن الحسين بن علي المسعودي.

١٥ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وتقديم د. مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٥.

= ابن مسكويه (ت - ٤٢١هـ) أحمد بن محمد بن يعقوب.

١٦ - تجارب الأمم. تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط١، بيروت، ٢٠٠٣.

= المقدسي (ت - ٣٨٧هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر.

١٧ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

= ابن منظور (ت - ٧١١هـ) محمد بن مكرم المصري

١٨ - لسان العرب، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٦م.

= النرشخي (ت - ٣٤٨هـ) أبو بكر محمد بن جعفر

١٩ - تاريخ بخاري، ترجمة وتحقيق: د/ أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله الطرازي، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

= ياقوت الحموي (ت - ٦٢٦هـ) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي.

٢٠ - معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

ثانياً - المراجع.

= إبراهيم سلمان الكروي (دكتور)

- ١- التوبهيون والخلافة العباسية، دار العربية للنشر والتوزيع ط١ بيروت، ١٩٨٢م.
= أحمد المعيد سليمان (دكتور)
- ٢- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ م.
= حسن إبراهيم حسن (دكتور)
- ٣- تاريخ الإسلام السياسي، دار الجيل، ط ٨ بيروت ١٩٩٦م.
= حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف (دكتور)
- ٤- العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م.
= عباس إقبال .
- ٥- تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القلاجوية،
ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م .
= عصام عبد الرؤوف الفلي (دكتور)
- ٦- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧ م.
= فتحي أبو سيف (دكتور)
- ٧- الدولة العباسية والمشرق الإسلامي، دار المؤيد، الرياض، ط ١، ٢٠٠٧.
- ٨- خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنويين، مكتبة سعيد رافعت،
ط١ القاهرة ١٩٨٨م.
- سكي لستراتج
- ٩- بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرنسيس، كوركيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة،
بيروت ١٩٨٥م.
- = محمود عرفة محمود (دكتور)
- ١٠- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقتها بالخلافة العباسية دار الثقافة العربية،
القاهرة ٢٠٠٨م.

تاريخ المسلمين في فراكنيتوم

٢٧٧ - ٢٣٦٥ هـ / ٨٩٠ - ٩٧٥ م

د. وفاء مختار غزالي على (*)

بداية نزول المسلمين إلى فراكنيتوم عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م :

سنحاول في هذا البحث تاريخ المسلمين في فراكنيتوم Fraxinetum^(١) ذلك الموضوع الذي لم يزل يحظى الكافي من الدراسة سواء من الباحثين العرب أو الأوروبيين، وربما يرجع ذلك إلى ضائقة المطومات التاريخية الواردة عنه في المصادر العربية ولاتينية على السواء ففي الوقت الذي اكتفت فيه المصادر العربية بالإشارات المختصرة له ترى المصادر اللاتينية تمهيد بعض الشيء لكن تورد أخباراً مختلطة يغلب عليها التحامل على المسلمين وتشويه تاريخهم في تلك المنطقة ووصفهم - كما اعتادت دائماً - بالقرصنة واللصوصية والاعتداء على الأرواح والمفاسد دون مراعاة للأجيان أو الأعراف.

أطلق المؤرخون العرب اسم جبل القلل على الحصن أو القلعة التي اتخذها المسلمون قاعدة لهم لشن هجماتهم على غرب أوروبا في الوقت الذي أطلق عليها

(*) مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر

(١) يجب أن نشير إلى أننا نعرف القليل جداً عن هذه الدولة التي استمرت نحو خمس وثلاثون عاماً وعن نظام حكمها وعن قائلتها ومؤسسيها، فالخوض يحيط بتاريخها بصفة خاصة وتاريخ مملكة البروفانس التي كانت فراكنيتوم جزءاً منها بصفة عامة خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي فليس هناك سجل محلي بدون ذلك التاريخ بل إشارات عابرة جاءت ضمن سجلات بعيدة عن ذلك الموضوع وغير دقيقة كذلك كان الوقوف على تاريخ المسلمين في تلك المنطقة صعباً ويشويه الريب.

Previte - Orton, Italy and provence 900-950, The English Historical Review, Vol. XXXII, July, 1917, P. 335.

عبدالرحمن على الحجي، العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية (١٣٨-٢٣٦٥ هـ / ٧٥٥-٩٧٦ م) دراسة تاريخية، أبوظبي، الإمارات المتحدة العربية، ٢٠٠٤ م، ص ٢٧٤.

المؤرخون الأوروبيون فراكسنيوم؛ فقد ذكر ابن حوقل "ولجبل اللال الذي بنواحي إفرنجة بأيدي المجاهدين عمارة وحرث ومياه وأراضي تقوت من لجأ إليهم، فلما وقع عليه المسلمون عمرّوه وصاروا في وجوه الإفرنجة والوصول إليهم ممتنع لأنهم يسكنون في وجه الجبل فلا طريق إليهم ولا متسلك عليهم إلا من جهة هم منها آمنون ومقداره في الطول نحو يومين^(١)."

أما الأصطرخي فيقول: "وأما جبل اللال فإنه كان جبلاً فيه مياه خرازة فوقه إليه قوم من المسلمين فعمروه وثاروا في وجوه الإفرنجة لا يقدر عليهم لامتساع مواضعهم ومقداره في الطول يومان^(٢)."

اختلف المؤرخون الأوروبيون في موقع فراكسنيوم التي احتلها المسلمون فترة طويلة فالفرنسيون يذكرون أنها في خليج سانت تروبيز St. Tropez وهو المعبر بين فرنسا وإيطاليا بالقرب من جبل السور. أما المؤرخون الإيطاليون فيذكرون أن موقع فراكسنيوم في البروفانس بالقرب من آرل أو خلف جبال الألب وآخرون يعتقدون أنها تقع في شبه جزيرة S. Ospizio قرب نيس (نيقه) Nice. لكن من المرجح أن موقعها هو نفس الموقع الذي تقع عليه حالياً قرية لاجارد فريبنه La Garde - Freinet في سفوح جبال الألب في البروفانس جنوب شرق فرنسا على خليج سانت تروبيز بين هيرير Hyeres وفريجوس Frejus^(٣).

يعتبر ليتويراند أسقف كريمونا Lluodprand of Cremona (٩٢٠-٩٧٢م) الذي عاش في القرن العاشر الميلادي شاهد عيان لكثير من الأحداث التي أرخ لها وتختص بتاريخ المسلمين في فراكسنيوم. ولقد اشرف بذكر تفاصيل كيفية وصول المسلمين واتخاذهم فراكسنيوم قاعدة لهم في عام ٢٧٧هـ/٨٩٠م فيقول: "بناءً على إرادة الله التي لا يدرك سرها، فقد جاء عشرون مسلماً في مركب صغير من سواحل أسبانيا قذفت بهم الريح فاضطروا للهبوط رغماً عنهم في خليج سانت تروبيز في البروفانس فنزلوا إلى البر في جنح الليل على عادة اللصوص وتسللوا

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة القاهرة، د. ت، ص ١٨٥.

(٢) الاصطرخي، مسالك الممالك، مطبعة بريل، لندن، ١٩٣٧، ص ٧١.

(٣) Gallega, S. History of piedmont, London, 1955, P.149.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, Paris, 1836. p.160.

- Kaepfen Adolphus, The World in the Middle Ages New York, M. Dccc. LIV (1854), P.52.

- Setton K.M, A History of the Crusades, Vol.1, Wisconsin, 1969, P.51.

إلى قرية تروبيرز وفتكوا بأهلها المسيحيين واستولوا على المكان، ثم اتخذوا الجبل المسمى موروس Maurus معقلاً لهم ليكونوا في مأمن من أعدائهم وللتصدي لهجمات جيرانهم ، وكان هذا الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التي كانوا يحتشون بأشواكها وأنفاقها ولم يجرؤوا فيها سوى مراراً ضيقاً جداً لأنفسهم يمرون منه وما عداه أصبح مستحيل، وهذا المعقل سُمي فراكسيتوم ويحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة متشابكة الأغصان ومن أراد الدخول عرقلته الأشواك الحادة مثل: "السيف" أو "الحراب" فلا يستطيع أن يتقدم أو أن يتأخر، فأمنوا في هذا المعقل المنيع وصار لهم مركزاً يهجمون منه على الجهات المجاورة بدون خوف واثقين في مناعة معقلهم هذا ثم أنفذوا رسولاً إلى أسبانيا ليرغب الآخرين من رفاقهم في الالتحاق بهم، فمدح الرسول المكان وأطمع الناس فيه، وقال إن أهالي تلك البلاد لا يخشون بأسهم وليسوا بقوة، فلم يلبث إلا قليلاً حتى عاد ومعه مائة رجل من المسلمين جاءوا ليتحققوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نجعته^(٥).

يتضح مما ذكره ليوتوبراند طبيعة فراكسيتوم ذلك المكان الحصين الذي يمتد بين التلال والغابات والذي امتاز بمميزات طبيعية خاصة، فالبحر كان للمسلمين باباً لتلقي الإمدادات التي يحتاجون إليها والبر كان منفذاً إلى النواحي التي يريدون الإغارة عليها والغابة المتشابكة ذات الأحرار والأشواك كانت لهم معقلاً يلجئون إليه عند الضرورة؛ مما جعل فراكسيتوم بمنأى عن التهديدات الخارجية وملائماً للتصدي لأي محاولة تستهدف الوصول للمسلمين والقضاء عليهم؛ مما جعلهم آمنين في سربهم وأدى إلى استقرارهم هناك وتوسعهم فلم تمض أعوام قليلة حتى أنشأوا لهم سلسلة من المعازل والحصون التي تمتاز بالقوة والمناعة واستطاعوا من خلالها شن الهجمات على المناطق المحيطة بعد أن سيطروا على الساحل الجنوبي للبروفانس فجتاحوا مغانم كثيرة من تلك البلاد الخصيبة مما أدى إلى توسيع ممتلكاتهم ونفوذهم واستمرار وجودهم ككيان إسلامي قوي يبت الرعب والذعر في مناطق غرب أوروبا لمدة خمس وثمانون عاماً تقريباً^(٦).

(٥) Liudprand of Cremona, The Works of Liudprand of Cremona, ed., Bekker, Trans, Wright. F. A., London, 1930, Antapodosis, Book1, Chapter 3, PP.33-34.

(٦) Rênaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 161.

- Previte - Orton, The Early History of The House of Savoy , University Press of Cambridge, 1912, P.5.

- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٢ هـ، ص ١٦١.

اختلف المؤرخون في ماهية المسلمين الذي استقروا في فراكنيتوم قبيما ينظر إليهم المؤرخون المسلمون على أنهم مجاهدون مسلمون استطاعوا أن يفرضوا سياستهم ويؤسسوا حصناً قوياً للإسلام في غرب أوروبا اتخذوا منه مركزاً ثابتاً ومستقراً لغزو جنوب فرنسا وشمال إيطاليا حتى حدود ألمانيا^(٧)، إلا أن المؤرخين الأوروبيين ينفون عنهم ذلك (تلك الصفة) ويصفونهم بالقرصنة ويذكرون أن أهدافهم لم تكن دينية وأن الهجمات التي قاموا بها لم تكن ذات مغزى سياسي ولا ترمي إلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية وقصارى ما كانت ترمي إليه هو أن تستولي على الغنائم وتتهب الأكرية والمدن، والمعازل ويعتبرونهم جاليات مرتزقة مستقلة استقلت الفوضى والنزاعات المحلية للبلاد فقامت بالسرقة والنهب في ريف البروفانس وفي المياه الساحلية للبحر المتوسط بدليل أنهم لم يخلفوا وراءهم أية وثائق خاصة بهم تزيل اللغوض عن أصلهم وعن حجمهم وهذفهم ووضعهم السياسي^(٨).

نلاحظ من رواية المؤرخ المعاصر ليتويراند أن عدد المسلمين الذين استقروا في فراكنيتوم كان قليلاً جداً ولنا أن نتساءل كيف استطاعت هذه المجموعة الصغيرة أن تنشأ لها معقلاً قوياً ظل يمثل مصدر رعب وذعر لغرب أوروبا مدة

- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ترجمة شكيب أرسلان، ضمن كتاب تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، ص ٢٤٥.

(٧) محمد مرسى الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ١٩٨١م، ص ١٩٠-١٩١.

- عبدالمعظم رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١٩٨-١٩٩.

- علي بن المنتصر الكتاني، المسلمون في أوروبا وأمريكا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٥، ص ١٩٩.

- عبدالمعظم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م، ص ١٠٥.

(٨) Bruce, An abbot between two Cultures, Malolus of Cluny Considers The Muslims of La Garde – Freinet, Early Medieval Europe, Journal Compilation, 15, (4), Oxford, 2007, PP. 431-432.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٤٥-٢٤٦.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, pp.161 – 163

لكن بالنظر إلى الأحوال السياسية العامة لتلك البلاد نجد أن النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي شهد انهيار إمبراطورية الفرنجة الموحدة وتقسيمها إلى عدة ممالك مستقلة ذاتياً فبالإضافة إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا - الممالك الثلاثة الكبيرة - نشأت عدة كيانات صغيرة مستقلة كان منها برجنديا والبروفانس في جنوب فرنسا والتي نشأت عندما ضعفت السلطة المركزية في فرنسا فاندلع الصراع بين النبلاء والسلالة الكارولنجية مما أدى إلى قيام الثورات في تلك المنطقة واستغلال النبلاء تلك الفوضى في الخروج على السلطة وإعلان الاستقلال، فقد أعلن أحد النبلاء ويسمى بوزو Boso استقلاله بولايته الدوفيني Dauphiny والبروفانس Brovence، ولقب نفسه بملك آرل فتصدى له بعض المنافسين الطامعين في السلطة مما أدى إلى اندلاع حروب أهلية وصراعات داخلية استغلها المسلمون ووجدوا فيها فرصة كبيرة لغزو واحتلال تلك المناطق^(٩). التي تركت للدفاع عن نفسها^(١٠).

ولقد وجد المسلمون الفرصة مواتية ليس للإغارة والعودة محملين بالغنائم والأسرى فقط وإنما للاستيلاء والاستقرار في جهات كثيرة من جنوب فرنسا وحفزهم على ذلك ما كان بين أهل البلاد من الشقاق والتنافس وقتل بعضهم البعض مما جعلهم في غفلة عما يحيط ببلادهم من خطر للمسلمين حتى أنهم استعانوا بهم في قتل بعضهم البعض وبذلك ازدادت وطأة المسلمين في تلك الجهات وازداد

(٩) Reinaud, *Invasions, des Sarrazins en France* P. 158.

- Chambers R., *Medieval History*, London, 1855, PP. 74-75, Gibbon. E, *The History of The Decline, and fall the Roman empire*.vol. 6 , Boston ,1854. p. 324.

- Previte - Orton, *The Early History of The House of Savoy*, PP.1-4.

- محمد عبدالله عان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، مكتبة الختاجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٧، ط٥، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م، ص٤٦٧.

- Comyn R., *The History of the Western Empire*, Vol.1, London, 1841, P.88.

(١٠) Gregorovius, *History of the City of Rome In The Middle Ages*, Translated from the fourth German edition by Hamilton A, vol. III, London, 1895, Book VI, Chapter1, P,262.

عدهم بالتعزّزات المستمرة التي كانت تأتي لهم من أسبانيا حتى أصبحوا قوة كبيرة وهاجموا المناطق المحيطة وثبتوا أقدامهم فيها^(١١). واستقروا في هذه الأقاليم وتزوجوا من نساءها وقاموا بزراعة الأراضي ولم يسمع الحكام المحليون إلا أن يسلموا بالوضع الجديد واكتفوا بجباية الضرائب منهم^(١٢).

اجتياز مسلمي فراكنشتيوم جبال الألب والتوغل في أراضي إيطاليا وسويسرا

بدأ المسلمون بشن هجماتهم في التواخي القريبة منهم في البروفانس حتى نمت شوكتهم وأصبحوا قوة يخشى بأسها وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يطلبون مساعدتهم فلبوا الدعوة بعد أن رأوا في ذلك فرصة لفرض نفوذهم وتوسيعهم فيما حولهم وأعلنوا أنفسهم سادة في الانحاء المغلوبة وبشوا الذعر والرعب في جنوب البروفانس لما امتازوا به من القوة والبأس وكانت هذه أول خطوة في توسع المسلمين في جنوبي فرنسا والتي استندت إلى مركز ثابت مستقر استطاعوا من خلاله الوصول إلى بلاد الدوقيني لفرض سيادتهم على جنوبي فرنسا والاتلاق إلى غزو بيمونت Piemont وسويسرة وشمال إيطاليا^(١٣).

(١١) Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book1, Chapter IV, P.34.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 161-162

- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٦٧-٤٦٨.

- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٤٥.

- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة، ص ١٦١.

(١٢) محمد مرسي النسيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأماويين في الأندلس، ص ٢٠١.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins, en France P. 179.

(١٣) Liudprand of Cremona, Antapodosis, BookII, Chapter XLIII, P.90.

- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.138.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص

٢٤٧-٢٤٦

بيمونت: إقليم إيطالي يقع غرب إيطاليا يحده شرقاً إقليم لومبارديا وغرباً فرنسا وإقليم ليجوريا Liguria وجنوباً وادي أوستا Aosta وسويسرة من ناحية الشمال

اخترق مسلمو فرانكنيتوم بلاد الدوفيني Douphine وتقدموا نحو جبال الألب شمالاً وغرباً وعبروا مونت سني Mont Cenis أهم معبر الألب الفرنسية واستولوا في عام ٩٠٦م/٢٩٩هـ على دير نوفاليزا Novalesa أشهر الأديرة وأغناها والذي يقع على مقربة من سوسا Susa بحذاء جبل سنيس Senis على حدود بيمونت فهرب الزهبان حاملين معهم ما في الدير من النفائس ومن جعلتها خزائن الكتب النفيسة وأغار المسلمون على المناطق المجاورة ونهبوها ودارت اشتباكات بينهم وبين سكان تلك المناطق أدت إلى أسر بعض المسلمين واقتادهم إلى تورينو Turin بإيطاليا حيث تم اعتقالهم في دير القديس أندرواس إلا أنهم استطاعوا أن يحطموا القيود وأشعلوا النيران في الدير وفي المدينة وفروا عائددين إلى زملائهم^(١١).

اشتد بأس المسلمين في تلك الأثناء واحتلوا معظم معبرات جبال الألب فسيطروا بذلك على الطرق التي تربط بين فرنسا وإيطاليا وعالت إيطاليا من هجماتهم حتى أغلقت وديان الألب والطرق العظيمة والأديرة الغنية ثم انحدروا من

CanderJ., Dictionary of Geography, London, 1834, p. 526

الدوفيني: هي مقاطعة فرنسية تحدها سافوى Savoy وهي عبارة عن سلاسل جبلية تمتد من جبال الألب إلى وادي الرون Rhon، ومن أهم أنهار الدوفيني بالإضافة إلى نهر الرون نهر ايسر Isere، والذي يصب في سافوى ونهر دورانس Durance، ونهر دروم Drome، وأهم المدن هي فيينا Vienne، وجرينوبل Grenoble وفالينسيا Valence وجاب Gap

- Cander, Dictionary of Geography, p185.

(١٤) Chronicon Novaliclenes, Monumenta Germaniae Historica Recudi Fecit, VII, ed. Pertz, Hannoverae, 1846, libri IV, PP.59-60.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 163.

- تورينو هي مدينة تقع شمال غرب إيطاليا وتحديداً على الضفة الغربية لنهر البو PO وهي عاصمة إقليم بيمونت. Cander, Dictionary of Geography, PP. 576-677.

آكام الألب إلى سهول بيمونت واخذوا في شن الغارات على سهولها^(١٥).

أغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا والذي كان يمر به آلاف الحجاج قاصدين روما ولم يسمحوا لهم بالمرور إلا بعد أن يتقاضوا منهم الأموال الباهظة^(١٦). وروى المؤرخ فلودوارد Flodoard أسقف ريمز (894-966م) أن المسلمين في عام 921م أتوا على قافلة حجاج إنجليزية كانت ذاهبة إلى روما فلحقوها في بعض أودية الألب واستأصلوها وبعد ذلك بعامين لقوا قافلة إنجليزية أخرى ففتكوا بها ثم أنهم في عام 929م تصدوا للقافلة أخرى من الحجاج فاضطرت إلى الرجوع قبل الوقوع في أيديهم^(١٧).

⁽¹⁵⁾ Previte – Orton, Italy in The Tenth Century, In The Cambridge Medieval History, Vol. III, New York, 1922, Chapter VII, P.152.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 163.

- عبدالعظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا منذ ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، ص ٢٠٠. محمد عبدالله عثمان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٦٨.

⁽¹⁶⁾ Robertson, History of The Christian Church, Vol. II, Third edition, London, 1868, P. 420.

- Previte – Orton, Italy in The Tenth Century, In Cam. Med. His, Vol. III, P.152.

- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٤٨.

⁽¹⁷⁾ Annales de Flodoard, ed. Lauer ph., Paris, 1905 a. 921, P.5-6, a.923, P.19, a. 929, PP.43-44.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٤٨-٢٤٩.

بالغ المؤرخون الأوروبيون في وصف الهجمات التي قام بها مسلمو فرانكيوتوم وما نجم عنها من تكتول بالأهالي والسكان؛ لذا لابد من توخي الحذر عند تعاملنا مع هذه الروايات خاصة وأن مؤرخي ذلك العصر كانوا من القساوسة ورجال الدين الذين غلب عليهم النظرة العدائية للإسلام والمسلمين لكن ذلك لا يجعلنا نرفض كل ما جاءت به هذه الروايات والأجدر بنا أن نشير إلى تباعد مسلمي فرانكيوتوم عن الأهداف الدينية الجبلة التي نادى بها الإسلام وهي الجهاد في سبيل الله واقتربهم إلى حد كبير من الأهداف الدنيوية والعمل على الفوز بالمغانم والأسلاب وجعلها هدفاً سياسياً وما يدل على ذلك ما أشرت إليه المصادر من منعهم الحجاج الذاهبين إلى روما من المرور لأداء المناسك المقدسة وغير ذلك من الأعمال التي يرفضها الإسلام والعقيدة القويمة.

اتسعت أراضي مسلمي فرانكنيتوم حتى أنها امتدت إلى الشمال والشرق واستولوا على ممر سانت برنارد العظيم وأسسوا مستوطنات لهم في سانت موريس St. Maurice وشمالى لومبارديا في إيطاليا وسانت جال St.Gali وخور كور Chur في سويسرة^(١٨).

استمر مسلمو فرانكنيتوم في التقدم إلى أواسط أوروبا فاندفعوا بهجماتهم إلى بيمونت ومونتفاتر Montferrat في إيطاليا فيخبرنا مؤرخ دير نوفاليزا أنهم وصلوا في أوائل القرن العاشر الميلادي إلى حدود ليجوريا Liguria في إيطاليا على شاطئ خليج جنوة^(١٩). كما يذكر المؤرخ ليتوبراند أن مسلمي فرانكنيتوم قاموا في عام ٩٠٦م بغزو مدينة أكي Aquì من أعمال مونتفاتر الشهيرة بحماستها المعدنية وأنهم قاموا بغزوها مرة أخرى عام ٩٣٥م بقيادة زعيم لهم يدعى ساجيتوس Sagittus لكنهم هزموا وأنهم دخلوا جنوة وقتلوا ونهبوا وأسروا كثير من النساء والأطفال وروعوا المنطقة بأسرها^(٢٠).

استمرت المراسيا الإسلامية في الهبوط على سواحل فرنسا الجنوبية لاسيما البروفانس للإغارة والاستيلاء على الأموال والغنائم فقد كانت الأبيرة والكنائس تخلص بالأموال والتفانس لذلك كانت مطمح أنظارهم ففي عام ٩٠٨م/٢٩٦هـ هبطت سرية قوية من البحارة المسلمين على شاطئ البروفانس وانتشرت في جميع الأنحاء المجاورة ونهبت الأبيرة واجتاحت ما في طريقها من الأراضي وهاجمت مرسيليا وهدمت كنيستها وغزت أيكس Aix وأسرت النساء للزواج منهن وهجر

(١٨) Previte-Orton, The Early History, of the House of savoy P.5.

- Robertson, History of The Christian Church, Vol. II, P. 420.

فريدناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٤٩-٩٥٠.

عبد الرحمن على الحجى: العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا الغربية، ص ٢٧٢.

(١٩) Chronicon Novalicienes, libri IV, P.67.

- Sismondi J., History of The Italian Republics in the Middle Ages, London, N. d, P.24.

ليجوريا: أحد الأقاليم الإيطالية يقع في غرب البلاد ويطل على البحر الليجوري جنوباً ويحده شمالاً إقليم بيمونت وشرقاً القليم إميليا رومانيا وتوسكانيا Tuscany وعاصمته جنوة.

- Cander Dictionary of Geography, P. 362.

(٢٠) Liudprand of Cremona, Antapodsis, Book II, Chapter XLIII, P.90, Book IV, Chapter IV, P.144.

- مدينة أكي Aquì مدينة إيطالية تبعد حوالي خمسين ميلاً من بافيا شمال إيطاليا.

- Liudprand of Cremona, Antapodsis, Book IV, Chapter IV, P.144.

الأهالي حصونهم وقصورهم خشية القتل والأسر فاحتلتها المسلمون^(٢١).

هاجم المسلمون في عام ٩٣٠م/ ٣١٨هـ فريجوس Frejus أكبر وامنع ثغور فرنسا الجنوبية^(٢٢). وكذلك ثغر تولوز فهرب السكان إلى الجبال، وفي عام ٩٣٩م/ ٣٢٧هـ غزا المسلمون منطقة فاليس Valais في جنوب سويسرة ونهبوا أديرتها واتخذوها قاعدة لهم للإغارة على المناطق المحيطة في سويسرة وإيطاليا ومنها اخترقوا منطقة جريزون Grisons إلى وسط وشرق سويسرة^(٢٣). حتى وصلوا في غزواتهم إلى بحيرة جنيف وجاوزوها إلى مزارج جورا Jura الواقعة في شمالها المتاخمة لبرجنديا ، وتوسط المسلمون في المناطق الفسيحة بين بحيرة كونستانس Constance في الشمال الشرقي من سويسرة وبين مدينة كور Chur في شرق سويسرة^(٢٤).

اشتدت وطأة المسلمين في تلك النواحي وعاثوا في الجهات المجاورة وأنزلوا الخراب والدمار بالمدن والحصون وأضرعوا النيران في الأديرة والكنائس وحملوا معهم الغنائم والأسلاب وبلغ السفط من هجماتهم ذروته^(٢٥). إلا أنه لم يكن هناك من يستطيع التصدي لهم وفشلت المحاولات الأوربية في مقاومتهم فلقد ضلعت

(21) Reinaud, *Invasions des Sarrazins en France*, P. 166.

محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٦٨.
محمد مرسى الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ١٩٤.

(22) Reinaud, *Invasions des Sarrazins en France*, P. 167.

- Daniel N., *The Arabs and Medieval Europe*, London, 1975, P.52.

- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٦٩.
- عبد العظيم رمضان ، الصراع بين الغرب وأوروبا ، ص ٢٠٠ ، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول ، القسم الثاني ، ص ٤٦٩ .

(23) Reinaud, *Invasions des Sarrazins en France*, P. 172.

(٢٤) محمد مرسى الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين ، ص ٢٠٠-٢٠١.
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس في العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٦٩.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٥١-٢٥٢.

(25) *Chronicon Novaliciensis, libri IV*, PP.59-60.

محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٦٩.
محمد مرسى الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ١٩٥.

السلطة المركزية في المقاطعات وكان لكل بلدة قلعة غير محصنة وتركزت الأديرة للدفاع عن نفسها^(٢٦). وحارب القادة منفردين في الوقت الذي كان يجب توحيدهم لمواجهة ذلك الخطر لكنهم تشغلوا بمنافسة بعضهم البعض ومنافسة الملك في الوقت الذي انضم إلى المسلمين عدد من سكان تلك المناطق بالإضافة إلى الأمراء الذين استعانوا بهم في قتال بعضهم البعض^(٢٧).

وبذلك نرى أن نفوذ مسلمي فراكنسنيوم امتد خلال القرن العاشر الميلادي، الرابع الهجري إلى مناطق البروفانس وسافوي Savoy وسويسرة وسيطروا على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين جنوبي فرنسا ولومبارديا في شمال إيطاليا وبينها وبين سويسرة واستولوا في سويسرة على ولاية فاليس وبعض جهات كور واحتلوا في إيطاليا ولاية ليجوريا بعد أن اخترقوا إلى ييمونت ومونتفرات بإيطاليا وأنشأوا مراكز وقواعد وحصونا لتكون نقط انطلاق لهم في شمال إيطاليا وسويسرة مثلما فعلوا في البروفانس وجنوبي فرنسا حتى أصبحت البلاد الواقعة بين نهري البو Po والرون Rhon مجالا لغاراتهم^(٢٨).

المحاولات التي قامت بها القوى المسيحية الغربية للقضاء على مسلمي فراكنسنيوم

أثارت الإغارات التي قام بها مسلمو فراكنسنيوم وما تبعها من تدمير وتخريب ضد مناطق جنوب فرنسا وسويسرة وشمال إيطاليا حقن الشعب المسيحي بصفة عامة والحكام بصفة خاصة وقامت عدة محاولات للقضاء على المسلمين في تلك الجهات لكنها لم تحقق الأهداف المرجوة منها وكانت أولها ما قام به

(26) Gregorovius, History of the City of Rome, Book VI, Chapter1, P. 262.

(27) Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, P. 152.

- Bruce, An abbot between two Cultures, P. 430.

- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا، ص ١٦٩، عبد الرحمن على الحجى، العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا الغربية، ص ١٧٣.

(٢٨) محمد عبد الله خان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٧٠.

- محمد مرمي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ٢٠١-٢٠٣.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٤٧.

- Keappen., The World in The Middle Age, P. 52.

- سافوي Savoy: منطقة في أوروبا الغربية تقع بين بحيرة جنيف Geneve في الشمال وموناكو Monaco وساحل البحر المتوسط في الجنوب وكانت تابعة لمملكة برجنديا في تلك الفترة

- Cander., Dictionary of Geography, P. 574.

البيزنطيون عام ٩٣١م/٣١٩ هـ إذ استطاع الأسطول البيزنطي أن يهاجم معقل المسلمين في فراكنستيم على ساحل البروفانس وهو المعقل الذي ربما كان المسلمون يتصدون منه لتجارة المدن الساحلية الإيطالية إلا أن هذا الأسطول فشل في تحقيق أهدافه ولم تؤد هذه المواجهات إلى نتائج حاسمة بسبب حاجة الأسطول إلى مساعدة من القوات البرية^(٢٩).

أدى الضعف السياسي لإيطاليا إلى زيادة الطامعين في عرشها فقام هيو كونت البروفانس بالاستيلاء على عرش المملكة اللومباردية وذلك بناء على استدعاء الإيطاليين له وتوج ملكاً عام ٩٢٦م^(٣٠).

ازدادت هجمات مسلمي فراكنستيم على معرات الألب الغربية وازداد صريح رعايا الملك هيو مما عاثوه من عيث العرب فصحت عزمته للقضاء عليهم ومهاجمة حصنهم المنيع فراكنستيم الذي يلونون به ويتخذون منه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع الأندلس من ناحية ومع أفريقيا من ناحية أخرى ومركزاً للهجوم على الجهات الداخلية^(٣١).

(29) Annales de Flodoard, a. 931, P.47.

- Liudprand, Antapodosis, Book IV, Chapter 4, P. 144.
- Previte – Orton, Italy in The Tenth Century, In (Cam. Med. Hist., III), P.155.

أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد عيسى مراجعة وتقديم محمد شفيق غريال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، دت، ص ٢٣٤.

(30) Regesta Chronologico– Diplomatica Karolorum, ed. Bohmer, Frankfurt, 1833, P. 129.

- Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book III, Chapter XII, P. 114.
- Arnulf of Milan, The Book of Recent Deeds, Trans by North N.w, From The Edition of Claudia Zey (MGH. Scriptores Rerum Germanicarum 67), Hannover, 1994, Book1, Chapter1.

(٢٩) محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٦٩.

- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ١٩٦.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 176.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على مويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٥٣.

لذلك أرسل الملك هيو إلى القسطنطينية للتحالف مع الامبراطور البيزنطي رومانوس الأول ليكابينوس^(٣٢) Romanus Lecapenus (٩٢٠-٩٤٤م) ضد مسلمي فراكسيتيوم الذين ازدادت هجماتهم على ممرات الأناب حتى وصلت إلى سوابيا كما أنهم أزجروا البيزنطيين بحراً أيضاً ولطلب منه امداده بالآثار الإغريقية التي تحرق السفن وأراد هيو تطويق المسلمين من ناحيتي البر والبحر فعندما يقوم هو بمهاجمتهم يراهم يقوم البيزنطيون بحصارهم بحراً وبذلك يمنع بالكامل وصول أي امدادات غذائية أو عسكرية لهم من أسبانيا^(٣٣).

(٣٤) ارتبط الملك هيو بعلاقات وطيدة مع القسطنطينية وذلك بخلاف ما عرف عن طبيعة العلاقات العدائية التي غلبت على الفترات السابقة بين حكام إيطاليا والأباطرة البيزنطيين وربما يرجع ذلك إلى حاجته لتدعيم حكمه فقد كان يعاني اضطرابات كثيرة ومنافسين له لذلك عمل على التحالف مع الامبراطور البيزنطي بعد أن مكن البيزنطيين مع استعادة أملاكهم المفقودة في أبوليا في جنوب إيطاليا وأكد هذا التحالف بزواج ابنتيه من الامبراطور البيزنطي القائم رومانوس الثاني Romanus II وقد استجاب البيزنطيون لطلب هيو في التحالف ضد المسلمين لأنهم عاقوا أيضاً كثيراً من هجمات المسلمين على أملاكهم.

- Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book V, Chapter XIV, P. 184.
- Previte - Orton, Italy In The Tenth Century, In (Cam. Med. Hist. III), P.155.

(٣٥) Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book V, Chapter IX, PP. 181-182.

- Annales de Flodoard, a. 942, P.84.
- Reinaud, Invasions des Sarrasins en France, PP. 176-178.

النار الإغريقية اختراع لمهندس يوناني من أصل سوري يدعى كاليبتوس

والنار عبارة عن مخلوط كيمائي قابل للاشتعال يجرى قذفه بتأبيب خاصة فإذا احتك بسفينة العدو اشتعلت واحترقت ومن خصائص هذه النيران أنها تستعمل في الماء.

Oman, C. A history of The Art of War in The Middle Ages, vol .2, London 1924, pp.206- 209

لويس أرشيبالد القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى القاهرة ١٩٦٠ ص ٩٧

وافق البيزنطيون على خطة الملك هيو لذلك جمع هيو جيشه عام ٩٤٢م/ ٣٣١هـ ومضى براً من ناحية بافيا في شمال إيطاليا ووصل الأسطول البيزنطي إلى خليج سانت تروبيز St. tropez على ساحل البروفانس وحاصر سفن المسلمين واستطاع حرقها بالنار الإغريقية مما أدى لتدميرها بالكامل في الوقت الذي استطاع الملك هيو وجيشه أن يشق طريقه بالقوة إلى حصنهم المنيع وأرغم المسلمين على التراجع إلى جبال المور (موروس) المجاورة والاعتصام بالآكام والربي وكانت النتائج تنذر بالقضاء الحاسم على مسلمي فرانكسيتوم واستتصال شأفتهم إلا أن الظروف التي كانت تمر بها إيطاليا حالت دون ذلك وأدت للفشل المحاولة الثانية للقضاء عليهم^(٣٤).

كان برنجار الثاني Brenger II ماركيز الفريال Ivrea الواقعة في شمال غرب إيطاليا منافساً قوياً للملك هيو في إيطاليا فهو الحفيد والوريث الشرعي للإمبراطور برنجار الأول (٩١٥-٩٢٤م)^(٣٥). وأراد الاستيلاء على العرش الإيطالي فقام الملك هيو بمحاولة قتله عندما رأى ازدياد نفوذه فهرب برنجار الثاني عبر المضائق الجبلية الوعرة لممر القديس برنارد العظيم^(٣٦). إلى دوقية سوابيا Swabia

(٣٤) Liudprand of Cremona, *Antapodosis*, Book V, Chapter XVI, PP. 186-187.

- Annales de Flodoard, a. 942, P.84.
- Reinaud, *Invasions des Sarrazins en France*, PP. 176-179.
- Previte - Orton, *The Early History of The House of Savoy*, P. 139.

(٣٥) استولى برنجار الأول حاكم ماركية فريولي وحفيد الإمبراطور لويس الثاني (٨١٤-٨٤٠م) من ناحية أمه جزيلا ابنه الإمبراطور- على حكم إيطاليا عام ٨٨٨م وتوج إمبراطوراً عام ٩١٥م وفي عام ٩٢٢م استدعى النبلاء الإيطاليون رودولف الثاني ملك برجنديا وطلبوا منه طرد برنجار والاستيلاء على العرش وحدث ذلك فعلاً وتوج رودولف ملكاً على إيطاليا في نفس العام وظل برنجار الأول محتجزاً في ملكه في ماركية فريولي حتى مقتله عام ٩٢٤م.

- *Regesta Chronologico, Diplomatica karolorum* PP. 122- 129.

(٣٦) يعتبر ممر القديس برنارد العظيم أهم وأعظم ممر خلال جبال الألب الغربية ويمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي لإيطاليا خلال فاليس الألب Valais Ales المعروفة سابقاً بالتيينين الألب Apenine Alps وتأتي أهمية هذا الممر من أنه يربط

الألمانية فاصطحبه بوقها إلى بلاط الملك أوتو الأول [Otto] (٩٣٦-٩٧٣م) ملك ألمانيا الذي استقبله استقبالا حسنا وأمدّه بالأموال والقوات التي تمكنه من دخول إيطاليا ومواجهة الملك هيو بعد أن حصل منه على قسم الولاء والتبعية^(٣٧)، وعندما علم الملك هيو بذلك عدل عن عداوة المسلمين المتحكّمين في تلك الطرق التي تربط بين إيطاليا وسوابيا إلى مسالمتهم لأنه كان يخشى أن يتمكن برنجار من جمع القوات من فرنسا وألمانيا وينقض على إيطاليا ويغتصب منه عرشه لذلك أثر مصالحه الخاصة على المصلحة العامة وأمر بعودة البيزنطيين إلى بلادهم وأوقف مشروعاته ضد المسلمين وأبرم معهم معاهدة ترتب عليها الاعتراف لهم بحق البقاء في مواقعهم في جبال الألب وممراتها بشرط أن يمنحوا خصمه برنجار الثاني من المرور إذا حدث وقاد جيشه خلال ذلك الطريق إلى إيطاليا^(٣٨).

بذلك افتتح الملك هيو بانه من الأفضل له محاربة المسلمين واتخاذهم سندا له ضد منافسه برنجار الثاني وذلك لمعرفة المسلمين بتلك المناطق بعد أن ترمسوا

بين سويسرة Switzerland وإيطاليا عن طريق إقليم فاليس السويسري ووادي أوستا الإيطالي Aosta وبذلك يعتبر الممثل الرئيسي الإيطالي.

- The Columbia Encyclopedia, Second Edition, New York, 1950, PP. 1731- 1732.

(٣٧) Widukindi Monachi Corbeiensis, Rerum Gestarum Saxonicarum, Liber Tres, ed. Lohman, MGH, Hannoverae, 1935, Liber III, Chapter II, P. 110, Liudprand, of Cremona Antapodosis, Book V, Chapter X-XII, P. 182-184.

- Gregorovius, History of the City of Rome Vol. III, Book VI, Chapter2, P.320.

(٣٨) Liudprand, Antaposis, Book V, Chapter XVII, P. 187.

- Annales de Flodoard, a. 942, P.84.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 176-179.

- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P. 139.

- محمد عبدالله عزان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٧٠.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٠٤.

- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, in (Cam. Med. Hist. III), P.155.

على الحرب بها والتحكم في دروبها وممراتها والمناطق المجاورة وغذى بوسعهم إغلاق هذه الممرات في وجه من يريدون^(٣٩). وكانت نتائج المعاهدة التي أبرمها هيو ملك إيطاليا في صالح مسلمي فراكنسنيوم فلقد جاءت كاعتراف من السلطة الإيطالية بشرعية وجودهم في مواقعهم لذلك استعادوا قلاعهم وحصونهم وسيادتهم في جنوب البروفانس وازدادت جرتهم واستقرت أقدامهم في البلاد كأنهم سيلبثون فيها أبداً وواصلوا مشروعاتهم للتوسعية في تلك الجهات وزادت سيطرتهم على ممرات الألب وفرضوا المكوس والضرائب على المسافرين وتقدم المسلمون بعد ذلك إلى نيس أونيفة التابعة يومئذ لمملكة آرل ولا يزال إلى اليوم حي يعرف بحي العرب Canton des sarrazims ثم نفذوا إلى المناطق التي تجري فيها روافد نهر الرون بعد أن استولوا على جرينوبل Grenoble وواديها الخصيب وشكلوا عنصراً هاماً في الأحداث في تلك الأثناء بعد أن تزوجوا من السكان المحليين وأخذوا يزرعون ويحراثون الأرض كمسائر الفلاحين وأصبحت لهم سطوة بين السكان وتحكموا في المرور بين فرنسا وإيطاليا وبين سويسرا وإيطاليا^(٤٠).

قامت عدة محاولات أخرى لطرد مسلمي فراكنسنيوم منها ما قام به الأمراء والزعماء والأهالي في البروفانس بعد أن أدت إغارات المسلمين على المناطق المجاورة إلى تأليب سادة هذه الجهات لحربهم ومحاولة طردهم من مستعمراتهم الجديدة، فقد جمع كونت البروفانس وبعض سادة المناطق المجاورة قوات كبيرة وانلقوا على مواجهة المسلمين والقضاء عليهم^(٤١).

ويذكر مؤرخ دير نوفاليزا تفاصيل ذلك قائلاً: "إن العرب كان يسيرون النساء والأطفال والخيول وغير ذلك وكان قد دخل معهم أفاق يدعى أيمون Aymon طمعاً في الغنائم وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة فائقة الجمال فاستأثر بها أيمون لنفسه، فجاء أحد زعماء المسلمين وانتزع تلك الجميلة من يد أيمون بالقوة فغضب وثار لانتقام منهم وذهب إلى الكونت روتبادس Rotbadus صاحب السيادة في

(٣٩) محمد مرسى الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ١٩٧.

(٤٠) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 180-181.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر، ص ٢٥٤.

٢٥٥.

- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا، ص ٢٠١.

- محمد مرسى الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ١٩٨.

١٩٩.

(٤١) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 182.

- محمد مرسى الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ٢٠٢-٢٠٣.

البروفاتس العليا وأخبره سراً عن الرغبة في طرد المسلمين من البلاد وكان للمسلمين جواسيس في كل مكان فصل أيمن على إخفاء مخططة بكل وسيلة ممكنة حتى تمكن من استنفار الناس بدون أن يشعر المسلمون ولجئهم الزعماء والأمراء وقادوا الأهالي وهاجموهم وأخذوا جمرتهم ورفعوا نيرهم عن أعناق الأهالي^(٤٢).

نزلت بالمسلمين تلك الكارثة بعد أن أخذوا على غرة فاضطروا إلى الجلاء عن كثير من قلاعهم وحصونهم في تلك الجهات واستولى عليها الأوربيون الذين استمروا في مطاردتهم ووضعوا بذلك حدا لإغارات المسلمين وتوسعهم في لومبارديا وشمال إيطاليا وعلى حدود ليجوريا.

قامت محاولة أخرى للقضاء على مسلمي فراكسنيوم عام ٩٥٢م/٣٤١هـ في جورا Jura في سويسرة وتذكر الروايات المعاصرة أن كونراد الأول (٩٣٧-٩٩٣م) ملك برجنديا عانى كثيراً من إغارات مسلمي فراكسنيوم بالإضافة إلى الهنغارين الذين اكتسحوا الأكراس وصارت جميع بلاد جورا معرضة لغزواتهم^(٤٣). لذلك فكر في التخلص منهما معا بالحيطة والدهاء فأرسل رسالة إلى المسلمين يحرضهم على محاربة الهنغارين وانتزاع ما بأيديهم من أراضي وضياع وفي نفس الوقت أرسل إلى الهنغارين يستحثهم على حرب المسلمين ومحاولة إجلائهم من قلاعهم وحصونهم وامتلاكها لأنفسهم واقترح على كل فريق مكاناً يصلح للقاء والمعركة وفي نفس الوقت جهز جيشه وأخذ يتربص ما سوف تسفر عنه الأحداث^(٤٤).

تم فعلاً ما خطط له الملك كونراد فاشتبك المسلمون مع الهنغارين في حرب ضروس هلك فيها جمع كبير من الفريقين وعندئذ انقض كونراد بقواته فهدد شمل الباقيين من الفريقين وبذلك تخلص من عدويه معا^(٤٥). وبالرغم من أن الرواية لم تحدد المكان الذي تمت فيه المعركة والذي كان قد اقترحه كونراد على الفريقين إلا

(٤٢) Chronicon Novaliclenes, libri IV, PP.71-72.

- Previte - Orton, The Early History of The House of Savoy, P. 146.

(٤٣) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 183.

جورا: عبارة عن سلسلة من الجبال تمتد من الشمال إلى الغرب ويحدها بحيرة جنيف على طول حدود فرنسا وسويسرة حتى الوصول إلى الجزء الفرنسي من نهر الراين Cander., Dictionary of Geography, P.338.

(٤٤) Chronicon Novaliclenes, libri IV, PP.56-85.

(٤٥) Chronicon Novaliclenes, libri IV, PP.56-85.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٥٧.

أن من المعتقد أنه كان في سافوي لأنها نقطة متوسطة بين أملاك المسلمين في البروقاس وأملاك الهنغاريين في الإلزام^(٤٦).

على الرغم من تلك المواجهات العسكرية التي تمت بين مسلمي فراكنينوم والقوى السياسية المعاصرة فلزال المسلمون يحتلون مواقع كثيرة في مويسرة وفي معابر الألب الغربية^(٤٧) وذلك يرجع إلى قوة بأسهم وتدريبهم في حرب العصابات وبراعتهم في القتال في الجبال والآكام مما أدى إلى استمرار تلك المواجهات للقضاء التام عليهم^(٤٨). فلقد ذكر مؤرخ سانت جال Saint Gall أن رئيس دير سانت جال الذي كان يدعى فالتون Walton جمع عدداً من الرجال الأثداء وسلحهم بالحرب والفنوس وهاجموا المسلمين بقتله فقتلوا كثيراً منهم وقبضوا على الباقيين وأخذوهم إلى الدير فرفض هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا حتى هلكوا جوعاً^(٤٩).

على الرغم من تلك المواجهة فقد ارتد كثير من المسلمين إلى حصونهم وظلت الإمدادات تصل إليهم من الأندلس ومن المغرب التي تمدهم بأسباب الجراءة والقوة على أن هذا الوجود العربي الإسلامي في تلك المناطق الأوروبية لم يلبث أن أخذ يقترب من نهايته منذ منتصف القرن العاشر الميلادي^(٥٠) فقد حدثت مواجهة أخرى معهم عام ٩٥٦م أسفرت عن طردهم من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصيب، بعد أن قام أحد أساقفة هذه المدينة ويدهي إيزارون Isarn باستنهاض الهمم لتجميع القوات لقتال المسلمين عن طريق الوعود التي وعد بها الناس بتقاسم أملاك المسلمين الخصبة إذا هم ظفروا بالنصر عليهم وتقاسمها بينهم كل بحسب شجاعته في القتال وأقدامه على الحرب حتى تشجع الناس وقتلوا بحماسة كبيرة أدت إلى انتصارهم على المسلمين وتوزيع أملاكهم فيما بينهم مما أدى إلى ثراء بعض العائلات وإعلان إيزارون نفسه أميراً على جرينوبل وعلى واديها الخصيب^(٥١).

(٤٦) Reinaud, *Invasions des Sarrazins en France*, PP. 184.

(٤٧) فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على مويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٠٧.

(٤٨) محمد مرسى الشيوخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ٢٠٤.

(٤٩) Monumenta Germaniae Historica Scriptorum II, ed. Pertz, Hannoverae, 1829, PP.137-138.

(٥٠) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٧١-٤٧٢.

(٥١) Reinaud, *Invasions des Sarrazins en France*, PP. 198.

- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٧٣.

وفي عام ٩٦١م اضطّر المسلمون للخروج من معانهم في ممر سانت برنارد وعلى الرغم من أنه لا توجد تفاصيل عن تلك الواقعة إلا أنه من المعتقد أن المسيحيين تجمعوا في تلك الأثناء لحرب المسلمين وطردهم من ذلك المعقل المهم الذي يتحكم في المرور بين سويسرة وإيطاليا ويربط إيطاليا ببقية دول أوروبا ويبدو أن القديس برنارد الذي بني له حصناً في أعلى ذلك الجبل وتسميت إليه سلسلة هذه الجبال كلها كان أحد قادة تلك المعركة التي أدت إلى طردهم من تلك المنطقة^(٥٢).

بذلك نرى أن استقرار المسلمين في تلك البقاع الأوروبية أخذ في التراجع وأن تلك التفهق كان يزيد من أطماع الألمان في التخلص منهم والقضاء عليهم تماماً، ففي عام ٩٦٨م نادى أوتو الأول ملك ألمانيا بهذا المشروع وكان يخطط له، وذلك بعدما ازدادت قوته ونجح في إخضاع ما حوله من الشعوب وتأمين حدوده وهزيمة الهنغارين في موقعة ليخفيلد Lechfeld عام ٩٥٥م^(٥٣). كما استطاع أن يفرض سيطرته على منطقة بروجنديا عام ٩٤١م^(٥٤)، وعلى لومبارديا في شمال

- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا، ص ٢٠١.

(٥٢) **Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 195.**

- محمد عبدالله عثمان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، انقسم الثاني، ص ٤٧٢-٤٧٣.

- محمد مرسي الشيوخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأوروبيين في الأندلس، ص ٢٠٦.

(٥٣) **Widukindi Monachi Corbeiensis, , Liber III, Chapter 70, PP. 146-147.**

وضع أوتو الأول حداً لغارات الهنغارين الممصرة على أوروبا الغربية بعد انتصاره الكبير عليهم في معركة ليخفيلد وأزال خطرهم وحقق بذلك شهرة كبيرة وتبوأ موقع الزعامة في أوروبا مما مهد للتتويج الإمبراطوري في الثاني من فبراير عام ٩٦٢م. عن تفاصيل ذلك انظر:

Widukindi Monachi Corbelensis, Liber III, Chapter 70, PP. 126- 128.

Thietmari Merseburgensis, Episcopi Chronicon, Rerum Germanicarum in Usus Scholarum ex monumentis Germaniae Historicis Recusi, ed. Kurze F., Hannoverae, 1889, Liber III, Ch. 10, P. 23-24.

(٥٤) قام أوتو الأول عام ٩٣٨م بغزو بروجنديا وأخذ الملك كورناد الشاب بن رودولف الثاني الوريث الشرعي لعرش بروجنديا أسيراً إلى ألمانيا وبقي مدة ثلاث سنوات هناك تابعاً له يخضع لأوامره وبذلك استولى أوتو الأول على الملك والمملكة.

إيطاليا عام ٩٥١م وأصبح حكام هذه المناطق ألقصلاً إقطاعيين يدينون بالولاء والتبعية له^(٥٥).

شكى الرهبان والأمراء في البروفانس وشمال إيطاليا إلى الملك أوتو الأول من غارات المسلمين المدمرة والذين ألقوا سكنى الجبال والغابات والسير في الأدغال والأحراش مما أدى إلى توسعهم في غاراتهم على تلك المناطق وأسسوا المزيد من الحصون وهددوا المسافرين عبر جبال الألب وأصبحوا يمثلون مصدر رعب وخطر كبير هدد القوى الأوربية المجاورة لهم عندما هاجموا الأديرة وأسروا الرهبان والنساء وانضم إليهم العديد من سكان تلك المناطق ولجأ إليهم العديد من الثالوثين الذين طلبوا مساعدتهم ضد منافسيهم وتضرر أوتو الأول منهم عندما هرب أدالبرت الثاني Adelbert II بن برنغار الثاني وشريكه في حكم إيطاليا أثناء مطاردة أوتو الأول له بسبب تمرده عليه ونقض يمين الولاء والتبعية الذي أداه له وإثارة القلاقل في إيطاليا ولجونه إلى ممسلي فراكنسنيوم وطلب مساعدتهم وحمايته ضد الملك الألماني^(٥٦).

كما تعرضت بعض أملاك ألمانيا للخراب نتيجة لغارات المسلمين عليها فتوجد كتابة في دورنبورج Dornburg مؤرخة بعام ٩٥٥م تفيد أن الإمبراطور أوتو الأول كان عائداً من إيطاليا فشاهد بعينه آثار تخريب المسلمين وبناء على التماس

- Widukindī, Liber II, Chapter 35, PP. 94 - 95.
- Annales de Flodoard, a. 940, P.78.
- Barraclough G., The Origins of Modern Germany, Oxford, 1947, PP. 50-51.

(**) قام الملك أوتو الأول بحملة لغزو إيطاليا عام ٩٥١م وحاصر باليا Pavia عاصمة اللومبارديين ودخلها منتصراً في سبتمبر من نفس العام واستولى على التاج اللومباردي وتوج ملكاً على اللومبارديين وأدى برنغار الثاني ملك إيطاليا يمين الولاء والتبعية له وأصبح فصلاً إقطاعياً لملك ألمانيا الذي أقره على التنازل عن حقوقه في حكم إيطاليا.

Widukindī, Liber III, Chapter 9-10, PP. 109- 110.

Thietmar Chronicon, Liber II, Chapter 5, P.21.

Annales de Flodoard, a. 951, P.131.

(56) Liudprand of Cremona, Gestis Ottonis, Chapter 4, PP. 216-217.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP.158-167, 1980.

أخيه برونو رئيس أساقفة كولونيا أتم على دير كور Chur بهبات كثيرة، وكان ذلك من قبيل نذر نذره من أجل عودته موفقاً من إيطاليا عن طريق جبال الألب وأتبع ذلك بهبات أخرى كثيرة، كما شكاً أساقفة كور من غارات المسلمين المدمرة على أملاكهم فأقنعهم أوتو الأول أملاً على سبيل تعويضهم مما لحق بهم من أضرار وذلك بموجب مرسوم مؤرخ بعام ٩٥٦م^(٥٧).

اعتبر أوتو الأول أن مسلمي فرانكسنيوم تابعين لخليفة الأندلس ويحظوا بحمايته وتأييده^(٥٨)، وهو آنذاك عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله^(٥٩)، والذي كان في ذلك الوقت قد بلغ مكانته كبرية في العالم الإسلامي، وأصبح يمثل أكبر قوة للإسلام في الغرب، وهذا ما دفع أوتو الأول لإقامة علاقات سياسية معه بهدف وقف اعتداءات مسلمي فرانكسنيوم عن برجنديا ولومبارديا وجنوب فرنسا، وقد اتجه أوتو الأول للطرق السلمية في البداية للوصول إلى أهدافه لانشغاله بمشاكله الداخلية والخارجية، واعتمد على المفاوضات الدبلوماسية مع الخليفة الأندلسي لردعهم، وقد تحدثت المصادر عن تلك السفارات التي أرسلها أوتو الأول والتي كان أهمها سفارة يوحنا الجورزي Johan of Gorze عام ٩٥٦/٣٤٤هـ والتي بدأها أوتو الأول

(57) *Diplomatum Regum et Imperatorum Germaniae, Tomus 1, in Monumenta Germaniae Historica, Hannoverae, 1879-1884, PP. 256-257.*

- *Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 174-175.*

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(58) *Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book 1, Chapter II, P. 33.*

(٥٩) عبدالرحمن الناصر هو ابن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن أمير الأندلس تولى الخلافة في غرة ربيع الأول ٣٠٠هـ / ٩١٢-٩٦١م بعد وفاة جده عبدالله وكان آنذاك لم يتجاوز الثلاثة والعشرين من عمره لكنه أظهر نبوغاً في العلم والمعرفة ومهارة في الحرب والفروسية وبراعة في النحو والشعر والتاريخ وهو ما خول انظار الناس إليه وتطقت به آمالهم للنهوض بالخلافة الأموية في الأندلس من نير الفتن والاضطرابات وكان هو أول من تلقب بأمر المؤمنين في الأندلس، وقد بلغت الأندلس في عهده مكانة كبيرة بعد أن أخمد الثورات في الداخل وأذعن له الأعداء في الخارج وجاءته السفارات من كل البلدان تتقرب إليه وتخطب وده.

ابن خلدون، العرب، ج ٤، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م،

ص ١٧٦

محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٣٧٣-

٤٦٣.

إلى عبد الرحمن الناصر ويشكو فيها من غارات مسلمي فراكنسيتوم على رعاياه ويطلب فيها منه التدخل لقمع عدوانهم واستعمال نفوذه للحد من خطرهم لكن عبد الرحمن الناصر اعتذر عن تلبية طلبه وذلك لأن تلك المستعمرات الإسلامية لا تدخل في نطاق سلطته ولا يملك أي نفوذ عليها^(١٠).

نلاحظ أن ما ذكره عبد الرحمن الناصر يتناقض مع ما ذكرته المصادر الغربية المعاصرة فيؤكد المؤرخ ليتوبراند الذي عاش في تلك الفترة وكان شاهد عيان لأحداثها أن إمارة فراكنسيتوم كانت تحت حماية عبد الرحمن الناصر خليفة قرطبة ويمدها بالتشجيع والعون^(١١)، وربما ذلك هو ما حمل أوتو الأول إلى تجهيز حملة كبيرة ضد مسلمي فراكنسيتوم، وجاء ذلك في الخطاب الذي أرسله من إيطاليا إلى قاده في ألمانيا عام ٩٦٨م لكن اتشفاله بمشاكله الداخلية والخارجية حال دون ذلك^(١٢).

^(١٠) Vita Johannis abbatis Gorziensis abbatis Gorziensis auctore Johanno Abbato S. Arnulf, MGH, SS., IV, ed., Pertz, Hannoverae, 1841, PP. 369-377, Daniel, The Arabs and Medieval, Europe, PP. 65-69.

O' Callaghan J.F, A History of Medieval Spain, New York, 1975, PP. 119-120

ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ١٨٣.

المقري، فنج الطبيب من غصن الأندلس الرطب، ح ١، ط ١، المطبعة الأزهرية، ١٤٠٢هـ، ص ١٧٠، ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلسي والمغرب، ج ٢، تحقيق ومراجعة كولون، ج.س، إيلي بروفتسفال، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢١٨.

Leyser. K, Communication and Power in Medieval Europe, ed., Reuter T. London, 1994, PP. 126- 135.

عبدالمجيد نعمي، الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ الميسر، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

عبد الرحمن على الحجى، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط ٢، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م، ص ٣١٩.

^(١١) Antapodsis, Book1, Chapter II, P.33.

^(١٢) Widukindi Monachi Corbeiensis, Liber III, Chapter 70, PP.146-147.

وبذلك فشلت المحاولات العديدة العسكرية والسلمية التي قامت بها القوى الأوروبية للقضاء عل مسلمي فراكنينوم حتى وقعت حادثة مهمة كانت بداية النهاية لوجودهم في تلك البقاع.

حادثة القديس مايول St. Maioli

كانت سيطرة مسلمي فراكنينوم على ممرات الألب وأكامها تمثل خطراً كبيراً هدد الأوروبيين في بلاد غرب أوروبا، وذلك لأنها تتحكم في الطرق الموصلة إلى المزارات والأماكن المقدسة في روما التي يقصدها الحجاج المسيحيين كما أنها تعتبر طريق تجاري هام للمسافرين يربط بين إيطاليا وبقية دول أوروبا يسلكه التجار سعياً وراء الربح الذي سيحصلون عليه من تجارتهم^(١٢)، وقد استغل المسلمون تلك المميزات في فرض المكوس والضرائب والإتاوات، وقاموا بالتعرض بالأسر أو القتل لمن يرفض الإذعان لابتزازهم وهكذا ابتعدوا عن الأهداف السامية التي خرجوا من أجلها والتي دعي لها الإسلام مما أدى إلى ازدياد الحقد عليهم والرغبة في الانتقام منهم والقضاء عليهم وذلك في الثلث الأخير من القرن العاشر الميلادي^(١٣).

في تلك الفترة اشتهر رجل بصفاته الكريمة وأعماله الجليلة وكان يذكر اسمه دائماً مقروناً بالتهجيل وبلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه لمنصب البابوية وهو القديس مايول St. Maioli الذي كان راهباً (٩٥٤-٩٩٤م)، في دير كلوني Cluny الشهير في برجنديا(*)، وقد قام مايول بالذهاب إلى روما للحج وزيادة الأضرحة المقدسة وانضم إليه وهو عائد عدد غفير من الحجاج الغافلين من روما رغبة في صحبته والاحتماء به من خطر المسلمين الذين كانوا يحتلون البلاد الواقعة بين جاب Gap وإمبران Embrun ويتمركزون في أعالي وادي دراك

- Previte - Orton, The Early History of The House of Savoy, P.5.

- Cam. Med. His, Vol. III, P.168.

(١٣) Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 429-430.

(١١) محمد مرسى الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ٢٠٧.

(١٢) قام دير كلوني بدور هام في عملية الإصلاح الكنسي وتحرير الكنيسة من سيطرة الحكام العثمانيين ونفوذهم واستطاع دير كلوني أن يتزعم مجموعة من الأديرة ذات الطابع الخاص التي نجحت في أن تحرر نفسها من سيطرة الأساقفة المحليين، لتصبح تحت السيطرة المباشرة للبابا وكان مقدم دير كلوني له الحق في تعيين رؤساء هذه الأديرة وبذلك أصبح دير كلوني بمثابة الدير الرئيسي العام في هذا التنظيم الكارنلي الجديد.

سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الثاني، التظيم والحضارة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩١، ص ٣٦-٣٥.

عبر القديس مايول ورفاقه في ٢٢ يوليو عام ٩٧٢م مرتفعات جبال الألب حتى وصلوا إلى قرية واقعة إلى الشمال من معبر سانت برنارد العظيم على ضفة نهر درانس Drance تسمى يونز أرساري Pons Arsari وعندما وصلوا إلى ضفاف الوادي صاترين في الوادي المنحصرة بين الجبل والنهر انقض عليهم المسلمون وحصرهم وقبضوا عليهم وأوثقوهم بالقيود وجردوهم من كل ما يملكون ثم ساقوهم إلى أحد الكهوف وسجنوهم فيه وأصيب القديس مايول بجرح غائر في يده عندما أراد أن يفتدي أحد رفاقه من طعنة وجهها له المسلمون، ولقد عرف المسلمون في القديس مايول الصلاح والتقوى وظنوا أنه من أثرياء القوم فسألوه عن ذلك فاجابهم أنه كان منهم لكن زهد كل ما يملك فتجرد من أملاكه وتفرغ لعبادة الله وهو الآن راهب في دير ذي أملاك وأراضي كثيرة فساوموه على فداء نفسه بألف قطعة من الفضة وطلبوا منه أن يرسل أحد رفاقه إلى دير كلوني لجمع الفدية وحددوا له موعداً لا يتأخر عنه إلا عرض نفسه ورفاقه للقتل^(١١).

كتب القديس مايول إلى رفاقه في الدير قائلاً: "مايول التمس الأسير، يرسل التحيات إلى القادة والأخوة، رهبان دير كلوني، قد أحاط به حشود من Belial^(١٢)

(⁶⁵) Syrus, Vita Sancti Maioli, in AgnImmaculati, Paris, 1988, III, 5, P. 253.

- Rodulphus Glaber, Historiarum, Libri Quinque 1, 4, 9, ed., and Trans, John France, in Rodulphus Glaber, The Five Books of Histories and The Life of Abbot William, Oxford, 1989, PP. 18-24.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 201.

(⁶⁶) Rodulphus Glaber, Historiarum, libri Quinque 1, 4, 9, PP. 18-20.

- Syrus, Vita Sancti Maioli, III, 5, P. 253.

- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 426-432.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 201- 203.

- Previte - Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146

(^{١٢}) استعمل مايول في خطابه كلمة Belial للدلالة على المسلمين والتي تعني أبناء إسماعيل وشاع ذلك الوصف للمسلمين عند الغرب الأوروبي.

- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 434.

وقبضوا على، لذلك أرجو منكم بكل الوسائل إرسال القدية لك أسرى أنا وأولئك الذين معي".

"Dominins et Fratibus Cluniensibus Frater Maiolus Miser et Captus Torrentes Belial Circumded erunt me, Praeoccupauerunt me Laquei Mertis Nunc Uero Si Placet at his qui mecum capti tenentur redemptionem mittite"^(٦٨).

لما وصل هذا الكتاب إلى دير كلوني ارتفعت الأصوات بالنيكاء والعيول من قبل رفاقه الرهبان وهبوا جميعاً في تدبير الأموال اللازمة لذلك حتى أنهم جردوا الكنيسة من زخرفها فقد كان محبوباً لديهم وأرسلوا كل ما استطاعوا جمعه من الأموال إلى المسلمين حتى يطلقوا سراح القديس ورفاقه، وتم ذلك بعد أن أخذ المسلمون ألف قطعة من الفضة لك أسير القديس وقطعة واحدة عن كل واحد من رفاقه وعادوا جميعاً بعد إطلاق سراحهم إلى بلادهم وكلهم حنق وكراهية ضد المسلمين^(٦٩).

انتشرت أخبار حادثة القديس مايول وصار له صدى كبير بين الناس وأثارت غضب واستياء الرأي العام وسعى القادة والنبلاء للأخذ بالشار وبثأير من القديس نفسه عمل الاقطاعيون في شرق وغرب الألب على توحيد جهودهم وتقديم المساعدات لتجهيز حملة ضد مسلمي فراكنشتيوم للذين روعوا أهالي تلك المناطق^(٧٠).

تزعّم هذا المشروع أحد النبلاء ويدعى بوبون Bobon الذي اجتهد في تجميع القوات وتوحيد الجهود ثم بنى حصن في نواحي سيمترون Sistreron موازيا لحصن المسلمين هناك الذي يقع على رأس جبل بترّا إمبيا Petra-Empia وقام بمراقبتهم حتى أتحت له فرصة اقتحام حصنهم مستخدماً عامل

(٦٨) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, PP. 20- 22.

- Syrus, Vita Sancti Maioli, III, 5, P. 253.

(٦٩) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, PP. 18- 24.

- Syrus, Vita Sancti Maioli, III, 5, P. 253.

(٧٠) Previte - Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146.

- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 432.

الخيل بمساعدة أحد الحراس وتمكن من ذبح المسلمين داخل الحصن بعد مدامتهم وأخذ النابقين أسرى واضطر بعضهم للتنصر، ورفعت الكنيسة بويو إلى مصاف القديسين^(٧١).

ألهمت هذه الانتصارات حماسة الأوربيين في الجهات الأخرى خاصة في الدوفيني فقد ثار سكان جاب Gap مركز مقاطعة الألب العليا والتف المحاربون حول قائد يدعى وليام William وهاجموا قلاع وحصون المسلمين في الدوفيني ونجحوا في الانقضاء عليهم وتفتت شملهم وإجبارهم على الجلاء عن البلاد وبذلك تخلصت بلاد الدوفيني العليا من قبضتهم ولم يبق للمسلمين سوى حصونهم في البروفانس^(٧٢).

معركة تورنور Tourtour وسقوط معقل فراكنسيتوم عام ٩٧٥م/٣٦٥ هـ

تشجع وليم بعد انتصاره على المسلمين في الدوفيني على مواصلة حربه ضدهم في البروفانس بعد أن استطاع الوصول إلى السلطة وتلقب بلقب كونت البروفانس واستقل حب شعبه له فعمل على استنفار أهالي البروفانس والدوفيني ونيس لقتال المسلمين وإسقاط معقلهم الحصين فراكنسيتوم وتصفية الوجود الإسلامي نهائياً من تلك المناطق، ووجد وليم كونت البروفانس جهوده مع القادة والزعماء المجاورين له وحشد القوات الضخمة لتحقيق هدفه وبدأ بالتخطيط للهجوم على فراكنسيتوم^(٧٣).

(4) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 205

- محمد عبد الله عثان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٧٣.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٦١.
- (72) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, P. 22.
- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 432.
- محمد مرسى الشبخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ٢٠٨-٢٠٩.
- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا، ص ٢٠١.
- Previte - Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146.
- محمد عبدالله عثان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٧٣.
- (73) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, P. 22-24.
- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 432.

عندما علم المسلمون بأن وليام كوت البروفانس يخطط لحربهم عملوا على الاستعداد للمعركة للحفاظ على وجودهم في تلك المناطق لكنهم تخلوا في هذه المرة عما اعتادوا عليه من وسائل الكر والفر والهجمات الخاطفة التي ميزت حربهم في الماضي وكانت السبب في نصرهم واعتمدوا في هذه المعركة على الحرب المنظمة فنزلوا من الجبال واحتشدوا حشوداً في السهول المجاورة ودافعوا عن أنفسهم في صفوف منتظمة وبذلك فقدوا أهم ميزة تميزوا بها خلال تاريخهم في هذه البلاد^(٧٤).

اندلعت المعركة في عام ٩٧٥م / ٣٦٥ هـ في مكان يسمى تورتور Tourtour في منطقة دراجينجمان Dragengman وشن القادة الأوروبيون هجمات شديدة أدت إلى هزيمة المسلمين وارتدادهم إلى معاقبتهم للاحتفاء بها خاصة فراكنسيتوم المعروف بحصانته، لكن الأوروبيين طاردوهم وحاصروهم في معقلهم فراكنسيتوم وأخيراً وبعد مقاومة مستميتة من المسلمين اقتحموا المعقل وقبضوا على من حاول الهرب منهم وأمعنوا فيهم القتل والأسر وأبقوا على من استسلم منهم وعلى المسلمين وأجبروهم على التنصر فقتل كثير منهم باقين يمارسون حرفة الزراعة في الضياع المجاورة واختلطوا بالسكان وتزاوجوا معهم ولا تزال آثارهم باقية مبعثرة في أماكن كثيرة^(٧٥).

يسقط معقل فراكنسيتوم المركز الأساسي لجميع المسلمين المنتشرين في فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرة لم يبق شيء للمسلمين بعد أن استولى الأوروبيون على ممتلكاتهم وكنوزهم الكنسية هناك، فوزع وليام كوت البروفانس هذه الغنائم على جنوده ومقاتليه الذين أبلوا بلاءاً حسناً في الحرب ضد المسلمين كما نالت الكنيسة أيضاً نصيباً كبيراً منها فقد كان رجالها في طليعة المندادين بحرب المسلمين وكان لهم دوراً واضحاً في تلك المعركة بعد أن عاثوا كثيراً من هجراتهم الممصرة

- Previte - Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٦١.

(74) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 207.

- محمد عبدالله عان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤٧٤.

- محمد مرسي الشيوخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ٢٠٩.

(75) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 207-212.

- Previte - Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146 - 147.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٦١.

- عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١٠٥.

على الكنائس والأبيرة^(٧٦).

كما قضى الأوروبيون على المستعمرات الإسلامية في الألب وممراته ولم يقترب القرن العاشر الميلادي من نهايته حتى كانت سيادة المسلمين قد زالت من تلك المناطق ولم يستطع حكام الأندلس أن يمدوا لهم يد العون لانشغالهم بمشاكلهم الداخلية والخارجية^(٧٧).

هكذا انتهزت بسقوط معقل فراكنيتيوم سيادة المسلمين في البروفانس وجنوب فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا بعد أن استمروا في تلك المناطق زهاء الخمس والثمانين سنة معقلاً للإسلام والمسلمين وبذلك انتهت السيادة الإسلامية في تلك الجهات^(٧٨).



⁽⁷⁶⁾ Reynaud, *Invasions des Sarrazins en France*, P. 209-212.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر، ص ٢٦١.

⁽⁷⁷⁾ Reynaud, *Invasions des Sarrazins en France*, P. 209-212.

- محمد عبدالله عتار، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص ٤١٤.

⁽⁷⁸⁾ Reynaud, *Invasions des Sarrazins en France*, P. 209-212.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأجنبية:

The Original Sources:

- Annales de Flodoard, ed. Lauer ph., Paris, 1905.
- Arnulf of Milan, The Book of Recent Deeds, Trans by North N.w, From The Edition of Claudia Zey (MGH. Scriptores Rerum Germanicarum 67), Hannover, 1994.
- Chronicon Novallicenes, Monumenta Germaniae Historica Recudi Fecit, VII, ed. Pertz, Hannoverae, 1846.
- Diplomatum Regum et Imperatorum Germaniae, Tomus 1, in Monumenta Germaniae Historica, Hannoverae, 1879-1884.
- Gregorovius, History of the City of Rome, in The Middle Ages, Translated from The Fourth German Edition by Hamilton A., Vol. III, London, 1895.
- Liudprand of Cremona, The Works of Liudprand of Cremona, Translated from The First Time into English by Wright. F. A., London, 1930.
- Monumenta Germaniae Historica Scriptorum II, ed. Pertz, Hannoverae, 1829.
- Regesta Chronologico – Diplomatica Karolorum, ed. Bohmer, Frank Fort, 1833.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, 1836.
- Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, ed., and Trans, John France, in Rodulphus Glaber, The Five Books of Histories and The Life of Abbot William, Oxford, 1989.
- Syrus, Vita Sancti Maioli, In Agni Immaculati, Paris, 1988.
- Thietmari Merseburgensis, Episcopi Chronicon, Rerum

Germanicarum in Usus Scholarum ex monumentis Germaniae Historicae Recusi, ed. Kurze F., Hannoverae, 1889.

- Widukindi Monachi Corbeiensis, Rerum Gestarum Saxonicarum, Liber Tres, ed. Lohman, MGH, Hannoverae, 1935.
- Vita Johannis abbatis Gorziensis abbatis Gorziensis auctore Johanno Abbato S. Arnulf, Monumenta Germaniae Historica Scriptores IV, ed., Pertz, Hannoverae, 1841.

ثانياً : المصادر العربية:

- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن حوقل التنصيني (ت ٢٨٠هـ / ٩٩٢م) كتاب صورة الأرض، طبعة القاهرة، د.ت.
- ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، العصر، ج ٤، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- ابن عذاري المراكشي أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي (ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٢، تحقيق ومراجعة كولون ج. س. ليفي بروفنسال، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.
- الاصلطرخي أبو القاسم إبراهيم (ت القرن الرابع الهجري)، مسائل الممالك، مجلد ١، ط ١، لندن، ١٩٣٧.
- المقري أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي العيون التلمساني، ج ١، ط ١، المطبعة الأزهرية، ١٣٠٢هـ.

ثالثاً : المراجع الأجنبية:

Modern Works:

- Barraclough G., The Origins of Modern Germany, Oxford, 1947.
- Bruce, An abbot between two Cultures: Malcolus of Cluny considers The Muslims of La Garde – Freinet, Journal Compilation, Early Medieval Europe, . 15, (4), Blackwell Publishing, Oxford, 2007.
- Cambridge Medieval History, Vol. III, New York, 1922.

- Cander J., Dictionary of Geography, London, 1834.
- Chambers R., Medieval History, London, 1855.
- The Columbia Encyclopedia, Second Edition, New York, 1950.
- Comyn R., The History of the Western Empire, Vol.1, London, 1841.
- Daniel, The Arabs and Medieval Europe, London, 1975.
- Gallega, S. History of piedmont, London, 1955.
- Gibbon. E. The History of The Decline, and fall of the Roman Empire, Vol.6, Boston, 1854.
- Kaepfen Adolphus, The World in the Middle Ages New York, 1854.
- Leysey. K, Communication and Power in Medieval, Europe, ed., Reuter T. London, 1994.
- O' Callaghan J.F, A History of Medieval Spain, New York, 1975.
- Oman, C. A History of The Art of War In The Middle Ages, vol. 2, London, 1924.
- Previte - Orton, The Early History of The House of Savoy, University Press of Cambridge, 1912.
- Previte - Orton, Italy and provence 900-950, The English Historical Review, Vol. XXXII, July, 1917.
- Previte - Orton, Italy In The Tenth Century, In The Cambridge Medieval History, Vol. III, New York, 1922.
- Robertson, History of The Christian Church, Vol. II, Third Edition, London, 1968.
- Setton K.M, A History of the Crusades, Vol.1, Wisconsin, 1969.
- Sismondi J., History of The Italian Republics in the Middle

رابعاً المراجع العربية والمترجمة للعربية

- أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد عيسى مراجعة وتقديم محمد شفيق غريال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
- سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الثاني، التنظم والحضارة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩١.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٢هـ.
- عبد الرحمن علي الحجي، لتاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط٢، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م.
- عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية (١٣٨-٣٩٦هـ / ٧٥٥-٩٧٦م)، دراسة تاريخية، أبو ظبي، الامارات المتحدة العربية، ٢٠٠٤م.
- عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.
- عبد المجيد تعني، الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.
- عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م.
- علي بن المنتصر الكتاني، المسلمون في أوروبا وأمريكا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.
- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ترجمة شكيب أرسلان ضمن كتابه تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٢هـ.
- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، الخلافة الأموية والدولة العاصمية، ط٤، مكتبة الخاتمي، القاهرة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.



خريطة لقرطاجنة الإسلامية من ٨٨٩ - ٩٧٥ م نقل عن :-

www.Timediver.de



www.google.com

مطابق: الإمام المودودي الذي عبد الرحمن الثالث سنة ١١٠٠ هـ

ARCHIVE

معركة ميركيفالون (٥٧١هـ/١١٧٦م) بين سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية

د. آمال حسن عبد الحافظ الخطيب (*)

مقدمة

في (٤٦٧هـ/١٠٧٥م) وبعد خمسة وثلاثين عاما من تكوين إمبراطورية السلاجقة في فارس، تأسست دولة سلاجقة الروم في الأناضول على يد "سليمان بن قتلмыш" كنتيجة مباشرة لمعركة مانزيكرت في ٤٦٣هـ/١٠٧١م. فقد اتجه "قتلмыш" أبن عم "طغرل بك" مع طائفة من التركمان، إلى الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين، إذ اعتبر نفسه أحق بالملك منه، ولأن أباه كان أرشد أفراد الأسرة السلجوقية، ويرجع نسب هؤلاء السلاجقة إلى أبي الفوارس قتلмыш بن إسرائيل بن سلجوق الذي عينه السلاجقة في فترة الفتوحات الأولى حاكما على الموصل وديار بكر والشام.^(١)

تطلع زعيمهم "قتلмыш" إلى الاستقلال بالتحكم عقب وفاة السلطان "طغرل بك" في عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، وتولية ألب أرسلان عرش السلاجقة، فخرج قتلмыш على الب أرسلان فقتله الأخير، وأراد أن ينتقم من أسرته ويقضى عليها، لولا تدخل وزيره نظام الملك الذي أعدله خطة تدل على ذكائه ونفذه السلطان ألب أرسلان، فمنح أسرة قتلмыш جيشا ليشغلهم بالفتوحات، وأصدر أوامره إلى "سليمان بن قتلмыш" بالتوجه إلى الحدود البيزنطية مع أسرته، ونجح السلطان ألب أرسلان في تثبيت السلاجقة في آسيا الصغرى، حين وجه سليمان بن قتلмыш إليها، لأنه رأى أن سهول وسط آسيا، التي عمل البيزنطيون على تحويلها إلى مراعي للمواشي، خير ما يلائم جماعته الأتراك السلاجقة، فسمح لسليمان ورجاله بأن يستوطنوا تلك البقاع ويقوموا فيها دولة لهم، وهكذا تأسست دولة "سلاجقة الروم" كنتيجة لموقعة ملاذكرد (مانزكرت) التي تعتبر هزيمة البيزنطيين فيها نقطة تحول خطيرة في التاريخ الإسلامي والتاريخ البيزنطي. ولا تقل أهمية هذه المعركة ونتائجها عن معركة البرموك، فإذا كانت معركة البرموك قررت مصير بلاد الشام، فإن معركة "ملاذكرد" قررت أيضا مصير آسيا الصغرى، إذ نجح

(*) أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى بكلية التربية للبنات بجهة

الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها، ولم تستطع بيزنطة الوقوف في وجه توسعهم. وكانت هذه الأقاليم الشرقية — وبخاصة أرمينية وقيادوقيا — على جانب كبير من الأهمية للدولة البيزنطية، لأنها أمدت الإمبراطورية بكثير من الأسرات الحاكمة، وعدد لا حصر له من أمهر الرجال في شئون الحرب والسياسة، وكانت خسارة هذه الولايات، التي استقر فيها الأتراك السلاجقة، إرهابا بقرب موت الدولة البيزنطية أو بداية النهاية لحياتها. وكما يقول الأستاذ فريونس Vryonis : عندما فقدت الدولة البيزنطية ولايتها الغنية في آسيا الصغرى، أصبحت القسطنطينية رأساً حُرماً من الجسد الذي يسنده. وتوغل السلاجقة في آسيا الصغرى انتقلت هذه البلاد من الحضارة اليونانية، والديانة والآداب المسيحية، إلى العقيدة والحضارة الإسلامية. وخلال السنوات العشر التالية لموقعة 'منازكرد' غمرت القبائل السلجوقية معظم آسيا الصغرى، ولم يجد السلاجقة سوى مقاومة ضعيفة، فعاثوا واندمجوا مع السكان الأصليين.^(٢)

وكان الأتراك السلاجقة قد أتوا إلى آسيا الصغرى لكي يستقروا، فأحضروا مع جيوشهم كل قبائلهم وأسره ومواشيهم. ويشير الأستاذ كلودكاهن، في دراسة له عن المراحل الهامة للغزو السلجوقي في آسيا الصغرى، إلى أن حادثة منازكرد كانت مرحلة هامة ضمن مراحل طويلة للتوغل التركي في آسيا الصغرى، وتم توحيد الأتراك فيها تحت ظل دولة سلاجقة الروم وعاصمتها قونية. ومنذ أوائل القرن الثالث عشر كان الفارق واضحاً، أمام المؤرخين البيزنطيين، بين الأتراك المستقرين والأتراك الرحل، الذين أطلقت عليهم حنة كومنين AnnaComnena اسم تركمان Turcomans، تمييزاً لهم عن الأتراك المستقرين. وبرغم أن سليمان بن قتلمش ابن إسرائيل بن سلجوق مؤسس دولة سلاجقة الروم، فإنه لم يكن بين القادة الذين أرسلهم لب أرسلان بعد منازكرد، فقد أرسل أرتوك بك، وإليه يرجع الفضل في التوغل التركي داخل الأناضول، ولقد استغل سليمان بن قتلمش فرصة انشغال كل من السلاجقة وبيزنطة في مشاكلهم الداخلية للتوسع في آسيا الصغرى^(٣).

واستمر حكم هذه الدولة مدة ٢٢٠ عاماً من (٤٧٠ - ٧٠٠هـ / ١٠٧٧ - ١٣٠٠م)، ويعود الفضل إليها في تتركك المنطقة، أي صبغها بالصبغة التركية، والتمهيد فيما بعد لدولة غزية أخرى استطاعت الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، وهي الدولة العثمانية. ويعتبر استقرار الترك في الأناضول أو آسيا الصغرى، أفدح خسارة لحقت بالكنيسة والإمبراطورية من وجهة نظر 'إدوارد جيبون'. وكان سليمان أهلاً لأن يلقب بالغازي — البطل المقدس لنشره الدين الإسلامي. وقد أضيق مملكته الرومية للشرقية الجديدة إلى جداول الجغرافية في المشرق، وكانت تمتد من الفرات إلى القسطنطينية، ومن البحر الأسود إلى حدود سورية، وكانت غنية بمناجم الفضة والحديد والشب والنحاس، وذات إنتاج وفير من الحبوب والكرام، زاخرة بالماشية والخيول الأصيلة.^(٤)

وقد بدأ استقرار سلاجقة الروم، في آسيا الصغرى، بقيادة "سليمان بن قتلмыш" - في زمن الإمبراطور البيزنطي "ميخائيل السابع" الذي استعان بسليمان أكثر من مرة في مواجهة الخارجيين عليه. وحين ثارت ثغور بوتنياتيس" قائد ثغر الأتاتوليك استعان "ميخائيل" بقوات سليمان، ويدخل السلاجقة إلى الجيش البيزنطي بدأ استقرارهم الدائم في أراضي بيزنطة، ثم تخلى سليمان وأخوه منصور عن ميخائيل واتصفا إلى "بوتنياتيس" الذي أعلن نفسه إمبراطورا في ٧ يناير ١٠٧٨م وأنزلهما إلى نيقية. وبعد ذلك عاونوه في الاستيلاء على نيقوميديا وخلقيدونية وكريسوبوليس، وأجبر ميخائيل على الذهاب إلى الديرو. ولما حاول الإمبراطور الجديد إجلائهم عن الأراضي التي دخلوها رافعوا راية العصيان، وأعلن "سليمان نيقية" عاصمة لدولتهم عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٥م، وكانت تبعد مئة ميل عن القسطنطينية.^(٥)

ثم سيطر سليمان على كل آسيا الصغرى من "قيليقيا إلى هسبوننت،" وبذلك تكونت مملكة سلاجقة الروم. وسارع التركمان المنتشرون في آسيا الصغرى إلى الاعتراف بسلطانها عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٧م)، وكان هذا إيذانا بفقد بيزنطة لآسيا الصغرى وانتهيار نظام الدفاع والإدارة في الولايات الآسيوية.^(٦)

وهكذا فقدت الإمبراطورية البيزنطية ممتلكاتها في آسيا الصغرى، التي حرص البيزنطيون منذ القدم على أن تكون هي وبلاد الأرمن والكرج — باعتبارها من أهم طرق العبور إلى البلاد الشرقية المتاخمة لها — تحت سيطرتهم. ولم يفلح الفرس أو المسلمون، قبل ظهور السلاجقة، في إخراج البيزنطيين من آسيا الصغرى. وحين انتشغلوا عن حماية حدودهم الشرقية والجنوبية، بمطامع قاداتهم ونبلائهم، جعل الجنود يتركون مهامهم الأساسية ليؤيدوا هذا أو ذاك، في حروب أهلية داخلية، مما مكن السلاجقة من مد نفوذهم والاستيلاء على آسيا الصغرى والاستقرار بها تماما.^(٧)

سلاجقة الروم بعد مقتل سليمان بن قتلмыш :

تمكن القائد البيزنطي "الكسيوس كومنن" من عزل الإمبراطور "تقفور بوتنياتس"، وتم تنصيب "الكسيوس" سنة ١٠٨١م. وفي أيامه اتجه "سليمان بن قتلмыш" إلى محاولة الاستيلاء على بلاد الشام، وبعد عدة معارك لقي مصرعه سنة ١٠٨٦م في مواجهة مع تتش حاكم دمشق، وكان لذلك أثر سلبي على دولة الروم السلاجقة. فبعد مقتل سليمان اتهارت الوحدة السياسية التي أقامها السلاجقة، وأُرسل أبناؤه إلى ملكشاه، في الفترة ما بين ٤٧٩-٤٨٥هـ/ ١٠٨٥-١٠٩٢م، كرهينة لضمان عدم تدخل سلاجقة الروم في شؤون الشام، ولقد تركت آسيا الصغرى بدون حاكم يسيطر على أمورها. فلقد ترك سليمان طفلا صغيرا هو "قلاج أرسلان" الذي ظل في أسر ملكشاه فترة، وتولى أمر إدارة الدولة السلجوقية "أبو القاسم" الذي كان سليمان قد أنابه عنه أثناء ذهابه إلى قيليقية وأنطاكية وقد أراد ملكشاه، بعد مصرع سليمان، إخضاع دولة سلاجقة الروم، لكن وفاته ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م أنقذت نيقية من الحصار،

وساعدت المنازعات التي ثارت على العرش بعد وفاته قلعج أرسلان الأول* بن سليمان على العودة إلى منصبه ١٠٩٢م حيث أستقبله الترك بحفاوة بالغة، وبدأ عهده بتجديد بناء عاصمته وتعيين قادة جدد.^(٨)

ثم دخل في صراع مع بيزنطة حيث قامت قواته بطرد القوات البيزنطية التي حاولت الاستقرار على شواطئ بحر مرمرة، ولكنه ما لبث أن عاد للتحالف معها، فعاونته القوات البيزنطية في التخلص من خصمه حاكم أزمير، ووفقا لمعاهدته مع بيزنطة أصبح من حقه التوسع في اتجاه الشرق. وفي (٤٨٩هـ/١٠٩٦م) حاصر ملطية ولكن أهل المدينة عرضوا عليه تسليمها صلحا، تخلصا من حاكمهم جبريل الذي كان يضطهدهم لمخالفتهم له في المذهب الديني. ولكن قلعج أرسلان اضطر للعودة للدفاع عن عاصمته أمام الخطر الصليبي^(٩)؛ القادم من الغرب، فيما سمي بالحرب الصليبية الأولى.

ولم يكن سلاجقة الروم الطائفة الوحيدة التي استقرت في آسيا الصغرى، فهناك فرق تركية أخرى من الغز استقرت في المنطقة، وكانت أشد خطرا على بيزنطة، واستغلت ضعف الدولة السلجوقية بعد وفاة سليمان إقامة ممالك مستقلة دخلت في صراع مع سلاجقة الروم وبيزنطة. وهذه الممالك تعتبر أهم، في تاريخ الترك، من الإمبراطورية السلجوقية نفسها، فقد امتدت أراضي دولة سلاجقة الروم من نيقية إلى قونية وعلى التمرات بشمال جبال طرسوس.^(١٠)

الأسرة الكومنينية (١١٤٣-١١٨٠م) :-

ينتمي الكومنينيون إلى أسرة من الأسرات الإقطاعية الكبيرة في الإمبراطورية البيزنطية. وقد نجح آل كومنين في أن يقيموا من جديد السلطان الإمبراطوري المنهار، ويعيدوا الحيوية للإمبراطورية التي أنهكت قواها الفوضى التي استمرت نحو ثلاثة عقود، ويعطروها قرنا آخر من العظمة والمجد، وبالرغم من الصعاب الكبرى التي صادفوها، كان أباطرة الأسرة الكومنينية محاربين قبل أي شئ آخر، ويظهر اسمها في كل صفحة من صفحات التاريخ البيزنطي في القرن الحادي عشر الميلادي. ويرجع أصل هذه الأسرة إلى قرية كومن* في وادي تونجا قرب ماورياتويل، وقد حصلت الأسرة بعدها وكفاحها على ثروة طائلة، وغدت من كبار الأسرات الإقطاعية في آسيا الصغرى وأباطرة الأسرة هم :-

١- "الكسيوس" وهو مؤسس الأسرة (١٠٨١-١١١٨م) يمثل اعتلاؤه العرش انتصار الجهاز العسكري على الجهاز البيروقراطي، ويعتبر من أكثر الأباطرة كفاءة عسكرية وإدارية، ومن أشهر رجال هذه الأسرة وباني مجدها الحقيقي، اتصف هذا الإمبراطور بالحنكة السياسية والبراعة العسكرية، وكان رجلا ذكيا، حاضر الذهن، قوي الإدارة، قائدا عظيما، ودبلوماسيا ماهرا، وقد ظهر في تلك الفترة العصبية من

تاريخ الإمبراطورية إذ أعاد سلطة القانون والنظام داخلها. وكانت أهم الأخطار التي واجهته حين صعد العرش البيزنطي. خطر التورمان، وخطر الأتراك السلاجقة.

٢ - أما "حنا كومنين John Comnenus" (٥١٢-٥٣٨هـ/١١١٨م) فقد خلف أباه الكسيوس كومنين الذي توفي بعد مرض أليم لازمه زمنا طويلا، وهو الابن الأكبر له، ولم يكن دونه في التحلي بالمؤهلات العالية؛ وقد نشأ نشأة صارمة، وكان على خلق قوي، كما كان لا يقر حياة الترف والإسراف، وقد عرف عنه الكرم والذكاء. وهكذا استحق بفضل شخصيته وخصاله لقب "يوحنا الطيب".^(١١)

٣ - الإمبراطور مانويل كومنينوس :

خلف مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠م) والده يوحنا الرابع بعد وفاته، وهو أصغر أبنائه الأربعة، من زوجته الهنغارية، وكان يبلغ من العمر آنذاك عشرين عاما، وكان أحب الأبناء إلى قلب أبيه.

وكان أباطرة بيزنطة يمتازون بعامل السياسة والدهاء والحكمة وبعد النظر مما كان له أكبر الأثر في الإبقاء على الدولة البيزنطية عشرة قرون أو يزيد. ونلمس هذا بوضوح في موقف حكام بيزنطة من الأجناس الجرمانية ومن المسلمين ومن جيرانها العرب سواء كانوا فاطميين أو عباسيين أو سلاجقة.^(١٢)

السلاجقة ومانويل كومنين

بعد أن فرغ مانويل من مشكلاته في أوروبا وعقد الصلح مع البيزنطة به، يَنتَهِج إلى الاهتمام بشؤون آسيا الصغرى، بعد حوالي اثني عشر عاما قضاهما هُجِج أرسلان الثاني " في تدعيم نفوذه ، وأدرك أن إحكام السلطان قبضته على المنطقة، دون منازع، يشكل خطرا كبيرا على السياسة البيزنطية، بالإضافة إلى أنه أراد أن يَکْمُل الأمن للطريق الذي يجتاز بلاد الأناضول أمام البيزنطيين، فشن نتيجة ذلك بقصر نظره وتقصيره في حقل سياسة الأناضول ، إذ أتاح للسلطان أن يوحد كلمة الأتراك، كما راح شعر بالضغط التركي المتزايد على حدود الإمبراطورية الشرقية بسبب قيام السلاجقة بتهديد وادي المياندز، وإنزالهم بأهل الريف خسارات متتالية. وقد شغلت شئون آسيا الصغرى آل كومنين أكثر من البلقان، فإن نجاح الأتراك السلاجقة المتواصل قد تسبب في طرد البيزنطيين تدريجيا من معظم ممتلكاتهم في الشرق، وحكم سليمان في "قيزيقوس وثيقية"، واضطر الكسيوس كومنين - الذي كان يبرز تحت مهام أخرى أكثر خطورة - لأن يعترف عام ١٠٨٢م بما نجح الأتراك في غزوه من البلاد، وسقطت أنطاكية عام ١٠٨٥م في أيدي السلاجقة. وخان من حسن حظ بيزنطة أن موت ملكشاه عام (١٠٩٢م) أدى إلى تجزئه الإمبراطورية السلجوقية، واستقل البيزنطيون ذلك ليستعيدوا مركزهم في "بيثينية" ، واضطر سلطان قونية

الجديد وهو ' قلج أرسلان الأول ' (١٠٩٢-١١٠٦م) للموافقة على عقد الصلح مع الإمبراطورية. وعندما مات أول الأباطرة الكومنينية كانت الإمبراطورية تشمل (الأناضول وطرابزون وكل ساحل البحر الأسود وكل الشريط الساحلي في جنوب آسيا الصغرى حتى مشارف أنطاكية وكل البلاد الواقعة غرب الخط الممتد من سينوب وجانجرا وعمورية وفيلومليون). وهكذا نجح 'الكسيوس' في إعادة نفوذ بيزنطة ومجدها في آسيا، مثل نجاحه في شبه جزيرة البلقان. وواصل 'مانويل كومنين' في بادئ الأمر سياسة أبيه، فتقدم حتى وصل إلى أسوار قونية عام (١١٤٦م) ولكن الغزو النورماني والحملة الصليبية الثانية عام (١١٤٧م) اضطرت له ليولي اهتمامه إلى اتجاه آخر، ولكنه بالرغم من تطلعه إلى فرض سيادته على الدويلات الأرمنية واللاتينية ونجاحه في هذا الصدد، إلا أن سياسته مع الأتراك كانت أقل ثباتا وقوة. والواقع أنه، عند منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، لم يستلزم الأمر إلا بعض الجهد للقضاء على سلطنة الروم، واستعادة كل البلاد الآسيوية حتى جبال طوروس. كما أن القبائل السلجوقية الرحل كثيرا ما قامت بانتهاك حدود الإمبراطورية، ولكن السلطان قلج أرسلان كان في منتهى الذكاء والدهاء، عندما اعتذر للإمبراطور عن مثل هذه الأعمال، موضحا أنه غير راض عن هذه الانتهاكات، وقدم له بعض الهدايا. وبهذه التسويات الودية نجح السلطان السلجوقي في كسب الوقت لدعم نفوذه في آسيا الصغرى، على العكس من الإمبراطور الذي لم يقدّر بأي عمل في آسيا الصغرى، سوى إقامة بعض التحصينات الدفاعية، والقضاء على منافسيه الواحد تلو الآخر، وخلق دولة متجانسة بدلا من الإمارات المتنافسة. وبدلا من أن يقوم مانويل لمقاتلته أتبع لمدة إحدى عشرة سنة (١١٦٤-١١٧٥م)، سياسة دفاعية محضة اقتصر على إقامة التحصينات على حدوده، وعندما تنبه في النهاية لزيادة الخطر السلجوقي، وبدأ هجومه كان متأخرا في عمل ذلك.

إلا أن الأتراك أصبحوا عند نهاية حكم 'مانويل' أقوى بمراحل منهم عند توليه للعرش، وقد أصبحت إمارة سلاجقة الروم دولة قوية. وأتبع مانويل الوسائل الدبلوماسية المعتادة، التي اشتهر بها البيت الكوميني، في التفريق بين سلاطين البيت السلجوقي وأمرائهم في قونية وأنقرة. وكانت العلاقات البيزنطية السلجوقية قد بدأت في التوتر عام ١١٧٣م، عندما تحالف نور الدين مع قلج أرسلان لقتال البيزنطيين، وأتصل بالسلطان السلجوقي وأوضح له أنه على استعداد لمهاجمة نور الدين مقابل انسحاب قلج أرسلان من هذا التحالف، ويبدوا أن قلج أرسلان وافق الإمبراطور مانويل على طلبه، ثم ما لبث أن توفي نور الدين، فارتاح الإمبراطور البيزنطي من خطر كان يهدده، وبدأت علاقات ودية ظاهريا، ولكن حقيقة الأمر كانت غير ذلك، فقد كان كل جانب يستعد ليقتحم الفرصة لقتال الطرف الآخر، وهو أحسن استعدادا من خصمه.

وفي عام ١١٧٤م فر أميرن من وجه قلعج أرسلان وهما "شاهنشاه وذو النون" والتجأ إلى الإمبراطور مانويل في القسطنطينية، فرحب بهما، مما أثار مخاوف قلعج أرسلان، وطلب منه أن يعيد أملاك الأميرين، وإعادة المدن التي لم يكن قد أعادها من قبل، وكانت الجيوش البيزنطية على أهبة، في حين لم يكن قلعج مستعدا، فأرسل يعلن موافقته للإمبراطور حتى يجهز جيشا، ول يظهر حسن نواياه للإمبراطور وأن الرقض لم يأت من جانبه، وأن سكان المدن يرغبون ببعض المزايا فاتحاز السكان للسلاجقة ورفضوا تسليم المدن للمندوب البيزنطي، مما أغضب الإمبراطور. وعمد مانويل إلى تحصين مراكز الحدود لإغلاق المداخل إليها، وبخاصة "برغمة" و"كلبارا" وخطي الدفاع على نهري "الميتاردو" و"رمز" و"ملاجنة" في مقاطعة نيقية التي جعل منها خط دفاع آخر. وبهذا العمل يكون مانويل قد بنى ما يشبه السد لحماية ممتلكاته في غربي آسيا الصغرى من هجمات السلاجقة، وتقع دور يلوم المهمة عسكريا على هذا الخط الذي يصل إلى قونية، وتحكم في العديد من الطرق التي تنتشعب منها إلى كافة الاتجاهات، وقد اتخذها قاعدة لعملياته وحصنها بشكل لافت^(١٣).

أسباب معركة ميروكيساليون

استغل مانويل حالة التشردم والانقسام التي كان عليها أمراء سلاجقة الروم، في محاولة لاستعادة ممتلكات إمبراطوريته منهم في آسيا الصغرى، فحاول إشعال نار الوقيعة بين أمراء قونية في الجنوب وأنقرة في الشمال، والد انشمند لأمراء قبادوقيا في الشرق، غير أن وجود سلطان ذكي وقوي في قونية، واسمه "قلعج أرسلان" أفسد مخططاته، وبالرغم من أن سياسة مانويل، مع هذا السلطان، اتسمت بالود لبضع سنين في بداية توليه العرش، لكنها تحولت إلى عداوة محكم فيما بعد.

اتجه "قلعج أرسلان الثاني" للتوسع في أراضي بيزنطة، وشجعه على ذلك أمور منها: انصراف الإمبراطور البيزنطي إلى الاهتمام بالأمور السياسية في أوروبا، ومنها النزاع مع الإمبراطور "فريدريك برابروسا"، إذ عمد فريدريك إلى إثارة المتاعب ضد الإمبراطور البيزنطي، بتشجيع "قلعج أرسلان" على الثورة على بيزنطة، والتوغل في أراضي آسيا الصغرى عام ١١٧٥م. وتحول "قلعج أرسلان" إلى صداقة عدوه "فريدريك برابروسا"، وقام قلعج أرسلان الثاني بزيارة رسمية إلى القسطنطينية في (ربيع عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)، ونزل ضيفا على مانويل الذي استقبله بالحفاوة والتكريم، وأنزله أجمل قصوره وغمره بالهدايا، وشاهد كنوز وثروات القسطنطينية، وشاهد عرضا للنار الإغريقية، ويبدو أن الذي حمله على القيام بهذه الزيارة، هو الوقوف عن كذب على ما يجري في البلاد البيزنطية من مؤامرات تحاك ضده، من قبل ياغي أرسلان وأخيه خلفه عن الحكم، وإحلال أخيه مكانه. وأنشاء إقامة السلطان السلجوقي في العاصمة البيزنطية، التي استمرت ثمانين يوما، تباحث العاهلان خلالها في إمكان إعادة النظر في الاتفاقية المعبرمة بينهما، وإجراء بعض التعديلات عليها،

استنادا للظروف السياسية التي استجدت منذ إبراسها في العام الماضي ، وقد وافق الطرفان على التعديلات الخاصة بقلج أرسلان الثاني وهي أن:

— يعترف بأن أعداء الإمبراطور هم أعداء له أيضا.

— يعيد لماتويل المدن التي كانت سابقا جزءا من الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة أماسية وجوارها.

— يتعاون مع ماتويل وفقا لرغباته.

— يشكل فرقا عسكرية تجوب مناطق الحدود، بشكل مستمر، لحمايتها من غزوات القبائل التركمانية.

— لا يبرم أي معاهدة، ولا يعقد أي صلح مع طرف ثالث، إلا بعد موافقة الإمبراطور.

أشاعت زيارة قلج أرسلان الثاني للقسطنطينية جوا من الارتياح في العاصمتين السلجوقية والبيزنطية ، وقد سر الإمبراطور أن يقوم أقوى الأمراء المسلمين بزيارته ليقيم له الولاء أمام شعبه. غير أن الزيارة لم تؤد إلى نتائج سياسية مهمة ، ولعلها كانت نوعا من التجسس على ماتويل للوقوف على مواطن الضعف والقوة في الإمبراطورية. ومما لاشك فيه أن السلطان السلجوقي اطلع على أسرار كثيرة من أسرار لقصر الإمبراطوري، وبخاصة مدى اتصال الدانشمنديين بالإمبراطور، دليل أن قلج أرسلان الثاني صرح أمام أتباعه، بعد عودته إلى عاصمته، أنه بقدر ما يلحق بالإمبراطورية البيزنطية من أضرار. ولقد ظن ماتويل أنه أخضع السلاجقة لسلطانه ، لكن هذا الخضوع كان مؤقتا، وكل ما حققه هو نصر ظاهري، استغله قلج أرسلان الثاني في صراعه مع الدانشمنديين، إذ استمرت الغارات السلجوقية على طول الحدود البيزنطية الشرقية خلال الأعوام (٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٢-١١٧٣م). ومن ناحية أخرى استطاع "فريدريك بربروسا" أن يكسب إلى جانبه السلطان "قلج أرسلان" ودخل في مفاوضات معه باعتباره أحد أعداء الإمبراطورية البيزنطية في الشرق وحته على قتال الإمبراطور ماتويل، وأوغر صدره ضده، وأغراه على التقدم لفتح ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى، وذلك عندما تورط "ماتويل" في محاولة فتح جنوب إيطاليا، وكان "فريدريك" يقصد من وراء ذلك أن يتحول الإمبراطور "ماتويل" عن المسائل الأوروبية إلى الاهتمام بأمور آسيا الصغرى. وعلى الفور قام سلطان قونية السلجوقي بالقضاء على مناوئيه من الدانشمند، وهم العدو الذي كان يهدد ظهوره أثناء حروبه مع الإمبراطورية البيزنطية، كما ذلك إن آل دانشمند اعتمدوا على مساعدة تور الدين" الذي ازداد نفوذه في الفترة الأخيرة، وقيام الخليفة العباسي في بغداد بإصدار إعلان يقضى بتعيين تور الدين" حاكما على "الموصل والجزيرة وإربل وخلاط وأنشام وديار بكر وبلاد قلج أرسلان. "وأخيرا فإن أمن السلاجقة لا يتحقق من ناحية الحدود الغربية إلا باستيلائهم على بقية الممتلكات البيزنطية الواقعة في آسيا الصغرى. أما

الإمبراطور "ماتويل" فهناك عوامل أدت إلى قيام الحرب بينه وبين السلاجقة في هذا الوقت. فمن الأسباب الأوروبية يمكن القول : إن الإمبراطور ماتويل قد فرغ من مشاكله لبعض الوقت، بعد ما عقد الصلح مع البنادقة، يضاف إلى ذلك أن استئناف الصراع بين البابا وفريديريك بربروسا، قد أعطى الفرصة للإمبراطور ماتويل لاستئناف الحرب مع السلاجقة، وإعادة حقوق الإمبراطورية في آسيا الصغرى، ووضع حد للتوسع السلجوقي. (١٤)

أما الأسباب الشرقية: — فمما لا شك فيه أن فرار ذي النون وشاهنشاه كان من العوامل التي ساعدت على تجدد القتال بين الإمبراطورية والسلاجقة، خاصة وأن هذين الأميرين كانا يعتمدان على بعض العناصر المؤيدة لهما في الإمارات الدانشمندية، يضاف إلى ذلك أن التحصينات التي أقامها ماتويل في مدينة "لاودكيا"، في وادي نهر الميندر وهرموس، قد شجعت بعض العناصر الوطنية البيزنطية على العودة إلى هذه المنطقة، وتعميرها وإمداد الخزانة البيزنطية بالضرائب في هذه المناطق، حتى لا يهجروها ويكفوا عن دفع الضرائب.

ابتدأت العلاقة بين السلاجقة والبيزنطيين بالتوتر في عام (٥٦٨هـ / ١١٧٣م) عندما تحالف قلقج أرسلان الثاني مع نور الدين محمود، حيث عد ماتويل هذا التحالف موجهاً ضده، فاشتم به القلقج، وراح يعمل على إفشاله، فاتصل بالسلطان السلجوقي وأبدى استعداداه لمهاجمة نور الدين إذا قام بمهاجمة السلاجقة مقابل التسحبه من التحالف. ويبدو أن قلقج أرسلان الثاني وافق على العرض الإمبراطوري، لكن وفاة نور الدين محمود أوقفت الجهود المبذولة للتفاهم. وعادت العلاقة لتكون ظاهرياً ودية، لكن في حقيقة الأمر كانت غير ذلك، فقد كان كل طرف يستعد لمهاجمة الطرف الآخر، ويتحين الفرصة لذلك. أما السبب المباشر الذي أدى إلى قيام الحرب بين الإمبراطورية البيزنطية والسلاجقة، فهو هي أن الإمبراطور ماتويل أتاحت له الفرصة فعلاً، في عام (٥٧٠هـ / ١١٧٤م) حيث ظهرت في الأفق السياسي بعض العوامل التي ساعدت على نشوب الحرب، منها ما يختص بالسلاجقة، ومنها ما يختص بالبيزنطيين (١٥).

ففيما يختص بالسلاجقة يمكن رصد العوامل التالية:

التجاء كل من شاهنشاه وذي النون إلى القسطنطينية، وترحيب الإمبراطور بهما، مما أثار مخاوف قلقج أرسلان الثاني. دخول الإمبراطور الألماني فريديريك بربروسا على الخط السياسي، حين تبادل الرسائل مع قلقج أرسلان الثاني بوصفه أقوى وأشد أعداء الإمبراطورية البيزنطية في الشرق، وحته على قتال البيزنطيين، وكان يهدف إلى تحويل أنظار ماتويل عن الاهتمام بالمسائل الأوروبية.

أن قضاء قلج أرسلان الثاني على الإمارة الدانشمندية، في سيواس، شجعه على قتال مانويل، بعد أن شعر بأن أمن السلاجقة على الحدود الغربية لا تحقق إلا بضم ما تبقى من الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى ١٦.

وفيما يختص بالبيزنطيين يمكن توضيح العوامل التالية: -

أن فراغ مانويل من مشكلاته في أوروبا، بعقده معاهدة مع البندقية، بالإضافة إلى استئناف الصراع بين البابوية وفريدريك بربروسا، أعطياه الفرصة للتفرغ لأمر الشرق، واستئناف القتال مع السلاجقة، إعادة حقوق الإمبراطورية في آسيا الصغرى، ووضع حد للتوسع السلجوقي.

أن لجوء كل من الأميرين شاهنشاه وذي النون إلى البلاط البيزنطي، شجعه على القيام بحملة على آسيا الصغرى، وأعطاه حجة استغلها بذكاء.

أن تحصين مدينة "لاذيق" في وادي نهر المياندز شجع العناصر الوطنية البيزنطية على العودة إلى هذه المنطقة وتعميرها، فأمدوا الخزانة الإمبراطورية بالضرائب، وشعر مانويل بهذه الفائدة، فرأى أن عليه تأمين بقاء السكان فيها ١٧.

فأرسل إلى السلطان: قلج أرسلان يطلب منه إعادة المدن التي لم يكن قد أعادها حتى ذلك الوقت، طبقاً لمعاهدة عام (٥٥٨هـ / ١١٦٢م)، وفي الوقت الذي أرسل فيه مانويل إلى السلطان السلجوقي يطلب منه تحقيق ذلك، كانت القوات البيزنطية على أهبة للقتال، مما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطي قد عقد العزم على قتال السلاجقة، وافترض مقدماً عدم قيام السلطان بتحقيق رغبات الإمبراطور. وعلى ما يبدو أن "قلج أرسلان" لم يكن قد استعد للقتال، ودل بتصرفه على أنه رجل دولة من الطراز الأول، إذ إنه نفذ خطة ذكية، وحتى يعمل على كسب الوقت أبدى موافقته على رد المدن للإمبراطورية البيزنطية، وطلب من الإمبراطور مانويل إرسال مندوب عنه لاستلام هذه المدن، فأرسل الإمبراطور البيزنطي قائده "الكسيوس أوف أولبس" Alexius of Auips، ومعه قوة بلغ تعدادها ما يقرب من ستة آلاف من الجنود البيزنطيين لتنفيذ هذه المهمة، ولما كان "قلج أرسلان" عازماً على عدم رد هذه المدن للإمبراطور "مانويل"، وحتى يظهر حسن نواياه تجاه الإمبراطور، وأن الرفض لم يأت من جانب، أرسل إلى سكان هذه المدن واعداء إياهم على ما يبدو ببعض المزاي إذا بقيت مدنتهم تابعة للسلاجقة، كما وعد أيضاً بمساندتهم ضد البيزنطيين، فاحتاز السكان إلى جانب السلطان السلجوقي، ورفضوا تسليم المدن إلى المندوب البيزنطي، فعاد دون أن يحقق المهمة التي أوفد من أجلها، الأمر الذي أغضب الإمبراطور "مانويل" وأعتبره خدعة من جانب السلطان "قلج أرسلان" ١٨.

وإذا كان الإمبراطور "مانويل" قد أحس بالدور الذي لعبه "قلج أرسلان الثاني" ونتج عنه عدم رد المدن للإمبراطورية، فإن الإمبراطور أدرك أيضاً أن السلطان

السلجوقي سوف لا يوافق على رد أملاك آل داتشمند وذوي النون، وكذلك إعادة مدينتي - أنقرة وجانجرس - Gangres - إلى شاهنشاه، وبدأ التفكير في استعمال القوة ضد السلاجقة في الوقت الذي وصلت فيه القوات البيزنطية بقيادة الإمبراطور "ماتويل" إلى مدينة "ضروليوم" Drylaeum، والواضح أن شاهنشاه قد لعب دورا في هذا الوقت، وحرص الإمبراطور على مهاجمة مدينة "أماسية" التي تقع إلى الشرق من "جانجرس"، وهون الأمر على الإمبراطور، وأوضح له أن بعض أعوانه في هذه المدينة، التي لا تخضع للسلطان السلجوقي، سوف يقدمون له المساعدة، ولعل شاهنشاه كان يقصد من وراء ذلك أن يتسلم هذه المدينة ليحكمها، عوضا عن أملاكه التي استولى عليها أخوه "قلج أرسلان الثاني". وفي ذلك الوقت، أو بعده بقليل، بدأ الإمبراطور "ماتويل" في العمل على زيادة تحصينات الحدود البيزنطية في آسيا الصغرى، والحقيقة أن الوقت كان متأخرا جدا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية للقيام بمثل هذا العمل، بعد ما سيطر "قلج أرسلان" تقريبا على معظم آسيا الصغرى، وهزم منافسيه واحدا بعد الآخر، وكون دولة متجانسة قوية تحل محل الإمارات الصغيرة المتنافسة، التي طالما خدم تنافسها الإمبراطورية، وعلى أية حال فقد خطط "ماتويل" لإقامة عدة تحصينات عند مدينة "ضروليوم"، التي كانت خربة في هذا الوقت، لأن هذه المنطقة تمثل نقطة إستراتيجية هامة في قلب آسيا الصغرى، وتتحكم في عديد من الطرق التي تنشعب منها إلى كافة الاتجاهات.^{١٩}

ولكي يقيم "ماتويل" مثل هذه التحصينات، كان عليه أن يقوم بطرد السلاجقة الرحل الذين كانوا يضربون خيامهم حول هذه المنطقة، ثم بدأت أعمال التحصينات، وسار العمل على قدم وساق حتى تم إعداد السور خلال أربعين يوما، كما تم حفر خندق أمام هذا السور، ولم تسلم القوات البيزنطية من مهاجمة القبائل السلجوقية أثناء إقامة هذه التحصينات، كما أن السلطان "قلج أرسلان" اعتبر قيام مثل هذه الأعمال للدفاعية دليلا على سوء نية الإمبراطور، وأنه يعد العدة لمحاربتة، لذلك أرسل "قلج أرسلان" إلى الإمبراطور "ماتويل" يستفسر منه عنه الأسباب التي دعت إلى بناء هذه التحصينات، فأوفد "ماتويل" أحد قواده ويدعى "توماس Thomas" ليلبغ السلطان بأنه الذي بدأ بالعدوان، وأنه كان السبب في إخفاق "جابر اس" في مهمته، وطالب أيضا السلطان بتسليم مدينة "أماسية"، ولكن "قلج أرسلان" لم يوافق على طلب الإمبراطور، فعاد المبعوث البيزنطي فاشلا في مهمته.

بدأ الموقف يزداد توترا بين السلطان والإمبراطور، وبارزاد هذا التوتر زادت إقامة التحصينات، فبعدما فرغ "ماتويل" من إقامة التحصينات عند "ضروليوم" اتجه إلى مدينة "لوباديون" Lopadium لتنفذ القوات البيزنطية هناك، ثم اتجه جنوبا إلى وادي نهر "المياتدر"، وأقام هناك لبعض الوقت ثم فيه تحصين المنطقة، وخاصة مدينة "سوبلايون" Soublaion، للسيطرة على الطرق المواجهة لمدينة "قونية"، ثم عاد إلى

العاصمة البيزنطية في أواخر عام ١١٧٥م، وأثناء إقامة الإمبراطور "ماتويل" في القسطنطينية حدث أمران:

أولهما: أن الإمبراطور عاقب "جابر اس" بالسجن لفشله في الاستيلاء على مدينة "أماسية".

ثانيهما: أن السلطان "قلاج أرسلان" أرسل إلى الإمبراطور "ماتويل" رفض هذا العرض، وبذلك بات واضحا أن الحرب واقعة لا محالة بين الإمبراطورية البيزنطية والسلاجقة، وأخذ كل منهما يستعد للقتال، والواقع أن الإمبراطور "ماتويل" كان أكثر استعدادا للقتال بعد ما كرس كل همه لهذا الغرض، وأعد العدة لحرب طويلة مع السلاجقة، وظل حتى ربيع عام ٥٧١هـ/١١٧٦م، تقريبا يعمل على تخزين كميات كبيرة من المؤن عند معسكره الذي أقامه عند "توباديون"، كما قام بحشد قواته في هذا المعسكر، بالإضافة إلى القوات التي انضمت إليه من الصرب وهنغاريا، بحكم ولايتهما للإمبراطورية، ولم يكتف الإمبراطور بهذا الحشد من القوات البيزنطية التي اشتملت أيضا على عناصر صليبية وإنجليزية، وهي العناصر اللاتينية التي تعمل في القوات البيزنطية، بل أرسل إلى البابا "الكسندر الثالث" ١١٥٩-١١٨١م خطابا في التاسع والعشرين من يناير عام ١١٧٦م، يبلغه **بخطرات الموقف في آسيا الصغرى**، ويطلب منه إرسال نجدات من الغرب الأوربي لمساعدة الإمبراطورية في حروبها ضد السلاجقة، وقد لبس البابا نداء الإمبراطور، وكلف أحد الكرادلة ويدعى "شريزوجون Chrysogone" بالتوجه إلى ملك فرنسا يحثه على حمل الصليب، وانتشرت الأخبار في كل ربوع أوروبا باستعداد الإمبراطور "ماتويل" لحرب السلاجقة، وظهر أمام الغرب والبيزنطيين والصليبيين، أن الإمبراطور "ماتويل" يعد العدة لحملة صليبية ضخمة لقتال السلاجقة والمسلمين على حد وصف بعض المؤرخين. وفي أوائل عام (٥٧٢هـ/ صيف ١١٧٦م) كانت القوات البيزنطية البرية قد استعدت للقتال. "٢٠"

أحداث معركة ميروكيا لون :

تقدم ماتويل في أواخر (٥٧١هـ/ صيف ١١٧٦م) باتجاه الأراضي السلجوقية، على رأس جيش كبير بلغ تعدادُه مئة ألف مقاتل، مصطحبا ديون التركي وذوي النون الداشمندي، متخذًا طريق "لاذيق" والوادي الأعلى لنهر المياندر، وعندما وصل إلى منطقة الجبال الواقعة قرب الحدود، وصلت إليه رسالة من السلطان السلجوقي، يطلب منه تجديد المعاهدة، لكنه رفض ذلك أيضا، وتجمع الجيش كله أمام لوباديوم أرتأي ماتويل قبل الخروج من لوباديوم، أن يقسم جيشه إلى قسمين، تولى القسم الأول ابن عمه أندرونيكوس فاتازس، ومعه ذو النون حاكم ميواس السابق، وتقدم قواتهما بثلاثين ألف جندي، ومهمته مهاجمة السلاجقة من الشمال وإعادة ذي النون إلى بلاده

، في حين قاد ماتويل القسم الثاني وهو القسم الرئيسي ، ومهمته التوجه إلى قونية من ناحية الغرب"٢١٠.

اجتاز القسم الأول من الجيش "بافلاجونيا" متوجها إلى نيكسار، وكانت تحت حكم ذي النون من قبل ، وذلك لوجود بعض الموالين لآل دانشمند فيها، ولما وصل أفرادها إلى المدينة ضربوا الحصار عليها مركزا وشديدا، ونظرا لضخامة القوات وفر بها من إقليم بافلاجونيا، التي أمدتها بالرجال والمؤن والسلاح ولما رأى قائد حامية المدينة أنه لا طاقة له بمقاومة الجيش البيزنطي والمتحالفين معه، لجأ إلى الخدعة، فأمر بإرسال السهام إلى المعسكر البيزنطي، وهي تحمل رسائل موجهة إلى القائد البيزنطي، تتضمن إنذارا بأن الدانشمنديين، الذين سلمت إليهم القيادة، يحاولون خيانة البيزنطيين، ويعملون على إيقاع القائد البيزنطي في أيدي السلاجقة الذين أعدوا الكمائن، وهم ينتظرون الفرصة المناسبة. صدق "فاتراس" مضمون الرسائل بعد أن أطلع عليها، وبدأ يتوقع خيانة ذي النون، فتأخرت بذلك عملية اقتحام المدينة، كما أشاعت الفوضى داخل المعسكر البيزنطي، وبدأ التوتر ينتشر بين الجنود البيزنطيين، ومما زاد في إشاعة الفوضى والاضطراب بين القوات البيزنطية، تلك الإشاعة التي أطلقها السلاجقة عن موت الإمبراطور ماتويل، فاضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة والإسحاب دون نظام، فتعقبهم السلاجقة وقتلوه أمام أسوار المدينة وانتصروا عليهم، وكبدوهم خسائر فادحة في الأرواح، كان من بينها للقائد فاتراس الذي حمل رأسه إلى السلطان السلجوقي ٢١١.

تزعج ماتويل عندما بلغته نبأ هزيمة جيشه أمام نيكسار، و كان في طريقه إلى قونية، فظن أن القوة السلجوقية لازالت في الشمال ، و أن العاصمة السلجوقية خالية ممن يحميها ويدافع عنها ، فأخذ السير ليهاجم السلاجقة ، فلم يسلك طريق دورليوم، وهو الطريق الطبيعي للوصول إلى قونية ، و إنما توجه إلى لاذيق الواقعة على نهر المياتدر، واخترق وادي النهر حتى وصل إلى "سوبلايون"، ثم سار شمال بحيرة أجر دير، ومضى إلى التلال المؤدية إلى سلسلة الجبال الضخمة المعروفة باسم جبال السلطان، إلى الشرق من سوبلايون، بالقرب من قونية، وحاول عبور الممر الواقع في هذه الجبال المعروف باسم ممر تزيبرتز الذي يقع في نهايته حصن "ميريوكيفالون" الغرب، ليكون في مواجهة قونية مباشرة. كان قلع أرسلان الثاني، في غضون ذلك، يرصد زحف الجيش البيزنطي متبعا خطة البدو، ففهم الطرق التي لابد أن يجتازها الجيش، وأحرق المحاصيل الزراعية، وأتلف المؤن في المدن والقرى التي تقع في الأراضي التي سيمر بها، كما سمم الآبار والينابيع لمنع البيزنطيين من الاستفادة من التموين والاستراحة والماء. وجند في الوقت نفسه، العساكر حتى صار جيشه يضارع الجيش الإمبراطوري في العدد، غير أنه يقل عنه عدة، لكنه يتفوق في التعبئة وسرعة الحركة نظرا لما يمتاز به الفرسان السلاجقة من الخفة وحرية

الحركة، ثم وزع قواته على المرتفعات والتلال، وأقام هو على مرتفع يشرف على تحركات الجيش البيزنطي. ٢٣٠*

ارتكب مانويل أثناء زحفه خطاين جوهريين:

الأول: عندما أهمل استكشاف المنطقة، وهو أول عمل يقوم به العسكريون عادة.

الثاني: عندما رفض نصيحة قائده بالتروي والحذر، وعدم سلوك الممر الجبلي المواجه للعدو.

والواقع أن مانويل تأثر بأراء الأمراء الذين غرهم إقدامهم حتى وثقوا من بسالتهم، واشتد حماسهم لإحراز نصر كبير، كما أن الإمبراطور نفسه كان متحمسا للقتال بعد الاستعدادات الضخمة التي أنجزها من أجل القيام بهذه الحملة.

قرر مانويل المضي في سلوك الممر الضيق، فأمر جيشه بالتقدم. ولم يتعرض السلاجقة في تلك اللحظات للجيش البيزنطي، واكتفوا بمناوشة أفرادهم فقط، ثم انسحبوا وفق خطة عسكرية لإغراء الجيش البيزنطي على الدخول في الممر. وهكذا اجتازت مقدمة الجيش مدخل الممر وأوغلت فيه، وتوهم البيزنطيون أن السلاجقة غير قادرين على خوض الحرب، فتمادوا في التوغل في داخل الممر وهم مطمئنون، في الوقت الذي انتشرت فيه القوات السلجوقية فوق رؤوس الجبال. وفي الأماكن المخفية عن أعين القوات البيزنطية، وتركزت على جانبي الممر ومن حوله. كان الجيش البيزنطي يحاول أن يقطع الممر البالغ طوله عشرة أميال بسرعة، للخروج بعد ذلك إلى السهل المنبسط أمام مدينة قونية، لذلك اندفع أفرادهم مع عرباتهم ومعداتهم حتى نكس بهم الممر، وسار الجنود إلى جانب الدواب والعربات المتلاصقة، وانتشر بينهم مرض الإسهال فخارت قواهم. على أن العربات الثقيلة، التي حملت آلات الحصار والمؤن، أبطأت في سيرها، فوجد الجنود أنفسهم وقد حشروا حشرا، وتعذر عليهم التقدم حين تسببت المقدمة والمؤخرة في غلق الممر من الأمام ومن الخلف. حدث هذا تحت بصر السلاجقة الذين كانوا يراقبونهم، منتظرين اللحظة المناسبة للتقضاض عليهم دون تهور أو اندفاع. أدرك مانويل، في هذا الوقت الحرج، مدى ما ارتكبه من خطأ عسكري عندما حشر جيشه ونفسه في ذلك الممر الضيق. وحتى يشغل القوات السلجوقية، أرسل صهره بلدوين الأنطاكي على رأس قوة عسكرية من الخيالة، ارتقى معها التل وهاجم قوة سلجوقية، غير أنه هزم ولقي مصرعه مع رجاله. وشهد الجنود الذين في الوادي ما حل بالفرقة من هزيمة، فذب الذعر فيهم وتضعضت صفوفهم وهبطت معنوياتهم. وضربت القوات السلجوقية، في اللحظة المناسبة، مقدمة الجيش البيزنطي بهدف شل حركته ومنعه من التقدم. نجحت بالصدود ولحمتي أفرادها ببعض التلال، بينما بقيت المعدات في الممر، فادت إلى وقف تقدم الجيش الذي أضحي أسيرا

في قبضة القوات السلجوقية. وبعد أن نجح السلاجقة في وقف تقدم الجيش البيزنطي، هاجموا القلب بهدف شطره إلى قسمين، ونجحوا في ذلك عندما ارتكب قائد المؤخرة خطأ بابتعاده عن جسم الجيش، وشكلت الحيوانات حاجزا ففصلته عن القلب. عندئذ ركز السلاجقة سهامهم على الثيران التي تجر العربات، وقتلوا عددا كبيرا منها، مما زاد في العرقلة واتساع الهوة بين شطري الجيش، فتفككت عندئذ الجحافل البيزنطية، وتجمع كل شطر حول نفسه مكونا جسما ضخما جامدا، وبلغ من شدة التصاق الجنود ببعضهم أنه لم يكن بوسعهم أن يحركوا أيديهم إلا نادرا، ففقدوا بذلك حرية الحركة التي هي عنصر أساسي من عناصر الانتصار، كما تعذر عليهم القيام بالحركات العسكرية الضرورية، التي تجعلهم قادرين على مجابهة العدو بصفوف منتظمة ومتأهبة للقتال. ثم هاجمت القوات السلجوقية مؤخرة الجيش البيزنطي، فقتلت، ولما حاول أفرادها بلوغ إحدى القمم أثار تحركهم الفوضوي الغبار، والتراب من حولهم، فاستحالت رؤية القوات لبعضها، فاصطدمت ببعضها، مما أدى إلى وقوع كارثة حقيقية. ركز السلاجقة بعد ذلك ضغطهم على القسم الآخر من الجيش، وأمطروه وابلا من السهام، كما دفعوا بكتل الأحجار الضخمة من أعلى قمم الجبال، مما زاد في إرباك القوات البيزنطية^{٢٤}.

نتيجة لهذا الوضع العسكري المتردي، حاولت القوات البيزنطية الخروج من هذا المأزق الصعب بأي وسيلة، لكنها فشلت في ذلك بعد أن أغلق السلاجقة المنافذ، كما سدت العربات الطريق الضيق، فنب اليأس في نفوس الأفراد وانهارت قواهم، وفقدوا شجاعتهم. وكان ماتويل أول من استبد به الذعر والقلق، فحاول الفرار طلبا للنجاة. وحتى يزيد السلاجقة من إثارة الذعر في نفوس القوات البيزنطية، فإنهم عمدوا إلى وضع رأس القائد بلدوين الأنطاكي على عصا طويلة وطافوا به أمامها، كما عمدوا إلى ترديد نداءات ليلية تشير إلى أنهم أعدوا العدة لإبادتهم مع طلوع الفجر، وكان لهذه النداءات أسوأ الأثر في نفوسهم.

وجاءت أخيرا لحظة الإجهاز على الجيش البيزنطي المرتبك، فانفض السلاجقة عليه، وراحوا يقتلون أفرادهم كيف شاءوا، وتوغلوا بينهم حتى وصلوا إلى مكان وجود الأمثلة والعربة الملكية التي تركها الإمبراطور خلفه حين تقدمه، فنهبوا وأحرقوها، واستمر القتال حتى حلول الظلام. ونجح ماتويل بعد ذلك في الخروج من الممر إلى أحد شعاب الوديان المتفرعة، كما استطاعت بعض قواته اللحاق به، لكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد، فانقضوا عليهم، وقتلوا وأسروا عددا منهم، وتمكن ماتويل من الفرار، وراح يتنقل في الوديان المجاورة حتى اتصل ببعض قواته، فطارده السلاجقة أيضا وحاصروه من جديد. واستمر القتال مدة سبعة أيام في ظروف غير عادية.

كانت حالة الجيش البيزنطي بعد الهزيمة تدعو للراء، فقد قتل وأسر العديد من أفرادهم، وتشرذم نجا بين هائم على وجهه في شعاب الوديان، وجريح في أرض

المعركة. ولم يجد ماتويل أمامه، في هذه الظروف الصعبة سوى طلب الصلح. ويروى ميخائيل السرياني أنه أرسل إلى قلعج أرسلان يعرض الصلح عليه وتسليمه المدن التي حصنها الإمبراطور مؤخرًا، وهي دوريليوم وسوبلايون، مقابل إتقان ما تبقى من القوات البيزنطية والسماح لها بالانسحاب.^{٢٥٠}

ويذكر المؤرخ تيكتاس^{٢٥١} أن السلاجقة تقدموا بهاتجاه القوات البيزنطية، وينتقل فجأة إلى القول بأن أحد القادة الأتراك أصدر أوامره إلى القوات السلجوقية بالتوقف عن القتال، ثم تقدم إلى الإمبراطور وقدم له جوادًا مسرجًا كهديّة من السلطان، وطلب منه عقد الهدنة مقابل تدمير تحصينات دوريليوم وسوبلايون. ويروى الإمبراطور البيزنطي حول الصلح مع السلاجقة - في الكتاب الذي أرسله إلى الملك هنري الثاني - أن السلطان السلجوقي توسل إليه في عقد الصلح مقابل إطلاق سراح جميع الأسرى البيزنطيين، والتحالف مع الإمبراطورية ضد أعدائه، وأنه استجاب لهذا النداء، بعد أن أدرك أن لا جدوى من مواصلة القتال بسبب فقدانه آلات الحصار ومعدات الحرب. ووصف ماتويل، في رسالة أخرى، أرسلها إلى الإمبراطور الأكماني فريديريك بربروسا، موقف السلطان السلجوقي بأنه ضعيف، لكن فريديريك اعلم بعد ذلك بحقيقة الموقف، ولجابه على رسالته بأن الإمبراطور الأكماني، الذي استمد قوته من الأباطرة الرومان العظماء، يجب أن يحكم الإمبراطورية الرومانية بشقيها الشرقي والغربي.^{٢٥٢}

وتتفق الروايات الثلاث على بأن مبدأ الصلح قد تقرر بين السلطان والإمبراطور، وأن القوات البيزنطية كانت في حالة سيئة للغاية لا تمكنها من مواصلة القتال، في حين كانت القوات السلجوقية لا تزال في حالة تأهب ومستعدة لمواصلة القتال، ولكنها تختلف في تحديد البدأ بطلب الصلح وبنوده. وتتبنى الباحثة روية ميخائيل السرياني، لأنها صادرة عن مؤرخ محايد من جهة، ومن جهة ثانية، كانت حالة الجيش البيزنطي يرثى لها، ولا يستطيع المقاومة ولا الحرب، لكن يختلف معه في أن الصلح كان في مقابل تدمير تحصينات مدينتي دوريليوم وسوبلايون، وليس تسليم هاتين المدينتين إلى السلاجقة، وذلك استناد إلى الأحداث التاريخية التي تلت ذلك. ومهما يكن من أمر فقد استقرت قاعدة الصلح على البندين التاليين:

— يبادر ماتويل فورًا بالانسحاب من الأراضي السلجوقية.

— يدمر التحصينات التي أقامها مؤخرًا في دوريليوم وسوبلايون.

ولهذا البند الأخير أهمية كبيرة للسلاجقة، لأنه سمح لهم بالتقدم دون عائق إلى وادي نهر المياندز. وهناك إشارة عند ميخائيل السرياني تسمح بافتراض أن السلطان فرض على الإمبراطور دفع ضريبة باهظة.

وأرسل قلعج أرسلان الثاني بعد عقد الصلح قوة عسكرية بقيادة ثلاثة من الأمراء راقت ماتويل حتى حدود، بلاده لللا يتعرض لغارات التركمان^{٢٥٣}.

ويبدو أن القبائل البدوية التركمانية غضبوا لهذا الصلح ولاموا السلطان على تصرفه. والواقع أنهم الفئة الأكثر احتكاكا بالبيزنطيين قربهم من مناطق الحدود، وهم أعلم بمصلحتهم من السلطان الذي يعيش بعيدا عنهم. لقد كانوا بحاجة إلى أرض جديدة نظر الظروف حياتهم المتنقلة، وازدياد أعدادهم بفعل الهجرات المستمرة، لذلك اختلفت وجهة نظرهم مع وجهة نظر السلطان، وكان الأجدر به أن يأخذ بوجهة نظرهم، لكنه لم يستمع إليهم وأصر على رأيه. ونتيجة لذلك راح هؤلاء بهاجمون الجيش البيزنطي المنسحب، فاستاء البيزنطيون من هذا التصرف، وألقوا اللوم على القوة السلجوقية المرافقة لهم، إلا أن هؤلاء برروا موقفهم بأن ذلك من عمل التركمان ولا سلطان لهم عليهم.

وهذه المعركة الهامة سجلها المؤرخ البيزنطي نيقيتاس خونيئات Nicetas Choniates ووصلها فريونس Vryonis بأنها كانت "منازكة" ثانية للمعركة البيزنطية، تلك المعركة التي حدثت قبل ذلك بقرن من الزمان، كما شبهها ماثويل نفسه بهزيمة "منازكة" عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م ليُقارن نفسه "بروماتس الرابع ديوجينيس" حين أسر في حين ظل هو حرا مطلق المراح. "٢٨".

نتائج المعركة :

قال شارل ديبل Charles Diehl: "معقبا على نتائج هذه المعركة: أن بيزنطة فقدت في يوم واحد (٧١ هـ/ ١٧ سبتمبر ١١٧٦م) كل المكاسب السابقة التي عمل من أجلها الأباطرة السابقون عبر قرون طويلة ، ووضعت هذه المعركة نهاية لسيادة بيزنطة على آسيا الصغرى إلى الأبد، وأملى السلطان السلجوقي المنتصر شروطه على إمبراطور الروم المهزوم. وصور المؤرخ البيزنطي نيقيتاس خونيئات Nicetas Choniates الموقف بقوله " أن اللتين يطمعون في ممتلكاتنا، ويرغبون في تدمير سالكتنا، بيننا وبينهم فجوة واسعة مع الكراهية، ووجهات نظرنا تختلف إختلافا تاما وطريقنا يسير في اتجاه معاكس "٢٩".

— فرار الإمبراطور بعد أن خالته شجاعته ، وحاول من تبقى من الجيش أن يتبعه، ولكن لم يحظ بذلك إلا عدد قليل نظرا لأن الترك سدوا جميع المنافذ ولم يسمحوا لهم بالفرار. "٣٠"

— حدثت مذبحة هائلة للبيزنطيين ، وأُلغى "قلج أرسلان" رسولا يعرض الصلح على الإمبراطور الذي كان يجمع فلول جيشه في السهول، في مقابل أن يعيد إليه قلعتي "ضربليوم وسيليوم Doryleum Sublaem، بعد نزاع سلاحهما، فيبادر الإمبراطور بقبول العرض، وأرسل بصحبة الإمبراطور ثلاثة من الأمراء الترك، وحامية لحمايته من التركمان أثناء تراجعه نحو القسطنطينية. "٣١"

- هدم وإزالة جميع الحصون والقلاع الحربية في آسيا الصغرى، التنازل عن ادعائه في أراضي السلاجقة.

وكان قبول هذا الشرط هو بمثابة الاعتراف بعجز الإمبراطورية عن طرد السلاجقة الأتراك من آسيا الصغرى، وكان من نتائجه:- أن بدأت جحافل التركمان تتدفق من منابع الأنهار الآسيوية فوق المرتفعات متجهة نحو مصباتها في بحر إيجة.

- ضياع هيبة البيت الكومنيني، فقد قضى على الجيش البيزنطي الذي أعده كل من "الكسيوس وحنّا كومنين".

- ضياع أمل الدولة البيزنطية في استرجاع ممتلكاتها في آسيا الصغرى من قبضة السلاجقة القوية، على نحو يجعل "ميروكيثالون" مكملة لماتزيكرت. ولكن قلج أرسلان الثاني "لم يدرك أهمية انتصاره كما حدث مع "ألب أرسلان" من قبل، ولعل ذلك إلا أنه ركز كل اهتمامه في الجهة الشرقية، إذ كان كل ما يريده هو تأمين حدوده فقط، فقد استولى على ملطية عام ١١٧٧م، كوتيا، وإسكي شهر عام ١١٧٢م، وحاصر انطاليا، وأصبحت الأناضول فعلاً أرض الترك، وفي أواخر القرن الثاني عشر أصبحت المصادر الغربية تطلق عليها أرض الأتراك^{٣٢}.

- وضعت حداً لمحاولات الإمبراطور "ماتويل" في طرد السلاجقة نهائياً من آسيا الصغرى، فقد استولوا عليها للأبد.

ضاعت هيبة الإمبراطورية البيزنطية ومكانتها السياسية والعسكرية، التي كانت سلاحها الأول في مواجهة منافسيها في الغرب الأوربي، وكذلك كحامية للأمارات الصليبية في الشرق اللاتيني.

ثم إن هذه الهزيمة التي نزلت بالدولة البيزنطية عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م على يد القوى السلجوقية التي كان معظمها أخذ في التدهور والإحلال، تتضح أهميتها في أن قوى عربية جديدة كانت قد أخذت في الظهور ذلك الوقت لتحل محل القوى السلجوقية المفككة في آسيا الصغرى، ونعني بذلك ظهور الدولة الأيوبية "بمصر والشام، التي أخذت تتزعم الجبهة العربية في الشرق الأدنى ضد اللتين الدخلاء^{٣٣}".

- والواقع أن هزيمة الجيوش البيزنطية على يد السلاجقة أتاحت الفرصة للدولة الأيوبية الناشئة لتعزيز مركزها حتى تستطيع مجابهة كل من البيزنطيين والصليبيين.

- اعتبرت المعركة انتصاراً كبيراً للإمبراطورية الغربية ولفريدريك برابوسا ١١٥٢-١١٩٠م نفسه، والذي توهم الإمبراطور البيزنطي أنه ندله، فبعد هزيمة "ماتويل" أمام السلاجقة أرسل "فريدريك برابوسا" - وكانت فرحته لا توصف بهزيمة "ماتويل" وسخر من خسارته وتشغى فيه - بخطاب يقطر احتقاراً، ويسخر فيه من

أحلامه الواهمة في استعادة الإمبراطورية الرومانية القديمة تحت عرشه، ولا ينقصه سوى استعادة سيطرته على الإقليم اليوناني الشرقي (يقصد الإمبراطورية البيزنطية)، وأنه ليس من حق "مانويل" أن يحمل لقب إمبراطور، وأن عليه أن يتنازل عن لقب (ملك الروم) إلى الإمبراطور الروماني. ولما كان "فريديك بربروسا" قد أعلن نفسه وريثاً لأباطرة الرومان، لذلك رأى أن يستد مسقطاه على بلاد الروم (الدولة البيزنطية) ذاتها.

— أضعفت مشروعات "مانويل" موارد الدولة المالية، وبرهنت على استحالة إبقاء سيادته على كل من أوروبا والشرق الأدنى، أمام دول غربية لاتينية مسيحية، وحلقة قوية من القوى الإسلامية، ففشلت كل مشروعاته الشرقية، بل وانهار وضع بيزنطة في العالم، فطردت بيزنطة من إيطاليا، وأصبحت تواجه القوى الغربية ضعيفة منهكة. حتى مشروع التعاون مع روما انتهى وصور المؤرخ البيزنطي Nicetas Choniates الموقف بقوله "أن اللتين يطعمون في ممتلكاتنا، ويرغبون في تدمير سلالتنا، بيننا وبينهم فجوة واسعة مع الكراهية، ووجهات نظرنا تختلف اختلافا تاما، وطريقنا يسير في اتجاه معاكس" ٣٤.

— وإذا كان انهيار الدولة البيزنطية قد بدأ بعد موت "باسيل الثاني" عام ١٠٢٥م، أي في عصر الأسيرة المقدونية، ونجح كل من الكسيوس كومنين وحنا كومنين في تأخير سرعة هذا الانهيار. إلا أنهم فشلوا في إيقافه. أما السياسة الخاطئة التي اتبعها "مانويل كومنين" فقد قادت الدولة البيزنطية مرة أخرى إلى طريق الانهيار التام ٣٥.

— كانت الهزيمة بالغة الأهمية بالنسبة للاتي في الشرق، فقد أدركوا أهمية بيزنطة بالنسبة لهم وشعروا بأن وجود بيزنطة مهم لمواجهة القوى الإسلامية النامية، في حين أن الزنكيين في الشام، الذين تنازعوا الوصاية على "إسماعيل" بعد وفاة تور الدين، لم يشعروا بأهمية تلك المعركة بالنسبة لمستقبل اللتين في الشرق.

— حاول الإمبراطور في سبتمبر عام ١١٧٦م، التحالف مع بلدوين ملك بيت المقدس لمهاجمة صلاح الدين في مصر، وإزالة آثار هزيمة "ميريوكيفالون" وأرسل أسطولاً لبعثا، ولم يلقى البيزنطيون استجابة، وكانت هذه آخر محاولة من جانب "مانويل".

— جاءت هزيمة ميريوكيفالون، وعلى ذلك النحو المهين، من جانب الأتراك السلاجقة، لأنها كانت بمثابة " الاحتفال المنوي بكارثة مانزيكرت"، وقد جاء الانتصار السلجوقي على بيزنطة في أحد الممرات الجبلية بآسيا الصغرى، ليقضى على ما بقي للجيش البيزنطي من هيئته.

- ومما يدل على عظمة كارثة ميريوكيفالون على الإمبراطورية البيزنطية؛ أنه بعد (٢٨) عاما فقط من تلك الهزيمة، كانت القوات الصليبية من الغرب الأوربي تعيث فسادا في القسطنطينية. وتحتلها لأول مرة في تاريخها وذلك عام ١٢٠٤م، بعد أن تزايدت الأطماع اللاتينية فيها، وجاءت المعركة المذكورة تعبيراً عن الضعف الداخلي الذي لم يدرك الإمبراطور المذكور حقيقته، فقد تصور ماتويل أنه ند لأباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة مثل فردريك بربروسا Frederick Barbarossa (١١٥٢-١١٩٠م) وكان ذلك قصر نظر واضح تماماً. "٣٦"

أحوال السلاجقة والبيزنطيين بعد معركة "ميريوكيفالون" :

رفض ماتويل بعد أن عاد إلى عاصمته، تنفيذ البند المتعلق بتدمير تحصينات دورليوم وسويلايوم، على الرغم من أنه أصدر أوامره بإزالة تحصينات المدينة الثانية أثناء مروره فيها، في طريق عودته إلى بلاده. ويبدو أنه عدل عن قراره هذا عندما وصل إلى عاصمته، على الرغم من معاتبة قنّج أرسلان الثاني له، الذي استاء أخيراً من عدم استجابة الإمبراطور لنداءاته المتكررة بشأن ذلك. ولم يكن أمام الزعيم السلجوقي سوى الضغط عليه بمهاجمة الأراضي البيزنطية قبل أن يستعيد الجيش البيزنطي قوته التي فقدتها في ميريوكيفالون، فأرسل جيش مؤلفاً من أربعة وعشرين ألف مقاتل للإغارة على وادي نهر المياندَر، في الجزء الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، وتمشيط المنطقة حتى البحر. ونجح الجيش السلجوقي في تنفيذ المهمة بدليل توغله في وادي النهر، ونهبه مدن "هلاجيه" و"ترالس" وأنطاكية.

خشى ماتويل بعد أن علم بأنباء التوغل السلجوقي في أراضيه، أن يفقد الجيش بنفسه للقواء العدو، لأنه كان لا يزال يعاني من أثر الصدمة التي لحقت به في ميريوكيفالون، كما أن حالته الصحية كانت لا تسمح له بالقيام بذلك؛ فعهد إلى بعض قادته بالتصدي للسلاجقة، وطلب منهم عدم التسرع في الدخول في معركة إلا بعد ضمان النصر حتى يتجنبوا كارثة أخرى مثل ميريوكيفالون، وحقق الجيش البيزنطي نصراً جزئياً على الجيش السلجوقي. وقرر ماتويل أن يقوم بنفسه بمحاربة السلاجقة ووقف تسللهم، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه. وتشير المعارك التي حصلت بين السلاجقة والبيزنطيين، بعد ميريوكيفالون، أن السلاجقة عملوا على كسب أراض جديدة على حساب الدولة البيزنطية "٣٧".

مات الإمبراطور ماتويل كومنين في عام (٥٧٧هـ/ ١١٨١م)، كسير الفؤاد، تاركاً إمبراطورية البيزنطيين تعاني من التدهور والاضطرابات والضعف والإفلاس، بسبب سياسته وأحلامه الواهمة، فعلى الصعيد الداخلي أدت الحروب الكثيرة إلى زيادة نفوذ الإقطاعيين الذين استفادوا من نظام الهبات العسكرية، "برونويا Pronoia"، الذي ضمن لهم حقوقاً مالية وقضائية جعلتهم دويلات داخل الإمبراطورية، وهذا مما أضعف السلطة المركزية للدولة، فلم يعد بوسعها مواجهة ضغط العناصر التركية النازلة على

حدودها. وواكب ذلك تدهور الأحوال الاقتصادية، بسبب كثرة الضرائب لتمويل المعارك والحروب، فضلا عن أن طرد التجار البنادقة، دون ترتيب مخطط وبطريقة مفاجئة غير مدروسة، أحدث هزة في السوق التجارية، وانهيارا مفاجئا في الاقتصاد البيزنطي.

وفي أثناء إشغال ماثول بالمعارك مع السلاجقة عام ١١٦٨م، كانت زوجته الأنطاكية "ماريا" قد أنجبت له وريثا للعرش، أسمته "الكسيوس الثاني كومنين"، كما اتخذت لها عشيقا راحت تلهو معه، غير عابئة بمشاعر الناس، حتى لاكت الألسن سيرتها. وبعد موته عام ١١٨٠م أصبحت الملكة الأنطاكية هي الوصية على ابنها الصغير، وكما تركت نفسها لعشيقها، تركت له تصريف شئون حياتها، وتركته له أيضا تصريف شئون الإمبراطورية المنهارة ومن حولها بطانتها من اللتين الأجانب "٣٨".

وتدل معركة "ميروكيغالون" على قوة السلاجقة الحربية، بل إن الدولة السلجوقية شرعت في إعداد نظم إدارية، وتنمية مظاهر الحضارة الإسلامية، وفي إثارة النشاط الاقتصادي، وإيجاد قاتون منظم، فكان هذا نواة الوحدة السياسية التي اكتملت في القرن التالي، على أن هذه الحقبة في التوسع كانت فترة لازمة، وهذا الازدواج استمر طوال تاريخ سلاجقة الروم "٣٩".

وكان اهتمام السلاجقة بفرض سيطرتهم على الغزاة والتركمان، وخاصة الداتشمند، أكثر من اهتمامهم بهلاقتهم مع بيزنطة، وكان اهتمامهم في هذه الفترة موجها للشرق، وظهرت منذ عام ١١٨٥م، ولأعوام عديدة، حركة تركمانية واسعة، بدأت من أعالي الجزيرة، وانتشرت إلى أرمنية ثم إلى حدود جورجيا، ومنها إلى قبادوقيا السلجوقية، ثم امتدت إلى قيليقية وشمال الشام، وكان زعيم تلك الحركة شخص يدعى "رستم" لا توجد عنه تفاصيل واضحة، بالإضافة إلى أن التركمان في شرق الأناضول تأثروا ببني عمومهم في إيران: حضاريا وثقافيا "٤٠".

التفت قلعج أرسلان الثاني بعد انتصاره في ميروكيغالون نحو الشرق، للقضاء على آخر إمارة داتشمندية في منطقة، وضم أراضيها إلى سلطنته، وتوحيد أتراك الأناضول تحت قيادته. وأضحت هذه الإمارة ساحة للصراع الجديد بين القوتين السلجوقية والداتشمندية. شن السلطان السلجوقي هجوما عنيفا على ملطية في عام (٥٦٧هـ/١١٧١م) منتهزا فرصة نشوب نزاع داخلي بين أعيانها حول وراثة العرش، بعد وفاة الأمير الداتشمندي أبي القاسم بن ذي القرنين، حيث انقسموا إلى فريقين، ونجح السلطان السلجوقي في مهاجمتها بقوات كثيفة، وضرب عليها حصارا مركزا، استمر مدة أربعة أشهر تعرض السكان خلالها للضيق، بسبب تناقص الأقوات وحلول فصل الشتاء. ودخل قلعج أرسلان الثاني إلى المدينة في (٢٩ ربيع الآخر ٥٧٣هـ/ ٢٥ أكتوبر ١١٧٧م) وبذلك سقطت آخر إمارة داتشمندية، ولم يعد في بلاد الأناضول سوى الأتراك السلاجقة. وكان قلعج أرسلان قد تقدمت به العمر وأراد إرضاء أبنائه، وخشي من تضارب الأطماع وقيام صراع عند وفاته، أو استغلال

البعض لتلك الظروف، فبدأ بتوزيع مملكته بينهم، فقسم المملكة أحد عشر إقطاعاً؛ وزعها على أبنائه التسعة وشقيقه وابن أخيه ، وذلك في عام ١١٨٦م، غير أن الخلاف يلبث أن دب بين الأخوة، وترتب على ذلك الاستعانة بالتركمان بقيادة رستم، فاستعان بهم "قطب ملكشاه" أمير سيواس، أكبر أبناء "قَلج أرسلان"، فقد أراد أن يلي أمر السلطنة بعد أبيه، والاستئثار بالأمر دون إخوته، فأرغم أباه على أن يجعله نسيباً في الحكم ، وفي أثناء ذلك وصلت طلائع الحملة الصليبية الثالثة، التي كان من قادتها "فريدريك بربروسا" حليف "قَلج أرسلان"، وكان أبناء "قَلج أرسلان" الباقين مشغولون في التوسع على حساب بيزنطة. كل هذه العوامل جعلت بيزنطة تبحث عن حليف، ولم تجد غير الإلتجاء إلى "صلاح الدين الأيوبي" ٤١.



الهوامش

١- البيروني: الآثار الباقية، ص ١٣٢، ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٥٢٤، البطوني: تاريخ البطوني، ج ٢، ص ٢٤٠، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٧٥، حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١١٩٣، محمد كرد علي: خطط الشام، ص ٢٦١. كتبت آسيا الصغرى تضم أهم الولايات البيزنطية، كآرمينيك والإكتولوك، ومن مثلها خرج عدد كبير من أباطرة الدولة، إلى جانب أنها مصدر بشري عام لجند الإمبراطورية. أنظر: زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٤٣.

2- Vryonis: Byzantium and Europe. London, 1967, p134.

٣- سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٢٢٧، ٢٢٦، الناز العرني: الدولة البيزنطية، ص ٧٣٨، عبد التعم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٦٤، أحمد حلمي: السلاجقة، ص ٨٧، أحمد رمضان: للمجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص ٥٠، فيليب حتي: تاريخ سورية، ج ٢، ص ٢٠٥، رنسيومان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، كامبردج ١٩٥٤م، ص ١٠١، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، القاهرة، ١٩١٣م، ص ٩٦.

Crousset, L. L'Empire du Levant. p169., Setton: Hist of Crusades, p21

شهاب الدولة قتلتمش بن إسرائيل بن سلجوق الشق على حكم أبيه عه "طغرل"، وانضمت إليه أعداد كبيرة من الترك، وكان أبوه أكبر لفرد الأسرة السلجوقية فاعتبر نفسه أحق بالملك من طغرل، وقام أبناء قتلتمش بالثورة على "ألب أرسلان" وانضمت إليهم العناصر التركمانية. أنظر: الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٣١، ٣٠ زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٥٦، ص ٥٧.

طغرل بك: أحد زعماء الأتراك السلاجقة، خرج مع جماعته من براري القرغيز في التركستان، واستقر بالقرب من بخارى في بلاد ما وراء النهر، وهناك اعتنق وجماعته الإسلام على المذهب السني، وفي سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م دخل طغرل بك بغداد، وأنهى بذلك نفوذ بني بويه. أنظر: ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١١٧٦، الأصفهاني: مختصر تواريخ آل سلجوق، ص ١٢، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٧٣، ابن الوردي: تنمة المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ٥٣٦.

٤- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٩٢، حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١٩٠، أحمد العبادي: التاريخ العباسي، والأندلسي، ص ١٨٧، إبراهيم العدوي: التاريخ الإسلامي، ص ٣٥٦، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٣، ص ٤٣٨، عبد القادر أحمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٣، أحمد عبد الكريم

سليماني: المسلمون والبيزنطيون (في شرقي البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس هـ/التاسع والثاني عشر الميلادي) ج ١، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٢٤٢.

ماتزيكوت: مدينة من مدن أرمينية شرقي الأناضول على امتداد الفرع الجنوبي للفرات الأعلى، في ولاية موثن الحالية على نهر مراندسو "الفرات الشرقي" وتسمى "ماتزيكوت" الآن "زابيسكي" Zapiski، وكانت جزءاً من الاتحاد السوفييتي. وقد استفاد السلاجقة من موقعه "ماتزيكوت" فوسعوا نفوذهم في آسيا الصغرى وسقطت في أيديهم "قونية" ثم "تيقية" واستولى الأتراك السلاجقة على الأراضي البيزنطية شرقي "كبادوكيا"، وأقرت المسلمين نهائياً في أرمينية. انظر: القوت: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٠٢، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٨٨، عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٧٤، أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ١١٢، قليبب حتى: تاريخ سورية، ج ٢، ص ٢٠٥.

5- Grousset : Histoire de Armeni, p628

Setton and Baldwin: AHist.of Crusades, Vol.1, PP.150, Cedmos, Synopsis

Historon, ed. Bekker. C.H.S, 1938, II, PP. 634, 638, Zonaras, Epitomeed

Buttner, Webst. Bonn, 1989, II, pp. 189, 191 Crousset: H Iistoire. der

Armeni, p 628

— زبدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٥٨، جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم والثلثين، ص ٢٢٢-٢٢٣، لوستروكوسكي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: جون هيسي، أكسفورد، ١٩٥٤م، ص ٣٠٧.

تيقية: مدينة شرقي القسطنطينية عكده بها أول مجمع مسكوني في تاريخ الكنيسة، دعا إلى عكده الإمبراطور "قسطنطين الأول" لحل الخلاف بين أريوس Arius، وأثناسيوس Athanasius، وهما قساوسة من كنيسة الإسكندرية، اختلفا حول ألوهية السيد المسيح، فدعا الإمبراطور إلى عقد المجمع عام ٣٢٥م بولس الدعوة ٣١٨ أساقفا من أساقفة العالم المسيحي. أنظر: حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢٨، ص ٢٩، أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٥٥-٥٩، البار العريضي: الدولة البيزنطية، ص ٢٨-٢٩، إسحاق صيد: الإمبراطورية الرومانية، ص ٨٣.

٦- ستروكوسكي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: جون هيسي، أكسفورد، ١٩٥٤، ص ٣١٤.

Vasiliev: History of the Byzantine Empire 324-

1453, 2 vols, Madlson, II, PP 395-6, Camb. Hist of Islam vol I, p23.

- ٧- ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٢٠١، عبد النعم حسن: سلاجقة إيران والعراق، ص ٥٥؛
 حسين محمود، أحمد الشريف: العالم الإسلامي، ص ٧٣، أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ١١١،
 البارز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٧١٥، سعد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٠٥.

Stevenson: The Crusaders in the East, p:6

- ٨- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١٥، ابن العربي: تاريخ مختصر لدول، ص ١٩٤،
 Camb.Hist. of Islam, vol I, P236

- ٩- زبدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ١٢، A.Hist. Of the Crusades, 1 Vols, p213

- ١٠- زبدة عطا: المرجع السابق، ص ١٥، استر كورسكي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٢٠،
 Camb.Hist. of Islam, vol I, P237

- ١١- البارز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٧٣٢، ص ٧٣٣، عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية
 البيزنطية، بيروت، ١٩٦٦م، ص ١٤٤، ص ١٥٠، محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية
 للإمبراطورية البيزنطية في عهد ماثيول الأول، ص ٥٢، هسي: العالم البيزنطي، القاهرة،
 ١٩٧٧م، ص ٦٠-٦٢، محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية،
 ص ٣٤٦، ص ٣٤٧.

Anna Comnena: The Alexiad, london 1969, p93. Kinnamos: Deeds of John
 and Manuel Comnenus, Trans. by Charles M. Brand, Colombia
 1976, pp. 13-31

- ١٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١٧٠-١٧١، سعد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢،
 ص ٦٠٣-٦٠٧، حامد غنيم أبو سعد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ج ١،
 ص ٢٥٩-٢٦٤، حسنين ربيع: جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين، ص ١٨٣، أسمت غنيم:
 العلاقات البيزنطية الأكرمانية أثناء الحملة الصليبية الثالثة في ضوء وثائق كيناموس،
 الإسكندرية ١٩٨٧م.

Setton, Hist. of the Crusades, I. pp. 460-462.

عن أحداث الحملة الصليبية الثانية، انظر: ابن العربي: تاريخ الزمان، ١٦٢، سعد
 عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٠٧-٦١٦، حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة
 البيزنطية، ص ٢١٩-٢٢٣، محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية، ص ١٥١، حسن
 حبشي: نور الدين والصليبيون، ص ٥٥-٥٦، عبد القادر اليوسف: العلاقات بين الشرق
 والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، ١١٨-١٢٠، حسين مؤنس: نور الدين
 محمود، ص ٢٠١-٢٠٢، إسحاق عبيد: روما وبيزنطة، ص ١٨٦-١٩٠، عزيز سوريال
 عطية: العلاقات بين الشرق والغرب تجارية وثقافية، ترجمة: فليبي صابر يوسف، ص ٦٠.

Nicetas: op. cit. p.80-81, Kinnamos; op. Cit. P.58, Setton: op. cit. Vol.1, P. 469-470

لويس السابع : اعتلى عرش فرنسا بعد وفاة أبيه لويس السادس ، وقد اشتهر لويس السابع بالرفقة والعطف والتقوى ، وكان يميل إلى الزهد والتقشف ، كان الملك لويس السابع مصرا على اتخاذ الطريق الذي سلكه الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى ، وبعودة الملكين لويس السابع وكونراد الثالث إلى بلديهما تكون الحملة الصليبية الثانية قد انتهت بالفشل ولم تحقق أي هدف من أهدافها. أنظر: الباز العربي: أوروبا العصور الوسطى، ص ٥٢٤-٥٢٥.

Setton: op.cit.vol 2 , P422

١٣- سيد أحمد الناصري: الروم، ص ٤١٨، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٨١م، علية الجنزوري : إمارة الرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٥م، عبد الحفيظ محمد علي : المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين ٣-٦هـ/٩-١٢م، ج٢، القاهرة ١٩٨٢م. ص ٢٧٥، رنسيمن : المسيحيون العرب في فلسطين، اسكس ١٩٦٨م، ص ١٤.

١٤- ابن العربي : تاريخ لزمان، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٧٥، الذهبي: دول الإسلام، ج ١، ص ٧٤، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٧٩، حسين ربيع: دراسات في تاريخ فتولة البيزنطية، ص ٢٢٩-٢٣٠، فشر: المرجع السابق، ص ١٩٠، سيد أحمد الناصري : الروم، ص ٤١٩، ٤١٨، أسد رستم : الروم، بيروت. ١٩٥٥-١٩٥٦م، ج ٢، ص ٤١٧، رنسيمن: تاريخ العرب الصليبية، ج ٢، ص ٥٧٦.

Kinnamos, John: Epitome Historiarum -In C.S.H.B, Bonn 1836. pp204-205-207, Michel Le Syrien: vo 111, pp319-355.

١٥- عمر توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٤٠، محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٣٣١.

١٦- أسد رستم : الروم ، ج ٢، ص ٤١٧ ، رنسيمن: ج ٢ ، ص ٥٩٧.

١٧- محمود عمران: المرجع السابق، ص ٣٣٣، عمر كمال توفيق: المرجع السابق، ص ١٤٤.

١٨- محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص ٣٢٣، ٣٢٤، Kinnamos: p292 Nicetas: p159

١٩- حنين ربيع: دراسات، ص ٢٢٩، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٧٦، عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية ١٩٥٨م، ص ١٤٠، هسي: العالم البيزنطي، ص ٦٢.

Vryonis, Byzantium, p.145, Vasiliev, Byz. Empire, II, pp.427-428. Kinnamos: p292, Michel le Syrien: vol 111, p368.

٢٠- ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٥، التاريخ الباهر، ص ١٦٠-١٦١، ابن القلاسي: نيل تاريخ دمشق، ص ٣٥٦-٣٥٨، أبو شامة: الروضتين، ص ٣٠٨، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١، ص ٢٢٢، سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ١٨٨، حسنين ربيع: دراسات، ص ٢٣٠، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٨٧-٢٨٨، رنسيان: الحضارة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج ٢، ص ٤١٢، استركورسكي: المرجع السابق، ص ٣٣٩،

Camb. Med. Hist, vol.2, p.355-4, p377

٢١- Kinnamos: pp296-297. يقدّر ميخائيل السرياتي عدد هذا القسم من الجيش بخمسين ألف مقاتل ص ٣٦٩.

٢٢- ابن العربي: تاريخ الزمان، ص ١٩٢-١٩٣، Michel le Syrien: vol 111, p 369

٢٣- Nicetas: p 230, Vasiliev: vol 11, p82. استركورسكي: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٣٤٧.

Nicetas: pp236-248, Michel le Syrien: vol 111, PP369-372

Nicetas : p249, Kinnamos: p297. ٢٥-

٢٦- أشار إلى الرسالة المؤرخ "روجر هوفن" في كتابه "التاريخ" الجزء الثاني، ص ١٠١، أسد رستم : الروم، ج ٢، ص ٤٣، Vasiliev: vol 11, p 436

٢٧- ابن العربي ، المصدر السابق ص ١٩٣، محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد مثولي الأول، القاهرة ١٩٨٥م ، ص ٣٤٩.

٢٨- حسنين ربيع : دراسات، ص ٢٣٠-٢٣١، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج ٢، ص ٧٠٥، أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ١٨٩، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى ، ص ١٩٩ محمد عبد الشافي المغربي : أسيا الصغرى في العصور الوسطى دراسة في التاريخ المبدئي والحضاري القرن (١١-١٣) ط، الإسكندرية، ٢٠٠٣م، ص ٢٢٠-٢٢١، محمد مرسى الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٧٢، ص ٢٧٣، أسد رستم : الروم، ج ٢، ص ١٥٧ - ١٥٨، علي صالح المحمود : الداتشمندايون وجهادهم في بلاد الأناضول ، ط، الإسكندرية ١٩٩٤م، ص ٢٣٣، محمد زكي نجيب : علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين ١٠٨١-١١٨٥م، ص ١٨٤، فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص ٢٠٢-٢٠٣، فلزيليوف: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ج، ص ٤٢٨-٤٣٠، استركورسكي: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص ٣٤٧، شارلز أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢١، رنسيان، الحضارة البيزنطية، ج ٢، ص ٤١٢، هسي: العالم البيزنطي، ص ٦٢.

Kinnamos. p.146-147 , Camb. Med. Hist, vol. iv, p37, Diehl: Hist. of

the Byzantine Empire, p114.

ميركيفالون 'MyroKephalon': في منطقة فريجيا Phrygia في آسيا الصغرى Asia Minor إلى الشرق من كوما Choma، ويلاحظ أن كلمة ميركيفالون ذاتها - تعني ألف رأس - وما يذكر أن الآلاف من البيزنطيين هنكوا في ذلك الموقع أكثر من مرة. أنظر:

Nicetas Choniates, O, city of Byzantium, Annales of Niketas

Chonlates, Trans by: Harry Magoullas, Detriot, 1984, pp. 101-

107, Diehl, History of the Bzantine Empire, p. 119.

. Vryonia Byzantium, pp. 144-145, Charles

Diehl, Byzantium, p. 208, Camb, Med, Hist, vol IV, p. 378.

٢٩- استركورسكي: المرجع السابق، ص ٢٤٧، رنسيمان: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٨، فلزيلييف:

المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٣٠، هسي: العالم البيزنطي، ص ٦٩-٦٣، Diehl: Hist, of the Byzantine Empire, p 114

٣٠- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٩٩، رنسيمان: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٧٨،

استركورسكي، المرجع السابق، ص ٣٤٦، Camb. Hist. of Islam, vol, 12, p. 233, Came. Med. Hist, vol, 1V, P378,.

٣١- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٠٠، هسي: العالم البيزنطي، ص ٦٣، فلزيلييف:

الإمبراطورية البيزنطية، ج ٢، ص ٤٢٦، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ج ٢، ص ٤١٤، Vryonis, Byzantium, p144

٣٢- حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢٣٠-٢٣١، زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٠١،

Diehl: Hist. of Byzantine Empire, p114, Nicetas Choniates : History, Bonn 1835, p629.

٣٣- أراد الإمبراطور البيزنطي أن يقوم بعمل حربي ضد 'صلاح الدين'، بعوضه الهزيمة القاسية التي أنزلها به سلاجقة الروم في (سبتمبر ١١٧٦م)، والتي قضت على هيبة الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، فضلا عن بلاد الشام، فأرسل سفارة إلى بيت المقدس لتعرض على الملك 'بلدوين الرابع' إحياء فترة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر، ولكي يكسب الإمبراطور 'ماتويل كومنين' عرضه صفة جدية، أرسل إلى عكا أسطولاً من سبعين سفينة تحمل قوة كثيرة من المحاربين استعداداً لغزو مصر. وحاول التحالف مع 'بلدوين الرابع' ملك بيت المقدس، ولما كان 'بلدوين الرابع' مريضاً لا يستطيع المشاركة بنفسه في الحملة الصليبية البيزنطية على مصر، وبعد أن طال الأخذ والرد حول ذلك الموضوع والأسطول البيزنطي رابض في مياه عكا ينس المبعوثون البيزنطيون من جدية تفكير الصليبيين في مشروع غزو

مصر فأتسحبوا ومعهم سفنهم إلى الإسكندرية. أنظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٢٦، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص١٠٢، p.595, Michel Le Setton: A History of the Crusades, 1 vols, Syrien, p.367-372

٣٤- جدير بالإشارة أن الإمبراطور المذكور حل السلطة المستحكمة في العلاقات البيزنطية الصليبية ممثلة في المشكلة الأنطاكية، والواقع أنه كان أضعف من أن يجد لها حلاً. وعلى الرغم من استخدامه كافة الوسائل السياسية والدبلوماسية، إلا إن ذلك لم يمكنه من تجاوزها، ولقد ألزم "ماتيو كومنن" أمير أنطاكية "ريموند دي بواتييه" Raymond de Poitiers ١١٣٦ - ١١٤٩م، بالحضور إلى القسطنطينية، - وهو فارس فرنسي قدم إلى بلاد الشام خلال أحداث الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧-١١٤٩م برفقة الملك لويس السابع، وقد تزوج من الأرملة "كونستانس" أميرة أنطاكية عام ١١٥٣م، وقد وقع في أسر المسلمين سبعة عشر عام، وتزوج ستيفاني دي ميللي، وقد أخضع قلعة الكرك لسيطرته، وبالتالي اعترض طريق دمشق - القاهرة. وأعد حملته على الأماكن المقدسة الإسلامية عام ١١٨٢م، ولكن تم إجهاضها، وقد قتل صلاح الدين الأيوبي "زناد" في ٤ يوليو ١١٨٧م، في معركة حطين الحاسمة - وقد قدم اعتذاره للإمبراطور بل إنه اعتبر نفسه تابعاً له عام ١١٤٥م. ومن بعد ذلك، وفي عام ١١٥٨م قام ذلك الإمبراطور بهزو كليليكيا Cilicia في آسيا الصغرى، وعامل أمير أنطاكية "رينودي شاتيلون" Renauld de Chatillon (١١٥٣ - ١١٦٢م) على نحو قاس ألزمه بالخضوع له. أنظر: عبد المنعم ماجد: للدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٧م، ص٧٤، عبد الرحمن زكي ومحمود عيسى: الحروب بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٧م، ص٣٢، عاشه بنت عبد الله: البحر الأحمر في العصر الأيوبي، مكة المكرمة ١٩٨٠م، ص٤١-٤٤، محمد مؤنس عوض: في الصراع الإسلامي الصليبي السياسي الخارجية للدولة النورية، ص١٩٢، Diehl, History, vol.11, p.276, William of Tyre, of the Byzantine Empire, p.125.

٣٥- حققت الإمبراطورية البيزنطية في عهد "باسيل الثاني" ما حقق في عهد "جستينيان" من انتصارات حربية عظيمة والتي أعادت الهيبة والاحترام للإمبراطورية البيزنطية. ومن الناحية الدينية: حققت كنيسة القسطنطينية أعظم انتصار لها باعتراف الروس في "كييف Kiev" المسيحية في عهد الإمبراطور "باسيل الثاني"، وصاحب هذا التقدم، في الزراعة والصناعة والتجارة ونشر المسيحية، تقدم في الحياة الفكرية في الدولة البيزنطية. واستعادت الإمبراطورية على يديه قوتها لتدافع عن نفسها ضد أعدائها الذين كانوا يترصدون بها من كل جانب، وجعل من جيوشها قوة مرهوبة الجلب، ومن عاصمتها منارا يستطيع نوره على ثقافات وفنون وحضارات العالم، فكان آخر الأباطرة العظام. أنظر: حسنين ربيع، دراسات، ص١٦٢، جوزيف نعيم: تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص١٨٢-١٨٣، أسعد غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٨٧م، ص٩٨-٩٩، ونسيمان: الحضارة البيزنطية، ص٤٩.

Vryonis, Byzantium, p.110, Bury, Roman Emperors from Basil II to Isaac, p.52.

٣٦- ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٨٦-٨٩، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١١٦، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٦٦، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١، p. 238, Camb. Hist. of Islam, vol 1,

عن فردريك بربروسا أنظر: حامد زيان: فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٤٠، كمال الشوقي: تاريخ ألمانيا، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٣٩.

37- Nicetas: p.251-254-257, Ramsey, Sir William Mitchell: Historical Geography of Asia Minor, London 1890, p.401, Camb. Hist. of Islam, vol 1, p.244.

يكاد يكون المؤرخ البيزنطي نيكيتاس الوحيد الذي أرخ لهذه الفترة بـ"ميريوغيكالون".

٣٨- حسنين ربيع: دراسات، ص ٢٣٢، هسي: العالم البيزنطي، ص ١٩٧-١٩٨، Nicetas: op. cit. p. 356, Vasiliev, Byz. Empire. 11, pp.432-433.

وإذا تتبعنا أحوال الدولة البيزنطية بعد وفاة الإمبراطور "ماتويل الثاني" نجد أن ابنه القاصر "الكسيوس الثاني" Alexius II قد اعتلى عرش بيزنطة، وكان في الثانية عشرة من عمره، تحت وصاية أمه اللاتينية "ماريا الأنطاكية". ولكن لم يهنا ذلك الإمبراطور بتولية العرش إلا لمدة ثلاث سنوات. فقد اضطرت الأحوال في القسطنطينية وثار سكانها نتيجة لسيطرة العنصر اللاتيني على الأحوال الاقتصادية، وعندئذ تمكن "اندرونيكوس الأول" - 1- Aderonicus من انتزاع الحكم من "الكسيوس الثاني" وأمه اللاتينية وقتلها. وأدى الشعب الذي جرى في شوارع العاصمة، في أبريل ١١٨٢م، إلى هجوم على أرواح ومستلكات اللاتين في المدينة. وإذا برى البعض أن حوادث سنة ١١٧١م - عندما تم القبض على جميع البنادقة في أنحاء الدولة البيزنطية، وحوادث سنة ١١٨٢م - كانت علامة هامة أدت إلى الغزو اللاتيني للقسطنطينية سنة ١٢٠٤م.

أنظر: حسنين ربيع: دراسات، ص ٢٣٢، عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٩٥، اسمعت غنيم: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٤٨-١٤٩، عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٠، هسي: العالم البيزنطي، ص ١٩٨، رنسيومان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٩١، Vryonis, Byzantium, p. 145, Vasiliev, History of the Byzantine Empire 424-1453, vol 2, pp. 430-433.

٣٩- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ١٠٢، 48, p. 1, Setton, op. cit. vol 1, Camb. Hist., of Islam, vol 1, pp.244-299,

- ٤٠- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٠٣، استرگورسكي: للمرجع السابق، ص ٣٥١، راسميمان: المرجع السابق، ج ٢، ص ٩،

Camb.Hist.of Islam,vol,1,p244,Setton,op.cit.vol,1p 49.

- ٤١- إمارة الداقشمند: ألقاها لحمد غازي داقشمند في عام (٤٧٤هـ/١٠٨٤م)، وداقشمند هو أحد زعماء التركمان التابعين لمسلمان بن قتلش، واشترك معه في حروبه ضد ملطية، وسيطر على سيواس وأماسية وقيصرية وأنقرة، وكل الطرق التي تجتاز شمال آسيا الصغرى، ومالبت أن نقض عهده لسلاجقة الروم، وأعلن تبعيته لملكشاه، وبعد وفاته خلفه ابنه غازي كمشتكين الذي سار على سياسة أبيه في مناصبة سلاجقة الروم العداء. أنظر: ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢، ص ٨٦-٨٩ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١١٤ زبيدة عطا: للترك في العصور الوسطى، ص ١٦٦ محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١١. Camb.Hist. of Islam,vol 1,p238.

- ٤٢- ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٣٨، أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٥١، ابن شدك: النوادر السلطانية، ص ٢٠٦، ابن الجبري: تاريخ الزمان، ص ١٨٤-١٩٤، Michel Le Syrien: vol 111.p 373

انتهت أسرة كومنين بثورة سنة ١١٨٥م، وتولى عرش الدولة البيزنطية، في الفترة من سنة ١١٨٥ إلى سنة ١٢٠٤م، أباطرة من بيت أنجيلوس، وتنسب هذه الأسرة إلى قسطنطين أنجيلوس Constantine Angelus الذي كان معاصر الإكسبوس كومنين، وتزوج من ابنة الكسبوس. وقسطنطين أنجيلوس هو جد إسحاق الثاني أنجيلوس أول أباطرة هذه الأسرة التي تنتمي إلى أسرة كومنين من ناحية الأم. أنظر: حسنين ربيع: دراسات، ص ٢٣٧، Vasiliev, Byz. Empire.11.p437-438,Vryonie,Byzantium,p.145.

المصادر والمراجع

أولا المصادر والمراجع باللغة العربية -

أ - المصادر:

١- ابن الأثير (عزالدين محمد ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م):

— الكامل في التاريخ، أجزاء ٩-١٠-١١، لندن ١٨٥١-١٨٧٦م،

— التاريخ الباهر في الدولة الاتيكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣م.

٢- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧١هـ/ ١٤٦٩م):

— النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جزء ٥، القاهرة ١٩٢٩م.

٣- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ/ ١٢٨١م):

— وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م

٤- ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد)

— المنقظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ.

٥- ابن شداد (بهاء الدين يوسف ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م):

— النوائر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، تحقيق: جمال الدين الشويل، القاهرة ١٩٦٢م.

٦- ابن العربي (غريغوريوس المنطلي ت ٦٨٥هـ/ ١٢٥٦م):

— تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٨٦م.

— تاريخ الزمان، ترجمة الأب إسحاق أرمله، ١٩٤٩-١٩٥٦م.

٧- ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م):

— زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، جزء ١- دمشق ١٩٥١م.

٨- ابن القلاسي (أبو يعلى حمزة بن أسد، ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م):

— ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: آمدرز، بيروت - لندن ١٩٠٨م.

٩- ابن كثير (الحافظ عماد الدين إسماعيل ت ٧٤٤هـ/ ١٣٧٣م):

— البداية والنهاية، القاهرة ب.ت.

- ١٠- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م):
 - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جزء ١-٣، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٧م، الجزء الرابع تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٤م.
- ١١- ابن الوردي (أبو حفص زين الدين عمر المظفر بن عمر بن محمد بن أبي القوارس، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م):
 - تنمة المختصر في أخبار البشر، ج ٢، بيروت. ب.ت.
 - خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة ١٩٣٩م.
- ١٢- أبوشامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٥٥هـ/١٢٦٧م):
 - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد حلمي أحمد، القاهرة ١٢٨٨هـ.
- ١٣- أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمد ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):
 - المختصر في أخبار البشر، جزء ٢-٣، بيروت ١٩٦٥.
 - البيهقي (أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي ت ٤٧٠هـ/١٠٧٧م):
 - تاريخ البيهقي، ترجمة: يحيى الخشاب وصانق نشأت، القاهرة ١٩٥٦م.
- ١٥- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر):
 - فتوح البلدان، نشره: صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م.
 - البيروني: (أبو الريحان محمد بن أحمد ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م):
 - الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة أدوارد سفاو.
- ١٧- الإدريسي (الشرف الإدريسي ت ١٢هـ/١٢م):
 - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت ١٩٨٩م.
- ١٨- الحسيني (صدر الدين علي بن ناصر أبو الحسن القرن ٦هـ/١٢م):
 - أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: عباس إقبال، بيروت ١٩٨٤م.
- ١٩- الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت ٨٧٦هـ/١٢٢٨م):
 - معجم البلدان، ٦ أجزاء، بيروت ١٩٧٩م.
- ٢٠- الراوندي (أبو بكر محمد بن علي):

— راحة الصنوبر وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة: شواربي،
الصيد وحسنين، القاهرة ١٩٦٠م.

٢١— زامباور (ادوارفون):

— معجم الأنساب والأميرات الحاكمة، ترجمة: زكي حسن، وحسن محمود جامعة
القاهرة ١٩٥١.

٢٢— الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني، ت
٧٤٨هـ):

— دول السلام، جزءان، حيدرآباد، ١٣٦٤هـ.

٢٣— سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي هلي بن عبد الله،
ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م):

— مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ٨، حيدرآباد، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

٢٤— الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن قدير بن خالد ت ٣١٠هـ/٩٢٢م):

— تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء ١١، القاهرة
١٩٩٦م.

٢٥— عماد الدين الأصفهاني (عبدالله محمد بن صفى الدين، ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م):

— تاريخ دولة آل سلجوق، إختصار الفتح بن علي الهنداري، بيروت، ١٩٧٨م.

٢٦— الحيني (بدر الدين محمود):

— عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ١، تحقيق: محمد أمين، القاهرة ١٩٨٥.

٢٧— الفرغاني (أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي):

— أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق: محمد أمين، بغداد ١٢٨٢هـ.

٢٨— القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م):

— آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠م.

٢٩— المصعودي (أبو الحسن علي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م):

— التلبيه والأشراف، بيروت ١٩٦٨م.

— أخبار الزمان ومن أباده الحدائق وعجائب البلدان، بيروت ١٩٩٦م.

٣٠— المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله المعروف بالبشاري):

— أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، بيروت ١٩٨٧م.

٣١— المقرئزي (أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر ٨٤٥هـ/١٤٤١م) :

— كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦-١٩٥٧م.

٣٢— النرشخي (أبو بكر محمد بن جعفر):

— تاريخ بخارى، القاهرة ١٩٦٢م.

٣٣— اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح):

— تاريخ اليعقوبي، بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

٣٤— يحيى بن سعيد الأنطاكي :

— تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، نشر: كراتشوفسكي وفيليف، باريس ١٩٢٤م، بيروت.

المصادر العربية

١- مجهول: (مؤرخ سرياني مجهول) الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية ضمن كتاب الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار، دمشق ١٩٨٤م.

٢- ولیم الصوري :

— تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، بيروت، بيت.

— تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، عمان ١٩٩٠م.

ثانياً. المراجع العربية والعربية:

١- إبراهيم الحدي :

— الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة ١٩٥١م.

٢- أحمد رمضان :

— المجتمع الإسلامي في بلاد الشام،

٣- أحمد عبد الكريم سليمان:

— المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث

والسادس لهجري/ التاسع والثاني عشر الميلادي، الجزء الأول، القاهرة

٢٠١٤/١٩٨٢م.

٤- أحمد شلبي:

- موسوعة التاريخ الإسلامي، القاهرة ١٩٧٨م.
- ٥- أحمد كمال الدين حنفي :
- الملاحظة في التاريخ والحضارة، الكويت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- ٦- أحمد مختار العبادي :
- التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت ب - ت.
- ٧- إدوارد جيبون :
- إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ج ١، ترجمة: محمد علي أبوريدة، القاهرة ١٩٩٧م.
- ٨- أرنست باركر :
- الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٧م.
- ٩- إسحاق أرملة :
- تاريخ الأمة الأرمنية، الموصل ١٩٥٩م.
- ١٠- إسحاق تاوؤرس عبيد :
- روما وبيزنطة من قطيعة فوشيويس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين، ٨٦٩هـ/ ١٢٠٤م، القاهرة ١٩٧٠م.
- الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، القاهرة ١٩٧٢م.
- ١١- أمد رستم :
- الروم في سياستهم وحضارتهم، دينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، الجزء الثاني، بيروت ١٩٥٦م.
- ١٢- أسمت غنيم :
- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤هـ/ ١٤٥٣م، الإسكندرية ١٩٨٧م.
- معركة مانزكرت في ضوء وثائق بسلطون كلية الآداب، الإسكندرية عدد عام ١٩٨٣م.
- ١٣- السيد الباز العريني :
- الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١م، القاهرة ١٩٦٠م.
- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٦٨م.

- المقول، بيروت ١٩٦٧م.
- ١٤- أوستركورسكي:
- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ترجمة: جون هسي، إكسفورد ١٩٥٤م.
- ١٥- هارتولد :
- تاريخ الترك في آسيا الوسطى ترجمة: أحمد السعيد، القاهرة ١٩٥٨م.
- ١٦- جوزيف نسيم :
- تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤-١٤٥٣م)، الإسكندرية، ١٩٨٤م.
- للعرب والروم والفتن في الحروب الصليبية الأولى، الإسكندرية، ١٩٨١م.
- تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، بيروت ١٩٨٧م..
- ١٧- ج.م. هسي :
- العالم البيزنطي، ترجمة: نواف عبد الحميد، القاهرة، ١٩٨٢.
- ١٨- حامد زيان غاتم :
- الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ١٩- حامد غنيم أبوسعيد:
- الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧١م.
- ٢٠- حسن إبراهيم حسن :
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الجزء الرابع، القاهرة ١٩٦٧م.
- ٢١- حسن حبشي:
- نور الدين والصليبيون حركة الإنقاذ الإسلامية في القرن السادس الهجري ، القاهرة، ١٩٤٨.
- ٢٢- حسن محمود وأحمد إبراهيم الشريف:
- العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة ١٩٨٠م.
- ٢٣- حسنين محمد ربيع :
- دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين رسالة المسجد، العدد الرابع (١٤٠١هـ / ١٩٨١م)
- ٢٤- رايس (تامارا ثابوت) :
- السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفي الخوري وإبراهيم الدلقوتي، بغداد ١٩٦٨م.
- ٢٥- زبيدة عطا :
- اترك في العصور الوسطى - البيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون - د.ت.
- ٢٦- ستيفن رنسيمن :
- تاريخ الحروب الصليبية نقله إلى العربية السيد الباز العريني، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٦٨م.
- المسيحيون العرب في فلسطين، إسكس ١٩٦٨م.
- الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي، القاهرة ١٩٦٤م.
- ٢٧- سعيد عبد الفتاح عاشور:
- الحركة الصليبية، جزءان، القاهرة ١٩٧١م.
- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت ١٩٧٧ م.
- أوروبا العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٢م.
- ٢٨- سهيل زكار:
- التدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت ١٩٧٢م.
- ٢٩- سيد أحمد الناصري :
- الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقتهم بالشرق العربي، القاهرة ١٩٩٣م.
- ٣٠- شارلز أومان :
- الإمبراطورية البيزنطية ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣ م - ١٩٦٠م.
- ٣١- شاكر أبو بدر:
- الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، بيروت ب- ت.

- ٣٢- عبد القى محمود عبد العاطى:
- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الكسئوس كومنين ١٠٨١-
١١١٨م، القاهرة ١٩٨٣م.
- ٣٣- عبد القادر البوسف :
- لإمبراطورية البيزنطية ببيروت ١٩٦٦م.
- العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، صيدا
١٩٦٩م.
- ٣٤- عبد المنعم ماجد:
- الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٧م.
- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت ١٩٦٦م.
- ٣٥- عبد النعم حسنين:
- سلاجقة إيران والعراق، القاهرة ١٩٧٠م.
- دولة السلاجقة، القاهرة ١٩٧٠م.
- ٣٦- عبد الرحمن زكي ومحمود عيسى:
- الحروب بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٧م.
- ٣٧- عزيز سوريال عطية:
- الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فليبي
صابر، القاهرة ١٩٧٧م.
- ٣٨- عصام الدين عبد الرؤوف:
- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، القاهرة، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.
- ٣٩- على صالح المحميد:
- علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين ١٠٨١-
١١٨٥م.
- ٤٠- غنية عبد السميع الجنزوري:
- مرة لرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٤م.

- المرأة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٠م.
- ٤١- صر كمال توفيق :
- تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية ١٩٧٧م.
- ٤٢- ديفلز:
- أوروبا في العصور الوسطى ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، الإسكندرية ١٩٥٨م.
- ٤٣- زاكية رشدي :
- الخلفاء العباسيون والحروب الصليبية من مخطوطة ميخائيل السرياتي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٢م.
- ٤٤- فلزليف:
- العرب والروم، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة فؤاد حسين، القاهرة، ب- ت.
- ٤٥- فيليب حتى :
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي بيروت ١٩٥٩م.
- ٤٦- فايز نجيب إسكندر:
- البيزنطيون والأتراك السلجقة في معركة ملاذكرد (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) في مصنف نقفور برنيتيوس مقارنة للمصادر، الإسكندرية ١٩٨٤م.
- ٤٧- فاسم عبده فاسم:
- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، القاهرة ١٩٨٣م.
- ٤٨- كارل بروكلمان :
- تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة: نبيه أمين فارس ومثير البطيحي، بيروت ١٩٩٨م.
- ٤٩- كمال الدسوقي :
- تاريخ ألمانيا، القاهرة ١٩٦٩م.
- ٥٠- محمد عبد الشافي المغربي:
- آسيا الصغرى في العصور الوسطى دراسة في التاريخ السياسي والحضاري للقرنين (١١-١٣م)، الإسكندرية ٢٠٠٣م.

- ٥١- محمد زكي نجيب :
- علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين ١٠٨١-١١٨٥م،
- ٥٢- محمد سهيل طقوش :
- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ٤٧٠-٧٠٤هـ/١٠٧٧-١٣٠٤م، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، بيروت، ١٩٩٩م.
- ٥٣- محمد كرد علي :
- خطط الشام، القاهرة، ١٩٥٧م
- ٥٤- محمود سعد عمران:
- عالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية منخل إلى التاريخ السياسي والحربي الإسكندرية ١٩٨١م.
- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور ماكول الأول ١١٤٣-١١٨٠م، الإسكندرية ١٩٨٣م
- معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٩٨م
- ٥٥- محمود شاكر :
- التاريخ الإسلامي -الدولة العباسية -الجزء الثاني، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م
- ٥٦- نور الدين حاطوم :
- تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، دمشق ١٩٨٢م.
- ٥٨- نبيه عاقل:
- الإمبراطورية البيزنطية.دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري.دمشق ١٩٦٩م.
- ٥٩- نورمان بينز :
- الإمبراطورية البيزنطية :ترجمة: حسين مؤنس ومحمود زايد، القاهرة ١٩٥٧م.
- ٦٠- نورمان كاتفور:
- التاريخ الوسيط :ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٩٧م.

٦١- وديع فتحي :

- العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي (١٢٤-٢٠٥هـ/٧٤١-٨٢٠م)، الإسكندرية ١٩٩٠م.

٦٢- هريوت فشر:

- تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زيادة والسيد البز العريش، القاهرة ١٩٥٧م.

المصادر البيزنطية :

- Anna Comnena:

The Alexiad (tran. From the Greek by E.R.A.Sewter)Great Britain 1969.

- Kinnamos:

Deeds of Gohn and Manule Comnenus (tran, by C.M.Brand) Columbia university pres New York 1976.

- Nicetas, ch:--

Historia In (C.S.H.B)Bonn1835.

- Zonaras:

Epitomae Historiatum in (C. S. H. B)

المصادر اللاتينية :

- William of Tyre:

A History of Deeds done beyond the Sea (tran, by E. A. Babcock and A.C.Krey)New York 1943.

المصادر السريانية :

- Michel le Syrlens:

Chronique de Michel le Syrien Patriarch d'Antioche 1166-1199(editee et traduit en Français Par J.B. Chapot.) Paris 1906.

المراجع الأجنبية :

- Bury,J.B.: --

A History of the Eastern Roman Empire , London, 1952.

Vol 1V, V,Cambridge,1926. Cambridge Medieval History,

– Cambridge History of Byzantine Empire, ed. By
J.M.Hussey,Camb.Univ.Press 1966.—

– Cambridge History of Islam.

- Diehl,Charles :

Byzantium Greatness and Decline, New York 1957.

- Gibbon E.:

The decline and Fall of the Roman Empire ,vol 111,New York
1995.

- Cednos ,:-

Synopsus Historon, ed. BaKKer.C. H,1936.

- Grousset, R:

Histoire des Armeia ,le monde Mongol, Paris 1922.

- Ostrogorsky, G:

History of the Byzantine state, (tran by John Hussey)Oxford
1968.

- Runciman, S :-

History of Crusades vol. 1.1968, vol. 2,1962.

Ramsey,Sir William Mitchell:

Historical Geography of Asia Minor. London 1890.

- Setton, K. M.:

A History of the Crusades, university of Wisconsin Press, vol.1,
Edited by Marshall W.Baldwin, London, 1969.

- Severson, W,B :

The crusades in the East, Cambridge Universty press Lebanon Bookshops, Beirut, 1969.

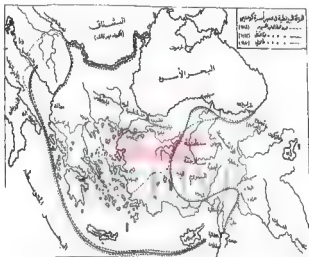
- Vasiliev, H:---

History of the Byzantine Empire 424—1453, 2vols The university of Wisconsin press 1980.

- Vryonis, S :

Byzantium and Europ ,London 1967.





مسكين محمد ربيع - دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢١٧



أنظر محمد سفيان طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص ٢٧٦

البصرة والخليج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (دراسة وثائقية)

د. مصطفى حبشي محمد زهران (*)

مقدمة

يتناول هذا البحث، بالدراسة والتحليل، جوانب من أحوال مدينة البصرة ومحاولات إصلاحها ، ولا سيما أوضاع الأسطول ، والدور الذي قام به متصرف البصرة "معشوق باشا" بخصوص إيجاد صلات متينة وعلاقات وطيدة ومستمرة مع الكيانات العربية القائمة في الخليج العربي، أواسط القرن التاسع عشر ، ومدى النجاح المتحقق في هذا المجال ، وأسباب ذلك ، لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة بالنسبة لسياسة الباب العالي في اسطنبول، الرامية إلى امتداد السيادة العثمانية على الخليج العربي بصفة عامة، والبصرة بصفة خاصة، في وقت اشتد فيه الصراع وازداد التنافس بين القوى الدولية والمحلية، لإيجاد مواطن قدم ومصالح اقتصادية وسياسية دائمة في المنطقة الذي يبرزها هذا البحث واتجاهاته، محدده بحدود المعلومات التي أمدتني بها الوثائق العثمانية المتوافرة لدى، والتي حصلت عليها من مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأمريكية بالقاهرة : حافظة رقم ٢٩١٤ بتاريخ ١٩٧٧ د (شلون إسلامية وعربية)، وهذه الوثائق تمثل المراسلات المتبادلة بين متصرف البصرة والمندوب العثماني، في لجنة تحديد الحدود مع إيران، درويش باشا، ورسالتين باللغة العربية موجّهتين من سلطان مسقط وعمان (سعيد بن سلطان وإبنه ثويني) إلى (معشوق باشا)، إضافة لما يتطلبه البحث من معلومات توضيحية ومكملة للنقص الحاصل في معلومات الوثائق المذكورة، مما تضمنته الكتب والدراسات المنشورة المتخصصة في شلون العراق^(١).

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث صراع حاد وتنافس محموم بين القوى البحرية البرتغالية والهولندية والإنجليزية والفرنسية . وقد تنازعت السيادة على المنطقة قوى عربية متعددة : كالعثمانيين (اليعاربة والبوعلي والبوسعيد) والقواسم والوهابيين وبني كعب . وحاول الإيرانيون منذ عهد ناصر شاه (١٧٣٦ -

(*) أستاذ مساعد بكلية السياحة والفنادق بكينج مريوط - الأسكندرية.

(١٧٤٧) تأسيس قوى بحرية فعالة في الخليج العربي لغرض هيمنة إيرانية على المنطقة، والتوسع باتجاه الحدود الشرقية للوطن العربي، بيد أنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في هذا الميدان. أما القوة البحرية العثمانية في البصرة؛ فقد كانت مختلفة وضعيفة، ولم تقم بدور يذكر في التأثير على مجريات الصراع الدائر وتوجه مساراته، وترتب على ذلك انحسار نفوذ ولاية بغداد والبصرة عن منطقة الخليج العربي، وتعرض الأمن الوطني للعراق لمخاطر عديدة، ولا سيما منطقة البصرة التي تعرضت للحصار ولاحلال الأجنبي عدة مرات، نتيجة لإهمال القوة البحرية وضعف القوات البرية. واستمر الوجود العثماني في الخليج العربي، حتى أواسط القرن التاسع عشر، ضعيفاً وهامشياً، بل لا يكاد يذكر في خضم صراع الاستراتيجيات الدولية المحتدم حينذاك، وذلك يعود لعدة أسباب، منها: ضعف الأسطول العثماني بوجه عام، وضعف أسطول البصرة بوجه خاص، والتشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الداخلية المستعصية: كمشكلة محمد علي باشا والتي مصر، واندلاع الانتفاضات القومية في ولايات البلقان والوطن العربي، وحروبها الخارجية مع روسيا وإيران، والقوى الأوروبية الأخرى الجامحة والهجاء، وقد جرت عدة محاولات للتوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي، إلا أن ضعف القدرات المالية والعسكرية للدولة العثمانية، ونجاح السياسة البريطانية في إبعاد العثمانيين عن المنطقة المذكورة، بإشغالهم في الصراع مع إيران تارة، والوهابيين وقوات محمد علي باشا تارة أخرى حالاً دون إنجاح ذلك التوجه. فقد كانت البصرة من المراكز التجارية الحيوية في الشرق، حيث تكدست في أسواقها ومخازنها مختلف السلع والبضائع الهندية والصينية والأوروبية؛ المتدفقة عن طريق الخليج العربي والبحر المتوسط، والمنقولة منها إلى بغداد والموصل وبغداد الشام، وشبه جزيرة العرب والأناضول وإيران، عن طريق نهري دجلة والفرات، وأيضاً القوافل البرية، وصولاً إلى سواحل البحر المتوسط فأوروبا، عن طريق وادي الفرات إلى بيروت وموانئ الساحل الفينيقي، مروراً بدمشق وطريق وادي دجلة إلى الإسكندرية مروراً بحلب. كما أن صادرات تلك الأقطار، وخاصة المنسوجات وأنوار الزينة كانت تتجمع في مخازن البصرة لتنقل منها إلى الهند، وهكذا كانت التجارة تشكل موارد أساسية لخزينة بغداد واقتصاديات الولاية. وكان الأسطول العثماني في البصرة يتولى مهمة الدفاع عن المدينة وحماية للملاحة في الخليج وشط العرب ونهري دجلة والفرات، وأتيحت مهمة قيادته إلى ضابط يلقب بـ (شبودان باشا) أي قائد الأسطول، ويأتي في المرتبة الثانية بعد متصرف البصرة من حيث التسلسل الإداري، وكانت له دار خاصة تقع على شط العرب في قرية المناوي، تصطف أمامها قطع الأسطول، وهي سفن صغيرة مسلحة تعرف بـ (الكناك)، تتميز بقعرها المسطح المطلي بالآثار السميك. وكانت هذه السفن تشكل العمود الفقري للأسطول البصرة حتى سنة ١٨٦٥، وتم استبدالها بعد ذلك بالغلاطات وهي أنواع حديثة من

السفن العصرية، وبأنواع أخرى من السفن المتطورة، لمواجهة التحديات البحرية الجديدة في شط العرب والخليج العربي^(١).

وفي أواخر عام ١٨٦٥ اتضمت إلى إسطول البصرة سفينتان كبيرتان تسميان تم بناؤهما في الهند ، تحمل كل منهما أربعة عشر مدفعاً ، واطنق عليهما اسماء دجلة والفرات ، ومع ذلك فإن هذا الأسطول ظل دون مستوى الأهداف المطلوبة منه ، بسبب النقص في عدد السفن التي يتألف منها ، وتدنّي نوعياتها ، ونقص الأعداد والكوادر الفنية والعسكرية المستخدمة على ظهر هذه السفن وقلة خبرتها. كما حاول والي بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٧٩-١٨٠٢) تحت إدارة السلطان العثماني سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) في بداية حكمه. تعزيز أسطول البصرة، فطلب من شركة الهند الشرقية البريطانية في بومبي بناء ست غلاطات كبيرة، تحمل كل واحدة منها ستة مدافع ، بيد أن تلك المحاولة كانت بدون جدوى، لأن الإنجليز لم يكن من مصلحتهم في ذلك الوقت تعزيز القدرات العسكرية لولاية بغداد، وذلك لاختصاصهم لمشينتهم وابتزازهم، من أجل الدوران في أفلاكهم والارتقاء بين أحضانتهم، فادّعوا أنهم يخشون وقوع تلك الغلاطات بأيدي أعداء والي بغداد، وأعداء الإنجليز من الفواسم وكعب، فعملوا على شرنقتها^(٢).

تقرير معشوق باشا متصرف البصرة عام ١٨٦٦ :

بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر أخذ العثمانيون يبدون اهتماماً، وإن كان سطحياً، بشئون الخليج العربي ، ويرقبون تطورات الأحداث فيه ، وقاموا بجمع المعلومات عن القوى السياسية المحلية والأجنبية الموجودة في هذه المنطقة الحساسة من العالم في القرن التاسع عشر ، فشرعوا في إرسال المبعوثين إلى مشايخ العشائر العربية المنتهضة لجس نبضهم، ومعرفة ميولهم واتجاهاتهم، ومدى استعدادهم لتقبل السيادة العثمانية حتى ولو إسمياً، أو التعاون مع الدولة العثمانية؛ على أقل تقدير بصفتها دولة إسلامية ، واتصلاً من هذا الموقف الجديد في السياسة العثمانية كلف الباب العالي متصرف البصرة معشوق باشا للقيام بهذه المهمة ، فبادر الأخير إلى إرسال عدة أشخاص إلى كل من الكويت والحسا والقطيف ومسقط، واتصل بعدد من التجار وذوي المصالح مع البلدان المذكورة، بهدف جمع المعلومات المتيسرة واستقصاء الحقائق واستكشاف ردود فعل الأمراء والمشايخ العرب. فورد في تقرير معشوق باشا، المرفوع إلى الصدارة في أواخر عام ١٨٥٠م، معلومات مبسّرة عن كيفية نشأة إمارة الكويت ، حيث يشير إلى أن بعض عربان نجد كانوا يأتون إلى الكويت لأجل صيد الأسماك، وأنشاء راحتهم وبغية الوقاية من ضربة الشمس وحرارتها الشديدة؛ شيدوا لهم بيوتاً صغيرة من القصب، تحولت بمرور الزمن إلى بيوت مبنية

باللبن ، وكان منشأ هذه الإمارة في أواخر القرن الثامن عشر، ولكونها كانت حرة ومستقلة فقد أصبحت ملجأ ومسكناً آمناً للهاربين من جور حكام البصرة وغيرها، وبلغ عدد بيوتها ستة آلاف بيت، وكان أهالي الإمارة غير مكثفين بدفع أي نوع من الضرائب ، عدا الجمرک المفروض على الأمتعة والبضائع الواردة عن طريق البحر ، وبمعدل ريالين عن كل نوع ، وبلغ وارد الجمرک مئة ألف ريال سنوياً. ونظراً لكون الضريبة الجمركية المفروضة على البضائع التجارية المطروحة في ميناء الكويت تعد خفيفة نسبياً ، لذا كان أغلب التجار بغضلون انزال تجارتهم في الميناء المذكور ، ونقلها برا إلى العراق وبلاد نجد والحجاز والحسا والقطيف وغيرها. وكان أمير الكويت ' الشيخ جابر ' يبادر إلى تقديم الإمدادات والمساعدات إلى أهالي البصرة، برا وبحرا، عندما يحل الخطب بهم وتعرض مدينتهم لحصار العثمانيين أو تسلط الكعبيين، ومقابل هذه الخدمة كان أمير الكويت يحصل على مئة وأربعين كارة^(١) من التمور سنوياً من حكومة البصرة. ونذكر معشوق باشا أن مسألة ربط الكويت بإدارة البصرة، واستثمار موارده الاقتصادية لحساب خزانة البصرة، وقطع عطية التمور السنوية؛ رهين بتقوية أسطول البصرة، وتعزيز قوتها العسكرية بفرقة نظامية كاملة على أقل تقدير ، وأضاف أن أهالي الكويت يبدون وكأنهم تابعين للبصرة ، إلا أن موارد هذا البلد وحاصلاته ترجع إلى مشايخه؛ الذين لا يرجعون إدارة البصرة في أي موضوع أو مادة ، وإذا كان لا بد من وضع الكويت والبحرين تحت الحماية - على الرغم من إظهارهم المول إلى جانب الدولة العثمانية بحكم العاملين الجغرافسي والديني لكون السلطان العثماني خليفة المسلمين وحامي حامي الحرمين - فإن واقع الحال يقتضي إظهار سطوة السلطة السنية وجانب من قدراتها العسكرية ، لكي لا يعطوا أدنا صاغية لدسانس بعض الأطراف الدولية والمحلية . وبخصوص مقاطعتي الحسا والقطيف، اللتين كانتا خاضعتين لحكم ابن سعود، تشير معلومات معشوق باشا إلى أن الأمير السعودي يستوفي منهما سنوياً مئة ألف ريال (أربعة آلاف كيس) باسم بدل جمرک وميري ، مقابل مبلغ زهيد يدفعه إلى خزانة جدة، وأنه يحتفظ بقوة عسكرية رمزية تقدر بمئتي عسكري في كل منهما ، واستناداً إلى إفادة عدد من أبناء الحسا والقطيف القادمين إلى البصرة؛ فإن الأهالي هناك مستأمنون ومتفرون، وراغبون في الانضواء تحت الحكم العثماني. ولتحقيق هذا الهدف أكد معشوق باشا على أهمية وضرورة بناء الأسطول، وتعزيز القوات البرية لمنطقة البصرة، حتى يتمكن لها التحرك لفرض السيادة العثمانية على تلك الجهات . وقد تضمن تقرير معشوق باشا ، زيادة على ما تقدم ، عدة مقترحات لإصلاح أحوال مدينة البصرة، وانتشالها من حال التردّي الذي أصابها، وتطويرها حسب الإمكانيات المتاحة. ومما يذكر أن أهالي البصرة والعاملين فيها، من أتراك وأجانب، كانوا يعانون من وخامة الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة، بسبب إحاطة المدينة بالمستنقعات والبحيرات الناتجة من طغيان نهر الفرات، وانهيار بعض السدود التي كانت تتحكم في توزيع فائض مياهه، لدرجة ساد قبيها التفكير

بضرورة نقل البصرة إلى موقع آخر ، فقد أرسلت الصدارة في عام ١٨٦٧م ، بناء على طلب والي بغداد السابق ، لجنة مكونة من قائم مقام مكتب الحربية على بك ، والخوارجة الثاني للمكتب المذكور أمين أفندي ، وقد تضمن تقريرهما تحديد سبب وخامة طقس البصرة بوجود المقبرة العامة بين محلات المدينة ، وجريان المياه الآسنة والثقيلة في أزقة المدينة ، وعدم تطهير مضيق العشار منذ مدة طويلة ، وتجمع المياه داخل الحدائق الموجودة بالمدينة وعدم تصريفها ، وتعفننها ، ووجود سوق الأسماك وسط المدينة وما بعثه من عفونة وروائح كريهة تزكم الأنوف ، وانهدام السدود القريبة من البصرة ، والمعروفة باسم (سلحة) ، وتحول نهر الفرات عن مجراه القديم ، مما أدى إلى انتشار المستنقعات والبحيرات ، وتعرض المدينة إلى وباء الكوليرا الذي أهلك وشرذ عددا كبيرا من أهاليها ، يقدر بخمسمائة شخص عام ١٨٦٤م ، تحولت بيوتهم إلى خرائب ومزابل ، وحدثت ظاهرة المد والجزر باستمرار . لذا تقرر في الصدارة اختيار موقع العشار لبناء المدينة الجديدة عليه بصورة تدريجية ، وكمحلة أولى تقرر بناء جامع يحمل اسم السلطان العثماني ، ودائرة للمرك ، ومقر القانمقام والأهنية الاجتماعية ، وعدد مناسب من الحوانيت الكبيرة والدكاكين الصغيرة ، وحمام يوقف لحساب الجامع . ودور للعلم ، وعلى أن تتم تسوية تكاليف هذه المنشآت ، البالغة بصورة تخمينية (ثلاثة آلاف كيس) من ناتج الحاصلات الجديدة للمدينة . ولكن معشوق باشا ، بعد توليه مهام منصبه ، ومطالعة لجميع التقارير المكتوبة حول إصلاح أحوال البصرة ، وإطلاعه ميدانيا على واقع المدينة ، أقتنع الصدارة بإمكان معالجة مشاكل المدينة دون الحاجة إلى نقلها إلى مكان آخر ، فعمل على إزالة الأسباب المؤدية إلى وخامة الجو ، وطلب من الصدارة إرسال طبيب وصيدلي لمعالجة المرضى ، حيث ينعدم وجود الطبيب في المدينة وقتذاك ، كما قام ببناء دوائر للحجر الصحي ((تحفظ خانة)) وجمركا وخانا وعددا من الدكاكين في العشار ، وابدأ مساعدته لكل راغب من الأهالي في بناء دور لهم في الموقع المذكور ، وتعهده معشوق باشا للصدارة بأنه سيعمل على اتخاذ التدابير والإجراءات المؤدية إلى عودة المهاجرين من أهالي البصرة الذين تركوها في الأزمان السابقة وسكنوا في الكويت والمحصرة وغيرها ، وحدد أسباب هجرة الأهالي بما يلي :

- ١- الظلم والتعدي الذي لحق بهم .
- ٢- عدم تمكن حكام البصرة السابقين من إنقاذ الأهالي من تعديات العشائر .
- ٣- وجود إدارة حرة ومستقلة في كل من الكويت والمحصرة جذب أهل البصرة إليهما .
- ٤- تعرض البصرة إلى الوباء عام ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠م والكوليرا عام ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦م ، لاتحاد المؤسسات الاجتماعية المختلفة .

٥- وخامة جو البصرة الزائد عن التحمل، بسبب انتشار المستنقعات والبحيرات، وإستلاء الأثرقة بالمياه الآسنة والثقيلة، وانتشار الخراب والمزابيل، وما شابه ذلك من قبهعات الرواح الكريهة المكتنفة بالزواحف والقوارض الخطيرة.

وبذل معشوق باشا مجهودات كبيرة - حسب ما ذكر في تقريره - من أجل إعادة النازحين والمقيمين في الكويت والمحجرة من أهالي البصرة إليها وتحويلها إلى منطقة جذب، فاتصل سرا بهم ورجبهم في العودة إلى بيوتهم، واستخدم أقاربهم وأصدقاءهم لتحقيق هذا الغرض واتخاذهم معاً، كما عمل على منع تعدي عشائره المنتفك على الحاصلات للزراعية العائدة إلى أصحاب بساتين النخيل فسي منطقة البصرة^(٥).

بيد أن الباب العالي - الذي كان مشغولاً بحرب القرم حامية الوطيس مع روسيا (١٨٥٣-١٨٥٦) التي سال لعابها وظلت تلهث من أجل تمييز الباب العالي لهويتها لكن خاب أمل روسيا بعد تدخل قطبي القوى الأوروبية (إنجلترا وفرنسا) بجانب الباب العالي الذي سحب البساط من تحت أقدام روسيا التي تجرعت مرارة الهزيمة الدبلوماسية قبل العسكرية منهما وتمرغت في أحوالها - وجد نفسه عاجزاً عن تلبية مطالب متصرف البصرة، ولم يجد بداً من التوصية باتخاذ التدابير الممكنة لاستمالة أهالي الخليج العربي وترغيبهم بقبول التهيئة للدولة العثمانية (السلطنة السنية)^(٦).

تقرير درويش باشا متصرف البصرة عام ١٨٧٥:

من خلال قيام المندوب العثماني في اللجنة الدولية لتحديد الحدود مع إيران بمهام عمله - الذي يتطلب التجوال والمشاهدة الشخصية للمناطق المتنازع عليها، من أجل إعادة ترسيم الحدود العراقية الإيرانية - أطلع درويش باشا عن كسب عسى الأوضاع المزرية لأسطول البصرة وقواتها العسكرية البرية والبحرية، فبادر إلى تسجيل ملاحظاته ورفعها بتقرير مستعجل إلى الصدارة، في ٢١ ربيع الثاني ١٢٧٠ هـ / ٦ مارس ١٨٧٥م، بناء على التعليمات السرية التي زودته بها الأجهزة الخاصة في الباب العالي، عند تكليفه بهذه المهمة، والتي كانت تقتضي جمع المعلومات وتقصى الحقائق عن أحوال وأوضاع إيلات العراق، زيادة على مهمته الأساسية. ابتدأ درويش باشا تقريره بتبيان أهمية موقع البصرة، فذكر إن البصرة من المواقع التي تتطلب العناية الكبيرة والاهتمام الاستثنائي، نظراً لإشرافها على عدد كبير من القرى والمقاطعات وديار العشائر، ولجواررتها إيران وعشائر عربية غير منقادة (كعب والمنفك وبني لام)، مما يتطلب وجود قوات برية وبحرية قادرة على تحقيق الأمن الداخلي، وحماية الحدود البرية ومياه شط العرب وخليج البصرة، بيد أن واقع الحال يشير إلى خلاف متصاعب، إذ أن موجود القوات العسكرية في البصرة لا يتعدى ٧٠

- ٨٠ جنديا من صنف المدفعية و ٢٥٠ جندي مشاة (باشبوزق بيادة)، علما أن أكثر من نصف صنف المدفعية المذكورين أعداد غير صالحة للخدمة العسكرية لكونهم مرضى ومعوقين، أما المدافع فهي على قلتها فإنها من النوع القديم وينقصها بعض قطع الغيار (المواد الاحتياطية). وتناول في تقريره واقع أسطول البصرة، فذكر أنه يتألف من ست قطع بحرية كبيرة، إلا أن إحداها غير صالحة للخدمة على الإطلاق، وقد سحبت إلى البر في مضيق العشار لأجل تعمیرها فأهملت، وهي الآن معرضة للتلف يوما بعد يوم، والسفينة الأخرى يمكن استعمالها بعد إجراء صيانة واسعة عليها، أما السفن الأربع الباقية فهي أيضا غير صالحة، ليس لركوب البحر فحسب، وإنما غير صالحة للاستخدام حتى في مياه شط العرب، وينقص أشرعتها جميع الأكواد اللازمة لتشغيلها، لذلك وضعت كل واحدة من هذه السفن الأربع في موضع معين لتحصيل الرسوم الجمركية. في حين يتجول في خليج البصرة أسطول انجليزي يتألف من ٥ - ٦ قطع بحرية نوع ((بريقي)) و ((قروت)) بحجة ملاحقة القراصنة، ومنع تجارة الرقيق، وحماية صيادي اللؤلؤ، لكن في الحقيقة هي إحكام قبضتها القوية على تلك الأصقاع. وكان قائد الأسطول الانجليزي يقيم في البصرة أو في ميناء بوشهر أو البحرين خلال تجوال سفنه في مياه الخليج وشط العرب، حتى إن القائد المذكور يربط قبل عدة أيام من تاريخ كتابة هذا التقرير بسفينة القيادة التابعة للأسطول الانجليزي أمام ميناء المحمرة. وإستنادا للمعلومات المتجمعة لدى درويش باشا فإن النفوذ الانجليزي امتد إلى عدة جزر في سواحل خليج البصرة، ومنها جزيرة ((قشم)) الواقعة في مضيق هرمز، والتي أقام الانجليز على الجانب الشمالي منها، في غضون عام ١٨٧٥م، أبنية ومنشآت عديدة مثل: الحصون والأبراج لمراقبة حركات وسكنات أهلها، وحتى لو لم تحصل هذه التطورات فإن من أهم مهام السلطنة السنوية إزاء موقع مهم كالبصرة - التي تعتبر من المناطق الحدودية الرئيسية والموانئ الكبيرة - لتفيلة أربع سفن حربية على الأقل، نوع ((قروتين وقروت وبريقي))، وسفينة بحرية تجارية كبيرة، وبخترتين للنقل النهري في دجلة والفرات، تعملان بين بغداد والبصرة ومدخل الخليج ((مضيق خليج البصرة))، وإعادة تنظيم وتشغيل ترسانة البصرة القديمة. وأضاف درويش باشا: إنه في حال تعزيز القوات البرية والبحرية في هذه المنطقة، فإن كل أمور وأوضاع إيالة البصرة سوف تسير في الاتجاه الصحيح، ويتحقق الإصلاح المطلوب والرقى المنشود، وسوف تعود الحسا والقطيف - اللتان كانتا تعدان قديما من مضافات البصرة ثم خرجتا من التبعية العثمانية بسبب تسبب وضعب الإدارة في العراق - إلى السيادة العثمانية، وأنه لأمر واضح أن يبادر سلطان مسقط - الذي يخشى الانجليز ويدور في أفلاكهم ويخاف - إلى طلب حماية دولة إسلامية عظيمة. ويقصد تسهيل إعادة تنظيم أسطول البصرة، اقترح درويش باشا تعيين ((مباشر)) للإشراف على ذلك، وعند صدور الأمر السامي ببناء السفن والبواخر المذكورة في بومباي، وحين إكمالها يصادر إلى تعيين قائد

مناسب لقيادة الأسطول من ضباط قيادة البحرية في اسطنبول مع عدد مناسب من الضباط المختصين بفنون البحر لتعليم وتدريب الصاكر والسفانة المحليين. ولما كان تحقيق هذا الأمر يحتاج إلى وقت ليس بالقصير؛ فإن المصلحة العامة للدولة تتطلب الإيعاز إلى قائد فيلق الحجاز والعراق ليقوم بإرسال طابورين مشاة من القوات النظامية، ومقدارا مناسباً من جنود الفرسان والمدفعية، مع عدد من المدافع إلى البصرة لتعزيز سريخ لقدراتها الدفاعية (٧).

وفي مذكرته المرفوعة إلى متصرف البصرة "ممشوق باشا" في غرة شعبان ١٢٧٠ هـ / ١٢ حزيران ١٨٧٦م، أشار درويش باشا إلى وجود مسلمين من أسطول البصرة وهما (فتحعلي وصالح)، ترابطان أمام مضيق نهر بهمشير (٨).

وفي عام ١٢٧١ هـ / ١٨٧٧م كلف السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) متصرف إيالة البصرة ممشوق باشا بدراسة أحوال منطقة الخليج العربي، ومعرفة مدى إمكان مد جسور التعاون والائتقاء مع الكيانات المحلية القائمة هناك، لا سيما مع سلطان مسقط وعمان السيد سعيد الثاني بن سلطان (١٨٧٢ - ١٨٩٨)، والعمل على جذبها إلى حظيرة الدولة العثمانية، وكان الباب العالي يرصد حينذاك دخول سعيد بن سلطان في دائرة واسعة من العلاقات والمصالح مع سائر الدول، على الرغم من تظاهره بالميل نحو الدولة العثمانية، لذا طلب من متصرف البصرة مراسلته سرا من أجل إسماعلته إلى الصف العثماني، ومعرفة حقيقة الأخبار الواردة إلى مسامع الخارجية العثمانية حول حدوث نزاع بين سلطان مسقط والإنجليز، بسبب عدم إيفائه بالاتفاق المعقود معه من جانب بريطانيا بخصوص منع تجارة العبيد (٩).

أفاد ممشوق باشا في مذكرته الجوابية، المرسلة إلى الباب العالي بتاريخ ١٥ شوال ١٢٧٢ هـ / ١٥ حزيران ١٨٧٨م، استناداً إلى المعلومات المتجمعة لديه من التجار العاملين بين البصرة ومسقط، وأن علاقات سلطان مسقط مع الدول الأجنبية متأنية من الصلات والمعاملات التجارية القائمة بين سلطنة عمان والموانئ الهندية القريبة من سواحل بلاد العرب الجنوبية الشرقية، وبحكم خضوع بلاد الهند للهيمنة البريطانية، فإن الضرورة تقتضي عقد العلاقات الاقتصادية والسياسية مع بريطانيا كذلك. وإحتمال ميل سلطان مسقط للدولة العثمانية يقع في إطار السياق السابق نفسه؛ الذي تحتمه المصالح التجارية التي تقوم وترتكز عليها سلطنة مسقط وعمان. وبغية الوقوف جنباً على هذا الحال، ومد جسور الاتصال مع السلطنة المذكورة، أرسل ممشوق باشا رسالتين: إحداهما إلى السلطان سعيد الموجود وقتئذ في عمان، والأخرى إلى ابنه ثويني وكيله في مسقط، تضمنتا عبارات المودة والاستفسار عن الخاطر، وكيفية وصوله إلى البصرة ومباشرة مهام منصبه. ويلاحظ هنا ابتعاد

متصرف البصرة معشوق باشا ، بناء على توجيهات الباب العالي، عن الإشارة إلى المسائل المتعلقة بمصالح الدولة العثمانية في الخليج العربي في رسالتيه المذكورتين، وذلك تجنباً من وقوع الطرف الآخر في دائرة منوء الفهم، أو الشكوك في المقاصد العثمانية التي تنطوي عليها سياستهم الجديدة في المنطقة المذكورة ، كما يلاحظ في هذه الوثيقة، وفي الأدبيات العثمانية كافة، ورود اسم سعيد بن سلطان مقترناً بلقب (الإمام)، بينما المعروف أن لقب الإمامة لم يحمله من أسرة اليوسعيد إلا مؤسس هذه الأسرة الإمام أحمد بن سعيد (١٧٤٤ - ١٧٨٣) الذي قضى على حكم أسرة اليعاربة في عام ١٧٤٤ م وورث اللقب من بعده سعيد (١٧٨٣ - ١٨٠٣) دون انتخاب أو مبايعة أو اعتراف، فقد اتخذ حكام اليوسعيد المتأخرون لقب (السيد) (١٠)

كما شاع استخدام لقب (السلطان) لا سيما في الأدبيات والكتابات والتقارير الأوروبية ، ويبدو أن الأتراك العثمانيين فضلوا استخدام لقب (إمام) لأنهم لا يعترفون بالسلطنة وألقاب السلطان إلا لملوكهم من آل عثمان .وفي الوقت والسياسي ذاته أرسل معشوق باشا رسالة ثالثة إلى أحد تجار البصرة البارزين ، يدعى (عبد الله جمال الجلبلي) كان مقيماً منذ فترة طويلة في سلطنة مسقط وعمان وبالرغم من وصول رسالة ثويني الجوابية، المؤرخة في الرابع عشر من شوال ١٢٧٣هـ / ٢٣ آب ١٨٧٩م، إلى البصرة في شهر رمضان ١٢٧٤هـ / حزيران ١٨٨٠م، إلا أن معشوق باشا أثر تعليق إرسالها إلى الصدرة لحين ورود رسالة والده الجوابية. وعندما عاد السيد سعيد بن سلطان من عمان إلى مسقط، في ٩ رجب ١٢٧٥هـ / ١٠ مايو ١٨٨١م، بادر إلى تحرير رسالة جوابية إلى متصرف البصرة، مؤرخة في ٢٩ رجب ١٢٧٥هـ / ٣٠ مايو ١٨٨١م. وصلت إلى البصرة في الشهر التالي لتحريرها ، وفيما يلي نصها الحرفي، يليه نص رسالة ثويني :

(الجناب المستطاب ذو الشوكة والإجلال العالي جناه الأفخم الأحشم الأخ معشوق باشا المكرم دام إجلاله وحرسه الله سبحانه من شر الأشرار وأمنه من عواطف الأكرار ورواجف الأخطار بحق محمد سيد الأبرار أمين رب العالمين :

أما بعد ، فالغرض الأهم والمطلب الأتم من تحرير قيمة الوداد وتأنيق أتيفة الاتحاد هو أحوال سلامة تلك الذات الجامع لمكارم الأخلاق والصفات حرسها رب الأرضين والسماوات وفي أبك الأوقات وأشرف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبئ عن الود القويم والاتحاد والجنان ونحن قد وصلنا مسقط في ٩ من رجب وإن شاء الله المحبة من الطرفين ثابتة الأركان مشيدة البنيان ، لا يغيرها غير ، ولا يشوبها كدر والمأمول إدراج المراسلات مع شرح أحوال سلامة تلك الذات وبما يبدو من المهمات بعون الله ليقتضي بمجرد الإعلام والسلام خير مبدئ وختام) (١١).

هذا من المحب

الوائق بالله عبده سعيد بن سلطان

تحرير ٢٩ في رجب الأصم سنة ١٢٧٥هـ

وفيما يلي نص رسالة ابنه ثويني :

(الجانب المستطاب ، مركز كرة الأبهاء والرأي ، ثمرة شجرة العزة والسياسة نتيجة الأشراف من آل عبد مناف ، الأفخم المحترم معشوق باشا المكرم والي حكومة البصرة ونواحيها دلم إجلاله وحرصه الله سبحانه وتعالى من شر الأثرار وأمنة من عواطف الاكندر ورواجف الأخطار بحق محمد سيد الأبرار آمين رب العالمين :

أما بعد ، فالغرض الأهم والمطلب الأوفى الأتم من تحرير رقيقة الوداد وأنيقة المودة والاتحاد هو السؤال عن أحوال سلامة تلك الذات الجامعة لمكسارم الأخلاق والصفات ، حرسها رب الأرضين والسموات ، وفي ابك الأوقات وأشراف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبئ عن النود القويم والاتحاد المستقيم فكان أعز وأصل وأجل نازل ، وجميع ما اشتمل عليه من **درر المعاني** وغرر البيان فقد ارتسم في الخاطر والجنان ، لا سيما من طرف **وصولكم إلى البصرة** وتلويضكم أمر اياتها وحرصتها مع جميع ملحقاتها وعشيرة المنتفك ، لقد استبشرنا بذلك غاية البشارة وسررنا بذلك كثيرا ، فكذلك من طرف إثبات المحبة والمودة فنحن من جانبنا ثابتة الأركان لا يغيرها غير ولا يشوبها كدر ما دامت الأرواح في الصور ، والكتاب الذي باسم جناب سيدنا الوالد حفظه الله وصلنا حال تحريره لنرسله لجنابه إن شاء الله ليكون معلوما . . هذا والمامول إدرار المراسلات مع شرح أحوال سلامة تلك الذات وبما يبدو لكم من المهمات في هذه النواحي والجهات ليقضي بعون الله بمجرد الإعلام ، والسلام خير مبدأ وختام^(١٢) .

هذا من المحب

الوائق بالله عبده ثويني بن سعيد بن سلطان

تحرير ١٤ في شوال المكرم سنة ١٢٧٦هـ

لقد تضمنت مذكرة معشوق باشا - زيادة على ما تقدم من معلومات مهمة عن أحوال الأمرة الحاكمة للمسلطنة العمانية- أن السلطان سعيد كان يميل إلى اشتراك ابنه الصغير ثويني في تدبير شئون الإدارة في مسقط أثناء غيابه، فجعله وكيله عنه، مما أثار حفيظة ابنه الكبير هلال وأوغر صدره فهرب إلى مصر، ومكث هناك مدة من الزمن بأمل تحقيق مطالبه الشخصية ولكن بدون جدوى، إذ إنه لم يجد أناسا صائفة لمطالبه، فشد الرحال إلى إنجلترا، وبعد مرور سنتين على مكوثه في إنجلترا عاد إلى

مسقط بواسطة الحكومة البريطانية ، بيد أن والده لم يغير موقفه منه ولم يسند إليه أي عمل إداري أو رسمي ^(١٣) .

ومن الجدير بالذكر هنا إن السيد سعيد بن سلطان كان له عدد كبير من الأبناء من بينهم : هلال وخالد وثويني وتركي وبرغن ، وأنه كان على خلاف صيق مع ابنه البكر هلال بسبب في حرماته من ولاية العهد . أما أسباب الخصام العائلي فتعود على ما يبدو إلى أن الابن الأكبر يعتبر في قصور الملوك والسلطين موضع رغبة أبيه وشكه ، وخصوصا إذا امتلك الابن قدرا من الشجاعة وعطو الهمة ومسة الطموح ، وكانت أم خالد الأخ الأصغر لهلال ، ذات حظوة ونفوذا لدى زوجها السلطان فاستغلت منزلتها لتحصل لابنها على ولاية العهد ، بالرغم من كونه غير محبوب من الناس لانهمائه في التجارة وجمع المال ، في حين اتصف هلال بالشجاعة والفروسية ، فحظى بحب الناس واحترامهم ، إلا أن ميل أبيه إلى أخيه خالد وتفضيله عليه دفعه إلى الشكوى ثم المعارضة فالتمرد . وزاد الطين بلة اكتشاف السلطان سعيد قيام صلات وثيقة بين سلوك ابنه الأكبر وشكوكه فيه ، وكان السيد سعيد يشعر بالشك والريبة في نوايا الفرنسيين تجاهه ، تلك النوايا المتمثلة في سعيهم إلى الاستحواذ على أملاكه في إفريقيا الشرقية ، لذا أقدم في عام ١٨٤٤ على استشارة الحكومة البريطانية برغبته في أن يرثه على ملكه في عمان **ابنه ثويني** ، وعلى ملكه في إفريقيا الشرقية ابنه خالد ، وكان جواب الحكومة البريطانية أنها لا تتدخل في الشؤون الداخلية للسلطنة ، ولكنها نصحت السلطان سعيد بصورة غير مباشرة بضرورة المصالحة والتفاهم مع ابنه . ويبدو أن سيل غضب الأب على ابنه قد بلغ الذق ، عندما قام هلال في شهر أيلول من عام ١٨٨١ بزيارة سرية مفاجئة إلى لندن ، فصمم أبوه على حرماته من حقوقه ، وتعيين أبنية ثويني وخالد وكليين له في مسقط وزنجبار . وعند عودة هلال إلى زنجبار على ظهر باخرة بريطانية ، في شباط ١٨٨٢ ، ازداد والده حنقا عليه وضاق به ذرعا ، فنفاه عام ١٨٨٤ إلى جزيرة "لامو" حيث مكث فيها ولم يغادرها إلا لأداء فريضة الحج ، ثم وافته المنية في ٢٢ أيلول ١٨٨٦ في مدينة عدن ، في طريقه إلى مكة المكرمة ^(١٤) .

نعود إلى مذكرة معشوق باشا ، لنستعرض بعض الجوانب الخفية من الصراع الدائر بين النفوذتين البريطاني والأمريكي في المحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي ، فقد ذكر معشوق باشا أن إحدى السفن الأمريكية جاءت إلى سواحل عمان وأخذت أعدادا كبيرة من العبيد ، وأن هذا العمل أثار استياء وعدم رضا قائد الوحدة البحرية البريطانية المتواجدة في هذه المياه ، والمؤلفة من سفينتين من نوع (بيسك) وطلب القائد المذكور من سلطان مسقط منع الأمريكان وأهالي السلطنة الذي يتعاطون هذه التجارة ، استنادا إلى الاتفاقية الموقعة بين الطرفين بخصوص العمل المشترك من أجل منع ممارسة تجارة العبيد في سواحل الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية

وقد أجاب السلطان سعيد بعدم إمكانية منع هذه التجارة داخل سلطنته، وعدم اقتداره على منع الأمريكيان من ممارستها. وبالفعل أخذ الأمريكيان ما يشاؤون من العبيد، وأثناء مغادرتهم السواحل المذكورة لم يفعل القائد البريطاني سوى الادعاء بأنه سوف يتعقب السفن الأمريكية ويمنع نشاطها، بيد أنه لم يصنع شيئا، بل استمر الأمريكيان في مزاوله تجارة العبيد في السواحل المذكورة ودخل السلطنة، مما أثار الجدل المستمر بين الحكومة البريطانية وسلطان مسقط^(١٥).

والمعروف أن مسقط كانت تعتبر سوقا كبيرة من أسواق بيع الرقيق، وتصديره إلى أوروبا وأمريكا، ومدن الخليج العربي والبصرة وبغداد، وكان حكام عمان يمارسون هذه التجارة لحسابهم الخاص، ويحصلون على دخل سنوي يقدر بثلاثة عشر ألف باون. وذكر كرزون (Curzon) أن إيراد السلطان سعيد من تجارة الرقيق، قبل إلغائها، كان يشكل ربع إيراده الإجمالي البالغ ثمانين ألف باوند سنويا، واستنادا إلى معلومات شركة الهند الشرقية، عام ١٨٧٢، فإن عدد الرقيق المصدر من زنجبار إلى مسقط والهند وجزر موريشيوس، يتراوح بين ٦٠٠٠ - ١٠٠٠٠ نفر سنويا، وأن عدد السكان الأحرار في هذه الأماكن لا يتجاوز ٢٥ % من التعداد العام للسكان، ومن المؤلف هناك أن يمتلك بعض الأشخاص من الأثرياء حوالي ٨٠٠ - ٩٠٠ نفر من العبيد، يعملون على خدمته كما وكيفا، وذوباتهم في خدمة إقطاعاته قلنا وقلها^(١٦).

لذلك خسر السلطان سعيد موردا ضخما عند توقيع معاهدة ١٨٦٢ مع بريطانيا لمكافحة تجارة الرقيق، وأصبح لسفن الأسطول البريطاني الحق في تفشيش السفن المشتبه في ممارستها هذه التجارة المحرمة دوليا. كما أثارت هذه المعاهدة استياء التجار العمانيين الذي كانت تجارة الرقيق تشكل مهنتهم الرئيسية، ومعارضة رجال الدين المتعاطفين مع التجار، ولذا فإن حجما واسعا من هذه التجارة ظل مستمرا، مما تطلب التأكيد على تحريم تجارة الرقيق بالمعاهدات المبرمة في أعوام ١٨٦٣، ١٨٦٩، ١٨٨٠. ولكن نجاح الفرنسيين في إبرام معاهدة مع السيد سعيد عام ١٨٧٠ منحتهم الحصانة الدبلوماسية، وأمنت لهم ولنا الحماية من المتابعة والتفتيش، مما أدى إلى استمرار تجارة الرقيق تحت العلم الفرنسي، ولم تستطع هزيمة معاهدة ١٨٦٩م مع إنجلترا مكافحتها والقضاء عليها نهائيا^(١٧).

ومما يجدر ذكره هنا أن الفرنسيين كانت لهم علاقات تجارية مكررة مع عمان، وأثناء الحملة الفرنسية على مصر، وخشية بريطانيا من سيطرة الفرنسيين على طريق الهند، سارعت إلى عقد معاهدة مع عمان في ١٢ تشرين الأول أكتوبر ١٧٩٨ حصلت بموجبها على حق فتح وكالة لها في بندر عباس تكفلت بحمايتها ذاتيا، وبعد عامين عقدت معاهدة ثانية تضمنت وجوب وجود وكيل بريطاني مقيم في

مسلط ، إلا أن هذا البند من المعاهدة لم يدخل حيز التنفيذ إلا بعد مرور أربعين عاما ويبدو أن الحكومة البريطانية ، حتى عام ١٨١٦ ، كانت غير راغبة في التدخل المباشر في شئون عمان ، ليس عزوفا عن مبدأ التدخل في شئون الغير ، وإنما لخوفها من مغبة التورط ، ولقصور رؤيتها عن إدراك نطاق مصالحها الحقيقية في تلك المنطقة الحيوية ، ومقدار الفوائد المتحققة نتيجة هذا التدخل ، وقد تصدت سفن بعض المواطنين من العمانيين والقواسم للسفن الانجليزية ، وأنزلوا بسفن أعدائهم خسائر جسيمة ، سواء أكانت تجارية أو حربية^(١٨) .

لذلك أطلق الإنجليز على ساحل عمان الذي يمتد غربا إلى شبه جزيرة قطر اسم (ساحل القرصنة) ، وبعد إخضاع العمانيين والقواسم لمشابكتهم وتقييدهم باتفاقيات غير متكافئة أطلقوا على الساحل نفسه اسم (ساحل عمان المهادن) أو (ساحل عمان المتصالح)^(١٩) .

وعندما اقتنع سلطان عمان بعدم جدية الإنجليز والإيرانيين في تحالفهم معه ، لأن كل واحد منهم كان يبحث عن تأمين مصالحه الذاتية في ميدان الصراع ، عاد مجددا لمقاومة الفرنسيين ، وعقد لتقايا معهم في ٣ آذار (مارس) ١٨٧٧ ، اتفاقا ظل معمولا به حتى توقيع المعاهدة التجارية الفرنسية - العمانية عام ١٨٩٠^(٢٠) .

وبعدم نجاح قولت محمد علي باشا في احتلال الدرعية ، وأسر عبد الله بن سعود (١٨١٨ - ١٨١٩) وجد السيد سعيد بن سلطان إن الوقت قد حان للقضاء على القواسم بمعاونة القوة البحرية البريطانية^(٢١) .

فتم له ما أراد هذه المرة ، بالرغم من المقاومة الضارية للقواسم الذين اجبروا على توقيع معاهدة في ٨ كانون الثاني ١٨٢٠ ، تعهدوا بموجبها بعدم ممارسة أعمال الغزو في البر والقرصنة في البحر مستقبلا^(٢٢) .

وفي تموز (يوليه) ١٨٧٠ حاول السلطان سعيد محاصرة بوشهر والاستيلاء عليها ، ولكنه عدل عن ذلك بناء على طلب من المقيم البريطاني ، وقد تمكن من أسر حاكمها الإيراني الذي كان مبحرا إلى بلاده ، ومكث في الأسر عدة أشهر ، كما أرسل في تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة ذاتها حملة بحرية إلى البصرة ، لإرغام السوالي العثماني على دفع المنحة السنوية التي قررها السلطان مصطفى الرابع ، عام ١٨٠٦ ، إلى الإمام أحمد بن سعيد ، مقابل نصرته للبصرة عند حصار الإيرانيين لها^(٢٣) .

وخلال السنوات الممتدة بين ١٨٥٨ - ١٨٧٦ تمكن سلطان أفريقيا الشرقية السلطان خالد من الاستيلاء على مهبسة وزنجبار . ومن الجدير بالذكر إن بريطانيا كانت تعتمد على سعيد بن سلطان للحفاظ على الوضع الراهن في الخليج العربي ، بما يؤمن استمرار المصالح البريطانية الاقتصادية والسياسية ، لذلك قدمت إليه الدعم

والإسناد المباشر وغير المباشر في صراعه مع القواسم وآل سعود، ومع الطامعين في السلطة من أبناء أسرته وغيرهم من زعماء القبائل في السلطنة^(٢٤).

وإزاء تصاعد نشاط محمد علي باشا ونزوحه نحو تكوين دولة كبيرة، وبعد سير الخديوي إسماعيل باشا على منواله (١٨٦٣/ ١٨٧٩) بهدف التوسع في جزيرة العرب والهلل الخصيب، إضافة لمصر والسودان - اقتنعت حكومة الهند البريطانية بضرورة إقامة علاقات أوثق بين سلطنة عمان وبومباي، فقررت إرسال وكيل بريطاني إلى مسقط، وبناء على ذلك فقد عين اللورد دامون (Lord Damon) في عمان عام ١٨٧٠، ولكن اتخاذه السلطان سعيد زنجبار مقراً لحكومته، في ذلك الوقت، جعل القنصل المذكور يتجه إليها ويتخذها هو الآخر مقراً له^(٢٥).

وقد ذكرنا في بداية البحث، ومن خلال عرض ما ورد في تقرير درويش باشا، أن أسطول البصرة لم يرق بدور مؤثر في مياه الخليج العربي، من النواحي السياسية والعسكرية والتجارية، وأنه كان عاجزاً حتى عن تأمين الحماية للبصرة ذاتها بسبب تدهوره وتردي الأحوال فيها ونوعها، كما وكيفا. وقد اشرنا إلى أسباب هذا التدهور والتردي الكامن في الولاة الحاضرين بشخصهم الغائبين بسلطانهم، ولا نجد ضرورة لتكرار ذلك. كان يوجد في **ترسانة البصرة** أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر سبع سفن إحداها تصلح للتجارة البحرية بعد صيانتها وتسمى (فتح على) والست الأخرى تصلح للتجارة النهرية، وهي: بشار، وفتح خير، وتكبير، وبغداد، وعطية الرحمن، وصالح، وبناء على طلب كل من والي بغداد وقائد أسطول البصرة من الصدارة الموافقة على شراء خمس سفن صغيرة إحداها من نوع (قروت)، واثنين من نوع (بريق) واثنين من نوع (أوسفونة)، وكذلك سفينتين كبيرتين نهرية وبحرية، بغرض تحديث ميناء البصرة، فقد تمت مفاتحة الجهات المعنية في لندن لبناء السفينتين الأخيرتين، وتقرر تصنيع السفن الخمس الأخرى في ترسانة إسطنبول^(٢٦).

وبناء على مقترحات مجلس البحرية، في الباب العالي، الواردة في المذكرة المرفوعة إلى الصدارة، بتاريخ ٥ جمادى الثاني ١٢٧٨هـ / ٢٨ نيسان ١٨٧٩م، من قائد (قبودان) البحرية العثمانية سليمان باشا، والمقترنة بموافقة الصدارة في السابع من جمادى الثانية، ومصادقة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) في الثامن منه، تقرر ما يلي: للنهوض بالبصرة والمشمول بإحلال وتجديد جميع المؤسسات الاجتماعية والدواوين الأخرى:

١- تعيين قائد السفينة الحربية (مسعودية) ميرالاي بيريك قائداً لأسطول البصرة، ومنحه صلاحية إعادة تنظيم القوات البرية وتعزيز السفن الموجودة في ترسانة البصرة، ومنحه كذلك رتبة (رياسة همايون).

- ٢- تعيين رستم آغا ، وهو أحد ضباط البحرية في اسطنبول ، مساعدا لقطبان البصرة ، ومنحه رتبة (يكباشي)
- ٣- إرسال مجموعة من الضباط والمراتب من صنف البحرية الحربي والفني وكما هو مبين أدناه:

الرتبة	الصنف	العدد
قول اغاسي	حربي	١
يوزباشي	حربي	٣
ملازم	حربي	٢
جالوش	حربي	٥
اوتباشي	حربي	٥
أونباشي اغاسي	حربي	١
يوزباشي اغاسي	حربي	٣

جنود فنيين حدادة ونجارة، وذلك لبناء عدد مناسب من تلك الوحدات، بهدف تحديث البصرة لكونها مدينة هامة وميناء حيويا للتيار العالي^(٢٧).

تم تعاقد مجلس البحرية مع أحد التجار الأجانب المدعو (قرة ين) لاستيراد أربع بواخر من إنجلترا لاستخدامها في البصرة وجدة ونهر الطونة ، مع آلاتها وأدواتها ولوازمها الأساسية والاحتياطية كافة ، مقابل ١٥٦٥٠ كيس^(٢٨).

وقد تضمنت المقابلة المعقودة بين الطرفين، في ١٧ رمضان ١٢٨٠ هـ / ١٦ تموز (يوليه) ١٨٨٤م، تعهد الطرف العثماني بقيام خزينة الدولة المركزية بدفع ١٢٠٠٠ كيس من أصل المبلغ المذكور، على شكل أقساط شهرية اعتبار من شهر تموز، وبمعدل ٧٥٠ كيسا للقسط الواحد ، أما المبلغ المتبقي فيدفع بنسبة الأقساط ذاتها من قبل خزينة ترسانة اسطنبول ، على أن لا يطلب الطرف الثاني أي شيء كتعويض للضرر والخسائر؛ التي قد يدعي حصولها عند تسديد مستحقته، عن طريق النقد أو القوائم أو أي وسيلة أخرى. كما نصت المقابلة على وجوب تسليم الباخرتين لأسطول البصرة بعد مرور ثمانية شهور من تاريخ إبرامها^(٢٩).

ولكن الطرف العثماني لم يتمكن من الوفاء بالتزاماته المالية، بسبب تدهور الهوية العثمانية حسب المواعيد المقررة بين الطرفين ، ففي ظرف ثمانية شهور سددت وزارة المالية ٢٢٥ كيسا من أصل ستة آلاف كيس، واجبة الدفع خلال المدة المذكورة ، مما أدى إلى تأخير تسليم الباخرتين^(٣٠).

واستمر الحال على هذه الشاكلة لعدة سنوات ، بسبب العجز المالي الذي كانت تعاني منه الدولة العثمانية الحاضرة بشخصها الغالبة بسلطاتها، ولاشغالها بحرب

القرم، وغيرها من الحروب الخارجية، مع القوى الأوروبية المستأيدة والفتن والاضطرابات الداخلية التي أجهزت على الإدارة العثمانية وتأثير سلبيات ذلك على ميناء البصرة، وما تعرضت له من مصاعب وعقبات، ومعوقات مقصودة من جانب إنجلترا التي كانت تسعى سعيًا حثيثًا من أجل نجلزة أملاك الرجل المريض، وغيرها من القوى البحرية التي كانت لها مصلحة في إبقاء الأسطول العثماني في البصرة على مياه شط العرب والخليج العربي، بحرية تامة ودون مضايقة أو رقابة أو منافسة، لتثبيت أقدامها في تلك المنطقة البحرية الزاخرة بالثروات، وأيضًا لموقعها الحيوي وكبح جماح الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، تمهيدًا لسحب البساط من تحت أقدامها، وابتلاع أملاك الدولة العثمانية التي داعبت أحلام إنجلترا كثيرًا، بعد تحزيم وتطويق غريمها فرنسا. وعند ورود رسالة سلطان عمان، جدد وإلى بغداد مطالبته بإرسال عدد من السفن من ترسانة إسطنبول، بالشراء من إنجلترا وبومبيي لتعزيز أسطول البصرة، واستمالة السيد سعيد بن سلطان، كما أعلم الصدارة بأن من مقتضيات المصلحة العامة للدولة إرسال مبعوث مناسب، أو قائد أسطول البصرة القومندان بيريك (PruBic) إلى المنطقة المذكورة. وأرسل بالفعل رسالة أخرى إلى حاكم عمان تضمنت تبريكة وتهنئته بمناسبة عودته إلى مسقط، كما تضمنت عبارات التلطيف والمجاملة دون التطرق إلى أي شيء آخر^(٢١).

وفي الباب العالي تقرر إجابة متصرف البصرة بتحويله اتخاذ التدابير المؤدية إلى جلب حاكم مسقط واستمالاته إلى لصف العثماني، وإعطائه التأمينات والتأكيدات اللازمة لتحقيق هذا الهدف، لحين تشكيل القوة البحرية المطلوبة في خليج البصرة^(٢٢).

وكان متصرف البصرة "معشوق باشا" قد اعد دراسة مفصلة إلى الصدارة تضمنت جملة من المقترحات لأحياء أسطول البصرة، وتنشيط الحركة التجارية مع الهند، ووضع أسس جديدة لدور عثمانى مؤثر في الخليج العربي^(٢٣).

وتتمثل هذه المقترحات في الأمور التالية من أجل الارتقاء بالبصرة التي تمثل القلب النابض بالنسبة للسلطين العثمانيين:

١- بناء خمس سفن إحداها بحرية مسلحة لمقاومة القراصنة، والأربع الأخرى نهرية من نوع (قروت، وبريق، وأوسقونة)، واقترح ثلاثة طرق لتأمين هذه السفن وهي: المبادرة ببناء هذه السفن في ترسانة البصرة، ويتطلب ذلك جلب الأخشاب والمواد الأخرى اللازمة لبناء السفن من الهند مباشرة، أو عن طريق الكويت، وكذلك جلب عدد من العمال والمهندسين من الهند أو إسطنبول، والطريق الثاني هو استيرادها من أحواض بناء السفن في بومبيي وكلكتا! أو عن طريق بناتها في ترسانة إسطنبول. وأضاف أن

طريق الشراء الجاهز، أو التوصية على بنائها بالمواصفات المطلوبة من الهند، يوفر وقتاً أقل وكلفة تقل بنسبة ٣٠ % مما لو تقرر بناء هذه السفن في البصرة أو اسطنبول أو إنجلترا، كما أن الأخشاب الهندية المستخدمة في صناعة السفن أكثر مقاومة من الأنواع الأخرى. وقد استقى معشوق باشا هذه المعلومات من قبطان السفينة الانجليزية العاملة في نقل البريد البريطاني بين الهند وبغداد، وكذلك من التجار المترددين على الموانئ الهندية .

٢- تعيين قنصل (شهبندر) عثماني في ميناء بومباي، لرعاية المصالح العثمانية الهندية ، كالقيام بمعاملات بناء وشراء السفن من الموانئ الهندية ، وحماية مصالح التجار من التبعة العثمانية المترددين على الموانئ المذكورة، وإنقاذهم من الاضطراب إلى قبول الحماية البريطانية تحت مفرات الامتيازات والضمانات والتسهيلات التي يحصلون عليها من جراء ذلك، سواء في الموانئ الهندية أو في عرض البحار ، في حين يلقى التجار وأصحاب السفن العثمانيين، الرافضين قبول الحماية الأجنبية، صنوف الأذى والمعاملة الجافة في الموانئ الهندية ، بقصد إرغامهم على قبول الحماية البريطانية. وطلب من الباب العالي أن تقوم وزارة الخارجية العثمانية بلفت نظر سفارة إنجلترا في اسطنبول وتنبيهها إلى العواقب الوخيمة المترتبة على استمرار هذه السياسة التصفية .

٣- وضع النجمة العثمانية على مقدمة السفن التي يمتلكها رعايا الدولة العثمانية كافة، وفزودهم مجاناً بالأعلام العثمانية، وأوامر تحريرية باللغتين العربية والتركية تتضمن منح حاملها الحرية والرعاية عند دخولهم المياه العثمانية في شط العرب وسائر الجهات الأخرى. وقد اتخذ معشوق باشا هذا الإجراء كرد وقائي على قيام قائد الأسطول البريطاني، المتجول في الخليج العربي وساحل عمان، بمحاولة فرض الحماية البريطانية على أهالي الكويت والبحرين، إذ إن القائد المذكور كلف أهالي الكويت والبحرين قبول الحماية البريطانية، مقابل تأمين سلامة سير سفنهم بحرية في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي، وطلب منهم إجابته خلال سنة أشهر، ولكن أهالي الكويت والبحرين رفضوا العرض البريطاني بطريقة دبلوماسية .

٤- تأسيس أسطول حربي عثماني، يتألف من عدة سفن مسلحة، للتجول في مياه شط العرب والخليج العربي، لتأمين الحماية للسفن التجارية العثمانية وللمدينة البصرة بقوة عسكرية برية إضافية، لما لذلك من أهمية في امتداد النفوذ العثماني إلى الكويت والحسا والقطيف، والوقوف بوجه التوسع

الإيراني. ومن الجدير بالإشارة أن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك أية سفينة بحرية في مياه الخليج العربي ، حربية كانت أم تجارية، وكان التجار والحجاج من رعايا الدولة العثمانية يركبون السفن البريطانية إلى ميناء جدة بقصد الحج، أو إلى بومباي بهدف المتاجرة. وقد خصص الإنجليز سفينة بحرية للقيام برحلة سنوية واحدة بين البصرة وجدة في موسم الحج ، مروراً بمينائي بوشهر ومسقط ، وكانت هذه الرحلة تستغرق اثني عشر يوماً للذهاب فقط، وحقت في عام ١٢٨٣هـ / ١٨٨٦ م إيراداً مقداره ٣٥٠٠٠ روبية هندية، من نقطة انطلاقها في ميناء البصرة. يضاف إلى ذلك ما حققته من إيرادات مضاعفة أثناء مرورها بمينائي بوشهر ومسقط. لذا طالب "ممشوق باشا" حكومته المركزية بشراء سفينة بحرية من إنجلترا، أو إرسال إحدى السفن البحرية الموجودة في ترسانة اسطنبول لاستخدامها في الملاحة مع ميناء جدة في موسم الحج ، وبمعدل رحلة أو رحلتين، ومع بومباي بمعدل أربع رحلات سنوية، وأكد على ما سوف تحققه هذه العملية من فوائد مادية ومعنوية ، حيث ستمخر عباب البحر أمام السواحل العربية والهندية سفينة يرفرف على ساريتها العلم العثماني ، ومن الناحية العسكرية والإدارية فإن هذه العملية ستحقق **اتصالات ومخابرات سريعة بين اليمن والبصرة أو الحجاز ، ومنها إلى اسطنبول**^(٢٤).

مناهج البحث

- ١- ألقى هذا البحث الضوء على الأحوال العامة لمنطقة بلاد الرافدين وتخومها من سكان الخليج العربي، في خضم التكالب العالمي على تلك المناطق الحيوية الزاخرة بالثروات الطبيعية والبشرية التي أسالت لعاب قوي الضد.
- ٢- أشار هذا البحث إلى أبعاد العلاقات الحيوية بين ميناء البصرة وحواضر التخوم المجاورة لها والتي استلهمت منهم العطاء.
- ٣- تناول هذا البحث أبعاد التضعضع والضعف في هياكل الدولة العثمانية المتشترقة، والتي كانت حاضرة بشخصها غائبة بسلطانها، تمهيداً لسقوطها في حبلل الذلل الأوروبية الجامحة والهوجاء، بعد أن تفلزت عن كبريائها .
- ٤- أوضح هذا البحث مدى انصهار ميناء البصرة ديموغرافياً مع شتى القوى الإسلامية في تلك الإصقاع، كما وكيفا، عمقا وإتساعا.
- ٥- أبرز هذا البحث مدى أهمية مدينة البصرة التي جسدت مركز إشعاع تجاري وثقافي، سواء في الداخل أو الخارج، اشرأبت الأعناق إليها بعد أن اتجهت إندار الحشود العربية إلى هذا الصقع كمدينة وميناء حيويين.
- ٦- عالج البحث حرص الإدارة العثمانية على ميناء البصرة لحيويته، ولكونه صمام أمان لها، وبالتالي إرسال كيانات قوية لإدارته ودرأ الأخطار التي تهدده.
- ٧- برهن هذا البحث على مدى احتقان الكيان العثماني وعجزه عن الدفءاع عن مدينة البصرة، فصار يدور في أفلاك القوى العظمى من أجل الارتماء بين أحضانها.
- ٨- أكد هذا البحث على محاولات حكام البصرة درأ الأخطار التي حيكت على ميناء البصرة، الذي يجسد صمام أمان للحكم العثماني، لكن هيهات .
- ٩- أوضحت الدراسة مدى المحاولات الكثيرة، من جانب حكام البصرة العثمانيين، في تكفل وضم العديد من الحواضر المتاخمة للبصرة، من أجل إعطائها دماء جديدة، وكانت إحدى المحاولات المطروحة للحفاظ على هوية مدينة البصرة.
- ١٠- ألقى البحث الأضواء على انغماس الباب العالي، الذي عفا عليه الزمن، في المشاكل الملتهبة، سواء في الداخل والخارج، التي جعلته يغمض عينيه عن ميناء البصرة.

- ١١- كشف هذا البحث للنقاب عن العديد من الرسائل المدونة من جانب متصرف البصرة العثماني إلى الباب العالي، لتبين الأحوال المتدنية لمدينة البصرة، في ظل التنافس الاستعماري المحموم.
- ١٢- أشار هذا البحث إلى العديد من التقارير الصادرة والواردة من متصرف البصرة العثماني وحكام دول النخوم، من أجل تطبيع العلاقات بينهما، ورد الفعل في ذلك الصدد.
- ١٣- قن هذا البحث مدى قوة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس في استقطاب تلك الكيانات العربية وتطويقها، من أجل نجلزة ميناء البصرة الذي أصبح قلب قوسين أو أدنى من الوقوع بين براثن هذا المغامر العنيد.
- ١٤- حققت الدراسة عدة قرائن عن أسطول البصرة البحري وقوتها البحرية، وهيك النظام المعمول به في تلك الحاضرة البحرية التي تمثل القلب النابض للتجارة، وأيضاً مقترحات تحديثها كما وكيفا.
- ١٥- عالجت الدراسة العديد من الافتراحات الحيوية للنهوض بمدينة البصرة، بحكم موقعها الاستراتيجي وأهميتها للباب العالي المحتقن في تلك الفترة .
- ١٦- أثبتت الدراسة أن محاولات الباب العالي قد ضاعت سدى، وعجز عن تحقيق أهدافه، حيث كان يعاني من سكرات الموت، بعد أن قلل بترنج أمام القوى العالمية الكاسرة التي سعت سعيًا حثيثًا من أجل تمزيقه، تمهيدًا لالتقاطه على أملاكه، بعد أن توارى مأسوفًا عليه، وتحولها إلى فرائس سائقة الاتهام والابتلاع.

الهوامش

١. يمثل الخليج العربي أحد الطرق العالمية القديمة الثلاثة (الجنوبي والأوسط والشمالي) التي تربط الشرق بالغرب ، فالطريق الأوسط للتجارة الشرقية يمر عبر الخليج العربي وسهول العراق وبلاد الشام إلى موانئ الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وقد قام هذا الطريق بدور هام في النقل التجاري والبشري والحضاري منذ أقدم العصور حتى إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م ، فقد كثيراً من أهميته ، واستطاع العرب اعتماداً على سواحلهم الطويلة التي تسيطر على بعض مداخل ومخارج التجارة الشرقية في البحر العربي والمحيط الهندي ، خلال حقبة طويلة من التاريخ الإنساني ، أن يكونوا مسداة للتجارة والملاحة المارة عبر الطرق البحرية والبرية الموصلة بين العالمين القديم والجديد ، وانتشرت ممتلكاتهم ومعارفهم على هذه المصالح بين الصين وشبه جزيرة اسكندرية ، مما يدل على عمق نفوذهم الاقتصادي وتأثيرهم الحضاري . انظر : د. إبراهيم شريف : الشرق الأوسط ((دراسة لاجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق)) ، (بغداد ، ١٩٦٥) ، ص ١٧ ، ١٩ ، ٢٢ - ٢٤ .
٢. Alderson, A: The structure of the Ottoman Dynasty (Iraq Affais). (N.Y, 1970).
٣. كارسين تيبور : مشاهدات تيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة ١٧٦٥ ، ترجمة سعد هادي العمري ، (بغداد ، ١٩٥٥) ص ١٢٠ . ستيفن همسلي لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة حنظل الخطيب ، (بغداد ، ١٩٨٥) ط ٦ ، ص ٣٦٢ . د. عبد الأمير محمد أمين : القوي البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، (بغداد ١٩٦٦) ، ص ٩ - ١٢ ، ٦٥ ، ٧٤ - ٧٥ .
٤. د. عبد الأمير محمد أمين: المصدر السابق، ص ٦٥ ، ٧٥ - ٧٦ - ٨٣ .
٥. الفكرة : أحد أنواع المكاييل المستخدمة وقتذاك وتعدل ألف أوقية اسطنبولية .
٦. أرشيف الباب العالي في اسطنبول / تركيا / إرادة : مجلس والا . رقم الوثيقة ٥٥٠٠ .
٧. Ahmed, F: The young Turks, the Committee of notion and progress in Turkish politics (1809- 1911) [London, 1960].
٨. أرشيف الباب العالي: إرادة / خارجية، رقم الوثيقة ٣٢٢٦، لف ٦ (من المأمور المخصوص لتحديد حدود إيران محمد أمين درويش باشا إلى الصدارة، ٢١ ربيع الآخر ١٢٦٦ هـ / ٦ مارس ١٨٥٠ م) .
٩. أرشيف الباب العالي: إرادة / خارجية، رقم الوثيقة ٣٢٧٩، لف ١ (مذكرة درويش باشا إلى متصرف البصرة معشوق باشا، غرة شعبان ١٢٦٦ هـ / ١٢ حزيران ١٨٥٠ م) .
١٠. أرشيف الباب العالي : إرادة / دلخية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ ، بحرية لف ١ (من متصرف إيالة البصرة إسماعيل معشوق باشا إلى الصدارة ، ١٥ شوال ١٢٦٧ هـ / ١٥ حزيران ١٨٥١ .
١١. Hammer, J: History of Empire Ottoman (IraqAffais) (N.Y, 19).
١٢. ينظر : رودولف سعيد روث : سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ - ١٨٥٦ ، ترجمة عبد المجيد حبيب القيسي ، (مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٢) ، ص ٤١ - ٤٧ . د. جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ - ١٨٦١ ، (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ٤٠ - ٤٦ . عائشة السيار: دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا في الفترة من ١٦٢٤ - ١٧٤١ ، (بيروت ١٩٧٥) ، ١٨٢ وما بعدها .

١٣. أرشيف الباب العالي :إرادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف ٣) .
١٤. Cales, R : The Ottoman impact in Europe, (Iraq Affais) (London, 1965).
١٥. أرشيف الباب العالي :إرادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف ١) .
١٦. رودولف سعيد روث : المصدر نفسه ، ص ١٢٤ - ١٢٥ . السيدة سالمة بنت السيد سعيد : مذكرات أميرة عربية ، ترجمة عبد المجيد القيسي (مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨٠) ، ص ١٨٤ - ١٨٨ .
١٧. Berkes, Nazi : The Development of Secularism in tourkey (Iraq Affais) (London , 1960).
١٨. رود لف سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٤ .
١٩. رود لف سعيد : المصدر نفسه ، ص ٦٤ - ٦٥ - ٦٧ - ٦٨ - ١٥٦ .
٢٠. د. إبراهيم شريف : الشرق الأوسط ، ص ٢٥ .
٢١. Braude, B. and .B. Lewris Christians and jews in the Ottoman Empire (N. Y, 1970).
٢٢. كانت القوة العسكرية البريطانية بقيادة السير ديليو كرايست كبير ، وتضم السفينة ليفربول المجهزة بخمسين مدفعا ، والسفينة ايثن المجهزة بستة وعشرين مدفعا والسفينة كورلا المجهزة بثلاثين مدفعا . وست سفن أخرى وكان على ظهرها ١٦٠٠ جندي من الأوروبيين و ١٤٠٠ من الهنود. زيادة على ثلاث سفن عثمانية و ٤٠٠٠ جندي عثماني . انظر : رودلف : المصدر السابق ، ص ٨٢ .
٢٣. من المعروف أن الأسطول العثماني تدخل كذلك في أيلول ١٧٧٥ لملك الحصار الذي فرضه الحاكم الإيراني صادق خان على البصرة ، وأخذت القطع البحرية العثمانية موقعها في مدخل شط العرب وسيطرت على الشط لفترة من الزمن ، وقامت بتأمين وصول المؤن والذخيرة إلى المدافعين عن البصرة، فعززت صمودهم في وجه الفزة الفرس . ولكن الأسطول العثماني السحب فجأة وعاد إلى بلاده . ويبدو أن ابتعاد الأسطول عن قواعده وخوف سلطان عمان من قيام الإيرانيين بالتعرض إلى عمان نفسها وربما مداخلة الإنجليز ومشورتهم، دفعت العثمانيين إلى الانسحاب. وكان الأسطول العثماني المرابط بمدخل شط العرب مؤلفا من عشر سفن كبيرة وعدد أكثر من الغلاطات والتراتكي والسفن الصغيرة الأخرى. وقد أدت هذه المشاركة العثمانية إلى حدوث خلاف عتيق بين سلطان عمان ووالي بغداد، وذلك لادعاء الأول أن له ديونا في ذمة الوالي الذي اضطر إلى تسوية خلافه مع حاكم عمان تجنباً لمجابهة بحرية لا له بها. ينظر: رودولف سعيد : المصدر نفسه، ص ٨٦. د. عبد الأمير محمد أمين: المصدر نفسه، ص ٧٣ - ٧٨.
٢٤. Brokleman.C: History of Islamic People (Iraq Affais) (London, 1960).
٢٥. رودولف سعيد : المصدر نفسه ، ص ١١٠ ، ١٢٢ .
٢٦. أرشيف الباب العالي :إرادة / مجلس والا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .

أرشيف الباب العالي : إرادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١١٠٠٧ (تلطيفات لف ١) ، مذكرة قيودان سليمان باشا إلى الصدارة ، ٥ جمادى الثانية ١٢٦٥ هـ / ٢٨ نيسان ١٨٤٩ م

٢٧. الكيس : وحدة حسابية عثمانية تساوي ٦٠٠٠٠ آقجة ، أو ٥٠٠ قرش أو ٢٠٠٠٠ بارة ، والكيس الرومي يساوي ٥٠٠٠٠ آقجة . ينظر : دمهدي جواد حبيب البهناسي : أزمة النقود في ولاية بغداد ومحاولات معالجتها ١٨٢٠ - ١٨٥٦ ، المجلة التاريخية ، تونس ، العدد الأول .

٢٨. أرشيف الباب العالي : إرادة / داخلية ، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف ٢)

٢٩. أرشيف الباب العالي : إرادة / داخلية ، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف ١) من نماظر المالية إلى الصدارة ، ١٤ جمادى الثانية ١٢٦٨ هـ .

٣٠. أرشيف الباب العالي : إرادة / داخلية ، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ (بحرية لف ٣) .

٣١. أرشيف الباب العالي : إرادة / داخلية ، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ (بحرية لف ٤) مذكرة الصدارة إلى السلطان ومصادقة السلطان عليها ، ١٩ ذي الحجة ١٢٦٧ هـ .

٣٢. أرشيف الباب العالي : إرادة / مجلس وإلا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .

٣٣. أرشيف الباب العالي : الوثيقة السابقة .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

وثائق عثمانية منشورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأمريكية بالقاهرة - حافظة رقم ٢٩١٤ بتاريخ ١٩٧٧ ، شئون إسلامية وعربية .

١- أرشيف الباب العالي في إسطنبول - تركيا - إرادة مجلس والا - رقم الوثيقة ٥٥٠٠ نقلا عن دار الوثائق والمخطوطات ، د/ عبد العزيز سليمان نوار - الجامعة الأمريكية ، مركز الوثائق - مارس ١٩٧٧ .

٢- أرشيف الباب العالي في إسطنبول - تركيا - إرادة خارجية - رقم الوثيقة ٣١٢٦ - لف رقم ١ ، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار - الجامعة الأمريكية - مركز الوثائق والمخطوطات ، مارس ١٩٧٧ .

٣- أرشيف الباب العالي في إسطنبول - تركيا - إرادة خارجية - رقم الوثيقة ٣٢٧٩ - لف رقم ١ ، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار - الجامعة الأمريكية - مركز الوثائق والمخطوطات ، سبتمبر ١٩٧٧ .

٤- أرشيف الباب العالي في إسطنبول - تركيا - إرادة خارجية رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ لف ٢ - ٤ سبتمبر ١٩٧٧ ، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار - الجامعة الأمريكية - مركز الوثائق والمخطوطات .

٥- أرشيف الباب العالي في إسطنبول - تركيا - إرادة خارجية رقم الوثيقة ١١٠٠٧ لف رقم ١ إبريل ١٨٦٩ م ، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار - الجامعة الأمريكية - مركز الوثائق والمخطوطات ، سبتمبر ١٩٧٧ .

٦- أرشيف الباب العالي في إسطنبول- تركيا- إرادة خارجية رقم الوثيقة ١٣٨٣٠ لف رقم ٣ إبريل ١٨٦٩، نقلًا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية مركز الوثائق والمخطوطات سبتمبر ١٩٧٧.

ثانيًا المراجع العربية والمحربية

- ١- إبراهيم شريف: الشرق الأوسط- دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في الواحة- بغداد ١٩٦٥.
- ٢- جمال زكريا قاسم: دولة يوسف في عمان وشرق أفريقيا (١٧٤١- ١٨٦١) القاهرة ١٩٦٢.
- ٣- رودلف سعيد روث: سلطنة عمان خلال حكم سعيد بن سلطان (١٧٩١- ١٨٥٦) (ترجمة عبد المجيد القببسي) البصرة ١٨٦٢.
- ٤- ستيفن همسلي لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (ترجمة جعفر الخياط) بغداد ١٩٥٨.
- ٥- عائشة السيار: دولة العنبارية في عمان وشرق أفريقيا (١٦٢٤- ١٧٤١) بيروت ١٩٧٥.
- ٦- عبد الأمير محمد أمين: القوي البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر بغداد ١٩٦٦.
- ٧- كارستين نيبور: مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة ١٧٦٥، ترجمة (سعاد هادي العمري) بغداد ١٩٥٥.

ثالثًا المراجع الأجنبية

1. Ahmed, F: The young Turks, the Committee of wotion and progress in Turkish politics (1809- 1911) [London,1960].
2. Alderson, A: The structure of the Ottoman Dynasty. (Iraq Affais) (N.Y, 1970).
3. Berkes, Nazi : The Development of Secularism in Turkey (Iraq Affais) (London , 1960).
4. Brokleman.C: History of Islamic People (IraqAffais) (London, 1960).
5. Braude, B. and .B. Lewris Christians and jews in the Ottoman Empire (Iraq Affais) (N. Y, 1970).
6. Cales, R : The Ottoman impact in Europe, (London, 1965).
7. Hammer, J : History of Empire Ottoman (Iraq Affais) (N.Y, 1966)

**موقف العرب العمانيين في زنجبار من القضية
ال فلسطينية في الفترة ما بين ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩
في الصحافة العربية العمانية في زنجبار
صحيفة الفلق نموذجاً**

د. ناهد عبد الكريم (*)

مقدمة

منذ صدور وعد بلفور البريطاني عام ١٩١٧ بالعطف على أماني اليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين مروراً بقيام الانتداب البريطاني على أرض فلسطين عام ١٩٢٠ وسعيه لتحقيق هذا الهدف تصدرت القضية الفلسطينية والأراضي المقدسة وفي مقدمتها القدس، قضايا العرب والمسلمين، وتركت تأثيرها في مختلف نواحي حياتهم، واستنزفتهم نفسياً وسياسياً واقتصادياً وأمنياً.

وأسهمت أخبار فلسطين والظلم الذي لحق بالفلسطينيين إلى جانب أخبار الثورات التي عمت الأراضي المقدسة وصولاً إلى ثورة عام ١٩٣٦، التي أربكت كلا الطرفين البريطاني والإسرائيلي، والتي ردت عليها السلطة البريطانية بكل عنف وقسوة، كل هذا أسهم في خلق استياء عربي وإسلامي عام انصب على بريطانيا واليهود، ولم تخل بقعة عربية مهما كان موقعها بعيداً من تعقب ما كان يجري في فلسطين، وكان لوقع ثورة عام ١٩٣٦ الأثر الأكبر لتخطيها حدود الأراضي الفلسطينية وانخراط مقاتلين عرب من أنحاء الوطن العربي في القتال إلى جانب الثوار الفلسطينيين ضد بريطانيا والعصابات الصهيونية. وتحولت القضية الفلسطينية إلى محفز لحركات التحرر العربية.

وخلال السنوات التي تلت ثورة عام ١٩٣٦ والأحداث التي ألمت بها واهبتها، كان الشعب العربي والإسلامي يقف متابعاً لكل ما يحدث، وتنوعت أشكال استجابته، بين مشاركة واحتجاج وثورات ومظاهرات. إضافة إلى دور مميز للإعلام العربي وفي مقدمته الصحف والمجلات المصرية والعربية عموماً، فقد تولت نقل أخبار فلسطين

(*) أستاذ مساعد بجامعة السلطان قابوس — مسقط.

والممارسات القمعية للسلطة البريطانية ومعاناة الشعب الفلسطيني، ونشرت نداءات الهيئات الفلسطينية والعربية الداعية للوقوف مع الفلسطينيين، إضافة إلى استنهاض المشاعر العربية والإسلامية، ودعوات للتبرع وغير ذلك.

ولم يحل البعد المكاني بين فلسطين وزنجبار^(١) من معايشة عرب ومسلمي زنجبار لمأساة إخوانهم في فلسطين، لذلك تأتي أهمية هذا البحث من كونه أول بحث - حسب علمي - يكشف عن أثر القضية الفلسطينية وما كان يحدث في القدس الشريف على العرب العمانيين والمسلمين المقيمين في زنجبار في شرق أفريقيا من خلال ما كانت تنشره الجرائد العربية هناك كجريدة الفلق بشكل أسلسي في الفترة التي تلت ثورة عام ١٩٣٦، وهي الأعوام الأشد على الشعب الفلسطيني.

ثم بعد ذلك جريدة النهضة^(٢)، وهذه تأخر صدورها حتى عام ١٩٥١، أي في وقت متأخر عن موضوع البحث، لكن مؤسسها كان قبل ذلك من رواد جريدة الفلق.

أما أهداف البحث فهي الكشف عن موقف العرب العمانيين في زنجبار من قضية فلسطين ووقائعها كما عكستها صحيفة الفلق. بالإضافة إلى التعرف على ردود أفعالهم. وتوضيح مدى إطلاعهم ومنابتهم لما كان يجري. وبالتالي التعرف على أحد نماذج نداءات القضية الفلسطينية لدى الشعب العربي في أقصى البقاع فكيف هي في قلب الوطن العربي؟

وتكمن إشكالية البحث في الإجابة على عدد من التساؤلات منها:

- ١- ما هي الصورة التي نقلتها الصحافة العربية العمانية في زنجبار عن القضية الفلسطينية وما هي المواضيع التي طرحتها جريدة الفلق بشكل محدد فيما يخص فلسطين.
- ٢- ما هو أثر أخبار ما كان يحدث في فلسطين على العرب العمانيين في زنجبار؟
- ٣- ما أشكال الدعم الذي قدمه العرب العمانيون والمسلمون في زنجبار لفلسطين.
- ٤- ما هو أثر أحداث فلسطين على العلاقة العربية البريطانية في زنجبار؟
- ٥- ما أهمية الدور الذي قامت به جريدة الفلق وغيرها للوقوف إلى جانب الفلسطينيين.

وسيتم تناول البحث وفق منهجية العرض والتحليل والربط، وذلك بتعريض النصوص التي نشرتها صحيفة الفلق للمناقشة والتحليل ومن ثم إعادة ربط أحداثها للخروج بصورة عما كان يحدث هناك بشأن القضية الفلسطينية.

كما يتألف البحث من عدة محاور هي:

- ١- تمهيد عن أهم أحداث القدس وفلسطين في الفترة من ١٩٣٦ وحتى ١٩٣٩.
- ٢- تعريف بالصحافة العمانية في زنجبار بشكل عام وجريدة الفلق بشكل خاص.
- ٣- تصنيف الموضوعات المتعلقة بفلسطين كما نشرتها الفلق
- ٤- دور الفلق كصحيفة عربية في الكشف عن ما كان يخطط لفلسطين والقدس
- ٥- أثر أحداث فلسطين على نظرة عرب عمان لبريطانيا كما عكستها مقالات جريدة الفلق.
- ٦- ثم خاتمة البحث وأهم ما تم التوصل إليه من نتائج.

وقد تم اعتماد أعداد جريدة الفلق الصادرة في فترة البحث بشكل رئيسي، على الرغم من بعض الأخطاء في أرقام أعدادها وسيتم التركيز على تواريخ صدورها كلما دعت الحاجة. كما سيتم اعتماد بعض المراجع العربية الحديثة التي تناولت مواضيع ذات صلة بالبحث مثل كتاب الدكتور محسن الكندي الصحافة العمانية المهاجرة وشخصياتها، وكتاب الدكتور عبد الله الكندي بدايات الصحافة العمانية في زنجبار. بالإضافة إلى بعض المراجع الأجنبية التي تناولت تاريخ زنجبار.

أ- الأوضاع في فلسطين بين ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ : الثورة الفلسطينية الكبرى :

بسبب سياسة سلطة الانتداب البريطانية الداعمة لليهود، والتسهيلات التي كانت تقدمها لهم منذ عام ١٩٢٠؛ تاريخ بدء الانتداب، أكان عن طريق فتح الأراضي الفلسطينية للمهاجرين اليهود، أو تمكينهم من الاستيلاء على الأراضي العربية، إضافة إلى تردي أوضاع الفلسطينيين وانتشار البطالة بين الشباب الفلسطيني نتيجة خسارتهم لأراضيهم من جهة وإعطاء سلطات الانتداب الوظائف لليهود المهاجرين من جهة أخرى، كل ذلك جعل النظرة المعادية واحدة للبريطانيين واليهود، بل غدا الاتجاه ضد بريطانيا متقدما بحكم كونها السبب في ما أصبح عليه الوضع في فلسطين (٢)، فاشتعل الشارع الفلسطيني عام ١٩٣٦، متأثرا بشجاعة ثورة الشيخ عز الدين القسام التي سبقتها وأسست لها منذ عام ١٩٣٥ وانتشار أفكاره الثورية (٤).

ولتوحيد الصف تجمعت القوى الفلسطينية وشكلت اللجنة العربية العليا برئاسة الشيخ أمين الحسيني؛ مفتي القدس، وأعلنت إضرابا عاما في ٢٠ نيسان ١٩٣٦ شمل أنحاء فلسطين كلها بما فيها القدس بهدف الضغط على سلطة الانتداب البريطاني للاستجابة للمطالب الفلسطينية بوقف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ووقف انتقال الأراضي الفلسطينية لليهود وغير ذلك. لكن تجاهل سلطات الانتداب البريطانية للمطالب الفلسطينية واستمرار فتح باب الهجرة نقل العمل الفلسطيني إلى مرحلة الكفاح المسلح.

حققت الثورة في مرحلتها الأولى حتى عام ١٩٣٧ انتصارات حقيقية استعادت فيها بعض القرى الفلسطينية من أيدي الصهاينة والبريطانيين^(٥) ، وهاجمت المستعمرات اليهودية والمراكز البريطانية مما يدل على ربط الفلسطينيين بين البريطانيين واليهود.

لكن هذه الانتصارات استغلت بريطانيا ودفعتها إلى ممارسة شتى أصناف العقوبات على الشعب الفلسطيني ، وعملت مجتمعة مع العصابات المسلحة اليهودية لقمع الثورة ولما فشلت في تهدئة الأوضاع استعانت ببعض القيادات العربية لإقناع الزعماء الفلسطينيين بإيقاف العمل المسلح وتولي بريطانيا حل الأزمة مع الزعماء العرب. وأرسلت الحكومة البريطانية اللجنة الملكية التي عرفت باسم لجنة بيل عام ١٩٣٧ لتقصي الحقائق في فلسطين وانتهت هذه اللجنة إلى وضع تقرير أكدت فيه أن مخاوف العرب من إقامة الوطن القومي الصهيوني على أراضيهم، وزيادة أعداد الهجرة اليهودية السبب الرئيس في هذه الثورة. كما قدمت اللجنة توصية بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية وأخرى يهودية مع إبقاء القدس وبيت لحم تحت الحماية البريطانية. وبناء عليه وافقت عصبة الأمم على إرسال لجنة فنية إلى فلسطين بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩٣٧ لوضع خطة التقسيم وتحديد الحدود. عندها قاطع العرب لجنة التقسيم وانتشرت الدعوات لحث الشعب العربي لنصرة الموقف الفلسطيني^(٦)، وخلال تلك الأحداث قامت الصحافة العربية بدور كبير في تعميم أخبار ما يجري في فلسطين على الشعب العربي، مما أسهم في خلق حالة شعبية عربية حائرة على التمادي الاستعماري في خيانة العرب والاعتداء على حقوقهم.

وكان من أبرز تبعات الثورة الفلسطينية التي استمرت حتى عام ١٩٣٩ وهوان العام الذي شهد قيام الحرب العالمية الثانية، محاولة بريطانيا تهدئة العرب بدعوة زعمانهم إلى مؤتمر لندن (مؤتمر سان جيمس) في العام نفسه، ولكن هذا المؤتمر فشل وانسحب العرب منه^(٧). ومع بداية الحرب العالمية الثانية هدأت أحداث ثورة فلسطين ليس بسبب وقف الهجرة اليهودية ولا وقف التهديدات اليهودية على حقوق الفلسطينيين ولكن بسبب السياسة القمعية البريطانية وتدهور أوضاع الفلسطينيين الاقتصادية والتحلل للجنة العربية^(٨)، وانقسام الرأي حول الاستفادة من ظروف الحرب، كل ذلك كان وراء حالة الهدوء والترقب في فلسطين وحتى في غيرها من الدول العربية.

أثقت التطورات السابقة بثقلها على الشعب العربي في كل مكان، ومن ضمنه العرب العماليين الذين كانوا يعيشون في زنجبار ويحكمونها في ظل الهيمنة البريطانية عليهم، لذلك لم يكن الشعور بالمصير المشترك مع الفلسطينيين غريباً وقد عكسته الصحافة العربية في زنجبار وعلى رأسها جريدة الفلق. التي أسهمت بدور فاعل في

تأكيد التواصل مع كل ما يحدث في فلسطين ونشر أخبارها بل والتشجيع على دعم الفلسطينيين بكل الإمكانيات، إلى درجة أثارت بريطانيا نفسها.

ب- الصحافة العمانية العربية في زنجبار، جريدة الفلق نموذجاً:

تعود نشأة الصحافة العربية العمانية في زنجبار إلى مطلع القرن العشرين^(١)؛ وهي الفترة التي أعقبت نقل إدارة زنجبار من وزارة الخارجية البريطانية إلى وزارة المستعمرات^(٢) وإلغاء الإشراف الثنائي البريطاني العماني على زنجبار بعد عام ١٩١٣ وخروج النفوذ السياسي من يد العرب العمانيين وانتقاله إلى البريطانيين مع بقاء شخصية السلطان العماني كشخصية رمزية^(٣). وفي هذه الفترة اشتدت الهيمنة البريطانية على زنجبار بعد إطاحتها بحكم السلطان علي بن حمود البوسعيدي لتوجهاته العربية والإسلامية^(٤). وإيصال السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي إلى السلطة ومن ثم جعل الإشراف المباشر على زنجبار مسؤولية المعتمد البريطاني^(٥).

وتجسد رد الحركة الوطنية في زنجبار على السياسة البريطانية بتأسيس أول حزب وطني عام ١٩١٧، تألف من المثقفين العرب الذين طالبوا بإنهاء الحماية البريطانية على زنجبار وقد اعتقلتهم بريطانيا ونفثتهم إلى سانت هيلينا^(٦). ثم تأسست الجمعية العربية بزنجبار عام ١٩٢٥ كرد فعل على دور الجمعية الهندية في زنجبار^(٧)، التي تلقت دعماً واضحاً من البريطانيين^(٨). ويمكن القول أن ظهورها كان تجسيدا حقيقيا لوعي الذات العربية عند العمانيين في زنجبار، وردا على سياسة التهميش والغبن وإثارة الطائفية والقومية خاصة في فترة الثلاثينات^(٩).

وأسهم في نمو هذا الوعي أثر البعثات العلمية على الطلبة المبعوثين إلى بلدان عربية كانت تشهد تحولات سياسية واجتماعية وثقافية وتحررية مثل العراق ومصر ولبنان وبلدان غير عربية مثل الهند. حيث شاهدوا وعاصروا ما جرى هناك^(١٠). وقد رفضت بريطانيا إقامة الجمعية العربية وسعت لدى السلطان خليفة بن حارب لإقناع الشيوخ العرب بإيقافها^(١١). ولكن الجمعية تمكنت من الظهور، وإيصال أفكارها اقترحت عام ١٩٢٦ إنشاء صحيفة عربية لنقل أفكار الجاليات العربية في زنجبار. فتم إصدار جريدة الفلق عام ١٩٢٩ وباتت تطبع وتنتشر من قبل الجمعية العربية، وشذت أحد أهم إنجازاتها وبمثابة الناطق الرسمي لها والمجال الخصب للتقارب الوطني الممثل لهموم العرب^(١٢). وقد اختير محمد البرواني مديراً للجريدة ورئيساً للتعريب. وتلقت هذه الجريدة دعماً من الفئات العربية العليا في المجتمع، وكانت تصدر باللغتين العربية والانكليزية وأحياناً بالسواحلية^(١٣) وقد أقيمت العرب على قراءتها في مناطق مختلفة من الوطن العربي لأهمية المواضيع التي كانت تطرحها^(١٤).

وعلى الرغم من أن نشأة بعض الصحف العمانية في زنجبار يعود إلى عام ١٩١١ كما هو حال جريدة النجاح^(١٥)، التي صدرت في عهد السلطان علي بن حمود إلا

أن الدور المميز الحقيقي يبقى لجريدة الفلق التي استمرت في الصدور حتى عام ١٩٦٤^(٢١). وكانت جريدة سياسية من الدرجة الأولى حيث بلغت نسبة مقالاتها السياسية ٤٠% من مقالاتها^(٢٢). ركزت فيها على قضايا العرب العمانيين في زنجبار وعمان، والقضايا العربية في كل بلد عربي مما جعلها محط اهتمام متابعيها^(٢٣). وقد تبنت قضايا التحرر العربية فأبرزتها. وأبرزها قضية العرب الأولى، قضية فلسطين خاصة في الفترة التي أعقبت ثورة عام ١٩٣٦ في فلسطين، لذلك عكفت على نقل أخبارها وقدمت ما كان بإمكانها لدعم الحقوق الفلسطينية بالقول والعمل.

١- الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦:

أ- موقف عرب زنجبار من الثورة وأصدائها في جريدة الفلق:

أجبت أحداث الثورة في فلسطين مشاعر الغضب لدى المواطنين العرب العمانيين في زنجبار خاصة وأنهم كانوا يشاركون الفلسطينيين جهة الاحتلال البريطاني نفسها، ويتعرضون إلى عملية تطهير عرقي مماثل، لذلك كثيراً ما ربطوا بين رغبتهم في تحررهم وتحرير فلسطين من السيطرة الاستعمارية^(٢٤). وتمحور موقفهم مما يجري في فلسطين حول أمرين، الأول: إجرائي عملي. والثاني: استخدام الصحافة للتوعية بما يجري في فلسطين وإيجاد موقف شعبي مؤيد للثورة.

فبالنسبة للأمر الأول: أنشأت الجمعية العربية في زنجبار لجنة لإغاثة منكوبي فلسطين^(٢٥). وكان من أشكال الدعم التي قدمها عرب عمان في زنجبار:

- التبرعات:

كان الدعم الشعبي العربي والإسلامي لفلسطين في زنجبار أسرع من الدعم الرسمي الذي ركز على الجانب السياسي. وكانت أخبار الفلوجع في فلسطين تثير الضمير الشعبي وتدفع الناس لجمع التبرعات لمنكوبيها ومشربها وكانت جريدة الفلق تنقل عن اللجنة العربية الفلسطينية في مصر الدعوة إلى الإسراع في جمع هذه التبرعات، كما كانت تعين أسماء الهبات الموثوقة لتوصيل الإعانات^(٢٦).

ومن الاجتماعات التي عقدت لهذا الغرض، اجتماع الهيئة التنفيذية لجمعية الشبان المسلمين بدار اللجنة العربية في ليلة الجمعة ١٩٣٨/٤/٢٢، بهدف أولاً تقديم احتجاج للمقيم البريطاني في زنجبار على الممارسات السيئة للسلطة البريطانية ضد عرب فلسطين، وثانياً جمع التبرعات لمساعدة منكوبي فلسطين، وقد ألقى رئيس جمعية الشبان المسلمين الشيخ سالم بن عبد الله ودعان كلمة حث فيها المسلمين على جمع التبرعات لمساعدة المتضررين في فلسطين. ويلاحظ شمولية كلمة المتضررين من العرب وغيرهم باعتبار أن القضية الفلسطينية عربية إسلامية. وسعى في هذا الاجتماع إلى دعوة اللجنة العربية إلى اجتماع عام لهذا الغرض^(٢٧).

وانتخبت لجنة لمساعدة الفلسطينيين باسم (لجنة إعانة مسلمي فلسطين) وتألقت من رئيس هو الأمير سيف بن حمود بن فيصل^(٣١)، وعدد من الأعضاء وذلك بناء على اجتماع عمومي للجمعيات الإسلامية في زنجبار دعت إليه جمعية الشبان المسلمين وكان الهدف من الاجتماع * الكلام عن فلسطين وما يعانيه هناك إخواننا العرب من الظلم والعدوان على يد السلطة، ولمناشدة المسلمين أن يمدوا يد المعونة والنصرة نحو منكوبي فلسطين، ولتقديم احتجاج إلى فخامة مقوم بريطانيا على ما ترتكبه سلطة فلسطين (سلطة الانتداب) من الفظائع نحو عرب فلسطين^(٣٢) وكانت لجنة إعانة مسلمي فلسطين تعقد اجتماعاتها بشكل متكرر في دار الجمعية العربية لمتابعة تحقيق أهدافها الثلاث التي سبق ذكرها^(٣٣).

ومن هذه الاجتماعات، الاجتماع العمومي الذي دعت إليه لجنة إعانة مسلمي فلسطين في زنجبار يوم ٢٧ من ١٩٣٨ بهدف إعانة منكوبي فلسطين^(٣٤)، وكان مؤسس هذا الاجتماع والمعرض لعقده هو الأمير سيف بن حمود بن فيصل الذي اشتهر بمساعيه الكبيرة في إثارة الشعور الإسلامي لدى مسلمي زنجبار لمساندة الفلسطينيين^(٣٥). وجاء انعقاد هذا الاجتماع في الموعد المحدد حيث عقد أمام مدرسة البحرة، وتم فيه انتخاب حافظ بن محمد، رئيس الجمعية العربية، رئيساً لهذا الاجتماع. كما سعى المجتمعون لضم مسلمي زنجبار لتأييدهم وترجموا كلمات المتحدثين من العربية إلى السواحلية ليفهمها من هو غير عربي. كما حدث في الكلمة التي ألقاها رئيس الاجتماع والتي أوضح من خلالها أغراض الاجتماع^(٣٦).

وكان من المشاركين ممثلاً عن فلسطين علي محمد الجمالي وقد ألقى كلمة وضح فيها معاناة الشعب الفلسطيني^(٣٧).

كذلك شارك غلام علي المحامي الذي ألقى كلمة مطولة باللغة الانكليزية حاول فيها استنهاض المقيم البريطاني في زنجبار هثورني هول لحث حكومته على تخفيف معاناة الشعب الفلسطيني ووقف المجازر ضده. وقد ترجمت الكلمة من الانكليزية إلى السواحلية بواسطة الشيخ راشد رضا ناتاني^(٣٨).

وكان من الشخصيات التي حضرت الاجتماع الشيخ عبد الله بن سليمان الحارثي^(٣٩)، والقائب علي بن عمير المرهوي. وقد أبدأ كلمتي غلام علي المحامي وعلي محمد الجمالي. وخرج الاجتماع بقرار جاء فيه: * قرر هذا الاجتماع العام من مسلمي زنجبار أن يظهر عواطفه وإحساساته الصادقة الأخوية نحو إخوانه مسلمي فلسطين لما يقاسون من آراء ومصائب، ضارعا لله تعالى أن يمن عليهم بالأمن الشامل والهناء الدائم^(٤٠).

وقد لفت النظر في هذا الاجتماع للعام غياب عدد من الشخصيات العربية والهندية وربما كان ذلك لعدم إثارة غضب البريطانيين، مما دفع جريدة الفلق إلى التعليق

على هذا الغياب يهدف إثارة حميتهم للتبرع. كما أظهر بوضوح مدى الدور الإسلامي في دعم ثوار فلسطين، حيث كانت الدعوة لتقديم الدعم المادي للفلسطينيين تقتزن دائماً بتذكير المتبرع أن "ما يبذله في سبيل تخفيف ما يقاسيه عرب فلسطين من المحن والآلام إنما يبذله في نصرة دينه وقرآنه ونبيه" (١١).

وكان من أبرز نتائج هذا المؤتمر: جمع المال والتبرعات، والاتفاق على تكليف رؤساء الجمعيات والفرق الإسلامية بجمع الأموال وإيجاد طريقة سريعة لذلك. أما عن إيصال هذه الأموال إلى فلسطين، فاقترح أن يتم ذلك بواسطة الشخصيات أو المؤسسات المعروفة التي تولت إعانة منكوبي فلسطين.

وتحسباً من إعانة البريطانيين توصيل هذه الأموال للفلسطينيين تم التمتني على المقيم البريطاني هول أن يسمح بإرسال أموال الإعانة مباشرة للمتضررين الفلسطينيين، دون مرورها على حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين. وقد ذكرت جريدة الفلق أن المسلمين والبلدان الإسلامية لم تكن ترسل إعاناتها لفلسطين عن طريق حكومة الانتداب بل كانت تنقلها "بواسطة الشخصيات المعروفة، أو المؤسسات الشهيرة في مصر وسوريا والعراق وغيره" (١٢). ويؤكد ذلك قلة ثقتهم بتلك السلطة ويقرنهم بتحيزها إلى الجانب الإسرائيلي ضد العرب.

وتحسباً لرفض المقيم البريطاني هول إرسال المعونات مباشرة للفلسطينيين وإصراره على مرورها عبر سلطات الانتداب البريطانية، كان هناك اقتراح بتسليمها لشيخ جامع الأزهر بمصر لمكانته الدينية في العالم الإسلامي وأنه لن "يوصل المال المرسل من زنجبار للثوار في فلسطين" أي أنه سيتم توصيلها للمدنيين الفلسطينيين (١٣).

- الاحتجاجات:

بقيت الأوضاع في فلسطين تلقى انتقاداً حاداً من العرب والمسلمين في زنجبار، وكان البعدان القومي والديني للأراضي الفلسطينية المقدسة محظزين على توحيد الصوف والمواقف واضطر القاديون المثقفون العرب العمانيون في زنجبار إلى الاعتماد على الاحتجاج أكثر من غيره من وسائل المقاومة، لذلك تكررت لقاءات مناصري فلسطين لجمع المعونات ورفع الاحتجاجات، وهذا أقصى ما كان من الممكن صله بسبب وجود الاستعمار البريطاني في زنجبار، ولعدم امتلاكهم القوة الكافية والوعي الشعبي الداعم لهم (١٤). ويمكن رصد حركة الاحتجاجات هذه من خلال ما نشرته جريدة الفلق والذي سيرد لاحقاً.

- التعاون مع القيادات الفلسطينية:

في عام ١٩٣٥م قام الشيخ سليمان بن ناصر الملكي بزيارة لافتة للنظر إلى فلسطين وذلك قبيل وفاته. وتزامنت زيارته مع قيام ثورة عز الدين القسام هناك، ولما

نعرف بالضبط غرض هذه الزيارة، وترجح أنها كانت للاطلاع على ما كان يجري هناك^(١٠).

كما جرى تواصل بين قيادات الحركات العربية من جهة والشخصيات القومية العربية والإسلامية العمالية في زنجبار مثل "الهيئة التنفيذية لجمعية الشبان المسلمين" و"الجمعية العربية" وذلك لتنسيق المواقف وتقديم الدعم للفلسطينيين. فقد أرسل أسعد داغر؛ السكرتير العام للجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، رسالة إلى الشيخ سليمان بن ناصر النمكي^(١١) يدعو فيه إلى تأييد السياسة والمطالب التي يستشهد العرب من أجلها. وتضمنت الرسالة قرار اللجنة العربية العليا لفلسطين بمقاطعة اللجنة البريطانية الفنية التي دعا وزير المستعمرات البريطاني لتشكيلها. وأوضحت أسباب مقاطعة اللجنة العربية ولماذا تدعو العرب لدعم هذه المقاطعة ومما جاء من أسباب في تلك الرسالة أن أهل فلسطين يدعمهم العالمين العربي والإسلامي رفضوا مشروع التقسيم من أساسه لأن اللجنة التي شكلتها بريطانيا تقوم على أساس التقسيم وبالتالي فهي مرفوضة بطبيعة الحال^(١٢).

وأشارت الرسالة إلى أن موعد حضور لجنة التقسيم إلى فلسطين سيكون في ٢٧ أو ٢٨ أبريل ١٩٣٨، وأن مقرها سيكون في القدس، لذلك فإن الغرض من الرسالة رغبة اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة، أن يكون هناك موقف عربي موحد يدعم ويؤيد موقف الشعب الفلسطيني الرافض للتقسيم، وحرصاً على مصلحة البلاد الفلسطينية المقدسة. والمطلوب أيضاً أن يرسل زعماء العرب والمسلمين و هيئاتهم في العالم كله برقيات إلى لجنة تقسيم فلسطين يرفضون فيها التقسيم ويطالبون بإعطاء العرب الفلسطينيين حقوقهم كاملة، وأن ترفع بريطانيا الظلم والجور الواقع على الفلسطينيين^(١٣).

وذكر أسعد داغر أن اللجنة التنفيذية هي التي كلفته بمهمة الاتصال بالشيخ سليمان بن ناصر النمكي ليقيم الأخير بمهمة الحصول على تأييد الشعب العربي والمسلم في زنجبار للموقف العربي الرافض للتقسيم وحتى تدرك لجنة التقسيم البريطانية والحكومة البريطانية أن العرب والمسلمين جميعاً يؤازرون أهل فلسطين مؤازرة حقيقية ويؤيدونهم في جميع أعمالهم الوطنية^(١٤) واختتم الرسالة بدعوته الشيخ النمكي للإسراع في تنفيذ الطلب.

أصداء القضية الفلسطينية في جريدة الفلق:

اهتمت جريدة الفلق بمتابعة أخبار فلسطين بشكل مبكر^(١٥). وحظيت القضية الفلسطينية بحضور مكثف في مقالاتها وخاصة في الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٣٩ وذلك بسبب تصاعد المقاومة الفلسطينية في مواجهة زيادة الأعمال القمعية البريطانية وارتفاع أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وبسبب انتقال المقاومة الفلسطينية إلى مرحلة

الاحتضان الشعبي العربي ممثلة بمشاركة العديد من القادة والعسكريين العرب الذين وقفوا إلى جانبها ودربوا المقاتلين واشتركوا في القتال نفسه.

وقد أسهمت جريدة الفلق بدور فعال في جمع التبرعات للفلسطينيين، وحرصت على نقل مقالات الاحتجاج على الوجود الصهيوني والسياسة الاستعمارية في فلسطين بهدف إثارة مشاعر عرب زنجبار ومسلميها وإطلاعهم على مواقف غيرهم من العرب في المناطق الأخرى ليشدوا أزرهم في مواجهة ما يخطط لفلسطين ومثل ذلك ما نشرته جريدة الفلق من كتاب الاحتجاج الذي أرسله المرشد العام لجمعية الإخوان المسلمين بمصر إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين عام ١٩٣٨ والذي لفت فيه نظر المندوب إلى سياسة العنف والقمع والإرهاب التي مارسها وتمارسها سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين، وأشار الكتاب إلى أن ما تنشره الصحف من فظائع على الرغم من الرقابة المطلقة عليها كاف لإثارة غضب وقهر الشارع العربي والإسلامي فأخبار القتل والمصادرة والتشريد والاعتداء بكل أشكاله تدفع إلى استفحال الثورة في فلسطين وتدفع بأبنائها إلى التضحية بأرواحهم لإنقاذ "كيانهم المهدد بالزوال وأراضيهم المهددة بالتهويد والضياح، ومقدساتهم المهددة بالاجتياح، وذرائعهم المهددين بالموت جوعاً أو بالجلاء من البلاد" (*).

وعلى الرغم من تقطع أخبار فلسطين واتشغال العرب والمسلمين في زنجبار بمشاكلهم، إلا أن ارتفاع الصوت العربي في زنجبار استمر وخاصة في الفترة من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٣٩ وما بعده. لدعم الفلسطينيين والأراضي المقدسة فيها، وجاء كشكل من أشكال الرفض للنفوذ البريطاني في زنجبار نفسها الذي اضطهد الوطنيين العرب وشنت ضلوعهم في المعتقلات. لقد كان هناك تشابهاً كبيراً بين ما كان يحدث في فلسطين وما يحدث في زنجبار، ففي كلا الطرفين كان العنصر العربي يعاني اضطهاداً لصالح عرقيات أخرى غريبة كاليهود في فلسطين والهنود والشييراليون في زنجبار. إضافة إلى سياسة نقل الأراضي من العرب إلى اليهود في فلسطين، ومن العرب إلى الهنود في زنجبار حتى خسر العرب أراضيهم في البلدين. فمنذ عام ١٩٣٧ أدرك عرب زنجبار وطأة الدعم البريطاني للهنود وسيطرتهم على تجارة القرنفل، مصدر رزق كثير من العرب العمانيين، لذلك تصاعدت مطالبهم بمراجعة حقوقهم وأمنتهم مقاومة أهالي فلسطين بالقوة (**)، وتزامن هذا مع نمو الوعي الوطني وتحوله إلى حركة وطنية في زنجبار قادها العرب بشكل أساسي (**).

وتنوعت عناوين موضوعات جريدة الفلق المتعلقة بفلسطين، حتى بلغ عدد مقالاتها خلال عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ما يزيد على عشرين مقالة (**). وكان منها مقالات تفصيلية تحليلية عن القضية الفلسطينية ونشأتها، ومنها بيانات ونداءات

واحتجاجات لرفع الروح المعنوية وشحن الهم لتقديم المساعدة والتبرعات (**). ويمكن تصنيف هذه الموضوعات كالتالي:

أولاً: موضوعات إخبارية:

اهتمت فيها جريدة الفلق بنقل أخبار الحوادث التي تقع في فلسطين، وكانت مصادر أخبارها إما عن طريق أشخاص يرسلونها من فلسطين مباشرة أي مراسليها، أو من اللجان الفلسطينية في الخارج وأحياناً كثيرة من جرائد أخرى إذا تعذر حصولها عليها مباشرة، وقد أشارت إلى ذلك عند إيرادها كل خبر (**).

ومن تلك الحوادث، إصدار المحكمة العسكرية في فلسطين حكماً بالإعدام على فلاح عربي يدعى منجد حمدان (**). كما نقلت عن (رويتز) خبر مقتل أربعة من اليهود وفقد ثلاثة كانوا يركبون سيارة في صفد في فلسطين على يد الثوار الفلسطينيين، وأن الشرطة قامت بتفريق الثوار وقتلت ثلاثة أشخاص (**).

ونقلت الفلق عن أخبار رويتر حادثاً لافتاً للنظر وله دلالة مهمة في المعنى والتوقيت حيث جاء في الخبر أن طالبين ألمانيتين متخصصين بعلم الأديان وجدوا مقتولين بعبارات نارية " على مقربة من مدفن قتلى الحرب في القدس" (**)، ويظهر وراء هذا الخبر، التعصب الصهيوني إذا ما أخذنا بالاعتبار وضع اليهود في ألمانيتها في ذلك الوقت.

ولعل من الأخبار الهامة التي أوردتها جريدة الفلق، أخبار الثورة الفلسطينية في مختلف المناطق ومنها: معركة حدثت في ناحية جنين في فلسطين بين المجاهدين العرب وبين الجيوش البريطانية، وانتهت بمقتل جنديين بريطانيين وجرح آخرين، ومقتل ١٥ من العرب، أما جرحى العرب فغير معروف عددهم. وذكرت في الخبر أن خمس طائرات بريطانية اشتركت بالقتال (**). مما يشير إلى التفاوت الشديد بين قدرات المقاومة العربية والقدرات البريطانية. كما يؤكد سياسة البطش المفرط التي اتبعتها بريطانيا.

وعن أخبار القدس في ٢٢ ديسمبر ١٩٣٨، أشارت إلى نشوب معركة بين منطقة نابلس بين الثوار وجنود الاحتلال البريطاني وذلك بعد أن حاصرت القوات البريطانية قرية (بورين) بعد تلقيها أنباء عن وجود ثوار فيها. ويبدو أن القتال هناك كان شديداً حيث استخدمت فيه القنابل المضينة التي كانت الطائرات تقوم بإلقائها، وأسفرت المعارك عن مقتل ١٥ وجرح كثيرين من الطرفين (**).

ومن أنباء الثورة في جبال نابلس، في شهر يناير ١٩٣٩، نقلت الفلق أخباراً عن اشتداد المعارك هناك ونجاح الثوار في أسر ستة من الجنود البريطانيين. كذلك نقلت أخبار معركة وقعت في ٢٢ ديسمبر على طريق جنين نابلس بين الثوار ودورية سيارة مصفحة لقوات الاحتلال البريطاني بعد أن أقام الثوار كمينا على الطريق، وأنه بسبب

وصول نجدات للطرفين؛ اشتد القتال واستمر الثوار في استهداف إمدادات الاحتلال من القوات، ونتج عن المعركة مقتل جنديين بريطانيين وثلاثة من العرب، كما أسر الثوار ستة من جنود الاحتلال^(١١). واعتمدت جريدة الفلق في نقل هذه الأخبار على بعض مراسلها من الأراضي المحتلة وعلى البرقيات الأجنبية التي كانت تردّها. وذكرت أن فرحة كتاب الفلق بانتصارات الثوار كبيرة^(١٢). وحسب رواية جريدة الفلق فإن القوات البريطانية قامت بالاحتكام من مدينة نابلس وروعت الأهالي بجرائهم ضدهم. وردا على ما فعلته ذكر تلغراف قادم من القدس لجريدة الفلق في ٢٢ ديسمبر أن زعيم الثورة الفلسطينية أصدر بيانا جرى تعليقه على الجدران في مختلف المدن الفلسطينية يدعو إلى إضراب عام احتجاجا على ما قامت به قوات الاحتلال من الجرائم في نابلس والقدس^(١٣).

ثانيا- الموضوعات التحليلية ووصف معاناة الشعب الفلسطيني:

وهي موضوعات تناولت ما يحدث في فلسطين من جانب العرض والتحليل ولعل من أبرزها ما نشرته جريدة الفلق من أحداث ثورة عام ١٩٣٦ بعد محاولات السلطة البريطانية حجب أخبارها واعتماد الفلق على منشور وصلها من (مكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي) يقند ما عرف بأحداث **يوم الثلاثاء ٣٠ يونيو/ حزيران ١٩٣٦** في فلسطين؛ وهو اليوم الذي اقتحمت فيه **بريطانيا مدينة يافا الفلسطينية** بعد أن مهدت لهجومها بالحصار الذي فرضته على فلسطين بشكل عام، ويمنع الصحافة من الدخول أو الخروج إليها بهدف التعتيم على ما كان يجري. وبحسب المنشور فبأنه في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم أرسلت سلطة الانتداب عددا من المهندسين من ضباط الجيش البريطاني ترافقهم قوات عسكرية تحميهم، وكان الهدف محاصرة يافا ثم اقتحامها ونسف بيوتها، ومعاقبها باستخدام المهندسين المتخصصين بالتدمير بواسطة الديناميت لإجهاد على المدينة ودفع أهلها للفرار منها، ولم يترك الاتكليز في يافا **كورا بل أنقاضا^(١٤)** حيث انتشرت أصوات الانفجارات ونسف البيوت في المدينة، مما سهل السيطرة التامة عليها.

وقد علق المراسل الذي نقل أخبار مجزرة يافا على ما قامت به القوات البريطانية بقوله: " وأخذ ضباط الدولة المتمدنة يقومون بصلابة التخريب الفظيعة ليؤمن بغضائل الاستعمار من لم يكن مؤمنا بها إلى الآن"^(١٥).

وكان مما نقلته الفلق أيضا أخبار الزيادة اللافتة في أعداد القوة العسكرية البريطانية في بعض المراكز في فلسطين والتي بدت حين رست البارجة (رهنس) في حيفا يوم ١٢ يوليه ١٩٣٨، ونزل منها ٢٠ ضابطا و٢٥٤ جنديا من جنسيات متعددة للمساعدة في ضبط الأمن أو قمع الثورة الفلسطينية، وكانت حولة البارجة سبعة آلاف طن^(١٦). وقد أشرت هذه الأعداد بعض مراسلي الفلق ودفعت بأحدهم لسؤال المندوب

السامي عن سبب هذه الزيادة الكبيرة في قواتهم مع أن الشعب العربي الفلسطيني في فلسطين لم يتعد تعداده ستمائة ألف نسمة بين رجل و امرأة و طفل. وتساءلت الفلئ كيف سيتمكن الفلسطينيون من التزود بالسلاح لمواجهة هذه الأعداد من قوى الاحتلال^(٨). وتجدر الإشارة هنا إلى تنبه جريدة الفلئ إلى التصعيد العسكري البريطاني في فلسطين وتزايد أعداد العسكريين حيث ارتفع عددهم بعد ثورة عام ١٩٣٦ ومنذ حوالي عام ١٩٣٧ إلى ٢٠ ألف ويزيد في مقابل أعداد المقاومين الذين كانت تطلق سلطات الاحتلال البريطانية عليهم اسم (الإرهابيين) والذين قدرت عددهم بستة آلاف عام ١٩٣٨^(٩). وعلى الأرجح فإن بريطانيا تدرعت بتصاعد أعمال المقاومة ضدها لتبرير زيادة أعدادها في فلسطين لضبط الأوضاع المتفجرة بين الفلسطينيين واليهود بسبب الهجرة اليهودية المتزايدة من ناحية، وتحسبا للتطورات الدولية التي سبقت الحرب العالمية الثانية من ناحية أخرى، وكذلك بسبب ظهور تحول في مواقف اليهود المهاجرين المتشددون الذين كانوا يؤيدون بريطانيا في يادئ الأمر بسبب كرههم للنازية في ألمانيا، ثم اتقبلوا عليها لمحاولاتها تهدة العرب بضبط الهجرة اليهودية إلى فلسطين^(١٠).

وبعد انقضاء عامين على بدء ثورة عام ١٩٣٦ نشرت جريدة الفلئ تقريراً للأوضاع في فلسطين أكدت فيه أنه على الرغم من مضي عامين على قيام الثورة الفلسطينية، أي حتى عام ١٩٣٨، فإن الأمور في فلسطين كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، والتدخل العربي لإيقاف الثورة على أمل المساعدة البريطانية أثبت فشله، وزادت السياسة البريطانية القمعية تجاه عرب فلسطين فأثقلت مؤن القرى، وتُمر كثير من المنازل وتم إلقاء القبض على الزعامات والقيادات الفلسطينية فمنها من أودع السجن ومنها من نفى خارج فلسطين، ومن اتهم بالجهاد تم إعدامه. هذا عدا الغرامات التي فرضت على الشعب الفلسطيني لزيادة الضغط عليه وإجباره على قبول الأمر الواقع. وكان أيضا أن أغلقت المدارس الفلسطينية وتحولت إلى ثكنات للجنود البريطانيين وتصف جريدة الفلئ الحالة في فلسطين في تلك الفترة بأنه "لا يرى فيها إلا شهيدا أو قتيلًا، ولا تسمع إلا نوح أيم أو يتيم فالخراب والدمار في كل مكان"^(١١).

ويظهر المقال عمق الأسى الذي خلفته أحداث فلسطين. وأن الهدف من نشره هو وضع العرب العثمانيين في زنجبار في صورة ما كان يحدث لكسب تعاطفهم مع إخوانهم الفلسطينيين من ناحية ، ولتفت النظر إلى تسويق العمل الذي كان قائما بين البريطانيين والإسرائيليين لتحويل حياة العرب الفلسطينيين إلى جحيم يدفع بهم إلى مغادرة فلسطين وتركها للإسرائيليين بقيمون دولتهم عليها.

وبسبب تصاعد أعمال العنف التي تقوم بها قوات السلطة البريطانية ضد الفلسطينيين وانتشار أخبارها من جهة، ومخاوف بريطانيا من زعزعة ثقة العرب بها

في وقت بدت فيه نذر الحرب العالمية الثانية واضحة، سارعت بريطانيا لتقديم بيان عن طريق وزارة خارجيتها عام ١٩٣٩ نقلا عن وزارة الحربية، تكذب فيه الاتهامات الموجهة ضد جنودها، واعتبرت أن هذه شائعات مغرضة للنيل من بريطانيا في إشارة إلى الدعاية التي كانت تبثها دول المحور ضد السياسة البريطانية في فلسطين بشكل خاص^(٢٢).

ونظرا لأهمية الموضوع، ووفقا مع الفلسطينيين، سارعت جريدة الفلأق لنشر رد الزعماء الفلسطينيين على بيان وزارة الخارجية البريطانية الذي تضمن عدة نقاط هي:

١- أن البيان هو التفاف على الحقائق لإخفاء السياسة البريطانية القمعية القائمة وأشار إلى وجود شهود ومستندات تؤكد هذا.

٢- ذكر الرد الفلسطيني أن عدد الثوار الفلسطينيين يتجاوز العشرة آلاف ثار وليس كما ذكره البيان البريطاني ١٥٠٠ ثار.

٣- وبالنسبة لتكذيب إعدام السلطة البريطانية للمعتقلين العرب ، أكد الفلسطينيون خبر الإعدامات واستشهدوا على ذلك بقضية مقامة في يافا على أربعة من النبلاء الإنجليز.

٤- وأشار الرد الفلسطيني إلى الشهداء المدنيين من الفلسطينيين الذين تجاوز عددهم عدد الشهداء من الثوار.

٥- وعلق الرد الفلسطيني على أعمال تدمير الأحياء والمنازل الفلسطينية في يافا مستشهدا بما أورده تقرير لجنة بيل عن الأحداث في فلسطين واعتبار اللجنة " أن تدمير الأحياء في يافا انتقام لا مبرر له"^(٢٣). وذكر الرد الفلسطيني أن أعمال تدمير المنازل طالت جنين والمسيلة، وكثير من المدن والقرى الفلسطينية.

٦- ونفى الرد الفلسطيني المزاعم البريطانية عن وجود خلاف بين الثوار، واعتبر أن بريطانيا تستخدم رجالا ضعاف النفوس لنشر أخبار كاذبة لتزعزع ثقة الفلسطينيين بقياداتهم.

٧- ورد الفلسطينيون على تكذيب البيان البريطاني وادعائه بعدم المساس بالمساجد، واتهم البيان السلطة البريطانية بتدمير أو إصابة ثلاثين جامعا في فلسطين بأضرار منها جوامع جنين وشراب ويافا وغيرها.

٨- وبالنسبة للجامع الأقصى في القدس لم يسلّم هو الآخر من الاعتداء عليه، حيث أصيب برصاص أدى للتخريب فيه. والأكثر إثارة لمشاعر المسلمين إقدام سلطات الانتداب على إقامة مخافر عسكرية في نطاق الحرم بالقدس، حيث كان الجنود

البريطانيون يشربون الخمر علنا مما أساء لمشاعر المسلمين واعتبروه تعديا على حرمة المسجد^(٧١).

٩- وعن التضييق على المواطنين الفلسطينيين والضرائب والغرامات التي أُنكرت بريطانيا فرضها رد البيان بأن هذه الضرائب استغذت ثروات الفلسطينيين واعتبر أن السبب الرئيس في الثورة هي حالة الإحباط واليأس عند الفلسطينيين^(٧٢)، وليست من عمل المفتي أمين الحسيني، وأن المفتي واللجنة العربية العليا تمثل حالة اليأس عند الشعب العربي. وفي ذلك إشارة إلى الاتهامات التي وجهتها بريطانيا للمفتي الشيخ أمين الحسيني عن دوره في التحريض ضد بريطانيا.

١٠- واتهم الرد السلطة البريطانية بمنع حرية الرأي على الفلسطينيين وصحفهم في حين يترك لليهود ومناصريهم حرية الكتابة وحرية الصحافة ليقوموا بالترويج للسياسة البريطانية المعادية للعرب. وأخيرا اقترح الرد الفلسطيني مدعوما من العرب تشكيل لجنة محايدة لتقصي الحقائق في فلسطين^(٧٣).

ثالثا- استنفاض الشارع العربي.

سعت جريدة الفلق باستمرار للربط بين القضايا التحررية المختلفة التي يعاني منها الشعب العربي وبين ما يحدث في فلسطين، فعندما قام التحالف الثلاثي بين السعودية والعراق واليمن عام ١٩٣٨، عقد العمانيون في زنجبار عليه الأمل في توحيد الصف العربي بل دعوا لتوسيعه بانضمام سورية ومصر وذلك بهدف توحيد الجهود بحيث يكون تحالفا خماسيا بهدف تحرير فلسطين والإمارات العربية الواقعة على الخليج العربي وشمال إفريقيا، وحضرموت وزنجبار من سيطرة الغرب وإنهاء الولايات التي تتعرض لها هذه الأقطار بالإضافة للنهوض بالعرب وتوحيد طاقاتهم بعد أن ضاق العرب بما يحدث من تعديات على بلادهم^(٧٤).

وكانت الفلق تنشر لمحبة الدين الخطيب^(٧٥) مقالات داعية لتوحدة العربية للوقوف في وجه الاستعمار في الجزائر وفلسطين وفي عدن ومن مقالاته: "قد يكون العربي في الجزائر أوفى فلسطين أوفى عدن لا يستطيع أن يحقق أمانيه القومية بقوة من جنس القوة التي سلبته تلك الأمانى، ولكن هل يستطيع العربي في الجزائر أوفى فلسطين أوفى عدن أن يدعي بأن قوة في الدنيا قادرة على منعه من الإيمان بحقه واقتناعه بأن مساعدته لا تتم إلا إذا اجتمع شمل قومية الضاد"^(٧٦).

وعلى الرغم من وصف ما قامت به جريدة الفلق بأنه "أقرب إلى الاتفعال العاطفي نصرة وتمجيذا، أكثر من عنايتها بالمستوى التحليلي والخطاب التفكيكي"^(٨٠) إلا أننا نرى أن هذا الكلام ربما يطبق على بعض دعوات الاحتجاج والنداءات، لكن ما تعلق بشرح الواقع الفلسطيني ووضعه في إطاره التاريخي مثل اتفاقية سابكس بيكو

ووعد بلفور، والمقارنة بين وضع اليهود في العالم وكيفية التعامل معهم ووضعهم في فلسطين يشير إلى فكر تحليلي يسعى لنقل وجهة نظر عربية متضامنة مع معاناة الفلسطينيين وغيره على الأماكن المقدسة وخاصة هوية القدس.

رابعاً: كشف الدور البريطاني في دعم الألمان الصهيونية في فلسطين.

فقد نشرت جريدة الفلق مقالاً أكدت فيه أن بريطانيا تسعى لخلق كيان على الضفة الأخرى لقناة السويس يكن لها الولاء، وتساءل كاتب المقال: "هل من عاقل يظن أن الإنكليز يريدون فعل ذلك محبة باليهود أو عداوة للعرب بل هي المصلحة التي تهم الدول الاستعمارية"^(٨١). لقد أكدت أحداث ما يجري في فلسطين والقدس فتاعة العرب بالدور الاستعماري الذي كانت تمارسه بريطانيا في جميع مراكز نفوذها في المنطقة العربية.

وللدلالة على الدور المزدوج الذي مارسته بريطانيا مع العرب واليهود وفي وقت متقارب، استشهدت الفلق بوعود بريطانيا للعرب بتخليص أرضهم من الأتراك وذلك خلال مراسلاتها مع الشريف حسين بن علي التي انتهت بقيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦، وفي الوقت نفسه منحت اليهود وعد بلفور عام ١٩١٧ بحجة العطف على أمانيتهم في وطن قومي لهم في فلسطين. وقد ورد في مقال نقلته جريدة الفلق عن قس بريطاني قوله أن "بريطانيا خدعت العرب"^(٨٢).

وأكدت مقالات عديدة في جريدة الفلق أن بريطانيا تعرف المطالب العربية في فلسطين ورغبتهم في استقلالها، وأن هذا أيضاً ما يريده العالم الإسلامي رضيت اليهود أم لم ترض"^(٨٣).

وكما استغربت ما تفعله بريطانيا في فلسطين من تشجيع للهجرة الصهيونية ودعم وتعصب لليهود ضد الفلسطينيين وهو أقصى وأشد غرابة مما فعلته إيطاليا في طرابلس الغرب من حيث إحلال الإيطاليين محل العرب، ففي حين تتهم بريطانيا إيطاليا بالتعصب، تمارس هي دعماً مطلقاً لليهود ضد العرب، وفي الوقت الذي كانت تتباهى به بريطانيا بالعدالة والديمقراطية فإن ما كانت تفعله في فلسطين كان منافياً لذلك، وهذا ما دفع أحد الكتاب إلى التساؤل إن كان العدل هو" ما نشاهده من الظلم من القضاة بالأراضي المقدسة"^(٨٤). وذكر بريطانيا بصداقتها لبعض حكام العرب مثل ملك الحجاز والملك عبد العزيز، وملك مصر والعراق، وسنطان الملا وسنطان لحج. وطالب المقال بريطانيا بإيجاد حل للمعضلة الفلسطينية، وأن عليها تقدير وقوف العرب إلى جانبها خلال الحرب العالمية الأولى وعلى الأخص الفلسطينيين، مشيراً إلى الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ والدور الذي لعبته قبائل بلاد الشام إلى جانب بريطانيا"^(٨٥).

لقد أفقد ما كان يحدث في فلسطين ثقة المواطن العربي في كل ما تقوم به حكومة الاحتلال البريطاني فيها، وعزز فكرة توطينها مع الأطماع الإسرائيلية في فلسطين وقد نشرت صحيفة الفلق نماذج من هذا التواطؤ من ذلك ما أورده عن قيام القائد العام للجيش البريطاني في فلسطين بتحويل حكم للإعدام كان قد صدر من المحكمة العسكرية بحق اليهودي (التمان) لقيامه بإطلاق الرصاص على بعض العرب، إلى حكم بالمؤبد، وشكك صاحب الخبر بأن يقضي التمان حكم المؤبد وذكر: "رأينا في هذا القرار أو الحكم أن الخواجا (التمان) سوف يعود إلى بيته وإخوانه وأصدقائه ومسدسه أو بندقيته بالسلامة دون أن يقضى أياما كثيرة في السجن فضلا عن أيام حياته كلها"^(٨٦).

وتابعت جريدة الفلق نشر المقالات التي تكشف التواطؤ البريطاني وكان منها ما كتبه علي الجمالي موضحا التعديلات التي تقوم بها السلطة البريطانية في فلسطين على المقدسات الإسلامية وعلى القرآن الكريم، فقد استعرض أساليب الاستفزاز التي يتعرض لها المسلمون على يد القوى الاستعمارية في كل مكان " من مكافحة الإسلام في بلاده وبين أهله وأبنائه، إلى نشر للصرائية بل بث الرذائل الغربية بينهم، إلى قتل اللغة العربية لتصرفهم عن النظر إلى محاسن الإسلام وفضائله، إلى السعي في إغلاق المدارس، إلى التضييق على زعماء المسلمين وعلماء الإسلام وأئمة الأئمة وقضاة اللغة العربية، بل إلى اضطهادهم ونفيهم....."^(٨٧).

كما اهتمت الفلق بتعقيب المقالات والكتب المختلفة التي تناولت القضية الفلسطينية مثل الكتاب الذي نشره مورلي؛ رئيس اتحاد الفاشست البريطاني، عن المشكلة اليهودية وبريطانيا، والذي أكد فيه على أن حل مشكلة اليهود لا يكون على حساب العرب في فلسطين لأن العرب حصلوا على وعد من بريطانيا ووثقوا بها لتحرير بلادهم وإقامة دولتهم، وأن أقصى ما يمكن أن يطمع به اليهود في فلسطين هو احترام أماكنهم المقدسة، والسماح لهم بزيارتها. كما رأى صاحب الكتاب أن حل مشكلة الوطن القومي لليهود يمكن أن تكون في أي مكان في العالم غير فلسطين لأن فلسطين وطن للعرب^(٨٨).

وعبرت جريدة الفلق عن الشعور بالإحباط الكبير والغبن والقهر من السياسة البريطانية في فلسطين فنشرت الآتي: "إن قرأت عن حرية فاعلم أنها حرية القاتل القوي لا حريتك أنت أيها القارئ. فإن قرأت عن المساواة فاعلم أنها مساواة الفرنسي بالانجليزي مثلا ومساواتنا باليهام على الأكثر"^(٨٩).

وسعت مرارا لتذكير قراءها بالعهود البريطانية التي لم تنفذ للعرب مثل اتفاقياتها مع الشريف حسين بن علي ممثل العرب في التفاوض مع بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى، وكان مما ركزت على نشره تعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة داخليا وخارجيا وأن تكون حدودها شرق من الخليج العربي إلى البحر الأحمر

وحدود مصر والبحر المتوسط، وشمالاً حتى حدود ولاية حلب والموصل إلى نهر الفرات بما في ذلك نهر دجلة حتى مصب النهرين في الخليج العربي^(١١). ووصفت تلك العهود بالعرفوية^(١٢). وعن وعد بلفور لمن أسمتهم شياطين الصهاينة نشرت: " إن في المسألة مهزلة وجب أن تؤلف منها رواية أشخاصها بلفور ولويد جورج والحسين شريف مكة وأمثالهم"^(١٣).

وخلال سعي القالمين على جريدة الفلق للحصول على المعلومات، تم اللجوء إلى ما كانت تنشره الصحف والجرائد العربية الأخرى مثل (الشهاب) و(الفطرة الإسلامية) لإعادة نشره حتى تعم الفائدة أكثر. وقد نقلت عن جريدة الفطرة الإسلامية نص المعاهدات السرية التي عقدها فرنسا وبريطانيا وروسيا وخاصة اتفاقية سايكس بيكو. وركزت على ما ورد في هذه الاتفاقيات بشأن فلسطين واعتبارها منطقة خارجة عن النفوذ العثماني. وأشارت الفلق إلى عدم ذكر فكرة الوطن القومي لليهود في فلسطين وإنما أشير إلى وضعها تحت إدارة خاصة وقد توقعت جريدة الفلق أنه بسبب عداوة روسيا الشديدة لليهود تجنبت بريطانيا ذكر الوطن القومي واكتفت بوصف الإدارة في فلسطين بأنها إدارة خاصة. لكننا نستبعد مجاملة بريطانيا لروسيا بهذا الأمر، فقد خططت بريطانيا لهذا مع زعماء الحركة الصهيونية لإبعاد فرنسا عن فلسطين وحتى لا تتلاصق مناطق نفوذها في مصر مع مناطق النفوذ الفرنسية. وعند صدور وعد بلفور كانت معطيات جديدة قد دخلت بها فيها وقوف الصهاينة مع بريطانيا مادياً وسياسياً وعلمياً خلال الحرب العالمية الأولى وجر أمريكا للحرب بجانب بريطانيا تحت ضغط النفوذ اليهودي الأمريكي.

لكن الاستنتاج الذي توصلت إليه الفلق من أن الوطن القومي اليهودي ليس إلا لحماية الاستعمار البريطاني فيه كثير من الصحة حيث تم فصل الجسد العربي بكيان عازل هو إسرائيل. وقد أثبتت الأحداث ذلك لاحقاً^(١٤).

وكان ممن أثارته سياسة التصف البريطاني ضد علماء المسلمين وملاحقتهم واضطهادهم فئات إسلامية مختلفة منها جماعة الإخوان المسلمين بقيادة المرشد العام بمصر الذي أرسل كتاباً إلى المندوب السامي البريطاني لحكومة فلسطين في القدس تضمن احتجاجاً على السياسة التصفية والإرهابية التي تمارس ضد الفلسطينيين^(١٥).

الموقف العربي من القضية الفلسطينية، كما أورده جريدة الفلق:

في أعقاب الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦، وقيام اللجنة العربية الفلسطينية في القاهرة لمتابعة الأوضاع القائمة في فلسطين، كان السخط العربي والإسلامي عاماً للأخبار الواردة من فلسطين، وكانت اللجنة العربية الفلسطينية تقوم بالرد على التساؤلات الكثيرة التي ترد من العرب والمسلمين من أنحاء العالم عما حدث ويحدث في فلسطين^(١٦). وقد أسهمت جريدة الفلق في نقل البيانات الهامة التي كانت تصدر عنها

من ذلك بيان اللجنة العربية عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين عام ١٩٣٨ والذي تضمن احتجاجا على استمرار تدفق الهجرة اليهودية، وأوضحت اللجنة سخط الشعب العربي على ما ورد في كتاب وزير المستعمرات البريطاني المرسل إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين بتاريخ ١٠/٣/١٩٣٨ والمتضمن سياسة الهجرة للأشهر الستة القادمة.

كذلك أكد البيان أن بريطانيا لا تزال مستمرة في سياستها الضارة بالشعب الفلسطيني رغم الاحتجاجات لذلك لا يرعن إلى حسن نيتها^(١٦)، وهي بدلا من أن تسعى إلى تهدئة الأوضاع، وإنهاء الاضطرابات بالاستجابة لنداءات الفلسطينيين وبعض الأقطار العربية يوقف تدفق الهجرة اليهودية، فهي تيسر دخول الآلاف منهم، وقد تمدت في استهانتها بالمطالب العربية بأن تراجعت حتى عن بعض القيود التي وضعتها عام ١٩٣٥ بناء على توصية اللجنة الملكية البريطانية، فتركت الحد الأعلى الموصى به للمهاجرين وأطلقتها بشكل كامل في مناطق أخرى وخاصة "لطلاب والأقرباء"^(١٧) مما يسمح بتدفق أعداد كبيرة من اليهود تحت هذين المسميين.

وعبرت اللجنة العربية العليا للفلسطين في هذا البيان عن غضبها من الاعتذار الذي وجهه وزير المستعمرات للمفوض السامي في فلسطين عن القيود الموضوعة على الهجرة اليهودية التي وصفها بأنها "قيود تحكيمية" وأن بريطانيا ستسعى إلى تخفيفها بمجرد وضع المشروع النهائي لتقسيم فلسطين، وعندها سيعود تدفق اليهود بكثرة، ولكن على اليهود أن يصبروا^(١٨).

ومما تبه إليه البيان؛ خطورة الهجرة اليهودية على فلسطين واعتبرها "في مقدمة الأخطار الواقعية التي تهددها في كيانها وفي مصيرها وأنها: "في مقدمة الأسباب التي أدت إلى الاضطرابات في 'الأراضي المقدسة' وتسببت بالضيق والفقر والبطالة، وحتى الجوع. كما أن وقف الهجرة اليهودية كان دالعا من المطالب الرئيسية للشعب العربي"^(١٩).

وعن تشكيل لجنة تقسيم فلسطين ومغادرتها لندن متجهة إلى فلسطين في ٢١ أبريل عام ١٩٣٨ نقلت جريدة الفلق عن جريدة "ديلي تلغراف" أن هذه اللجنة ستعطي الصيف هناك في "البحث وفي الطواف بداخلية البلاد"^(٢٠). ولم ينق تشكيل هذه اللجنة ترحيبا من اللجنة العربية العليا لما يحمله من غين للشعب الفلسطيني. لذلك أصدرت بيانا إلى الشعب العربي نشرته جريدة الفلق حول لجنة تقسيم فلسطين التي عرفت باللجنة الفنية، وأكد البيان أن هذه اللجنة تقوم على فكرة تقسيم فلسطين التي أجمع العرب والمسلمون على رفضها من أساسها لأنها تهدد بفقدان الأمة العربية لأراضي فلسطين المقدسة. كما اعتبر البيان أن عملية تقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية في قلب البلاد العربية تحمل أخطارا ليس على فلسطين وحدها بل على الأمة العربية كلها

ومن جميع النواحي القومية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وأكد البيان على عروبة فلسطين ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وعلى فشل حل مشكلة اليهود بإحلالهم مكان الفلسطينيين. وأوضح بشكل خفي الدور البريطاني في خلق هذه المشكلة وأنه ليس من حقها منح اليهود فرصة إقامة وطن لهم في فلسطين التي لا تملكها وأنه "ليس في الوطن العربي أقسام للمنج والهبات" (١١٠).

ورداً على أن هذه اللجنة ليس هدفها إلا التقسيم، وهو مضر بالمصلحة العربية، أعلنت اللجنة العربية العليا مقاطعتها لهذه اللجنة ورفض الاتصال بها. كما دعت جميع العرب في فلسطين وخارجها إلى مقاطعة هذه اللجنة.

وفي هذا السياق أبدت جريدة الفلق موقفها من الهجرة اليهودية إلى فلسطين بإشارتها إلى أن الأحوال في فلسطين قبل الاحتلال البريطاني لها عام ١٩٢٠، وخلال الوجود العثماني كانت هادئة، عاش فيها أعداد من اليهود مع سكان فلسطين العربية بهدوء وسلام، ومع بروز فكرة إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين، وما تلاها من صدور وعد بلفور والممارسات التي لحقت به لتنفيذه، كل ذلك أساء للعلاقة بين الفلسطينيين واليهود المقيمين والقادمين الجدد (١١١).

وأشارت جريدة الفلق إلى أنها تتفهم رغبات اليهود في إنشاء وطن قومي لهم ولكن لم يكن مقبولا أن يأتي هذا الوطن على حساب السكان العرب في فلسطين. وذكرت أنه: "على سياسة أوروبا، وبالأخص بريطانيا أن يفتشوا عن الأقيم يقبدهم لإنشاء وطن لهم - اليهود - غير فلسطين العربية.... وأن فلسطين العربية للعرب وحدهم ولا يمكن إنشاء وطن قومي لليهود فيها، هذه كلمة واحدة يقولها العالم العربي والناطقون بالضاد لجمعون" (١١٢).

ولم تكن بيانات اللجنة العربية العليا وحدها التي تفقد وتلدد بما يحدث في فلسطين، فقد نشرت جريدة الفلق احتجاجا أرسلته جمعية الإخوان المسلمين بمصر للمندوب البريطاني في فلسطين ومما جاء فيه "إننا لا ننكر على فخامتكم أن العالمين الإسلامي والعربي قد ينسا كل اليأس من عدالة الحكومة البريطانية، وإن ما يتشوق به المسؤولون في لندن والقدس وجنيف عن الرغبة في إتصاف العرب وتأمينهم على حقوقهم وبلادهم ومقدساتهم إن هو إلا كلام أثبتت الوقائع عدم صحته، بل إن السلطة البريطانية تعمل على التقيض من ذلك" (١١٣) وأشار الاحتجاج إلى ضيق المسلمين في كل أنحاء العالم للظلم والفظائع التي يتعرض لها الفلسطينيون لأنهم يعتبرون فلسطين جزءا منهم. وأن المسلمين لن يستكتوا على ما يحدث في فلسطين "ويفسقون لهذا العناد والإصرار من جانب السلطة البريطانية على خدمة شديدة الضرر عظيمة الخطورة" (١١٤). وقد أكد الإخوان المسلمون أن الحل الوحيد لفلسطين ليس في سياسة القمع والتعذيب والاضطهاد وإنما "بالاعتراف بحقوقهم في بلادهم والتسليم بمطالبهم الأساسية التي

عاهدوا الله على تحقيقها" (١٠٠). وقد وقع الاحتجاج حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين.

الدور البريطاني والإسرائيلي في تهويد مدينة القدس ورصد جريدة الفلق له:

شكّلت أوقاف فلسطين الموجودة في المسجد الأقصى أهمية عالية- ليس فقط لقيمتها المادية ولكن أيضا لما كانت تمثله من تثبيت حقوق ملكيات الشعب الفلسطيني في فلسطين فهي " تمثل نوعا من الارتباط بالأرض واتدماج الفرد في مجتمعه الذي عاش فيه قرونا" (١٠١).

وقد تنوعت أوقاف القدس فمنها: ما أوقف على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وما أوقف على المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، وعلى قبور الأنبياء في القدس وعلى قبر الخليل عليه السلام وغيره (١٠٢). ونظرا للحقوق التاريخية التي تمثلها تلك الأوقاف سعت السلطة البريطانية مدعومة من الحركة الصهيونية إلى طمس الهوية العربية للقدس عن طريق وضع يدها على وثائق الممتلكات العربية المحفوظة في المسجد الأقصى تمهيدا لإخفائها، وانتقاما من الحاج أمين الحسيني أحد زعماء الثورة الذي اعتصم بالمسجد الأقصى بعد محاولة اغتياله (١٠٣)، كذلك انتقاما من أهالي القدس لتشكيلهم للجان القومية التي قادت الإضراب في فلسطين عام ١٩٣٦. وقد رصدت جريدة الفلق السطو البريطاني على تلك الوثائق في مقالاتها وبيّنت أساليب تهويد مدينة القدس معتمدة على بيان أصدره مسلمو فلسطين عن هذه الإجراءات التي اتخذت. وفيما يلي أهم النقاط التي تضمنها كما نشرتها جريدة الفلق (١٠٤):

- ١- قيام الحكومة البريطانية في فلسطين بتنفيذ مخططاتها لنقل دوائر المجلس الإسلامي الأعلى والأوقاف من مكانها الحالي في المسجد الأقصى إلى إحدى دوائر حكومة فلسطين في القدس.
- ٢- غاية الحكومة البريطانية من نقل هذه الجهات هو وضع يدها على سجلات هذه الدوائر بما فيها " من وثائق ومستندات وحجج مثبتة لوقف عقارات الأوقاف وأماكنها وأراضيها في فلسطين".
- ٣- وجود عدد من موظفي الحكومة البريطانية من اليهود ممن يسعون لإجلاء العرب والمسلمين الفلسطينيين عن هذه المناطق المقدسة وحرمانهم من حقوقهم فيها، وبالتالي فإن وجود هذه الوثائق والحجج عند حكومة الانتداب البريطانية سيسهل لهؤلاء الموظفين إتلاف حجج أوقاف المسلمين ووثائقهم ومستنداتهم أكان بذريعة التلف أو الحرق غير المتعمد

٤- دور السلطة البريطانية في فلسطين في تسهيل الهيمنة اليهودية على المسجد الأقصى لتحويله إلى كنيس يهودي على أنقاض هيكل سليمان المزعوم وجوده تحت المسجد الأقصى وتحقيق وعد بلفور الذي ألزمت بريطانيا نفسها به عام ١٩١٧.

٥- إذا تحقق للصهيانية إتلاف تلك الحجج فإن حقوق الأوقاف الإسلامية وممتلكاتها الموقوفة للإتفاق على الأماكن المقدسة سيقضى عليها وستحرم تلك الأماكن بما فيها المسجد الأقصى والمساجد الإسلامية الأخرى في فلسطين من الإتفاق عليها وسيؤدي ذلك إلى خرابها وبالتالي تعطيل إقامة الشعائر فيها وتشتيت رجال العلم والشؤون الدينية، الذين تعتقد بريطانيا والصهيانية معا أن دورهم محوري في بث الوعي الوطني والديني في الشعب الفلسطيني مما يعرقل المخططات الإسرائيلية التي تهدف إلى ترحيل الفلسطينيين والسيطرة على أراضيهم وممتلكاتهم، وهذا يطرح رمزية المكان المقدس بالنسبة لليهود، لأنهم ينتمون إلى أعراق مختلفة لا يجمعها سوى الرابط الديني، لذلك كان لابد من إيجاد مكان يحج إليه يهود العالم ويكون جاذبا لهم.

٦- قيام سلطة الانتداب البريطانية المشرفة على إدارة الأوقاف الإسلامية بعدة خطوات لتأمين السيطرة الصهيونية على المسجد الأقصى والأماكن المقدسة الإسلامية وعلى مراحل منها: إلغاء دائرة المعاهد الدينية في المجلس الإسلامي الأعلى وعزل مديرها^(١). وهدفها من ذلك إزالة عقبة من أمام عملية التبشير والتضليل التي لجأت إليها السلطة البريطانية والتي قامت بتمويلها وحمايتها لتسهيل البيلة الحاضنة للوطن الصهيوني الذي وعدت بتحقيقه عام ١٩١٧.

٧- ومع بدء أحداث الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ وحتى من قبل ذلك أي منذ ثورة الشيخ عز الدين القسام أدركت بريطانيا خطورة دور رجال الدين المسلمين وتأثيرهم على الشارع الفلسطيني لذلك عمدت إلى اعتقال جماعة من خيرة العلماء والوعاظ والمدرسين والخطباء وغيرهم من أصحاب الوظائف الدينية. وزجت بهم في السجون دون أن تتمكن من توجيه تهم معينة. وبدا واضحا أن الهدف هو الحيولة دون نشر الوعي ضد الاحتلال وضد الوجود الصهيوني، ومنع نشر ثقافة المقاومة بين الفلسطينيين.

٨- قيام السلطة البريطانية بعزل مراقب شؤون التبشير في المجلس الإسلامي الأعلى وألغت وظيفته من ميزانية عام ١٩٣٨. ثم عزلت واعظ سجن القدس.

٩- ومما يؤكد رغبة السلطة البريطانية في إضعاف النفوذ الإسلامي في القدس هو تسهيلها عقد المؤتمر التبشيري المسيحي على جبل الزيتون بالقدس منذ عام ١٩٢٧. حيث حضره مبشرون من كافة أنحاء العالم.

وخوفاً على عروبة القدس نشرت الفلق النداءات التي كان يوجهها الفلسطينيون لإخوانهم العرب والمسلمين ومنها أخبار المحاولات التي كانت تقوم بها سلطات الانتداب البريطاني لطمس هوية القدس العربية والهيمنة على مقدسات المسلمين وأوقافها. ودعوة العالم الإسلامي لتدارك الخطر الذي يهدد النفوذ الإسلامي في القدس. ومما نشرته في أحد مقالاتها هذا البيت من الشعر:

"تداركونا وفي أعصاننا رمق فما يعود أخضرار العود إن يبسا"^(١١٠).

مؤتمر لندن عام ١٩٣٩ والموقف العربي منه. ورصد جريدة الفلق له.

سبق انعقاد المؤتمر الذي دعت إليه بريطانيا في لندن عام ١٩٣٩، مؤتمر المائدة المستديرة، انعقاد مؤتمر عربي في القاهرة في فبراير عام ١٩٣٩^(١١١)، حيث عقدت ثلاثة اجتماعات في رئاسة مجلس الوزراء في القاهرة برئاسة محمد محمود باشا رئيس الحكومة المصرية بهدف بحث الموقف العربي الذي سينقله الوفد إلى مؤتمر لندن. وقد صدر عن هذا المؤتمر ثلاثة بلاغات أصدرتها رئاسة مجلس الوزراء المصرية تضمنت توحيد وجهات النظر العربية حول المطالب التي سينقلها الوفد العربي إلى لندن. وقد نشرت جريدة الفلق خبر انعقاده باسم: مؤتمر القاهرة التاريخي، وأوردت فيه أسماء ممثلي الدول العربية المشاركة^(١١٢). كما أوردت تشكيل الوفد المصري المشارك للوفد العربي كما أمر به الملك فاروق، وتشكيل الوفد الفلسطيني^(١١٣).

وبعد ذلك تابعت الفلق تطور أخبار الوفد العربي منذ وصوله إلى لندن، وأكدت أن ما يطالب به الوفد هو حق وأنه يمثل مطالب العالمين العربي والإسلامي^(١١٤). في محاولة منها لدعم موقف الوفد العربي.

وفي ٢٥ فبراير ١٩٣٩، نشرت مقالا بعنوان "العالم العربي ينتظر إنصاف عرب فلسطين" وطالبت الوفد العربي؛ الذي حسب قولها يمثل حكومات عربية مستقلة لها صداقة مع بريطانيا، طالبت به أن لا يرجع "بدون فائدة للفلسطينيين"^(١١٥).

الخلاصة:

لقد خُص البحث إلى مجموعة من النتائج منها:

- ١- أن القضية الفلسطينية كانت حاضرة في أذهان العرب العثمانيين في زنجبار، كما كانت حاضرة لدى جميع الشعوب العربية، ولم يؤثر البعد الجغرافي ولا الوجود الاستعماري البريطاني في زنجبار على التعبير عن مشاعر الغضب لما يتعرض إليه الفلسطينيون والأماكن المقدسة الفلسطينية.
- ٢- أن الصحافة العربية في زنجبار وجريدة الفلق بشكل خاص أسهمت بدور فاعل في نقل أحداث ما يجري في فلسطين، وفي إثارة مشاعر الجماهير العربية والإسلامية لدعم القضية الفلسطينية.
- ٣- أن اللجنة العربية العليا التي أشرفت على إدارة المقاومة العربية في فلسطين منذ عام ١٩٣٦، كانت على تواصل مع الزعماء والمثقفين العرب العثمانيين في زنجبار للاستفادة من دعمهم للقضية الفلسطينية.
- ٤- تنوعت أشكال الدعم العثماني العربي في زنجبار للقضية الفلسطينية، وخاصة بعد تشكيل اللجنة العربية في زنجبار "لجنة دعم مسلمي زنجبار" بين الاحتجاجات التي كانت تقدمها للمقيم البريطاني في زنجبار، وبين جمع التبرعات وإرسالها إلى منكوبي فلسطين، بالإضافة إلى دعم الموقف العربي والإسلامي الرافض لسياسة تقسيم فلسطين وللممارسات القمعية للسلطة البريطانية فيها. كذلك الكشف عن الممارسات البريطانية والصهيونية في تهويد القدس وفلسطين والاستيلاء على حجج الأوقاف الفلسطينية لطمس الوجود التاريخي والحقوق الفلسطينية في أرض فلسطين.
- ٥- وأوضح البحث الأسى الذي كان يستشعره عرب زنجبار العثمانيين جراء ما تلقاه إخوتهم في العقيدة والعروبة من معاناة.
- ٦- أن التذاعرات التي كانت ترد على صفحات جريدة الفلق حملت في طياتها تحذيرا من مفبة النوايا الصهيونية والبريطانية تجاه فلسطين ودعوة للعرب حتى لا يخذلوا الفلسطينيين.
- ٧- وأخيرا لابد من القول أن من يستعرض مواقف عرب عمان في زنجبار كما عرضتها الصحافة هناك لابد أن يصل إلى مدى عمق الأذى الذي ألحقته الممارسات البريطانية الداعمة للحركة الصهيونية في العلاقات العربية البريطانية. ويفتح هذا الباب وسعا أمام دراسة الأخطاء التي ترتكبها القوى الداعمة لإسرائيل على حساب الحق العربي.

الهوامش

- ١- تقع جزيرة زنجبار في مقابل الساحل الشرقي لإفريقيا، وتعتبر اليوم جزءاً من تنزانيا، ولقد استقر العرب فيها منذ عهود مبكرة، ثم امتد إليها نفوذ دولة البعاريه العمانيين مع غيرها من مناطق الساحل الشرقي لإفريقيا في بدايات النصف الثاني من القرن السابع عشر، وفي عام ١٨٣٢ غدت زنجبار عاصمة لدولة آل بومسيد العمانية زمن السيد مسعود بن سلطان، واستمر الحكم العربي فيها حتى عام ١٩٦٤م على الرغم من تقسيم الدول الاستعمارية لها وفصلها عن عمان عام ١٨٩١. لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى مقدمة كتاب
- Bin Shahbal, Suleiman Said, Zanaibar, The Rise and Fall of an Independent State 1895- 1964, Dubai, Emerge Pupliching, 2002
- ٢- جريدة النهضة صاحبها ورئيس تحريرها سيف بن حمود بن فيصل آل سعود، جريدة أسبوعية تصدر يوم الخميس من كل أسبوع. بدأ صدورها عام ١٩٥١م
- ٣- حوراني، فيصل، جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨- ١٩٤٨، شرق برس، نيوقسيا، قبرص، ١٩٩٠، ص ١٥٧- ١٦٣.
- ٤- الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص ٢٦٠. ونظر إبراهيم إبراش، البعد القومي للقضية الفلسطينية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص ٩٤، للإطلاع على أسباب ثورة ١٩٣٥
- ٥- الكيالي، مصدر سابق، ص ٣٩.
- ٦- حول الدعم العربي للفلسطينيين انظر، حوراني، مصدر سابق، ص ٢٤٥- ٢٤٦
- ٧- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، بريطانيا وفلسطين ١٩٤٥- ١٩٤٩، دراسة وثائقية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦، ص ٧.
- ٨- مصطفى، المصدر السابق، ص ٨.
- ٩- الكندي، عبد الله بن خميس، بدايات الصحافة العمانية في زنجبار، دراسة تاريخية- تحليلية. المجلة العربية للعلوم الانسانية، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت، العدد ٨٨، خريف ٢٠٠٤، ص ٧٥.
- ١٠- Middleton , John & Jane Campbell, Zanzibar, Its Society and its Politlcs, Green wood press, Publishers, Oxford University, 1965, p 43. كما يمكن العودة إلى Hollingsworth, L.W. Zanzibar Under the Foreign Office 1890- 1913, Greenwood Press, Publishers, Westport, Connecticut, pp 207- 216.
- ١١- الشبلي، أحمد، الأوضاع السياسية في زنجبار في عهد السلطان خليفة بن حارب البوسعيد ١٩١١- ١٩٦٠، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٩، ص ٩٤. كما يمكن العودة إلى Middleton مرجع سابق ص ٤، للإطلاع على تطور زنجبار السياسي.
- ١٢- زاهر بن حارث المعروفي، الصحافة العمانية في زنجبار / 1324 /
www. Alfalaq. Com
- ١٣- قاسم، جمال زكريا، دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها الجديد في عمان ١٧٤١- ١٩٧٠، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠. ص ٣٥٦- ٣٥٧. وانظر حول ذلك

Elspeth Huxley, East Africa, Rocks Press, William Collins :
of London, 1941, p 22

للإطلاع على التطور السياسي الذي طرأ على زنجبار في أعقاب الحرب العالمية الأولى والسيطرة البريطانية.

14- طنش، أحمد محمد، زنجبار والسياسة البريطانية ١٩١٤-١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القادسية، ٢٠٠٠، ص ٨٧.

15- طنش، مصدر سابق، ص ٨٨. وكان ظهور هذه الجمعيات (الشيرازية، والقمرية، والإفريقية وغيرها) بتشجيع من السلطات البريطانية بهدف تعزيز العنصرية في زنجبار وقتل الولاء الوطني وتفتيت الوحدة الاجتماعية. حيث أشاعت ومنذ نهاية القرن ١٩ أن الأفارقة الذين يشكلون ٨٠% من السكان يعملون كأرقاء. حول ذلك انظر

Holligsworth, op. cit., p. 216

16- Harlow, Vincent & Chilver, E.M, History of East Africa, vol, 11, press, 1965, pp 663-666. Oxford, Clarendon

على حساب العرب والسواحليين في زنجبار وخاصة في الفترة من ١٩٢٣ إلى ١٩٣٩ قاسم، مصدر سابق، ص ٣٥٨-٣٥٩. وانظر، ناجية محمد الصالح الخريجي، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسلطنة زنجبار الإسلامية في شرق أفريقيا ١٨٠٦-١٩٤٧، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣، ص ١٠٤-١٠٥ للإطلاع على الضغوط التي مارسها الهنود على العرب في

تجارة القرنفل.

18- الشبلي، مصدر سابق، ص ١٧٧. كما يمكن العودة إلى جريدة الفلق، ١/٩/١٩٣٧. وإلى جمال زكريا قاسم، مصدر سابق، ص ٣٩٥.

19- الشبلي، مصدر سابق، ص ١٣٤.

20- Shahbal, op.cit, p 97-98

كما يمكن العودة إلى الحارثي، عبد الله بن ناصر بن سليمان، دور آل بوسعيد في تنشيط الحركة الثقافية في عمان وشرق أفريقيا، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ٢٠٠٦، ص ٤٠.

21- الكندي، محسن، الصحافة العمانية المهاجرة وشخصياتها الشيخ هاشل بن راشد المسكري نموذجاً، رياض الرئيس، لبنان، ٢٠٠٩، ص ٦٤.

22- الحارثي، مصدر سابق، ص ٤١.

23- الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ٤٠-٤٥. كما يمكن العودة إلى الكندي عبد الله، بدايات الصحافة، مصدر سابق، ص ٧١.

24- أغلقت هذه الصحيفة لمدة عام في الفترة من ١٩٥٤/٦/١٩ إلى ١٩٥٥/٦/١٩، بتوجيه ثمانية اتهامات ضدها منها أربعة بتهمة تحريض الشعب. انظر عبد الله الكندي، مصدر سابق، ص ٩١..

25- الكندي، عبد الله، مصدر سابق، ص ٨٢. ويذكر عبد الله الكندي ثلاثة أهداف لاهتمامها بالموضوعات السياسية، حول ذلك انظر المصدر نفسه ص ٨٣.

26- الحارثي، مصدر سابق، ص ٤٠.

27- الفلق، الحلف الثلاثي، العدد ٤٧٣، ٥ فيروزي ١٩٣٨، ص ١

28- الشبلي، مصدر سابق، ص ١٤٢.

29- الفلق، فلسطين، بيان عن مصائب فلسطين ونكباتها ووجوب إغايتها العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨، ص ٢.

30- الفلق، من أجل فلسطين، العدد ٤٦٥، ٣٠ مي ١٩٣٨، ص ٤.

- 31- الأمير سيف بن حمود بن فيصل آل سعيد ١٩١٩-١٩٦٣م، واجه سلطات الاحتلال البريطاني في زنجبار وترأس الجمعية العربية فيها، وشارك في جريدة الفلق بعدة مقالات وتولى رئاستها من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٠. ثم أسس جريدة النهضة عام ١٩٥١م. حول تاريخه انظر ناصر بن عبد الله الرياسي، زنجبار شخصيات وأحداث ١٨٢٨-١٩٧٢م، دار الحكمة لندن، ٢٠٠٩، ص ص ٢٠٣-٢٠٦. وقد وصفه جمال زكريا بأنه كان من أبرز الزعماء المتشددين الذين تحدوا بريطانيا حتى أنه تعرض للسجون والاعتقال مرات عديدة. انظر جمال زكريا قسم، مصدر سابق، ص ٣٦١. وحول إصداره جريدة النهضة يمكن العودة إلى Bin shahbal, op.cit, p 97-98
- 32- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، الفلق، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.
- 33- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، الفلق، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.
- 34- الفلق، إعلان، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٤.
- 35- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.
- 36- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.
- 37- الشيخ علي محمد الجمالي هو موقوف مساعد للمستشار المالي لسلطان زنجبار.
- 38- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.
- 39- الشيخ عبد الله بن سليمان الحارثي ١٨٨٦-١٩٧١م. من أعضاء الحزب الوطني في زنجبار. وصف بأنه أحد أقطاب الأدب العصامي، وبأنه أحد قادة التنوير في زنجبار. وبأنه "محرك عقيدة الرأي العام العربي في زنجبار". حول ذلك انظر الرياسي، مصدر سابق، ص ص ١٦٢-١٦٥.
- 40- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.
- 41- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.
- 42- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، الفلق، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٤.
- 43- شكلت التبرعات التي جمعت من الدول العربية والإسلامية لدعم الثورة الفلسطينية ومساعدة المنكوبين هناك مخاوف لكل من البريطانيين واليهود. انظر الكيالي مصدر سابق، ص ص ٣٨٠-٣٨١ وغيرها من الصفحات.
- 44- طنش، مصدر سابق، ص ٨٩.
- 45- المغيري، سعيد بن علي بن جمعة، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٥ ص ٤٦٩.
- 46- يعتبر الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي ١٨٦٣-١٩٣٥م من رواد السياسة والديبلوماسية في زنجبار، ومن الذين نقلتهم بريطانيا إلى الهند خلال الحرب العالمية الأولى، حول ذلك انظر الرياسي، مصدر سابق، ص ص ٨٧-١٠٦.
- 47- الفلق، هل، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٣. كما يمكن العودة إلى عبد الوهاب الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٨٤، حول موقف اللجنة العربية العليا في فلسطين.
- 48- الفلق، هل، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٣.
- 49- الفلق، هل، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٣.
- 50- الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ١١٢.
- 51- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص ٣-٤.
- 52- حول دور جمعية منتجي القرنفل يمكن العودة إلى كتاب المغيري، مصدر سابق، ص ٤٣٦.
- 53- قسم، مصدر سابق، ص ٣٦٠-٣٦٢.

- 54- الكندي، محسن، المصدر السابق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
- 55- الفلق، فلسطين، بيان عن مصائب فلسطين وتكباتها ووجوب اغاثتها، العدد ٤٨١، ص ٢ أبريل ١٩٣٨، ص ٢. كما يمكن العودة إلى الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ٧٧ - ٨٠.
- 56- الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٧١، ٢٢ يناير ١٩٣٨، ص ٤. وهناك إشارات كثيرة في أعداد مختلفة إلى جهات حصول الفلق على معلوماتها. كما يمكن العودة إلى عبد الله الكندي، مصدر سابق، ص ٨٠.
- 57- الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٧١، ٢٢ يناير ١٩٣٨، ص ٤.
- 58- الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨، ص ٤.
- 59- الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨، ص ٤.
- 60- الفلق، عن وكالة رويتر، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨، ص ٤.
- 61- الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، ص ٣.
- 62- الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، ص ٣.
- 63- الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، ص ٣.
- 64- الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، الشهاب، ص ٣.
- 65- الفلق، النظرات، العدد ، السبت ٧ جولي ١٩٣٨، ص ١.
- 66- الفلق، النظرات، العدد ، السبت ٧ جولي ١٩٣٨، ص ١.
- 67- الفلق، فلسطين، العدد ٤٩٦، ١٦ جولي ١٩٣٨، ص ٣. ويمكن العودة للمقال نفسه للإطلاع على جنسيات الجنود.
- 68- الفلق، فلسطين، العدد ٤٩٦، ١٦ جولي ١٩٣٨، ص ٣.
- 69 - Hilton, Richard, *The Thirteen Power The Middle East and The World Situation*, Christopher Johnson, London, 1958, p. 96.
- 70 - Hilton, op.cit, pp 96-97.
- 71- الفلق، فلسطين، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨، ص ٢.
- 72- الفلق، رد على بيان وزارة الحرب البريطانية من الزعماء الفلسطينيين بالقاهرة يحدسون الدعاوي الإنكليزية، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص ٢.
- 73- الفلق، رد على بيان وزارة الحرب البريطانية، المصدر السابق، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص ٢.
- 74- الفلق، رد على بيان وزارة الحرب البريطانية، مصدر سابق، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص ٢.
- 75- حول تردّي أوضاع الفلسطينيين في تلك الفترة انظر، الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.
- 76- الفلق، رد على بيان وزارة الحرب البريطانية، مصدر سابق، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص ٢.
- 77- الفلق، الحلف الثلاثي، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨، ص ١.
- 78- محب الدين الخطيب ولد في دمشق عام ١٨٨٦، وأبهم في تأسيس عدد من الصحف، كما أنشأ جمعية الشبان المسلمين في القاهرة بعد أن لجأ إليها فارتأ من وجه الاحتلال الفرنسي، له الكثير من المؤلفات. لمزيد من الإطلاع يمكن العودة إلى كتاب الأعلام للزركلي.
- 79- الفلق، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨، ص ٢.
- 80- الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ١١٢.
- 81- الفلق، فلسطين، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٢.
- 82- الفلق، فس بريطاني يقول أن بريطانيا خدعت العرب، العدد ٤٨٩، ٢٨ مايو ١٩٣٨، ص ٣.
- 83- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص ١.
- 84- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص ١.

- 85- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص ١.
- 86- الفلق، نقلاً عن أخبار رويتر، العدد ٤٧٤، ١٢ فبراير، ١٩٣٨، ص ٤.
- 87- الفلق، أمس واليوم، العدد ٤٨٩، ٢٨ مي ١٩٣٨، ص ١.
- 88- الفلق، المشكلة اليهودية وبريطانيا، العدد ٤٩٢، ١٨ جون ١٩٣٧، ص ٣. ونلاحظ في هذا المقال إدراك دول المحور مدى تأثير العرب بأحداث القضية الفلسطينية ومحاولة استغلالها لزيادة كراهية العرب ببريطانيا المؤسسة للكيان الصهيوني في فلسطين.
- 89- الفلق، النظرات حول المهاتل السياسية المألوفة في العالم، العدد، السبت ١٦ جولي ١٩٣٨، ص ١.
- 90- الفلق، أخبار وحوادث عهود بريطانيا للعرب في الحرب الكبرى، العدد ٥٣٠، ١٨ مارس، ١٩٣٩، ص ٢.
- 91- الفلق، النظرات حول المهاتل السياسية المألوفة في العالم، العدد، السبت ١٦ جولي ١٩٣٨، ص ١.
- 92- الفلق، النظرات حول المهاتل السياسية المألوفة في العالم، العدد، السبت ١٦ جولي ١٩٣٨، ص ١.
- 93- الفلق، المعاهدات السرية، العدد ٥٣٢، ٢٥ مارس ١٩٣٩، ص ٢.
- 94- الفلق، احتجاج، العدد ٤٨٦، ٧ مي، ١٩٣٨، ص ٢.
- 95- الفلق، فلسطين، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨، ص ٢.
- 96- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣.
- 97- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣.
- 98- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣.
- 99- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣.
- 100- الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨٢، ١٦ أبريل ١٩٣٨، ص ٤.
- 101- الفلق، مشكلة فلسطين. العدد ٤٨٥، ٣٠ أبريل ١٩٣٨، ص ٣.
- 102- الفلق، العدد ٤٨٩، ٢٨ مايو ١٩٣٨، ص ٣.
- 103- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص ١.
- 104- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص ٣-٤.
- 105- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص ٣.
- 106- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص ٣.
- 107- عطا، زبيدة محمد، عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ٢٠٠٧، ص ١٣٨.
- 108- عطا، مصدر سابق، ص ٢٤.
- 109- الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٨٥.
- 110- الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٢ أبريل ١٩٣٨، ص ٢.
- 111- كانت هذه الدائرة مؤلفة من تشكيلات لها نظمها وقوانينها ويتبعها عدد من الوعاظ والمدرسين والخطباء ورجال الدين، وكانت تمارس دوراً هاماً في التوعية والإرشاد عن طريق إرسال عدد من رجال الدين للمدن والريف وحتى إلى البادية لإلقاء الخطب والدروس الدينية وإبعاد المواطنين هناك عن خطر التبشير والتضليل. حول ذلك انظر جريدة الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨، ص ٢.
- 112- الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨، ص ٢.
- 113- الفلق، مؤتمر القاهرة التاريخي، العدد ٥٢٦، السبت ١١ فبراير ١٩٣٩، ص ٢.

١١٤- الفلق، مؤتمر القاهرة لتاريخي، العدد ٥٢٦، السبت ١١ فبراير ١٩٣٩، ص ٢. وكان من المشاركين الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود ممثلاً عن السعودية ومعه في الوفد فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية السعودية، وإبراهيم المسلمان بن عقيل رئيس ديوان نائب الملك في الحجاز. وحضر ممثلاً لليمن الأمير سيف الإسلام الحسين، يرأسه القاضي المصري. وعن العراق حضر نوري السعيد رئيس الوزارة العراقية. وعن حكومة شرق الأردن حضر الشيخ فؤاد الخطيب. أما الوفد الفلسطيني فتألف من عدد من الشخصيات وغاب عن وفد أحمد حلمي بدعوى اعتلال في صحته. ومن بيروت جاء جمال الحسيني. وحضر ألفريد روك من أعضاء اللجنة العربية العليا لفلسطين. حول ذلك انظر المصدر نفسه.

١١٥- تألف الوفد المصري من: الأمير عبد الله المنعم نجل الخديوي السابق، وعلي ماهر رئيس الديوان العالي الملكي، وحسن نشأت سفير مصر في لندن. أما الوفد الفلسطيني فقد قررت اللجنة العربية العليا تمثيله برئاسة المفتي أمين الحسيني، وكانت هذه اللجنة تتألف من عشرة أعضاء. لكن المفتي أمين الحسيني امتنع عن رئاسة الوفد إلى لندن وأرسل جمال الحسيني نائباً عنه لرئاسة الوفد. كما امتنع عضوان آخرون من اللجنة العربية العليا عن المشاركة في الوفد وهما: أحمد حلمي، وعزة دروزة. فاستعاض الوفد عنهم من غير هيئة اللجنة بثلاثة هم: جورج أنطونيوس وأمين النعمي، وموسى العلمي. وكان سبعة فقط من أعضاء الوفد الفلسطيني سيتولون المفاوضات وهم: جمال الحسيني وعوني عبد الهادي وحسين الخالدي وألفريد روك وموسى العلمي، وأمين النعمي، وجورج أنطونيوس الذي استلم أعمال السكرتارية. أما الثلاثة الباقون فكانوا بصفة مستشارين وهم: عبد اللطيف صلاح، ويحوقب الفصين، وفؤاد سابا، انظر: مؤتمر القاهرة لتاريخي، الفلق، العدد ٥٢٦، السبت ١١ فبراير ١٩٣٩، ص ٢.

١١٦- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٢٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص ١.

١١٧- الفلق، العالم العربي ينتظر إتصاف عرب فلسطين، العدد ٥٢٨، ٢٥ فبراير ١٩٣٩، ص ٢.

المصادر والمراجع

- إيراش، إبراهيم. البعد القومي للفلسطينية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- جريدة الفلق، المشكلة اليهودية وبريطانيا، العدد ٤٩٢، ١٨ جون ١٩٣٧
- جريدة الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٧١، ٢٢ يناير ١٩٣٨
- جريدة الفلق، الحلف الثلاثي، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨
- جريدة الفلق، عن وكالة رويتر، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، بيان عن مصائب فلسطين وتكبتها ووجوب إعانتها، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨.
- جريدة الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، مشكلة فلسطين، العدد ٤٨٥، ٣٠ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، من أجل فلسطين، العدد ٤٨٥، ٣٠ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ ماي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ ماي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، العدد ٤٨٨، ٢١ ماي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، قس بريطاني يقول أن بريطانيا خدعت العرب، العدد ٤٨٩، ٢٨ مايو ١٩٣٨
- جريدة الفلق، النظرات، العدد ٤٩٥، السبت ٧ جولي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، العدد ٤٩٦، ١٦ جولي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩
- جريدة الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية من الزعماء الفلسطينيين بالقاهرة يحضنون الدعاوي الانكليزية، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩
- جريدة الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩
- الحارثي، عبد الله بن ناصر بن سليمان، دور آل بوسعيد في تنشيط الحركة الثقافية في عمان وشرق إفريقيا، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ٢٠٠٦.
- حوراني، فيصل، جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨ شرق برس، نفوسيا، قبرص، ١٩٩٠
- الخريجي، ناجية محمد الصالح، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسلطنة زنجبار الإسلامية في شرق إفريقيا ١٨٠٦-١٩٤٧، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣.
- الرياسي، ناصر بن عبد الله، زنجبار شخصيات وأحداث ١٨٢٨-١٩٧٢م، دار الحكمة لندن، ٢٠٠٩.
- الشبلي، أحمد، الأوضاع السياسية في زنجبار في عهد السلطان خليفة بن حارب البوسعدي ١٩١١-١٩٦٠، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٩.
- طنش، أحمد محمد، زنجبار والسياسة البريطانية ١٩١٤-١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القادسية، ٢٠٠٠
- عطا، زبيدة محمد، عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر
- قاسم، زكريا، دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها الجديد في عمان ١٧٤١-١٩٧٠، مركز زايد للآثار والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠.

- الكندي، عبد الله بن خميس، بدايات الصحافة العمانية في زنجبار، دراسة تاريخية تحليلية. المجلة العربية للعلوم الانسانية، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت، العدد ٨٨، خريف ٢٠٠٤.
- الكندي، عبد الله بن خميس، www.nizwa.com/articles بحث بعنوان مكونات التنوير وشخصياته في صحافة المهجر العماني صحيفة الفلق الزنجبارية نموذجاً، منشور في مجلة نزوى، العدد ١٨ تاريخ ٢٨/٦/٢٠٠٩.
- الكندي، محسن بن حمود، الصحافة العمانية المهاجرة وشخصيتها الشيخ هاشل بن راشد المسكري تمونجا، ط٢، رياض الريس للكتب والنشر. ٢٠٠٩.
- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، بريطانيا وفلسطين ١٩٤٥-١٩٤٩، دراسة وثائقية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦.
- المغربي، سعيد بن علي بن جمعة، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٥.
- Bin Shahbal, Suleiman Said, Zanaibar, The Rise and Fall of an Independent State 1895- 1964, Dubai, Emerge Puplicshing, 2002
- Elspeth Huxley, East Africa, Rocks Press, William Collins of London, 1941
- Harlow, Vincent & Chilver, E.M, History of East Africa, vol, 11, Oxford, Clarendon press, 1965
- Hilton, Richard, The Thirteen Power The Middle East and The World Situation, Christopher Johnson, London, 1958
- Hollingsworth, L.W. Zanzibar Under the Foreign Office 1890-1913. Greenwood Press, Publishers, Westport, Connecticut

القدس في حرب ١٩٤٨م

د. هيا عبد المحسن محمد البابطين (*)

مقدمة

تعد مدينة القدس من أهم المدن في العالم، ولها منزلة خاصة في التاريخ، فهي من أقدم مدن العالم، واستهدفت من قبل معظم القادة والحكام .

وهي تتألف في العصر الحديث من قسمين: القدس القديمة، والقدس الحديثة، أما القدس القديمة فهي التي تقع على جبل موريا، ويحيط بها سور قديم من جهاتها الأربع، وفيها كل المقدسات الإسلامية والمسيحية، كالمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وكنيسة القيامة، وفي الجهة الغربية من الحرم القدس يقع حائط البراق^(١)، وفي الجهة الشمالية مقبرة مامن الله ، ويروى أن فيها قبور سبعائة شهيد استشهدوا في الحروب الصليبية^(٢).

أما القدس الجديدة فتقع خارج السور الكبير القديم، وهي تتميز بالعران الحديث، والأحياء الجديدة، وفيها مسجد الصحابي الجليل سلمان الفارسي، ومسجد رابعة العدوية، واحتلتها اليهود سنة ١٩٤٨م، وأكملوا احتلالها سنة ١٩٦٧م .

وكان اليهود يحلمون بالسيطرة على فلسطين عامة، والقدس بصفة خاصة، منذ أن طردهم منها الملك البابلي، فبوخذ نصر، وشنتهم في أماكن عديدة فيما يعرف بالأسر البابلي . وتناقلت هذه الأطماع أجيال اليهود، حتى ظهرت بصورة واضحة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، على يد زعيمهم هرتزل، الذي طلب من السلطان

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة بكلية الآداب جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

(١) يسمى بالبراق لأن الرسول ﷺ عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ربط الدابة التي حملته في رحلته عنده، وكانت تسمى البراق، ويطلق عليه اليهود حائط المبكى لأنهم يكون عنده مجدهم الضائع، أو حائط هوكل سليمان الذي تم تدميره كما يلصقون، ويريدون إعادة بنائه.

(٢) حول اليهود هذه للمقبرة إلى حديقة بعد تسوية قبورها.

العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٨٩٦م ، الحصول على مستعمرة بالقرب من القدس، مقابل دعم مادي كبير للدولة العثمانية، ولكن السلطان رفض عرضه^(٣).

ولم يأس اليهود فقاموا بمحاولة أخرى سنة ١٩٠٢م، وأرسلوا وفداً لمقابلته السلطان عبد الحميد، ولكنه رفض مقابلتهم، فقدموا عرضاً لـرئيس الوزراء تحسين باشا يتضمن تعهد اليهود بمسداد ديون الدولة العثمانية، وتقديم قرض قيمته ٣٥ مليون ليرة ذهبية لإعاش خزانة الدولة، مقابل السماح لليهود بإنشاء مستعمرة ينزل فيها أبناء ديانتهم، في القدس الشريف أثناء حضورهم للزيارة ، وأن تكون الزيارة مباحة في أي يوم من أيام السنة .

ولكن السلطان رفض عرضهم مرة أخرى وقال لتحسين باشا : مرهم فليخرجوا ولا يحاولوا مقابلتي بعدها، أو : الدخول إلى هذا المكان أبداً . ويبدو أن السلطان أدرك أن هذا المطلب لا يتناسب مع الثمن الضخم الذي عرضه اليهود، وأيقن أن هؤلاء يريدون الحصول على موطن قدم في بداية الأمر ليتطلعوا بعد ذلك لاحتلال القدس وفلسطين كلها.

وقد كتب هرتزل عن هذا الموقف للسلطان في مذكراته يقول: (إن السلطان رد كالتالي: التصحوا الدكتور هرتزل بالألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، إنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل ملك شعبي، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايتهم، وإذا حرقت إمبراطوريتي يوماً، فإنهم يستطيعون أنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن)^(٤).

وبالفعل أدت المؤامرات الصهيونية والاستعمارية إلى خلع السلطان عبد الحميد، بل وإسقاط الخلافة الإسلامية برمتها .

وبعد فرض الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٢٠م ، تدفقت جموع كبيرة من اليهود إلى مدينة القدس، وساعدتهم قوات الاحتلال في ذلك عندما أمرت بمنع البناء في الحي الشرقي العربي، وشجعت البناء في الأحياء اليهودية، حتى بلغ عدد اليهود في القدس سنة ١٩٤٨م مائتي ألف نسمة تقريباً^(٥).

(٣) عبد الحميد الثاني (السلطان) مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة : محمد حرب

عبد الحميد، دار الأنصار، القاهرة - ١٩٧٨م، ص ٦٥، ٢

(٤) مذكرات هرتزل (شبكة المعلومات الدولية - الإنترنت).

(٥) إسماعيل أحمد باغي، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية - دار المريح ، القاهرة،

بدون تاريخ، ص ٣٦ - ٣٧.

وبدأ نفوذ اليهود يتزايد تحت ظل الاحتلال البريطاني ويدعم منه، وبدأوا الاحتكاك بالعرب لإثبات قوتهم في القدس، كما حدث سنة ١٩٢٩م، فيما يعرف بأحداث ثورة البراق، عندما قامت منظمة بىثار الصهيونية بمظاهرة في القدس، في ذكرى تدمير هيكل سليمان - كما يزعمون - يوم ١٤ أغسطس، ووصلوا إلى حائط البراق الذي يعرف عند اليهود بحائط المبكى، ووقعت اشتباكات بين العرب واليهود سقط فيها كثير من القتلى والجرحى بين الطرفين، وتدخل الجيش البريطاني مع اليهود ضد العرب، وألقوا القبض على كثير من العرب وقلة من اليهود، وقدموا للمحاكمة التي حكمت بإعدام ٢٥ عربي ويهودي واحد .

وأمام ازدياد الأطماع الصهيونية، في فلسطين بصفة عامة والقدس بصفة خاصة، قامت الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦م، فاضطرت بريطانيا لإرسال لجنة تحقيق تعرف بلجنة بيل الملكية سنة ١٩٣٧م، أصدرت بعد دراسة، الوضع ما يعرف بمشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، بينما تبقى منطقة القدس تحت سيطرة الانتداب البريطاني^(٦).

وقد رفض العرب قرار لجنة التقسيم بينما وافق عليه اليهود، لأنه يمنحهم موضع قدم طامحا حثما به منذ ظهور الحركة الصهيونية .

وبعد عدة سنوات قلمت الحرب العالمية الثانية، ودخلت الولايات المتحدة طرفا جديدا مساندا لليهود في أطماعه بالقدس وفلسطين، وازدادت الهجرة اليهودية بدعم من أمريكا وبضغط منها على سلطات الانتداب البريطاني^(٧).

ورأت بريطانيا بعد الحرب أن تعرض القضية على الأمم المتحدة، وخاصة بعد أن أطمأنت إلى لقوة موقف اليهود، بل إن اليهود أنفسهم لم يعد لديهم رغبة في بقاء الانتداب البريطاني بعد أن أدى دوره في مساعدتهم، وقاموا بالعديد من الأعمال

(٦) أكرم محمد عدوان، مشروع تقسيم فلسطين في تقرير لجنة بيل الملكية البريطانية سنة ١٩٣٧م، بحث منشور بمجلة الجامعة الإسلامية بغزة - المجلد العاشر - العدد الأول سنة ٢٠٠٢م، ص ٢١، د. حسين شريف، المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ، ط ١، ص ٤٤٠.

(٧) د. سعد بدير الحلو، العلاقات بين مصر والحجاز وتجد في القرن ١٩م، ط ٢ - القاهرة ١٩٩٥م، ص ص ١٠٤ - ١٠٥.

الإرهابية ضده، مثل تفجير منظمة الأرجون الصهيونية^(٨) فندق الملك داود بالقدس، وكان مركزاً للحكومة البريطانية في فلسطين سنة ١٩٤٦م. وإزاء هذه الأحداث قررت بريطانيا عرض مشكلة فلسطين على الأمم المتحدة التي أصدرت، بعد مشاورات في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧م، ما يعرف بالقرار ١٨١ أو مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين : دولة يهودية تشمل نحو ٥٥% من أرض فلسطين، ودولة عربية على نحو ٤٥%، بينما تخضع مدينة القدس لإدارة دولية نظراً لأهميتها^(٩)، وإنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وجلاء القوات البريطانية تدريجياً حتى أول أغسطس سنة ١٩٤٨م^(١٠).

وقد رفض العرب قرار التقسيم، بينما فرح به اليهود، وعبروا عن فرحتهم بالرقص في الشوارع مبتهجين، وبدأت بعده حرب العصابات بين الطرفين، وكان للقدس النصيب الأوفر منها لطمع اليهود في السيطرة عليها، وتمسك العرب بالاحتفاظ بها .

الصراع العربي - الصهيوني في القدس منذ قرار التقسيم حتى حرب ٤٨ :

قبل حرب ٤٨ بدأ الطرفان العربي واليهودي في حشد كافة قواهم للسيطرة على البلاد، أو على أكبر قدر ممكن منها، وكانت القوة العربية تتكون من جيش الجهاد المقدس الذي يضم المجاهدين من عرب فلسطين، وجيش الإنقاذ العربي المكون من متطوعين من البلاد العربية، وكان تسليح العرب - بدالياً - بينما تتكون القوة اليهودية من عدة منظمات مسلحة تسليحاً حديثاً، أهمها منظمة الهاجاناة، ومنظمة الأرجون، وقوة شتيرن، وأعدادهم تتزايد باستمرار ، باتضمام المتطوعين إليهم من البلاد الأوروبية وأمريكا^(١١).

وكان رفض العرب لقرار التقسيم يعني ضمناً أنهم سيستخدمون القوة لمنع تنفيذه، لذلك بدأت مواجهة مسلحة، بين الطرفين من أول ديسمبر ١٩٤٧م، حتى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨م، وهي ما يعرف فترة الحرب غير المعلنة^(١٢).

(٨) كان زعيم هذه المنظمة حينذاك والذي أعطى الأوامر لهم مناحم بيجين الذي أصبح رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد.

(٩) د. حسين شريف - المفهوم المياسي، ج ١، ص ٦٢٦.

(١٠) عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية، ج ٣ ص ٢٦٠.

(١١) د. إبراهيم شبيب - حرب فلسطين ١٩٤٨م - رؤية مصرية، ص ٧١.

(١٢) حسن البدر، الحرب في أرض السلام، ص ١٧٥.

وكان هدف العرب من هذه الحرب الحفاظ على عروبة فلسطين، بينما كان هدف اليهود هو سرعة السيطرة على الرقعة المخصصة لليهود في قرار التقسيم، وتفريغ فلسطين من أكبر عدد من العرب. وسوف تقتصر في حديثنا عن العمليات التي دارت في القدس بين الطرفين وأهمها : ما قام به اليهود في ٢٧ إبريل سنة ١٩٤٨م فيما يعرف بعملية جيبوس لعزل القدس، وذلك بتدمير حلقة لعرق العربية المحيطة بها، والسيطرة على طريق رام الله - القدس وطريق أريحا- القدس، وطريق بيت لحم - القدس، ولكن العرب تصدوا لليهود، وهزمهم.

وفي ١٤ مايو سنة ١٩٤٨م قامت قوة يهودية باحتلال منازل عربية في القدس الجديدة، وطرد سكانها منها فيما يعرف بعملية بتشفورك، وفي نفس اليوم كانت هناك قوة يهودية أخرى تقوم بمحاولة لاحتلال القدس القديمة، فيما يعرف بعملية شيففون ولكنها هزمت، وتصدت القوات العربية لها ^(١٣).

وكان سكان القدس قد اتخفت روحهم المعنوية بشكل كبير، خلال شهري إبريل ومايو سنة ١٩٤٨م، بعد وقوع مذبحة دير ياسين في التاسع من إبريل سنة ١٩٤٨م، وهي قرية من ضواحي القدس قامت منظمة الأرجون وشيبرن اليهوديتان بالهجوم عليها، ونجح جميع سكانها وعددهم ٢٥٤ رجلاً وامرأة وطفلاً، وألقوا بجثثهم في بئر القرية ^(١٤)، وذلك لبث الرعب والفرع في نفوس العرب، مما يجعل الكثير منهم يهجر قراه ومدنه، دونما تعب من اليهود ^(١٥).

ويعبر عن ذلك مناحم بيجن زعيم منظمة الأرجون التي نفذت المذبحة بقوله: " كنا في القدس وغيرها أول من انتقل من الدفاع إلى الهجوم، وبدأ العرب يغرون خانقين ... وراح العرب يغرون مذعورين : دير ياسين .. دير ياسين " ^(١٦).

وقد أصدر مجلس الأمن في ١٧ أبريل سنة ١٩٤٨م قراراً يدعو فيه الطرفين إلى وقف أعمال العنف والنشاط العسكري، كما توصلت الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية إلى اتفاق بوقف القتال داخل مدينة القدس، إلا أن شروطه لم تحدد، كما أن السلطة أو القوة التي تشرف على تنفيذه لم يتفق عليها، ولذلك لم يلتزم به اليهود كعادتهم وأصدرت الأمانة العامة للجامعة العربية بياناً، في ٢٨/٤/١٩٤٨م، أعلنت فيه حرص العرب على حماية الأماكن المقدسة داخل أسوار مدينة القدس القديمة،

(١٣) د. إبراهيم شكيب : حرب فلسطين، ص ١٠١.

(١٤) د. حسين شريف، المفهوم السياسي، ج ١ ص ٦٣٢.

(١٥) عبدالله النل، مذكراته، كارثة فلسطين، ص ٢٢.

(١٦) د. إبراهيم شكيب : وحرب فلسطين، ص ١٠٢.

وموافقتهم على وقف القتال داخل المدينة، وعدم الهجوم عليها من الخارج، أو منها إلى الخارج. كما أعلنت الأمانة العامة استعدادها للمساهمة في لقطات القوة التي ستكون من رجال الدين لتنفيذ شروط الهدنة^(١٧).

كما قررت الأمم المتحدة تشكيل لجنة لتنظيم مستقبل القدس، وطريقة الحكم فيها حسب دستور تضعه هذه اللجنة، وقد نشرت هذه اللجنة مسودة الدستور الذي وضعته لمنطقة القدس، وهو مؤلف من عشرة بنود، قدمته إلى اللجنة العاملة في مجلس الوصاية الدولي لدراسته، وأهم تلك البنود :

- ١- يضمن الدستور سلامة أراضي مدينة القدس وتبلغ مجلس الأمن عن أي اعتداء يقع فيها.
- ٢- تجريد منطقة القدس من السلاح وجعلها ذات صبغة عسكرية^(١٨).
- ٣- انتخاب حاكم للمنطقة على أن تكون مدة خدمته ثلاث سنوات، وأن لا يكون من العرب أو اليهود.
- ٤- يمنح الحاكم سلطات واسعة ولا يكون خاضعاً إلا لمجلس الوصاية الدولي.
- ٥- يمنح هذا الحاكم سلطات حماية الأماكن المقدسة في فلسطين.
- ٦- تأليف مجلس تشريعي ينتخبه سكان المدينة، والمنتخبون يكونون ممن تزيد أعمارهم عن الخامسة والعشرين.
- ٧- يتألف هذا المجلس من ٤٠ عضواً ينتخب السكان العرب منهم ١٨ عضواً، وينتخب اليهود منهم، ويضاف إلى هؤلاء أربعة آخرين من سكان المدينة.
- ٨- السماح لأرعايا الطرفين (العرب واليهود) بدخول المنطقة دون عائق، على أن يتولى الحاكم مراقبة الهجرة إلى المدينة^(١٩).

الصراع العربي اليهودي حول القدس في هرب ١٩٤٨ م :

ما أن أعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، في ١٥ مايو ١٩٤٨م، حتى أعلن اليهود في نفس اليوم قيام دولة إسرائيل، وكانت سلطات الاحتلال البريطاني قد مكنتهم من السيطرة على القواعد والموانئ والأماكن الهامة التي تساعد على قيام الدولة. وشهدت القدس صدور بيان، في منتصف ليلة ١٥ مايو سنة

(١٧) د. إبراهيم شقيب : وحرب فلسطين، ص ١٢٠.

(١٨) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، ص ٤٨.

(١٩) د. وائل عبيد، تاريخ العرب الحديث.

١٩٤٨م، أصدره هو للصهيوني ماير هاي عوزيل، رئيس حلخامية الأراضي المقدسة ومقره للقدس^(٢٠)، إلى اليهود في الشرق مبينا لهم فيه أنهم قد حققوا، بعون الله، مثلهم الأعلى الذي عمل من أجله جميع الصهيونيين وما زلوا منذ ثلاثة قرون، ألا وهو إنشاء دولة إسرائيل التي اعترفت بها الدول في أرض فلسطين المقدسة....^(٢١)

وكان القادة والرؤساء العرب قد قرروا، في اجتماعهم بعمان بالأردن في ٢٩ إبريل سنة ١٩٤٨م، دخول الجيوش العربية الحرب في فلسطين^(٢٢)، وأوصوا بتعيين الملك عبد الله بن الحسين، ملك الأردن، قائداً أعلى للجيوش العربية، وأن يعين اللواء الركن نور الدين محمود، من العراق، في منصب القائد العام للتنفيذ للجيوش العربية.

وفي ١٠ مايو سنة ١٩٤٨م تم عقد اجتماع في القصر الجمهوري بدمشق، بحضور شكوى القوتلي الرئيس السوري، وعدد من القادة العسكريين من الأردن وسوريا ولبنان والعراق، لوضع خطة نهائية للعمليات في فلسطين، وتعيين هدف لكل جيش دولة عربية يصل إليه في وقت محدد^(٢٣).

(٢٠) علي أبو الحسن، دور بريطانيا في تهويد فلسطين، دار الوحدة العربية ببيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠١م، ص ٣٨٨ - ٤٠٥.

(٢١) د. إبراهيم شكيب، حرب فلسطين، ص ١٢٠.

(٢٢) عبد الرحمن الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية، ج ٣ ص ٢٦٠، ٢٦١.

(٢٣) كانت خطة للجيوش العربية تتضمن ما يلي:

أ - الجيش اللبناني يحتشد في منطقة رأس النافورة على حدود لبنان فلسطين، ويتقدم منها على الساحل في اتجاه نهائية شمال عكا، ويدمر المستعمرات اليهودية الموجودة في هذه المنطقة.

ب - الجيش السوري يحتشد في منطقة فيق غرب الجولان، ويتقدم لاحتلال صفد والناصرية بعد تصفية ما يقابله من مستعمرات يهودية.

ج - الجيش العراقي يتقدم إلى جسر المجامع على نهر الأردن ويعد ذلك إلى بيسان والعقولة والناصرية.

د - الجيش الأردني يتوجه قسم منه نحو بيسان والعقولة لمساعدة الجيش العراقي وقسم آخر يتقدم من قلب فلسطين بعد السيطرة على القدس إلى حنين.

وكانت السيطرة على القدس جميعها من واجبات الجيش الأردني، ثم يتقدم بعد ذلك لمساندة الجيوش العربية الأخرى .

وتم وضع اللمسات الأخيرة لخطة الحرب يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٤٨م، في قصر رغدان بالأردن، بحضور الملك عبد الله بن الحسين، ومتدوبي الجيوش العربية المشاركة في الحرب (مصر والأردن ولبنان والعراق وسورية والسعودية)، كما حضره أعضاء اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، برئاسة عبد الرحمن عزام باشا، الأمين العام للجامعة .

وقد أبدت هيئة المستشارين العسكريين المصريين بعض الملاحظات على خطة الحرب التي سبق وضعها في الاجتماع السابق، وأهمها : استحالة تحقيق أهداف كل جيش من الجيوش العربية على حدة، لضعف القوات وعدم الاستعداد، واقتربت جميع الجيوش العربية على هدف رئيس واحد، وذلك بأن تتقدم الجيوش الأردنية والسورية والعراقية نحو القدس، والسيطرة عليها وما حولها من المناطق نظراً لأهميتها، بدلاً من التركيز على أهداف ثانوية لا أهمية لها على مركز اليهود العام في البلاد. ولكن القيادة السياسية العليا لم تأخذ باقتراح الوفد المصري، وأصررت على تنفيذ الخطة السابقة^(٢٤).

وفي المقابل كانت القوات اليهودية، الموجودة في القدس والمحيط بها، تشمل اللواء السادس من الهاجاناة بقيادة دافيد شاليتيل، وحول القدس يوجد اللواء الحادي عشر لبالمخ بقيادة يوسف تاهنكين، وكذلك لواء الهاجاناة السابع مدرع بقيادة شالوم شامير.

ولعل وجود ثلاثة ألوية يهودية في القدس وحولها؛ يؤكد مدى تركيز اليهود على احتلال القدس لأهميتها، ولأنها بمثابة قلب فلسطين، ويسهل لهم منها السيطرة على مناطق عديدة في فلسطين، بينما لم تعط القيادة العربية نفس الاهتمام بالقدس، بل ورفضت المقترح المصري الذي كان يواجه مخطط اليهود، ويتصدى لهم .

وكان جنوب باشا (إنجليزي الجنسية)، القائد العام للجيش الأردني، يرى عدم دخول الجيش العربي القدس لوجود هدنة بين العرب واليهود في القدس حينذاك (والملتزم بها العرب فقط)، واحتمال جعلها منطقة دولية، هذا في الوقت الذي يحشد

هـ - الجيش المصري يتقدم من حدود مصر في رفح إلى الشمال نحو تل أبيب،

وتصفية جميع المستعمرات اليهودية التي في طريقه، د. إبراهيم شكري، ص ١٥٩،

واتقر إسماعيل ياغي، الجذور التاريخية، ص ٨٩.

(٢٤) د. إبراهيم شكري، ص ١٦٤.

اليهود قواتهم فيها - كما ذكرنا -.

وقد أسفر إعلان اليهود عن قيام دولة إسرائيل، يوم ١٥ مايو، ثم إعلان الحرب بين إسرائيل والدول العربية المجاورة، عن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، وما يهمنها هو منطقة القدس التي كانت ضمن هدف الجيش الأردني^(٢٥).

وقد عبرت ثلاثة ألوية تابعة للجيش الأردني نهر الأردن باتجاه القدس، للدفاع عنها وطرد القوات اليهودية التي تسعى لاحتلالها، ويقدر عددها بحوالي خمسة آلاف مقاتل، حسبما ورد في أغلب التقارير .

في اليوم التالي للحرب، وهو يوم ١٦ مايو، وصلت وحدات من الجيش الأردني إلى ضواحي القدس الشمالية، وبدأت خوض المعارك ضد اليهود .

وقد تمكن اليهود، تحت شعار الهدنة المعقودة مع العرب في القدس، من احتلال مناطق عربية عديدة في القدس في : يومي ١٥، ١٦ مايو، وأهمها : معسكر النبي - معسكر العلمين - دير أنباطور - باب النبي داوود - المسكوبية - المستشفى الإيطالي - نوتردام - المصراة - باب العمود - سعد وسعيد - الشيخ جراح، ولم يبق للعرب من أحياء خارج سور القدس إلا باب الساهرة ووادي الجوز .

وكان العرب كلما اجتجوا، للجنة الهدنة والصليب الأحمر، على خرق اليهود الهدنة أجاب اليهود بأن الجماعات اليهودية المنشقة هي المسئولة عن ذلك ولا حول لهم في منعها^(٢٦).

وساعت حالة العرب في القدس القديمة، لأن اليهود لم يكتفوا بما احتلوه من مواقع استراتيجية، بل أخذوا يهاجمون الأبواب الرئيسية للقدس القديمة، محاولين اقتحام المدينة القديمة، التي احتشد فيها أكثر من ٦٠ ألف عربي، نزح أكثرهم من الأحياء العربية في القدس الجديدة، وكان العرب في القدس يتوقعون دخول اليهود في أي وقت للفتك بهم، وتدمير المقدسات الإسلامية والمسيحية، إلا أن بطولة جنود الإنقاذ والجهاد المقدس وشرطة القدس بقيادة أحمد حلمي باشا، وخالد الحسيني، وفاضل عبيدالله، تصدت لليهود بالرغم من نقص الذخيرة وتأخر وصول الجيش العربي

(٢٥) وثائق المقاومة الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٦٨م، ص ٣٠٥ - ٢١٧.

(٢٦) مذكرات مفتي فلسطين، جريدة أخبار اليوم المصرية، الأعداد ١٠، ١٢، بتاريخ ١٩٥٧/١٠/٥.

الأردني إلى القدس^(٢٧).

وكان جلوب باشا، القائد العام للجيش العربي الأردني، لا يرغب في إرسال أي مساعدات حربية للقدس لتأمره مع اليهود، إلا أن الاستغاثات المتتالية، من زعماء القدس وسكانها، للملك عبدالله جعلته يأمر بانتقال الكتيبة السادسة من أريحا إلى القدس للدفاع عنها، دون أن يتشاور مع جلوب وقادته، ومعظمهم إنجليز - كما ذكرنا^(٢٨).

وبعد أن أخذت الكتيبة السادسة، بقيادة عبد الله التل، أماكنها في القدس، قام اليهود بمحاولات مستميتة لفتح أبواب المدينة القديمة، وخاصة باب النبي داوود، وذلك من أجل إنقاذ يهود القدس القديمة الذين يحاصره المجاهدون، وشهدت أبواب المدينة معارك طاحنة، وكانت المسافة أحياناً بين اليهود والعرب لا تتعدى خمسين متراً، وتم توحيد كافة القوات العربية بالقدس، واتصاتها تحت لواء الجيش العربي الأردني الذي تمثلته الكتيبة السادسة .

وقامت القوات العربية بقصف الحي اليهودي بالقدس القديمة بالمدافع^(٢٩)، وأظهر المجاهدون بطولات رائعة، وتم وضع قوة عربية في دير الأرمن بالقرب من باب النبي داوود، لفصل حي الأرمن عن الحي اليهودي، وحماية الأرمن من هجمات اليهود الذين كانوا يعتبرونهم مواليين للعرب، وعدوا إلى ضرب الحي الأرمني بمختلف أنواع الأسلحة، ولذلك تكبد الأرمن خسائر فادحة .

معركة باب النبي داوود واستسلام اليهود في القدس القديمة:

استمر هجوم اليهود على الأبواب الرئيسية للقدس القديمة، واستماتوا في القتال للوصول إلى اليهود المحاصرين في القدس القديمة، وكان أكبر هجوم قاموا به في مساء ١٩٤٨/٥/٢٤م، حينما قامت فرقة من البالماخ بالهجوم على الجنود العرب

(٢٧) عبدالله التل، ص ١٠٠.

(٢٨) قبل سفر المندوب السامي البريطاني من القدس إلى حيفا في ١٩٤٨/٥/١٤م اتصل بالفريق جلوب في عمان هاتفياً وودعه بمناسبة تركه فلسطين نهائياً، وقال له الجملة التالية: "Keep your master on the Hills". ومعناها احتفظ بسيدك على الجبال، ويقصد بذلك أن يبقى جيش الملك عبدالله على التلال المحيطة بالقدس ولا يهاجمها، مما يدل على إكلام المؤامرة بين القادة والساسة الإنجليز ضد العرب، عبدالله التل، ص ١٠٢.

(٢٩) محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش، ص ١٥٩.

المرابطين في منطقة باب النبي داوود، وبدأت جموعهم تقترب من باب النبي داوود، حاملين معهم لغماً كبيراً لنسف السور، وانتظر العرب حتى اقترب اليهود منهم، وفي لحظة واحدة انتهالت القنابل اليدوية على اليهود، وانفجر اللغم الذي يحملونه بينهم، ومرق أجسادهم، وولى الباقون الألبار بعد أن حصدت الرشاشات منهم ٦٠ قتيلاً^(٣٠).

وشجع هذا النصر القوات العربية والمجاهدين في القدس على الانتقال لما هو أهم، وهو حصار الحي اليهودي في القدس القديمة، وكان به حوالي ١٨٠٠ يهودي بينهم كثير من قوات الهاجاناه والأرجون واشتيرن، وقيل انتهاء الانتداب البريطاني، كان الجيش البريطاني يحميهم من جميع الجهات، ويمونهم بالمواد اللازمة، والأسلحة والذخائر، مما مكّنهم من الاستمرار في المقاومة أثناء حصار العرب لهم بعد انتهاء الانتداب، ولغوا مداخل الحي، وحفروا الخنادق والممرات ليسهل للمحاربين التنقل من بيت لآخر دون التعرض للرصاص أو القنابل، وجمعوا من المؤن الشيء الكثير، واقتصدوا في استهلاكهم، استعداداً للحصار بعد جلاء حمايتهم (الإجليز)، وكانت أوامر الوكالة اليهودية لهم أن يدافعوا عن الحي حتى النهاية .

وكانت خطة القوات العربية : تدمير المنازل اليهودية التي اتخذت أبراجاً واستحكامات، تمهيداً لتقدم المشاة، وذلك لتقليل الضحايا من القوات المهاجمة، نظراً لطبيعة الحي الذي يتكون من ممرات ضيقة.

وبدأت فرقة التدمير عملها بنسف منظم للمنازل، فذهب الرعب في قلوب اليهود، وأخذوا يضيقون خطوط دفاعهم شيئاً فشيئاً، وهم بذلك يضيقون الخناق على المدنيين الذين تضطروهم هجمات العرب للنزوح عن منازلهم، وينزلون على غيرهم، وبالتالي يسببون للمحاربين متاعب جمة^(٣١).

ثم قامت القوات العربية بقصف الحي اليهودي بمدافع الهاون في فترات متقطعة من الليل والنهار، لإجبارهم على التسليم، وشبت النيران في أغلب المنازل اليهودية المواجهة للقوات العربية في رأس العامود، وتحطمت الاستحكامات البارزة^(٣٢).

وطلب قائد الكتيبة السادسة العربية، من قيادة فرقة المدفعية الأردنية، قصف بعض المواقع اليهودية الهامة في القدس الجديدة، لتخفيف هجماتهم على أبواب القدس القديمة، ومنعهم من تقديم أي مساعدات للحي اليهودي المحاصر في القدس

(٣٠) عبد الله التل، ص ١٠٩.

(٣١) صائح مسعود/ جهاد شعب فلسطين، ص ٤١٠ - ٤١١.

(٣٢) محمد حسنين هيكل، العروش والجوش، ص ١٧٦.

القديمة ، ولكن قادة الفرقة، وهم إنجليز، ماطلوا في الرد عليه، فقام بعض الضباط العرب الصغار في المدفعية بمغاالبة الضباط الإنجليز وقصفوا بعض المواقع الهامة، وتهدمت منازل كثيرة، فتعالت صيحات اليهود للاستغاثة بحلفائهم الإنجليز، وتدخل حليفهم الأكبر جنوب، وأمر بنقل الضباط محمد المعاينة إلى عمان وهو أكبر ضابط عربي في المدفعية، بحجة أنه يختلف مع الضباط الإنجليز، ولم يسأله أحد في الحكومة الأردنية عن أسباب خلافه مع الضباط الإنجليز^(٣٣).

ونجحت القوات العربية في القدس، بمساعدة بعض أهالي المدينة، في إدخال ثلاث مدرعات إلى القدس القديمة رغم ضيق شوارعها، في ليلة ١٩٤٨/٥/٢٦م، للمساعدة في حصار الحي اليهودي، وبدأت مهمتها في رمي مواقع اليهود بالقنابل والرشاشات، فلما رأى اليهود ذلك لم يبق لهم أمل في النجاة^(٣٤).

وكعادة اليهود لا يتركون أي وسيلة أو ورقة تفيدهم إلا واستخدموها، وكانت آخر أوراقهم لإتقان الحي اليهودي هي تدخل الصليب الأحمر الدولي، فاستغلوا مندوب منطقة القدس، ويسمى كروفوازيه، الذي استجاب لهم، واجتمع بقائد القوات العربية في القدس، وطلب منه أن يسمح بنقل اللحاء والأطفال والشيوخ والجرحى إلى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، وترك المحاربين في الحي، ولكن القائد العربي، وهو عبد الله التل، أجاب عليه بأن هذا الطلب صعب التنفيذ من وجهة عسكرية، فلجأ مندوب الصليب الأحمر إلى التهديد، وقال للقائد العربي: " إذا لم تلب طلب الصليب الأحمر هذا فستكون في عداد مجرمي الحرب في المستقبل "، ولكن القائد لم يكثر بتهديده،

وضيق العرب الخناق على اليهود في يوم الجمعة ١٩٤٨/٥/٢٧^(٣٥)، فأتكملت خطوطهم الدفاعية حتى وصلت إلى الكنيس الكبير المسمى قدس الأقداس، وتجمع المحاربون اليهود بداخله، فوجه لهم القائد العربي إنذاراً، عن طريق مندوب الصليب الأحمر، إلى المحاربين بإخلاء الكنيس، وأعطاهم مهلة لذلك، حتى الرابعة عصراً، وكان الإنذار في العاشرة صباحاً، ولكن اليهود رفضوا الإنذار، فقامت القوات العربية بعد انتهاء المهلة بالهجوم على الكنيس، وقتل من فيه، وهدم أجزاء كثيرة منه نتيجة لتعنت اليهود، وعدم استسلامهم.

وفي ليلة ١٩٤٨/٥/٢٨ استمرت المدرعات ومدافع الهاون في قصفها المتقطع،

(٣٣) عبد الله التل، ص ١١٦.

(٣٤) علي أبو الحسن : دور بريطانيا في تهويد فلسطين، ص ٤٥٥.

(٣٥) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص ١٨٧.

وضيق الجنود العرب الخناق على المدافعين من اليهود، وفي صباح يوم الجمعة اضطر اليهود إلى إرسال رجل دين للتفاوض على الاستسلام، ووافق القائد العربي على استسلامهم، فأرسلوا وفدا عسكريا برئاسة قائد الهاجاناة في الحي اليهودي، للتفاوض على شروط التسليم، وحضر المفاوضات المستور اسكراتي مندوب الأمم المتحدة في القدس، وطلب اليهود نقل جميع سكان الحي إلى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، ولكن القائد العربي أصر على الشروط التالية وهي : تسليم السلاح والذخائر، وأخذ المحاربين والقادرين على حمل السلاح أسرى حرب، واحتلال الحي، وتسليم النساء والأطفال والمرضى والجرحى إلى اليهود، بواسطة الصليب الأحمر الدولي^(٣٦).

وبعد جدال استمر ثلاث ساعات اضطر اليهود للموافقة على الشروط، وكتبت وثيقة التسليم باللغتين العربية والإنجليزية، ووقعها عن الجانب العربي عبد الله التل قائد القوات العربية بالقدس، وعن الجانب اليهودي موشه روزنك قائد الهاجاناه^(٣٧).

وأمر القائد العربي بعد توقيع وثيقة التسليم بوقف الرمي، وطلب من اليهود التجمع في وسط الحي اليهودي، ونشر جنوده على أطراف المنطقة للحفاظ على اليهود من هجوم العامة للانتقام منهم لما فعله إخوانهم في دير ياسين وغيرها، ولذلك كان اليهود في شدة الخوف والرعب، متوقعين أن تفتح عليهم الرشاشات فتبدهم كما يفعلون في القرى العربية، ولكن القوات العربية عاملتهم بهدوء ولين، وقدموا لهم الماء والطعام، وقاموا بنقل المحاربين وعددهم ٣٤٠ إلى عمان، وتسليم النساء والشيوخ والمرضى إلى الصليب الأحمر، وحافظوا عليهم للمرور عبر باب النبي داود إلى الأحياء اليهودية بالقدس الجديدة، ولم يتعرض أحد من العرب لأي يهودي، بل إن بعض الجنود حملوا العجايز منهم على ظهورهم حتى الباب الرئيسي، وذلك بشهادة مندوب الصليب الأحمر والأمم المتحدة^(٣٨).

وقد أسفرت هذه المعركة عن قتل ما يزيد على ٣٠٠ يهودي من المحاربين، معظمهم من عصابة الأرجون، بالإضافة إلى ٣٤٠ أسيراً، وأدت إلى بقاء القدس القديمة في يد العرب حتى حرب يونيو ١٩٦٧م، بينما كانت خسائر العرب في هذه المعركة ١٤ شهيداً من جنود الجيش وعشرة من المتطوعين، والجرحى ٢٥ جندياً .

وحاولت القوات العربية في للقدس احتلال جبل سكوبس؛ الذي شرف على

(٣٦) صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين، ص ٤١١ - ٤١٢.

(٣٧) د. حسين شريف : المفهوم السياسي، ج ١ ص ٦٦١، ج ٢ ص ٣٥.

(٣٨) عبد الله التل : ص ١٣٦.

القدس من الجانب الشمالي الشرقي، والذي أقام فيه اليهود مستشفى هداما وملحقاتها، والجامعة العربية، وجعلوها أماكن حصينة، ولكن جنوب قلاد الجيش الأردني منعهم من التعرض لهما بحجة أن هاتين المؤسستين شيدتا بأموال الأمريكان لا بأموال اليهود^(٣٩)، وكذلك ادعت قيادة الجيش في عمان أن هداما مؤسسة صحية عالمية لا يجوز التعرض لها، وكذلك الأمر مع الجامعة العربية التي اعتبرتها عمان مؤسسة ثقافية^(٤٠).

وحاولت بعض القوات العربية والمتطوعين قصف جبل مكوبس بقتلابل الهاون، لاقتناعهم بأن ما به أماكن حربية حصينة، وليست مجرد مستشفى أو جامعة، ولكن قنصل أمريكا تدخل لوقفه، وكذلك جنوب ألتع الملك عبد الله أن يأمرهم بوقف القصف، واستجاب الملك، وأمر بعدم التعرض لجبل مكوبس^(٤١).

معركة رامات راحيل :

عند دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في ١٥/٥/١٩٤٨م، وصلت كتيبة مصرية من المجاهدين المتطوعين، بقيادة البطل أحمد عبد العزيز، بمساعدة مجموعة من الضباط التابعين للجيش المصري إلى جنوب القدس، وانضمت إليه بعض قوات الجيش العربي الموجودة في جنوب القدس، وأصبح القائد أحمد عبد العزيز مسؤولاً عن جميع القوات العربية في المنطقة..

وكان أول هدف لهذه القوات هو السيطرة على مستعمرة رامات راحيل، لأنها تشكل نتوءاً قوياً في خطوط الدفاع العربية بجنوب القدس، وكانت مبنية من الحجر الصلد، فهي حصن منع لليهود .

وتقرر القيام بالهجوم يوم الاثنين ٢٤/٥/١٩٤٨م، واشتركت فيه وحدات من الجيش العربي الأردني مع القوات المصرية، وتعاونت الكتيبة السادسة بالقدس مع الهجوم، حيث قامت بقصف الأحياء اليهودية في القدس الجديدة لشغلهم، وتحويل أنظارهم عن الهجوم على مستعمرة رامات راحيل^(٤٢).

وبدأت المدافع المصرية بقصف المستعمرة، ونجحت في تخریب أغلب البيوت المحصنة والاستحكامات، ثم زحفت قوات المشاة المصرية والأردنية، وكانت خططهم

(٣٩) موسوعة ويكيبيديا الحرة.

(٤٠) عبد الله التل : ص ١٦٠.

(٤١) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص ٢٠٣.

(٤٢) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص ٢١٢.

تدمير المستعمرة تدميراً تاماً لصعوبة احتلالها، وفي منتصف النهار كان المهاجمون قد دمروا معظم منازل المستعمرة، وتجمع اليهود في أحد المنازل الحصينة للدفاع عن أنفسهم، وهنا حدث أمر لم يكن في حساب القائد أحمد عبد العزيز، فقد تدفق المئات من العرب المدنيين في هذه المنطقة إلى المستعمرة لجمع الغنائم، وقلدهم بعد الجنود العرب، وتحول الهجوم عن الهدف الذي رسمه القائد، وحاول منع المحاربين عما يقومون به، والتركيز على الهدف الرئيسي، ولكن فشل في ذلك، بعد أن أصبح المحاربين محملين بالغنائم. وفي الليل أمر القادة الإنجليز في الجيش الأردني بسحب القوات الأردنية المشاركة مع القوات المصرية، في الوقت الذي أرسل فيه اليهود نجدات إلى المستعمرة .

وفي الصباح وجد القائد أحمد عبد العزيز أن الوضع قد تغير، لأن اليهود عادوا واستحكموا في المستعمرة، ولابد لإخراجهم من هجوم منظم جديد، ولم يعد هذا بالإمكان، واقتصرت العمليات على بعض المناوشات بين العرب واليهود^(٤٣).

معركة اللطرون :

وهي معركة دارت بين القوات الأردنية المكونة من ١٢٠٠ جندي، برئاسة القائد حابس المجالي، والقوات الصهيونية برئاسة أرئيل شارون (الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد) وتبلغ ٥٠٠ مقاتل، وتقع هذه المنطقة شمال غرب القدس عند نقطة اتقاء طريق الرملة بالقدس، وكذلك تتحكم في طريق القدس باقي العام .

وقد حاول اليهود السيطرة عليها في يوم الثالث عشر من مايو قبل انسحاب القوات الإنجليزية من قاعدتهم بها، ومقرها مخفر اللطرون، ويبدو أن الإنجليز أوعزوا إليهم بذلك ليحولوا محلهم، ويمكنهم منها قبل جلاتهم، فأرسل اليهود حشوداً كثيرة إلى سهل عمواس بالقرب من المكان، ليمسيطروا عليه، ويتحكموا بذلك في موقع استراتيجي حاسم يتحكم في مدخل القدس^(٤٤) .

وعندما علم فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ العربي بهذه الحشود، أمر قواته بالتوجه إلى هذه المنطقة مع قوات من جيش الجهاد المقدس، للتصدي لها، وبالفعل أخذت القوات العربية أماكنها على مقربة من الحشود الصهيونية، وعندما أحس الإنجليز بوجود العرب طلبوا من الطرفين عدم الاشتباك طوال مدة جلاتهم عن المخفر

(٤٣) حسن البدري : الحرب في أرض السلام، دار الوطن العربي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص

ولكن اليهود، وربما أيضاً بتواطؤ من الإنجليز، تقدموا للسيطرة على المخفر يوم ١٣ مايو قبل أن يتم جلاء الإنجليز، فانصبت قتائل المدافع العربية عليهم، وكانت المسافة بين الطرفين تتراوح ما بين ٢٠٠ إلى ٥٠٠ متر، لذلك كانت الإصابات مباشرة، وصعق اليهود لسرعة الرد العربي، ولم يتمكنوا من الرد عليه لكثافته، فتركوا مواقعهم وأمنوا في الهرب تتبعهم سرية مصفحات عربية، وتنهال عليهم المدافع العربية، حتى ابتعدوا عن سهل عواس، وامتأل السهل بقتلى اليهود، وكثير من الأسلحة والذخائر^(٤٥).

وبعد جلاء الإنجليز، ودخول الجيوش العربية إلى فلسطين، صدرت الأوامر إلى قوات الإنقاذ بتسليم أماكنها حول القدس للجيش الأردني، فانتهز اليهود هذه الفرصة وقاموا بشن العديد من الهجمات للسيطرة على منطقة اللطرون التي تتحكم في مدخل القدس، ونجح هجومهم في السيطرة عليها يوم ١٦، ١٧ مايو، مستغلين فرصة عدم تمركز الجيش العربي الأردني في مواقعه بعد، إلا أن الجيش الأردني قد استردها منهم بعد يومين فقط من السيطرة عليها^(٤٦).

وبعد أيام قليلة شن اللواء السابع الإسرائيلي، والكتيبة الثانية من نواء ألكنسدروني، هجوماً كبيراً فيما يعرف بعملية بن تون، للسيطرة على اللطرون، ولكن الجيش الأردني تصدى لهم، وكبد القوات الإسرائيلية خسائر فادحة في الأفراد، وتجدد القتال بين الطرفين يومي ٢٥، ٢٦ مايو، ولم يحقق اليهود أي نجاح بعد وصول إمدادات للجيش الأردني نجحت في هزيمة اليهود، وتراجعهم^(٤٧).

وفي يوم ٣٠ مايو تسلمت وحدات إسرائيلية إلى مخفر شرطة اللطرون، وحاولوا زرع ألغام لتدميره، فتصدى لهم الجيش الأردني، وأجبرهم على التراجع والانسحاب، بعد تدمير بعض المباني بالقرية.

وأدت هزيمة اليهود، وإخفاقهم في السيطرة على اللطرون، إلى البحث عن مدخل آخر للقدس يتجاوز اللطرون، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك فعاودوا الهجوم على اللطرون في نيل ٨، ٩ يونيو، فيما يعرف بعملية بورام، وكانت تقضي بالهجوم على القرية من جهة الجنوب الشرقي، بوحدات عسكرية من لوائي هرئيل وبيفتاح، ولكن

(٤٥) الفريق عفيف البزري : التحرير في قصص المستعمرين، دمشق ١٩٨٨م، بدون طبعة، ص ٥٦.

(٤٦) عبدالرحمن الرفاعي : في أعقاب الثورة المصرية، الجزء الثالث، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٩م، ص ٩٨ - ١٠٠.

(٤٧) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص ١٩٤.

القوات الأردنية صدت هجومهم، وردتهم على أعقابهم .

وقد جرح في أثناء هذه المعارك أرييل شارون قائد الجيش الإسرائيلي المهاجم للقرية، وتم أسره ونقله إلى الخطوط الخلفية في معسكر اعتقال الأسرى اليهود، وتم مبادلتهم بأسير عربي عندما جرت عملية تبادل الأسرى بعد الهدنة الثانية .

وبلغت خسائر الجيش الإسرائيلي في معارك النطرون حوالي ألفي قتيل، حسبما روي على لسان النائب الإسرائيلي في الكنيست عوزي لاندو، وإن كان قد تراجع عن تصريحه فيما بعد، عندما تعرض لانتقادات شديدة من الساسة اليهود، وذكر أن خسائر اليهود كانت لا تتعدى ألف قتيل^(٤٨).

معركة باب الواد :

كانت بعض قوات جيش الإنقاذ العربي - والمكون من المتطوعين العرب - بقيادة فوزي القاوقجي تحاصر أحياء اليهود في القدس منذ مطلع مايو سنة ١٩٤٨م، وتصب نيران مدافعها على الأماكن التي يتحصن بها اليهود في القدس الجديدة، وذلك رغبة منهم في تخفيف ضغط الحصار عليهم، فحاولوا الهجوم على القدس القديمة والسيطرة عليها - كما ذكرنا سابقاً - ولكن محاولتهم فشلت، وتصدت لها القوات العربية^(٤٩).

وفي الخامس من مايو فتحت القوات العربية نيران مدافعها على مواقع اليهود في بعض مناطق القدس، مثل القطمون، والشيخ جراح، وشيرم والنبي داوود، وقامت قوة عربية باسترداد حي الشيخ جراح من الصهاينة - وكانوا قد سيطروا عليه منذ فترة - واستمرت نيران المدفعية العربية تنصب على اليهود طوال ليلة السادس من مايو، مما دعا البريطانيين للتدخل لحماية اليهود، وأرسل المندوب السامي البريطاني في فلسطين إلى فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ العربي يهدده ويتودعه إن توقف القتال، ولكن القاوقجي رفض تهديده، فجرت اتصالات سرية بين البريطانيين والجامعة العربية، انتهت إلى عقد اجتماع عاجل في أريحا حضره من الجانب العربي : عبدالرحمن عزام الأمين العام للجامعة، والقائد العام لقوات الإنقاذ اللواء إسماعيل صفوة، والفتنل المصري في القدس فراج طايح، وعن الإنجليز المندوب السامي البريطاني، وتم في هذا الاجتماع عقد هدنة تشمل القدس .

وكما هي العادة، لم يحترم اليهود الهدنة، واحتلوا بعض الأحياء العربية في

(٤٨) موسوعة ويكيبيديا الحرة، معركة النطرون.

(٤٩) الفريق عفيف البزري : التحرير في قفص المستعمرين، دمشق ١٩٨٨م، ص ٥٦.

القدس الجديدة، وكذلك حي الشيخ جراح^(٥٠).

كما حاول اليهود استغلال الهدنة لفتح الطريق من القدس إلى تل أبيب، وكسر حصار القوات العربية لهذا الطريق، وحشدوا قواتهم للهجوم على باب الواد، شمال غرب القدس، الذي يتحكم في هذا الطريق، وجاءت لهم إمدادات من داخل القدس ومن الرحبوت، تقدر بلواعتين، وبدأوا هجومهم الكبير ليلة الثامن من مايو، تتقدمهم جرافات لإزالة الكتل الصخرية التي وضعها العرب على الطريق لصدده أمامهم، وتمكن اليهود في أول الأمر من احتلال سيرس، وبيت محسير، وهما موقعان هامان يتحكمان في باب الواد، واستمرت المعارك الطاحنة حول الطريق، وبلغت ذروتها في العاشر من مايو، عندما حاولت قوات الصهاينة، الآتية من داخل القدس، الاتصال بالقوات الخارجية القادمة من رحبوت، ولكن القوات العربية منعت هذا الاتصال^(٥١).

ووصلت إمدادات للقوات العربية تمثلت في كتيبة مشاة، وقوات من جيش الإنقاذ المؤلف من عرب فلسطين أخذت مواقعها أمام بيت محسير المحتل من قبل الصهاينة، وبدأ العرب هجومهم المضاد في الرابعة فجر الحادي عشر من مايو، وقد وصف القائد فوزي القاوقجي هذه المعركة بقوله: "بدأ هجومنا المضاد في الساعة المحددة له، واندفع مجاهدونا من الإنقاذ والجهاد المقدس، بحماسة تكاد تكون جنونية، والمدفعية تقصف أهدافها، مساندة الهجوم، قصفاً غنياً بـ ١٢ فائقة، بشكل لا أنذكر أنني شهدت مثله في الحروب النظامية التي اشتركت فيها من قبل، وانطلق أمر المصفحات بمصفحاته، غير مكترث بوعورة الأرض وكثافة النيران، بهاجم المصفحات اليهودية، ويدمر كل ما يصادفه من الأعداء في طريقه، ويرغمهم على

(٥٠) لم يتعلم العرب أبداً من دروس التاريخ، فكلما كان الموقف العسكري في صالحهم، يمارع اليهود وحلفائهم الإنجليز إلى طلب الهدنة، وخداع السياسيين العرب بقبولها، ويجبر السياسيون القادة العسكريين على قبولها، بل والالتزام بها، في الوقت الذي لا يلتزم بها اليهود، ويحولون الموقف العسكري لصالحهم، وحدث هذا في الثورة الفلسطينية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩م التي كادت أن تنجح لولا تدخل الزعماء العرب لوقفها، وكذلك حرب ١٩٤٨م التي حقق فيها العرب انتصارات كبيرة في مرحلتها الأولى لولا قبول زعماء العرب للهدنة التي استغلها اليهود في جلب المقاتلين والسلاح، والتزم بها العرب، فتحول الموقف لصالح اليهود بعد تجدد القتال. عفيف البرزي، التحرير في فقص المستعمرين، ص ٥٩.

(٥١) محمد حسين هيكل : العروش والجيوش، ص ص ١٦٣ - ١٦٥.

الهزيمة، ولم تستطع القوات اليهودية الصمود في وجه جنودنا، واستمرت المعركة بهذه الحدة حتى الساعة العاشرة، وتصعد الخط اليهودي كله، وتخلت القوات اليهودية عن مراكزها، وبدأت في صفوفهم هزيمة جماعية تامة. وفي الساعة ١١ والنظيفة ٤٥ وصلتنى من المقدم مهدي - أحد القادة الميدانيين هذه البرقية^(٥٢):

استولت قواتنا على جميع المرتفعات والأحراس، قُتلى اليهود لا تحصى، غنائمنا إلى الآن ٣٥٠ بندقية، طاردنا اليهود المنهزمين، تخطينا طريق باب الواد - القدس في اتجاه بيت محيسير لاحتلالها. وبعد ساعة وردت برقية أخرى تقول:

فصلنا ما بقارب الألف يهودي في بيت محيسير عن بقية القوات اليهودية، لم ينجح منهم إلا من فر باتجاه مستعمرة عرطوف، ظهرت قواتنا بيت محيسير وخربة حرميس، تستمر المعركة في الأحراش بعنف شديد، عدد القتلى اليهود وكميات الغنائم بازدياد في كل لحظة، نتقدم باستمرار إلى جانبها الجهاد المقدس، تطارد اليهود نحو القدس. وفي الساعة الخامسة عشرة لم يبق لليهود في المنطقة أي أثر، وكانت الغنائم من الأسلحة كثيرة بينها أربع مصفحات صالحة للاستعمال عدا ما تحطم من المصفحات اليهودية التي بلغ عددها ١٣ مصفحة، وإن نتيجة هذه المعركة كانت تختلف عن غيرها من المعارك السابقة بوفرة الغنائم وتنوعها، وظهور أسلحة جديدة لم نعر على مثلها قبل ذلك، كمدافع مضادة للطائرات وللمصفحات في آن واحد، وصنوف من التجهيزات المتنوعة^(٥٣).

وأحكم العرب بذلك الحصار على مستعمرات اليهود في القدس، بل وقامت قوات عربية بالسيطرة على مستعمرة النبي يعقوب الواقعة على طريق القدس - رام الله، يوم ١٤ مايو، وفر منها اليهود حاملين جراحهم وقتلاهم.

وعندما صدرت الأوامر لقوات جيش الإنقاذ العربي بتسليم مواقعها للجيش الأردني، الذي أعلن الحرب رسمياً مع الجيوش العربية ضد إسرائيل يوم ١٥ مايو، انتهز اليهود الفرصة، وسيطروا على حي الشيخ جراح قبل أن تتمكن القوات الأردنية من التمرکز في مواقعها، بل وقاموا بشن عدة هجمات على المواقع العربية في القدس القديمة، وتوجهت كتيبة أردنية لتسلم مواقع باب الواد، وكانت برئاسة ضابط إنجليزي وهو الميجر سليد^(٥٤)، فقام هذا الميجر بتسليم الضفة الجنوبية عبر باب الواد إلى

(٥٢) وائل عبيد: تاريخ العرب الحديث، ص ٢٤٨، ٢٥٥.

(٥٣) مذكرات فوزي القلقجي: نقلاً عن كتاب الفريق عفيف البرزي، التحرير، ص ٥٦.

(٥٤) كان الجيش الأردني حينذاك يضم العديد من الضباط الإنجليز على رأسهم جلوب باشا القائد العام للجيش الأردني، واستمر هذا الوضع حتى سنة ١٩٥٦م حينما قام الملك

الصهيانية، كما سلم لهم بيت محيسر وسيرسي التي طردهم العرب منها قبل ذلك، وبذلك تم فك الحصار العربي المفروض على التجمعات اليهودية بالقدس .

ولا أدري كيف سلمت السلطات الأردنية مواقع بهذه الأهمية لضباط إنجليز، والكل يعلم بأن الإنجليز هم الذين زرعوا اليهود في فلسطين، وساعدوهم على اغتصابها. فهل كانت السلطات الأردنية تجهل ذلك، أم كانت تعلم ولكنها تنق في هؤلاء الضباط ؟ وهذا خطأ فادح كلف العرب الكثير في هذه الحرب، وخاصة في ميدان القدس، ولعل هذا ما دفع كثيراً من المؤرخين العسكريين إلى اتهام السلطات الأردنية بالخيانة وموالة اليهود، والتآمر معهم ضد باقي الجيوش العربية، وأدت هذه الاتهامات إلى وجود صدى لها عند بعض الشباب العرب، وهذا ما دفع بعضهم إلى اغتيال الملك عبدالله فيما بعد .

إلا أننا نتحفظ كثيراً، ولا نميل إلى اتهام البعض بالخيانة، قد نتهمه بالخطأ أو بالجهل بالنواحي العسكرية، أو عدم الحفكة السياسية، إلا أن تهمة التآمر والخيانة يصعب علينا إصدارها، إلا مع وجود وثائق مؤكدة تثبت ذلك وتؤيده^(٥٥) .

وفي يوم التاسع عشر من مايو تمكنت كتيبة عربية من قوات جيش الإنقاذ، بقيادة ضان جويلد، من طرد اليهود من حي الشيخ جراح، بعد إمتارهم بوابل من قذائف المدافع والرشاشات، وتم انسحاب الكتيبة العربية بعد ذلك، لتحل محلها كتيبة أردنية كانت بقيادة الضابط نواف جبر الحمود، وشتان ما بين قائد عربي تجري في عروقه دماء العروبة، وضابط إنجليزي نشأ على حب الصهيانة واليهود، مهما تظاهر بغير ذلك .

وقد خاضت الكتيبة الأردنية، وما جاء لها من إمدادات أخرى، معركة هامة مع القوات الصهيونية عند باب الواد، في أواخر مايو بعد هزيمة اليهود على يد الجيش العربي وموقعه اللطرون، ويبدو أنهم أرادوا التآمر لما حدث لهم في موقعة اللطرون، بضرب القوات العربية المرتكزة عند باب الواد^(٥٦) .

وتصدت القوات العربية للهجوم اليهودي، وقتلت من اليهود المئات، وجرح

الحسين بن طلال بطرد جنوب ومعاونه من الإنجليز وتعريب قيادة الجيش الأردني،

أحمد يوسف التل، بطل معركة القدس، ص ١١١ - ١١٣ .

(٥٥) صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٥٦) أنور الجندي : العالم الإسلامي، ص ٢٢٣؛ موسوعة ويكيديا الحرة.

أكثر من ألف، وخسر الجيش الأردني عشرين شهيداً^(٥٧).

وأدت هذه المعركة إلى نجاح الكتيبة السادسة من الجيش الأردني في إحكام حصار الحي اليهودي في القدس القديمة، واستسلام من فيه، وأخذ الشباب المقاتلين فيه أسرى إلى معسكر الأسرى عند منطقة أم الجمال - كما سبق وذكرنا - .

كما أصبحت باقي التجمعات اليهودية بالقدس تحت الحصار العربي، وكان عدد من بها من اليهود يبلغ مائة ألف، وكانوا مهددين إما بالقضاء أو الاستسلام، حتى أنقذتهم الدول الكبرى المتآمرة مع اليهود، وفرضت هدنة على العرب واليهود يوم ١١ يونيو سنة ١٩٤٨م، وتم تعيين الكونت برنادوت وسيطاً دولياً من قبل هيئة الأمم المتحدة لمراقبة الهدنة، أو بمعنى أدق مراقبة التزام العرب بالهدنة وغض الطرف عن انتهاكات اليهود لها. بل وإنقاذ يهود القدس من مصيرهم المحتوم الذي كانوا سيتعرضون له في حال عدم انعقاد الهدنة^(٥٨).

ولا أجد وصفاً لهذا الموقف أبلغ مما ذكره عبدالله التل^(٥٩) في كتابه كارثة فلسطين فقال: " إن الحكومة الأردنية لها دور كبير في الضغط على الدول العربية لقبول الهدنة، ورغم ذلك فليس هناك جريمة أكبر من موافقة جامعة الدول العربية على شروط الهدنة التي قدمها برنادوت بدون قيد أو شرط، فقد وافق أعضاء اللجنة

(٥٧) قال بن جوريون أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل في يونيو سنة ١٩٤٩م عن هذه المعركة: " لقد خسرننا في معركة باب الواد وحدها أمام الجيش الأردني ضعتي قتلانا في الحرب كاملة " محمد حسين هيكال، العروش والجيش، ص ٨٩.

(٥٨) د. حسين شريف : المفهوم السياسي، ج ٢ ص ٣٥.

(٥٩) كان عبدالله التل قائداً عسكرياً ومفكراً إسلامياً، وكان أحد قادة الجيش الأردني في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، وخاض العديد من المعارك في القدس، وعين حاكماً على القدس العربية بعد انتهاء الحرب سنة ١٩٤٨ / ١٩٤٩م، وله كتاب كارثة فلسطين الذي اتهم فيه القيادة العربية بصنع الهزيمة، وله كتاب آخر بعنوان الألفرد اليهودية في معازل الإسلام، وأدت كتاباته الجريئة، وآرائه الحرة، إلى صدامه مع السلطات الأردنية فتوجه إلى مصر، وعاش بها لاجئاً لمدة ١٦ سنة، حتى أصدر الملك حسين قانون العفو العام سنة ١٩٦٥م، فعاد إلى الأردن، وأخذ يعمل بنشاط في مجالات الدعوة الإسلامية، حتى توفي في أغسطس سنة ١٩٧٣م. أحمد يوسف التل، عبدالله التل بطل معركة القدس، دار الفرقان، سنة ١٩٩٩م.

السياسية على أكبر خطيئة في تاريخ الحروب بالشرق العربي، ألا وهو السماح بفك الحصار عن مدينة القدس، وإتخاذ مائة ألف يهود كانوا على وشك التسليم أو الموت جوعاً وعطشاً، وافقوا قبل أن يفكروا قليلاً في نتاج ما أقدموا عليه، وافقوا قبل أن يفكر أحدهم فيما سيقع بعد عشرة أيام فقط من ذلك اليوم المشؤم، وافقوا لأنهم وثقوا في وفد الأردن في اللجنة السياسية، وصدقوا رئيس الحكومة الأردنية الخائن. وافقوا قبل أن يفهموا أن القدس هي كل شيء في فلسطين وأن من يحتلها ينهي المعركة كلها^(١٠).

وكان من شروط الهدنة أن تقوم جمعية الصليب الأحمر الدولي بتزويد القدس بالماء والمؤن خلال فترة الهدنة، وتفتح طريق تل أبيب - القدس لهذه الغاية، وكانت هذه الهدنة بمثابة إنقاذ لليهود، ليس في القدس فحسب، بل في فلسطين كلها .

القدس أثناء الهدنة الأولى :

بدأ سريان الهدنة يوم ١١/٦/١٩٤٨م، وبما أن الملك عبدالله كان أول الموافقين عليها - بل إن قادة جيشه الإنجليز أمروا القوات الأردنية بعدم إطلاق النار على اليهود قبلها بعدة أيام، والاحتفاء بصد هجماتهم - فقد قام الملك عبدالله بزيارة القدس في أول أيام الهدنة، وكان موافقاً الجمعة حيث صلى في المسجد الأقصى، وبعد الصلاة وتحية أهلها أصدر أمراً بتعيين أحمد حنم باشا حاكماً عسكرياً للقدس، وترقية بعض الضباط الذين أبلوا بلاءاً حسناً في الدفاع عن القدس^(١١).

وفي اليوم التالي زار القدس الوسيط الدولي المشرف على الهدنة، وهو برنادوت، واطلع على الحالة الحربية فيها، وكيف أن القوات العربية تطوقها من جميع الجهات، ولولا الهدنة لسقطت في قبضة العرب كلها في خلال أيام قليلة. وتم عقد اجتماع بين برنادوت وقائد الفرقة الرابعة بالجيش الأردني وهو لاشي الإنجليزي^(١٢).

(٦٠) عبدالله النل : كارثة فلسطين، ص ١٨٨ إبراهيم شكيب : حرب فلسطين، ص ١٠٣.

(٦١) لم تعجب هذه الترتيبات جلوس باشا قائد الجيش الأردني، وحاول تعطيلها، بل ورفى بعض الضباط الذين لم يشاركوا في الحرب، ربما مكافأة لهم على عدم إيذاء اليهود إخوانه، عبدالله النل، ص ٢١٠.

(٦٢) كانت الكتبية السلسلة الموجودة بالقدس تتبع الفرقة الرابعة، لذلك اجتمع برنادوت مع قائدها للتحادث حول القدس؛ عفيف البرزي، لتحرير في قصص المستعصرين، ص ٥٨ - ٦٣.

ولم ينشغل الطرفان سوى بكيفية إمداد الأحياء اليهودية بالقدس بالمياه والمؤن^(٦٢)، وعين برنادوت مراقبين للقدس قاموا بتخطيط الحدود بين العرب واليهود في القدس، ووضع الخرائط .

وبدأت قوافل اليهود بتموين الأحياء اليهودية بكميات وفيرة من المؤن والغذاء، بل والسلاح أيضاً، تحت سماع وبصر المراقبين الدوليين دون رقابة أو تفتيش .

وفي ١٩٤٨/٧/٤م وضع برنادوت مقترحاته لحل مشكلة فلسطين، وكان فيها ما يخص القدس، وهو أن تضم القدس إلى المنطقة العربية، على أن يكون للجالية اليهودية فيها بلدية مستقلة استقلالاً ذاتياً، وتتخذ التدابير اللازمة لحماية الأماكن المقدسة .

إلا أن العرب رفضوا هذه المقترحات، لأنها ترمي إلى قيام دولة يهودية في فلسطين، وتسمح باستمرار الهجرة الصهيونية، كما رفضها اليهود لأنها تأخذ منهم القدس والنقب، وتعطي العرب حق الإشراف على الهدنة.

ونجح اليهود خلال فترة الهدنة في شق طريق جبلي إلى القدس، استطاعوا من خلاله نقل الأسلحة الثقيلة والإمدادات العسكرية إليها، وكذلك تقوية مراكزهم الدفاعية فيها، كما أقاموا محطة كهرباء ومياه في أحيائهم بالقدس، حتى لا يحتاجون إليها من خارجها. وكل ذلك تحت سماع وبصر برنادوت ورجاله، وقادة الجيش العربي الأردني من الإنجليز.

أما ما فعله الجانب العربي في القدس : فقد قام بإعادة بناء بعض الاستحكامات في برج داود ومنطقة الثوري، وإعادة تمركز بعض سرايا وتعليمها.

بينما لم تقدم الحكومة العربية أي إمدادات جديدة، أو ذخائر أو أسلحة لغواتها، بحجة التزامها ببنود الهدنة، رغم علمهم بما يفعله اليهود، وإن لم يكونوا يطمون فهذا أدهى وأمر.

ومما حققه اليهود من مكاسب في القدس أثناء الهدنة، بتأمر الضباط الإنجليز، هو موافقة حكومة عمان على اعتبار جبل سكوبس وما عليه من مؤسسات، وهي مستشفى هداسا والجامعة العربية، منطقة دولية يرفع عليها علم هيئة الأمم المتحدة، وتجرد من السلاح، بعد أن كتبت تلك المنطقة في حكم الخاضعة لسلطان العرب، نظراً لانقطاعها عن الاتصال بيهود القدس الجديدة .

ووقع هذه الاتفاقية لاث الإنجليزى قائد الفرقة الأردنية الرابعة، الذي وافق

على بقاء اليهود في هذه المنطقة في شكل بوليس وهو يعلم أنه لا فرق بين بوليس اليهود وجيشهم، كما وافق لاثس على تموين اليهود المرابطين في تلك المنطقة، وتبديلهم من يهود القدس مرة في كل أربعة أسابيع، بل ضم إليها أيضاً قصر المطلع المجاور للجبل، وقرية العيسوية، لتصبح بذلك ثكنة عسكرية يهودية في قلب القدس العربية^(٦٤).

القدس بعد تجدد القتال :

رفض العرب خطة برنادوت لتمديد الهدنة، برغم عدم قيامهم بأي إجراءات لتحسين وضعهم العربي في فلسطين، بينما وافق عليها اليهود برغم ما قاموا به من استعدادات، ربما ليظهروا أمام العالم بأنهم الطرف الضعيف، فتزداد معونات الدول الكبرى لهم ومساندتهم.

وانتهت الهدنة في الساعة الثامنة صباح الجمعة ١٩٤٨/٧/٩م، وبدأ اليهود يستعدون للهجوم على القدس القديمة، بعد أن كانوا محاصرين عند بداية الهدنة في القدس الجديدة، وكل ما فعلته قيادة اللواء الرابع الذي تتبعه الكتيبة السادسة المرابطة في القدس، أن أرسلت لهم تحذيراً من قرب وقوع الهجوم اليهودي، دون أن تمدهم بأي تعزيزات أو إمدادات^(٦٥).

واقتصرت الأعمال الحربية، في الأيام الأولى لنشوب القتال، على تبادل القصف بالرشاشات ومدافع الهاون بين القدس القديمة والقدس الجديدة، وسقط عدد كبير من قتال اليهود على ساحة الحرم الشريف، وأصابت إحداها قبة الصخرة، وكذلك كنيسة القيامة، ورد العرب بقصف منطقة الوكالة اليهودية ومقر قيادتهم في المسكوبية .

وكانت الأحداث تكشف كل يوم تأمر القادة الإنجليز مع اليهود. ولا أدري كيف كانت حكومة عمان ترضى بهذه الطعنات التي يوجهها هؤلاء الضباط إلى ظهور الجيش العربي في فلسطين، ومنها بعد تجدد الحرب : أمر جلوب بنقل السرية الثانية عشرة من مواقعها في جنوب القدس، لإضعاف القوات المصرية المدافعة عنه ، وسحب سرية من القدس القديمة وإرسالها إلى رام الله، دون أن يحاسبه أحد في حكومة عمان .

وفي مساء يوم ٧/١٢ قام اليهود بهجوم مفاجئ على منطقة باب الصعود والشيخ جراح، ومهدوا لهذا الهجوم بقصف شديد من مدافع الهاون، ودامت المعركة

(٦٤) عبدالله التل : ص ٢٣٤.

(٦٥) سعد بدير الحلواني: تاريخ كل العرب الحديث والمعاصر، دار النشر للثقافة والعلم،

الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص ٦٥ - ٦٧.

حتى الفجر، مع قوات الكتيبة الثالثة الأردنية التي ردتهم على أعقابهم دون أن يكسبوا شهيراً واحداً، وخسر اليهود عشرات القتلى والجرحى^(٦٦).

معركة مشيرم :

بعد هجوم اليهود السابق على مواقع الكتيبة الثالثة الأردنية اتفق ضباطها العرب مع قائد الكتيبة السادسة بالقدس عبدالله التل على القيام بهجوم مضاد على مناطق اليهود في حي مشيرم والمناطق المجاورة له، لأن احتلالها يؤدي إلى وصول القوات العربية إلى الأحياء اليهودية، وتطويق القوات اليهودية المرابطة في المسكوبية^(٦٧).

وادعى الضباط العرب أمام قاداتهم الإنجليز أن اليهود ميقومون بهجوم على الكتيبة الثالثة، لذلك سيبادرون هم ببدا الهجوم لتأديبهم، وفي فجر الجمعة ١٦/٧/١٩٤٨م بدأ العرب في قصف الأهداف اليهودية، ثم تقدم المشاة لطرد اليهود من قلاعهم ومنازلهم، وسط استماتة من اليهود المدافعين عن هذه المناطق، واستمر القتال حتى الثانية عشرة ظهراً، حيث أصدر القادة الإنجليز للجيش العربي قراراً بوقف القتال، وتهديدهم من بواصل القتال بوقفه ومعاقبته، وبذلك حرموا القوات العربية من نصر محقق كاد أن يتم، وإن كان العرب قد سيطروا على بعض المناطق، ولكن لم يحققوا الهدف الرئيسي وهو السيطرة على حي مشيرم^(٦٨).

ورد اليهود على هجوم العرب سريعاً، ففي مساء نفس اليوم الجمعة ١٦/٧ قاموا بهجوم شامل على القدس القديمة لاحتلالها، وبدأوا بقصف المدينة بجميع ما لديهم من مدافع ثقيلة وخفيفة، وخاصة ما وصلهم منها أثناء الهدنة، وشمل القصف جميع مناطق القدس القديمة وما حولها من أحياء عربية خارج السور .

وبدا زحف اليهود في الساعة الواحدة صباح ١٧/٧ متوجهين إلى الأبواب الرئيسية التي تؤدي بهم إلى المدينة القديمة، وتحقق أحلامهم في السيطرة على المسجد الأقصى وحائط المبكى وقبة الصخرة، وكانت مقدمتهم تحمل الألغام لنسف سور المدينة، وفتح ثغرات به للتسلل منها إلى الداخل، وانتظرت القوات العربية حتى اقترب اليهود من الأسوار، وأمطروهم ببوابل من القنابل والرشاشات، فاتفجرت الألغام التي يحملونها بينهم وتناثرت أشلائهم، وقتل الكثير منهم، وحاولت بقية القوات الهجوم على القوات العربية المدافعة، ولكن العرب تصدوا لهم في كافة المناطق،

(٦٦) موسوعة ويكبيديا الحرة.

(٦٧) حسن البدرى : الحرب في أرض السلام، ص ١٥٧ - ١٥٩.

(٦٨) عبدالله التل : ص ٢٧٤، محمد قاسم، للتاريخ الحديث والمعاصر، ص ٣٩٤.

وردوهم على أعقابهم .

وكرر اليهود الهجوم مرات عديدة حتى الصباح، ولكن تصدى لهم المدافعون عن المدينة من القوات العربية وأهل المدينة، كما ساهمت القوات المصرية في جنوب القدس في قصف الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، لتخفيف ضغطهم على القدس القديمة، حتى انسحب اليهود تاركين وراءهم ٢٢٥ قتيلًا وعشرات الجرحى، في حين استشهد من العرب ٢٣ شهيداً من الجيش والمدنيين، وما يقرب من خمسين جريحاً (٦٩).

وقد كشف هذا الهجوم عن مقدرة اليهود الحربية، وما وصل إليهم من معدات حربية ثقيلة لم تكن موجودة من قبل، مما يؤكد عدم احترامهم للهدنة وكلفة المواثيق الدولية. وسنمت المدينة من احتلال اليهود لها في هذه المرحلة من الصراع بين العرب واليهود.

القدس في الهدنة الثانية :

تدخل مجلس الأمن وقرر فرض هدنة ثانية بين العرب وإسرائيل، وقد قبل الطرفان الهدنة التي بدأ سريانها في القدس، اعتباراً من الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين، من صباح السبت ٧/١٧، وفي بقية أنحاء فلسطين اعتباراً من الساعة الخامسة بعد ظهر الأحد ٧/١٨ / ١٩٤٨ م .

وبرغم موافقة اليهود على الهدنة، إلا أنهم كانوا يتحينون الفرصة المناسبة لاحتلال القدس القديمة دون أي اعتبار للهدنة، ولذلك استبدلوا بقادهم في القدس ديفيد شاليتل، لفشله أكثر من مرة في هجومه على القدس قائداً جديداً هو موشيه ديان، وكلفوه بالإعداد لهجوم جديد لاحتلال القدس .

وبدأ ذلك الهجوم بالفعل في فجر يوم ١٦/٨/١٩٤٨ م (٧٠) وقاموا بقصف شديد بقنابل الهاون والمدافع الثقيلة، غير عابئين بالهدنة، أو وجود مراقبين دوليين، وكانت القوات العربية على أتم استعداد لصد الهجوم لعلمهم بغدر اليهود، وعدم احترامهم للاتفاقيات، فكانوا على أهبة الاستعداد، وانتظروا تقدم مشاة اليهود للفتك بهم،

(٦٩) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث، ص ١٤٨ عهده التل، ص ٢٨١ .

(٧٠) يوافق هذا اليوم - كما يزعم اليهود - عيد خراب هيكل سليمان، وهذا العيد يذكرهم بمآزيرهم المؤلم، ويدفعهم إلى التضحية والانتقام في سبيل مجددهم الغابر : محمد حسين هيكل، العروش والجيوش، ص ١٠١ .

وسلطوا عليهم نيران رشاشاتهم، فارتدوا خاسرين بعد أن قتل الكثير منهم .

ولكن القائد الجديد، موشيه ديان، لم ييأس من إخفاق هجومه على الجهات الأمامية للمقدس، فعاد الكرة مساء الثلاثاء ٨/١٧ بقصف منطقة النبي داود، شمال القدس، قصفاً شديداً، وكذلك مواقع القوات المصرية جنوب القدس، واستطاع اليهود احتلال جبل المكبر، والسيطرة على مواقع المصريين والأردنيين به، وكذلك دار الحكومة التي يقطنها مندوبوا الصليب الأحمر الدولي .

وقد ردت القوات العربية، ومعها المناضلون من قوات الجهاد المقدس، بهجوم مضاد في الساعة الرابعة فجر يوم ٨/١٨، وقصفت تجمعات اليهود، ومسكراتهم، كما قامت القوات المصرية بقصف الأحياء اليهودية التي جاء منها الهجوم، فتشتت شمل اليهود، وفروا مذعورين ليعتصموا بالكلية العربية، ووقع بعضهم أسرى، واستردت القوات المصرية والأردنية مواقعها في الثانية صباحاً .

وخسر اليهود في هذا الهجوم الفاضل أكثر من خمسين قتيلاً، من بينهم اثنان من كبار ضباط الهاجناه، باعتراف الإذاعة العربية في صباح ٨/٢٢، وغنمت القوات العربية كميات كبيرة من الأسلحة، بينما كان شهداء العرب عشرة فقط^(٧١).

وقد شهد الوسيط الدولي الكونت برنادوت بخرق اليهود للهدنة في بريقته إلى مجلس الأمن بتاريخ ١٩٤٨/٩/٥، ثم دعا إلى عقد اجتماع بين المراقبين الدوليين ومندوبي الطرفين في يوم ١٩٤٨/٩/٢٦ ثم الاتفاق فيه على جعل جبل المكبر منطقة دولية، ومنع دخول أي قوات مسلحة إليه .

وبرغم ما قام به برنادوت في تأييد المكاسب التي حصل عليها اليهود بالقوة، وفرض الأمر الواقع على العرب، إلا أن ذلك لم يكف اليهود منه، ورأوا أنه إذا ما شهد يوماً ما شهادة حق حول قيامهم بخرق هدنة، أو عدم احترام اتفاقية ما، فإنه يصبح معادياً لهم، ولذلك قاموا باغتياله يوم ١٩٤٨/٩/١٧ أثناء تجواله في الأحياء اليهودية بالمقدس، ومما يدل على تكبيرهم للمؤامرة : أنهم لم يصيبوا رئيس المراقبين الأمريكي الكولونيل بيجلي الذي كان مع برنادوت في نفس السيارة^(٧٢).

بالطبع نظارت السلطات اليهودية بالأسف العميق، واستتكرت الجريمة، ووعدت بالقضاء القبيح على الجناة، ناسية أن هذه العصابات تعمل بأمرها، وتحت سيطرتها، إلا أنها تنبرأ منهم في كل جريمة يقومون بها .

واكتلفت الدول الغربية بالأسف، حتى إن السويد نفسها، الذي ينتمي إليها

(٧١) عبدالله التل : ص ٣٢٨ ؛ محمد قاسم، التاريخ الحديث والمعاصر، ص ٣٩٤ .

(٧٢) صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين، ص ٣١٢ .

برنادوت، اعترفت بإسرائيل بعد هذه الحادثة بمدة قليلة، ولم تطالب بدم مواطنها، وهنا نتساءل : ماذا لو أن العرب هم الذين قاموا بهذا الحادث ؟

وكان برنادوت قد وضع مقترحات، قبل اغتياله، لحل مشكلة فلسطين نشرت بعد وفاته، وكان منها : وضع القدس تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة، وإنشاء إدارة دولية للمدينة تكفل الحرية للجميع . وقد رفضها اليهود لأنهم يحلمون بجعل القدس عاصمة لهم.

وفي نفس الوقت كنف اليهود اتصالاتهم بعمالهم من الضباط الإنجليز في الجيش الأردني، لإضعاف القوات العربية في القدس، ونجح كبير عمالهم وهو جلوب باشا قائد الجيش الأردني؛ في إقناع الملك عبدالله بإبعاد قائد القوات العربية في القدس عبدالله التل عن قيادتهم، وتعيينه في منصف الحاكم العسكري للقدس، وهو تغيير في ظاهره ترقية للتل، ولكنه في حقيقة الأمر إضعاف للجيش العربي، لأن الحاكم العسكري مهمته الإشراف على الأمور المدنية والأهالي، ولا سلطة له على القوات العربية، بل وألقى جلوب الكتيبة السادسة التي دافعت عن القدس أمام هجمات اليهود إلى قيادة اللواء الأول وقائده جولدي إنجليزي، لتعمل بإمرة الإنجليز^(٧٣).

كما سعى جلوب لإقناع الملك بحل قوات الجهاد المقدس الفلسطينية، التي تساعد القوات الأردنية في الدفاع عن القدس، وسحب أسلحتهم، ونجح في ذلك إلى حد ما، وطارد بعض زعمائها، وأمر بالقبض عليهم، وبذلك وجه جهود القوات الأردنية إلى محاربة إخوانهم الفلسطينيين، بدلاً من مطاردة اليهود والهجوم عليهم^(٧٤).

وقلت المناوشات بين العرب واليهود في القدس حتى ٣٠ نوفمبر ١٩٤٨م حيث تم عقد اجتماع بين المراقبين الدوليين ومندوبين عن الجيش العربي واليهودي، للاتفاق على إيقاف الرمي في القدس بناءً على أوامر مجلس الأمن، وتم في هذا

(٧٣) عبدالرحمن الراعي : في أعقاب الثورة المصرية، ص ٢٦٠ - ٢٦٢؛ أحمد التل، ص ٣٣٨.

(٧٤) أرسل جلوب لواءاً كاملاً مكوناً من ثلاث كتائب لمهاجمة قوات الجهاد المقدس في قرية نير الزيت برام الله ومصادرة أسلحتها، واتسحت هذه القوات إلى بيت لحم لتكون في حماية القوات المصرية، وعندما دخلت القوات الأردنية القرية لم تجد بها أحداً، ومن الغريب أن جلوب لم يرسل يوماً لواءاً كاملاً لمحاربة اليهود، وإنما أرسله لمحاربة العرب، عبدالله التل، ص ٣٦٦.

الاجتماع أيضاً وضع خرائط توضح مناطق كل طرف، والمناطق الدولية.

وأقيمت احتفالات أول عيد ميلاد للسيد المسيح بعد انتهاء الانتداب البريطاني، في ظل الهدنة واتفاق وقف إطلاق النار، وأشرف عليها الحاكم العسكري العربي الذي تقع المقدسات المسيحية تحت سلطانه، مما كان له أحسن الأثر عند الطوائف المسيحية على اختلاف مذاهبها^(٧٥).

وبدأت بعد ذلك الاتصالات السرية بين زعماء اليهود والملك عبد الله، للاتفاق على هدنة دائمة بشأن القدس بصفة خاصة، وبين الأردن وإسرائيل بصفة عامة^(٧٦).

وقد اقترحت الأردن على إسرائيل أن تردّ الأحياء العربية في القدس الجديدة، كدليل على رغبتهم بالتفاهم، ولكن الجانب اليهودي رفض ذلك، وطلب ترك مصير القدس القديمة والجديدة لمفاوضات مباشرة مع الملك، فرد الملك عبد الله عليهم بمقترح آخر وهو : أن تكون القدس القديمة للعرب والجديدة لليهود، وتترك باقي المسائل للمباحثات، وهكذا بدأت التنازلات العربية : وبرغم هذا رفض اليهود هذا المقترح أيضاً بقولهم : إن مسألة القدس دقيقة جداً، وتسبب إزعاجاً كبيراً لحكومة تل أبيب، ونحن نلقي مصاعب من الشعب اليهودي - الذي يعتبر القدس مدينة اليهود - أكثر من صعوبات حكومة جلالة الملك، لذلك نترك هذه المسألة الآن، خاصة وأن الأحياء العربية أصبحت مزحمة باللاجئين اليهود^(٧٧).

وهكذا كشف اليهود صراحة عن نيتهم في السيطرة على القدس كلها، وأعلنوا أنهم لن يفرطوا فيها، في الوقت الذي يرون تفریط العرب في أراضيهم وعدم إستماتتهم في الحفاظ على القدس كما يفعل اليهود .

وقد لمس اليهود، أثناء مفاوضاتهم مع الجانب الأردني، مدى ضعف الجانب

(٧٥) يحتفل المسيحيون الغربيون الكاثوليك بعيد الميلاد يوم ٢٤/١٢/٤٨، والشرقيون الأرثوذكس يوم ٧ يناير، والأرمن يوم ١٨ يناير.

(٧٦) ذكر بعض المؤرخين أن الاتصالات بين اليهود والملك عبد الله بدأت منذ فترة طويلة، وكان بينهم اتفاق على قرار التقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة، ولذلك لم تهاجم القوات الأردنية أي أراضٍ فلسطينية تخص إسرائيل في قرار التقسيم؛ لكرم محمد عدوان، مشروع تقسيم فلسطين في تقرير لجنة بيل الملكية، ص ٢٩ - ٣٥ .

(٧٧) عبد الله التل : ص ٤٥٢؛ علي أبو الحسن، دور بريطانيا في تهويد فلسطين، ص ٤١٥.

العربي (٧٨)، ولذلك قاموا في ١٩٤٩/١/٢٣ بإطلاق النار على المراكز العربية في دير أبي طور جنوب القدس، وردت القوات العربية عليهم، لكنها لم تستمر لعدم وجود ذخيرة لديها تكفي ساعة واحدة.

وزادت نبرة اليهود في التمسك بالقدس، فقد صرح موشيه دايان في ١٩٤٩/١/٢٣ بقوله: "إن القدس تربطها بإسرائيل روابط روحية، فهي هدف يهود العالم منذ آلاف السنين، بينما لا تربطها بالعرب روابط قوية، وإسرائيل مستعدة للمحافظة على جميع الأماكن المقدسة بما في ذلك مقدسات المسلمين، كانت القدس لنا وستبقى لنا".

وبذلك تغيرت لهجة اليهود بعد أن أفصح الجانب الأردني عن ضعفه، خاصة وأن كلا من الجانبين كان يستعد لمفاوضات، ردوس لعقد هدنة دائمة بين الطرفين، فأراد اليهود توضيح موقفهم قبل الذهاب إلى المفاوضات، وكان يجب على الجانب الأردني أيضاً ذلك، ولكن الملك عبدالله ساعد اليهود على تشدهم، بتصريحه لجريدة التايمز في ١٩٤٩/٢/٢٢ بشأن القدس فقال: ليس لي أي مطلب في القدس الجديدة، ولكني لا أوافق على منح القدس القديمة لليهود، أو جعلها دولية، وأنا لا أرى سبباً لجعل القدس دولية، وإن شئت الأردن مستعدة لضمان حرية الوصول إليها".

وكانت الحنكة السياسية تقتضي أن يطالب الملك بالأحياء العربية في القدس الجديدة، حتى يشغل اليهود عن أي مطامع في القدس الجديدة، ولكنه تطوع وتنازل عن هذه الأحياء ليتفرغ اليهود للمطالبة ببعض مناطق القدس القديمة، إن لم تكن كلها.

وسافر الوفد الأردني إلى ردوس يوم ١٩٤٩/٢/٢٨، برئاسة أحمد صدقي الجندي، وكله أمل في توقيع الهدنة خلال يومين أو ثلاثة، حسب التفاهات السابقة بين الملك واليهود، ظناً منه أن اليهود يحترمون ما اتفقوا عليه، ولكنه فوجئ في ردوس بمطالب يهودية كأساس لقبول الهدنة وهي:

(٧٨) حدث اجتماع بين الملك عبدالله واثنين من زعماء اليهود هما ساسون وموشيه دايان، في قصره يوم ١٩٤٩/١/٢٦م، وفيه قال الملك كاشفاً أوراقه لليهود: "أنت تعلم يا ساسون أننا لم نحاربكم، ولم نعتد على ما خصص لكم، وأنا الآن لا أصغي للتصالح خلفاني الإنجليز فهم أصدقائكم المخلصون، وقد أحجموا عن مساعدتنا، ولم يبعثوا لنا خرطوشة واحدة منذ نشوب الاضطرابات، وكانت نتقصنا الذخيرة ولا زال... عبدالله للكل: ص ١٤٦: موسوعة ويكيديا الحرة.

- ١- حرية المرور بطريق النطرون - القدس - تل أبيب .
- ٢- السماح لهم باستعمال سكة حديد تل أبيب - القدس .
- ٣- حرية المرور لمستشفى هداسا والجامعة العبرية في الجانب العربي .
- ٤- إزالة استحكامات جبل المكبر التي شيدها الجيش العربي أثناء الهدنة المؤقتة .
- ٥- حرية المرور بحائط المبكى .

وأسقط في يد الوفد الأردني، وطلب الانتظار حتى يستفسر من عمان، وظلت المفاوضات في أخذ ورد حتى يوم ١٩٤٩/٤/٣م، حيث تم التوقيع على الهدنة الدائمة، ونجحت إسرائيل أثناء المفاوضات باحتلال النقب والوصول إلى خليج العقبة بعد انسحاب القوات الأردنية منها، واحتلال منطقة المثلث بعد تأمر الملك عبدالله واليهود على الجيش العراقي الذي كان مرابطاً بها^(٧٩).

وتضمنت اتفاقية ردوس إهداراً للحق العربي في القدس، مثل غيرها من المناطق العربية، وتم بموجبها تسليم اليهود قسماً كبيراً من الأراضي العربية جنوب القدس أهمها : أراضي قرية صور باهر واستحكاماتها الأمامية، وثلاثة أرباع جبل المكبر، ونصف قرية بيت التي تعتبر خط اللإفاع العربي جنوب القدس، وكذلك تسلموا خط سكة حديد القدس - تل أبيب دون مقابل^(٨٠).

وهكذا حصل اليهود على أراضي من القدس لم تطزها أقدامهم، وبقيت القدس القديمة في يد العرب، حتى إشعار آخر يحقق فيه اليهود حلمهم بالسيطرة عليها، وقد تحقق بالفعل في يونيه ١٩٦٧م، وما زالوا حتى الآن بها بعد أن جعلوها عاصمة لدولتهم، ويسعون إلى تهويدها، وطمس معالمها العربية، بل والسعي إلى هدم المسجد الأقصى لبناء الهيكل المزعوم، فماذا نحن فاعلون ؟؟

(٧٩) وثائق المقاومة الفلسطينية : ص ٢٢٠ - ٢٢٣، وانظر: محمد حسين هيكل،

العروش والجيوش، ص ١٥٩ - ١٦٢.

(٨٠) موسوعة ويكيبيديا الحرة، وانظر: أحمد يوسف التل، معركة القدس، ص ٤٥٣.

المصادر والمراجع

- ١- د. إبراهيم شكيب : حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، رؤية مصرية، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .
- ٢- أحمد يوسف التل : عبدالله التل بطل معركة القدس، دار الفرقان، سنة ١٩٩٩م.
- ٣- إسماعيل أحمد واغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، دار المريخ، القاهرة.
- ٤- أكرم محمد عدوان : مشروع تقسيم فلسطين في تقرير لجنة بيل الملكية، سنة ١٩٣٧م، بحث منشور بمجلة الجامعة الإسلامية بغزة، المجلد العاشر، العدد الأول سنة ٢٠٠٢م
- ٥- أنور الجندي : العالم الإسلامي ، الكتاب اللبناني ، ط ١، سنة ١٩٧٩م .
- ٦- حسن البديري : الحرب في أرض السلام (دار الوطن العربي - القاهرة ١٩٧٦م).
- ٧- حسن الخولي : سياسة الاستعمار ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، د ت .
- ٨- حسين شريف : المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥م .
- ٩- سعد بدير الحلواني : العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩م، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٥م
- ١٠- سعد بدير الحلواني : تاريخ كل العرب الحديث والمعاصر، دار البشر للثقافة والعطوم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>
- ١١- صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين .
- ١٢- عبدالله التل : كارثة فلسطين، القاهرة ١٩٥٩م .
- ١٣- عبدالحميد الثاني (السلطان) : مذكرات السلطان عبدالحميد، ترجمة محمد حرب عبدالحميد، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٨م .
- ١٤- عبدالرحمن الرفاعي : في أعقاب الثورة المصرية، الجزء الثالث، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م .
- ١٥- عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٩٠م .
- ١٦- عبدالوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .
- ١٧- غيف البرزي : التحرير في قفص المستعمرين، دمشق، سنة ١٩٨٨م .
- ١٨- علي أبو الحسن : دور بريطانيا في تهويد فلسطين، دار الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م .
- ١٩- محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش ، القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .
- ٢٠- أحمد قاسم : التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ط ٢ ، سنة ١٩٨٦م.

- ٢١- مذكرات مفتى فلسطين : جريدة أخبار اليوم المصرية، الأعداد (١٠ - ١٢) بتاريخ ١٩٥٧/١٠/٥ م .
- ٢٢- مذكرات هرتزل : من شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) .
- ٢٣- موسوعة ويكيبيديا الحرة .
- ٢٤- وائل عبيد : تاريخ العرب الحديث ، الرياض ، سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م ، د.ت.
- ٢٥- وثائق المقاومة الفلسطينية : مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٦٨م.

